



لَا تُكْتَبُ شَوْقِي ضَعْفًا

عصر الرواية والرواية

ليبيا - تونس - صقلية



تاريخ
الأدب
العربي

عصر
الدول والإمارات
لِيُبَيِّنَا - تُونِسْ - صَقْلِيَّة

عصر
الدول والإمارات
لُيُبَيَّا- تُونِسْ- صَقْلِيَّة

تأليف
الدكتور شوقي ضيف



shiabooks.net

رابطہ بتیل < mktba.net



منشورات ذوي القربى

| | |
|---------------|----------------------------|
| اسم الكتاب : | تاريخ الادب العربى (ج ٩) □ |
| المؤلف : | شوقى الضيف □ |
| الناشر : | ذوي القربى □ |
| الطبعة : | الأولى □ |
| تاريخ الطبع : | ١٤٢٨ □ |
| الكمية : | ١٠٠٠ نسخة □ |
| المطبعة : | ستاره □ |
| شابك ج ٩ : | ٣- ١٩٢- ٥١٨- ٩٦٤- ٩٧٨ □ |

مركز التوزيع : قم - پاساژ قدس - الطابق الاول - رقم ٥٩ - تليفون : ٧٧٤٤٦٦٣- ٢٥١- ٩٨+

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي قبل العصر الحديث خاص بليبيا وتونس وصقلية، وقد بدأته بليبيا، فتحدثت عن جغرافيتها ومناطقها: طرابلس وفزان وبرقة، وعن زروعها وصناعاتها وتجارتها وموانئها، كما تحدثت عن تاريخها القديم وفتح العرب لها، وسقوط شمس الإسلام بديارها، وعن ولايتها أيام الأمويين والعباسيين وتبعية ولاية طرابلس وقسمها الغربي للدولة الأغلبية، وتبعية برقة وقسمها الشرقي لوالى مصر، وتبعيتها معا للدولة البيدية الفاطمية في المهديّة والقاهرة، وتسترجع الدولة الصنهاجية في القيروان طرابلس، ويؤسس بها لنحو نصف قرن بنو خزرون إمارة لهم، وتكسح ليبيا الهجرة الأعرابية الكبرى في منتصف القرن الخامس الهجرى، وتتبع برقة مصر في أيام الأيوبيين والمماليك، بينما تتبع طرابلس الدولة الحفصية في تونس، وتتأسس بها دولة بنى عمار في القرن الثامن الهجرى (٧٢٤ - ٨٠٣ هـ) وتسترجعها الدولة الحفصية، ويستولى عليها فرديناند ملك إسبانيا سنة ٩١٦ هـ/١٥١٠ م ويُسَلِّمها بعده شارل الخامس إلى فرسان مالطة سنة ٩٣٦ هـ/١٥٣٠ م ويطردهم منها الأسطول العثماني سنة ٩٥٨ هـ/١٥٥١ م، وتصبح ولاية عثمانية ويتولاها دايات مختلفون حتى إذا وليها أحمد القرماني سنة ١١٢٣ هـ/١٧٩٥ م جعلها وراثية في أبنائه. وفي سنة ١٢٥١ هـ/١٨٣٥ م استردتها الدولة العثمانية من الأسرة وحولتها من إيالة إلى ولاية، وبذلك تبدأ ليبيا عصرها الحديث.

وقد سكن ليبيا - من قديم - سلاطات من البربر، ويقسمها النسابون إلى برانس، وهم الحضر أهل المدن، وبثروهم الرّحل. أهل الهضاب والصحارى، ونزلها قديما الفينيقيون والإغريق والرومان وبعض اليهود والنزوح، ثم نزلها العرب ومن تألفت منهم جيوشهم من أهل إيران والعراق والشام ومصر، وهاجر إليها أندلسيون كثيرون بين القرنين السابع والحادى عشر للهجرة. ونزلتها حاميات تركية في العهد العثماني، وألقى إليها القراصنة ببعض أسراهم المسيحيين، وأسلم منهم كثيرون. وكل هذه العناصر انصهرت في البوتقة الليبية وظل العنصر

الليبي البربري - مع ما حدث له من بعض التطور - هو العنصر الغالب على كل العناصر الوافدة على دياره. ومن قديم كانت التجارة رائجة رواجاً كبيراً في برقة وطرابلس، مما جعل الإغريق يحتلون الأولى ويؤسسون بها مدناً تجارية متعددة، كما جعل الفينيقيين والرومان يحتلون - بدورهم - طرابلس. وكان الساحل الشمالى يموج بمصايد الأسماك فيه، وكان ما وراءه من المدن والسهول والوديان يكتظ بأشجار الزيتون والنخيل والفواكه والزروع والمحبوب، واكتظت الواحات بالنخيل وأنواع التمور والفواكه، وامتألت الهضاب والصحارى بمراعى الأغنام والأنعام. وتلتقى بصناعات يدوية كثيرة وخاصة صناعة النسيج والزجاج وعصر الزيت ودبغ الجلود وقطع الرخام: طيبات كثيرة من الرزق. وكان البربر وثنين ونزل بديارهم اليهود وكانت لهم بطرابلس حارة خاصة بهم، واستجاب بعض أهل المدن في عهد الرومان وبيزنطة للمسيحية، وكان بينهم أرثوذكس يتبعون كنيسة القبط في الإسكندرية وكاثوليك يتبعون كنيسة روما البابوية. وما إن نزل الإسلام ليبياً حتى أسرعت جماهيرها إلى اعتناقه، وآثرت دأبها مذهب مالك السنى واعتنق المذهب الإباضى جبل نفوسة وبعض أهل طرابلس. ومعروف أن الدولة العثمانية كانت تعمل على إشاعة مذهب الإمام أبى حنيفة في الولايات التابعة لها، غير أن مذهب مالك ظل في ليبيا - مثل جميع بلاد المغرب - هو المذهب العام للجماهير الليبية. وقد نزع كثير من أهل ليبيا إلى الزهد، وشاعت بينهم في الحقب المتأخرة الطرق الصوفية السنية.

وأخذت الحركة العلمية تنشط في ليبيا منذ الفتح، إذ لم يكن الفاتحون غزاة يتفنون المغانم، إنما كانوا مجاهدين في سبيل الله يتفنون نشر دينه في أرجاء الأرض، ولذلك كانوا بمجرد الفراغ من الفتح يتحولون معلمين يهدون أهل الشعوب المفتوحة للإسلام وتعاليمه مع تحفيظهم لبعض آيات وسور من الذكر الحكيم، وسرعان ما كانوا ينشئون لهم الكتاتيب - كما حدث في طرابلس - يعلمونهم فيها مبادئ القراءة والكتابة ومحفظونهم القرآن ويرشدونهم إلى تعاليم الإسلام. وأخذت حلقات العلماء تكثر في المساجد بالمدن والقرى، وبالتدريج أخذوا يعنون بتفقيه الناس في الدين وتعريفهم بالعربية وقواعدها السديدة في النطق والتعبير. ولم يلبث أن رحل إلى المشرق بعض الليبيين في طلب العلم. واشتهر في كل مدينة ليبية بعض العلماء، وظهر في كل علم أئمة كبار، ونمت العلوم اللغوية والإسلامية. ودار الزمن دورات، وازدهرت تلك العلوم في عهد الدولة الحفصية وساعد على ازدهارها نشوء المدارس والزوايا، وخدمت الحركة العلمية في العهد العثماني، أو بمهارة أدق أصابها شيء من الركود.

وإذا أخذنا نراجع العلوم والعلماء على مر الزمن لاحظنا أن ليبيا لم تعرف بنشاط في علوم الأوائل ولكنها عرفت ذلك في العلوم اللغوية والدينية، إذ لمع فيها - طوال القرون الإسلامية - علماء مختلفون مثل الأجنادى اللغوى في القرن الخامس الهجرى ومؤمن بن فرج

المقرئ في نفس القرن الخامس والمقرئ على بن عبد الحميد العوسجي في القرن العاشر وفي التفسير الخروبي في نفس القرن العاشر. ونيف في الحفاظ المحدثين أسرة أحمد بن صالح العجلي في القرن الثالث وابن زكرون وأحمد بن نصر الداودي في القرن الرابع وابن عبيد في القرن السابع، ولمع في الفقه السنن موسى بن عبد الرحمن القطان في القرن الثالث وابن المنري في القرن الخامس وعمران بن موسى في القرن السابع والزليطني في القرن التاسع، وعين نيف في الفقه الإباضي عمرو بن النفوس في القرن الثالث، وأحمد بن بكر النفوس مؤسس جماعة الغزابة في القرن الخامس وعلى بن مخلف التميمي في القرن السادس والجيطالي والشماسي في القرن الثامن. وظهر بليبا بعض المؤرخين.

وقد تربت ليبيا سريعا لكثرة من نزل بها من القبائل العربية ومن الجند الناصرين للإسلام، وأكملت تعريها هجرة الأعراب الكبرى من بني سليم وبني هلال في منتصف القرن الخامس الهجري، إذ امتزجت عشائر القبيلتين أو بعبارة أدق من استقر منها في ليبيا بأهلها من البربر، وأصبحوا شعبا عربيا كبيرا في تقاليده وعاداته وملابسه ومطاعمه وأفراحه وأحزانه وأخلاقه وشيمه وفروسيته ومروءته ونجدته، وكان طبعهما أن تنتصر العربية لغة الدين والثقافة أثناء ذلك على اللغة البربرية انتصارا كاملا، ويشهد الرحالة الكبير العبدري لأهل برقة بالفصاحة، ويؤكد أنهم كانوا - حتى زمنه - في آخر القرن السابع الهجري - لا يزالون يتكلمون بالفصحى بأنصح وأدق مما ينطق بها ويتكلمها أهل الحجاز، ولا تزال لغة برقة - إلى اليوم بشهادة بعض المعاصرين - قريبة قربا شديدا من أمها الفصحى. ولم تحدث في ليبيا نهضة أدبية واسعة قبل عصرها الحديث، ومرجع ذلك - في رأينا - إلى أنه لم ينشأ بها دولة ترعى الأدب والأدباء، ولا نشأ بها ديوان إنشاء يحدث فيها حركة ثرية أدبية، ولا كان فيها رعاية للشعر يجزلون العطاء للشعراء. ولمع فيها بأخرة من القرن الثالث الهجري شاعر طرابلسي يسمى خليل بن إسحق ويلحق بعاشية العبيدين في عاصمتهم مدينة المهدية، ولمع بها في القرن السابع الهجري فتح بن نوح الإباضي وابن أبي الدنيا وابن معمر، كما لمع في العهد العثماني الطهلول الطرابلسي وله ديوان في المديح النبوي، وألمع شاعر بعده أحمد بن عبد الدائم. وتذكر كتب التراجم - من حين إلى آخر - لبعض الكتاب الليبيين رسالة أو مقامة مكتفية بمثل هذه الإشارة دون أن تعرضها على القارئ، وكان فتح بن نوح الإباضي نائرا مجيدا، كما كان شاعرا مجيدا.

وتركّت ليبيا إلى القطر التونسي قلب إفريقية النابض، فتحدثت عن جغرافيته وتاريخه المفرق في القدم وفتح العرب له واعتناق أهله الدين الحنيف وعن ولاته الأولين وفي مقدمتهم عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان وحسان بن النعمان مؤسس مدينة تونس وموسى بن نصير قاتح الأندلس. ومن أهم ولائها في القرن الثاني. عبدالرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع المستولى على جزيرة قوصرة في البحر المتوسط. ومن ولائها بعده يزيد بن حاتم المهلبى وقد أحدث بها حركة أدبية نشيطة. ولم يلبث أن تولاه إبراهيم بن الأغلب وجعلها الخليفة هرون الرشيد وراثية في أبنائه، وافتتحت تلك الدولة صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م ونشرت بها أضواء الإسلام والعروبة كما نشرت في مالطة بعد فتحها سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م. وتخلّفها الدولة العبيدية سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م إلى أن انتقل المعز العبيدى الفاطمى إلى مصر سنة ٣٦١هـ/٩٧١م وخلفه في الإقليم التونسي الدولة الصنهاجية وظلت تستشر ولاءها للدولة الفاطمية في القاهرة إلى أن أعلن حاكمها الصنهاجى المعز بن باديس استقلاله عن مصر سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م وقيل بل في سنة ٣٩ أو أربعين، مما جعل الخليفة الفاطمى المستنصر يسلط عليه أعراب بنى هلال وسليم، وكانوا قد نزلوا شرقى الصعيد وعاثوا فيه فساداً ففزعوا إلى ليبيا وإفريقية التونسية كجراد منتشر، ونازلوا المعز واضطروه إلى الانحياز إلى مدينة المهدية، واستقل بعض الولاة بمدنهم وأقاليمهم. وبذلك شاع في إفريقية التونسية نظام أمراء الطوائف مثل بنى جامع الملاليين في قابس وبنى خراسان في تونس. وفي سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م نزل الساحل التونسي ومدينة المهدية وجارّ الثاقب النورمانى وطرده عبد المؤمن الموحدى بعد اثنتى عشرة سنة، وعاث في أرجائها قراقوش وابن قرانكين وابنا غانية، وأنقذ البلاد منهم الموحدون والدولة الحفصية، وعاشت لمهد الحفصيين في رخاء وأمن، وحاصر تونس لويس التاسع وقبّر تحت أسوارها، وتهضت البلاد نهضة علمية وأدبية طوال ثلاثة قرون، وأغار عليها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٥م وخلصها منه بعد نحو أربعين عاما الأسطول العثمانى سنة ٩٨١هـ/١٥٧٣م وتبعت الدولة العثمانية، وتوالى عليها البايات، ومن خيرهم مراد باى وأسرته، والباى حسين بن على وأسرته.

ويزخر المجتمع التونسى - بجانب سلالات البربر - بعناصر جنسية كثيرة: فينيقية وقرطاجية وزنجية ويهودية ورومانية وألمانية من الوندال وبيزنطية وعربية ومن امتزج بهم العرب من إيران والشام ومصر وأيضاً عناصر أندلسية وتركية ومسيحية ممن جلبهم القراصنة، وامتزجت هذه العناصر وكونت الشعب التونسى وظل للعنصر البربرى فيه الغلبة مع ما حدث

له من صور تطور مختلفة إذ ظل يفرض هويته وشخصيته على كل ما وفد عليه من عناصر. وهياً الإقليم التونسي دائماً لسكانه رخاء واسعا قديماً وحديثاً من الزروع وأشجار الزيتون والنخيل من الفواكه والصناعات مثل صناعة الزجاج والبلور والحزف وعصر الزيت والمنسوجات والسجاجيد والوراقة وكل ما يلزم المنشآت العمرانية من فسيفاء وتفنن في الزخرفة وضروب التجارات من منتوجاتها ومنتوجات ما يرد عليها من إفريقيا السوداء ومن أوروبا إذ كانت سوقاً عالمياً ضخماً. وأهلها ذلك لرفه واسع في الحياة وفي المطعم والملبس ولاحتفالات عظيمة بالأعياد ولاهتمام بالموسيقى والعزف على آلات الطرب والفناء في الحضر وعند أهل الدير. وحظيت المرأة في المجتمع التونسي بمكانة كريمة جعلتها تستشعر كرامتها وشخصيتها إلى أقصى حد، كما جعلتها تستشعر حمايتها لوطنها حين تدلّهم به الخطوب، مع برهنتها على حصانتها وكياستها السياسية. وكان البربر - قديماً - وثنين ونزل بينهم يهود في القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الأول بعده، وحاولوا نشر ديانتهم فيهم ولم يتبعهم إلا القليل. واستولى على ديارهم الرومان وحاولوا - كما حاولت كنيسة الإسكندرية - نشر المسيحية بينهم، وبُنيت بعض كنائس وأسقفيات، واعتنقها بعض البربر في المدن الشمالية، وظلت عناصر مسيحية - فيها بعد - تنزل البلاد وخاصة من الصقالية ومن كان يجلبهم القراصنة من البحر المتوسط. والإسلام هو الدين الوحيد الذي عم إفريقيا التونسية بعد الفتح العربي بحيث أصبح دين الأمة التونسية - بل الأمة البربرية جميعاً - لبساطته وتحريره الشعوب من الظلم والاستعباد ومحوه القوارق الطبقية والاجتماعية بين أفراد الشعوب. وكانت إفريقيا التونسية دائماً سنية، واختارت مذهب مالك الفقهى وعاش بجانبه المذهب الحنفى حتى نهاية القرن الثالث، وعم مذهب مالك بعد ذلك حتى إذا كان العهد العثماني عاد المذهب الحنفى معه إلى الظهور، ولم تنجح في إفريقيا التونسية دعوة الإباضية ولا دعوة المبيدين الشيعة، وكثر فيها الزهد والزهاد، كما كثرت الرباطات لحراسة البلاد على السواحل وظل النساك لا يبرحونها، وكثرت بأخرة الطرق الصوفية.

ومنذ القرن الأول الهجري ينشر الفاتحون في القطر التونسي تعاليم الإسلام وشريعته السمحة في معاملة الأمم المفتوحة، بحيث يصبح من أسلم منهم على قدم المساواة مع العربي الفاتح، ويقبل البربر على اعتناق الإسلام، وينشأ جيل من مواليد إفريقيا التونسية من البربر والعرب ينقض انقضاضاً على حلقات العلماء في المساجد ويأخذ كل ما لديهم، ويطلب نفر منه المزيد، فيرحل إلى المشرق للقاء الإمامين الكبيرين أبي حنيفة ومالك، ويعمل مذهبيهما إلى العاصمة: القيروان وإلى تونس. وتنمو في القيروان حركة أدبية ولغوية، وساعد في ازدهار الحركة العلمية بإفريقيا التونسية - على مر العصور - جامع أو جامعة عقبة في القيروان وجامع أو جامعة الزيتونة في تونس وما أنشئ - أيام الحفصيين - من مدارس ومكتبات. ولم يبق علم

إلا غنيت به إفريقية التونسية، ونبدأ بعلوم الأوائل فقد أسس لها إبراهيم بن أحمد الأغلب في عاصمته رقادة بجوار القيروان مدرسة كبرى باسم بيت الحكمة نبغ فيها أطباء عظام كان لهم وتلاميذهم تأثير عظيم في الغرب، وينبغ في العهد الصنهاجي فلكى كبير كان له أثره في علم الفلك الغربي، وتؤسس تلك الدولة مدرسة في الكيمياء، وتلتقى في عهد الدولة الحفصية بكيميائي كبير هو التيفاشي كما تلتقى بأطباء ورياضيين مختلفين وأيضا ببعض الجغرافيين، ويتكاثر اللغويون والنحويون في العهد الصنهاجي ويلمع من بينهم عالمان لغويان كبيران هما القزاز وله معجم ومؤلفات لغوية كثيرة وعبد الدائم بن مرزوق حامل شعر أبي العلاء المعري إلى القيروان والأندلس كما يلمع المصري باختاراته الشعرية والنثرية في كتابه زهر الآداب، ويضع ابن عصفور في العهد الحفصي أسسا قوية لمدرسة نحوية تونسية ويقود ابن رشيق بكتابه: «العمدة في صناعة الشعر ونقده» حركة نقدية وبلاغية واسعة لاف إفريقيا التونسية وحدها بل في جميع المغرب. وكان علم القراءة للذكر الحكيم نشيطا إلى أقصى حد، ونقل ابن خيرون قراءة ورش المصري عن نافع قارئ المدينة، وهى القراءة المنتشرة في جميع بلدان المغرب إلى اليوم، ولم يلبث أن ظهر في القراءات إمام كبير هو مكى بن أبى طالب، ومن أعلام القراء في العهد الحفصي الليبى وابن بدال وفي العهد العثماني باطاق. ومن أوائل المفسرين للذكر الحكيم عكرمة مولى ابن عباس ويحيى بن سلام، ومن كبار المفسرين في العهد الصنهاجي على بن فضال وفي العهد الحفصي ابن بزيعة وفي العهد العثماني محمد زيتونة. ويتكاثر المحدثون منذ القرن الثاني الهجرى، ومن أهمهم البهلولى بن راشد، ومن كبار المحدثين القابسى في القرن الرابع والمازرى في القرن السادس ومحمد بن عمر الأبي في القرن التاسع ومحمد بن برناز في العهد العثماني. ويتمايش في الفقه المذهب الحنفى والمالكي في القرنين الثاني والثالث، ومن فقهاء المذهب الحنفى عبد الله بن فروخ ومن فقهاء المذهب المالكي على بن زياد حامل كتاب الموطأ عن مالك وسحنون المشهور صاحب المدونة التى حملها عن عبد الرحمن بن القاسم في الفسطاط تلميذ مالك. ومن حملة المذهب الكبار في القرن الرابع ابن أبى زيد. وكُتب له أن يسود ويعم جميع بلدان المغرب منذ حمل المعز بن باديس الصنهاجي الفقهاء والناس عليه. ومن أهم فقهاء المازرى المذكور بين المحدثين وابن بزيعة المذكور بين المفسرين وتلميذه محمد بن عبد السلام أستاذ ابن خلدون وابن عرفة. ويجعل العثمانيون الفتوى بيد الفقهاء الأحناف ولم الكلمة العليا في القضاء واشتهر بينهم غير فقيه كما اشتهر غير قليل من فقهاء المالكية مثل محمد الحجيّج وله حاشيتان على مختصر خليل في الفقه المالكي.

وكل ما كان يدور في المشرق من جدل في المذاهب الكلامية كان يدور مثله في القيروان، وقد تجادلوا طويلا في مذاهب الخوارج ومبادئ الإرجاء وما تجادل فيه المعتزلة مع غيرهم في مسائل

القدر وهل القرآن قديم أو حادث مخلوق، والتشبيه على الذات العلية. واشتد الجدل بين الفرق في جامع عقبة واشتدت ضوضاؤهم مما اضطر سحنون حين ولى القضاء إلى تفريق حلقاتهم فيه وإبطائها، ومن كبار المتكلمين سميد بن محمد المشهور بأبن الحداد وله منازلات ضاربة مع دعاة العبيديين الشيعة ودائماً هو الغالب المنتصر. وشاع من قديم المذهب الكلامي الأشعري، وكانت له الغلبة في العصور التالية.

وازدهرت الكتابات التاريخية مبكرة في القيروان عن مغازي إفريقية وأخبارها وحروبها وعن الدولة الأغلبية، وعُنى بعض المؤرخين بتاريخ الدولة العبيدية وسيرة مؤسسها عبيد الله المهدي، وتكاثرت الكتابة عن علماء إفريقية التونسية كما يلقانا عند أبي العرب والحشني، وللرقيق القيرواني كتاب في تاريخ إفريقية والمغرب، ولأبن رشيق كتاب نفيس في تراجم الشعراء باسم أنموذج الزمان، وللمالكي رياض النفوس في علماء إفريقية وزهادها، وللدهاغ كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان وعليه تعليقات لأبن ناجي، وللجانج رحلة مشهورة تكتظ بالعلماء والأدباء في البلاد التونسية، وليحيى بن خلدون كتاب في تاريخ بني عبد الواد بتلمسان، وتتوَّج الكتابات التاريخية بتاريخ ابن خلدون ومقدمته النفيسة وما فيه من أخبار البربر. ويكتب ابن الهنتاتي عن تاريخ الدولة الحفصية وابن أبي دینار عن تاريخ إفريقية وتونس في كتابه المؤنس ومحمد السراج عن الأخبار التونسية في كتابه الحلل التونسية، ويترجم حسين خوجة - في كتابه: ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان - لفقهاء البلدان الكبيرة في حقبة من حقبة العهد العثماني.

وقد عايش اللغة البربرية لغتين متحضرتين: الفينيقية واللاتينية قروناً طويلة ولم تتحول إلى لغة متحضرة لما أبجديتها الخاصة وكتبها التاريخية، وظل من يتحضر منهم أيام الفينيقيين يكتب بلغتهم، وبالمثل في أيام الرومان. وكان كثيرون من البربر قبل الفتح العربي يحسن اللاتينية نطقاً وكتابة، وظلت بعد الفتح بقايا من ذلك. ولكن سرعان ما أخذت البربرية لغة الشعب بعد الفتح واللاتينية لغة بعض الخاصة تزايلان الألسنة وتحل فيها محلها العربية، وتظل البربرية حية في جزيرة جربة وفي البوادي والجبال، حتى إذا كانت الهجرة الأعرابية الكبرى في منتصف القرن الخامس الهجري امتزج البربر والأعراب وكوّنوا شعباً عربياً مكتمل العربية في اللغة والدين والملبس والمطعم والأخلاق والعادات والأحزان والأفراح، وكان هؤلاء الأعراب من بني هلال وسليم ينطقون عربية فصيحة، وظلوا ينطقون بها حتى القرن السابع الهجري، وكانت تشيع بجانيتها عامية في ألسنة أهل المدن، وأخذ لسان هؤلاء الأعراب يتأثر بها مع طول السنين، ويقول ابن خلدون إنهم هجروا الإعراب لعصره في القرن الثامن الهجري ومع ذلك ظلت الفصحى لغة العلوم ولغة الأدب الرفيعة، وبث فيها المهاجرون الأندلسيون في القرنين السابع والحادي عشر روحاً وانتعاشاً.

ويكثر الشعراء في القطر التونسي منذ منتصف القرن الثاني الهجري بفضل ما أحدثته فيها واليا يزيد بن حاتم المهلبى من حركة أدبية واسعة بما صحبه إليها - ووفد عليه - من الشعراء، وكان إبراهيم بن الأغلب شاعرا، وبالمثل كثير من أهل بيته، فراج في القيروان سوق الشعر وازداد رواجه في عهد الخلفاء العبّيين وكانوا جميعا شعراء وأجزلوا لمادحيهم في العطاء، وينهض الشعر نهضة عظيمة في عهد المعز بن باديس الصنهاجى، وكان ينثر العطايا على مادحيه نثرا ويقال إنهم بلغوا مائة عدا، وألف ابن رشيّق كتابه أنموذج الزمان لمعهده وترجم فيه مائة من أفذاذ الشعراء وناجيههم وجميعهم من معاصريه. وكان ابنه تميم جوادا ممدّحا وكان شاعرا وقصده الشعراء من جميع الآفاق: كما قصدوا ابنه يحيى وحفيده عليا وابنه الحسن، ولابن حمديس الصقل وأمّية بن أبي الصلت الأندلسى في الثلاثة مدائع طنانة سوى من كان يحف بهم من شعراء القيروان. ويتنافس حكام المدن بمهد أمراء الطوائف في جمع الشعراء حولهم على نحو ما يصور ذلك العماد الأصهباني في كتابه الخريدة، ومن ذكرهم من شعراء أبي الحملات مدافع أمير مدينة قابس سلام بن فرحان القابسى وهو من الشعراء المجيدين وذكر من شعراء جبارة بن كامل أمير مدينة سوسة التراب السوسى وهو من الشعراء المبدعين، ومن الشعراء الأفذاذ لهذا العهد على المصرى المهاجر إلى الأندلس وأبو الفضل بن النحوى وعبد الله الشقراطسى. ويزدهر الشعر في العهد الحفصى. ويفد على مدينة تونس كثير من شعراء الأندلس ويستقرون فيها ويعنون فيها حركة شعرية خصبة مثل ابن الأبار وابن عميرة وحازم القرطاجنى وابن القصير. وأخذ الشعراء يتكاثرون في تونس مثل عنان بن جابر وابن عُرَيْبة ومحمد بن أبي الحسين وابن الشباط وابن السّمّاط وابن حُسَيْنَة والشهاب بن الخلوف. ويزاحم منذ القرن الثامن الشعر الشعبى الشعر الفصيح. ويضعف الشعر في أواخر العهد الحفصى وأوائل العهد العثمانى، وتبث فيه هجرة الأندلسيين إلى الإقليم التونسي في القرن الحادى عشر الهجرى غير قليل من النشاط ويسترد حيويته ونضرتة في عهد الأسرة الحسينية على لسان أمثال على الغراب ومحمد الورغى ومحمد ماضور وتكثر فيه المعارضات الشعرية. ويتكاثر أعلام الشعراء في جميع أغراض الشعر وفنونه منذ الحقب التاريخيّة الأولى. ومن أعلام المديح على بن محمد الإيادى والكاتب الرقيق وابن رشيّق والتراب السوسى وابن عُرَيْبة وعبد الله التجانى وعلى الغراب والورغى، ومن أعلام الفخر والمهجاء تميم بن المعز الصنهاجى ومحمد الرشيد الحسينى، ويتكاثر شعراء الغزل من أمثال على المصرى وأحمد اللّيلاني ومحمد ماضور ومن شعراء الغربة والشكوى والعتاب ابن عيدون ومحمد بن أبي الحسين، ويكثر شعراء الطبيعة من مثل عبدالواحد بن فتوح وابن أبي حديدة وأبى على بن إبراهيم، وبالمثل شعراء الرثاء للأفراد والمدن والدول مثل ابن شرف القيروانى ومحمد بن عبدالسلام، ومن شعراء الوعظ أحمد الصواف وشعراء التصوف محرز بن خلف وأبو الفضل بن النحوى ومن شعراء المديح النبوى

الشُّقْراطسى وابن السماط المهدوى. ومع كل غرض من هذه الأغراض ما يوضح نشاط الشعراء فيه من الترجمة لتأجيلهم وعرض روائع أشعارهم.

ونفض النثر مبكرا في القيروان وتونس على لسان الولاة والقواد وتأسست الدواوين منذ القرن الأول الهجرى، ونفض أبو اليسر الشيبانى بالكتابة الديوانية لعهد الأغالبة نهضة عظيمة وكُون فيها مدرسة، وأصبح لها فيها تقاليد متبعة، صُوِّرها القلقشندى في صبح الأعشى، واحتفظ برسالة ديوانية في العهد الحفصى بليغة بلاغة رائعة. وكثرت الرسائل الشخصية منذ القرن الثالث الهجرى بين استمطاف وعتاب ومديح وهجاء واستمناح وعزاء، وهى مسجوعة، ودخلها في المحقب المتأخرة غير قليل من التكلف. وملتقى ببعض مقامات، وهى لا تقوم على أديب متسول وحيله الكثيرة في جذب السامعين وإثارة عطفهم، وإنما تقوم على موضوعات أدبية يراد بها إظهار التفنن في الكتابة الأدبية. وترجمت لثلاثة من أهم الكتاب، هم أبو اليسر الشيبانى رئيس ديوان الإنشاء في عهد الأغالبة، وإبراهيم المصرى صاحب زهر الآداب، وابن خلدون درة تونس الفريدة

٣

وانتقلت إلى جزيرة صَقْلِيَّة، فتحدثت عن جغرافيتها وتاريخها القديم وفتح إفريقية التونسية لها في عهد زيادة الله الأغلب سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م ونشر الدين الحنيف فيها ولفتها العربية وغزو الدولة الأغلبية فيها قَلَوْرِيَّة جنوبي إيطاليا واستمرار استيلائها عليها إلى نهاية أيام الدولة الأغلبية وفتحها لجزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م ونشرها للدين الحنيف فيها واللغة العربية، ولا تزال إلى اليوم تتكلم لكنة عربية تونسية ودخلت عليها تحريفات كثيرة بحكم طول الزمن وما وقع على لغة مالطة من تأثيرات. وولى للدولة العبيدية على صقلية ولاية حكموها حكما جائرا، إلى أن وليها الحسن بن أبى الحسين الكلبي سنة ٣٣٦ هـ/ ٩٤٧ م وظلت وراثية في أبنائه، وحكموها في القرن الرابع حكما سليما، واضطرب حكمهم، وساء سوءا شديدا في القرن الخامس، فثارت صقلية عليهم، واستحالت إلى أمراء طوائف وبلدان، وتحارب ابن الشنعة أمير بلرم مع أمير قصر يائنة، وهُزِم فاستغاث بالنورمان حكام قَلَوْرِيَّة، فأغاثه ملكهم روجار الأول، وسرعان ما تحولت الاستعانة به إلى الاستيلاء على مدينة بلرم سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢ م وما توافى سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م حتى يكون قد استولى على جميع مدن صقلية. ويدور العام فيستولى على جزيرة مالطة سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م. ورأى روجار أن شعب صقلية العربى أكثر حضارة ومدنية من شعبه مع تفوقه عليه في شئون الزراعة والصناعة اليدوية، فأخذ يصانعه للإفادة منه وأخذ ما عنده مع التنكيل الفاسم به، وخفف ابنه روجار الثانى وحفيده غليوم الأول

من هذا التكتيل البشع، غير أنه من الخطأ ما يقال من أنها عاملاً للمسلمين في صقلية معاملة عادلة سمحة فإن ذلك إن صدق على تعاملها مع حاشيتها المسلمة في بلرم فإنه لا يصدق على معاملتها العامة للمسلمين في البلدان الأخرى على نحو ما يصور ذلك ابن جبير في رحلته حين زار صقلية أيام غليوم الأول. واستحالت المعاملة السيئة إلى عسف لا يطاق حين استولى على الجزيرة أباطرة الألمان منذ سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م واستفادت أهلها بالمستنصر الحفصى، فاتفق سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م مع فردريك الثانى على إجلائهم إلى إفريقية التونسية، فجلوا عنها جميعاً، وأجل فردريك من كان بالاطلة من المسلمين أو بهبارة أدق أجبرهم على الجلاء عنها إلى مدينة أمالفى (Amalfi) جنوبى إيطاليا.

وقد عامل المسلمون - طوال حكمهم لصقلية - أهلها المسيحيين معاملة سمحة كريمة أقصى ما تكون السماحة والكرم، فحافظوا لهم على كنائسهم وقوانينهم الدينية والمدنية. وكان بصقلية ثلاث ولايات كبيرة، ولكل ولاية مساعدون للوالى يسمون قوادا، كما كان لها قضاة عدول ومجموعة من الدواوين، من أهمها ديوان المحاسبة، وكانت صقلية تزخر بطبيبات كثيرة من الرزق، فكان أهلها يعيشون في رخاء واسع بفضل زروعها وصناعاتها الكثيرة، وانتقلت إليها صناعة الورق من القيروان ونقلتها عنها أوربا، مما أتاح لغوتنبرج اختراع الطباعة. ونلتقى في صقلية بنفر من الزهاد أمثال القاضي ميمون وابن أبى محرز وبعض من لهم ميول صوفية مثل أبى القاسم عبدالرحمن بن محمد البكرى.

وقد فتح النورملن صقلية العربية الإسلامية حربياً وفتحتهم حضارياً، إذ رأوا -هم وملوكهم- سمو العرب المسلمين الحضارى، فحاولوا - بكل ما وسعهم - الاستفادة من حضارتهم، ونكّل روجار الأول بالمسلمين تنكيلاً شديداً، واضطرته هذه الحضارة أن يدفع ابنه روجار الثانى إلى تعلم العربية والإكباب على ثقافتها وعلومها، وأخذ الرومان يفيدون من نظم المسلمين وترائيبهم الإدارية في الجزيرة، واتخذوا لأنفسهم دواوين على شاكلة الدواوين العربية، واندفع غليوم الأول مثل أبيه إلى إتقان العربية ومعرفة علومها ودفع النورمان معه إلى اقتباس العلوم والفنون وعناصر الحضارة الإسلامية فتحضروا بعد أن كانوا متبدين، وانغمسوا في تلك الحضارة، ومع ذلك ظلوا يمسون على المسلمين ويحاولون بكل ما استطاعوا فتنتهم في دينهم الحنيف وازداد الظلم والعسف في عهد أباطرة الألمان، مما اضطر من بقى بصقلية من المسلمين إلى الجلاء عنها نهائياً.

ونقل العرب إلى صقلية الإسلامية ما كان بالقيروان من حركة علمية، فإذا الشباب فيها يكب على ما لدى علمائها من علوم دينية ولغوية، ويرحل منهم نفر إلى القيروان والمشرق للتزود من علمائها، ويرحل إليهم كثير من علماء القيروان لتزويدهم بالعلوم والآداب ونشر

خاصة إلى رحلة ابن رشيقي القيرواني بكتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده إلى صقلية، مما كان له أثر بعيد في نهضتها الأدبية لمهد الكليبيين وبعدهم، وهاجر إليها كثير من شباب الأندلس وعلمائه للتعليم والتعلّم، وبالمثل من علماء المشرق وأدبائه وكتب المشرق ودواوينه. ويقول ابن حوقل إنه كان في مدينة بلرم وحدها أكثر من مائتي مسجد وثلاثمائة معلم، مما يدل على أنه كان بها نشاط علمي واسع، ومثلها بقية المدن. وكان نحو نصف سكانها المسيحيين فنتن: فئة تتكلم الإغريقية، وفئة تتكلم اللاتينية، وربما كان في الفنتين من يتقن اللغتين جميعا، وكان فيها من يتقن العربية، كما كان بين العرب من يتقن اللاتينية أو الإغريقية، وأهل ذلك للاشتغال بترجمة بعض علوم الأوائل، ويدل على ذلك - من بعض الوجوه - أن الأمير إبراهيم الأغلب مؤسس بيت الحكمة في عاصمته رقّادة بجوار القيروان طلب إلى بعض الرهبان الصقليين المتكلمين بالعربية ترجمة بعض المصنفات اللاتينية في العلوم الرياضية، كما يدل عليه طبيب صقل يسمى أبا عبداقه كان يتقن الإغريقية ومعرفة أسماء العقاقير والأدوية رحل إلى الأندلس في زمن عبدالرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠ هـ) فضمه إلى من يشتغلون بالترجمة عن الإغريقية إلى العربية كتاب ديوسقوريدس في الأدوية أو الصيدلة والنباتات، وما يدل على شهرة صقلية حينئذ بالفلسفة وعلوم الأوائل أن نجد بعض متفلسفة الأندلس يهاجرون إليها. وكان بها علماء رياضيون متعددون ومهندسون كبار بشهادة عماراتها السامقة ومن تتردد أسماؤهم منهم في الكتب. ورحل إليها غير لغوي من الأندلس ومن أشهر أبنائها ابن البرّ وقد أسس بها مدرسة لغوية خصبة، ومن أهم تلاميذه ابن مكي صاحب كتاب تنقيف اللسان في أغلاط العلماء وغيرهم، وهاجرت إلى صقلية دواوين كثيرة على يده ويد غيره كما هاجرت إليها كتب لغوية وبلاغية ونقدية كثيرة. وولتقى بغير مرقئ للذكر الحكيم مثل محمد بن خراسان الصقل وبغير مفسر مثل ابن ظفر وغير حافظ محدث مثل عتيق السمنطاري. ويتكاثر بها الفقهاء من قضاة وغير قضاة، ومن أهم فقهاؤها البراذعي ومحمد بن يونس التميمي وعبد الحق بن محمد القرشي.

وإذا تحوّلنا مع الثقافة إلى العهد النورماني وجدنا علوم الأوائل تظل ناشطة في صقلية ويعنى روجار الأول بترجمة الثقافة العربية ويتكفل بترجمة عيونها إلى اللاتينية القيروانية في الطب والفلك وغيرها قسطنطين الإفريقي، واشتهرت صقلية في هذا العهد بفلكيين ورياضيين ومهندسين كبار من تلامذة الأساتذة في العهد الإسلامي. وألف الإدريسي الجغرافي المغربي لروجر الثاني كتابين جغرافيين للعالم كبير وصغير وبها خرائط جغرافية مهمة، ووضع له خريطة كبرى للعالم على كرة ضخمة من الفضة، وكان حريّا بالإدريسي أن يقدم هذه الأعمال الجغرافية الباهرة إلى حاكم عربي لا إلى حاكم نورماني. وتظل العلوم اللغوية ناشطة في العهد النورماني وتسجل كتب التراجم أسماء غير عالم منهم سوى من بارحوا صقلية فرارا من الظلم

النورمانى مثل ابن القطاع الصقلى وعثمان بن على الصقلى نزىلى مصر وقد رحبت هى وأدباؤها وعلمائها بهم أيما ترحيب. ويهاجر منها فى العهد النورمانى إمام كبير من أئمة القراءات هو ابن الفحام إلى الإسكندرية ومفسر صقلى مهم هو ابن ظفر وفقه كبير بل إمام من أئمة الفقهاء والحفاظ هو المازرى.

ويزدهر الشعر بصقلية منذ عهد الأسرة الكلبية فى القرن الرابع الهجرى، ولو أن كتاب الدرر الخطيرة لابن القطاع الذى ترجم فيه لمائة وسبعين شاعرا فى عهد الكلبين وصلنا لرأينا بوضوح مدى ازدهار الشعر فى أيامهم، وكأنه كان يناقش بهم شعراء الأنموذج لابن رشيق الذى ترجم فيه لمائة شاعر. وقد وصلتنا منه اختيارات مبتورة لأبى إسحق بن أغلب تشتمل على ثلاثة وأربعين شاعرا واختيارات أخرى لابن منجب الصيرى المصرى تشتمل على تسعة عشر شاعرا وهى منشورة، وأهم من هاتين المجموعتين ما ضمنه العماد الأصبهانى فى كتابه الخريدة من اختيارات له من الدرر بلغت سبعة وأربعين شاعرا، وأضاف إلى مجموعته شاعرا من كتاب أمية ابن أبى الصلت من شعراء العهد الكلبى ثم ضم إليها اثنى عشر شاعرا فى العهد النورمانى اختارهم من كتاب لابن بشرى المهدوى يسمى المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر، وعرضت فى إجمال نشاط الشعراء فى عهد الأسرة الكلبية وأهم أمرانهم الذين التفت حولهم شعراء صقلية والقيروان والجزائر. ثم تحدثت عن موضوعات الشعر الصقلى بادنا بالمديح وما نثره شعراء صقلية على الأمراء الكلبين وعلى المعز بن باديس أمير القيروان وأمرأ الطوائف من مدائح بديعة وما كان من تمجيد خلفاء هؤلاء الشعراء للملك النورمانى مكرهين إذ كانوا أسرى فى أيديهم فأشادوا بقصور روجار الثانى: القبة والمنصورية والفؤارة، وكل ذلك - فى رأى - على أمل أن يفكوا عنهم أغلال الأسر وقيوده، وترجمت لشاعر مهم من شعراء المديح فى عهد الكلبين هو ابن الخطايط. وعرضت طائفة من غزليات بديعة لشعراء صقلية فى عهد الكلبين والعهد النورمانى، وترجمت لشاعر بارع فى نظم الغزل هو أبو الحسن البلىونى. وتحدثت عن شعر الفخر فى عهد الكلبين مع الترجمة لأبى الحسن الطوبى، وأملت بشعر الوصف وتصوير الشعراء الصقليين للطبيعة الفاتنة وللمغنين والراقصين وترجمت لأبى عبد الله بن الطوبى مع عرض تصاويره البديعة، وعرضت روائع الشعراء فى الرثاء مع الترجمة لمحمد بن عيسى ومراثيه وما أودع فيها من لظى نار متقدة، وأملت بما لشعراء صقلية من زهد فى متاع الحياة ومناجاة لربهم مع الأمل فى عفو ومغفرته، يوم يؤخذ العاصون بالنواصى ويسأل كل شخص عما قدمته يده، مع الترجمة لابن مكى ودعوته إلى العمل الصالح قبل الموت والمغزلة عن الناس، بل حتى عن الزواج وتكوين الأسرة وما يصاحبه من عواصف. وآخر الموضوعات التى عرضتها التفتيح والحنين واللوعة التى لا تنطفئ جذبتها أبدا فى نفوس المهاجرين من صقلية الذين لم يهاجروا منها طوعا، وإنما هاجروا قسرا وفرارا من جحيم ظلم

لا يطاق. وقد ترجمت لابن حمديس الذي عاش مقرباً عن وطنه، يتفجع عليه ويتوجع له ويشنّ حنيناً ظامناً دانها إلى رؤية عشه وسكنه وكل يوم يأتيه ما يزيد به بأساً من لقائه وحرماناً من رؤيته، وحاولت أن أرسم حياته منذ خرج من فردوسه في الرابعة والعشرين من عمره سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م إلى نهاية حياته غريباً في بجاية، وهو في أثناء ذلك يحاول أن يرسل إلى قومه في صقلية شعلاً من شعره تحمّسهم وتدفعهم دفعا إلى جهاد العدو الباغي. وتسقط في أيدي النورمان سرقوسة مسقط رأسه وقصريانة بعد نضال مستميت امتد سنوات، ويودعها بقصيد جنائزية تسيل حزناً وألماً وبأساً مريراً، وظل يبكي صقلية طويلاً ويبكي معها راعيه المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية حين نفاه يوسف بن تاشفين إلى أغمات في مراکش، وتعاوده مراراً ذكرياته في صقلية ويذرف الدمع عليها حاراً، ويلمع له شيء من الأمل حين ينتصر الحسن بن علي بن تميم أمير المهديّة على النورمان سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م فيصوب إليهم قذيفة ملتهبة من مدحة له. وديوانه ضخّم وليس فيه هجاء فقد كان أكرم على نفسه من أن يؤذّي أحداً إلى وفاته سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م ويكتظ الديوان بكثير من المعاني والأخيلة المبتكرة. وهو يعد في الذروة الرفيعة من شعراء العرب قاطبة.

وتحدثت عن النثر في صقلية وكتابه البارعين، واحتفظ ابن بشرون المهدوي فيها عقد من ترجمات لبعض شعراء صقلية برسائل لهم بديعة، وترجم ابن بسام في الذخيرة لكاظم بارع من كتابها قبل العصر النورمانى، هو ابن الصباغ، وأفردت له ترجمة، وبالمثل لابن ظفر. وعرضت له كتابين بارعين هما: أبناء نجباء الأبناء، وسلوان المطاع في عدوان الأتباع. وألحقت بالحديث عن صقلية كلمة عن رحلة ابن قلاؤس الإسكندري إليها وأشعاره فيها ومدائحه لأعيانها ولغليوم الثانى وبعض قواده من النورمان، وربما اضطر إلى ذلك اضطراراً، وله في راعيه هناك أبى القاسم بن الحبر كتاب سماه: «الزهر الباسم» ضمنه مدائحه فيه. واقه أسأل أن يلهمنى السداد والإخلاص في القول والفكر والعمل وهو حسبي ونعم الوكيل.

شوقي ضيف

القاهرة في ١٥ من أبريل سنة ١٩٩٢م

القسم الأول

ليبيّا

الفصل الأول الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية^(١)

ليبيا أول أقاليم المغرب الممتد على البحر المتوسط غرباً من مصر إلى المحيط الأطلسي، وتنقسم من قديم إلى ثلاث مناطق: منطقة مجاورة لمصر هي برقة، ومنطقة مجاورة لتونس هي طرابلس، ومنطقة جنوبي طرابلس وصحرانها المتسعة خلف جبالها هي فزان أو منخفض فزان. وعلى طول البحر المتوسط سهل ساحلي يتراوح بين نحو ميل وعشرة أميال أو يزيد قليلاً. ووراء طرابلس سلسلة جبال تسمى نفوسة غرباً ويفرن في الوسط وغريان شرقاً إلى أن تنقطع عند ترهونة في أواسط منطقة طرابلس. وتعود الجبال إلى الظهور في ساحل برقة من قرب بنغازي إلى درنة شرقاً وتسمى الجبل الأخضر. وتترامي وراء جبال طرابلس هضبة صحراوية متسعة بها جبال السودا، ومنذ واحة غدامس في الغرب تصبح منطقتها ملاصقة للجزائر حتى أقصى الجنوب، وتلتقي عنده بجمهورية النيجر. والهضبة تمتد إلى ما وراء الساحل والجبال في برقة وهي هناك رملية وترتكز على قواعد صخرية، وفي كثير من جهاتها تصبح أمواجاً متلاطمة من الرمال، وتمتد إلى شرقي مصر، وتترامي جنوباً حتى تتصل بالسودان في الجنوب الشرقي، وتلاصق تشاد في أقصى الجنوب. ومنطقة فزان في أقصى الجنوب إلى الغرب منخفض شديد الاتساع، وأعدّه ذلك من قديم لتكثر فيه الواحات والوديان. وتتميز ليبيا بكثرة الواحات، وتلقانا بكثرة في ساحل طرابلس من زاوية في الغرب إلى مصراته في الشرق، وتلتقي بها في

أحمد رزقانه (نشر معهد الدراسات العالية بجانية
الدول العربية) وأطلس تاريخ الإسلام للدكتور
حسين مؤنس (نشر الزهراء للإعلام العربي -
القاهرة).

(١) انظر في جغرافية ليبيا ومدنها كتاب المغرب في
بلاد إفريقية والمغرب لأبي عبيدالكري، ومعجم
البلدان لياقوت وكتاب وصف أفريقيا للحسن
الوزان وكتاب المغرب الكبير لمحمد علي دبور
وكتاب محاضرات في جغرافية ليبيا للدكتور إبراهيم

ساحل برقة عند بنغازى ودنة، وتكثر في الداخل، وتلقانا على حدود مصر واحة جفسيوب وغربها واحة أوجلة واحة جالو وإلى الجنوب واحة كفرة. والواحات كثيرة أيضا في الصحراء المتراصة بمنطقة طرابلس مثل واحة غدامس غربا وبونجيم شرقا ومزدة إلى الشمال وغات في أقصى الجنوب، وشمالها شرقى فزان واحة القطرون.

وإذا جاوزنا ساحل ليبيا والجبال وراه وجدنا المادة الغذائية للأشجار والنباتات قليلة فيها عدا الواحات التى تخلف فيها الصحارى اللبية ثيابها الرملية الصفراء وترتدى حلا خضراء من حين إلى حين. ومن المؤكد أن في الشمال وفي مناطق قريبة منه مساحات كثيرة قابلة للزراعة. غير أن المياه بصفة عامة قليلة، مما يسبب قلة الزروع، وأكثر جهات ليبيا أمطارا ساحل منطقة طرابلس والجبال وراهها وساحل برقة من بنغازى إلى دنة وماوراهما من الجبل الأخضر. وتقل الأمطار في خليج سرت وفي المناطق الصحراوية. ويمكن تلاقى قلة الزراعة في ليبيا بتوفير مياه كثيرة لها عن طريق ثلاث وسائل: أولاها حفر آبار ارتوازية، ومعروف أنه يمكن أن تنعم في الأرض إلى أكثر من مائة متر بينا الآبار العادية قلما تنعمق إلى أكثر من ثلاثة أمتار وأربعة، وثانيتهما تركيب مراوح هوائية على الآبار تديرها الرياح السريعة التى تهب هناك، وثالثة تلك الوسائل إصلاح السدود والصحاري والقنوات المطورة التى كانت مبنية زمن الرومان أو محفورة للحفاظ على السيول المنحدرة من الجبال وعلى أمطار الشتاء المنهمة حول المدن في الشمال وفي الداخل. ومن المؤكد أن الزراعة كانت مزدهرة بليبيا أيام الرومان، إذ كانوا يعدونها مخزنا لفلاتهم وحاجتهم من زيت الزيتون. ومن أهم أشجارها - بجانب أشجار الزيتون - أشجار النخيل، وخاصة في الواحات ويقال إن في واحة غات خمسين نوعا من البلح اللبى، ومن أشجارها اللوز، وتكثر في الشمال كل أنواع الخضروات والفواكه والكروم، وتكثر في طرابلس النمار الحمضية مثل البرتقال والليمون واليوسفى. وعلى الجبال والهضاب والأجزاء الصحراوية مراعى متممة ترعى بها الإبل والبقر وقطعان الأغنام والحراف. والمعادن بليبيا كثيرة، فبجانب البترول المكتشف حديثا الكبريت ويشغل مساحة واسعة في خليج سرت، ولذلك يسمى خليج الكبريت. ويوجد المرمر في غربى طرابلس وبنغازى ويوجد في الأخيرة الشب والفوسفات، وتشتهر فزان بالنظرون. والمظنون أن بليبيا معادن كثيرة مثل القصدير والرصاص والزنك والحديد. والمناخ في ساحل ليبيا مناخ البحر المتوسط المعتدل فيها عدا خليج سرت، فمناخه وخيم. وأكثر اعتدالا وأقل حرارة في الصيف مناخ الجبال وراء طرابلس وبرقة لارتفاع سفوحها ومصاطبها المختلفة، أما ما وراء الجبال من الهضاب والصحارى الداخلية فتشتد فيه الحرارة كلما توغلنا جنوبا حتى تصبح بعض الأنحاء في الصيف أشبه بهجمات عالية الحرارة، فضلا عما يهب فيها من هب متقد محمل بغلات ساخنة من التراب والرمل اللافح.

التاريخ القديم^(١)

تاريخ ليبيا المفرق في القدم يختلف باختلاف منطقتيها الغربية والشرقية: منطقة طرابلس ومنطقة برقة، ومعروف أن الفينيقيين ارتادوا ساحل طرابلس في القرن الثاني عشر قبل الميلاد بقصد التبادل التجاري مع أهلها الليبيين. وكانوا شعباً ملاحياً عريقاً يحترف التجارة، مما جعلهم يجوبون سواحل إفريقيا الشمالية وإسبانيا في القرن المذكور وبعده، وفي أول الأمر كانوا يقنعون بإقامات مؤقتة في أثناء تبادل العروض (السلع) التجارية مع شعوب الأقاليم والمناطق التي نزلوا فيها، ومع الزمن آثروا أن يقيموا لهم مدناً - أشبه بمستعمرات - ليتخذوها مراكز ثابتة لما يعملون وينقلون من عروض تجارية. وفي تاريخ غير معروف بالضبط هل هو القرن الثامن قبل الميلاد أو قبله أو بعده أقاموا على ساحل طرابلس ثلاث مدن متقاربة، هي طرابلس، وكانوا يسمونها إيايات Vaiat وحرّفها الرومان فسموها أويا Oea وأقاموا غربها مدينة صبراته Sabrata في موضع المجيلات الحالية وسماها العرب صبرة ومعناها بالفينيقية سوق القمح، وهو اسم يرمز إلى ما استئول إليه المنطقة في عهد الرومان إذ سيمّلونها مخزن قمح لهم. وأقام الفينيقيون شرقى أويا أو طرابلس مدينة لبدة Leptis في موضع مدينة الخمس الحالية. وهذه المدن الثلاث سماها اليونان Tripolis أى المدن الثلاث وأطلق العرب هذا الاسم على أويا Oea فأصبح اسمها طرابلس، وسُميت بها المنطقة جميعها فيما يقابل برقة في المنطقة الشرقية من ليبيا.

سوق إقامة الفينيقيين لهذه المدن الثلاث الكبيرة تشير بوضوح إلى نقلهم الليبيين نقلة كبرى من

لأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وتاريخ الفتح العربى للطاهر الزاوى وأعلام البان نه، والمنهل العذب في تاريخ طرابلس المغرب لأحمد النائب الأنصارى وتاريخ طرابلس الغرب لمحمود ناجى وفتح العرب للمغرب للدكتور حسين مؤنس وتاريخ المغرب الكبير لمحمد حل دبور وتاريخ ليبيا للدكتور إحسان عباس ولها بين الماضى والحاضر للدكتور حسن محمود.

(١) انظر في تاريخ ليبيا عامة فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم والبيان المغرب لابن عذارى وتاريخ إفريقيا والمغرب للرفيق القيروانى (قطعة منه - طبع تونس) وتاريخ ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير والمؤنس في تاريخ إفريقيا وتونس لابن أبى دهنار ورحلة التجاني والأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإياضية لسليمان البارونى وكتاب وروقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية

حياة التجوال والرعى إلى حياة الاستقرار والزراعة، ويظنّ أنهم أدخلوا إلى منطقة طرابلس زراعة الفواكه مثل الخوخ والتين والبرقوق والكروم، والنباتات التي تنتج الحنّاء والزعفران والشيح، وبعض الأشجار مثل أشجار اللوز وربما أشجار الزيتون أيضاً. وبذلك بثوا في مدن طرابلس نشاطاً زراعياً بجانب نشاطهم التجاري. وخلصهم في المنطقة بالقرن الخامس قبل الميلاد أبناء عمومهم القرطاجيون، واتسعوا بالضربين من النشاط التجاري والزراعي في طرابلس. وفي عهدهم أخذت تنظم الصلة بين مدن الساحل الطرابلسي الثلاث وبين الواحات الداخلية وغدامس وغات وفزان، بل أخذت القوافل التجارية تتغفل في قلب إفريقيا وتنقل من تلك الأنحاء الرقيق والعاج وريش النعام، ويظن أن الواحات المذكورة آنفاً كانت تستثمر الولاء للقرطاجيين.

وتتوالى الحقب حتى إذا اصطدم القرطاجيون بالرومان وتمت الغلبة للأخيرين استولوا على طرابلس ومدنها من أيدي القرطاجيين سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وفي عهدهم ازداد ازدهار المدن الطرابلسية الثلاث ووجهوا حملة إلى غدامس وفزان استولت عليها، واتسعوا بالنشاط التجاري إلى قلب إفريقيا، وأرسلوا لذلك ثلاث حملات استكشافية، أولاها لكشف مناطق طرابلس الجنوبية، والثانية لكشف أو اكتشاف السودان والثالثة لاكتشاف السودان الغربي. ويبدو أن أسراً رومانية كثيرة استولت منطقة طرابلس بدل على ذلك مالا يزال إلى اليوم من كثرة الأطلال لمعابد وحصون وأبراج ومقابر وقنايل ونصب عليها كتابات لاتينية متأكلة، ولا نلتقي بها في المدن الكبرى الثلاث: أويا وصيراته ولبدة فحسب، بل نجدها أيضاً في أماكن مختلفة على الساحل مثل ترهونة وفي مواضع مختلفة منها إلى طرابلس وأيضاً في الداخل مثل يفرن في المنطقة الجبلية الوسطى إذ على برج بها كتابات لاتينية، ومنل بونجيم إذ في الشمال مبنى روماني كبير به كتابة لاتينية نقش عليه سنة ٢٠١ للميلاد باسم الإمبراطور الروماني سبتيموس سيفيروس Septimus Severus وكان قد ولد ونشأ في مدينة لبدة إحدى المدن الطرابلسية الثلاث المذكورة آنفاً، ثم رحل إلى روما ليكمل تعليمه وتطورت به الظروف إلى أن أصبح إمبراطوراً للدولة الرومانية، وقد أعفى أهل بلده الطرابلسية: لبدة من الضرائب الحكومية، وتقديراً منهم لصنيعه كانوا يهدون روما سنوياً كمية وافرة من الزيت، ويقال إنها حين وُزعت على سكان روما بعد وفاته سنة ٢١١ للميلاد كفتهم خمس سنوات. وحين اعتنقت روما المسيحية وعملت على نشرها في الولايات التابعة لها نشرتها أو حاولت نشرها في طرابلس لما كان بها من جالية رومانية كبيرة، وتدل على ذلك بعض الكتابات المطبوعة في الأماكن الأثرية الرومانية. وعُنتيت روما عناية واسعة بازدهار الزراعة في طرابلس إذ كانت تعدها - كما أشرنا - مخزنها الضخم للغلال ولزيت الزيتون وغير ذلك من الطيبات، وهو ما جعلها تكثر فيها

من القنوات لحمل مياه الأمطار من الجبال كما تكثر من الخزانات والصهاريج والسدود على الوديان لخزن مياه الأمطار وتوزيعها على الزروع. وازدهار الزراعة - حينئذ - جعل القرى والبلدان تكثر في الأنحاء الشمالية من منطقة طرابلس، كما جعل السكان يزدادون بها زيادة كبيرة.

وإذا كان الفينيقيون والقرطاجيون نزلوا طرابلس قديما قرونا متعاقبة فإن اليونان هم الذين نزلوا برقة قديما على نحو ما يحدثنا هيرودوت في تاريخه، إذ يذكر أن السكان اليونان ازدادوا زيادة كبيرة في إحدى جزر بحر إيجه، فأرسلوا في سنة ٦٥٠ قبل الميلاد بعثة منهم إلى الشاطئ الإفريقي في اتجاه برقة لعلها تجد لهم أراضى صالحة للزروع إليها، ونزلت البعثة في جزيرة بلاتيا بخليج بيه شرقى درنة، وبعد سنوات قليلة نزحوا منها إلى الشاطئ الإفريقي، وأسسوا به مدينة سيرين Cyrene (شحات الحالية) غربى درنة، ثم أسسوا أربع مدن أخرى غربها، هى على الترتيب Appollonise (سوسة الحالية) و Barca (سميت منذ القرن السادس الهجرى المرج مع أن المنطقة مسماة باسمها: برقة) و Arsimoenoe (طوكره الحالية) و Berenice (بنغازى الحالية) وأطلق اليونان على هذه المدن اسم بنطابلس Pentapolis أى المدن الخمس. وغلب على المنطقة جميعها اسم برقة كما ذكرنا وبالمثل غلب على منطقة ليبيا الغربية اسم طرابلس.

وظلت سيرين تعد مدينة برقة الأولى في عهد اليونان، ولذلك سماها أراضى الساحل حتى بنغازى باسم سيرينايا. وعلى نحو عناية الفينيقيين والقرطاجيين والرومان بالتجارة في طرابلس عُنى بها اليونان في سيرينايا أو برقة مما جعلها تنشط في عهدهم بين مدنها الخمس وبين الواحات الداخلية من جهة، وبينها وبين السودان من جهة ثانية، فكانت القوافل التجارية تسير منحدرتة وصاعدة بين بنغازى وسيرين في أقصى الشمال وواحات كفرة وأوجلة وفزان، ويتغفل بعضها إلى السودان وخاصة إلى دارفور ووادى حاملة من هناك الرقيق وسنّ القيل وريش النعام والكركم. وكانت برقة على علاقة حسنة مع مصر، وتوطدت هذه العلاقة بعد موت الإسكندر المقدونى وقيام دولة البطالسة بمصر إذ أصبحت جزءا من دولتهم مما نشط تجارتها مع مصر إما عن طريق شاطئ البحر المتوسط والإسكندرية، وإما عن طريق الصحراء وواحة سيوة. وتدخل برقة في حوزة الرومان سنة ٩٦ قبل الميلاد، وبذلك تصبح ليبيا جميعها شرقا وغربا في نطاق دولتهم الرومانية، ولذلك تلتقى فيها الآثار اليونانية بالآثار الرومانية، وتكثر الأولى في سيرين (شحات الحالية) حيث تُرى بها أطلال لآلهة اليونان ومقابرهم ولدرجات مسارحهم، وتلك المدرجات سمة دائما لليونان في كل بلد أقاموا به، وحكاكم في ذلك الرومان. وقد ذكر بنتامور الشاعر اليونانى في القصيدة التاسعة من قصائده مدينة سيرين. وأخذت

مكانتها تهبط منذ قضى الإمبراطور الرومانى تراجان على ثورة اليهود بها، وما تصل إلى القرن الثالث الميلادى حتى تصبح أنقاضاً وأثرًا بعد عين. وتابعت روما في برقة صنيفها في طرابلس من حيث العناية بالزراعة إذ كانت تعدّها جميعا غزنيين لما يلزمها من الغلال، فحفرت لذلك كثرة من القنوات تُرى - إلى اليوم - وراء ساحل برقة وقد طمرتها الرمال، كما تُرى هناك آثار السدود والخزانات والصهاريج التى أقامها الرومان واليونان بطالسة وغير بطالسة في كل مكان شمالا، وتحجب كثرتها عن البصر اليوم الأتربة والرمل التى انتهالت عليها عبر القرون.

وهذا النشاط الزراعى وما اتصل به من النشاط التجارى أهل برقة قديما لرخاء جعل المدن - بجانب مدنها الخمس المارة - تكثر فيها مثل درنة وطبرق، واشتهرت الأخيرة بأن جيزيلا أحد ملوك إسبرطة المشهورين كان يتخذها دار إقامة له.

وما يوافق العقد الرابع من القرن الخامس الميلادى حتى تغزو جموع الواندال الجرمانية الشمال الإفريقى وتسقط على ليبيا - كأمواج من جراد - تيموتفسد في البلاد لنحو مائة عام، بل تدمر وتحطيم كل ما شاده الفينيقيون والقرطاجيون والرومان في طرابلس وكل ما شاده اليونان والرومان في برقة إلى أن تجرد لهم القائد البيزنطى بليزير Bélisaire وكشف غمّتهم عن صدر ليبيا سنة ٥٣٤ للميلاد وأصبحت - من حينئذ - تابعة لبيزنطة. ولا نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادى وأوائل السابع حتى نجد إمبراطور بيزنطة يتبع ليبيا لحاكم الإسكندرية، إذ تذكر المصادر العربية أنه حين فتح عمرو بن العاص ليبيا كانت برقة تتبع هذا الحاكم، بينما كانت طرابلس تتبع حاكم قرطاجة بإفريقية التونسية المعروف عند العرب باسم جرجير تحريفا لاسمه الحقيقى جرجوريوس، ويبدو أنه حين رأى عمرو بن العاص يستولى على مصر سارع بالاستيلاء على طرابلس ليحوز لنفسه شيئا من الغنيمة، إذ رأى الدولة البيزنطية توشك على الانهيار.

٣

من الفتح العربى إلى منتصف القرن الخامس الهجرى

لما أتم عمرو بن العاص السياسى البصر فتح مصر واستقامت له رأى أن يؤمن حدودها الغربية ضد الدولة البيزنطية حاكمة الشمال الإفريقى حينذاك، فأعد جيشا في أواخر سنة ٢١ للهجرة فتح به برقة، إذ استجابت له سرعيا، وأرسل ابن خالته عقبة بن نافع إلى الداخل،

ففتح الديار في الصحراء حتى وصل إلى زويلة حاضرة فزان، واستسلمت سنة ٢٢ للهجرة. وبعد أن رتب عمرو بن العاص شئون الحكم في برقة اتجه إلى طرابلس ففتحها سنة ٢٣ للهجرة، واستعان ببعض قواده في فتح ما بقى من بلداتها وبلدان برقة. وتم ذلك كله في عهد الخليفة العظيم عمر بن الخطاب واستتم عمرو بن العاص في سنة ٢٣ فتح نفوسة وبذلك عمت ديار ليبيا جميعاً أضواء الإسلام. وظل عمرو طوال هذه السنة والسنة التالية أو أكثرها ينظم شئونها، وترك لأهلها أن يجمعوا بأنفسهم الجزية والضرائب المفروضة ويؤدوها في الموعد المضروب. وكانت هذه سياسة رشيدة، ولم تفرض ضرائب فادحة كما كان الشأن أيام الدولة البيزنطية، وأحسن البربر في ليبيا بتعاليم الإسلام في العدل والمساواة المثل بين من يسلمون منهم وبين العرب، فأقبلوا على الدين الحنيف وأخذ يعتنقه كثيرون منهم. ويعود عمرو إلى مصر مخلفاً وراءه ابن خالته عقبة بن نافع. ويتولى الخلافة بعد عمر عثمان بن عفان، فيولى على مصر عبد الله بن أبي سرح سنة ٢٥ للهجرة وتظل ليبيا لأيامه هادئة حتى فتنة عثمان سنة ٣٥ للهجرة، فتضطرب الأمور فيها وفيها وراءها من إفريقية التونسية، ويتولى عمرو بن العاص مصر ثانية لعهد معاوية. ويعنى معاوية ببرقة وطرابلس وإفريقية ويجعلها ولاية مستقلة ويولى عليها معاوية بن حذيج السُكُوفى سنة ٤٥ للهجرة، ويولى بدوره ربيعة بن ثابت الأنصاري على طرابلس، ويترك معه كتيبة، ويدور عام وقيل بل عامان ويفتح ربيعة جزيرة جربة شرقي مدينة قابس. حتى إذا كانت سنة ٥٠ للهجرة ولي معاوية على المغرب جميعه عقبة بن نافع، فرأى بئاقب بصيرته أن يتخذ للجيش العربي قاعدة تكون معسكراً له، فيها ينزل الجيش ويسكنها ويخرج منها لمتابعة الفتوح في المغرب، واختار موقعا في داخل إفريقية التونسية غربي ميناء سوسة على بعد نحو ثلاثين ميلا من البحر المتوسط، وشيد فيه مدينته وسماها القيروان أى المعسكر، وجعل حولها سورا من القرميد، وشيد فيها جامعا كبيرا، وسرعان ما استحالت القيروان مدينة ضخمة واستحال جامعها جامعة كبرى، وبعيد عقبة إلى إفريقية الهدوء والاستقرار ويقضى على الحكم البيزنطى في الشمال الإفريقى جميعه. وبمجرد إتمامه لمدينته سنة ٥٥ للهجرة عزل، وتولى المغرب أبو المهاجر، وقد نازل قبيلة أوربة من البرانس وزعيمها كُسَيْلَة في تلمسان ودارت عليها الدوائر، وأسر كسيلة ودخل في الإسلام. وتولى الخلافة يزيد بعد أبيه معاوية، فأعاد إلى المغرب عقبة بن نافع سنة ٦٢ للهجرة، فسار بجيش ضخم اخترق به الجزائر والمغرب الأقصى حتى بلغ المحيط الأطلسى، وكان قد وُئِع كُسَيْلَة زعيم أوربة لما كان من حربه للمسلمين فأسرُها في نفسه، وصمم على الانتقام، وفي عودة عقبة بالجيش تأخر عنه في كتيبة صغيرة بجبال الأوراس جنوب مدينة بَسْكَرة في الجزائر وكان كسيلة قد جمع من أنصاره جمعا كبيرا، فانتهز الفرصة وهجم على عقبة وصحبه واستشهد البطل العظيم، وأقيم له مسجد ضُم رفاقه، وسميت المنطقة باسمه: سيدى عقبة.

ويتولى المغرب حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥ هـ) فيثبت الدين الحنيف هناك ويدخل فيه البربر أفواجاً، إذ سوى - حسب تعاليم الإسلام - بين البربر والعرب في كل شيء: في الأعطيات وفي الخراج وفي الجيش فلا فرق بين جند عربي وجند بربري لا في المعاملة ولا في القِيء. وغنائم الفتح، ولو أن الولاة في القرن الثاني اتبعوا هذه السياسة مع البربر ما انتفضوا عليهم ولا شهروا السلاح ضدهم كما سنرى عما قليل. وأسس حسان مدينة تونس وبني بها دار صناعة متخذاً منها نواة لإنشاء أسطول مغربي عربي لحماية السواحل المغربية من القراصنة والمغامرين الأوربيين، واستقدم من مصر ألف أسرة قبطية للمساعدة في إنشائه. ونظم إدارة الحكم والدواوين تنظيمًا دقيقًا. وأتم هذا التنظيم بعده موسى بن نصير إلى المغرب الجديد (٨٥ - ٩٦ هـ) إذ جعل المغرب خمس ولايات: ولاية برقة، وولاية إفريقية التونسية ومعها طرابلس، وولاية المغرب الأوسط، وولاية المغرب الأقصى، وولاية السوس أو سجلماسة. وكان يرسل لبرقة وطرابلس عملاً أو ولاة كانوا يُعدّون مستقلين في الشئون الداخلية للمنطقتين، مع إرسالهم نصيباً من الضرائب وبعض الجنود إلى القيروان. وعمل موسى - بكل ما في وسعه - على نشر الدين الحنيف بين البربر بإنشائه في أنحاء المغرب لكتاتيب كثيرة تحفظ فيها الناشئة القرآن الكريم مع إحسانها لتلاوته ومع تعليمها بعض مبادئ الدين الحنيف. وتم هذا الرسوخ للإسلام في المغرب وأرجاء ليبيا لمهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) الخليفة التقي إذ أرسل إلى المغرب عشرة من كبار الفقهاء للعمل على نشر الدين الحنيف هناك، واختار أحدهم والياً على المغرب جميعه هو إسماعيل بن أبي المهاجر المخزومي واستجاب إليهم آلاف من البربر حتى ليتمكن القول بأننا لا نصل إلى مطلع القرن الثاني الهجري حتى يصبح المغرب جميعه داراً إسلامية يؤدي فيها الجمهور الأكبر فروض الدين الحنيف.

ولا تعود ليبيا وما وراءها من المغرب تحظى بوال من أمثال ابن أبي المهاجر وموسى بن نصير وحسان بن النعمان وعقبة بن نافع منذ وفاة عمر بن عبد العزيز. فقد أخذ يتولى المغرب ولاة ساموا البربر كثيراً من العسف والظلم، حتى إذا تولى عبيد الله بن الحبحاب المغرب زاد الطين بلة، بتشده في جباية الأموال من البربر ورفضه رفضاً باتاً التسوية بينهم وبين العرب. وانتهاز الفرصة دعاء الخوارج من صفرية وإباضية ودعوا بقوة إلى مهادنتهم في التسوية المطلقة بين العرب والموالي من بربر وغير بربر في جميع الحقوق والشئون المالية، وحتى في الخلافة نفسها فلا تقتصر على قريش وأبنائها بل يتولاها أكفأ المسلمين ولو كان عبداً حبشياً. واستجاب المغرب الأقصى سريعاً لمبادئ الصفرية ونشبت فيه ثورة سنة ١٢٢ للهجرة، وتهزم جيوش الدولة جيشاً من وراء جيش إلى أن يكتب لها النصر بعد سنوات. أما مذهب الإباضية فقد انتشر انتشاراً واسعاً في طرابلس وجبل نفوسة وغربي ليبيا، وكان قد أصبح زمام الحكم في

المغرب بيد عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع منذ سنة ١٢٦ للهجرة، فأخذ يرقبهم ويكثر من العيون عليهم، وعرف أن رئيسهم في طرابلس عبد الله بن مسعود التجيبي، فأرسل إليه أخاه إلياس في قوة عسكرية كبيرة فقتله. ولم تنته بذلك الحركة الإباضية في طرابلس فقد بايع الإباضيون في طرابلس بعده بالإمامة الحارث بن تليد الحضرمي سنة ١٣٠ للهجرة واتخذ وزيرا له عبد الجبار بن قيس المرادي، والمظنون أنها كانا من جيش أبي حمزة الخارجي الذي أرسله الإمام طالب الحق اليمني لفتح الحجاز ومدينتيه المقدستين، ولم يكتب له النصر أخيراً على الجيش الأموي، وتسلسل من جيشه الحارث وعبد الجبار إلى طرابلس، وأخذوا يدعون للمذهب بها، ونجحت دعوتها وبويع الحارث إماماً، وأرسل إليه عبد الرحمن بن حبيب جيشاً، ويقال بل ذهب إليه بنفسه على رأس جيش، غير أن جيشه هزم شر هزيمة، وأصبح إقليم طرابلس من سرت في ليبيا إلى قابس في إفريقية التونسية يعترف بإمامته معتقاً للمذهب الإباضية. وفي سنة ١٣٢ للهجرة يقتال الحارث بن تليد ووزيره عبد الجبار في ظروف غامضة، ويدخل عبد الرحمن بن حبيب طرابلس ويفتك بكثيرين من زعماء الإباضية.

وتعيش طرابلس وإقليمها نحو ثمانى سنوات في هدوء، حتى إذا كانت سنة ١٤٠ للهجرة ثار الإباضية بقيادة إمامهم أبي الخطاب عبد الأعلى الماعزى واستولى على طرابلس وأعلن بها إمامته، وكان حازماً مقدماً جسوراً غيوراً على الدين، وكانت قبيلة ورفجومة الصفرية استولت على القيروان منذ سنة ١٣٨ للهجرة واستباحتها واستحلت المحارم وارتكبت كثيراً من المآثم والفظائع بها وجروحها تنزف بالدماء وأهلها يكثرون من العويل ولا مفيت، وعلم أبو الخطاب بعثت ورفجومة واستحالة أبنائها في القيروان إلى ذئاب هائجة مسعورة، فنارت ثائرتة وانتقدت حميته لأهلها وأعد في سنة ١٤١ للهجرة جيشاً ضخماً نازل به ورفجومة النزفوية في معركة طاحنة قتل فيها قائدها عبد الملك بن أبي الجعد وهزمت هزيمة ساحقة، ودخل أبو الخطاب القيروان وطهرها من رجس هذه القبيلة الباغية، وأقام عليها عبد الرحمن بن رستم والياً عليها من قبله، وعاد إلى طرابلس عاصمته. وكل ذلك علم به الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، فاختر أحد قواده العظام محمد بن الأشعث وولاه على المغرب، وأرسل معه جيشاً بالغ الضخامة في نحو سبعين ألف مقاتل يقودهم صفوة كبيرة من القواد ونشبت بينه وبين أبي الخطاب معركة حامية الوطيس سنة ١٤٤ للهجرة قتل فيها أبو الخطاب وأكثر أنصاره بحيث لم تقم للإباضية في طرابلس وجبل نفوسة بعدها قائمة. وفر عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى تيهرت في المغرب الأوسط، وبها أقام للإباضية دولة ظلت نحو قرن ونصف. وتولى المغرب يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٣ للهجرة ويعود النظام والاستقرار والهدوء إلى طرابلس حتى نهاية ولايته سنة ١٧٠ وقد ضم برقة إلى مصر. وتولى المغرب بعد يزيد أخوه روح بن حاتم

ثم هرثمة بن أعين حتى سنة ١٨١ وكان عهدهما عهد أمن وطمأنينة في طرابلس. وكان الخليفة العباسي هرون الرشيد سئم من كثرة الاضطرابات والثورات في البلاد المغربية، فسأل عن مقدم جرى سيوس يستطيع ضبطها ضبطاً محكماً فأشار عليه قائدته هرثمة بن أعين بإبراهيم بن الأغلب التميمي لما يعرف من كياسته ورجاحة عقله، فمنحه حكمها هو وأولاده وأحفاده طوال إقرارهم النظام فيها والأمن، وبذلك تأسست في إفريقية التونسية دولة الأغالبة منذ سنة ١٨٤ للهجرة حتى سنة ٢٩٦ وتبعته طرابلس وظلوا يرسلون إليها عمالا وظلت ثوراتها لا تهدأ بسبب من كان فيها وفي جبل نفوسة من الإباضية، وكان إباضية تيهرت لا يزالون يمدون إلى إباضيتها عوناً مستمراً. ولعل ما كان يوليها الأغالبة من الأهوية هو الذي جعلهم دائماً يولونها ولاية بارزين من الأسرة، وكثيراً ما كانت تنتقض عليهم، على نحو ما حدث سنة ١٩٦ في عهد واليها عبادة بن إبراهيم بن الأغلب، واستطاع القضاء على الثورة، ومن أهم ولايتها من أبنائه الأسرة أبو العباس عبادة بن محمد الأغلب، ونقله الأمير أبو الغرانيق، ثم أعاده إلى طرابلس، ومنهم أحمد بن سودة الأغلب وكان شاعراً بارعاً ومحمد بن زيادة الله الثاني وكان أديباً وشاعراً وخطيباً ومؤلفاً بارعاً، ونفس عليه ذلك ابن عمه إبراهيم بن أحمد الأغلب (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) وغار من سمعته الطيبة عند خليفة بغداد الرشيد فتسلل إليه خفية في طرابلس وقضى عليه. وفي عهد هذا الأمير الأغلب شهدت برقة سنة ٢٦٥ ثورة عباس ابن والي مصر أحمد بن طولون على أبيه، واتخذها قاعدة له وجهز منها حملة كبيرة زحف بها على طرابلس، غير أن جيش عاملها الأغلب محمد بن قرحب هزمه وردّه على أعقابها. ولم يلبث أبوه أن قضى على ثورته سنة ٢٦٨ وولى على برقة عاملاً يصلح فيها ما أفسده ابنه. وثار جبل نفوسة في سنة ٢٨٣ ثورة عنيفة قضى عليها إبراهيم بن أحمد الأغلب قضاء مبرماً.

وحين قضت الدولة العبيدية الفاطمية على دولة الأغالبة سنة ٢٩٦ حاولت أن تبسط سيادتها على طرابلس وتم لها ذلك، وأرسل مؤسسها عبيد الله المهدي جيشاً إلى برقة، فاستولى عليها من يد واليها العباسي، وكانت برقة سنة وطرابلس إباضية، وكاننا ترفضان العقيدة العبيدية الإسماعيلية، ولم تلبث طرابلس في سنتي ٢٩٩-٣٠٠ للهجرة أن حملت لواء الثورة في وجه ماقنون واليها من قبيل عبيد الله المهدي وفتكوا برجاله من قبيلة كاتمة التي كانت تؤيد الدعوة الفاطمية وأتاحت للمهدي استيلاءه على صولجان الحكم من أيدي الأغالبة. وصمم المهدي على الانتقام من طرابلس وأهلها، فجرد لها حملة كبيرة بحرية وبرية ولم يلبث أسطولها أن قضى على الأسطول الطرابلسي، وضرب الحصار براً حول طرابلس حتى ساءت أحوال أهلها سوءاً شديداً، فطلبوا الأمان، فأمنهم القائد أبو القاسم بن المهدي، وكان في الجيش معه أحد أبناء طرابلس ممن كانوا قد سارعوا بالالتفاف حول المهدي، وكان ابناً عاقاً فعذب أهل بلدته وتكل

بهم وأغرمهم ثلاثمائة ألف دينار، واستكانت طرابلس. وفي سنة ٣٠٤ ثارت برقة فنكل بها العبيديون تنكيلا شديداً. وفي سنة ٣١٠ نار الإباضيون في جبل نفوسة ثورة عنيفة، وقضت عليها جيوش العبيدين. وتظل ليبيا غربا وشرقا خاضعة لهم إلا ثورات صغرى كثيرة أبي حاتم وثورة أبي يحيى الإباضيين وقضى على الثورتين يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤-١٧٠ هـ). وحرى بنا أن نذكر أن من أهم قضائهم الذين كانوا يرسلون بهم إلى طرابلس لنشر دعوتهم القاضى النعمان صاحب المؤلفات المشهورة في الدعوة إلى العقيدة الإسماعيلية الفاطمية، وتبع المز الفاطمى في ارتحاله إلى عاصمته الجديدة: القاهرة سنة ٣٦١ للهجرة. وكان المز قد ترك على بلاد إفريقية التونسية والمغربين الأوسط والأقصى بلكين بن زرى زعيم قبيلة صنهاجة، وجعل جبل نفوسة تابعا له، وفصل عن ولايته طرابلس وبرقة ملحقا لها بمرکز الخلافة في القاهرة، وجعل لكل منها واليا تابعا له، ولم يدم ذلك لطرابلس طويلا، فإن بلكين أُلح على الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) أن يلحقها بولايته هي ومنطقتها، وأجابته إلى أمنيته سنة ٣٦٧ وولى عليها بلكين حتى سنة ٣٧٣ هـ ولاة من قبله، وخلفه ابنه المنصور ثم حفيده باديس سنة ٣٨٦ للهجرة وأخذ يرسل إليها بدوره ولاة مختلفين، كان آخرهم عسيلة بن بكار سنة ٣٩٠ فخانه بتسليمها إلى يانس الصقل حاكم برقة، وأرسل إليه باديس أحد قواده على رأس جيش حاصر طرابلس. وفي هذه الأثناء تسلل إلى طرابلس مفامر من قبيلة زناتة يسمى فلغل بن سعيد واستولى عليها وأسس بها دولة بنى خزرون، وأخذت تكثر بها الاضطرابات والمنازعات بين أفراد الأسرة ومن الطريف أنه تأسس في طرابلس حينئذ مجلس شورى يساعد الحاكم الخزرونى في تصريف الأمور، وأول من رأسه على بن محمد بن المنمر، وقد قضى هذا المجلس على آثار المذهب الشيعى في طرابلس وثبت المذهب المالكى السنى بها، وظلت أسرة بنى خزرون تحكم طرابلس حتى منتصف القرن الخامس الهجرى. وإذا ولينا وجوهنا نحو برقة في تلك الفترة وجدنا أمويا أندلسيا يسمى أباركوة يدعو لنفسه فيها بالخلافة، ويتبعه بنو قررة البرقيون أصحاب الجبل الأخضر، ومحاربون معه الفاطميين ثم يتخللون عنه ويقتل. وتظل الزعامة في برقة لبنى قررة طوال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى.

من الهجرة الأعرابية إلى منتصف القرن العاشر الهجري

هاجرت إلى ليبيا وإفريقية التونسية والمغرب الأوسط جموع أعرابية كبيرة من قبائل بنى سليم وبنى هلال كان القرامطة في البحرين قد ضموها من نجد إلى جيش ضخم نازلوا به الفاطميين في الشام ومصر، وما كادت تدخل في الديار المصرية حتى انضمت إلى الجيش الفاطمي، مما كان سببا في اندحار الجيش القرمطي وارتداده إلى البحرين، وقد نقلها العزيز باقة الفاطمي إلى الضفة الشرقية على النيل بالصعيد الأعلى، وظلت هناك مصدر قلق واضطرابات لأهل الريف الصعيدى، مما جعلها تتحول إلى مشكلة كبرى للحكم الفاطمي بمصر. ودار الزمن دورات وإذا الحاكم الصنهاجي الرابع المعز بن باديس (٤٠٦ - ٤٥٤ هـ) في إفريقية التونسية والمغرب الأوسط يؤثر المذهب السني مشايعة لشعبه المغربي ويقطع الدعوة الفاطمية الإسماعيلية منضويا تحت لواء الخليفة العباسي سنة ٤٣٨ للهجرة، وامتلا الخليفة الفاطمي المستنصر سخطا وموجدة عليه، ولكن ماذا يفعل وهو لا يملك من الجند والجيوش ما يستطيع به القضاء على المعز بن باديس، وانتهاز الفرصة وزيره الحسن بن علي البازوري، فأشار عليه بإقطاع مشايخ بنى سليم وبنى هلال أعمال المعز بن باديس في المغرب الأدنى والأوسط وهجرتهم إليها مع قبيلتيهما، وقال له إنهم إن ظفروا بالمعز وقبيلته: صهاجة تحققت أمنيته وصاروا أولياء للدولة وعمالا لها في تلك الأنحاء القاصية مع زوال عيشتهم وفسادهم عن أهل الصعيد بمصر، وإن هم لم يظفروا بالمعز نكن قد تخلصنا منهم، ودبرنا له ما يقضى عليه. ووقعت المشورة من نفس المستنصر موقعا حسنا، واستدعى مشايخ القبيلتين وقال لهم: «قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن باديس الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقروا» وأغرى الشيوخ بجوائز كبيرة، وأمر لكل بدوى من القبيلتين ببيعير ودينار. وانطلقت جموع بنى سليم وبنى هلال بفروعها (الأنبيج وزغبة ورياح وجشم وعدى وربيعة والزواودة) سنة ٤٤٣ للهجرة إلى برقة وانسابوا فيها بخيلهم ورجلهم ينهبون ويسلبون واستقرت فيها مجاميع من بنى سليم، وتقدمت بقية هذه القبيلة مع بنى هلال بفروعها إلى طرابلس وإفريقية التونسية، وكان يتولى قيادتها جميعا يحيى الرياحي شيخ بنى رياح الهلاليين، ولما استقرت جموع القبيلتين في طرابلس انعقدت له الرئاسة فيها وفي انتقالهم إلى إفريقية التونسية، ولا يعرف عدد من دخل المغرب من القبيلتين، ويرى بعض المؤرخين أنهم لم يكونوا يقلون عن خمسمائة ألف ويقول ابن خلدون إنهم كانوا يسرون في جموعهم كجراد منتشر لا يرون على شيء إلا أتوا عليه، فهم يطلقون

قطاعاتهم من الإبل والغنم على الزروع وهم يخربون المنشآت والقصور ويقتلون الأوباب ويقدمونها وقوداً للنار. وحققا قد يكون ابن خلدون مسرفاً فيها وصف به القبيلتين المذكورتين من النهب والسلب وتخريب العمران ولكن من الحق أيضاً أن أعراب هاتين القبيلتين لم يكونوا مثل عرب الأجيال العربية الأولى الذين فتنوا بلدان الدولتين الساسانية والبيزنطية وأقاموا دولة الإسلام الكبرى المجيدة، إذ لم يكونوا جيوشاً نظامية، وكانوا يبدوا لا صلة لهم بالحضارة، ولم يكن لهم في هجرتهم إلى المغرب لا هدف ديني ولا هدف قومي، كما كان الشأن في فتوح العرب الإسلامية الكبرى وقد نازلمهم المعز بن باديس في مكان يسمى حيدران بالقرب من قابس ودارت عليه الدوائر ودخلوا القيروان سنة ٤٤٦ ونهبوها وخربوها، واضطر أن ينسحب منها إلى المهدية عاصمة الفاطميين بالقرب منها وبها توفي سنة ٤٥٤ للهجرة. وظل هؤلاء الأعراب سادة القسم الأكبر من إفريقية التونسية وسادة طرابلس إلى عهد الموحدين في القرن السادس الهجري.

وقد تحولت برقة منذ هجرة بنى سليم إليها في أواسط القرن الخامس الهجري من حياتها المستقرة في المدن الشمالية والواحات الداخلية إلى مشيخات بدوية لبنى سليم واستحالت في جميع أجزائها إلى مراعى واسعة، وظل ذلك فترة طويلة نحو مائة عام، بل تزيد وكانت في أثناء ذلك تدين بالولاء لمصر، وانشغل حكامها عنها بالحروب الصليبية وتزعزع هذا الولاء في أواخر زمن الدولة الفاطمية لهذا السبب. ونرى صلاح الدين الأيوبي حين قضى على تلك الدولة يفكر في برقة وفرض ولاء مصر عليها وعلى إفريقية التونسية، ويكلف بهذه المهمة ابن أخيه المظفر تقي الدين، فنستولى فرق أو كنانب من جيشه على أجزاء من برقة ويعهد إلى اثنين من قواده - ربما بمشورة صلاح الدين - بإتمام هذه المهمة، هما إبراهيم بن قراتكين وقراقوش، أما ابن قراتكين فتوغل في أوائل العقد الثامن من القرن السادس في ليبيا، ومضى حتى بلغ قفصة في إفريقية التونسية، واتخذها مقراً له، واستقر بها إلى أن فتكت به دولة الموحدين المغربية سنة ٥٨٣ ودخلت قفصة في حوزتهم. وأما قراقوش فقد مضى إلى أوجلة فافتتحها، وتقدم إلى قرآن فاستولى على عاصمتها زويلة من بنى الخطاب واتجه إلى الشمال واستولى على طرابلس سنة ٥٧٩ فترة وتقدم فاستولى على قابس، ومنه استردها الموحدون بعد استردادهم لقفصة من ابن قراتكين سنة ٥٨٣ عما اضطره إلى إعلان طاعته لهم، غير أنه عاد إلى العيث والإفساد واضعاً يده في يدى ابنى غانية على ويحى حين عانا في إفريقية التونسية ضد الموحدين، وبعد مغامرات شتى مع من انضم إليه من بنى سليم قتل سنة ٦٠٩ للهجرة، وظلت برقة بعده موالية لمصر طوال العصر الأيوبي، واطرد ولاؤها في زمن المعاليك، ونرى الظاهر بيبرس سلطانهم (٦٥٨-٦٧٦ هـ) بطل موقعة عين جالوت ضد التتار الذى دفع سيولهم عن الشام إلى غير

رجعة يُولى برقة اهتمامه منذ سنة ٦٦٢ للهجرة ويُولى عليها شيخا حصيفا من بنى سليم هو عطاء الله بن عزاز، ويكل إليه جباية الزكاة من الإبل والأغنام وعُشُر الزروع والثمار. وحين غزا لويس التاسع تونس سنة ٦٦٨ بعد إخفاقه المشهور في غزو مصر وأسره في دار ابن لقمان بالمنصورة أمر ببيرس ابن عزاز بإرسال نجدة سريعة إلى تلك المدينة، وأخفقت غزوة لويس التاسع لها، ومات مقهورا تحت أسوارها. وكانت بعض البلدان في برقة تتور أحيانا على ابن عزاز، فكانت مصر تسارع إلى تأييده على نحو ما حدث في طلمیة شمالى بنغازى وعودتها سرىا إلى الطاعة. وظل بنو عزاز يتولون برقة ويصرفون شئونها ويشرفون على قبائلها إن لم يكن فيها جميعا ففى أكثر بلدانها وبواديها. وفي النصف الأول من القرن التاسع الهجرى نازعهم فيها عُريف بن عمر وابنه. وتظل برقة موالية لمصر إلى أن استولى العثمانيون على القطر المصرى من أيدى المماليك سنة ٩٢٣ للهجرة، وطبعى أن يمدوا سلطانهم إلى برقة التى ظلت تدين بالولاء طويلا لمصر، وظلت تستشعر هذا الولاء إلى أن ضمها إلى طرابلس العثمانى محمد الساقلى (١٠٤٣ - ١٠٥٩ هـ). إلى ولايته.

‘ وتاريخ طرابلس ينفصل عن تاريخ برقة منذ انضمامها إلى إفريقية التونسية سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م فى عهد حكامها من بنى زيرى الصنهاجيين، وقد استقل بها بنو خزرون منذ أواخر القرن الرابع الهجرى إلى نحو سبعين عاما، وتكسحها الهجرة الأعرابية الكبيرة لبنى هلال وبقايا بنى سليم، وتغافى من ذلك طويلا، وفى هذه الأثناء زالت السيادة العربية عن صقلية وسقطت فى حصر النورمان سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م نهائيا، وحينئذ أخذت تتراعى فى الأفق نذر خطر جسيم على الساحل الإفريقى، فقد استولى النورمان على مالطة سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٣م وأعلن روجار الثانى ملك صقلية الحرب الصليبية على الساحل الإفريقى سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م وجهز أسطولا يحاصر طرابلس ويحرق سورها، ولم يلبث شيخ من شيوخ العرب هو أبو يحيى بن مطروح التميمى أن استخلص طرابلس لنفسه، ونازعه فى سيادتها وسلطانها بعض أهلها، ونشبت بينها الحرب، وكان النورمان يعلمون ما صار إليه الشمال الإفريقى من ضعف الدولة الزيرية الصنهاجية وانزواء تميم بن المعز وأبنائه فى المهديّة وأنحائها وما تبهم من شريط ساحلى ضيق، به جزيرة جربة وصفاقس وقابس، ولم يلبث الأسطول النورمانى أن استولى على المهديّة وجزيرة جربة وصفاقس سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م وعاد إلى طرابلس يريد الاستيلاء عليها، وبدلا من أن تقدم الفئتان المتنازعتان فى طرابلس أسلحتها ويوجهها إلى صدور أعدائهما الصليبيين ظلا يتحاربان ويقتلان، وبذلك هبّا الفرصة لأعدائهما النورمان، ففسلقوا الأسوار، ودخلوا طرابلس وأمنوا فى النهب والسلب والقتل وفرضوا على أهلها جزية يؤدونها لملك صقلية، وتركوا

حكمتها في يد أبي يحيى بن مطروح، فحكمها حكما شوريا، إذ ألف لها مجلسا مكونا من عشرة شيوخ كانوا يعقدون اجتماعاتهم في مسجد خارج المدينة للتشاور والتداول في تدبير أمورهما. وظل النورمان الصقليون يحكمون طرابلس أكثر من عشر سنوات، ولاح لابن مطروح وأهلها نور قوة كاسحة في المغرب الأقصى، هو نور دولة الموحدين التي أخذت تستولى على بلدان المغرب، فعظم الأمل في نفوس الطرابلسيين أن تمد إليهم يد العون في التخلص من حملة الصليب، وما توافى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م حتى يشتد بهم الغضب لأدائهم جزية لنصارى صقلية، وفي إحدى الليالي يجمعون على الحامية الصقلية، فيحرقون بيوتها بالنار حرقا، ويذبحونها عن آخرها ذبحا، حتى لا يفكر النورمان في النزول بطرابلس ثانية. وينزل خليفة الموحدين عبدالمؤمن بن علي المهدي سنة ٥٥٥هـ بعد طرد النورمان من ساحل إفريقية التونسية نهائيا، وفد عليه ابن مطروح على رأس وفد من رجالات طرابلس، ويحتفى بهم، ويولى ابن مطروح حاكما على طرابلس من قبله، وما زال يتولاها حتى أدرسته الشيخوخة، فرأى في سنة ٥٨٦ للهجرة أن يؤدي فريضة الحج فاستأذن أبا زيد بن أبي حفص والي تونس للموحدين، وأذن له واستقل سفينة، واضطرت في طريقها إلى الإسكندرية أن تتوقف قبل الوصول إليها ورست في موضع لا يزال ينسبه المصريون إليه هو: «مرسى مطروح» المدينة المعروفة الآن على الشاطئ المصرى. وتبته عبد المؤمن خليفة الموحدين للانتفاع بأعراب بنى سليم وبنى هلال في جهاده لأعداء الدين الحنيف في الأندلس، فكلّف القاضي ابن عمران بنظم قصيدة يستحث فيها بنى سليم للجهاد في نصرة الإسلام كما نصره أبائهم قديما، وصنع صنيعة ابنه يوسف حين اعترزم غزو نصارى الأندلس سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م إذ طلب إلى صديقه ابن طفيل الفيلسوف الأندلسي المشهور أن يستنفر الأعراب بقصيدة حماسية، فنظم قصيدة تتأجج حماسة ملتهمبة استهلها بقوله:

أقيموا صدور الحثيل نحو المغارب لغزو الأعداء واقتناء الرغائب

وتأخر وفودهم على يوسف خليفة الموحدين، فأرسل إليهم ابن طفيل قصيدة ثانية، فلبى يوسف كثيرون منهم انتظموا في جيشه المتجه لغزو النصارى في الأندلس، وأكبر الظن أن ابنه يعقوب خليفة الموحدين بعده جند منهم كثيرين في جيشه المظفر الذي جاز به إلى الأندلس، وأوقع بالقتالين ومن كانوا معهم من نصارى الشمال وقعة الأرك المشهورة سنة ٥٩١ التي مرق في فيها أعداء الدين الحنيف كل مرق.

ومر في حديثنا عن برقة أن المظفر تقي الدين ابن أخى صلاح الدين الأيوبي كان قد أرسل إلى ليبيا وإفريقية التونسية قائدتين من قواده للاستيلاء عليها، هما إبراهيم بن قراتكين وقرافوش وأن الأول استطاع الاستيلاء على قفصة بإفريقية التونسية إلى أن استولت عليها

دولة الموحدين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وأن الثاني استطاع الاستيلاء على أوجلة وفران. كما استولى على طرابلس فترة محدودة سنة ٥٧٩م بعون بني رياح وبني دياب الهلاليين، واتجه غربا واستقر في قابس بإفريقية التونسية، واستولى عليها منه الموحدون سنة ٥٨٣م وفي هذه الأثناء كان علي بن غانية صاحب ميورقة حفيد يوسف بن تاشفين يضغط على دولة الموحدين لإزالة ملك أسرة ابن تاشفين أصحاب دولة المرابطين من المغرب والأندلس، فرأى أن يقدم على أعراب طرابلس ويكون منهم جيشا لحرب الموحدين واسترداد ملك المرابطين، ووجد قراقوش يحاول دفع هؤلاء الأعراب للانتفاض على الموحدين، فوضع يده في يد قراقوش مددا متطاولة مثيرين للقلق والاضطرابات في المنطقة، وحين استولى الموحدون من قراقوش على قابس أعلن طاعته لهم مداراة ومكرا، ودار العام ففكك الموحدون بعلي بن غانية سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م وكان يرافقه أخوه يحيى، فخلفه في الشغب على الموحدين، واشتبك مع جنودهم في معارك مختلفة، واشترك مع قراقوش في الاستيلاء على طرابلس سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م واختار يحيى بن غانية واليا عليها تاشفين بن غازي، ووالته قابس وصفاقس، وفسد ما بينه وبين قراقوش، فحاصره في ودان جنوب مدينة سرت حتى نفذ زاده واضطر إلى الاستسلام وقتله وصلبه سنة ٦٠٩م واسترد الموحدون طرابلس سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م وأداروا مع يحيى بن غانية بالقرب من تونس سنة ٦٢١م معركة حامية الوطيس هزم فيها هزيمة ساحقة، وفر إلى الجنوب هاربا، وظل يتنقل بين الأعراب إلى أن توفي سنة ٦٣١ للهجرة. وظلت طرابلس - منذ استولى عليها الموحدون - تتبع حاكم تونس - وتطورت الظروف سريعا وأسس بتونس أبو زكريا الحفصى الدولة الحفصية سنة ٦٢٥، وأخذ في العمل على تأسيسها وعاشت قرونا متوالية حتى القرن العاشر الهجري. وعاشت طرابلس في إطار سيادتها وأخذت تسترد نشاطها الزراعي والتجاري، واشتهر من قضاتها الطرابلسيين في أوائل هذا العصر أبو موسى عمران بن معمر الهواري، وظل يقوم على القضاء العادل البصير بها حتى سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وطارت شهرة أحكامه وفتاويه إلى تونس وسلطانها المستنصر الحفصى فاستدعاه وأستد إليه القضاء في عاصمته: تونس. وولى إفريقية التونسية بعد المستنصر ابنه الواثق يحيى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م وخلع سنة ٦٧٨ للهجرة وتولاها عمه إبراهيم. وظهر - حينئذ - دعوى من بخاية يسمى ابن أبي عمارة أحمد بن مرزوق طمع إلى الملك فترك مهنة الحياكة التي كان يمتنها في بلدته، ونزح إلى سجلماسة، وأدعى في الأعراب هناك أنه المهدي المنتظر، وبأيامه بعضهم، غير أنه شعر أن دعوته لن تنجح هناك، فتركهم، ونزل بين أعراب طرابلس، وأدعى أنه ابن الخليفة الواثق المخلوع وأن اسمه الفضل وبأيامه كثيرون من بني سليم على نصرته، ودانت له طرابلس وبعض البلدان في غرب ليبيا وشرقي تونس وتقدم فاستولى على تونس سنة ٦٨١م وولى على طرابلس مرغم بن صابر من بني سليم، وأسره الصقليون في بعض غاراتهم سنة ٦٨٢ للهجرة، وباعوه لملك أراجون البرشلوني.

ولم يلبث الخليفة الحفصى عمر بن أبى زكريا أن استرد ملك آباءه الحفصيين سنة ٦٨٣ وأرسل إليه والى طرابلس محمد بن عيسى المختار رسالة مدعنا فيها لطاعته. وفى سنة ٦٨٨ أرسل ملك أراجون سنة ٦٨٨ مع أسيره مرغم بن صابر حملة إلى طرابلس يريد الاستيلاء عليها وبامت بالفشل النزع. ونزل بطرابلس سنة ٧٠٨ أمير حفصى فى أثناء توجهه إلى أداء فريضة الحج هو أبو يحيى زكريا بن محمد اللحيانى وفى عودته سنة ٧٠٩ أقام بها فترة جعلت أهلها يحلونه ويقدرونه. وكان الحكم فى إفريقية التونسية قد ساء سوءاً شديداً، إذ تولاها خليفتان اختلت الدولة فى عهدهما اختلالاً سيئاً. فتحدث كثيرون من أهل طرابلس إلى الأمير المذكور بحرّضين له على تولّى مقاليد الخلافة بتونس حتى يصلح شئون الحكم بها وتمهدوا له بتأييده ونصرته، ونجحت الخطة. واحتل اللحيانى تونس سنة ٧١١هـ/١٣١١م وأخذت له فيها البيعة. وظل يلى شئونها ويصرف أمورها تصرفاً حسناً لمدة ست سنوات، ونهض فى آخرها لمقاومته أمير قسنطينة بالجزائر وكأنما داخله اليأس من الانتصار عليه، فلجأ إلى طرابلس آملاً أن يعود منها بجموع تنصره، وترك الحكم فى تونس لابنه محمد الملقب بأبى ضربة، وأخذ يكوّن فى طرابلس جيشاً فتح به كثيراً من البلدان الليبية، غير أن أمير قسنطينة تغلب على ابنه أبى ضربة، وشعر أن وضعه فى طرابلس لم يعد آمناً، فرحل من طرابلس بهراً إلى الإسكندرية وحل بها ضيقاً على السلطان قلاوون إلى أن توفى، أما طرابلس فقد ترك الحكم فيها إلى صهره محمد بن عمران، وظل يلى شئونها إلى أن تار عليه أهلها سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م واختاروا بعده لحكمهم شخصاً من أسرة طرابلسية نابهة هو ثابت بن محمد بن ثابت بن عمار، وبه تأسست دولة بنى عمار فى طرابلس من سنة ٧٢٤ للهجرة إلى سنة ٨٠٣ وظل الأميران الأولان من هذه الأسرة يسوسان طرابلس وإقليمها سياسة حسنة، ويقول ابن خلدون إن تجاراً من جنوة كانوا يترددون على طرابلس ولا حظوا ضعف تحصيناتها لعهد أميرها الثالث من بنى عمار ثابت بن محمد بن ثابت وأغرامهم ذلك بمهاجرتها، وتجمع أسطولهم فى موانئها، وانتشروا فى أسواقها يتظاهرون بأن غرضهم التجارة ومبادلة السلع وفى الليل أو فى إحدى الليالى سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م تسلقوا أسوار طرابلس واستولوا عليها فى غفلة من أهلها، وفرّ ثابت أو حاول الفرار فى أثناء حصارهم لقصره بها، ورآه بعض الأعراب بمن يعادى قبيلته فقتله. وظل الجنويون بطرابلس نحو عام، ودفعت الحمية لأهلها وللدين الحنيف أبابالعباس أحمد بن مكى حاكم قابس فى إفريقية التونسية إلى أن يفاوض قائد البحرية الجنوبية لإخلاصها والنزوح عنها فطلب لقاء ذلك حسين ألف دينار ذهباً، فجمع ما عنده وأكمل ما بقى من أهل قابس والحامّة وبلاد الجريد، دفعوها له متحمسين، وأداها ابن مكى، وبارح الجنويون طرابلس بعد أن تركوا لهم فيها قنصلية ومستودعاً لبيع سلمهم. وتولى شئونها ابن مكى حتى وفاته سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م وخلفه عليها ابنه عبدالرحمن. وكان أحد أبناء أسرة بنى عمار: أبو بكر بن محمد بن ثابت فرّ عنها - حين نزلها الجنويون -

إلى الإسكندرية، فعاد إليها سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م في أسطول، فحاصرها، وأعانه أهلها في استيلائه عليها، حتى يتخلصوا من عبد الرحمن لسوء سيرته. ولما استولى عليها أبو بكر استسلم له عبد الرحمن، فأرسله مكرماً إلى بلدة قومه قابس، وظل أبو بكر يدبّر شئون طرابلس عشرين سنة. وخلفه عليها أخوه عمران حتى سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م وأخذ أبناء الأسرة يحملون السلاح بعضهم ضد بعض، وحاول أحدهم وهو علي بن عمار الاستعانة بملك صقلية المسيحي مما جعل السلطان الحفصي أباً فارس عبدالعزيز يذهب إلى طرابلس بنفسه سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م ويعزل عنها آخر ولاتها من بني عمار: يحيى بن أبي بكر ويعيدها إلى حظيرة الدولة الحفصية ويولى عليها أحد قواده، وبذلك انتهت دولة بني عمار في طرابلس. وظل الولاة الحفصيون يلون شئونها في القرن التاسع الهجري، وكانوا يوجهون إليها أحياناً بعض حملات، وآخرها حملة أبي عمرو عثمان الحفصي سنة ٨٦٣ وبلغ فيها تاجوراء شرقى طرابلس. وحين أخذت الدولة الحفصية في الضعف أخذت طرابلس تحكم حكماً ذاتياً بمجلس شورى يرأسه أحد الشيوخ النابيين، وكان آخرهم الشيخ عبد الله الذى رأس مجلسها وحكمها منذ سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م إلى أن هاجمها الأسطول الإسباني سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م.

وكان يتولى إسبانيا فرديناند الكاثوليكي الذى استولى على غرناطة من يد أبي عبدالله الصغير وأخرج العرب من الأندلس وقد سؤل له شيطانه أن يستأنف الحرب الصليبية بتعقبهم في الساحل الإفريقي الذى نزلوا فيه، ولم يكن للدولة الزبانية في الجزائر ولا للدولة الحفصية في تونس وطرابلس أسطول يحمى الساحل الإفريقي، واستطاع أسطول فرديناند الاستيلاء على المرسى الكبير في الجزائر سنة ٩١٠هـ/١٥٠٥م وعلى وهران سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م. وفي سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م هاجم الأسطول الإسباني طرابلس، واحتلها بعد مقاومة عنيفة من أبنائها استشهد فيها منهم كثيرون، وخرج منها أكثر سكانها إلى تاجوراء واتخذوها مركزاً لمقاومة العدو الصليبي، وبذلك توقف كل ما كان بطرابلس من نشاط وتعطلت حركتها التجارية بينها وبين الإسكندرية والشرق وأيضاً بينها وبين صقلية والبندقية وجنوة في الغرب وساءت أحوال أهلها الاقتصادية، وفي سنة ٩٣٦هـ/١٥٣٠م سلم المدينة شارل الخامس ملك إسبانيا إلى فرسان مالطة المعروفين باسم القديس يوحنا، وظلت الأحوال في طرابلس تزداد سوءاً على سوء، وظل كثير من سكانها يغادرونها إلى مدينة تاجوراء مركز المقاومة.

في العهد العثماني

كانت الدولة العثمانية بالقرن العاشر الهجري في أوج قوتها، فانتخب أهل تاجوراء وفدًا ذهب إلى إستانبول مستغيثًا بتلك الدولة طالبا منها حمايتها لطرابلس وإقليمها وطردها فرسان مالطة من ديارها، ولقيهم السلطان العثماني: سليمان لقاء كريما، وأمر فورًا الأغا مرادا بمرافقتهم للتعرف على أحوال المنطقة ونزل تاجوراء سنة ٩٥٧هـ/١٥٥٠م وأنشأ بها جامعًا ومدرسة، وأرسل إلى السلطان بالأحوال في المنطقة، فأمر سنان باشا قائد الأسطول العثماني أن ينسق كافة العمليات الحربية مع مراد أغا لإخراج فرسان مالطة من طرابلس، فأمر سنان باشا درغوت الذي كان مرتبطًا - حينئذ - ببعض قطع من الأسطول أمام الجزائر بمهاجمته لأولئك الفرسان بطرابلس وطردهم منها، وصدعوا لأمره وهاجم طرابلس، واستسلم له فرسان مالطة سريعًا سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م. وأصبحت طرابلس ومنطقتها تابعة للدولة العثمانية، وكان مراد أغا أول من شغل منصب الوالي التركي بها، فعمل نوا على ترميم القلعة وتعمير المدينة، وحول الكنيسة التي بناها فرسان مالطة بالقلعة إلى مسجد، وأخذت الحياة العامة في طرابلس تتشط ونشطت معها التجارة، وسرعان ما أصبحت طرابلس قاعدة مهمة من قواعد البحرية العثمانية في البحر المتوسط. وأدركته الشيخوخة سريعًا، فرأى ترك طرابلس سنة ٩٦٤هـ/١٥٥٦م إلى تاجوراء، لتمضية بقية حياته، وخلفه على البلاد من قبل الدولة العثمانية درغوت، وكان قائدًا بحريًا عظيمًا، فاتخذ طرابلس قاعدة كبرى لعملياته البحرية الحربية ضد قراصنة وأساطيل الأوربيين من إسبان وغير إسبان، وكثرت بها الغنائم والأسرى الأوربيين، وبذلك أعاد إلى الأذهان سيرة خير الدين (بربروس) في الساحل الجزائري واتخاذ الجزائر وغيرها من مدن هذا الساحل قاعدة لأعماله البحرية العظيمة التي ظلت ترتد لها فرائص الأوربيين، وبالمثل أنزل بهم الفزع والرعب درغوت بسفنه البحرية وجنوده من الترك والطرابلسيين المغاوير. وعنى عناية واسعة بتحسين المدينة فأنشأ بها أبراجًا مختلفة وقصرًا له ودارًا للبارود وأذن للأسرى المسيحيين بإنشاء مقبرة خاصة بهم مما يدل على كرمهم في أيامه بسبب حملات أسطوله البحرية وجهاد جنوده البحري في سبيل الإسلام وحماية ديار أبنائه المغاربة. وأنشأ بطرابلس جامعًا عظيمًا ضم رفاته حين توفي سنة ٩٧٠هـ/١٥٦٢م ووليها بعده علي ساعده الإيمن في القيادة البحرية لفترة محدودة، وخلفه عليها جعفر باشا وولاه آخرون منهم مصطفى باشا وفي عهده استولى نادر من أهل البلاد هو يحيى الجبالي سنة ٩٩٢هـ/١٥٨٤م على كل ما سوى

طرابلس من المدن والأوطان وجبى خراجها، وزحف إلى المدينة وحاصرها، واستدعت الدولة العثمانية الوالى سنة ٩٩٧هـ/١٥٨٨م لتهدة التاترين، وأرسلت أسطولاً لفك الحصار عن طرابلس وتعقب التاتر، وسرعان ما فك الحصار وهُزم يبحى الجبالى وتوغل فى الصحراء مع الأعراب، وقُتل، وانتهت ثورته.

وكانت الدولة العثمانية ترسل مع ولايتها فى الولايات المختلفة التابعة لها حاميات عسكرية من جنودها الإنكشارية، وكثرتهم كانت من أطفال البلاد الأوربية النصرانية التى كانت تحاربها أو الولايات التى كانت تدن لها بالولاء، أو من أبناء الشعب الذين رغبوا فى الانضمام إلى هؤلاء الجنود، وكانت تربيتهم تربية عسكرية إسلامية، وتؤلف منهم عدداً ضخماً فى جيوشها وترسل منهم مع ولايتها حرساً أو حامية كبيرة، وكانت الحامية تنقسم إلى فرق، ولكل فرقة رئيس منها يلقب بالداى بمعنى ملازم. وما نصل إلى القرن الحادى عشر الهجرى حتى تبرز نزعة قوية فى صفوف حاميات الإنكشارية بالولايات العثمانية المختلفة للاستقلال بها وأن يتولاهم داياتهم، وفى سنة ١٠٢٠هـ/١٦١١م نلتقى بصفر أول داي يحكم طرابلس ويدبر شئونها، وعُنى بالحرب البحرية أو الجهاد البحرى الطرابلسى مما جعل الأسرى المسيحيين يكترون بطرابلس فى أيامه. وحكم طرابلس بعده الداى مصطفى الشريف سنة ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م وفى عهده نشطت البحرية، وعنى بتحسين بعض الحصون، وتولى طرابلس بعده الداى رمضان، وكان ضعيف الشخصية، وتغلغل عن الحكم سريعاً إلى صهره محمد الساقزلى (١٠٤٣-١٠٥٩هـ/١٦٣٣-١٦٤٩م) وهو ثالث ولاية طرابلس العثمانيين العقظام بعد مراد أغا ودرغوت، وكانت له مثل درغوت شهرة بين أبطال البحر العثمانية، وكان الأسطول الطرابلسى فى عهده يتكوّن من ٢٤ قطعة، وكانت برقة قد دخلت فى طاعة العثمانيين منذ استيلائهم على مصر سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م وضّمها محمد الساقزلى إلى ولايته فى طرابلس ونشطت التجارة وحركة العمران فى عهده نشاطاً عظيماً. وتوفى سنة ١٠٥٩ للهجرة وخلفه عثمان الساقزلى وهو مثل محمد الساقزلى من أهم ولاية ليبيا، وقد طال حكمه لها إلى نحو ثلاث وعشرين سنة، وازدهرت التجارة فى عهده ازدهاراً عظيماً، كما ازدهر النشاط البحرى، وزار طرابلس لأول عهده العياشى فى رحلته المشهورة إلى الحج، وفيها يشيد بطرابلس ومبانيها وأهلها وكرمهم الفياض وواليتها عثمان الساقزلى ويقول إن له نكاية فى العدو، وله مراكب قل نظيرها معدة للجهاد، ويذكر أنه رأى ستة من هذه المراكب أو السفن وهى تخرج للجهاد أعداء الدين، وكانت تحمل نحو ألفى مقاتل خرجت - كما يقول - بمجتمعة إرهاباً للعدو حين يراها. وكانت تجلب كثيراً من الفنائم والأسرى مما جعل عثمان الساقزلى يبنى لهم سجنًا كبيراً كان به نحو تسعين غرفة أو زنازاة بجانب سجنى الداى صفر ومحمد الساقزلى، وجعل بعض القاعات فى قصر درغوت

مستشفى خاصا بالأسرى، وخصص لرعايتهم طائفة من الأطباء. وألحق بالمستشفى صيدلية لتحضير ما يلزمهم من الأدوية. وأنشأ لنفسه قصرًا بديعًا، كما أنشأ مدرسة قرب باب البحر لا تزال قائمة إلى اليوم، وبني في سنة ١٠٦٥هـ/١٦٥٤م فندقًا كبيرًا كان به مائة غرفة كما كان به بئر في ساحته، وعُني بأسواق البلدة، وكان عهده عهد أمن واستقرار وعمران مزدهر إلى أن توفي سنة ١٠٨٢هـ/١٦٧١م. وتعاقب دايات بعده ضعاف الشخصية على حكم ليبيا وكثرت تهديدات الأساطيل الأوروبية إنجليزية وفرنسية، وكانوا يشفعون التهديد بقصف طرابلس حتى تضطر إلى مفاوضاتهم وإرجاع أسراهم إليهم، وكانت طرابلس تردهم إليهم طلبًا من داياتها للمهادنة ورغبة في السلام. ومن خير ولايتها في أوائل القرن الثاني عشر الهجري محمد الإمام الذي أقام علاقات حسنة مع بعض الدول الأوروبية وخاصة فرنسا، وبني له مسجدًا بسوق الترك وجعل بناء هذا السوق وسوق الحرير. وسمح الوالي بعده خليل الأرنؤوطي (١٠٩٠-١٠٩٦هـ) لإسبانيا بإقامة قنصلية لها في طرابلس، وكان ظلوما غشوما واتخذ بطانة له من النصارى ضعف دين وسوء سياسة.

وتتردّى طرابلس وليبيا في هاوية من الصراعات والانقسامات، وينفذها منها إجماع رأى الإنكشارية على تولى أحمد القرماني طرابلس وليبيا سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م وكان شخصية قوية، فأخذ يعمل على استقلاله بليبيا وطرابلس وجعلها وراثية في أبنائه، وتلقب بأبى المؤمنين، وأخذ يعنى بشئون الدفاع عن طرابلس وتجهيد أسوارها وأبراجها وتزويد الحصون بمدافع من عيارات كبيرة، وبني مسجدًا كبيرًا وألحق به مدرسة، كما بنى بعض قصور له، منها قصر للأزيتوبا الذى نفذ فيه مذهبته للإنكشارية، إذ دعاهم إليه، وقد أكن لهم في سقوفه ودهاليزه من اغتالوهم حتى يستطيع أن يحكم البلاد حكمًا نظيفًا من شغبهم، وكأنا حاكاه محمد على - فيما بعد - حين اغتال المماليك بالقلمة. وكان حكمه حكمًا عادلاً رشيدًا، وامتد إلى نحو خمسة وثلاثين عاما، مما أعطاه الفرصة لينهض بأعمال كثيرة، من ذلك إجراؤه الماء لطرابلس على حنايا يسقى به أهلها ويستفعا به، ومنها بناء سوق فسيح الفناء وبناء بيوت ومقاصير أنيقة في القلمة، ومنها بناء فسقية بقرب البحر لينهل منها أهل السفن من أسطوله وغيرهم، وفي سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م اندفع إلى طرابلس أسطول فرنسي في مظاهرة بحرية ليرغم القرماني على رد بعض غنائم لأسطوله ورد الحرية إلى الأسرى الفرنسيين ودفع بعض التعويضات، فرفض مطالبه بعنف، وأخذ الأسطول الفرنسى يقذف طرابلس بالقنابل قذفا شديداً لمدة ثلاثة أيام والقرماني مصر على موقفه ونفذت ذخائر الأسطول الفرنسى فانسحب إلى البحر ولم يعد ثانية إلى المياه الطرابلسية. وحمد له الطرابلسيون هذا الموقف الشجاع. وانتعشت الحركة التجارية لعهد انتعاشًا كبيرًا إلى أن توفي سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م وخلفه ابنه محمد حتى سنة

١١٦٧ هـ/ ١٧٥٣ م وكان عهده عهد أمن ورخاء واستقرار كمهد أبيه وخلفه ابنه على الذى ظل بيده صولجان الحكم فى طرابلس وليبيا لنحو أربعين عاما إذ توفى سنة ١٢٠٨ هـ/ ١٧٩٣ م وتميزت الفترة الأولى من عهده بالأمن والرخاء ونشاط الزراعة والتجارة، حتى إذا كانت سنة ١١٩٩ هـ/ ١٧٨٤ م حدثت كارثة خطيرة عصفت بطرابلس وإقليمها: كارثة مجاعة كبرى ظلت عامين وانتشر معها وباء الطاعون، وانهار لذلك اقتصاد طرابلس فى العهد الأخير لملى القرمائلى، وظلت لهذا الانهيار بعده آثار غير قليلة، وفى عهده أقامت دول البحر المتوسط الأوربية قنصليات لها فى طرابلس مع مصادفته على ما مُنحته من امتيازات أجنبية، مما يدل على حمقه وهوجه وقصر نظره. وبعد وفاته حدثت انقسامات بين أبنائه على الحكم، وقتل ابنه يوسف أخاه الحسن، وشق عصا الطاعة عليه أخوه أحمد، وانتهاز الفرصة مفامر عثمانى هو على برغل كان يقود بعض سفن صغيرة مسلحة فى البحر المتوسط، فنزل طرابلس واستولى عليها سنة ١٢٠٨ هـ/ ١٧٩٣ م دون مقاومة تذكر، وغضب لذلك باى تونس، إذ استغاثت به الأسرة القرمانية، وردت إليها سنة ١٢١٠ هـ/ ١٧٩٥ م وتولى مقاليد الحكم بطرابلس وليبيا يوسف القرمائلى، ومهما كانت الطرق التى سلكها مع إخوته للاستيلاء على الحكم فإنه كان حاكماً ممتازاً، ونعمت البلاد فى عهده بالأمن والرخاء والانتعاش التجارى ونشاط العلاقات بين طرابلس ومدن الشواطئ والانفتاح على الغرب والتعرف على مدنيته، مما أعدها لاستقبال العصر الحديث.

وكانت الأقطار العربية قد أخذت تستمد - منذ فاتحة القرن التاسع عشر الميلادى - لاستقبال هذا العصر عقب نزول الحملة الفرنسية مصر واندحارها بفضل مقاومة الشعب المصرى. وقد أيقظ هذا الحدث الخطير البلاد العربية جميعا من سبات عميق كان قد استغرقها منذ احتلال العثمانيين لأراضيها فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، وأخذت كل منها تستشعر شخصيتها وتحاول انبعاثها انبعاثا جديداً بصور تختلف سرعتها باختلاف ظروفها الخاصة، وكانت مصر أسرعها إلى هذا الانبعاث، وهو انبعاث كان يقوم فيها - وفى جميع الأقطار العربية - على ركنين: ركن التمسك بالتراث الإسلامى العربى على نحو ما يمثلته الأزهر، وتخصض هذا التمسك فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر عن ظهور الشيخ محمد عبده ودعوته الإصلاحية الدينية الكبيرة، والركن الثانى ركن التعرف على ما سبقت إليه أوروبا فى ميادين العلم والأدب والحضارة، مما جعل مصر تسبق شقيقاتها العربيات فى إرسال البعث إلى الغرب وإنشاء المدارس العلمية المختلفة فى الطب وغير الطب لمهد محمد على.

وفى رأينا أن فجر العصر الحديث بليبيا أخذ ينشر أضواءه بطرابلس فيها لمهد يوسف القرمائلى وإن لم تكن أضواء مكشحة، ولكنها أضواء على كل حال، إذ أخذ يوسف يحاول

انفتاح طرابلس على الغرب، عن طريق عنابته بأسطوله وما كان يحمي منه من اتفاقيات الحماية الكثيرة لسفن الدول الأوروبية في البحر المتوسط. وكانت الدولة تأخذ من ذلك إتاوات واسعة تفرضها على تلك الدول، وكان من بينها السويد، فطالبها يوسف بمائة ألف فرنك هدية وبدفع إتاوة سنوية قدرها ثمانية آلاف فرنك. وامتنع قنصلها في طرابلس من أداء ما طلبه يوسف، فأمر بإغلاق قنصلته، واستولى أسطوله على بعض السفن السويدية في البحر المتوسط، ووسّطت السويد ناهليون عند يوسف، فوافق على أن تخفّض الهدية إلى ثمانين ألف فرنك، وتظل الإتاوة البحرية السنوية كما هي: ثمانية آلاف فرنك، وأعاد يوسف إلى السويد سفنها الأسيرة. ورأى في سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م أن يفرض على السفن الأمريكية التي تمر عبر باب البحر المتوسط إتاوة سنوية على شاكلة ما يفرض على السفن الأوروبية، وأبّت تلك السفن أن تدفع شيئاً، فصادها، وحاصر الأسطول الأمريكي طرابلس عشرين يوماً، وهزمه الأسطول الطرابلسي، فانسحب إلى مالطة - ووسّط الأمريكيون القنصل الإنجليزي ووالى الجزائر العثماني، وقبّل يوسف وساطتها، وردّ إلى الأمريكيين سفنهم.

وواضح أن طرابلس احتلت لعهد يوسف القرماني مكانة كبيرة في العلاقات الدولية لم تحظ بها في أي عهد سابق، لا بما كانت تفرضه من إتاوات سنوية على سفن الدول الأوروبية فحسب، بل أيضاً بكرة الوفود الأوروبية التي كانت تقدم على طرابلس للتفاوض والتصالح أو للتهديد والوعيد أو لدفع الإتاوات المفروضة. وكل ذلك كان بشارة العصر الحديث في ليبيا واستعمار طرابلس لشخصيتها العربية بقوة، غير أن المسيحيين الأوروبيين كانوا لهذه النهضة بالمرصاد، فتجمعوا في مؤتمر إكس لاشابيل سنة ١٢٢٣هـ/١٨١٨م وقرروا تفويض الدول الأوروبية منع الإتاوات البحرية لمدن الشمال الإفريقي: طرابلس وغيرها وما يتصل بتلك الإتاوات من جهاد رجال البحرية الإفريقية في البحر المتوسط، وسموه قرصنة. وأخذت طرابلس تشهد مظاهرات واستعراضات لأساطيل إنجلترا ودول البحر المتوسط، وأخذت تلك الأساطيل ترغم يوسف القرماني على تحرير الأسرى المسيحيين والكف عن الغارات البحرية، ففقدت طرابلس مورداً كبيراً من المال كانت تعتمد عليه في إدارة البلاد ونهضتها، وأخذ يوسف القرماني يشعر بالضيق، ويزداد ضيقه سنة بعد أخرى لتراكم الديون على الدولة، مما دفعه في النهاية إلى أن يتنازل لابنه على القرماني عن الحكم سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م. ولم تكد تستدير ثلاثة أعوام حتى استردت الدولة العثمانية طرابلس وليبيا، إذ أرسلت إليها حاكماً جديداً استسلم له على القرماني، وبذلك انتهى عهد الأسرة القرمانية في طرابلس وليبيا، وتعاقب عليها ولاية عثمانيون طوال القرن التاسع عشر، وأخذ كثيرون منهم يستجيبون لمقتضيات العصر الحديث من التطور بطرابلس وليبيا وبأسلوب الحكم.

وظلت صور التعليم القديم في الكتائب والزوايا وحلقات المساجد قائمة، وعُنى العثمانيون بإنشاء مدارس تركية في مدن طرابلس والخمس وبنغازي ودرنة، وكان يراد بها إلى تخريج موظفي الدولة، وألم الطلاب فيها ببعض العلوم المصرية مما يصلهم بالحياة المصرية بعض الاتصال. وأخذت إيطاليا تنشيء مدارس لها في طرابلس والخمس تصل من يتعلمون بها باللغة والثقافة الإيطاليين إعدادًا خبيثًا لما كانت تنتويه من احتلال ليبيا. وكان القرن التاسع عشر في ليبيا يحمل كل ذلك وأهم منه الزوايا السنوسية التي بدأ إنشائها محمد بن علي السنوسي الجزائري الأصل والمولد والأسرة وكان قد طوف بالبلاد المغربية وتغلغل في الصحراء الجنوبية لتلك البلاد حتى السودان، وشاهد زوايا المتصوفة المنبئة في تلك الأنحاء، وأدى فريضة الحج سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٥م وظل بمكة خمسة عشر عاما عرف في أثنائها الدعوة الوهابية وما تدعو إليه من الرجوع إلى مصادر الإسلام الأولى من القرآن الكريم والحديث النبوي، فرأى أن يدعو نفس الدعوة، وأن يتخذ لدعوته نظام الزوايا المعروف في البلاد المغربية، ولكن أي بلاد المغرب يختاره لزواياه. إن الطريقة الشاذلية تعم المغرب الأقصى وتونس وتعم الجزائر طريقة أبي مدين، وتزاحم الطريقتين في تلك البلدان طرق أخرى بينا ليبيا - وخاصة برقة فيها - لاتشيع بها طريقة صوفية معينة، وكان قد زار أنحاءها البدوية ورأى أهلها غارقين في دياجير الجهالة ببادئ الإسلام وتعاليمه وهم لذلك في حاجة إلى داع ودعوة تهديهم إلى سبيل الرشاد. ونزل برقة، وأقام لنفسه الزاوية البيضاء في الجبل الأخضر بها، ورأى الناس يستجيبون لدعوته، فعاد إلى مكة وكان قد ترك بها أهله، ثم رجع إلى برقة ونقل مركز دعوته من الزاوية البيضاء إلى واحة جغبوب، وأخذت الدعوة السنوسية تنتشر في عهده وعهد ابنه محمد المهدي، حتى أصبح لها نحو مائة زاوية في بوادي برقة وحضرها في بنغازي ودرنة. وبذلك عمت البقعة الإسلامية العربية التي كانت أضواؤها أخذت تتغلغل إلى طرابلس وإقليمها في عهد يوسف القرماني إذ أشاعتها الدعوة السنوسية في بوادي برقة وحضرها. ولعل في ذلك كله ما يوضح كيف كان القرن التاسع عشر مبدأ تاريخ ليبيا الحديث وكل ما يتصل به من أدب وغير أدب.

الفصل الثاني

المجتمع الليبي^(١)

١

عناصر السكان

سكان ليبيا - منذ الأزمان السحيقة - سلالات عريقة من البربر الذين استوطنوا قديما الشمال الإفريقي من مصر إلى المحيط الأطلسي، واختلف المؤرخون في بيان أصل منشئهم، فمن قائل إن جدودهم هاجروا إلى بلاد المغرب من فلسطين، ومن قائل إنهم عرب هاجروا من جنوب الجزيرة؛ من حمير، ويقال بل إن أصلهم من عرب الشمال، ويقول الطبري إنهم أخلط من كتعان والماليق وغيرهم، ويقول ابن خلدون إنهم من ولد كتعان بن حام. وعلى هذا النحو يضطرب المؤرخون في أصلهم وهل هم من العرب الساميين أو هم حاميون أو هم من الفلسطينيين الذين أخرجوا قديما من ديارهم. ومعروف أن قبائل منهم حين اعتنقت الدين الحنيف وتعرّبت انتسبت إلى حمير أو إلى بعض القبائل العدنانية، وهو إحساس عميق بأنهم يرجعون إلى أصول عربية.

وليس هؤلاء السكان للشمال الإفريقي هم الذين سمو أنفسهم بربراً، إنما سماهم بذلك الرومان أخذاً من الكلمة الإغريقية: «بربروس» ومعناها: الأجنبي الذي يتكلم لغة غير

وكتاب السير للشماخي ولهبيا في كتب الجغرافيا والرحلات لإحسان عباس ومحمد يوسف نجم وتاريخ طرابلس الغرب لمحمود ناجي (طبع بيروت) وتاريخ ليبيا لإحسان عباس والإباضية في موكب التاريخ لمعمر ونفعات التشرين والنهل المذهب لأحمد النائب الأنصاري وأعلام ليبيا للزواوي والنشاط الثقافي لأحمد مختار عمر وليبيا في كتب التاريخ والسير لإحسان عباس ومحمد يوسف نجم.

(١) انظر في المجتمع الليبي وسكانه ومبشته كتب التاريخ قديما وحديثا وخاصة تاريخ ابن خلدون وروصف إفريقيا للحسن الوزان (طبع جامعة محمد ابن سعود) وتاريخ المغرب الكبير لديوز، وراجع كتب الرحلات مثل رحلة التجاني (طبع تونس) ورحلة المهدري (طبع الرباط) وصورة الأرض لابن حوقل والمسالك والممالك للبركي وتراجم المالكي في رياض النفوس ومعال الإمان لابن الدباغ وابن ناجي والبيان المغرب لابن عذارى

مفهومة، إذ كان لسان المغاربة بالقياس إلى الرومان أصواتا مبهمة لا يفهمونها. وحين فتح العرب البلاد المغربية وجدوا هذا الاسم «البربر» يطلق على سكانها، فاستخدموه، ومن الغريب أن فعل بربر في العربية بمعنى قريب من المعنى الإغريقي، إذ يراد به التهمة في الكلام بحيث لا يفهم.

ويقسّم النسابون هذه الأمة الضخمة من حيث أسلوب الحياة إلى حَصَرٍ وبدو رحّل، ويسمون الأولين البرانس وهم سكان المدن الشمالية مثل هواره ونفزاوة في ليبيا وتونس وكنامة وصنهاجة في الجزائر ومصمودة في المغرب الأقصى. ويسمون الثانين الرّحّل باسم البُئر وهم سكان الهضاب والصحارى مثل لواته في برقة ونفوسة في طرابلس. والمظنون أن أهل ليبيا كانوا يعيشون أولا على الترحال وراء المراعى، حتى قدم عليهم الفينيقيون في طرابلس واليونان في برقة، فأنشأوا المدن وأخذ الليبيون يستقرون فيها وقبها وراءها من السهول والوديان. ونزل القرطاجيون مع الفينيقيين في طرابلس، واكتسح الرومان طرابلس وبرقة جميعًا. وبذلك تكاثرت العناصر التي نزلت ليبيا قديما من الفينيقيين والقرطاجيين واليونان والرومان ونزلتها - وظلت تنزلها - سلالات من الزنوج منذ زمن الفينيقيين بعامل الاتجار في الرقيق ومن أجل الانتفاع بهم في المزارع والمراعى، وكانوا يكثرون في فزان. ونزلت ليبيا في زمن القرطاجيين - منذ القرن الثالث قبل الميلاد - جماعات من اليهود، وبالمثل بعد تحريك تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد. ونزلتها في القرن الخامس الميلادي جماعات من الواندال الألمان. ونزلها لخدمة الكنائس المسيحية بها بعض رهبان القبط المصريين. ومعنى ذلك أن سلالات ليبيا الأصلية من البربر وفدت عليها عناصر جنسية أجنبية كثيرة من قارات العالم الثلاث القديمة: من آسيا ممثلة في الفينيقيين والقرطاجيين واليهود، ومن أوروبا ممثلة في الإغريق والرومان والواندال، ومن إفريقيا ممثلة في الزنوج والقيط المصريين. وهذا كله قبل الفتح العربي، وأخذ ينزلها معه وبعده مزيد من الأجناس الوافدة وخاصة من العرب وجيوشهم الياسلة ومن كان بها من الفرس والعراق والشام ومصر. ولا ننسى هجرة العرب الكبرى إلى ليبيا وإفريقيا في القرن الخامس الهجري وقد استوطن بنو سليم برقة. ومنذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أخذ ينزلها أندلسيون كثيرون في أثناء سقوط مدنها في حجر الإسبان، وتكاثر نزولهم في أوائل القرن السابع عشر الميلادي حين أخرج الإسبان من بقى هديارهم من المسلمين. ونزلت طرابلس بعض أسر إسبانية حين احتلها الإسبان سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م وبالمثل نزلتها أسر مالطية كثيرة حين احتلها بعدهم فرسان مالطة. وفي العهد العثماني الذي ظل حقبةً متطاولة نزل طرابلس وليبيا كثير من الترك والأسر التركية بجانب من نزلوها من الإنكشارية وجنود الترك سوى عناصر الأكراد والشركس.

وقد اندمج كثير من هذه العناصر قديما في البربر وحديثا أو بعد الفتح العربي فيهم وفي العرب فقد ظلوا داتها العناصر الأساسية في ليبيا وأكثرها نبلا واحتراما وشعورا بالشخصية، حتى نستطيع أن نقول بصفة عامة، رغم كل العناصر التي نزلت لليبيا، إنها تكون وحدة كبيرة من عرب وبربر، بل لقد اندمج بعضهم في بعض بحيث لا تستطيع أن تميز الوجه العربي من الوجه البربري، بل لقد أصبحت الوجوه جميعا ليبية لا فرق بين بربري وغير بربري.

٢

المعيشة

مر بنا أن الفينيقيين أقاموا في طرابلس لتكون مركزا لتجارهم وأقاموا معها صبراتة غربها وليدة شرقها، وبالمثل أقام الإغريق في شرقي ليبيا سيرين، وأضافوا إليها أربعة مدن: مدينة مكان سوسة الحالية، وبرقة، ومدينة مكان طوكره الحالية، وبنغازي. وكل هذه المدن حول طرابلس وفي شرقي البلاد كانت مراكز تجارية في العصور السحيقة، وظلت التجارة النشاط الأساسي لأهلها، يتخذونها معاشا لهم طوال العصور الماضية، وأخذت تقام معها على الساحل الليبي مدن أخرى مثل زاوة غربي طرابلس وإلى شرقها لبدة وزليطن ومصراته وسرت، ومثل أجدابية وطمثية ودرنة وطبرق في إقليم برقة. وسكان كل هذه المدن كانوا يحنون بالتجارة وما تحمل إليهم القوافل من السودان والجنوب وما تحمل إليهم السفن من عروض البحر المتوسط شرقا وشمالا. وكانوا يحنون - إلى جانب ذلك ببعض الصناعات اليدوية وصيد البحر، ويصف ابن حوقل - في القرن الرابع الهجري - طرابلس قائلا: «بها من الفواكه الطيبة اللذيذة كالخوخ والكمثرى اللذين لاشبه لها بكان، وبها الجهاز الكثير من الصوف والأكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية السود والبيض الثمينة» ولا يلبث أن يذكر النشاط التجاري بها قائلا: «إلى مراكز ترسو ليلا ونهارا وترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحا ومساء، من بلد الروم وأرض المغرب، بضروب الأمتعة والمطاعم» ويقول البكري: «لطرابلس أسواق حافلة جامعة». ويضعف نشاط طرابلس التجاري حين اكتسحتها موجات الهجرة الأعرابية في منتصف القرن الخامس الهجري، ويعود إليها نشاطها في التجارة مع استيلاء دولة الموحدين إليها وعودة الأمن والاستقرار إلى ربوعها، وظلت إلى اليوم أهم مدينة تجارية في ليبيا.

وكانت برقة منذ نزها اليونان وأسسوا بها المدن الخمس المذكورة آنفا تلعب دورا كبيرا في التجارة بليبيا، وحين نزها ابن حوقل كانت لانزال مدينة برقة (المرج منذ أواسط القرن السابع

المجبرى) قائمة وتحدث عن نشاطها التجارى قائلا: «وجوه أموالها جمّة، وبها من التجار وكثرة الغرباء في كل وقت مالا ينقطع، طُلأها لما فيها من التجارة، وعابرين عليها مغرّبين ومشرّقين» وقال إنها تنفرد بالتجارة في القطرآن والجلود المجلوبة للدهاغة بمصر والتمور الواصلة إليها من واحة أوجله (والواحات الأخرى) ولها أسواق عدة لبيع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب. وذكر ابن حوقل للفلفل يجعلنا نذكر كيف أن ميناءى برقة وطرابلس كانا من قديم - كما مر بنا - مصباً للقوافل المصعدة من السودان وأواسط إفريقيا إليها والمنحدرة منها إلى تلك الأنحاء، وكانت تلك القوافل تأتى محمّلة بسلع الرقيق وريش النعام والعاج أو سن الفيل والجلود، وتعود محمّلة بسلع ليبيا والبحر المتوسط، بحيث ظلت ليبيا قروناً متطاولة الباب أو المنفذ الكبير بين البحر المتوسط وبلداته الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية، وكان ذلك عاملاً قوياً في ازدهار التجارة بطرابلس وبرقة والمواقي الساحلية بالإضافة إلى ما كان بليبيا من سلع كثيرة من مثل القمح والشعير والزيت والملح والجلود والتمور والعسل والبسط والسجاجيد والأكلمة.

وهذا النشاط التجارى لسكان ليبيا كان يرافقه نشاط زراعى حول المدن الساحلية حيث تكثر الأمطار ومن ورائها في السهول وفي وديان الجبال وفي المنطقة شبه الصحراوية والواحات من مثل واحة فزان. وتكثر زراعة الخضر والكروم والفواكه من كل صنف، وينمو الزيتون بكثرة في جبال طرابلس والجبل الأخضر ببرقة، وكانت روما قديماً تعتمد في الزيت على ما تستورده من معاصر طرابلس. وتنمو بليبيا أشجار الحناء والمجدارى التى تستخدم جذورها في الصبغة، كما تنمو في المنطقة شبه الصحراوية الحلفاء البرية ذات الأوراق الخيطية الشكل، وكانوا يستخدمونها في صنع القفّاف والحبال، وهى صالحة كل الصلاحية لصنع الورق، ويبنى الفلاحون الحبّ ويخزنون القمح والشعير. وكانت روما تعتمد قديماً على ما يأتيتها من حبوب طرابلس، وبالمثل الإغريق بالقياس إلى ما يأتهم من برقة، وما يدل - بوضوح - على أنه كان بليبيا قديماً نشاط زراعى واسع ما لا يزال ماثلاً في كثير من أنحائها من مجارى المياه وقنواتها وسدودها وخزاناتها التى أنشأها الرومان والإغريق، وتجب عنا كثرة الآن الرمال بغطائها الثقيل التى ظلت تنسجه طوال القرون الماضية، وإن ليبيا الحرة أن يعود لها هذا المجد الزراعى المريق. ولم أذكر أهم شجر يتراعى بقماته الهيفاء في كل مكان بأنحاء ليبيا في السهل الشمالى وفي المنطقة شبه الصحراوية وفي جميع الواحات، وأقصد النخيل وثماره من البلح، ويقال إن بطرابلس من أنواعه مايزيد عن ثلاثين نوعاً وأن في واحة غات وواحات فزان مايبليغ خمسين نوعاً.

والزراعة لا تحتل في ليبيا إلا الشطر الأقل في الساحل والسهل الريفى وسفوح الجبال وبعض الوديان في المنطقة شبه الصحراوية والواحات. والشطوط الأخرى الكبيرة من ليبيا

يحتلها من قديم بدو رُحَّل يعيشون على رعى الأغنام والأغنام، وهم يربونها للعوامها وألبانها وجلودها وأوبارها وشعرها وصوفها. وينوّه البكرى الأندلسى المتوفى سنة ٤٨٧ بكثرة السائمة في ليبيا وغوها الواسع في مراعيها، ويقول إن كثرة ذبائح أهل مصر من ليبيا. وكان رعاتها من قبائل البدو الليبية يقتسمون مناطق الرعى بحيث لا يمتدح لقبيلة أن ترعى ماشيتها في منطقة قبيلة أخرى دون استئذانها، وإلا شجرت عليها الحرب، بالضبط كما كان يحدث بين القبائل في نجد بالجزيرة العربية. وكان الجفاف يصيب أحيانا ليبيا، فلا تنزل بها الأمطار التي تعودتها، فيمات أهلها مجاعة شديدة، وربما كان ذلك هو سبب إيقاعهم - أحيانا - بحجاج المغرب والأندلس، بالضبط كما كان يصنع أهل نجد - بسبب ما يعانون من فقر وضنك - بحجاج العراق والشام ومصر، على أنه كان من شيوخ الليبيين في قفار طرابلس وبرقة من يحمون الحجاج، مما جعل العبدري يشهد لهم في رحلته إلى الحج سنة ٦٨٩ للهجرة بأنهم لا يتعرضون للحجاج بأذى إلا في الندرة.

وبجانب هذا النشاط الرعى والزراعى والتجارى الذى كان مصدر معيشة أهل ليبيا طوال الحقب والقرون الماضية كانوا ينشطون من قديم في الصناعات اليدوية من مثل صناعة الزجاج وآنيته التى مهر فيها الفينيقيون، وصناعة عصر الزيت من الزيتون، وكانت صناعة رائجة في عصر الرومان، إذ كانوا يعتمدون - إلى حد كبير - على ما يستوردونه منه من طرابلس، وهيأت الملاحات الكبيرة غربى طرابلس وفي بنغازى لقيام صناعة دبغ الجلود، كما هيأت لطنح الملح وتصديره، واشتهر بأنه لا يمتدح من سلفات الكلسيوم إلا على نسبة واحد في المائة مما يجعله نوعاً جيداً من الملح إلى أقصى غايات الجودة. ويشتهر الجبل الأخضر في برقة بما ينتج من عسل النحل وشمعه، ويوجد المرمر في بعض جهات طرابلس وبنغازى وخاصة في غات، ومنه نوع وردى اللون وآخر ناصع البياض، وقد قامت حول اقتطاعه في عهد الإغريق والرومان صناعة نشيطة، وبدون ريب أتاحت لها كثرة هذا المرمر نعت ما شاءوا من التماثيل والمعابد والصحاريج، ولا يزال أطلال كثير منها قائما بليبيا إلى اليوم. وهيأت المراعى الكثيرة في إقليمى طرابلس وبرقة وما وراهما من الصحارى لكثرة الأصواف والأوبار المعزوزة من الأغنام والماعز والإبل، مما أتاحت لقيام صناعات واسعة من النسيج: نسيج الملابس الرجالية والنسائية والسجاجيد والبسط التى يلائمها أشد الملاءمة الصوف اللبى لخشونته الطبيعية، بينما تلائم أوبار الإبل أقمشة الخيام. ولا ننسى ماكان يتميش عليه بعض أهل ليبيا على امتداد الساحل الشمالى من صيد الحيتان والأسماك، وعُنت جماعة في طرابلس وأخرى في بنغازى بجلب الإسفنج الكثير في مياهها. وفي كل ذلك ما يوضح كيف أن ليبيا كانت - حتى العصر الحديث - كثيرة الخيرات والطيبات من الرزق.

الدين

كان شأن أهل ليبيا في العصور السحيقة شأن كل الأقاليم المغربية وثنيين يعبدون الكواكب والنجوم من مثل الشمس والقمر والكواكب السيارة جميعا ويقدمون لها القرابين ويقيّمون لها المعابد. ويبدو أن اليهود لما نزلوا بديارهم منذ القرن الثالث قبل الميلاد أخذوا يحاولون نشر دينهم بين المغاربة، ويظن أن بعض جماعات منهم تهودت قديما وظلت جماعات منهم تعيش في المدن المغربية، وجاءهم مدد جديد حين قوّض الإمبراطور تيتوس معبدهم في بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد، ونلقاهم بعد إسلام أهل المغرب - بفضل تسامح الإسلام العظيم - منتشرين في إقليم طرابلس: في طرابلس نفسها وفي مصراته وسيرين، ويذكر المؤرخون والرحالة حارة لهم بطرابلس، ويقال إنها كانت شديدة القذارة كما يذكرون أنه كان لهم معبد خاص.

وكانت المسيحية منتشرة - قبل الفتح العربى - بالمدن الساحلية في ليبيا وغيرها من البلدان المغربية، وكانت شائعة فيها بين سلالات الفينيقيين والإغريق والرومان، بينما ظل جمهور البربر وثنيا. وربما اعتنق المسيحية بعض جماعات منهم في المدن لما رأوا فيها من الدعوة إلى العدل والمساواة، ولكن لاشك أن هؤلاء كانوا أقلية، إذ كان الشعب البربرى يعدها دين حكامه الرومان المستبدين الطاغين، وهو ما جعلهم ينفرون منها نفورا شديدا وخاصة في الهضاب والصحارى والجبال، ومع ذلك فقد سقط إلى هذه الأنحاء بعض القسس حينما اشتد أوار الخلافات الدينية واضطر بعض القساوسة إلى الفرار نحو الجبال أو نحو الجنوب، وأكبر الظن أنهم حاولوا الدعوة هناك إلى المسيحية، غير أنها لم تجد بين البربر هناك أذانا صاغية. وبدون ريب كانت المسيحية منتشرة - كما ذكرنا - بين المدن الساحلية، وربما عملت روما على نشرها منذ أعلن الإمبراطور قسطنطين سنة ٣١٢ للميلاد أنها دين الدولة الرسمى، وأخذت تعمل على نشرها في البلاد التابعة لها. ويبدو أن القبط المصريين كانوا أسبق من هذه الحركة الرومانية في نشر المسيحية بليبيا إذ تتحدث المصادر العربية عن مناطق بليبيا كان أهلها أقباطا، ولا بد أن عملوا على نشر عقيدتهم الأرثوذكسية المسيحية فيها، وبذلك عرفت ليبيا - قبل الفتح العربى - الكنيسة الأرثوذكسية المصرية كما عرفت الكنيسة الكاثوليكية عن طريق روما وتشبيدها لها في طرابلس وغيرها.

وقد أخذ أبناء الكيستن يتعاشون مع العرب في العصور الإسلامية بالرغم من أن المسيحية

تراجعت في ليبيا وكاد يقضى عليها الدين الحنيف، إذ نجد أنها عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ للهجرة يذكر أنه شاهد القبط في طرابلس وبرقة لا يزالون يحتفظون بالقبطية في زمنه ويتحدثون بها في لغتهم اليومية مع أنها كانت قد اختفت في ألسنة القبط بمصر وحلت محلها العربية إلا ما كان في بعض الأديرة المتمعة في الصحراء الغربية، وكان بما عمل على استمرار الكنيسة الأرثوذكسية وبقائها وجود أسر وسلاسل من اليونان في ليبيا، ومعلوم أن كنيسة مثل كنيسة القبط المصريين أرثوذكسية. ويدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجد الوالين العثمانيين، محمد الساقزلي وعثمان الساقزلي يرخصان لليونانيين في زمنها بإنشاء كنيسة أرثوذكسية قرب باب البحر وجعلها تابعة لباترك الإسكندرية، وظلت الكنيسة الكاثوليكية - منذ أنشأها الرومان - حية في طرابلس، وكانت تنبعمها الجالية الرومانية القديمة، وظل يمدّها من تأسّرهم سفن طرابلس الحربية في البحر المتوسط من أوروبا الشمالية والغربية وخاصة من إيطاليا وإسبانيا، وكانوا يعتقدون العقيدة الكاثوليكية المسيحية، ولابد أن عُنى الإسبان حين احتلوا طرابلس سنة ٩١٦هـ/١٥١٠ وظلوا بها عشرين عاما بهذه الكنيسة، وبالمثل عُنى بها فرسان مالطة حين تبعوا الإسبان في احتلالها لنحو عشرين عاما أخرى، وقد كثر في عهدهم نزول الماطليين بطرابلس، واستقرت بها من حينئذ بعثة الإرسالية الفرنسيسكانية للعناية بأمر المسيحيين وخاصة من كثر أسرهم في البحر المتوسط من مسيحيي الغرب لعهد العثمانيين.

ويفتح عمرو بن العاص برقة سنة ٢١هـ/٦٤١م ويدور العام وتفتح طرابلس، ولم يكن العرب المسلمون غزاة فاتحين يهبون البلاد التي يفتحونها ويسوسون أهلها بالقهر والبطش كما كان الرومان والواندال يصنعون، بل كانوا - قبل كل شيء - ناشرين للإسلام وتعاليمه السمحة، دون محاولة لإكراه المغاربة عليه، ودون أى محاولة لإساءة معاملتهم، ومع إنقاذهم مما كان يفرضه عليهم البيزنطيون والرومان من الظلم والاستعباد، ومع ما يدعو إليه الدين الحنيف من عبادة إله واحد رحيم وسعت رحمته كل شيء، وهو دين الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، ليس فيه شيء من تجسيد اليهودية ولا من تثليث المسيحية التي يعجز المغربي عن فهمها وتصورها. والمسلمون جميعا عرب ومغاربة سواسية في الحقوق والواجبات ولا سيد ولا مسود. وأخذ الحكام: عقبة بن نافع ومن جاءوا ورائه يصлдرون عن هذه السياسة، وخاصة حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) الذي سوى بين العرب والبربر في الفئىء والفراج وعدّ أرضهم مفتوحة صلحا لا قهرا فلم يسلبها منهم. وشعورا منهم بهذه المساواة الكاملة بينهم وبين العرب في جميع الحقوق انتظمت كتبية منهم في جيشه تبلغ اثني عشر ألفا كما يقول ابن عذارى تجاهد في سبيل الله نصرة لدينه. ويتسع انتشار الإسلام في عهد الوالى بعده موسى بن نصير (٨٥-٩٧هـ) من برقة إلى المحيط الأطلسي، إذ عمل - بكل جهده - على أن يعلم العرب البربر القرآن

وتعاليم الإسلام، ولم يكتف بانتظام جماعات من البربر في جيشه، فقد رأى إشراكهم في الحكم، وولى منهم طارق بن زياد على طنجة وإقليمها، وعهد إليه بقيادة جيش لفتح إيبيريا، وكان جيشه مؤلفا من سبعة عشر ألفا من العرب واثني عشر ألفا من البربر، كما يقول ابن عذارى - ويرسل عمر بن عبد العزيز على رأس المائة بعثة مكونة من عشرة فقهاء على رأسها إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر للدعوة للإسلام ونشره بين البربر.

ومنذ هذا التاريخ أصبح الإسلام دين البربر في كل مكان: في الحواضر والبوادي وسفوح الجبال والهضاب والصحارى، ونعمت به ليبيا وغير ليبيا من بلاد المغرب، وقوض الديانتين اليهودية والمسيحية، إذ انتشر بسرعة عجيبة لا في المناطق الشمالية المحدودة التي كانا يوجدان فيها فحسب، بل أيضا بين سكان الصحارى والجبال، بحيث انضوى المغرب وجميع أرجائه تحت لوائه، وهو ما لم تستطع المسيحية أن تحققه في عهد الرومان والبيزنطيين، بل إن من تبعها من البربر كانوا فئة أو فئات قليلة، وكأنما كان في الإسلام سحر جذبهم إليه، وليس السحر إلا ما قدمناه من ملامة عقيدته للفتنة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، وأيضا لأنه يسوئ بين رعاياه القديما من العرب والجديد من البربر ويرفعهم إلى أعلى المناصب.

غير أنه بمجرد أن توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز وتولى بعده يزيد بن عبد الملك ثم أخوه هشام، إذا هما يوليان على البربر ولاية باغين طاغين ظلموهم ظلما شديدا، كما أسلفنا في غير هذا الموضع، وكان أشدهم بغيا وطفيانا عبيد الله بن الحبحاب هو وولاته، وبلغ من سوء سياسته أن أخذ يفرق بين العرب والبربر في الخراج وغير الخراج، فعم الاستياء في كل مكان من سياسته، وأدهى من ذلك أن واليه على طنجة لم يكتف بالعدوان على البربر في الخراج، فقد أعلن أنه يريد تخميس أراضيهم متناسيا أو متعاميا عما أعلنه حسان بن النعمان في ولايته من أن أرض البلاد المغربية فتحت صلحا لا قهرا، فهي ملك لأهلها منهم ولا يصح العدوان عليها بحال من الأحوال.

٤

الإباضية والشيعة

كان طبيعيا - كما ذكرنا - أن تتور البلاد المغربية وأذكى ثوراتها وأملها بوقود جزل دعاة لمذهبين من مذاهب الخوارج هما مذهب الإباضية ومذهب الصفرية، عرفوهم بها وبدعوة الخوارج عامة التي تدعو إلى الأخذ بنظرية الإسلام في المساواة المطلقة في الحكم وغير الحكم بين المسلمين جميعا عربا وغير عرب، فليس في الإسلام أشراف هم العرب ومشروفون هم غير العرب،

والخلافة لا تقتصر على قبيلة قريش وحدها، بل هي حق للمسلمين جميعا، يتولاها أكفؤهم سواء أكان عربيا أم غير عربي، وسواء أكان قرشيا أم بربريا أم عبدا حبشيا.

(١) الإباضية

اعتنق عقيدة الإباضية في طرابلس وجبل نفوسة كثيرون، ومر بنا إشعالهم لثورات في طرابلس منذ سنة ١٢٦ للهجرة إلى أن أخذتها سنة ١٤٤ الميوش العباسية نهائيا إلا ما كان من حركات صغرى في طرابلس وجبل نفوسة قضى عليها يزيد بن حاتم المهلبى حين ولاه المنصور سنة ١٥٤ للهجرة كتورة أبى حاتم الإباضى وثورة أبى يحيى الموارى، وكان الحكام - وخاصة حكام الأغالية - يستطيعون دائها قمعها، ولكن دون أن يستطيعوا القضاء على الدعوة قضاء مبرما، فقد ظلت حية هناك حياة مستمرة إلى اليوم.

وكان ينبغي أن يشيد الباحثون الغربيون بالإسلام وأنه استطاع في نحو ثمانين عاما أن ينتشر في ديار المغرب: في مدنه وجباله وصحاريه وبواديه وأن يمتلك من المغاربة أو قل من البربر قلوبهم وأفئدتهم بحيث أصبحوا يخلصون له ويحملون السلاح مع أهله للدفاع عنه ونشره في أقاصى بلادهم المغربية وفي الأندلس، كما مر بنا، واتخذوا لغته لغة قومية لهم ورسخت - أو أخذت ترسخ - بينهم في الجبال القاصية، بينما ظل الرومان قرونا متعاقبة يحكمون بلاد المغرب ومحاولون - بكل ما وسعهم - نشر لغتهم اللاتينية فيه ونشر عقيدتهم المسيحية، وخاصة منذ عهد قسطنطين وإعلانه أنها دين الدولة الرسمى، وظل البابا وقسسه ورهبانه يجاهدون في نشرها بين البربر دون جدوى إلا ما كان من نفر ضئيل في المدن الساحلية الشمالية، وبدلا من أن يسجلوا ذلك ويعترفوا للإسلام بمبادئه الروحية البسيطة التى لقيت استجابة لا تقايلها استجابة لا في البقاع المغربية وحدها بل في كل البقاع التى فتحها العرب الأولون: بقاع العراق وإيران والشام ومصر، إذ سرعان ما دخل أهلها جميعا في الدين الحنيف بمجرد أن وقفوا على مبادئه وتعاليمه الدينية الروحية، أقول بدلا من أن يسجل الباحثون الغربيون هذه الظاهرة الكبرى للإسلام بالقياس إلى المسيحية وما تحمل من عقيدة التثليث المعقدة نرى نفرا منهم يطيب لهم أن يزعموا زعما باطلا أن حركات الإباضية بليبيا في القرن الثانى الهجرى وبالمثل حركات الصغرى في المغرب الأقصى والأوسط كانت حركات استقلالية قومية^(١)، وهو زعم مخطئ أخذ الخطأ، إذ لم يحاول أحد من البربر في تلك الحركات الردة - أو الدعوة إلى المسيحية، كما لم يحاول أحد الردة، أو الدعوة إلى العودة إلى اللاتينية التى كانت منتشرة في المدن الساحلية

(١) انظر : E.F. Gautier, Le Passé de l'Afrique

du Nord, PP. 160 Sq.

الشمالية وأخذت تنسحب أمام العربية دون عودة. ومن أكبر الأدلة على أن الدين الحنيف ولقته احتلالاً لقلوب المغاربة وتغلغلا إلى السويداء منها أن نجد قبائل بربرية كثيرة تصطنع لها أنسابا تصلها بالعرب الجنوبيين في اليمن أو بالعرب الشماليين سكان نجد، ومن يرجع إلى قواد ثورات الإباضية في طرابلس ونفوسة الذين ذكرناهم في غير هذا الموضع يرى أنهم كانوا عربا. ولم يكونوا من البربر، إذ كانوا فعلا بين نجيبى وحضرمى ومرادى ومعافرى، وجميعهم من العرب، مما يدل دلالة قاطعة على أن ثورات الإباضية في طرابلس وجبل نفوسة - وبالمثل ثورات الصفرية في المغرب الأقصى والأوسط - لم تكن ثورات بربرية قومية، وإنما كانت ثورات إسلامية ضد الحكام الفاشمين الذين انحرفوا عن مبادئ الإسلام في سياسة البربر وحكمهم، فأهدروا حقوقهم وفرّقوا بينهم وبين العرب في الشئون المالية وغيرها. هي إذن ثورات كانت تستمد من روح الإسلام ومقاصده وتعاليمه في نشر العدل والمساواة بين شعوبه عربا وغير عرب، وأيضا فإن هذه الثورات لم تقم على مبادئ بربرية إقليمية أو قومية، إنما قامت على مبادئ فرقتين من فرق الخوارج في عُمان والعراق، وقد تَفَيَّتا فيهما سواء الإباضية أو الصفرية أغراضا وأهدافا إسلامية في الحكم وتطبيقه وما ينبئ فيه من المساواة والعدالة المطلقة بين المسلمين جميعا عربا وغير عرب.

وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنعرف مبادئ الإباضية التي شاعت في طرابلس وجبل نفوسة، وأول مبدأ لهم أن الخلافة - أو كما يسمونها الإمامة - ليست حقا لقريش ولا ميراثا لأسرة قرشية، بل هي حق لله وللمسلمين جميعا، وينبئ أن يتولّاها خير المسلمين تقوى وزهدا وورعا وتطبيقا لتعاليم الإسلام في الحكم القائمة على العدالة والمساواة، وهم يفترون عن عامة الخوارج في أنهم لا يعدون مرتكب الكبيرة كافرا، بل يعدونه مسلما عاصيا ولا يعدون دار المسلمين سواهم دار حرب وينبئ أن يحملوا السلاح داتها ضدّهم، وأيضا فإنهم يتوارثون معهم ويحلّون الزواج منهم، وهم بذلك أكثر مذاهب الخوارج قربا إلى الجماعة الإسلامية، حتى ليتمكن أن يَفْصَلُوا عن الخوارج ويَلْحَقُوا بتلك الجماعة. ومعروف أن مؤسس العقيدة الإباضية هو عبد الله بن إباح التميمي، وعنه حلها جابر بن زيد الأزدي العماني، وعن جابر حل لواءها أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي ولواء البصري موطنا. وقد أرسل سلمة بن سعد أحد تلاميذه إلى جبل نفوسة ليدعو الناس للدخول في عقيدتهم الإباضية، واستجاب له كثيرون فاختار منهم خمسة للقاء ابن أبي كريمة بالبصرة، وعادوا مملوئين حماسة للعقيدة أو الدعوة، وأخذوا ينشرونها في جبل نفوسة وطرابلس وإقليمها، حتى إذا كثرت أتباع الدعوة أخذوا يتورون على الدولة الأموية ثم على الدولة العباسية على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع.

إذا كان الإباضية نجحوا في أن يظل جبل نفوسة موطناً لهم إلى اليوم وبعض أنحاء من طرابلس وإقليمها فإن الدعوة العبيدية الإسماعيلية، على الرغم من أنها أسست لها دولة في إفريقية التونسية وانضوى تحت لوائها المغرب جميعه من برقة إلى المحيط الأطلسي فترة غير قليلة في القرن الرابع الهجري، لم تستطع أن تبقى في طرابلس وإفريقية التونسية إلى مابعد القرن الرابع. ومعروف أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت منذ أواسط القرن الثاني الهجري إلى اثني عشرية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة الفاطميين إلى ابنه موسى الكاظم، ويدين بذلك الآن شيعة العراق وإيران، وإلى إسماعيلية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المثنوي في حياته، لأن الإمامة تنتقل في عقيدتهم إلى الابن الأكبر حتى لو مات في عهد أبيه، ونظم هذه الدعوة عبد الله بن ميمون القُدّاح واتخذ مركزاً لها قرية سَلْمِيّة بقرى اللاذقية، وأخذت تنتقل الإمامة في تلك الدعوة سرا من أب لابن، حتى إذا كنا في آخر القرن الثالث الهجري كان الإمام عبيد الله المهدي، وتسلل أحد دعائه الدهاء أبو عبد الله الصنعاني إلى الجزائر، واستطاع أن يقنع بتلك الدعوة الشيعة قبيلة كُتامة، ولم يلبث أن قضى بها على الدولة التي كوّننها الإباضية في تيهرت بالجزائر، والأخرى التي كوّننها الصفرية في سجلماسة جنوبي المغرب الأقصى، وقاد من كُتامة حملة قضى بها على دولة الأغالبة في إفريقية التونسية سنة ٢٩٦ وكان قد ظل يدعو للرضا من آل البيت، حتى إذا قضى على الأغالبة كشف القناع عن وجهه، فأعلن قيام الدولة الفاطمية الإسماعيلية، واستدعى من سَلْمِيّة الإمام المستر بها أو المختفى عبيد الله. ووصل القيروان سنة ٢٩٧ وبويع بالخلافة بيعة عامة، ويسمى مؤرخو إفريقية التونسية الدولة باسم الدولة العبيدية نسبة إليه، وخاصة أن بعض المؤرخين تشكك في نسب هذه الدولة إلى السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، غير أن ابن خلدون أكد صحة نسبتها إليها وأنها فاطمية حقاً. وكان طبيعياً أن يحاول عبيد الله - حين بويع له بالخلافة - الاستيلاء على ليبيا ونشر الدعوة الإسماعيلية بها، لما فيها من طبيبات الرزق، ولأنها طريقه إلى مصر المأمولة. وبمجرد استيلائه على القيروان تبعته طرابلس إذ كانت تتبعها في أيام الأغالبة، وولى عليها كُتامياً سنة ٢٩٨ فسلط جنده الكتامي على أهلها من قبيلة هواره، ففضبوا غضباً شديداً وفتكوا بجنده، ولم يلبث جيش كتامي أن حاصرها، ولم يفك حصارها لها إلا بعد أن أغرم أهلها غرامة ضخمة: ثلاثمائة ألف دينار. وحاول عبيد الله المهدي ضمّ برقة إلى دولته واستعصت عليه، فأرسل إليها جيشاً كتامياً على رأسه قائد يسمى حسابة الكتامي، ففتك بكتّرين من أهلها واستصفى أموالهم، وغرّم أهلها مائة ألف دينار. وعادت برقة سريعاً إلى الثورة سنة ٣٠٤ للهجرة، وردّها أحد قادة عبيد الله إلى الطاعة. وثار الإباضية في جبل

نفوسة سنة ٣١٠ وهزموا جيشين لعبيد الله، وأخيراً انتصر جيش له على إباضية نفوسة، واستكانت ليبيا - منذ هذا التاريخ - لحكم الفاطميين طوال بقائهم في إفريقية التونسية وفترة بعد مغادرة المعز العبيدي لها إلى القاهرة ولكنها كانت استكانة على مضض غير قليل، فقد ظل من بها من الإباضية في جبل نفوسة وأنحاء طرابلس يعادون الدعوة العبيدية - أو الفاطمية - الإسماعيلية، كما ظل أهل السنة الذين تتألف منهم جماهير غفيرة في طرابلس وبرقة يستتكرون الدعوة الإسماعيلية الشيعية ويرفضونها رفضاً باتاً. وبمجرد أن انسحب حكمهم من إفريقية التونسية في عهد المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٤ هـ). انسحبت معه عقيدتهم الإسماعيلية لا في إفريقية التونسية وحدها بل أيضاً في طرابلس وإقليمها وجبل نفوسة، وبقيت لتلك العقيدة ظلال باهتة في برقة لأنها كانت تتبع الدولة الفاطمية في القاهرة، أما في طرابلس وإفريقية التونسية وما وراءها من البلاد المغربية فإنه لم يبق لها أى ظلال لا باهتة ولا غير باهتة، ويرجع ذلك في رأينا إلى التطرف الشديد في انحراف مبادئها عن الدين الحنيف وتعاليمه، حتى لتتسلخ جملة عنه، إذ تحيط أنتمتها بهالة من التقديس لا يقرأها الإسلام حتى لتزعم عصمتهم رافعة لهم فوق المستوى الإنساني، بل إنها لتزعم أن الإمام العبيدي الإسماعيلي هو التجسد الرباني للذات العلية على الأرض، وهو لذلك المشرع وصاحب الأمر العالم بالغيب وما سبج في ألواحده، وكل صفات الله - جل جلاله - إنما هي صفاته، إلى غير ذلك من مبالغات بل من ترهات، سئلت لبعض دعاة الخليفة العبيدي الحاكم بأمر الله أن يدعو إلى عبادته، وقد عرضت مبادئ هذه الدعوة الضالة بالتفصيل في الجزء الخاص بمصر من هذه السلسلة الخاصة بتاريخ الأدب العربي، موضعاً كيف أن مصر انصرفت عنها، بل رفضتها رفضاً، وهو ما حدث في طرابلس والبلاد المغربية. وكأنما دخلتها جميعاً - حين كانوا يحكمونها - من باب شديد الضيق، ثم خرجت بعدهم - حين رحلوا عنها - من باب آخر ولم تترك وراءها أثراً، وعبتا حاول أبو عبد الله الصنعاني أن يقنع بها فقهاء القيروان وردوا عليه ردوداً مفحمة، وأحسن عبيد الله المهدي - بوضوح - نفور الناس من عقيدتهم الإسماعيلية نفوراً شديداً، فطلب إلى دعاة أن يخففوا من النشاط للدعوة لها، وبني «المهدية» على رأس بارز في الساحل على البحر المتوسط شرقى سوسة، وأحاطها بأسوار عالية قوية مع أبراج ضخمة وأبواب مصفحة بالحديد - كما يقول الحسن الوزان في وصف إفريقيا - سنة ٣٠٥ ونقل إليها أسرته وأمواله وجنده حتى يأمن على نفسه، وظلت طرابلس وإقليمها بل أيضاً برقة وإقليمها كما ظلت إفريقية التونسية مزورتين عن الدعوة الشيعية، وظلت الجماهير فيها جميعاً مرتبطة بمذاهب أهل السنة إلى أن خرجت طرابلس وإقليمها كما خرجت إفريقية التونسية من الدعوة السيدية الإسماعيلية في عهد المعز بن باديس على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع.

الزهد والتصوف

ازدهر الدين الحنيف في جميع أنحاء ليبيا منذ القرن الأول الهجري. وأخذت مساجده تُبنى في كل مكان: في المحضر والبدو، ويرمز إلى ذلك المسجد الجامع الذي بناه فاتح ليبيا العظيم عمرو بن العاص في طرابلس أمام باب قبيلة هواة، وتنافس ولاية طرابلس وليبيا بعده في بناء المساجد وخاصة ولاية الدولة الأغلبية، وخلقتها الدولة العبيدية، فعنى المهدي ببناء جامعها المتسع الأعظم، وبنى ابنه القائم جامعاً حسن البناء في مدينة أجداية. وكان الشعب يشارك في بناء الجوامع والمساجد فاكتظت بها ليبيا، وكانت جميعاً بيوتاً كبرى للعبادة والنسك، وكانت حلقات الفقهاء والعلماء فيها أشبه بمدارس للتعليم والدراسة، واشتهر كثيرون في جميع أنحاء ليبيا بأنهم كانوا زهاداً في المتاع الدنيوي وأنهم كانوا عبّاداً نُسّاكاً ينتظرون ما عند الله من ثواب الآخرة، ويسوق المالكي في رياض النفوس وابن الدباغ في معالم الإيمان والتجاني في رحلته المشهورة وأحمد النائب في نفحات السرين والمثل العذب والطاهر الزاوي في أعلام ليبيا أساء عشرات من زهاد ليبيا ونُسّاكها على مر القرون.

ومن نذكره من زهاد ليبيا ونُسّاكها عبد الله الشعاب المتوفى بعهد الأغالبة سنة ٢٤٣ للهجرة ولد بطرابلس ونشأ بها، وكان نجاراً لا يأكل إلا من كسب يده، وتمّ بناء مسجد كان البناء فيه توقف، وسكنه وعاش يتعبّد لربه فيه، ونُسب إليه إذ سُمي بمسجد الشعاب ويقول مترجموه إنه كان من كبار الصوفية والنسّاك الورعين، ومن هؤلاء النسّاك عبد الجبار السُرقي المتوفى سنة ٢٨١ كان يختم القرآن مرة كل ليلة وختمه في مسجده أكثر من ألف ختمة، ومنهم عبد الله بن إسماعيل البرقي المتوفى سنة ٣١٧ وكان يختم القرآن يومياً، ومنهم سعيد بن خلفون المتوفى سنة ٣٦٢ وكان من أكابر الصوفية واقفاً على المعارف الدنية والقدسية وكان يسكن بمسجد منسوب إليه في طرابلس، وكان للناس اعتقاد فيه حتى لقبوه بلقب المستجاب وأكثروا من الحديث عن كراماته، وكان يعاصره بطرابلس ابن زكرون علي بن أحمد بن زكريا ابن الخطيب المتوفى سنة ٣٧٠ وكان يتخذ مسجد المجازي في بلدته مسكناً ومأوى له، وكان عابداً ناسكاً ورعاً، وكان يعاصرها أبو نزار خطاب البرقي المتوفى سنة ٣٧٣ وكان يعاشر الصوفية وينزع منزعهم، وكان مثل صاحبيه يسكن جامعاً إلى الشرق خارج المدينة. ومن كبار الزهاد بطرابلس في القرن الخامس الهجري أبو الحسن السيقاطي المتوفى سنة ٤٢٠ للهجرة وكان يتعبّد لربه بمسجد سيقاطة على ساحل طرابلس. وأبو مسلم مؤمن بن فراج الهواري المتوفى

سنة ٤٤٢ للهجرة وله مسجد كان يتعبد فيه ويدرس لطلابه منسوب إليه.

ويتكاثر زهاد ليبيا ونساکها ومتصوفتها في القرون التالية، وهم أكثر من أن نحصيهم ونعدّهم عدّا، وقد أخذ نفر منهم - منذ القرن السابع - ينتمى إلى الطرق الصوفية السنية، وطبيعى أن لا ينتسبوا إلى الطرق الصوفية الفلسفية عند أبى مدين وابن عربى وابن سبعين وأضرابهم إذ لم يكن أهل ليبيا يأخذون أنفسهم بشيء من الفلسفة أو التفلسف يفسح لهذه الطرق بينهم، ونظن طئنا أن بعض زهادها ونساکها تبع الطريقة الشاذلية الصوفية^(١) السنية التى أخذت تشيع في تونس ومصر منذ أواسط القرن السابع الهجرى حين أسسها بتونس أبو الحسن الشاذلى، ثم غادرها إلى القاهرة، وكان من أهم أتباعه فيها ابن عطاء الله السكندرى الذى اشتهر بحكم له بدیعة، ويلقانا من كبار أتباع الطريقة الشاذلية في القرن التاسع الشيخ زروق المولود بمدينة مصراته شرقى طرابلس سنة ٨٤٦ للهجرة، وقد رحل إلى القاهرة ودرس بالأزهر وأخذ عن علمائه، ويبدو أنه اعتنق الطريقة الشاذلية حينذاك، وكان فقيها مالکیا ضليعا وله مؤلفات مهمة في الفقه المالکی، وأكثر مؤلفاته في التصوف وبخاصة في الطريقة الشاذلية وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية بعنوان أصول الطريقة الشاذلية، ومخطوطة ثانية شرح فيها حزب الشاذلى المسمى بحزب البحر، ويقال إن له ستة عشر شرحا لحكم ابن عطاء الله السكندرى، وطبع أحد هذه الشروح بالقاهرة مرارا، وطبع له في القاهرة كتاب بعنوان قواعد التصوف، وتوفى زروق بمصراته مسقط رأسه سنة ٨٩٩ للهجرة.

ويلقانا بعده من أتباع الطريقة الشاذلية الحروبى محمد بن على المتوفى سنة ٩٦٣، وكان أبوه من تلامذة الشيخ زروق، وعنه أخذ الطريقة الشاذلية، وتوفى فرعه أمه وكانت سيدة صالحة، فلقتنه كثيرا من المدائح النبوية والتراتيل الدينية، وكان لها ابن عمه شاذليا، فدرس عليه الحروبى مسالك الطريقة الشاذلية وحكم ابن عطاء الله السكندرى، واندمج روحيا في تلك الطريقة طوال حياته، وله شرح لحكم ابن عطاء الله، وفي دار الكتب المصرية له تفسير مخطوط كبير. ومن أكبر أتباع الطريقة الشاذلية في القرن العاشر الهجرى عبد السلام الأسمر المولود بمدينة زليطن شرقى طرابلس ولادة سنة ٨٨٠ للهجرة، وكان صوفيا مجنونا في حب ربه، وكانت تعتريه حالات وجد وهيام شديدة واستخدم في حلقاته ومجالسه الدف والبندير والغناء والرقص، مما جعل كثيرين من معاصريه النساك ينتقدونه نقدا شديدا، واضطره ذلك إلى الخروج عن بلده مرارا إلى جهات مختلفة في ليبيا وفي إفريقية التونسية، واستقر أخيرا في زاويته بمسقط رأسه زليطن إلى أن توفى سنة ٩٨١ للهجرة، وكان يقرأ لأتباعه في الزاوية كتباً مختلفة في التوحيد

(١) هذه السلسلة عن مصر.

(١) انظر في هذه الطريقة ومؤسسها أبى الحسن الشاذلى وتابعه ابن عطاء الله السكندرى كتابنا في

والفقه المالكي، كما كان يقرأ لهم حكم ابن عطاء الله السكندري، وله مؤلفات مختلفة في التصوف، وكان له مريدون كثيرون لزموه في حياته من بهته مثل ابنه عمران ومن غير بيته مثل إبراهيم بن علي العوسجي المتوفى سنة ٩٩٨ ومثل كريم الدين البرموني المصراقي المتوفى بأخرة من القرن العاشر الهجري وله كتاب في أستاذه. وتتكاثر الزهاد والصوفية في ليبيا طوال العصر العثماني، وتتكاثر زواياهم وتعم في البلاد الطريقة الشاذلية، وتزاحمها بعض الطرق الصوفية السنية، ولكن تظل لها الغلبة.

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة^(١) العلمية

(أ) فاعلمون وناشرون للإسلام

منذ فتح عمرو بن العاص ليبيا وولائها يُعنون بنشر الدين الحنيف وتعاليمه وثقافته فيها، فقد كان ذلك الغاية المتلى والمقصد الأسمى من الفتوح الإسلامية لا في ليبيا وحدها، بل أيضا في كل ما فتحه المسلمون في عهد أبي بكر وعمر وعثمان، ولذلك نرى ولاية المغرب في ليبيا وغير ليبيا يحثون كثيرين من جنودهم - وخاصة من أقاموا واستوطنوا هناك - إلى تحفيظ البربر القرآن الكريم وتعليمهم مبادئ العربية كي يستطيعوا تلاوته تلاوة سليمة، وحثهم على ذلك - بقوة - عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان في أواسط القرن الأول الهجري، وبالمثل مؤسس مدينة تونس: حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥ هـ) واتسع خلفه: موسى بن نصير - في هذه الغاية من تعليم البربر القرآن وتعاليم الإسلام، ويقال إنه كلف بذلك سبعين رجلا من جنوده بثمهم في قبائل البربر، ويقال: بل إنه جعل ذلك فريضة على جميع جنود العرب الفاتحين.

والنذكار لابن غلبون وحكاية مدينة لحليفة محمد التلمسى وتاريخ المغرب الكبير لدهوز ونفحات النرين والمنهل العذب لأحمد النائب وكتايب أعلام ليبيا ومجمع البلدان للزاوى وأعلام من طرابلس للمصراق والإباضية في موكب التاريخ لمعر وكتاب النشاط الثقافى في ليبيا لأحمد مختار عمر وتاريخ ليبيا لإحسان عباس وتاريخ طرابلس المغرب لمحمود ناجى.

(١) راجع في ثقافة ليبيا رياض النفوس للمالكى والبهان المغرب لابن عذارى وتراجم معالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجى والسير للشاشخى وطبقات النحويين واللغويين للزبيدى وإنهاء الرواة للنفطى والديباج المذهب لابن فرحون وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى وتاريخ ابن خلدون والأنساب للسمعانى وكتايب الأزمنة والأنواء وكفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ لابن الأجدابى ورحلة التجانى ورحلة العياشى والرحلة المغربية للمبرى

ولابد من ملاحظة أن البربر الذين اعتنقوا الدين الحنيف أخذوا يشتركون مع الجيوش العربية في الفتوح وحرب الكفار، وكان زملاؤهم من العرب في حمل السلاح يلتقونهم أى الذكر الحكيم ومبادئ الإسلام وتعاليمه، ويذكر المالكي في كتابه «رياض النفوس» أن جيش زهير بن قيس وإلى المغرب بعد عقبة بن نافع كان مكوثاً - في بعض حربه لكسيلة التاجر المغربي - من ألفين من البربر وأربعة آلاف من العرب، كما يذكر ابن عذارى في كتابه «البيان المغرب» أنه كان في جيش حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥ هـ) اثنا عشر ألفاً من البربر، ويذكر أيضاً أن جيش طارق بن زياد البربري وإلى طنجة لموسى بن نصير كان مكوثاً - في فتحه لإيبيريا - من سبعة عشر ألفاً من العرب واثني عشر ألفاً من البربر، ويعقب ابن عذارى على ذلك بأن موسى بن نصير «أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين». ومعنى ذلك أن الجند العربي الذي كان يعيش الجند البربري في حرب الكفار ونشر الإسلام كان يعلمه القرآن وتعاليم الإسلام الدينية. ويصور ذلك من بعض الوجوه ما رواه الشماخي في كتابه السير عن عمر بن يكتن أول معلم من البربر للقرآن الكريم في جبل نفوسة بطرابلس قبيل اشتراكه في ثورة أبي الخطاب الماعري سنة ١٤٠ للهجرة وتوليته له على مدينة سرت، فقد روى عنه أنه تعلم القرآن بطريق (مُقَمِّداس) كان يتلقى فيها السابلة والمارة من المشرق (يريد الجند العربي الداخل إلى إفريقية التونسية) فيكتب عنهم لَوْحاً من القرآن وينصرف إلى منزله، فإذا حفظ ما فيه رجع إلى المحجة (الطريق) فيكتب من المارة والرُفَاق كذلك حتى حفظ القرآن وتعلم العلم». ويقول الشماخي إنه «كان يصنع ذلك لحرصه على طلب العلم والقرآن في أول الإسلام وقلة المعلمين في البلدان». ونظن أنه إنما كان يصنع هذا الصنيع حتى يتلقن بدقة أداء ألفاظ الذكر الحكيم على وجوها الصحيحة، لأن أداءها لا يكفي فيه ما كتب في مصاحفه أو في الصحف، بل لابد في القرآن الكريم من أخذه شفاهاً، حتى يحكم الشخص تلاوة آياته بنطقها وأدائها الدقيق، وهو ما دفع ابن يكتن إلى أخذه شفاهاً من أفواه السابلة والمارة من الجند العربي الداخل إلى إفريقية التونسية والبلاد العربية. وفي هذا الخبر ما يوضح مدى ما أسداه الجند العربي الفاتح للمغرب - حتى المارة منهم بالطرق - في تحفيظ القرآن وحسن أدائه للمغاربة شبهاً وغير شباه، ويقول ابن يكتن إنه تعلم - من مارة الجند أيضاً - العلم يريد تعاليم الإسلام والفقه بالدين الحنيف. فأبنا كان الجند العربي مجاهداً في سبيل الله مع البربر ومقيماً بين ظهرانهم وماراً بطرقاتهم كان يعنى بشد أزهرهم في حفظ القرآن الكريم والمعرفة الدقيقة ببيادته والتفقه بصير بتعاليمه.

(ب) الكتابيب

إيماناً من الولاة في ليبيا وغير ليبيا من أن الدين الإسلامي العظيم جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم حتى يعلم بدقة فروض دينه وتعاليمه أخذوا يعنون ببناء كتابيب لتحفظ فيها ناشئة البربر: القرآن وتعرف مبادئ الشريعة الإسلامية، وكان المعلمون فيها يبدون بتعليم القراءة والكتابة وبعض مبادئ العربية، لإحكام النطق السديد بألفاظ الذكر الحكيم. وكانت تلك الكتابيب تلحق بالمساجد أو تخصص لها غرفة بداخلها ثم أخذت تشيع في المهارات والدروب بالمدن وفي الواحات والأحياء بالوديان، وظلت تعمل في ليبيا وغير ليبيا محل التعليم الابتدائي في عصرنا، وكانت الناشئة تزود فيها ببعض الأحاديث النبوية وبعض سيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وكانت تزود فيها بمبادئ الحساب، وأهم من ذلك تعلم فروض الإسلام وخاصة الصلاة وكيفية أداؤها وما ينبغي لها من الوضوء والطهارة كما تتعلم بعض إرشادات تهدي إلى الخلق المستقيم والسلوك القويم.

(ج) المساجد

وهذا التعلم المبكر للقرآن وتعاليم الإسلام الذي أنشئت من أجله الكتابيب في كل أنحاء ليبيا كانت الناشئة تنتقل منه إلى حلقات العلماء الذين كانوا يرابطون في المساجد ملقين على طلابهم مختلف الدروس والمحاضرات في فنون العلوم المختلفة من لغوية ودينية. وكانت ليبيا تكتظ بهذه المساجد في مدنها وقراها وواحاتها، ولم يكن يخلو مسجد من عالم كبير يحاضر الطلاب أو يعظ الناس، ومرُّ بنا في حديثنا عن الزهد والتصوف ذكر بعض مساجد اشتهرت في طرابلس وساحلها، ويذكر التجاني في رحلته أن بخارجها مساجد كثيرة، أما مساجدها في أحيائها المختلفة ودرورها فلا تحصى كثرة، ويقول إن بساحلها مساجد كثيرة. ولا نلتقي بالمساجد في ليبيا بالمدن فحسب، بل نلتقي بها أيضاً في القرى على شاكلة مسجد علي بن عبد الحميد الموسجى المقرئ الذي بناه في قريته «الحرشا» من قرى مدينة الزاوية، وكانت مدن جبل نفوسة وقراء تكتظ أيضاً بالمساجد. وكان العلماء ينتصبون في تلك المساجد لإلقاء دروسهم في قراءات القرآن الكريم وفي تفسيره وفي الحديث النبوي وفي الفقه والشريعة وفي العربية وقواعدها السديدة، وقد أصبحت طرابلس وبرقة منذ عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠ هـ) مركزين من مراكز العلم، وبعث فيها الأغالبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) حركة علمية خصبة، إذ عنوا بعلمايتها وأسبغوا عليهم من الرواتب ما يسد حاجتهم، وكان المجتمع الليبي بجميع طوائفه يجلب هؤلاء العلماء ويعرف لهم قدرهم وأنهم منارة الدين وحملة أضوائه.

(د) الرحلة في طلب العلم والوافدون

على نحو ما كان الشباب المغربي في إفريقية التونسية يرحل إلى مصر والشام والحجاز والعراق للتزود من العلوم الإسلامية واللغوية كذلك كان الشباب الليبي يرحل في طلب العلم وأخذ عن أعلامه، وسنذكر - عما قريب - بعض من حملوا عن الإمام مالك كتابه الموطأ وأذاعوه في وطنهم. ولا بد أن بعض المعلمين للعربية في ليبيا مدَّ رحلته في المشرق إلى العراق للاختلاف إلى علماء العربية بها وحمل كتبهم إلى البلدان الليبية.

وكان موقع ليبيا في طريق الأندلسيين والمغاربة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة نهائياً وإبائها يتيح لبلدانها مثل طرابلس وبرقة أن ينزلها بعض العلماء ويطلب له الإقامة فيها شهراً أو أشهراً، ويلتف به طلابها يحاولون أن يأخذوا عنه ما عنده من العلم أو ما اشتهر به، على شاكلة محمد بن عيسى البياضي الذي مر بطرابلس وبرقة في عامي ٣٣٢ و ٣٣٨ فالتف به طلابها يكتبون عنه، ومثل الفقيه أبي الحسين محمد بن إبراهيم الأندلسي الذي نزل طرابلس في عودته من أداء فريضة الحج، فقرأ عليه طلبتها بعض مؤلفاته. وكثر نزول مثل هذين العالمين بها في عهد الدولة الحفصية، ويقال إن ابن منظور العالم اللغوي المشهور المتوفى سنة ٧١١ بمصر تولى القضاء بها، ويروى عن بعض هؤلاء العلماء الوافدين - وخاصة على طرابلس - أنهم توقفوا بها للأخذ عن علمائها ونسمع بذلك منذ القرن الثالث الهجري، مما يدل بوضوح على ازدهار الحركة العلمية بطرابلس وأن أسماء بعض علمائها أخذ في الذيوع مما جعل بعض العلماء الوافدين يشغف بملقائه والأخذ عنه، على نحو ما نجد عند ابن الفرضي في كتابه «تاريخ علماء الأندلس» إذ ذكر نفراً نزلوا بطرابلس في رحلاتهم إلى المشرق للتزود من علمائها وحمل ما عندهم من العلم، ومن ذكرهم محمد بن قاسم بن سيار المحدث الأندلسي المشهور، إذ قال عنه إنه سمع بطرابلس عن علمائها في رحلته سنة ٢٩٤ للهجرة ومن ذكرهم أيضاً محمد بن عبد الملك بن ضيفون قائلًا عنه: إنه سمع بطرابلس في رحلته سنة ٣٣٨ من يحيى بن دحمان، كما سمع منه مواطنه هاشم بن يحيى بن حجاج البطلبوس في رحلته إلى المشرق، وسنذكر - فيما بعد - أن التجاني صاحب الرحلة المشهورة التي نرجع إليها حين زار طرابلس واستمع إلى محدث فيها هو ابن عبيد انهر انبهاراً شديداً والتمس منه أن يقرأ عليه صحيحه مسلم والبخاري.

(هـ) المدارس

عرف العالم الإسلامي فكرة المدارس منذ أواخر القرن الرابع الهجري وتوسع فيها نظام

الملك وزير ألب أرسلان في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري إذ بنى طائفة من المدارس في العراق وإيران سُميت كل منها باسم المدرسة النظامية، وكانت أشبه بجامعة يحاضر بها الأساتذة في فروع العلوم المختلفة، ولهم فيها مساكن ورواتب معلومة وللطلاب نفقات تكفيهم، ولكل مدرسة مكتبة نفيسة، وأخذت تتكاثر المدارس في البلدان العربية منذ القرن السادس الهجري، ويشيد التجاني وغيره من الرحالة الذين زاروا طرابلس بمدرسة بديعة قام على بنائها بين سنتي ٥٥٥ و ٥٥٨ الفقيه الطرابلسي عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا. وغضى إلى القرن السابع وكانت طرابلس تتبع الدولة الحفصية التي عنتت ببناء المدارس في تونس وأرجاء دولتها، ويبدو أنه بنيت في عهدها بطرابلس مدارس متعددة بشهادة التجاني في رحلته إذ يذكر أن بطرابلس مدارس متعددة أو كما يقول مدارس كثيرة. ويذكر الشماخي في كتابه السير وعلى يحيى معمر في كتابه الإباضية في موكب التاريخ مدارس متعددة للإباضية بنوها في جبل نفوسة. ومع أن العثمانيين في زمن حكمهم لطرابلس وليبيا لم يكونوا يولون الحركة العلمية العناية الواجبة نجد بعض ولائهم يعنون ببناء بعض المدارس، يتقدمهم في ذلك مراد آغا إذ بنى مدرسة بمدينة تاجوراء، ولا بد أن هؤلاء الولاة بنوا مدارس متعددة في البلاد، ويُذكر أن عثمان الساقزلي بنى مدرسة بطرابلس قرب باب البحر، كما يذكر أن أحد القرماني بنى مسجداً كبيراً وألحق به مدرسة. ولا بد أن مدارس تركية متعددة أنشئت في بلدان طرابلس وأيضاً في بلدان برقة حين انفكت عن تبعيتها للقاهرة، وكانت تتبعها منذ العصر الفاطمي إلى أن ضمها إلى ولاية طرابلس محمد الساقزلي. وبدون ريب ساعدت المدارس في النشاط العلمي بتلك الديار، ولو أنه كان في العصر العثماني نشاطاً محدوداً.

(و) الزوايا

عرفت المغرب الزوايا وأخذت تستكثر منها منذ القرن السابع الهجري، وكانت الزاوية تتكون من قاعة ومحراب للصلاة وغرفة لتحفيظ القرآن أو تلاوته وبعض غرف للضيوف والطلبة وبعض الزوار ممن ينزلون بها مع ما تحتاج إليه من المرافق. وكان بعضها يتسع في مبانيه، حتى تصبح الزاوية كأنها مسجد يوج بطلابه وزواره، وكان يكثر أن يكون لشيوخها ضريح يدفن فيه، ومن فوقه قبة كبيرة. وتحول كثير من الزوايا إلى ما يشبه دور علم مع ما تتيحه من العبادة والنسك، ويتحدث التجاني الذي نزل بطرابلس في أوائل القرن الثامن الهجري عن زاوية أولاد سهيل وعنايتها بتحفيظ القرآن وما بها من كتب كانت موقوفة على الطلاب وما كان لهم بها من غرف للسكنى. ومن أشهر زوايا ليبيا زاوية عبد السلام الأسمر بمدينة زليطن، وكانت تسمى - مع تحفيظ القرآن الكريم - بالعلوم الدينية، وكان بها حجر كثيرة لسكنى الشيوخ والطلاب، وقد أسسها صاحبها سنة ٩٠٠هـ وظل الطلاب يؤمنونها بعده من أنحاء ليبيا وغيرها، وكانت

مكتبتها تشتمل على خمسمائة مجلد من الكتب النفيسة. ولم تكد تخلو بلدة في ليبيا من زاوية تعنى بالعبادة وبث العلم والمعرفة.

(ز) خمود في الحركة العلمية

أصاب الحركة العلمية بليبيا غير قليل من الخمود في فترتين أما أولاهما فعين هاجر إلى ليبيا والمغرب أعراب بنى سليم وبنى هلال منذ سنة ٤٤٣ وكانوا بدوا جفاة، فأنزلوا بليبيا دماراً كثيراً، وخاصة في حَضْرَها ومدنها، شل العمران فيها والحياة العلمية إلى نحو قرن من الزمان، ولم تلبث طرابلس أن سُحِنت باحتلال نورمان صقلية لها ثلاث عشرة سنة طويلاً، وثار أهلها عليهم ومزقوهم ذات ليلة شرّ ممزق، ودانوا للدولة الموحدية المغربية، ولم يكد يمضي نحو ربع قرن حتى أصبحت ليبيا في طرابلس وبرقة مسرحاً لأطماع قراقوش وابنى غانية على نحو ما مرُّ بنا في غير هذا الموضع، وظلوا يعيشون في ليبيا فساداً عشرات السنين. وكل ذلك أثر في الحركة العلمية بليبيا واعتراها كثير من الخمود، غير أنه خلال كل هذا الرماد الثقيل الذي انهار عليها لنحو قرن ونصف من الزمان ظل بها وميض جمر علمي يلمع من حين إلى حين، مما هياً لاستمرار الحركة العلمية ببلدانها وظهور نفر من العلماء بها حملوا مصابيح العلوم المختلفة شرعية ولغوية . وتصبح برقة - أو تظل - موالية لمصر في عهد الأيوبيين والمماليك وتصبح طرابلس موالية للدولة الحفصية، وترعى حركتها العلمية بما أنشأت فيها من مدارس وتميد لها غير قليل من ازدهارها القديم.

وتعود الحركة العلمية إلى الخمود بطرابلس حين ظلت نحو أربعين عاماً فريسة للإسبان ثم لفرسان مالطة في القرن العاشر الهجري، وتغلفها الدولة العثمانية، ولم يكن العثمانيون أصحاب حضارة ولا أصحاب علم وثقافة، ولذلك انتكست البلاد الإسلامية جميعها التي ضمها إلى دولتهم سواء في المشرق مثل العراق والشام ومصر أو في المغرب مثل ليبيا وتونس والجزائر وتراجعت فيها الحركة العلمية وأصابها غير قليل من العطل والخمود، إذ لم يكن الولاة العثمانيون يشجعون العلماء في طرابلس - وبالمثل في برقة حين دانت لهم - تشجيعاً مادياً بفرض رواتب لهم ثابتة بحيث تحدث بينهم غير قليل من التنافس والنشاط العلمي الخصب، كما تحدث في مجالسهم غير قليل من الجدل في العلوم ومسائلها الشرعية واللغوية، ويلاحظ ذلك الرحالة المغاربة في رحلاتهم إلى الحج ومرورهم بطرابلس على نحو ما ذكر عند ابن عبد السلام الناصري في رحلته الحجازية الكبرى حين مر بطرابلس سنة ١٢١١هـ/١٧٦٦م إذ يقول: «إن أئمة طرابلس مع لطافتهم وديانتهم وحسن أخلاقهم لا يقيمون بها مجالس العلم والتدريس، غافلين عن المنافسة في هذا الأمر النفيس، وكأنها عليهم تسهّرت أو عادة عندهم قد

تقررت، سوى فرد من الناس، بدا في جُنْح ليلها كالنيراس». وعالم طرابلسى واحد فقط هو الذى لفت الناصرى، واليولد لم تكن قفرا من العلماء، ولكنها كانت قفرا عن يشجعونهم ويشيرون فيهم الرغبة في المنافسة العلمية، وبالتالي في البحث والمجدل والمناظرة.

٢

علوم الأوائل - علوم اللغة والنحو والعروض

(أ) علوم الأوائل

لم يكن لليبيا نشاط واضح في علوم الأوائل قبل العصر الحديث، إنما يذكر عرضاً أن هذا العالم اللغوى أو الفقيه المالكى بجانب علمه الواسع بمادته كان عالماً بالحساب والهندسة والكيمياء مثل عبد الله بن عبد الله البرقى الراحل إلى الأندلس زمن الخليفة المستنصر (٣٥٠-٣٦٦ هـ). ويقال إنه كان عالماً باللغة والنحو وإماماً فيها عالماً بالحساب والهندسة، ويقال عن الجلالى الفقيه الإياضى في القرن الرابع إنه كان مع براعته في علمى الأصول والمنطق كان بارعاً في الحساب، ومثله معاصره ابن المنر الفقيه المالكى، وكان عبد الرحمن بن محمد التاجورى الطرابلسى الفقيه المالكى في القرن العاشر الهجرى علامة زمانه في علم الميقات. وهى إشارات متباعدة زمنياً ولا تحمل لليبيا نشاطاً بيّناً في علوم الأوائل.

(ب) علوم اللغة والنحو والعروض

طبيعى أن تعنى ليبيا وبلدانها بالعربية، وكان الليبيون على مثال عمر بن يَمْكَن في تلقفه للقرآن الكريم وآياته من أفواه الجنود العربى يتلقفون كلهم العربية منهم وما يجرى على ألسنتهم من بعض الأشعار. ونشأت الكتاتيب، وأخذوا يتلقنون مع آيات الذكر الحكيم بعض الأمثال العربية وبعض الأحاديث النبوية، وربما ألم لهم الشيخ بشيء من خطب الرسول والخلفاء الراشدين، حتى إذا كان القرن الثانى أخذت ناشئة من العلماء من أهل ليبيا تحسن قراءة الذكر الحكيم وتروى بعض الأحاديث وتنشد بعض الأشعار، ورحل عدد منهم غير قليل لأداء فريضة الحج ولقاء العلماء في مصر والحجاز والعراق، وسمع بعضهم بوضع علماء البصرة لقواعد العربية، فرحلوا إليهم وتعلموا عندهم، وعادوا إلى الكتاتيب في ليبيا يعلمون الناشئة ما سمعوه من تلك القواعد، وعلموها أيضاً للشباب في المساجد وأخذ يشاركونهم في هذا التعليم وأقدون من المشرق: من البصرة أحياناً ومن الكوفة أحياناً أخرى، وما تلبث ليبيا أن يصيح لها لغويون ونحاة من أهلها، يتقدمهم أربعة عاشوا في عصر الدولة الأغلبية (١٨٤ - ٢٩٦ هـ)

ترجم لهم جميعا الزبيدي في طبقاته، وأولهم محمد بن صدقة المرادى الطرابلسي، وغلب عليه التفعر في اللغة، إذ كان لا يكتفى بالمألوف من اللغة في محاضراته وإملاءاته، بل يطلب دائما الشواذ والنوادر والغرائب اللغوية حتى ييهر تلاميذه وسامعيه. والثاني خلف بن مختار الطرابلسي المتوفى سنة ٢٩٠ وكان صاحب نحو ولفه ويقرض الشعر ويحيد المعاني، والثالث محمد بن سالم الطرابلسي المعروف بالعقّوق وكان صاحب نحو ولفه مثل سالفه مع علم بالجدل وإيمان بالاعتزال ومبادئه، والرابع عبد الله بن محمود من أهل سرت، نشأ فيها وأخذ عن علمائها، ورحل إلى القيروان للتزود من حلقات علمائها وبها دوت شهرته في اللغة والغريب وشرح الدواوين الشعرية وأيام العرب، وله كتب أملاها في اللغة والعربية والغريب والعروض، يقول الزبيدي: «وإليه كانت الرحلة من جميع إفريقية التونسية والمغرب، وعليه قرأ الناس المشروحات توفى سنة ٣٠٨ للهجرة». وملتقى عند القفطى في إنباه الرواة بأبي بكر محمد بن مؤمن الكندي البرقي، وقد على مصر وتوفى فيها سنة ٣٥١ وقد قارب الثمانين وكان نحويا كبيرا، كما نلتقى بعلي بن مضر البرنيقي أو البنغازي نزيل مصر، كان نحويا لغويا كبيرا وكتب بخطه كثيرا من الكتب اللغوية وكان الناس يتنافسون في تحصيل ما يكتبه، ويقول القفطى إنه رأى نسخة بخطه من معجم الجهمرة لابن دريد، وقد بيعت بأربعة وعشرين دينارا مصريا، وإذا كان قد حمل إلى القاهرة نسخة من الجهمرة بخطه، فإننا سنرى ابن القطاع بعده بأكثر من قرن يحمل إلى القاهرة من صقلية نسخة من صحاح الجوهري، وكان عليها اعتماد المصريين في رواية معجم الجوهري، كما كان اعتمادهم على نسخة معجم الجهمرة بخط علي بن مضر البنغازي، ولعل في حمله لها إلى القاهرة ما يدل على ما بلغه أهل ليبيا من العلم باللغة ومعاجمها الكبيرة في القرن الرابع الهجري، إذ توفى سنة ٣٨٤ للهجرة.

وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجري التقينا في طرابلس بعالم فذ من علماء اللغة العربية يحق لطرابلس - بل لليبيا عامة - أن تفاخر به، ويحسن أن نتوقف عنده قليلا لنتخذ منه رمزا قويا على مدى ما حذقته ليبيا وطرابلس حتى زمنه من علوم العربية والتعقّق فيها، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الأجدابي الطرابلسي اللواتي، فهو ليبي من قبيلة لواتة البربرية التي سكنت الساحل الليبي منذ العصور السحيقة، وأصل أسرته من أجدابية في إقليم برقة، ولذلك نسب إليها، وقد وُلد ونشأ وأمضى حياته في طرابلس إلى أن توفى بها، ولذلك عُرف بالطرابلسي. واختلف من ترجموا له أو ذكروه في القرن الذي عاش فيه، فقبل عاش في القرن السابع الهجري، وقيل: بل في القرن السادس، وقال التجاني في رحلته إنه عاش في القرن الخامس الهجري، ويؤيده - بل يقطع به - خبر له مع قاضي بلدته ابن هانش الذي ولى قضاهما بين سنتي ٤٤٤ و٤٧٧ فقد ذكر الرواة أنه حضر مجلس قضائه، فرآه يحكم بحكم مخطئ

فرده، فقال له ابن هانئ: «اسكت يا أحول فما استدعيت، ولا استفتيت» وانصرف من مجلسه غاضبا، فألف رسالة في الحول تدل على سعة علمه، وهي سعة شهد له بها كثيرون مثل القفطى في ترجمته له بإنباه الرواة، إذ يقول عنه: «من أهل اللغة، ومن تصدر في بلده واشتهر بالعلم.. وكانت له يد جيدة في اللغة وتحقيقتها وإفادتها». ويقال إنه سئل من أين لك كل هذا العلم ولم ترحل؟ فأجاب: اكتسبته من بابي هواره وزناتة في بلدق، يريد من العلماء الذين كانوا يفدون على طرابلس من الشرق والغرب، مما يدل على الأثر الواسع للوافدين على طرابلس في ثقافة شبابها ومعارفهم العلمية على نحو ما أشرنا إلى ذلك فيها أسلفنا من حديث. ويقول التجاني فيه برحلته: «كان الفقيه أبو إسحق هذا من أعلم زمانه بجميع العلوم كلاما وفقها ونحوا ولغة وعروضا ونظما ونثرا». وبنوه ومؤلفاته، ويذكر منها كتابه في العروض، ويقول: «ناهيك به حسنا وترتيا وتهذيبا، وهو نسختان: كبرى وصغرى» كما يذكر له كتابا مختصرا في علم الأنساب، اختصر فيه أنساب قريش للزبير بن بكار، ويقول: «قد رأيت أبا إسحق قد أدخل من حفظه في هذا المختصر زوائد تشتمل على فوائد نبيه عليها». ومن مؤلفاته الطريفة كتاب في الرد على ابن مكي في كتابه: «تنقيف اللسان» وما جمعه فيه من الأخطاء اللغوية التي تدور في أفواه الناس والعلماء، وقد راجعه في كثير من هذه الأخطاء محاولا تصحيح بعض ما ظنه خطأ وتسويغه. وبنوه التجاني بكتاب له في شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء وبيان اعتلالها. ويقول التجاني: «استوفى فيه جميع أحكام هذه الياء على اختلاف أحوالها.. ولما استوفى ذلك استيفاء جميلا تعرض لشرح المقاطع (الفواصل اليائية) الواقعة في سورة مريم لاشتغالها على كثير من تلك الأحكام، فجاء هذا التأليف في غاية الإفادة». ويبدو أنه كان فقيها كبيرا، وتشهد له بذلك مراجعته لابن هانئ السالفة في حكم قضائي له، ويقول التجاني: له تأليف جليلة وأسئلة مفيدة في الفقه، ولكن لاشك في أن نشاطه اللغوي كان أكبر وأخصب من نشاطه الفقهي. وقد نُشر من مؤلفاته كتابان لغويان نقيسان هما: كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ، والأزمنة والأنواء.

أما كتاب كفاية المتحفظ فهو على مثال كتاب فقه اللغة للتحالبي، ويتوزع مثله إلى عدة أبواب، فباب في صفات الرجال المحمودة ويتلوه بصفات الرجال المذمومة، وباب في صفات النساء المحمودة، ويتلوه بالمذموم من صفاتهن، وباب في خلق الإنسان، وباب في الخيل، وباب في السلاح، وباب في السباع والوحش، وباب في الطير، وباب في النبات إلى غير ذلك من أبواب كثيرة، ويقول في مقدمته: «هذا كتاب مختصر في اللغة وما يحتاج إليه من غريب الكلام، أودعناه كثيرا من الأسماء والصفات، وجنينا حوش الألفاظ واللغات، وأعريناه من الشواهد، ليسهل حفظه ويقرب تناوله، وجعلناه مغنيا لمن اقتصد في هذا الفن، وممينا لمن أراد الاتساع فيه». وقد

نال هذا الكتاب شهرة واسعة في العالم العربي من قديم شرقا وغربا وعكف عليه غير عالم يشرحه أو ينظمه شعرا ليسهل على الطلاب حفظ ما فيه، وعدد بروكلمان في ترجمته مخطوطاته ومخطوطات شروحه ونظمه، وطبع الكتاب في عصرنا بالقاهرة وببيروت وحلب، ونسوق مثالا من صفحاته الأولى يوضح مدى أهميته والفائدة - أو الفوائد - اللغوية منه، يقول في باب الصفات المحمودة في الرجال:

«الحواد: الرجل السخى، والخرق: الكريم، والخضم: الكثير العطية، والخضرم: الكثير الإنفاق، والأزيمى: الذى يرتاح للعطاء، والحسيب: الكريم الآباء، والماجد: الشريف، والصنديد: الرئيس العظيم وكذلك الهمام، والسديد: السيد وكذلك الجعجج والأريب: العاقل، والحلاجل: الوقور، والمنجد الذى قد جرب الأمور، والمجده: الذى يكون رأس القوم ولسانهم، واللؤيمى: الذكى القلب، والمصقع: البليغ اللسان، والسرى: المرتفع القدر وجمعه سراة بفتح السين».

وتشهد هذه الألفاظ بأنه كان صاحب حس أدبى وذوق مرهف وذاكرة لاقطة، مما جعله يعرف كيف يختار في كل باب من أبواب الكتاب من معاجم اللغة وما حفظه من الشعر والنثر ألفاظا مصفاة نقية من شوائب الغرابية والإغراب كما قال في مقدمة الكتاب ومع تفسيرها بحيث تكون معانيها واضحة قام الوضوح للشباب والأدباء حين يستخدمونها ويتلفظون بها، وهو ما دفع الناس - كما يقول القفطى - في مصر والمغرب إلى الاشتغال بالكتاب والعناية بحفظ ما فيه من الكلم المتغير المستعذب.

وأما كتاب الأزمنة والأنواء فقد حققه ونشره الدكتور عزة حسن بدمشق سنة ١٩٦٤ للميلاد، ويقول ابن الأجدادى الطرابلسى في مقدمته: «هذا كتاب مختصر أودعناه أبوابا حسنة في علم الأزمنة وأساساتها، والفصول وأوقاتها، ومناظر النجوم وهياتها، بأوضح ما أمكننا من التبیین، وبأسهل ما حضرنا من التقريب». والكتاب - كما يدل عنوانه - في علم الفلك وما يتصل به من الكواكب وأوضاع الشمس والقمر على مدار العام والأمطار والرياح وتغير الفصول. والعرب منذ الجاهلية يعنون بهذا العلم لشدة حاجتهم لمعرفة مواقع النجوم في ظلمات ليلهم الصحراوية الطويلة، حتى لكنها المصاييح التى تهديم في سراهم ليلا فلا يضلون السبل، وقد أكثروا من التأليف في هذا العلم منذ القرن الثانى الهجرى، ونقلوا عن الأمم القديمة: اليونانية والفارسية والهندية ما كتبوه فيه ومزجوه بمعارف العرب في صور مختلفة. وكتاب ابن الأجدادى يكتظ بمعلومات طريفة، وقد استهله بحساب الأزمنة والسنين والشهور الشمسية عند الروم وغيرهم والقمرية عند العرب ثم يذكر الكواكب المشهورة ومواقعها في القبة الزرقاء والكواكب السائرة في السماء، ويتحدث عن بيان أزمنة السنة وبروج الشمس ومنازلها والرياح

وأسمائها، ويختم الكتاب بتفصيل الحديث في الشهور الشمسية وأسمائها عند الأعاجم. ويذكر مع كل موضوع الأسماء والأمثال المسجوعة المرتبطة به، مع ما يعم في الكتاب من جمال الصياغة وحسن العبارة، وبذلك استحال علم الفلك عند ابن الأجدابي الطرابلسي إلى علم أدبي، مما يدل بوضوح على قدرته وبراعته الأدبية.

وفي كتب الطبقات بعد ابن الأجدابي الطرابلسي أسماء لبعض اللغويين والنحاة الليبيين على مدار الحقب إلى العصر الحديث، غير أن أحداً من الليبيين لم يبلغ مبلغه في التعمق اللغوي مع حسن العرض وجمال البيان، ومن تذكره كتب التراجم بعده معاصره خلوف بن عبد الله البرقي النحوي نزيل صقلية وأبو الحسن على البرقي المتوفى سنة ٥٢٢ للهجرة، وكان نحويًا كما كان شاعراً. وتمر قرون ولا يلعب في ليبيا اسم لغوي أو نحوي، ويلقانا في القرن التاسع يوسف بن علي الجعاني في القصبات عاصمة مسلاتة سنة ٨٢٠ وله شرح على متن الأبرومة، وبني له زاوية ببلدته كان يتعبد فيها لربه ويدرس النحو وغيره لطلابه، ومن نلقاهم في القرن العاشر الهجري محمد بن محمد بن عبد الرحمن الخطاب الطرابلسي المتوفى سنة ٩٥٤ للهجرة، وله حاشية على كتاب قطر الندى لابن هشام وأخرى على كتابه التوضيح أو أوضح المسالك، وله كتاب لغوي في المواضع التي غلط فيها الجوهري صاحب معجم الصحاح والفيروزابادي صاحب القاموس المحيط.

٣

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

تمثل قراء ليبيا للذكر الحكيم - مثل بقية قراء المغرب - قراءة ورش المصري التي تلقوها عن نافع مقرأ المدينة المشهور وأحد القراء السبعة، ولا يزال القراء - إلى اليوم - يدونون بها في ليبيا والبلاد المغربية دوى النحل، ومن القراء المبكرين بليبيا في جبل نفوسة عمر بن يكتن الذي مر بنا ذكره في الحركة العلمية، ومن كبار القراء في القرون التالية بعده مؤمن بن فرج الموارى الطرابلسي المتوفى سنة ٤٤٢ للهجرة، وكان يقرأ القرآن في مسجد عُرف باسمه بعده كما يقول التجاني في رحلته، واشتهر عبد السلام بن عبد الغالب المسراق المتوفى سنة ٦٤٦ للهجرة بأنه كان يعنى بالقراءات السبع جميعا، ومثله على بن عبد الحميد العوسجي المتوفى سنة ٩٢٥ وكان يحفظ الذكر الحكيم بالقراءات السبع، وكان يحفظه للفلماني في مسجد بناء في حياته واشتهر بأنه مؤدب الصبيان. وكانت المساجد والزوايا والكتاتيب جميعا تتوج بقراءة القرآن الكريم على مر الحقب.

وعلى نحو ما كانت ليبيا تعنى بقراءات الذكر الحكيم كانت تعنى بتفسيره. وكان علماؤها يتلقون ما كتبه الطبري وغيره من علماء المشرق ويعرضونه على الطلاب والناس، ومن كبار مفسريه طرابلس مؤمن بن فرج الهوارى المذكور آنفا بين القراء، ومنهم أيضا محمد بن محمد الخطاب المتوفى سنة ٩٥٤ وله في التفسير حاشية على تفسير البياضى، ويقال إنه حاول أن يكتب تفسيراً للقرآن وأنه مضى فيه حتى سورة الأعراف، ولم يكتب له أن يتمه، ومن مؤلفاته القرآنية كتاب في تجويد القراءات أو في علم تجويده. وكان يعاصره مفسر طرابلسى هو محمد بن على الخروبي المتوفى سنة ٩٦٣ وله تفسير تحتفظ به رفوف دار الكتب المصرية في ثمانى مجلدات. سماه: «رياض الأزهار وكنز الأسرار» وكان صوفيا كبيرا وربما نزع فيه منزع المتصوفة في تفسير الذكر الحكيم.

ولم تكن تقل عناية ليبيا بالحديث النبوى عن عنايتها بالتفسير للقرآن الكريم وقراءاته، ومن محدثيها سعيد بن عباس من أهل مدينة سرت، توفى سنة ٢٠٠ للهجرة، وتشتهر بروايته وتدرسه بعض البيوت أو الأسر مثل أسرة أحمد بن عبد الله بن صالح بن مسلم المعجل فى طرابلس المتوفى سنة ٢٦١ للهجرة، وكان يشبه بأحمد بن حنبل فى كثرة ما يروى من الأحاديث، وكان ابنه عبد الله وصالح محدثين، وظلت أسرته فى طرابلس تشتهر بروايتها للحديث النبوى وتدرسه للطلاب. وكان يعاصره فى برقة محدثان جليلان هما إبراهيم البرقى وعبد الكريم البرقى. وتلتقى فى القرن الرابع الهجرى بيبهى بن دحمان، وكان محدثا كبيرا، تسامع به أهل الحديث النبوى فى البلاد المغربية والأندلسية، وممّا بنا أن أندلسيين محدثين سمعا منه الحديث. ومن ناهى المحدثين فى هذا القرن ابن زكرون على بن أحمد بن زكريا المازذكرو فى الفصل الماضى بين الزهاد، وهو تلميذ صالح بن أحمد المعجل، وكان يلقى دروسه فى الحديث النبوى بمسجد المجاز فى طرابلس، وإليه كانت الرحلة من بلدان إفريقية التونسية والبلدان المغربية، ومن رحل إليه للسماع عنه أبو الحسن القابسى محدث تونس المشهور، وله فى الحديث والفقه والرقائق الوعظية تأليف كثيرة. ومن كبار المحدثين بعده أحمد بن نصر الداودى المتوفى سنة ٤٠٢هـ/١٠١٢م كان من أئمة المالكية، أنجبته طرابلس، وألف فيها كتابه: «النامى» فى شرح الموطأ لمالك، وانتقل منها إلى تلمسان، وفيها ألف كتب متعددة، منها: «النصيحة فى شرح كتاب البخارى» ويقال إنه أول من شرحه فى العالم الإسلامى، وألف كتاب الواعى فى الفقه وكتاب الأموال وهو فتاوى وأحكام فى غنائم وأراضى البلدان المفتوحة. ومن أهم المحدثين بعده إبراهيم بن عبد السلام المسراقى المتوفى سنة ٧٠٤. اشتهر بعنايته البالغة بغريب الحديث، وأهم منه معاصره الإمام المحافظ الكبير أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم المشهور باسم ابن عبيد المولود بطرابلس سنة ٦٣٩ وينوّه به ويعلمه التجانى فى رحلته التى تحدث فيها عن زيارته

لطرابلس سنة ٧٠٧ للهجرة بصحبة الأمير الحفصى زكريا بن اللحياني، وفيه يقول: «القائم برسم العلم في هذه البلدة (طرابلس) في وقتنا هذا شيخنا الإمام الحافظ أبوفارس عبدالعزيز بن عبدالعظيم حضرت درسه بمسجد مجاور لداره، فرأيت رجلا متضلعا من العلم، ذاكرا بالمذهب (المالكي) ذكرا لا يجاريه فيه أحد، ولا تكاد مسألة من مسائله تشذ عنه، حسن العبارة، مشاركاً في علوم جمّة وله اعتناء بحفظ كلام (الأئمة) القرويين (بالمغرب الأقصى) في المذهب (المالكي) من تعليل أو تفسير أو توجيه أو تخريج، واعتماده في الأصول الدينية والفقهية على كلام أبي المعالي (الجويني) إمام الحرمين) وكلام الشيخ أبي حامد الغزالي.. ولما حضرت درسه وتحققت مكانته المكتبة في العلم أحببت القراءة عليه مدة إقامتنا هنالك (بطررابلس) وطلب مخدوماً (الأمير أبي زكريا اللحياني) أن يكون ذلك بحضور منه، فلم يكن بد من استدعاء الشيخ لموضع سكننا، ففقدنا مجلسه لذلك بالقصبة (قصر البلدة) وفي مجلس الأمير منها، وطلب المحصور بذلك المجلس جماعة من أعيان الطلبة بالبلد، فأذن لهم، ورأينا أن يكون المقروء حديث خير الأنعام». ويذكر التجاني أن ابتداء هذه المجالس كان في شهر شعبان من سنة ٧٠٧ وأنه بدأ بقراءة صحيح مسلم، والشيخ يعلق ويفسر ويحجب على الأسئلة، حتى إذا أتمّ التجاني قراءة صحيح مسلم على الشيخ أخذ يقرأ عليه صحيح البخاري، والشيخ يفسر ويعلق تعليقات علمية ويرد على الأسئلة ردوداً دقيقة غاية الدقة، وأجاز ابن عبيد التجاني بما رواه عن شيوخه من هذين الصحيحين في صفر سنة ٧٠٨ للهجرة.

وبدون ريب يمثل ابن عبيد النروة التي انتهى إليها علماء الحديث وحفاظه في طرابلس وأنهم لم يكونوا يقلون علماً وحفظاً ودراية للحديث النبوي وتعمقاً في دراسته عن أندادهم في البلدان العربية: في تونس وغير تونس بل إن هذا أحد الأفذاذ المتأدبين بتونس يقطع مع أميره رحلتها ويظللان بطرابلس أشهراً ليحظيا بأخذ صحيحى مسلم والبخاري عن هذا الحافظ الكبير الثبت الحجّة، وقد سأله التجاني عن شيوخه فأعطاه ثبناً بأههم، ونفر منهم كانوا طرابلسيين ونفر آخر كانوا من الوافدين على طرابلس إما لتولى منصب القضاء وإما مائرين بها في الطريق لأداء فريضة الحج أو عائدين إلى ديارهم المغربية، ويذكر له الكتب التي أخذها عنهم، وفي مقدمتها كتاب الإرشاد لأبي المعالي إمام الحرمين الجويني وكتاب البرهان له أيضاً وكتاب المستصفي للغزالي. وفي ذلك ما يؤكد ما قلناه في غير هذا الموضوع من أن الوافدين على طرابلس والمجتازين بها كان لهم تأثير واسع في حركتها العلمية. وتظل رواية الحديث النبوي ودراسة متصلتين في طرابلس وكل أنحاء ليبيا طوال القرون التالية.

ويعدّ الفقه أهم علم إسلامي استوعب نشاط العلماء الليبيين. وطبيعى أن لا ينشأ في ليبيا فقهاء يحسنون العلم بالمذاهب الفقهية المشهورة: مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب

الشافعي ومذهب ابن حنبل إلا بعد نشوء هذه المذاهب، وقد نشأت الثلاثة الأولى في القرن الثاني الهجري، ونشأ الرابع في القرن الثالث الهجري على نحو ما هو معروف، وظل بعيداً عن أهل ليبيا لا يعرفه - ولا يعتقه - أحد منهم، وكان مذهب أبي حنيفة في العراق بعيداً عنهم، غير أن إمامه لعهد الرشيد: أبا يوسف حمله على أن يخص القضاء في الدولة الإسلامية جميعها بأهله، فكان يشترط في القاضي بأى بلد إسلامي أن يكون فقيها حنفياً، وكان إبراهيم بن الأغلب والى الرشيد ومؤسس الدولة الأغلبية في إفريقية التونسية وطرابلس يصدع هو والحكام من أسرته لمشئمة الرشيد وأبى يوسف في أن يكون القضاء بدولتهم أحنافاً ما أمكن ذلك، مما يجعلنا نظن أنه تولى القضاء في زمنهم بطرابلس بعض القضاة الأحناف، مما جعل المذهب الحنفي يعرف فيها بعض المعرفة، وبانتهاء زمن الدولة الأغلبية تنتهى صلة طرابلس بالمذهب، حتى إذا والت ليبيا الدولة العثمانية عادت هذه الصلة. إذ كان العثمانيون يفرضون على البلدان الموالية لهم أن يكون قضاها أحنافاً، وكان المذهب الشافعي قد انتشر بمصر وكثر فقهاؤه، ولا نسمع أن ليبيا اعتنقه، إذ كان قد جذبهم إليه مذهب مالك أستاذ الشافعي وإمام المدينة والحجاز. ولم يكذبى في علماء ليبيا بقية للمذهب سواء، وخاصة أن نفراً منهم كانوا قد حضروا دروس مالك وحملوا عنه كتاب مذهبه: الموطأ وأخذوا يشيعون المذهب في ليبيا على نحو ما نعرف عن معاوية بن محمد الحضرمي الطرابلسي تلميذ مالك، وكان قد حمل المذهب عنه جلة من الفقهاء المصريين، فكان الليبيون يأخذون عنهم مثل إبراهيم بن أبى الفياض فقيه برقة المتوفى سنة ٢٤٥ تلميذ عبد الله بن وهب بالفسطاط حامل مذهب مالك عنه إلى مصر، أو بعارة أدق أحد حملته عنه المصريين المهمين، وكان سحنون إمام المذهب في المغرب وحامله عن عبد الرحمن بن القاسم في مصر قد نزل قبل قدومه إلى القيروان في أجدابية بليبيا سنة ١٩١ وأذاعه فيها وانتقل إلى طرابلس وظل بها ثلاث سنوات يدرس لأهلها المذهب ويشيعه، ويلقانا فقهاء ومالكية كثيرون في بلدان ليبيا المختلفة مثل ابن أبى زرعة البرقى المتوفى سنة ٢٤٩ وله مؤلفات مختلفة في المذهب ورجال الموطأ وزيادات على مختصر الفقيه المالكي المصري ابن عبد الحكم ذكر فيها اختلافات فقهاء الأمصار، وتلتقى في مدينة سرت بعبد الجبار بن خالد السرقى المتوفى سنة ٢٨١ للهجرة، وهو من تلامذة سحنون، ومن تلتقى به في طرابلس موسى بن عبد الرحمن بن حبيب القطان المتوفى سنة ٣٠٦ وهو تلميذ محمد بن سحنون خليفة أبيه في حلقة بالقيروان، وتولى القضاء ببلدته فترة، ويقول ابن فرحون في الديهاج إنه كان يحسن الكلام في الفقه على مذهب الإمام مالك، ويذكر له كتابها ضخماً في أحكام القرآن في اثني عشر جزءاً، وتلتقى في برقة بالفقيه المالكي عبد الله بن إسماعيل البرقى المتوفى سنة ٣١٧ ومربناً ذكره مع عبد الجبار البرقى بين الزهاد، ويلقانا في سرت الفقيه المالكي محمد بن حسن الزويل السرقى المتوفى سنة ٣٨٣. وتلتقى بإمام كبير من أئمة الفقه المالكي بطرابلس، هو على بن محمد بن المنمر المتوفى سنة

٤٣٢، وهو أول من انتصر لمذهب أهل السنة في بلده ضد المذهب الفاطمي الشيعي، وأمر بجمع شارتهم في الأذان: «حسبي على خير العمل» ودعا الناس إلى صلاة الضحى جهاراً ولم يكونوا يصلونها في زمن الفاطميين إلا مستخفين، وأعاد صلاة القيام في رمضان وكان الفاطميون قد محوا رسمها محو تاماً في أيامهم، وعنى في كتاباته ومحاضراته بمناصرة أهل السنة، ومن مؤلفاته التي عنى بها الطرابلسيون طويلاً كتابه: «الكافي في الفرائض». ومن أئمة الفقه المالكي بطرابلس عمران بن موسى بن معمر المتوفى سنة ٦٦٠ وهو أستاذ ابن عبيد الحافظ الكبير الذي نوه به التجاني طويلاً كما مرّ بنا، وكان يدرس لطلابه من أمهات المذهب المالكي كتاب التفرغ لابن الجلاب وتهذيب المدونة للبرادعي. كما كان يدرس لهم كتاب المستصفي للغزالي والمحصل لابن العربي الأندلسي، وظل قاضياً على طرابلس أكثر من ثلاثين عاماً واشتهر بدقته في أحكامه وأقضيته، فاستدعاه المستنصر الحفصي لتولى القضاء في تونس سنة ٦٥٨ للهجرة، وتولاه لمدة عامين بها حتى توفى. وعرف شيوخ طرابلس حينئذ نظام المعيدين المعروف بمصر وغيرها في زمانهم، وكان المعيد عنده عبد الوهاب بن محمد المنزولي، وخلفه في حلقة ودروسه حين بارح طرابلس إلى تونس بدعوة المستنصر الحفصي، ومن تلاميذه ناهي فقهاء المالكية عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا المتوفى سنة ٦٨٤ وهو مثل ابن معمر من أساتذة الحافظ المحدث ابن عبيد، وكان يدرس لطلابه بطرابلس كتاب الإرشاد والبرهان لأبي المعالي الجويني وكتاب المستصفي للغزالي، وسأعود للترجمة له بين الشعراء، إذ كان شاعراً كبيراً. ومن فقهاء المالكية النابيين أحمد بن عبد الرحمن الزليطني الفقيه الأصولي المتوفى بأخرة من القرن التاسع، وهو أستاذ زروق أو بعارة أدق أحد أساتذته، وله مؤلفات كثيرة، منها شرحان على مختصر خليل في الفقه المالكي أحدهما ضخيم في ستة مجلدات، ومنها شرحان على أصول السبكي، ومنها شرح مختصر فتاوى البرزالي، وتولى القضاء بطرابلس فترة ثم أسندت إليه بتونس مشيخة المدارس. ومرّ بنا زروق في حديثنا عن الصوفية، وكان فقيهاً مالِكياً كبيراً، ومن كتبه الفقهية شرحان لرسالة ابن أبي زيد في الفقه، وشرح مواضع من مختصر خليل، وشرح الإرشاد في الفقه. وظل الفقه المالكي مزدهراً في طرابلس - مثلها في ذلك مثل بقية البلاد المغربية، ومن فقهاء النابيين في العصر العثماني محمد بن شعبان الطرابلسي المتوفى سنة ١٠٢٠ وقد أسند إليه القضاء في طرابلس والفتوى والتدريس، واشتهر بمنابرته لعلماء إستانبول. ومر العياشي بطرابلس سنة ١٠٥٩هـ/١٦٥٠م وذكر من فقهاءنا في رحلته أثناء وصفه للمدينة محمد بن أحمد بن عيسى اليربوعي ومحمد بن مساهل مفتيها وقد ظلت ولايته للفتوى بها نحو أربعين سنة مُحدث فيها سيرته، ونوّه بالفقيه محمد المكي وقال إن بيته بيت علم وذكر له خزانة كتب ليس لأحد من أهل بلده خزانة تماثلها، وذكر من مؤلفاته: «شكر المنّة في نصر السنة» وهو في الرد على عقيدة الإباضية.

والحق أن فقهاء المذهب المالكي في ليبيا يفوتون الحصر، مثلها في ذلك مثل الأقاليم المغربية المختلفة، وكانت الجماهير فيها جميعا تعتنق مذاهب أهل السنة وخاصة مذهب مالك فهو المذهب الذى ذاع وشاع في جميع البقاع المغربية، إلا ما كان من جبل نفوسة في ليبيا وجزيرة جربة في تونس وبلاد ميزاب في جنوبي الجزائر، فإنها جميعا اعتنقت العقيدة الإباضية إلى اليوم، وملتقى بفقهاء لها عديدين في جبل نفوسة، ومن أوائلهم إسماعيل بن ضرار القدامسى أحد الذين رحلوا إلى البصرة للتلمذة على أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة داعية العقيدة الإباضية وظل ملازما له خمس سنوات وعاد إلى موطنه فولاه أبو الخطاب عبد الأعلى المعافرى في ثورته بجبل نفوسة وطرابلس سنة ١٤٠ القضاء في دولته ووكّل إليه بجانبه شئون التعليم، وأخذ الفقهاء الإباضيون بعده يتكاثرون في جبل نفوسة ومن أهمهم في القرن الثالث الهجرى عمرو بن فتح النفوسى المتوفى سنة ٢٨٣ للهجرة وله كتب في العقيدة الإباضية: في الأصول والفروع، من أهمها كتاب منسوب إليه يسمى «العروسى» ولما نزل داعية الإباضية بشر بن غانم الخراسانى جبل نفوسة استودعه مدونة في الفقه الإباضى رواها عن تلامذة داعية الإباضية الكبير بالبصرة أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة، فتفرغ هو وأخت له ليل نهار لنسخها، وكانت تقع في اثني عشر جزءا، حتى أقما نسخها، وتصادف أن الأيام حفظتها بيننا احترقت النسخة الأصلية. وعليها اعتماد الإباضية في الفقه، وهى تقوم عندهم مقام مدونة سحنون في مذهب الإمام مالك. ومن فقهاء الإباضية في القرن الرابع الهجرى سليمان بن ماطوس الشروسى، وتعد فتاويه مرجعا مهما عند الإباضية، وموسى بن يونس الجلالى، وقد برع في الأصول والمنطق والرياضيات وأسس مدرسة كبيرة كان بها أقسام داخلية للطلاب والخبراء، وملتقى في القرن الخامس بالفقيه أحمد بن بكر النفوسى مؤسس جماعة العزابة، وكانت لها هيئة عليا وفروع في كل بلد وقرية تضم خير أهلها علما وصلاحا، ومهمتها خدمة المصلحة العامة، ولهذا الفقيه الإباضى مؤلفات كثيرة، منها أصول الأرضين في ستة أجزاء والجامع في الفروع في جزءين والقسمه وتبيين أفعال العباد في ثلاثة أجزاء، وملتقى في القرن السادس بيوسف بن إبراهيم السدراى المتوفى سنة ٥٧٠ وله كتاب العدل في أصول الفقه وكتاب الترتيب في علم الحديث، ومن كبار فقهاء الإباضية في القرن على بن يخلف التيمجارى النفوسى، ناشر الإسلام في مملكة مالى فقد رحل إليها سنة ٥٧٥ وأقنم ملكها ووزراه وأهلها بالدين الحنيف فاعتنقوه، وظل في ديارهم يعلمهم فرائض الإسلام ويحفظهم القرآن الكريم ويفقههم في الدين، وهى يد عظيمة لإباضية نفوسة بجانب الأبايدى الأخرى العظيمة لصوفية المغرب ودراويشها في نشر الإسلام بإفريقية السوداء غربا ووسطا وشرقا. ومن كبار فقهاء الإباضية في القرن الثامن الهجرى أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالى نسبة إلى جيطال مدينة كبيرة في جبل نفوسة، توفى سنة ٧٥٠ للهجرة، وهو كثير التأليف، له كتاب في الفرائض وكتاب في الحج والمناسك

وكتاب قواعد الإسلام وكتاب قناطر الخيرات في ثلاثة أجزاء. وتلتقى بأبي ساكن عامر الشماخي المتوفى سنة ٧٩٢ عَزَمَ على أن يؤلف مدونة كبرى في الفقه وأخرج منها أربعة أجزاء أولها في الصلاة، والثاني في الزكاة والصوم والحج والنذور والأيمان والحقوق، والثالث في البيوع والقسمة والرهن، والرابع في الوصايا والهبات. وتلتقى في القرن العاشر ببدر الدين أحمد الشماخي المتوفى سنة ٩٢٨ ومن أهم كتبه مقدمة في أصول الفقه. وللإباضية مجموعتان فقهيتان: مجموعة تسمى الديوان ألفها سبعة من فقهاءهم في نفوسة، ومجموعة ثانية تسميها ديوان الغزابة ألفها عشرة من فقهاء نفوسة الكبار.

وقد مر المذهب الفقهي الإسماعيلي الفاطمي على ليبيا مرورا سريعا فقد كان الناس متصرفين عنه إلا نفرا قليلا بل أقل من القليل رأوا التعلق بدنيا الفاطميين، وربما ألجأهم إلى ذلك الضرورة، ولا نسمع في طرابلس عن فقيه إسماعيلي إلا ما يروى عن خليل بن إسحق ولم يكن فقيها بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ولا كانت له مؤلفات فقهية، إنما حضر حلقات بعض الفقهاء حتى إذا دُوى طبل المهدي وابته القائم أسرع في الانضواء تحت لوائها، ومثله محمد بن سيار الفقيه البرقي المتوفى سنة ٣١٠ ومثلها محمد بن الحسن الطرابلسي الذي استدعاه يعقوب بن كلس وزير المعز الفاطمي إلى القاهرة وفوض إليه قضاء دمياط وبلييس والفرما، وعلى شاكلتهم أبو جعفر أحمد بن خالد البرقي المتوفى سنة ٣٧٦ ومالك بن سعيد القرافي ولى القضاء بمصر في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، وأمر بضرب عنقه سنة ٤٠٥ للهجرة.

وإذا كانت ليبيا نشطت في علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات فإن نشاطها كان محدودا في علم الكلام، إذ لا يعدو ما يقال عن اشتغالهم به وأن يذكر أن شخصا كان نحويا أو لغويا أو فقيها كبيرا كان يعتنق الاعتزال مثل محمد بن سالم الطرابلسي، ولا نعرف إلى أي حد كان يمثل مبادئه، ويذكر أن معاصره أبا خزر النفوسي الإباضي ناظر أحد المعتزلة في القرن الرابع وانتصر عليه، ويقال إن الفقيه المالكي الكبير أحمد بن نصر الداودي ألف رسالة في الرد على القدرية (المعتزلة) بعنوان الإيضاح ولو أنها وصلتنا لاستطعنا أن نأخذ صورة عن مباحث علم الكلام في ليبيا وبالأخص في طرابلس بلدته. ويقال إن الفقيه المالكي الكبير الدوكالي كان يدرس لطلابه من أمثال عبد السلام الأسمر في القرن العاشر الهجري مقدمة الأشعري في التوحيد، ويبدو أن ليبيا أصبح مثلها مثل البلاد المشرقية والمغربية منذ القرن الخامس الهجري وما بعده تؤثر المذهب الأشعري الكلامي على الاعتزال وغيره من المذاهب الكلامية.

التاريخ

طبيعى أن يشغف بعض العلماء في ليبيا بالكتابة في التاريخ الإسلامى، كما يشغف به كثيرون في البلدان العربية، ومن أوائل مؤرخيهم عبد الرحيم بن عبد الله بن أبى زُرعة البرقى المتوفى سنة ٢٥٦ للهجرة روى السيرة النبوية ومغازيا عن ابن هشام مؤرخها بالفسطاط، ويبدو أن أخاه أحمد رواها معه عن ابن هشام، ويقال إن لأحمد كتابا في التاريخ دون إشارة إلى موضوعه، ويذكر ابن ناجى في معالم الإيمان مؤرخين في أجدابية، هما أبو العباس عبد الله بن عبد الرحمن الأجدابى المتوفى سنة ٣٨٤ وأبو عبد الله الحسين بن عبد الرحمن الأجدابى المتوفى سنة ٤٣٢ وتلتقى في طرابلس بمؤرخين لها، هما الحسن بن فراج المتوفى سنة ٥٢١ وعلى بن عبد الله بن مخلوف الطرابلسى المتوفى سنة ٥٣٣. ومن المؤرخين المهمين في القرن العاشر الهجرى كريم الدين الهرمولى المصراقى المتوفى سنة ٩٩٩ للهجرة، وأبوه مصرى نزل مصراته مع الشيخ زروق في عودته من مصر، وقد بدأ كريم الدين تعلمه في زاوية الشيخ زروق ثم تركها إلى زاوية الشيخ المحجوب، وشغف بالتاريخ وله فيه كتاب روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار، وفيه عُرِفَ بطائفة كبيرة من الأتقياء الصالحين وبأنساب الأشراف في طرابلس وأنساب بعض القبائل العربية وله بجانب هذا الكتاب كتاب عن عبد السلام الأسمر الصوفى معاصره المار ذكره بين المتصوفة.

ويشتهر بين علماء نفوسة الإباضيين مؤرخان، أولهما أحمد بن سعيد الدرجينى الفقيه الإباضى في القرن السابع وله كتاب طبقات المشايخ ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية، وفيه عرض تراجم مفصلة لأئمة المذهب الإباضى رتبها في طبقات كل طبقة تضم خمسين عاما حتى نهاية القرن السادس الهجرى، والثانى أبو العباس بدر الدين أحمد بن عثمان بن عامر الشماخى المذكور بين الفقهاء الإباضيين وله في تاريخ الأئمة الإباضية كتاب «السيرة» وفيه يعرف بالمذهب الإباضى منذ نشأته وترجم لرجاله حتى أوائل القرن العاشر الهجرى.

الفصل الرابع

الشعر والنثر

١

تعرب^(١) ليبيا

أخذت ليبيا والبلدان المغربية تدخل في الإسلام منذ فتحها العرب، ومنذ اعتنقته ليبيا لم تقم فيها أى حركة ثورية ضد العرب، كما حدث أيام كسيلة والكاهنة في إفريقية التونسية والجزائر، وحتى لما لم يعودا إلى شق عصا الطاعة منذ عهد حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥ هـ). ومع ذلك فإن الإسلام عُمِّها بحيث لا تصل إلى أواخر القرن الأول الهجرى حتى يكون قد تغلغل إلى جميع البقاع في المغرب، بين الحضر شمالا والبدو جنوبا وفي السهول وعلى سفوح الجبال وفي الهضاب وفي الصحارى، وهو ما ملأ نفوس المؤرخين الغربيين حيرة، فإن الفينيقيين أقاموا بين البربر قرونا، ولم يستطيعوا نشر دينهم ولفتهم بهذه الصورة الجماعية، وبالمثل الرومان، وظلت المسيحية التي حاولوا نشرها بين البربر غريبة ولا تُعرف إلا في بعض البلدان الشمالية وبتأثير جاليات رومانية فيها. وأخذت تنسحب وتتقوض أمام المد الإسلامى منذ القرن الأول الهجرى. ولا ريب في أن مرجع ذلك إلى أن دين الإسلام دين الفطرة الإنسانية، ويخلو من نظرية التثليث المعقدة عند المسيحيين، وأيضا فإنه يمرر البربر وغيرهم من فكرة الاستعباد للرومان وغير الرومان ممن يستولون على الديار ويملكون كل ما فيها من الخيرات وطيبات الرزق، ثم هو لا يظلم أهل البلاد المفتوحة أى ظلم مالى أو غير مالى، وهو يسوى بين أتباعه من العرب وبين مسلمى البلدان المفتوحة في جميع الحقوق: في الغنائم وفي الضرائب وفي مختلف الشئون.

ظلت ليبيا طوال القرن الأول الهجرى مركزا مهما للجيوش العربية، وكان كل جندى فيها

للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وتاريخ ليبيا
للدكتور إحسان عباس وكتاب النشاط الثقافي في
ليبيا للدكتور أحمد مختار عمر.

(١) انظر في تعرب ليبيا الجزء السادس من تاريخ
ابن خلدون وكتاب وصف إفريقيا للوزان ورحلة
العبدى وكتاب ورفات عن الحضارة العربية

يحاول تحفيظ بعض البربر اللبيين القرآن وتعليمهم مبادئ الدين الحنيف والعربية، والفرائض المكتوبة عليهم وينبغي أن يؤدوها على خير وجه، ولم تلبث الكتابيب أن أسست في المدن وغير المدن، مما أسرع بأهل ليبيا إلى دخول الدين الحنيف أفواجاً بعد أفواج، ومما أسرع بهم إلى التعرب الاختلاط بالعرب والمصاهرة بينهم وبين أسرهم. وأيضاً مما أسرع بهم إلى التعرب هجرات مكررة للقبائل والعشائر العربية نزلت بديارهم، إذ يذكر اليعقوبي المتوفى في أواخر القرن الثالث الهجري أنه سكن جبل برقة الشرقي عشائر مينة من الأزد ولحم وجذام والصديف وغيرهم وسكن جبل برقة الغربي عشائر من غسان والأزد ونجيب، ونزلت الرمادة عشائر من بني مدلج وبلى وجهنة، ونزلت ودان في الهضبة جنوبي طرابلس عشائر سهمية وحضرية، وكل ذلك عمل على المزج بين العرب والليبيين، ولا نكاد نصل إلى منتصف القرن الخامس الهجري حتى يحدث طوفان الهجرة الأعرابية الكبرى لبني سليم وبني هلال من صعيد مصر إلى ليبيا والديار المغربية على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، ونزلت أمواج بني سليم - وخاصة بني قرة منهم - في برقة، وتغلغلت أسراب منها في ليبيا إلى إقليم طرابلس في الغرب، ومعها عشائر من بني هلال. وأعد هذا الطوفان الأعرابي الكبير ليبيا ليتكامل تعربها، إذ انصهر البربر بها في الأعراب، وأصبحوا معاً شعباً عربياً كبيراً في تقاليد وعاداته وتناول حياته اليومية وفي أزيائه وملابسه وطعامه وفي أحزانه وأتراحه وفي أفراحه وأعراسه، وتعربوا أيضاً في الأخلاق والشيم الكريمة من المرومة والنجدة والفروسية، ولم تتعرب برقة وحدها هذا التعرب الواسع في جميع مناحي الحياة، بل تعربت أيضاً طرابلس وسكان إقليمها من أفراد قبيلة هواة البربرية، ويشهد بذلك ابن خلدون قائلاً عنهم في الجزء السادس من تاريخه: «إنهم صاروا في عداد الناجعة من عرب بني سليم في اللغة والزئى وسكنى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلالهم، قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها فصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم» ويشهد ابن خلدون نفس الشهادة لبني يفرن في جبل نفوسة قائلاً: «إنهم تبدوا مع بني سليم، ونسوا رطانة الأعاجم وتكلموا بلغات العرب، وتحلوا بشعارهم في جميع أحوالهم». واتسع هذا الشعور بالمروبة بين البربر، فإذا هم ينسبون أنفسهم إلى القبائل العربية شمالاً وجنوباً، وكانت هواة تنسب نفسها إلى اليمن كما يقول اليعقوبي. وبذلك لا نبالغ إذا قلنا إن بربر ليبيا تحولوا شعباً عربياً تماماً منذ نزل بديارهم بنو سليم وبعض عشائر من بني هلال، فقد أصبحوا عرباً ديناً إذ اعتنقوا الدين الحنيف، وعرباً أسلوب حياة وعادات وتقاليد، وعرباً زياً وملبساً ومطعماً، وعرباً لغة، كما لاحظ ابن خلدون.

ويبدو أن انتصار العربية على اللغة الوطنية المغربية في ليبيا وغيرها من بلدان المغرب كان حاسماً منذ اعتناق البربر للدين الحنيف، وكانوا يسمون لغتهم - كما يقول الحسن الوزان - أوائل أمازيغ أى اللغة النبيلة، وسموها العرب اللغة البربرية، وكانت لهجات شتى. وفي العصر

الحديث اكتشفت نقوش في إقليمى تونس والجزائر وفي الصحراء الكبرى تدل على أن البربر عرفوا الكتابة، غير أنه لم يؤثر عنهم أى كتاب دينى ولا أدبى ولا عمل زراعى مثلا، ومعنى ذلك أن البربرية لم يكن لها تراث تستطيع أن تلقى به العربية، بحيث يمكن أن يحدث صراع بينها وبين العربية، ومن أجل ذلك لم تقاوم العربية أى مقاومة، بل سرعان ما قهرتها واحتلت السنة أهلها وأصبحت لغة الحياة في ليبيا وغيرها من البلدان المغربية. ولكن هل حدث فيها ما حدث مثلا في مصر من حدوث تحريفات في الكلام العربية أهل لظهور اللغات العامية. وكلام ابن خلدون عن هواره سكان إقليم طرابلس وبني يفرن سكان جبل نفوسة يدل على أنه لم تشع في ألسنتهم عامية مستحدثة، إذ قال إنهم استبدلوا من رطانة البربر فصاحة العرب، مما يؤكد أن الفصحى شاعت في ليبيا وظلت في السنة أهلها طويلا.

وإذا كان ابن خلدون شهد لأهل طرابلس من هواره وبني يفرن في نفوسة بأنهم لم يكونوا يقلون فصاحة عن بنى سليم فإن العبدى الرحالة المغربي يشهد لبرقة - حين مر بأحيائها في رحلته سنة ٦٨٨ - بفصاحة أهلها فصاحة تامة، إذ يقول:

«كلام عرب برقة من أفصح كلام عربى سمعناه، وعرب الحجاز أيضا فصحاء، ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيره، وهم الآن على عربيتهم، لم يفسد من كلامهم إلا القليل، ولا يخلون من الإعراب إلا بما لا قدر له بالإضافة إلى ما يعربون. وقد سألت بدويا لقبيته يسقى إبله في «المصوى» على ماء يقال له أبو شمال: هل نورد على أبو شمال، وذكرته بالواو في موضع الخفض على عادة أهل المغرب، فقال لى: نعم تظنون أبا شمال، وأثبت النون في الفعل ونصب المفعول. وليس في المغرب عربى ولا حضرى يفعل ذلك. ومررنا بأطفال منهم يلعبون، فقال لنا واحد منهم: يا حجاج معكم شيء تبيعونه، وأثبت النون وسكن الهاء للوقف. ورأيت أعرابيا منهم قد ألت عليه امرأة تسأله (شيئا) من طعام يأكله. فقال لها: واقه ما تذوقينه، فأنى بضمير المخاطبة على وجهه، وأثبت النون وسكن الهاء. وسمعت شخصا يتشد في الركب مكترى راحلة، ويقول: مَنْ يُكرى زاملة، فسمعه بدوى، فقال له: أعنتك الزاملة؟ فقال: نعم: فلا تقل من يكرى وقل: مَنْ يستكرى. وذكر لى بعض أصحابنا ممن حج معنا أن شخصا شرب من بئر، فقال: فى هذا الماء رائحة الحبل، وحرك الباء بالفتح على لغة أهل المغرب يعنى الرشاء المستسقى به، فسمعه أعرابى، فقال له: ومن أين جاءت رائحة الحبل إلى الماء، فأشار المغربى إلى الرشاء، فقال له الأعرابى، قل الحبل ولا تقل الحبل. وأما نادر ألفاظ اللغة وما جرت عادة أهل المغرب بتفسيره فهم - حتى الآن - يتحاورون به على سجيّتهم، فمن ذلك أن شخصا منهم وقف على موضع نزولى من محلة الركب، وكانت التربة (قناة الماء) منه بعيدة، فقال لى: يا سيدى تدعى أظهر يعنى أخرج، وسألت

شخصاً منهم عن الطريق، فقال لى: إذا ظهرتم من الغابة فخذوا صَوْبَ (ناحية) كذا وكذا يعنى إذا خرجتم منها، وهذا اللفظ قد أكثر فيه أهل الغريب في تفسير قول عروة بن الزبير رضى الله عنه: لقد حدثنى عائشة - رضى الله عنها - زوج النبى ﷺ بأن رسول الله ﷺ كان يصلى العصر والشمس فى حجرتها قبل أن تظهر.. وأتوا عليه بشواهد وأمثال. وسمعت صبياً منهم ينادى فى الركب: يا حجاجُ مَنْ يَشْتَرى الصَّفِيفَ؟ فلم يفهم عنه أكثر الناس، فقلت له: اللحم مملك، فقال: نعم وأبرز لحم طهى مقدد (مجفف) وهذا اللفظ (أى الصفيف) ذكره الإمام مالك فى الموطأ وقال بإثر الحديث: الصفيف القديم. وسألت شخصاً عن ماء هل هو مَعِين (سائل) فقال لى: هو ماءٌ عِدُّ (جارٍ) وهذا اللفظ فسره أبو عبيد فى غريبه، وما يتكلمون به من الغريب أكثر من أن يحصى.

وإنما نقلت هذا النص بطوله من رحلة العبدى - مقارنا بصورته فى كتاب وركات للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب - لأهيته، ولأنه يثبت أن أهل بركة كانوا لا يزالون يتكلمون بالفصحى حتى أواخر القرن السابع وكانت فصاحتهم تتفوق على فصيحى أهل الحجاز، معللاً العبدى ذلك بأنهم لا يختلطون بغيرهم اختلاط أهل الحجاز بالحجاج من كل فجٍّ وطريق، ويقول إنهم لا يزالون يتمسكون بالإعراب مع سقوطه حينئذ من الألسنة فى بلدان العالم الإسلامى فى المغرب - كما يقول العبدى - وفى غير المغرب إلا فى زبيد باليمن كما أوضحنا ذلك فى حديثنا بالجزء الخامس من هذه السلسلة. ويضرب مثالا لبدوى أثبت فيه نون الرفع فى المضارع ونصب المفعول وهو «أبا» فى قوله للعبدى: «تظنون أبا الشمال» ويعلق العبدى على ذلك قائلاً: «ليس فى المغرب عربى ولا حضرى يفعل ذلك» ومثل المغرب مصر فى لغتها العامية. وذكر مثلاً ثانياً أثبت الأعرابى فيه ياء المخاطبة مع نون الرفع فى قوله «تدوقينه» والاثنتان يحذفان فى العامية المصرية والمغربية ويورد مثلاً على دقة الحس اللغوى وأن بدوى سمع شخصاً يقول من يُكرى زاملة أى بهيراً راحلاً. ويكرى معناها يؤجر، فسمعه بدوى، فقال له أعندك الزاملة؟ فقال له نعم، فنبهه إلى أنه يستخدم فعل يكرى وهو يريد يستأجر، فقال له لا تقل: من يكرى وقل من يستكرى أى يستأجر. وذكر العبدى أنه سمع بدوى يقول أظهر بمعنى أخرج، ويعلق على ذلك بأن لفظه ظهر بهذا المعنى ورد فى حديث نبوى وعُدَّ غريباً، ولذلك أكثر أصحاب الغريب فى الحديث النبوى من الإتيان له بالشواهد والأمثال، ثم يذكر أن صبياً نادى فى الركب من يشتري الصَّفِيفَ؟ ولم يفهم من معه معنى الصفيف وهو اللحم المقدد، وفهمه هو لأنه قرأه فى كتاب الموطأ للإمام مالك وتفسيره له بأنه القديم، ومن ذلك أنه يسأل شخصاً عن ماء هل هو معين أى سائل فقال له عِدُّ أى جار، وقد عرف معناها لأنه قرأها عند أبى عبيد القاسم بن سلام فى كتابه «غريب الحديث». ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى الجزء الأول من كتابه الورقات بعد أن نقل هذا الفصل الطريف من رحلة العبدى: «إن

مما نقلناه من رحلة المبدري وما سنذكر من أقوال أهل برقة فيها بعد يتضح لك أن لهجة هؤلاء الأعراب لم تتغير وأنها إلى الآن قريبة جدًا من أمها الفصحى - ويستدل على ذلك ببعض الأشعار الشعبية لأهل برقة بعد الاحتلال الإيطالي لوطنهم. ملاحظًا أن اللهجة الليبية الحديثة عربية خالصة وإن اعترأها ما اعترى سائر اللهجات العربية من إهمال الإعراب. وأضاف الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إلى هذه الملاحظات في الجزء الأول من كتابه الوردات ملاحظة مهمة في الجزء الثالث منه، إذ قال إن استخدام نون النسوة مع الأفعال في مثل: «يأكلن - يشربن - يفرزن» منتشر في كلام الأعراب بنواحي طرابلس وبرقة، وهى مبنوثة في أقوالهم الشعرية. ويبدو أن أهل ليبيا ظلوا يحافظون بقوة على الفصحى - بعد الهجرة الأعرابية إلى ديارهم - قرونا متطاولة ربما امتدت حقبا بعد شهادة المبدري في أواخر القرن السابع الهجرى.

٢

نشاط^(١) الشعر والشعراء

لعل أول ما أنشد من الشعر في ليبيا كان على لسان الشعراء الوافدين عليها مع الجند الفاتح لها وللبلاد المغربية، ونرمز لهم بالشاعر الهذلى المشهور أبى ذؤيب، فقد خرج مع عبداقه بن الزبير في جند عبداقه بن سعد بن أبى سرح إلى فتح إفريقيا سنة ست وعشرين وأعجب بشجاعة ابن الزبير حين فتك في موقعة ضاربة بوالى البيزنطيين: جريجوريوس وتسميه العرب جرجير، ومن قوله في الإشادة ببطولته:

وصاحب صدق كسيّد الضرا وينهض في الغزو نهضا نجيحاً

والسيد: الذئب، والضراء: شجر يتوارى فيه وهو أفتك الذئاب في الجزيرة العربية. وكثير من أمثال أبى ذؤيب الشاعر النابه استقروا في برقة وطرابلس ينشدون أشعارهم وينشرون الإسلام ويأخذ البربر عنهم القرآن الكريم والعربية. غير أنه لم يكن يهمهم - فيما يبدو - أن تحمل عنهم أشعارهم أو أن تذكر أخبارهم، فهم من عامة العرب المسلمين، وهم آخر من يفكر في هذا الشرف. ومن نزل ليبيا من الشعراء الناهيين دُعبل الشاعر العباسى، نزلها في العقد الثالث

وخلف والودانى والمخرمة (قسم شعراء مصر) في ابن البرقى.

(١) انظر الأغاني في أبى ذؤيب ودعبل والمثلة السيرة في عبداقه بن محمد الأغلبى وابن سودة وخليل بن إسحق وإنهاء الرواة في المكفوف

من القرن الثالث، نزلها على إثر خلاف بينه وبين والى مصر، وكان قد ولاه أسوان فتركها واتجه إلى ليبيا والبلاد المغربية، ويبدو أنه حاول الرحلة عن طريق واحة سيوه، واتجه منها إلى واحات ليبيا، وربما كان يقصد القيروان لملاح أمراء الأغالية، غير أن الموت أدركه في زويلة عاصمة فزان، فلم تحط به ليبيا ولا حظى به الأغالية.

وكانت طرابلس قد أصبحت تابعة للأغالية في إفريقية التونسية، بينما تبعت برقة مصر، ويتولى طرابلس بعض شعراء الأغالية مثل عبد الله بن محمد الأغلبى واليهما لابن عمه أبى الفرائقى سنة ٢٥٩ وكان - مع اهتمامه بالشعر - يعنى بالفقه والحديث النبوى، وعزله عنها أبو الفرائقى وولاه صقلية ثم أعاده إليها، ولم يلبث أن ولاه القيروان، ولم يذكر مترجموه له سوى قطعة أرسل بها إلى صديقه موسى بن مرزوق لما بلغه نبأ عزله عن طرابلس وله يقول:

قد أتى فى الكتاب ما قد علمنا من تناءٍ ورحلةٍ وفراقٍ
فعليك السلام إن فراقى قد دنا والفراق مرُّ المذاقِ

وكان على شاكلته فى نظم الشعر ابن عم له هو محمد بن زيادة الله والى طرابلس لإبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦٢ - ٢٨٩ هـ) وكان عالماً وشاعراً خطيباً، وله كتاب راحة القلب والزهر. وأشعر منه ومن سالفه أحمد بن سفيان بن سودة الأغلبى الذى ولى طرابلس وأعمالها سنوات كثيرة. وأنشده ابن الأثير قصيدتين حماسيتين يقول فى إحداها:

قُرْبُوا الأَبْلَقَ إِنِّى أعرف الخيل العِتَاقا
وعليها أصرع الأبـ طال طُغْنَا واعتناقا
وأروى من نجيع الـ سهام أسيافا رماقا

وليس بين أبدينا ما يؤكد أن هؤلاء الولاة الأغاليين الشعراء أخذوا فى طرابلس حركة أدبية أغدقوا فيها الأموال على الشعراء كما كان يصنع قبلهم يزيد بن حاتم المهلبى حين ولى القيروان سنة ١٥٤ فإنه أحدث فيها حركة أدبية واسعة نثر فيها على الأدباء أموالاً طائلة، ومع ذلك نظن ظناً أن تولى هؤلاء الولاة الأغالية الشعراء لطرابلس كان له بها أثر غير قليل، إذ نجد الشعر يسيل على ألسنة بعض الليبيين من اللغويين والفقههاء وغيرهم، من ذلك أن إسحق بن خنيس هجا العالم اللغوى عبد الله بن محمود المكفوف بقصيدة طويلة قال فيها:

ألا لُيُنَّتْ بَـرْتُ وما جاء من بَـرْتُ فقد حلَّ من أكتافها جبلُ المَقْتُ

فقال فيه المكفوف:

إن الخنيسى يهجونى لأرفعهُ إخساً خنيسٍ فإنى غيرُ هاجيكَا

لم تبقَ مَثَلَةٌ تُحْصَى إِذَا جُمِعَتْ من المَثالبِ إِلَّا كُلُّهَا فَبِكَ

ويقول مترجمو المكفوف السُّرُقى إن له أشعاراً فصيحة وأراجيز غريبة، وقد سقطت جميعاً من يد الزمن ولم يصلنا منها شيء. وكان يعاصره خليل بن إسحق شاعر المهدي الفاطمي وابنه القائم وسنفرده له ترجمة عما قليل. وولتقى بخلوف بن عبد الله البرقي النحوي المقرئ نزيل صقلية، وكان يعيش في أواسط المائة الخامسة وله ترجمة في إنباه الرواة للقفطي، ومن قوله:

كَبْتُ إِلَيْكَ مُشْتاقاً كَثِيرَ الْوَجْدِ تَوَاقِباً
سَنُولا دَاعِباً لَدَى هِـ آصَالاً وَإِشْرَاقاً
بِأَنْ تَبْقَى عَلَى الْآثِيَا مِـ لِلْأَقْرَانِ سَبَاقاً

والقطعة رقيقة وهي تدل على حسن دقيق وذوق مرهف وقدرة على صياغة الكلام صياغة رشيقة، وله:

يَا أَيُّهَا الْمَغْرُورُ دَفْـــــــــــــــــرَكَ كَمْ تَقِيمُ عَلَى الْفَرَارَةِ
إِذْ جَمَعْتُ شَبْلِكَ لِلشُّنَا تِـ وَرَبُّعُ مَالِكَ لِلْخُسَارَةِ

والبيتان في الدعوة للزهد والانصراف عن حطام الدنيا والاعتذار بما في يده منها، فليس في شمله إلا الشتات والفراق وليس في يده إلا الضياع والخسارة. وكان يعاصره أبو الحسن علي بن أبي إسحق الوداني صديق ابن رشيقي وصاحب الديوان بصقلية ومن شعره:

مَنْ يَشْتَرِي مِنْ النِّهَارِ بِلِيلَةٍ لَا فَرْقَ بَيْنَ نَجْمِهَا وَصَحَابِي
دَارَتْ عَلَى فَلَكَ الزَّمَانُ وَنَحْنُ قَدْ نَزْنَا عَلَى فَلَكَ مِنَ الْآدَابِ
وَدَنَا الصَّبَاحُ - وَلَا أَنْتَ - وَكَأَنَّهُ شَبَّ أَطْلَ عَلَى سَوَادِ شَبَابِ

والألفاظ منتقاة والصور بديعة فلا فرق بين النجوم المتألقة ووجوه صحابه المشرقة وقد دارت الليلة على فلك الزمان ودار مع صحابه على فلك الآداب، وهي مشكلة بديعة. وقرب الصباح ويقول: لا أُنَى في خفة وعذوبة، ويتصوره بأضوائه التي تنفّلت في آخر تلك الليلة كأنه شَبَّ مشتمل يطل على سواد شباب. وولتقى بشاعر برقي أقام بالقاهرة طويلاً مما جعل العماد يترجم له بين شعراء مصر في الخريدة هو أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن البرقي المتوفى سنة ٥٢٢ ومن شعره الطريف الذي أنشده العماد:

رَمَانِي الدَّهْرُ مِنْهُ بِكُلِّ سَهْمٍ وَفَسَّرْتُ بَيْنَ أَحِبَّائِي وَبَيْنِي
فَفِي قَلْبِي حَرَارَةٌ كُلُّ قَلْبٍ وَفِي عَيْنِي مَدَامِعُ كُلِّ عَيْنٍ

والبيتان في غاية الرقة مما يدل على شاعرية خصبة مرهقة، وهي شاعرية أتاحت له أصدقاء مصريين تبادلوا معه مثل هذين البيتين الرقيقين. وكان يعاصره شاعر نفوسى إباحى هو أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم، وله مرثية بديعة يرثى بها شيخه أبا سليمان أيوب بن إسماعيل، وفيها يتحدث عن تقواه وبره وذكائه:

مَنْ للصلاة بجوف ليلٍ مظلمٍ والليل أسود حالك غريبٍ
أو للصيام إذا تطاول يومه وامتد طرفاه وهاج لبيبٍ
أو لليناسى والأرامل بعده وتواترت في العالمين حروبُ
أو للأُمور إذا تفاقم حولها أهل النهى والرأى - بعد - غريب

وكأنما يفتقد بموت شيخه من يصل آتاء الليالى المظلمة الحالكة ومن يصوم في الأيام الطويلة الملتهبة أو من يأخذ بيد التيامى والأرامل في الحروب الضارية ومن يحل الأمور المشككة حين يعزُ الرأى الصائب المحكم. وحرى أن نتوقف قليلا لنترجم لشاعر أنجبت طرابلس في حقها الأولى.

خليل بن إسحق

هو أبو العباس خليل بن إسحق بن ورد، ترجم له ابن الأبار في كتابه الحلة السَّراء ترجمة ضافية افتتحها بقوله: «مولده بطرابلس وهو من أبناء جندها (أيام الأغالية) وكان في أول أمره يطلب العلم والأدب ويصحب الصوفية ويبيت في المساجد» وما إن انتهى حكم الدولة الأغلبية سنة ٢٩٧ وتحوّلت مقاليد الحكم إلى عبيد الله المهدي الفاطمي، حتى رحل إليه وانضوى تحت لوائه، وانتفض أهل بلدته: طرابلس سنة ٢٩٩ على واليهم الفاطمي فأرسل إليهم المهدي ابنه أبا القاسم لمحاربتهم وردّهم إلى الطاعة، وفي ركابه خليل، فحاصروهم أبو القاسم حتى اضطروا إلى الاستسلام، وكثر لهم خليل عن أنيابه الغليظة التي كان يخفيها، وتولى تعذيبهم، لا تأخذه فيهم - وهم أهله - شفقة ولا رحمة، وأغرمهم ثلاثمائة ألف دينار. وما توافى سنة ٣٠٢ حتى يرسل المهدي ابنه أبا القاسم الملقب بالقائم في جيش لمحاربة أهل مصر، فلحق به خليل بن إسحق في الإسكندرية فولاه القيام على أموال الجيش، وعاد القائم بجيشه، وعاد معه خليل، فقدم على خيل إفريقية، وجعل أمر جندها إليه مع النظر في البحر وشئون الأسطول الفاطمي. وفي سنة ٣٢٥ ولّاه القائم الفاطمي صقلية، فاستحال حاكما لها باغيا طاغيا أشد ما يكون البغي والظفبان، وأهلك أهلها جوعًا وقتلا وجار فيها أشد ما يكون الجور والظلم، مما جعل كثيرين من أهلها يفرّون إلى بلاد الروم. وعزله الخليفة القائم عنها، وكان يقول بعد وصوله إلى إفريقية

مفتخرًا: «المكثر يقول إني قتلت من أهل صقلية وأهلك ألف ألف، والمقلل يقول ستمائة ألف». وكان حريًا بالقائم أن ينزل به عقابًا صارمًا، ولكن بدلًا من ذلك أخرجه إلى مدينة القيروان سنة ٣٣٣ في ألف فارس لقتال أبي يزيد الصُفْرى في القيروان، فحاصره أبو يزيد فيها واعتقله وسفك دمه وصلبه. وأُشيد له ابن الأبرار قصيدة ومقطوعتين في مديح المهدي القاطمي وابنه القائم، وكأنما كان يقف شعره على مديحها زلفى وتقربًا إليهما، والقصيدة في مديح عبيد الله المهدي نظمها على شاكلة قصيدة مشهورة لمروان ابن أبي حفصة صاغها في مديح المهدي الخليفة العباسي، بدأها مثله بالتنشيب وبكاء الأطلال والديار قائلاً:

| | |
|-----------------------------------|---|
| قِفْ بالمنازلِ وأسألَنَّ أطلالها | ماذا يضيرك إن أردتَ سؤلها |
| هل أنت أولُ من بكى فى دِمنَةٍ | تَرَسَّتْ وَغَيَّرَتْ الحوادثُ حالها ^(١) |
| يا دارَ زينبَ هل تردِّينَ البِكا | عن مُقَلَّةٍ سَفَحَتْ عليكِ سِجَالها ^(٢) |
| بُدِّلَتْ بالإنسِ الخرائدُ كالدمى | وَحَشَّ الفَلَاةُ ظِلَّاءها ورنالها ^(٣) |
| ولقد عهدتُ لآلِ زينبَ حَبْرَةً | فيها ودُنْيَا أَقْبَلَتْ إقبالها ^(٤) |
| بيضاءَ ناعمةً يجولُ وشاحها | وتَهْزُ دِقَّةُ خَصْرِها أَكفالها ^(٥) |
| ولها قِوَامٌ كالقُضيبِ وفوقه | جَفَدُ تصافحَ كَفِّهِ خَلْخالها ^(٦) |
| وكانُ في فيها يُعَيِّدُ رُقادها | عَسَلًا أَصابَ من السماءَ زُلْزالها ^(٧) |
| ولقد عصيتُ عواذلى فى حُبها | والنفسُ تعصى فى الهوى عُدْلالها |

والأبيات تسيل عنوبة، إذ عرف خليل بن إسحق كيف يصطفى لها الألفاظ وكيف يلائم بين جرسها، مع خلابة الصوت، ومع تشابك الكلمات في كل بيت، وكأن كل كلمة لبَّت قرينتها، واستجابت لصاحبها وجارتها، وحقا الصور في الأبيات ألم بها الشعراء أو طالما ألم بها الشعراء قبله، غير أنه أعاد عرضها عرضا يستهويك بصياغته وما يث فيه من الجناسات والطباقات. ويخرج إلى المديح منشداً:

صَلَّى إِلَهُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَعَلَى الْإِسَامِ وَزَادَهُ أَمْثَالها

-
- (١) الدمنة: آثار بالدار.
 (٢) السجال جمع سجل: الدلو المملوءة.
 (٣) الخرائد جمع خريدة: اللؤلؤة والمرأة الجميلة. الدمى: جمع دمية: التمثال الجميل.
 الرنال جمع رأل: فرخ النعام.
 (٤) حبرة: مسرة.
 (٥) أكفالها جمع كفل: عَجَز الإنسان.
 (٦) جمد يريد الشعر وضفائه.
 (٧) الزلال: الماء العذب الصافي.

إن الإمام أقام سنة جدّه
أحيا شرائعها وقوم كتبها
وهدى به الله البرية بعدما
إن الخلافة يابن بنت محمد
للمسلمين كما حدثت نعالها
وفروضها وحرامها وحلالها
طلب الفؤاد الظالمون ضلالها
حطت إليك - عن النبي - رحالها

وهو يزعم أن الله - جلّ جلاله - يصلّى على إمامه كما يصلّى على نبيه، بل يزعم أنه يزيد صلاة إلى صلاة، ويقول إنه أقام سنة جدّه حذوك النعل بالنعل أو كما نقول مطابقا لها أشد المطابقة، ويزعم له أنه أحيا الشريعة وقوم كتبها وأزال عنها عوجها وانحرافها، كما قوم فروضها وحلالها وحرامها، وكل تلك مبالغات شائنة، وكأنه يدبر الدين الحنيف ويصرفه، وقد هدى الله به الناس كما هداهم برسوله. ولم يسق ابن الأبار مديح القصيدة تأمّا، ولعله صنع ذلك لما في بقية القصيدة من مبالغات شديدة الإفراط في تصوير قدسية المهدي، وحسنا صنع. وله في القائم وقد فصده الطبيب أو بعبارة أخرى أخرج مقدارا من دم وريده للعلاج:

قلّ للطبيب الذي أوصى ليفصده
كيف استطعت ترى بالله طلعت
أم كيف تخرج من كفّ تقبلها
إني لأعجب من كفّ مسست بها
رفقا ولا زلت بالإسعاد ترتفق
ومن سنا نوره ما يشرق الأفق
دما ومنها بحار الجود تسدق
خير الوري كيف لم ينت بها الوري^(١)

وهو يدعو في البيت الأول للطبيب متلطفا أن يظل الإسعاد يرافقه ويحانس بين أول الشطر الثاني ونهايته جناسا سائغا، وما يلبث في البيت الثاني أن يبالغ في مديح القائم بمبالغة مفرطة، إذ يجعل ضوء النور في وجهه نور الأنوار الذي يعم الآفاق، وكأن نور وجهه من نور الله ومشكاته في الكون. وحين أمر القائم أن يخرج في ألف فارس ليحارب أبا يزيد محمد بن كيداد الصغرى كتب إليه مودعا:

وما ودعت خير الناس طرا
وكيف تطيب نفسي عن حياتي
ولكني طلبت رضا جهدي
فعاش مملكا ما لاح شمس
ولا فارتقت عن طيب نفس
أنفارقها وعن قسرى وشمسي
وعفو الله يوم حلول رمسي^(٢)
على الثقليين من جن وإنسر

وهو يجعله في أول الأبيات خير الناس طرا، وكان قد جعله خير الوري في آخر الأبيات

السالفة، وهما صفتان للرسول ﷺ يتفنى بهما الشعراء في مديحه، ويتصوره حياته، وكأنه هو الذى يديرها، إنه نور حياته، ويقول إنه يطلب رضاء على نحو ما يطلب المسلمون رضا ربهم. وكأنى به يظن أنه هو الذى سيمنحه عفو اقه يوم حلوله فى قبره. وهى مبالغات ستتضخم فيها بعد عند ابن هانيء الشاعر الأندلسى فى مديحه للمعز الفاطمى وترهاته ومبالغاته الملحدة فيه.

٣

الشعراء فى عصر^(١) الدولة الحفصية

عُنت هذه الدولة بالحركة الأدبية، وحظيت - لعهدها - بغير قليل من النشاط والانتعاش، وكان للشعر والشعراء من ذلك نصيب موفور، إذ فتحت الدولة الحفصية الأبواب للشعراء فى إفريقية التونسية وطرابلس كى ينفذوا عليها مآدحين، وينالوا جوائزها السنية، وكان مؤسسا أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد شاعراً فسنً للحكام الحفصيين من بعده نثر الجوائز والمطايا على الشعراء، مما جعلهم يتكاثرون. وستترجم لثلاثة منهم: إباضى وطرابلسيين. وقد ثار عليه نائر طرابلسى هو يعقوب بن أبى يعقوب سنة ٦٣٩ قُتل هو وأتباعه، وصُلِبَتْ جثتهم بباب هوارة، ونصبت رءوسهم فى تونس، فهنا أبأ زكريا الحفصى بالقضاء على تلك الثورة شاعر طرابلسى يسمى أبأ زيد عبد الرحمن بن محمد الأصولى بقصيدة طويلة صَوَّرَ فيها المصير المشنوم لهذا النائر وصلبه: ملقباً له بالفاطمى:

| | |
|------------------------------------|---|
| لقد عَجَلَتْ للفاطمى فطامة | وما سوَّغَتْه دُرُّها البيضُ والتمرُ |
| رجا رفعةً فاعتاضَ فيها بمنصبٍ | نماه به للجدعِ منْصَبُك الحرُ |
| برى شُرَفاتِ السورِ قد قمن حوله | يُصَحِّنْ لأمرٍ منه أكذبه الأمرُ |
| ضُحى قَلْعِ الشَّمْسِ لَعَجْ إهابه | وللريحِ لا للروحِ فى جسمه كَرُ ^(٢) |
| وكم رام تشييدَ القصورِ فحلَّها | وأعظم ما يمرجوه - لو أضعِفَ - القبرُ |
| فدونك يا يعقوب عُقْبَى منافقٍ | إلى النارِ عُقْبَاهَا، إذا ضَمَكَ الحَشْرُ |

الملحق بكتاب الدعائم، والنشاط الثقافى فى ليبيا.

(٢) ليج إهابه: حرق جلده.

(١) انظر فى الشعراء التالين رحلة التجانى، ما عدا فتح بن نوح، وانظر فيه الجزء الثالث من كتاب الإباضية فى موكب التاريخ لمصر، وديوانه

والأبيات تحمل شماعة مرة بهذا الثائر، فقد عجل أبو زكريا بفطامه، فلم يطب له شيء من أمنيته، إذ سرعان ما قضت عليه وعلى أتباعه الرماح والسيوف، وكأنما أراد رفعة فناها ولكن على جذع نخلة، ولأننا الشرفات من حوله تصيح به: ياهول ماحولت، وتلك جنته مصلوبة وحرّ الشمس يحرق إهابه وجلدته، والريح أو الرياح تسيّفى عليه من كل جانب، وكم أمل أن تنجح ثورته ويسكن القصور المشيدة، وما هو أعظم ما يرجوه قبر يضم جسده وأشلاءه وتلك عاقبة ثورته في دنياه أما في آخره فعاقبتها نار حامية. وتتوقف قليلا لترجم للشعراء الثلاثة الذين أشرنا إليهم آنفا، وهم فتح بن نوح وابن أبي الدنيا وابن معمر.

(أ) فتح بن نوح الإباضى

هو أبو نصر فتح بن نوح النفوسى، من شعراء النصف الأول من القرن السابع الهجرى ولد ونشأ بجبل نفوسة، ورعاه خير رعاية علمية وأدبية خاله أبو يحيى زكريا بن إبراهيم البارونى، وكان مع شعره وأدبه عالما بالمذهب الإباضى متعمقا فيه، وكان يدرس للشباب صباحا، وفي المساء بعد صلاة العشاء يلتقى في الناس بالمسجد في نفوسة دروسا عامة، وأكثر أشعاره في الموعظة بحكم أنه كان واعظا حقيقيا، إذ كان ما يزال يعظ الناس كل مساء، ومن قصيدة يصور فيها نفسه:

أنا المتيم لا باليوسفيات ما نهنتنى إليها قط همساتى^(١)
بل تيمنتى فنون العلم أطلبها ما النفس باقية فى هيكल الذات
لست الغداة بصبّ خاضع طمعا فى وصل غانية أرجو موذات
بل فى منادمة الأخيار راغبة نفسى إلى أجل يفضى بموتات

فهو لا يشغل بحب يوسفيات فانتات، ولم يحدث أن هامت وطموحاته كفته أو زجرته عنها، لأنه لا يفكر فيها أى تفكير إذ شغله عنها العلم ومعرفة أن كل ما عليها فان وأنه لا يبقى للإنسان إلا عمله، وإنه لذلك لا يهوى غانية ولا يتذلل لها راجيا منها المودة والعطف، فلذته في دنياه إنما منادمة التقاة الأخيار، حتى يوافيه أجله. وتكثر في مواعظه الخمسات على نحو ما تكثر عند الأندلسيين، وله خمس أدواره موزعة على جميع حروف الهجاء، وفي أول كل دور حرف القافية على هذا النمط:

حاء حذار - واسمعن يا صاح - من سحر ثغر الأبرق الوضاح^(٢)

(١) اليوسفيات: صواحب يوسف الفانتات.

الجميل السام.

(٢) الأبرق هنا: الثغر. الوضاح: صفة للثغر أى

يُلهيك تَخْلَابًا عَنِ الْأَرْبَاحِ عَمَّا قَلِيلٍ أَضَتْ صِفَرُ الرَّاحِ^(١)
 مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ جَمَّ الْعَابِ^(٢)

خِشَاءُ خَبَتْ نَارُ امْرِئٍ شَمَاخٍ يَفْخَرُ بِالْأَنْجَارِ وَالْأَسْنَاخِ^(٣)
 مَا الْفَخْرُ إِلَّا لِلْفَتَى النَّوَاخِ حَيْثُ التَّقَى مَخِيمُ الْأَشْيَاخِ^(٤)
 أُولَى النَّهَى وَالْعَزَمِ وَالْأَلْبَابِ

وهو يحذر صاحبه من سحر نفر المرأة الجميلة، إذ يخلب له ويلهبه عن أرباح الأعمال الصالحة، فيعود صفر الكف من الصالحات مملوءة بالآثام والذنوب، ويقول: خمدت نار شخص شامخ بأنفه كبيراً واستعلاء، يفخر بالأصول والأنساب، وليس ذلك بفخر، إنما الفخر للفتى المقيم حيث منزل الأشياء من التقى والصلاح أولى العزم والعقول الراجعة. وفي مخمس ثانٍ له ينشد:

وَأَوَّلُ مَا أَوْصَى بِهِ فِي مَخْمِسِي لِبَاسِ سَرَايِلِ التَّقَى خَيْرُ مَلْبَسٍ
 بِهِ سَادَ أَقْوَامُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَلَيْسُوا ذَوِي مَالٍ وَلَا بَذَوِي قُلُسٍ
 وَلَا نَيْلُ مَا نَالُوا بَيِّضٌ وَلَا سُفْرٌ

بذلك أوصى الله من كان واعياً من أهل القرون السالقات الخوالي ونادى به أهل المصور البواقيا وقال: اتقون اليوم حقَّ تقَاتِيا يُطَاعَ فَلَا يَمُصَّى وَشُكْرٌ بَلَا كُفْرٍ

وهو يقول: أول ما يوصى به في مخمسه أن يلبس الإنسان سراويل التقوى ولا يخلعها عن جسمه ونفسه أبداً فهي خير لباس، وطالما ساد بها أقوام من الجن والإنس وأصبحوا من أكبر الأثرياء وليسوا بأصحاب أموال كثيرة ولا قليلة، ولا نالوا ما نالوا من غنائم حرب بالرماح والسيوف، ومع ذلك هم أغنى الأغنياء، ويقول إن تلك وصية الله أوصى بها ذوى الألباب من أهل القرون السالفة، وبالمثل من أهل المصور الباقية، إذ قال - عز من قائل - اتقون اليوم حق تقَاتِيا، وطاعته واجبة وشكره فرض بلا كفر. وقرأ مخمسته مؤسس الدولة الحفصية أبو يحيى زكريا، فعرسها بمخمس ثانٍ. وله مرثية بديعة في خاله مربيّه وراعيه أبى يحيى زكريا بن إبراهيم، وفيها يقول:

أُخْرَى وَأَجْدَرُ لِلْأَجْفَانِ وَالْمُقَلِّ تَقْنَى بَكَاءٍ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمْ تَسِلْ^(٥)

(٤) النواخ: المقيم.

(٥) تقنى: تهمر - نيل: تنفد الجمع مدرازا.

(١) أضت: صرت.

(٢) الحاب يريد الآثام، جمع حوبة (أى إثم).

(٣) الأنجار والأسناخ: الأصول والأعراق.

دَعَا تَسِيلَ أَسَالِ أَهْ مَقْلَةً مَنْ
أَبْعَدَ مَاغَابَ بَثْرُ الدِّينِ فِي جَدَثٍ
كَيْفَ الْبَقَاءُ لَطَرْفٍ زَالٍ نَاطِرُهُ
زُرْ سَاحَةَ السَّفْحِ وَاسْقَنْعْ عِنْدَهَا حَزَنًا
أَعْنَى الْوَلَّى أَبَا يَحْيَى الَّذِي حَيَّيْتُ
يَسْطُو عَلَيْهَا يَسْطُو الْقَتْبُ وَالْمَقْدَلُ^(١)
يَهْنَأُ الْحَيَاةُ بَنُو الْآدَابِ بِالْأَمَلِ^(٢)
حِينَ اعْتَرَتْهُ بَنَاتُ الدَّهْرِ بِالسَّمَلِ^(٣)
دَمْعًا يَزِيدُ عَلَى التَّسْكَابِ وَالْهَسْلِ
صَوَى الْعُلُومِ بِمَحْمِيَّاهُ وَلَمْ يَمُؤَلِّ^(٤)

وهو يبكي خاله، ويقول إنه أخرى وأجدر للأجفان والمقل أن تكي دما على الإسلام وفقيده، ويعجب أن لا تنرف الدمع مدرارا، ويدعو على من يعاتب الناس على بكانهم عليه ويعظم لانها، حتى ليمنى لهم حزنا موجعا كحزنه، ويقول إن بنى الآداب بعد أن غيب عنهم لن يهتوا بأمل ولا بأمنية، وإنه لم يعد يرى من حوله، إذ أصابته بنات الدهر ونكباته في ناظره وكأنما فقت عينه بحديدة حماء. ويطلب إلى رفاقه أن يزوروا معه القبر ويسكبوا دموعهم هناك، فقد توفى أبو يحيى زكريا الذي طالما انقادت منارات العلوم وصواها في حياته، وقد مات ولم يعد. ويغضى الشاعر في مراثية خاله منشدا:

يَا غُرْبَةَ الدِّينِ بَعْدَ الشَّيْخِ مُفْتَقِدَا
لَا عَنْ تَرَاضٍ جَرَى حَكْمُ الْمُنُونِ بِهِ
قَسْرًا عَلَى الْأَسَدِ فِي الْأَغْيَالِ وَاغْلَةً
كَمَثَلِهِ فَتَلْبِذْ أَنْشَى مَفَاخِرَهُ
يَا أَبَا الشَّامِتِ الْعَبْدَى شَمَاتِهِ
يَا وَحْشَةَ السَّيْرِ الْفَرَا عَنْ الْأَوَّلِ
قَدَمًا جَرَى فِي نَبِيِّ أَهْ وَالرُّسُلِ
وَفِي النَّزْرِ لَوْعُولٍ صَحْبَةُ الْجَبَلِ^(٥)
أَوْ لَا فَلَا وَلَدَتْ عَنْ آخِرِ الطُّولِ^(٦)
مَهْلًا بِفَيْكِكَ تَرَابُ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ

وهو يبالغ إذ يجعل الدين بعد وفاة خاله يعود غريبًا، ويبدو من الشطر الثاني أن خاله كان يعنى بالسيرة التاريخية، ويعود إلى المبالغة في البيت إذ يقرن وفاة خاله بوفاة الرسول ﷺ ووفاة الأنبياء! ويقول إن حيا لا يستمضى على الموت، لا الأسد في أغياها ولا الوعول في ذرى الجبال وقممها العالية، وينوء به ويفاخر، إذ يقول مثله فلتلد الأمهات وإلا فلا تلد إلى آخر الدهر، ويدعو على الشامتين بموته. ولعل فيا أنشدناه من شعر فتح بن نوح ما يصور ملكته الشعرية الخصة.

(٤) صوى: أعلام ومنارات. يؤل: يرجع
(٥) أغيال جمع: غيل: بيت الأسد الوعول جمع
وعل: تيس الجبل
(٦) عن آخر الطول: يريد إلى آخر الدهر

(١) يسطو: يبطش ويفهر. المذل: اللوم
(٢) جدت: قبر
(٣) بنات الدهر: نكباته. سمل العين: فقزها
بمسار محمى.

(ب) ابن أبي الدنيا

هو أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدقي الطرابلسي المولود بطرابلس سنة ٦٠٦ وفيها نشأ ونهل من حلقات علمائها وأدبائها، وارتحل إلى المشرق لقضاء فريضة الحج، واستمع إلى كثير من العلماء، وعاد إلى تونس في عهد مؤسس الدولة الحفصية أبي زكريا (٦٢٥ - ٦٤٧ هـ). ونال حظوة عنده، ورجع إلى بلدته: طرابلس فترة، واستدعى إلى تونس، فولى بها الخطط الرفيعة إذ ولى قضاء الجماعة، كما ولى الخطابة بالجامع الأعظم وغير ذلك من المناصب حتى وفاته سنة ٦٨٤ للهجرة. وله تصانيف ومؤلفات قيمة، منها: العقيدة الدينية وشرحها وجلاء الالتباس في الرد على نفاة القياس وكتاب مذكر الفؤاد في الحض على الجهاد. ومُرّ في حديثنا عنه بين الفقهاء أنه كان يدرس لطلابه في بعض دروسه بطرابلس كتاب الإرشاد والبرهان للجويني إمام الحرمين وكتاب المستصفي للغزالي. وبجانب هذه الثقافة الدينية المتعمقة كان شاعرا، وفيه يقول التجاني في رحلته: «من فضلاء طرابلس المشهورين بالعلم والمشاركة في الأدب». وقد أنشد له بعض أشعاره، وذكر أن له قصيدة طويلة افتتحها بقوله:

بحمد الله نبتدي الأمور ونختم آخرها فيه المحبورا

ولم يذكر التجاني سوى المطلع، ويبدو أنها كانت موعظة طويلة، وقد سقطت من يد الزمن وربما سقطت له معها أشعار أخرى له في المواعظ والدعوة إلى الزهد، وما أنشد له التجاني قوله:

طرق السلامة والفلاح قناعة
يلزم بيت بالنوحش مؤنس
يكفيه أنسا أن يكون أنيسه
أي القرآن ونوره في الجندس^(١)
وإذا رأت عيناه إنسانا أتى
فلينفرن نفور ظي المكس^(٢)
ولقلما ينفك صاحب مقول
من زلة أو عثرة في المجلس

ويبدو أن الأبيات مقتطعة من قصيدة طويلة في النصيح بالقناعة فهي الطريق الذي لا يخطئ إلى السلامة والفلاح، والماقل من اعتزل الناس ولزم بيته منقطعا إلى الانتناس بمجالس الذكر الحكيم ومناراته الساطعة في الليالي الشديدة الظلام. ويدعو إلى النفور من الاجتماع بأى إنسان

الشجر.

(١) المهندس: الليل الشديد الظلام.

(٢) المكس: الكناس وهو مأوى الظي في

خشيةً لدغاته التي يصيب بها مَنْ حوله، وكأنما يرسم في مخيلته قول القائل:

عَوَى الذَّنْبُ فاستأنستُ بالذنبِ إذ عَوَى وصوتُ إنسانٍ فكدتُ أطيرُ

ويقول أخيراً منفراً من مجالسة الناس إن الجلوس إليهم قد يؤدى إلى عثرات اللسان وزلاته منك أو منهم. فأولى لك أن تبعد عنهم وعن مجالسهم، وأن تعزلهم معصماتيك حتى لا تغلط وحق لا تسمع غلطا من إنسان. وولى المستنصر الحكم بعد أبي زكريا، وأحس ابن أبي الدنيا بجفوة منه، وأنه ربما أَسْرُ في نفسه شيئا منه، فكتب إليه يستعطفه:

أَمْوَالِي سَاوَلْتُمْ تَنْيَلُونَ عَيْدَكُمْ ضَرْوِيَا مِنَ النُّعْمَاءِ جَلَّتْ عَنِ الْبَيْتِ
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعَفْوُ وَهُوَ أَجَلُ مَا يُنَالُ فَأَكْمَلُ لِي بِهِ مِثْلَةَ الْفَضْلِ
فَمَا الْعَيْشُ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ رِضَاكُمْ بِصَافٍ وَلَا طَعْمِ الْحَيَاةِ بِمُحَلُولِي
وَقَدْ كَثُرَ الْإِعْرَاضُ صَفْوَ مَعِيشَتِي فَأَنْكَرْتُ أَحْوَالِي وَأَنْكَرَنِي أَهْلِي

وابن أبي الدنيا يعترف للمستنصر الحفصى بأنه ما يزال يغمره بنعم لا مثيل لها ولا قرين، ويتوسل إليه أن يمنَّ عليه بنعمة كبرى، هي نعمة العفو، حتى يكمل بها ما يمنحه من أفضال كثيرة، ويقول له إن الحياة بدون رضاكم تكثرت مياهاها، ولم يعد في طعمها شيء من الحلاوة، ولقد بدل إعراضكم عني معيشتي، حتى أصبحت أنكر أحوالي، بل إن أهل أنكروني لما يعتريني من قلق وضيق لم يألفوه مني. ويستمر في استعطافه منشداً.

وَلِي أَمَلٌ يَقْضَى بِخَفَرَانِ زَلْنِي وَبِالْعَفْوِ عَنِ جُرْمِي وَبِالْصَّفْحِ عَنِ فِعْلِي
بَقِيَتْ تَزِيدُ الْمَلِكَ عِزًّا وَبِهَجَّةً وَتَحْبِي رِسْمَ الْفَضْلِ وَالْدِينِ وَالْعَدْلِ
وَلَا يُخْطِئُنِي مِنْكَ عَفْوٌ وَرَحْمَةٌ فَإِنَّهُمَا مَا أَخْطَأَ أَحَدًا قَبْلِي
وَصَلَّى إِلَهُ الْعَرْشِ بَدْءًا وَعَوْدَةً عَلَى الْمَصْطَفَى مِنْ خَلْقِهِ خَاتَمَ الرُّسُلِ

وهو يسأل المستنصر ضارعا أن يغفر له زلته ويعفو عن جرمه ويصفح عن فعله الذي اقترعه، ويأخذ في الدعاء له أن يظل يزيد الملك عزا وأبهة وهجة ومسرة ويحصى رسوم الفضل والإحسان والدين الحنيف والعدل الذي لا تصلح حياة الرعية بدون، وهو بهذا الدعاء وما يسوق فيه من صفاته في رأيه يحاول أن يستدر عطفه ويسأله العفو، بل يسأله الرحمة وأن يرق له قلبه، ويقول له إنك دأبتا تسبها على الناس، فلا تحرمني منها، ويختم دعاءه بالصلاة على الرسول ﷺ، وكأنما يذكره ليكون شفيهاً عنده. وأسدل عليه المستنصر عفوه، وعاد إليه رضاء. ولعل قريبا أنشدت له من أشعار ما يصور شاعرية غزيرة خصبة، وأنه كان يعرف كيف يصطفى ألفاظه ومعانيه في لغة شعرية مصفاة، وبدون ريب كان معروفاً بقدرته في حَوْكِ الكلام،

ما أتاح له أن يشغل منصب الخطابة في الجامع الأعظم، كما أتاح له هذه الأبنية الشرعية للحكمة فكرا وصياغة.

(ج) ابن معمر

هو أبو علي الحسن بن موسى بن معمر المؤري الطرابلسي، كان فقيها ممتازا وشاعرا نابها مثل ابن أبي الدنيا معاصره، وفيه يقول التجاني في رحلته: «أحد أرباب الرتب الجامعين بين رئاسة الفقه ورئاسة الأدب. ولد بطرابلس سنة ٦٠٩ وقرأ بها يسيرا، ثم توجه إلى (مدينة) المهدية (بتونس) للقراءة بها على الفقيه أبي زكريا البرقي» ويقول أيضا: «كان فقيها مفوها خطيبا لسنا» وطمحت نفسه للنزول بتونس عاصمة الدولة الحفصية لعله يأخذ مكانه بها بين فقهاء وأدبائها ونزما. ولقت إليه الأنظار بتعمقه في المذهب المالكي، مما أتاح له أن يتولى مناصب متعددة في دولة الخليفة المستنصر الحفصي (٦٤٧-٦٧٥هـ) إذ أسند إليه منصب القضاء في كثير من بلاده في إفريقية التونسية وفي الجزائر مثل باجة التونسية وبجاية الجزائرية. وولى خطة أو منصب العلامة الكبرى في ديوان الإنشاء، كما ولى النظر في خزنة الكتب، ويقول التجاني: «كان في لسانه فضول كثر امتحانه به والتعرض له بسببه» وفعلا نقل إلى المستنصر عنه ما جعله يسخط عليه وينفيه إلى مدينة المهدية سنة ٦٦٧ ويعفو عنه، ولكن بعد عام كامل. وتوفي المستنصر وخلفه ابنه الواثق (٦٧٥ - ٦٧٨هـ) فأُسند إليه النظر في خزنة الكتب بتونس، ويبدو أن فضول لسانه عاد إليه فغضب عليه رئيس الدولة ابن أبي مروان، فأدخله السجن نأديبا، ثم رُدَّت إليه حريته إلى أن فارق دنياه سنة ٦٨٣ للهجرة. وأنشد له التجاني بعض أشعاره، من ذلك قوله متغزلا:

| | |
|---|--|
| لولا احوارُ جفونٍ أودَعَتْ سَقَمًا | ما أمطرتُ سَحْبُ أجفاني الدُمُوعَ دَمًا |
| ولا وقفتُ أصِيلًا بِرَبِّعِكُمْ | ولا سقيتُ رُباه من دمي دِيمًا ^(١) |
| ولا ثنرتُ عقيقَ الدمعِ في طَلَلٍ | منه أذيعُ الذي قد كان مُكْتَمًا |
| شَمْلُ السُلُو شَتِيَتْ بعدَ بَعْدِكُمْ | وطالما كان قبلَ اليوم مُلْتَمًا |
| البَيْنُ يقطعُ منه كلُّ مُتَصِلٍ | والشوقُ يَثُرُّ منه كلُّ ما انتظما |
| والوَجْدُ شَادَ بجِسمي ما يَهْدِمُهُ | أو على ما بهي فيه وما هدمًا |

وهو يقول لولا جمال المحور وما أودع العيون مما يشبه السقم ما هطلت سحب أجفاني بدم الدُمُوع القاني ولا وقفت في الأصيل برهكم ودياركم أسقى ربها أمطارا من دمي، ولا ثنرت

(١) أصيلا: دينا؛ مطر غزير.

مُحَمَّدٌ الدَّمْعُ فِي طَلَلِ ذَاغٍ مَنِي فِيهِ مَا كُنْتُ أَكْتُمُهُ وَأَدَارِيهِ، وَقَدْ فَارَقَنِي السُّلُو وَكَانَ لَا يَبَارِحُنِي وَقَطْعُ
الْبَيْنِ وَالْفِرَاقِ مِنْهُ كُلِّ مَا كَانَ مُتَصِلًا وَنَزَرَتْ مِنْهُ كُلُّ مَا كَانَ مُنْتَظًا وَالْوَجْدُ أَخَذَ بِجِسْمِي بَيْنِي
وَبِهِمْ مَسْبِيًا لِي التَّيَاعَا شَدِيدًا لَا أَكَادُ أَطِيقُهُ، وَيَسْتَمِرُّ ابْنُ مَعْمَرٍ فِي غَزَلِهِ:

| | |
|--|---|
| يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى مَا جَلَّ مِنْ أَسْفَى | هَذَا الْيَسِيرُ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي كُنَّا |
| مَا خَطَطْتُ النَّوْمَ فِي جَفْنِي رَسَمَ كَرَى | إِلَّا مَعَ الشَّهْدِ مَا قَدْ خُطَّ أَوْرِسَا |
| أُنْيِيكُمْ أَتْنِي مِنْ يَوْمٍ يَبِينُكُمْ | مَازَلْتُ لِلشَّهْدِ وَالتَّذْكَارِ مُلْتَزِمَا |
| أَرْتَاخُ إِنْ هَبَّ رِيحٌ مِنْ جَنَابِكُمْ | أَوَّلَاخُ بَرَقَ بِذَلِكَ الْأَفَقُ وَابْتَسَمَا |
| أَمَا وَمَنْ قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ مُقْتَدِرًا | وَحِكْمَكُمْ وَكُنِيَ بِالْحُبِّ لِي قَسَمَا |
| مَا رَامَ قَلْبِي أَصْطَبَارًا بَعْدَ بَعْدِكُمْ | وَمَا تَأَخَّرَ بِي مِنْ وَجْدِهِ قَدَمَا |

وهو يقول لمن يُلومه على ما يُظهر من عظيم الوجد واللوعة إن ذلك بعض ما أكتمه من
حُرقة الحب، ويشكو من الشَّهْدِ مفكرًا فيمن يحبه حتى يقول إن ما قد يخطئه النوم في جفني
من أثر للنَّعاسِ يحو الشَّهْدَ خطوطه ورسومه يحو، فسُهِدَ وتذكَّره لمن يحبه يلازمه وإنه
لهشمر براحة ما مثلها راحة حين تهب ريح من جهتهن أو يلوح برق من أفقهن مبهتها وكأنما
يحمل أثرًا من ابتسامهن، ويقسم بربه المقتدر وبعبه أن قلبه لم يحاول صبرا على فراقهن
وبعدهن، ولا يزال يلتاع وجدًا وهيامًا. والأبيات تسيل غزوبة مع ما تشفع به من التصاویر،
عما يدل على قدرة ملكته الشعرية وأنها تواتيه بما يريد من الأخيلة ومن الألفاظ السهلة التي
تبدو لسهولة وقربها من اللغة المألوفة كأنها طوع اليد، وهي لا تطاوع إلا الشاعر الأصيل
الذي يعرف كيف يؤثر فيك بتصاويره وبلغته السلسة، ومن رقيق غزلياته قوله:

| | |
|--|--|
| أَهَّا تَرَدُّدٌ لَوْ تَشْفَى لَنَا كُرْبَا | وَبِالتَّلَاتِ نَحْبَا لَوْ قَضَتْ أَرْبَا ^(١) |
| وَبِالْأَمَانِي يَنْالُ الْقَلْبُ بَغْيَتِهِ | وَقَدْ تَحَقَّقَ مِنْ مَعْتَادِهَا كَذْبَا |
| يَرْتَاخُ إِنْ لَاحَ بَرَقٌ مِنْ جِهَاتِهَا | وَمَا تَرَاتَى لَهُ إِلَّا وَقَدْ ذَهَبَا ^(٢) |
| يُسْرُ إِنْ مَدَّ يَوْمًا حَبْلَ مُنْيَتِهِ | وَمَا تَطَاوَلُ إِلَّا جُذْدٌ وَانْقَضَبَا ^(٣) |
| إِنْ عَزَّ مَا يَتَّبِعُهُ فَهَوٌ فِي هَرَجٍ | وَيَحْتَشِي الْفَقْدَ إِنْ مَا يَتَّبَعِي قُرْبَا ^(٤) |

(١) جُذْدٌ وَانْقَضَبَ: انقطع.

(٢) هَرَجٌ: اختلاط.

(١) التَّلَاتِ: ما يتلألأ به الشخص وتلألأ: أربأ:

حاجة.

(٢) الجَهَامَةُ: العُورس.

وهو يقول إنه لا يزال يردُّ لفظة آه تعبيرا عن وجده الملتاع غير أنها لا تشفيه من كرب الوجد ولوعاته، ولا يزال يعمل نفسه ويميتها باللقاء، غير أن التعلات لا تقضى مأربا ولا حاجة وإن القلب لا يزال ظامنا مظلها إذ لا يسفه إلا سراب الأمانى الكاذب الخادع، وقد يلوح له أمل، وسرعان ما يتوارى كالبرق يختفى بمجرد ظهوره ولعانه - إنه يعيش بالأمانى في اللقاء، فهي حسبه، على أن خيلها لا يمد ولا يطول إلا جد وانقطع، ولا يزال عقله في اختلاط، كلما شعر أن أمنيته لن تتحقق، وحتى إن ظن أنها اقتربت لا يزال في خوف من ابتعادها بل من فقدتها فقد لا أوبة معه. ويستمر ابن معمر في غزله منشدا:

| | |
|---|---------------------------------------|
| وَارْحَمْتَاهُ لِقَلْبِي كَمْ أَجَشَّمُهُ | أمرأ يذيبُ من الأضداد ما صُلِّيا |
| وكم يُعاني ملَمَاتٍ بأيسرها | يهوُّنُ الأمرَ من دنياه ما صُعِبا |
| وكم يُلَجِّجُ في أفكاره لُجُجَا | سُودًا تُوَجِّجُ في أحشائه لَهَبَا |
| وكم تهبُ سَمُومًا من تنفِيسِهِ | لو استمرتْ لما هبَّتْ نسيمُ صَبَا |
| أستغفرُ اللهَ لا أشكو الزمانَ ولا | أُبدِي - إذا طرقتْ أحداثُهُ - رَهَبَا |
| ولا أئينُ لحظَ منه أَعْوَزَنِي | ولا أَسْرُ إذا ماءُ المنى انسكبا |
| أنى يَسْرَ لبيبٌ أن رأى حُلُمَا | وكيف يطرب مَنْ خَمَرَ الفنا شَرِبا |

وهو يأسى لقلبه وما يحشمه من متاعب حبِّ تذيب الصخر الصلد الصلب وما يحمله من ملَمَاتٍ يعانى منها أشد العناء، وإن أيسرها ليهوُّنُ أى أمر صعب من دنياه ما ظلت صعوبته راسخة جائزة فيه، فما بالنا بأنقال تلك الملَمَاتِ وما تحمل من صعوبات لا تطاق، وما أشقى قلبه بها جميعا وما أعظم عناه، وكم يخوض هذا القلب من أفكاره لجعا شديدة السواد توجع نيران وجد في أحشائه ماتى تلتهب التهابا، وإنها لتقذف بسموم من تنفسه لو استمرت - كما يزعم - لمنعت نسيم الصبا اللبُّن من الهبوب، ويعود ابن معمر إلى نفسه، ويستشعر قوة عاتية، ويستغفر الله فإنه لا يشكو الزمان ولا يصيبه جزع من أحداثه، ولا يئن لحظ فاته منه، ولا يحزن لخطوب طرقت ولا يفرح لأمانى طوَّقته، ويقول كيف يسر لبيب عاقل رأى حُلُمَا تراهى له وكيف يطرب لمسة من مسرات الدنيا من شرب من كأس الفناء وأسكره. وله وقد أبل الخليفة الحفصى - ولعله المستنصر - من مرضه.

الله أنعم بعد البأس بالفرج يا أزمّة الدهر عند الشدة أنفِرْجى
شكرُ الخلائق لا يكفى لأيسر ما كفى وسكن من فرج ومن رَهج^(١)

(١) هرج ورج: شغب واختلاط.

أَتَى الْأَنْثَامَ بِإِبْقَاءِ الْإِمَامِ فَكَمْ بِصَوْنِهِ صَانٌ مِنْ مَالٍ وَمِنْ مُهْجٍ
إِذَا رَعَى اللَّهَ لِلْإِسْلَامِ رَاعِيَهُ لَمْ نَأْسَ مِنْ فَقْدِ ذِي قَدْرِ وَلَا هَمَجٍ

وهو يقول إن الله أنعم على الرعية بعد تأسيسها بنعمة الفرج وكشف الغم الذي اعتراها بمرض الخليفة، ويتجه إلى أزمات الدهر يسألها أن تفرج وتنكشف وتنحسر عند الشدة أو الشدائد إلى غير رجعة، ويقول إن شكر الرعية لا يفي بهذه النعمة الكبرى نعمة شفاء الخليفة من مرضه وتهذئة ما كان قد حدث فيها من اختلاط واضطراب بسببه. ويفزع ابن معمر إلى المبالغة أو قل يتماهى فيها، إذ جعل بقاءه بقاء للرعية وصوناً لأموالها ونفوسها، ويجعله راعياً للإسلام ويرفعه فوق أفراد الرعية درجات. ولعل فيها أسلفت من أشعار ما يصور شاعرية ابن معمر وأنه يعد بحق أشعر شعراء ليبيا حتى عصره لحسن صياغته وروعة تصاويره ودقة أفكاره.

٤

الشعراء في العهد العثماني

مرُّ بنا أن العثمانيين استولوا على طرابلس في أواسط القرن العاشر الهجري، وقد ضمَّ محمد الساقزل والى طرابلس برقة إلى ولايته بعد نحو قرن، وبذلك أصبح لليبيا حاكم عثماني واحد يتخذ طرابلس عاصمة له، وكان حكامها يتخذون التركية لغة رسمية لدواوينهم، وأخذوا مع الزمن يقيمون مدارس في ليبيا ولكنها كانت تصب عنايتها على تعليم التركية لتخريج موظفين للدواوين يساعدون في تصريف شئون الولاية. غير أن الثقافة الإسلامية العربية ظلت ترعاها المساجد والزوايا. وكانت ليبيا قد أخذت تشغل منذ القرن الثامن الهجري بالتصوف وزواياه وشيوخه، واتسع انشغالها بذلك منذ حكمها العثمانيون في أواسط القرن العاشر الهجري أو بعبارة أدق منذ حكموا طرابلس، إذ كثر الشعر حينئذ على لسان الصوفية، غير أن الكثرة الغامرة منه عامية، وما ليس عامياً يكثر فيه اللحن، ومن يضاف إليه أشعار كثيرة من دراويشهم عيد السلام الأسمر المتوفى سنة ٩٨١ وكانت له زاوية بمدينة زليطن على نحو ما ذكرنا في حديثنا عن الزهد والتصوف، وتكثر العامية الليبية في أشعاره ويكثر فيها الخروج على العروض، وربما لم يكن هو نفسه السبب في ذلك، فقد تحول كثير منها شعراً شعبياً، فربما عبث به الرواة والمنشدون من العوام، ومن أهم أشعاره قصيدة نظمها في التسمين من عمره، ونقتطف منها بعض أبيات تستقيم فصاحة وعروضا^(١):

(١) انظر القصيدة في كتاب الشيخ سيدى

عبدالسلام الأسمر لإسحق الملبجى ص ٣٠٤.

شربتُ شرابَ العزِّ من خَمرةِ الصُّبا سقانيه محبوبى بسرِّ العنسيّةِ
وبانت لي الأنوارُ وانكشفَ الفِطْا وألهمتُ أسراراً بسرِّ الجلالَةِ
ونمتُّ منشوراً إلى كلِّ عاشقٍ بأنهمُ حزبي وأهلُ إرادتي

وكان الشطر الأول في هذه الأبيات مضطرباً وأصلحته ليستقيم الوزن. وكان للشيخ أتباع كثيرون جاءوه من كل فج في ليبيا وتونس والبلاد المغربية، وأقاموا له - حين توفى - مأتماً كبيراً أنشد فيه بعض مرثيه مرثي مضطربة الوزن والصياغة، وإنما ذكرت بعض أشعاره لأدّل على تدهور التصوف لغةً ووجدًا ملئًا، فالأبيات لا تحمل أي وجد، إنما هو ظاهر مما كان يردّه الصوفية قديماً من كلمات الشراب والخمرة وانكشاف الفطاء والعشق وما إلى ذلك. وقد أحالوا الزوايا في ليبيا وبلاد المغرب من دور عبادة ونسك وتجمع فيها لجهاد أعداء الله أو قل أحالوا كثيراً منها إلى دور شعوزة واعتقاد في شيوخها بأنهم أولياء الله يطلعون على الغيب وتجري على أيديهم أعظم الخوارق، واستخدموا فيها حلقات الذكر مع التثني والنشوة بالاستماع إلى أناشيد صوفية ممسوخة ومع استخدام الدفوف والبنادر ونفس زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر يزليطن استعالت إلى هذه الصورة، فقد كان يستخدم في زاويته الدف والبندير والأناشيد والتثني في الذكر، مما أثار عليه حملات شعواء من فقهاء عصره، وهو لا يبالى، بل يوهم أتباعه أنه ناظر وجادل نفراً منهم وتبعوه، يقول في نفس القصيدة:

وكم من فقيه كان ينكر حالنا فصار بفضل الله من أهل حَضْرَتِي
فأعطى له التصريفُ حَيًّا وميتاً وصرتُ إمامَ الوقتِ شَيْخَ الطريقةِ

وهو يزعم - زعماً باطلاً - أن من تبعه من الفقهاء أصبحوا من الأولياء، وأصبح لهم التصرف في القضاء أحياء وأمواتاً مثله، وهى شعوزة ملأ بها أمثاله نفوس العامة في ليبيا والعالم العربي: أن زيارة قبور الأولياء والمتصوفة تنفعهم وينبئ أن يقدموا لها التدور، وهى لا تنفع ولاشفع، إنما ينفع الإنسان - ويشفع له - عمله. ولكن إذا كان التصوف ساء سلوكاً في العصر العثماني بليبيا وهبط شعراً فإن المديح النبوي ظل له غير قليل من الروتق عند شاعر ليبى لُقّب بالهلول، وهو - لغةً - الجامع لحصال الخير وستترجم له، ونتبعه بترجمة أحمد بن عبد الدائم.

(أ) البهلُول^(١) الطرابلسي

هو أحمد بن الحسين الملقب بالبهلُول، وُلد بطرابلس حوالى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى وتوفى سنة ١١١٣هـ/ ١٧٠٢ م ولما نهل من حلقات الشيوخ فى مسقط رأسه، وعبُّ منها ما شاء، رأى أن يرحل إلى القاهرة للتزود من أعلام الأزهر الشريف وظل فترة به ملازما حلقتى إمامى المالكية فيه: الشيخ محمد الحرشى والشيخ عبدالباقى الزرقانى، ولكل منها شرح على مختصر الشيخ خليل بن إسحق فى الفقه، والشيخ خليل - بدوره - فقيه مالكى مصرى، وقد طارت شهرة مختصره فى البلاد المغربية إلى اليوم، وفتحت موهبة البهلُول - حينئذ - فأنشأ قصيدة يتشوق فيها إلى موطنه طرابلس، وفيها يقول:

طرابلسُ الغُراءُ تُرى لى عَوْدَةٍ إليك وهل يَدنو الذى كان قد ذَهَبَ
سَقَى الجانبَ الشرقى منك سحابةً ولا زال فيك من رِياح الصَّبا مهبُّ
بسديعةٍ حُسنٍ زادها الله بهجَةً وآمن أهلها من الخوف والثُّغْبُ
وكيف بدارٍ قد حوتْ كلُّ رُقعةٍ يقومُ لهم فى العلم باعٌ وفى الأدبِ

ورجع إلى طرابلس بعلم غزير وأدب وفير وملكة شعرية خصة، ولم يسُخرها فى مديح حكام بلده، وإنما سُخرها فى مديح صفوة الخلق سيد ولد آدم محمد ﷺ، ونظم فى ذلك ديوانا، قصائده مخمَّسات موزعة على الحروف الهجائية، وأضاف إلى تلك الحروف الثمانية والعشرين: «لا» فأصبحت تسعة وعشرين حرفا، ولكل حرف قصيدته وهو قافيتها وكل قصيدة تتألف من عشرين دورا، أو قل كل مخمس، وقد عُرف شعراء المغرب والأندلس بهذه المخمسات العشرينية، وعلى شاكلتهم ألف البهلُول أو نظم هذا الديوان، ويقال إنه نظم مخمساته على أساس قصيدة عياضية، وهى لا توجد بين قصائد القاضى عياض إمام مدينة سبتة المشهور وربما كانت لمياض آخر، إذ يتسمى باسمه كثيرون بين مقاربة وأندلسيين، وأول دور فى الخمس الأول يجرى على هذا النمط:

أذوبُ اشتياقا والفؤاد بحسرة وفى طيِّ أحشائي توقدُ جمره
مضى ترجع الأحباب من طول سَفرةٍ أحبةٌ قلبى عللنى بنظرةٍ
فدائى جفاكم والوصال دوائى

(١) انظر فى البهلُول ديوانه ومقدمته لمحققه:

لأحمد النائب الأنصارى.

الطاهر الزاوى وكتابه أعلام ليبيا، والمنهل المنب.

وقافية الشطر الخامس هزبية ومثلها جميع الشطور الخامسة في أدوار المخمس، وإلى قافية هذا الشطر يُنسبُ المخمسُ جميعه. والأدوار العشرة الأولى في كل مخمس تتخذ الغزل موضوعا لها بينما الأدوار العشرة الثانية في مديح المصطفى ﷺ كما يقول محقق الديوان الأستاذ الطاهر الزاوي. ونظن ظنا أن وراء الظاهر في العشرة الأولى نفحات من الغزل الصوفي المحسى الذى نقرؤه في ديوان نرجان الأشواق لابن عربى إذ يتشابه معه في أنه يجمع في غزله ما يختلج في قلوب المحبين العذريين إزاء محبوباتهم من لواحي الحب والافتتان بجمالهن وسحر عيونهن وورد خلودهن، ودائما محبوباتهم في ارتحال وفراق وبين، وهم مسهّدون ييكون بدموع غزار، ولا يبلغ المحب مراده من الوصال، وهو - لذلك موجه الفؤاد، إذ لاشفاء له بلقاء أو ما يشبه اللقاء، بل قطعة متصلة، والحب - بل العذاب - يتجدد ألوانا. وجميع العشرينيات عند البهلول تبتدئ بهذا الغزل المتنازع، وما يؤكد تأثره في غزله بالغزل الصوفي ذكره في مخمسه الخاتمي معروفا الكرخي الصوفي وتلميذه السرى السقطي والجنيد تلميذ السرى، والثلاثة من صوفية القرن الثالث الهجرى المشهورين، وهو ما يجعلنا نزع أن شعاعات من الغزل الصوفي المحسى سقطت في الأدوار العشرة الأولى بمخمساته من مثل قوله في مخمسه السيني:

نفوسٌ عزيزاتٌ تُرى مَنْ أَذْلُهَا وَسَفْكَ دِمَاحِهَا فِي الْهَوَى مَنْ أَحْلُهَا
وبى غَادَةً كَالشَّمْسِ تَمْنَعُ وَصْلَهَا سَمَحَتْ بِنَفْسِي فِي هَوَاها لَعْلُهَا

تدوم على حفظ المودة والأنس

تَحْمَلُ قَلْبِي فِي هَوَاها تَعْبَةً وَلَمْ تَرَعْ بِالْتَفْرِيقِ وَدَا وَصُفْبَةً
أَنَادَى عَسَاها أَنْ تَفَرِّجَ كُرْبَةً سَقَتْنِي كَثُوسًا بِالصُّفْبَةِ صَرْفَةً
ثَمَلْتُ بِهَا سُكْرًا وَغَبْتُ عَلَى جَسِي

وظاهر الدور الأول كأنه غزل طبيعي لمحب يتذلل لمن تدلّه في حبها وأصابته بسهامها حتى كأنما سفكت دمه غير مبالية بحبه، وتمنع وصالحا، وتمنع في هجرانها، وهو لا يزال يأمل أن تراجع نفسها وتذكر له أيام المودة والأنس، وهى معان يقولها الغزلون العذريون ولكن تأمل في الدور الثاني وماذكر فيه من كثوس المحبة وارتوائه منها صرفة صافية وكأنما ارتوى من كثوس المحبة الربانية التي طالما رُدّدها الصوفية، ويقول إن نشوة السكر غلبت عليه حتى غاب عن جسّه، وكأنه يعنى فكرة الفناء الصوفية في الذات العلية إذ يبلغ الصوفي من محبته لربه غيابه عن جسّه، فقد أصبح روحا فانية في ربه لا يشعر بشيء في الوجود سواء وسوى محبته التي استغرقت حواسه حتى كأنما أصبح في غيبوبة مطلقة. وحقا لا يمعن البهلول في غزله المحسى الذى يقدم به المديح النبوى، كل هذا الإمعان الصوفي، ولذلك نقول إن في غزله بعض شعاعات من المحبة الصوفية.

والأدوار العشرة الثانية في مخمسات البهلول خصها بمديح الرسول ﷺ، ويفيض في ذكر معجزاته التي تتحدث عنها السيرة النبوية مثل انصداع إيوان كسرى وانطفاء نار فارس عند مولده ومثل شق جهريل ل صدره ووضع النور الرباني فيه بمنازل مرضعته حليلة السعدية، وشكوى الصحابة إليه من قلة الماء في بئر صخرة كان يتوضأ منها، فغار الماء وتكاثر ببركته وما قيل من أن الغزاة كلمته وكذلك الذئب والضب، ومعروف أن معجزة الرسول الكبرى إنما هي القرآن الكريم ورسائله العظيمة التي وضعت أسسا قوية لهداية البشرية . ويذكر البهلول مرارا وتكرارا إسراء الرسول على البراق إلى بيت المقدس وصلاته فيه إماما للرسل، ومراحه إلى السموات السبع وما غشيه من الأنوار القدسية عند سبورة المنتهى وما يفيض يتحدث عن محبته للرسول مصورا فضائله وشماله المثالية السامية، ضارعا إليه دائما أن يكون شفيعه يوم المحشر، وتترأى في جوانب من مديحه النبوي شعاعات من فكرة الحقيقة المحمدية التي تغنى بها الحلاج والبوصيري لما جاء في الأثر من قول الرسول ﷺ: « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » وكأن حقيقته أقدم من حقيقة آدم وخلقه، وكأنه المبدأ لكل النبوات والرسالات، وفي ذلك يقول البهلول في مخمسة الخاتى:

سما مَجْدُه بين الأنعام وفخره وقد جَلَّ من بين البرية قَدْرُه
له المنصبُ الأعلى لقد تَمَّ نصره ختامٌ وإن كان المقدم ذكره
أخيرٌ وإن كان المبدأ فى النسخ

فالرسول ﷺ - مع تأخره في الرسالة - متقدم في الرتبة على جميع الرسل والأنبياء، بل إنه المبدأ لهم جميعا، فمن رسالته استمدت جميع الرسالات، وكأنما نسختها منذ الأزل، بل إن الوجود جميعه ليستمد منه، إذ هو نور الله، وكل نور في الوجود يستمد من نوره، يقول:

نبىٌ تسامى فى الأنعام بمجده لقد ضاعت الآفاق من نور سَعْدِهِ
وما ذكاه أو الشمس فى أضوائها الزاهية إلا فيض من نور وجهه وطلعت السنية، يقول:

له الشرفُ العالى بفخرٍ وسؤدد ذكاهُ بدتْ من نورِ وَجْهِ مُحَمَّدٍ

فالرسول ﷺ منشأ النور في الوجود وإن نور وجهه ليشاهد في كل نور: في الشمس وغير الشمس، إذ هو الحقيقة الأزلية أو النور الأزلى الذى يضيئ الكون والآفاق منذ الأزل أضواء نيرة غامرة.

وأدوار الخمسات في ديوان البهلول تفيض بالسلاسة والعذوبة دون أى غرابة في كلمة أو صيغة، مما جعل أهل ليبيا - فضلا عن أهل طرابلس - يشغفون بالديوان ومخمساته لما يشيع فيه من السهولة والوضوح والصفاء الموسيقى، واعتادوا أن يقيموا لإنشاده حفلات تبدأ من

غرة شهر ربيع الأول كل عام حتى اليوم الثاني عشر يوم مولد المصطفى ﷺ، وربما صحبت الإنشاد الحان بعض الآلات الموسيقية. وكانت للبهلول - بجانب هذا الديوان النبوى - أشعار تعليمية في فقه مذهب مالك وفي العقائد ولم تصلنا، وكانت له مقامات على نمط مقامات الحريري سقطت - بدورها - من يد الزمن ويكفي فخرا ومجدا هذا الديوان النبوى الذى صور فيه مشاعره الصوفية ومحبه المتقده بين جوانحه لصاحب الرسالة المحمدية.

(ب) أحمد^(١) بن عبد الدائم

هو أحمد بن عبد الدائم الأنصارى، ولد بطرابلس ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات علمائها، وتفتحت موهبته الشعرية، وكان فقيها ومؤرخا غير أن الشعر هو الذى جذبه، وكان معاصرا لأحمد القرماني والى طرابلس (١١٢٣ - ١١٥٨ هـ) فأخذ يدمج فيه بعض المديح وحدث في أثناء ولايته سنة ١١٤١ هـ/ ١٧٢٨ م أن قام أسطول فرنسى بمظاهرة أمام طرابلس وأرسل قبطانه إلى القرماني بشروط ينهى أن يرضخ لها وإلا ضرب المدينة بقذائفه، ولم يرضخ القرماني ولا قبل الشروط، رافضا تهديد القبطان ووعيده، وضرب الأسطول طرابلس بقذائفه أربعة أيام طوالا، وأرسل القبطان أو قائد الاسطول الفرنسى بعدها خطابا يحث فيه القرماني على الصلح غير أنه صمم أن لا يستسلم، وكان الاسطول قد دمر أكثر من ثلث المدينة إذ ألقي عليها نحو ألفى قنبلة، واستنفذ ماله من القذائف، فلم يجد قائده بدا من فك الحصار عن طرابلس وعودته إلى بلاده. كل ذلك حدث والخليفة العثمانى لا يحرك ساكنا ولا يحاول التأثير لطرابلس من الفرنسيين. فنظم ابن عبد الدائم قصيدة يستثيره فيها ضدهم محاولا أن يملأه حمية وحاسة بمثل قوله فيها:

يا واحدا ما فى البسيطة مثله ملك الملوك بتواجه المتكلم
أو ما يفيطك حال قلعتك التى فازت بفتحك فى الزمان الأول
إننا نلرجو منك أخذ الثأر من شعب الفرنسيس اللثيم الأذل

وكان المبدى المغربى قد نزل طرابلس في رحلته إلى الحج سنة ٦٨٨ و يبدو أنه أصابه حيف من بعض أهلها. فعَمَّ المدينة وأهلها جميعا بدم شديد ضمنه رحلته المغربية، ذمَّ المغيظ الحق، ولا نعرف الأسباب الحقيقية لهذا الدم، وردَّ عليه رجالة مغربى مواطن له زارها بعده، هو ابن عبد السلام الناصرى، إذ دافع عنها دفاعا حاراً في رحلته المجازية الكبرى، واستشهد على

(١) انظر في أحمد بن عبد الدائم كتاب التذكار
فمن ملك طرابلس من الأخيار لا ين غلبون
وأعلام ليبيا للطاهر الزاوى والنهل الطنب لأحمد
النائب الأنصارى.

مدحها بأشعار لمغاربة في تفریطها وتفریط أهلها، ومن قوله: «وحسن أخلاق أهلها وجودهم سارت به الركبان، وعلم علمائها امتلاً به الخافقان، وفضلهم من شمس الضحى أظهر وأوضح، وما زالت الأشراف تُهَجَّى وتمدح». وابن عبد الدائم أحد من امتعضوا امتعاضاً شديداً من ذم المهدرى لها ولأهلها، مما جعله ينظم قصيدة في الرد عليه، كان لها دوى غير قليل، وفيها يقول:

طرابلس لا تقبل الذم إنما لها حسنات جاوزت سيئاتها
إذا أمها من قد نأته ببلاده وأوحشه ذو أمرها من حُمايتها
تطامن عن نفسٍ ومالٍ وعشرةٍ ويضجى بهزٌ مائوى بجهاتها
لها همةٌ تلو لتأييد سنةٍ بحفظ مبانيتها وجمع رواتها

وهو يقول إن طرابلس لا تَذم ولا تَهجى، فحسنتها أكثر من سيئاتها ومحامدها أكثر من أن تحصى، ويذكر أن الغريب الطريد من بلاده وحكامها الجائرين إذا نزلها أمن على نفسه وماله وأهله، ويشعر بهز مابعد عز طوال إقامته، وينوه بهمتها في العلوم وخاصة في تأييد السنة بحفظ نصوصها وأسانيد رواتها، والقصيدة في تسعة وعشرين بيتاً وقد شرحها مواطنه ابن غلبون المتوفى سنة ١١٧٧ هـ / ١٧٦٤ م في كتاب سماه: «التذكار قيمن ملك طرابلس وماكان بها من الأخيار». وشعر القصيدة وأختها السابقة متوسط، وكان طرابلس وليبيا جميعاً استبقتا نهضتها في الشعر إلى عصرها الحديث عند رفيق المهدي ونظرانه.

٥

النثر

من المؤكد أن ليبيا أنتجت نثراً كما أنتجت شعراً غير أن نثرها لم تحتفظ به الكتب إلا قليلاً جداً إذ كثيراً ما نقرأ في كتب التراجم لهذا الطرابلسي أو لهذا البرقي رسالة أو مقامة، ويكتفى بمثل هذه الإشارة ولا تذكر المقامة ولا تذكر الرسالة، وبالمثل نسمع عن هذا الفقيه الكبير أو ذاك أنه تولى قضاء طرابلس والخطابة أو تولى الخطابة بالجامع الأعظم في تونس ولا تذكر لهذا ولا لذلك خطبة. وقد يكون من أسباب عدم الاهتمام بتسجيل فنون النثر في طرابلس وبرقة وغيرها من مدن ليبيا أنه لم تنشأ بها دولة ترعى الأدب وتحميه وتحدث بتشجيعها له وحاجتها إليه نهضة أدبية واسعة كما حدث في تونس وغير تونس من البلدان العربية، ولو أنه نشأت في

طرابلس أو برقة دولة وأنشأت لها ديوان إنشاء لتأثي لها كتاب ناهيون يدبّيون رسائل سياسية بدعية تلفت معاصريهم وتجعلهم يسجلونها لهم وليث ذلك فيها نشاطا أدبيا جما في النثر لا في فن الرسائل وحده بل أيضا في مختلف الفنون النثرية. ومع ذلك فقد بقيت من النثر اللببي قطع صغيرة وشظايا متفرقة من وصايا الفقهاء والزهاد ونصائحهم من مثل قول عبد الجبار السرق المذكور بين الفقهاء الزهاد والمتوفى سنة ٢٨١. «مَنْ قَلَّ كَلَامُهُ قَلَّتْ أَمَانَتُهُ - الصوم عن الكلام أفضل من الصوم عن الطعام - من زَمَّ (صان) لسانه كَثُرَ في الدنيا والآخرة أمانته» . وسئل الزاهد عبد الله بن إسماعيل البرقي المار ذكره والمتوفى سنة ٣١٧ عن كثرة بكائه خشية وتقوى، فقال: «إِنَّمَا جُعِلْتُ عَيْنًا لِلْبَكَاءِ، وَلِسَانًا لِمُتَعَلِّمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَحْمِيدِهِ وَالصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّهِ، وَبَدَنِ لِلتُّرَابِ وَالْبَلَى، وَقَلْبِي لِلْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، لَمْ أَخْلُقْ لِلصَّبْرِ وَلَا لِلهُو، وَإِنَّمَا خُلِقْتُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ».

وكان الإباضية أكثر احتفاظًا بأقوال أئمتهم، ونجد في كتاب السير للشماخي خطبة لأبي الخطاب المعافري الثائر بطرابلس سنة ١٤٠ وهي فصيحة، غير أنها شديدة البساطة ولا تعنى بجمال الصباغة، إذ ارتجلها في مخاطبة الجيش الذي وجهه لإخراج الصفرية من القيروان. ويذكر الشماخي نصًا من أقصر الرسائل المتبادلة بين متوعد لأهل نفوسة ومجيب له، إذ كتب الأول مهديًا ومنفردًا: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وهما عبارتتان قرآنيتان، فأجابه محمد بن جنون الشروسي النفوسي من القرآن أيضا: ﴿أَلَمْ تَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾. ونرى الشاعر فتح بن نوح الإباضي الذي ترجنا له بين شعراء الدولة الحفصية يعارض أبا العلاء المعري في كتابه الوعظي: «ملقى السبيل» الذي جعله على الحروف الأبجدية، وفيه يذكر سجعات نثرية قليلة ويتبعها بيتين بنفس معناها، وهو ماتقيد به فتح بن نوح في معارضته إلى نهاية الحروف الهجائية بادئًا بيتين بقافية الهمة، ودانها يذكر البيتين أولا ويتلوها بالسجعات الوعظية، ومن سجعاته قوله:

«كُلُّ مَنْ غَدَا عَلَى ظَهْرِهَا^(١) وَرَاحَ، مَشْغُولُ الْبَالِ مَا اسْتَرَاخَ، حَقَّ الْأَجْنَةِ فِي الْأَرْحَامِ، مِنْ بَنَى سَامٍ وَبَاقٍ وَحَامٍ، كُلُّ أَهْدَافِ السَّهَامِ، أَرُونِي خَلْقًا خَلُّوا، وَسَلِيمَ الْخَاطِرِ سُفْلًا وَعُلُوًّا، وَهِيَّاتُ لَنْ تَرَى إِلَّا نِضَا^(٢)، فَإِنَا قَه... لَمْ نَرِ إِلَّا عَبْدَ آمَالٍ، وَعَابِدَ مَالٍ، وَفَاسِدَ أَعْمَالٍ، وَمُتَصَنِّعًا بِأَسْمَالِ^(٣)، فَسَدَ الْعِمْرَانِ وَالْبَيْدِ، وَأَشْرَفْنَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ لَبِيدٌ» والسجعات تطير عن القم بخفة لعنوتها، وهو يعرف كيف مصطفى ألفاظه ومعانيه بحيث تلد السامع وتفتح عقله، مضيفا إليها

(١) ظهرها: يريد ظهر الدنيا وسطحها الذي

(٢) نضوا: مجهدا مهزولا.

(٣) أسمال جمع سمل: نوب خَلَقَ بال.

نعمش عليه.

بعض محسنات البديع وطباقاته من مثل: «غدا - راح. وسُقلاً - غُلُوا» وجناساته من مثل: «عبد آمال - عابد مال. والبيد - لبيد» وتصاويره من مثل: «أهداف السهام - نضوا» ولا نشعر في شيء منها جميعاً بتكلف أو تصنع فما تميز به من حسن البيان، ويشير إلى بيت لبديع العامري المشهور:

ذهب الذين يُعَاشِرُ في أَكْثَانِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجَلِيدِ الْأَجْرِبِ
ومن طريف سجعاته قوله في بعض هذا الوعظ:

«صَيْنَ الدِّينَ وَالْمِرْضَى، وَمَوَدَّى الْوَاجِبِ وَالْفَرَضِ، وَمَطِيعَ دِيَّانِ السَّاءِ وَالْأَرْضِ، وَحُوشَى
مِنَ اللَّوْمِ مَنْ لَيْسَ عَلَى الدُّنْيَا بِهَجُومٍ، وَلَا لِلْوَرَى بِظُلُومٍ». وقوله:

«لو علم الغابر، مصرع العابر، وفهم مضمون المقابر، ما أَغْضَى جَفَنًا عَلَى سِنَةِ (نعاس)،
وَلَا أَدْخَرَ شَهْرًا لِسِنَةِ. حَبْدًا مِنْ اعْتَنَى بِذَا، وَهَجَرَ الْحَنَّا وَالْبِذَا (البذاء) وَأَغْضَى عَلَى الْقَدَى،
وَأَمَّنَ النَّاسَ مِنَ الْأَذَى».

والسجعات في غاية السلاسة والرشاقة وحسن النسق في الجرس، بحيث تستهويك وتغلب
لُحْكَ، وهي ملحقة بالديوان، وإنها لحرية بأن تحقق مع ما يسبقها من أشعار وعظية وتنتشر نشرة
مستقلة.

القسم الثاني

تُونِسْ

الفصل الأول الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية^(١)

جلب هذا القطر قديما بحسن موقعه على البحر المتوسط وكثرة خيراته الفينيقيين ومن بعدهم الرومان فالواندال فالروم البيزنطيين، وهو يقع في المنطقة الوسطى من الشمال الإفريقي بين البحر المتوسط في الشمال والشرق وليبيا في الجنوب الشرقى والصحراء في الجنوب الغربى والجزائر في الغرب. وتبلغ مساحته نحو مائة وخمسة وعشرين ألف كيلومتر مربع. وتدخل إليه جبال أطلس من الجزائر قرب مدينة تيسة في الجنوب الغربى، وتصلد بعض فروعها إلى الشمال الشرقى مارة بجبل زغوان شمالى القيروان وتعتطف منها مرتفعات - في شكل تلال - إلى بنزرت. وتمتد سهول تحت أقدام جبال أطلس وخاصة في الشمال. وليس في الاقليم التونسى نهر كبير سوى نهر مجرّدة المنحدر من الغرب إلى الشمال الشرقى في اتجاه تونس، وسهوله من أخصب السهول، وتنتج مقادير ضخمة من الحبوب سوى ما ينمو فيها من الزروع والفروس. وتمتد في الساحل على طول البحر المتوسط أراض خصبة وافرة السكان والعمران. ووراء قابس في الساحل الشرقى إلى شط الجريد وواحاته تترامى في الجنوب أراض منبسطة واسعة في وسطها مراعى كثيرة وبعض المزارع، وغربها بقاع شاسعة من الحلفاء وتوجد بعض السيخات، وشرقيها منطقة نفزاوة. ومدينة توزر هي قاعدة منطقة أو شط الجريد الذى تلتف به غابة واسعة من النخيل، ومياها تتبع من الرمل وتتجمع خارجها، وتنشعب في جداول عليها أرحاء صنعها ابن الشباط المهندس في القرن السابع الهجرى، وتوزر من قديم تعدّ من أهم البلاد التونسية لإنتاجها الوافر من البلح والتمور فضلا عما بها من البساتين والفواكه المتنوعة وفى الشمال الشرقى من توزر مدينة قفصة، ويقول جغرافيو العرب إنها من أكثر بلاد افق فُسْتَقا، وكان

ترجمة الدكتور حمادى الساحل (نشر دار الغرب الإسلامى) ٢١٣/٨ وما بعدها ومادة تونس في دائرة المعارف الإسلامية، وما بها من مراجع.

(١) انظر في جغرافية تونس أو الاقليم التونسى كتابات ابن رسته وابن حوقل وأبى عبيدالبكرى والشريف الإدريسي، وهذه تونس للدكتور المهيّب نامر. وتاريخ إفريقية في العهد المهنسى ليرنشفك

يُحمل منها إلى سجلماسة في المغرب الأقصى ومدين الأندلس. وكانت تَمَدَّ القيروان بأصناف النمرور والفواكه. ومدين نهر مَجْرَدَة هي مدين الحبوب ومن أهمها مدين الكاف وسليانة وتبرسق وباجة غربي تونس وبينها نحو مائة كيلو متر. ويقول البكري إنها كثيرة الأنهار (لهل يريد جداول المياه) وهي على جبل في هيئة الطيلسان، واشتهرت قديما بإنتاج الحبوب، وخاصة القمح، ولذلك سموها قديما بأجة القمح. وغرُ بالساحل من الغرب ابتداء من مدينة بنزرت، وهي ثغر في أقصى الغرب التونسي على البحر المتوسط في موقع ممتاز، تحف بها مزارع مشرة وبغات كثيفة. وتشتهر بإنتاجها من الحبوب والبقول والزيتون، فضلا عن أنها ميناء تجارى مهم، وفي شرقها بحيرة ويقول عنها الإدريسي: فمها متصل بالبحر المتوسط وكلما دخلت في البر اتسعت وكلما قربت من البحر ضاقت. ويصاد بها أنواع كثيرة من الأسماك. وكان بجانبها محارس أو رباطات ينزلها النساك المجاهدون في سبيل الله لحماية تونس من القراصنة والغزاة. ونغضى شرقا على الساحل في الشمال، فتلقانا تونس على خليجها، وقد بناها حسان بن النعمان وإلى إفريقية (٧١ - ٨٥هـ) بالقرب من قرطاجة الفينيقية، متخذًا منها دار صناعة كبيرة لبناء أسطولها. واتخذها عاصمة، غير أن الولاة والحكام بعده تركوها إلى القيروان التي كان قد بناها عقبة بن نافع بين سنتي ٥٠ و ٥٥ للهجرة واتخذها هو ومن بعده عاصمة لإفريقية، حتى إذا استولت الدولة الحفصية على صولجان الحكم في الاقليم اتخذت تونس عاصمة للبلاد، وماتزال هي العاصمة إلى اليوم. وإلى الشرق من خليج تونس خليج الحمامات وبينها شبه جزيرة من أخصب الأراضي التونسية، وتكتظ بغابات الزيتون وبساتين الفواكه وخاصة البرتقال.

وتلقانا بعد خليج الحمامات في الشرق مدينة سوسة، وقد اتخذتها الدولة الأغلبية منذ أواخر القرن الثاني الهجري دار صناعة لسفن أسطولها الحربي، وبواسطة هذا الأسطول استطاعت تلك الدولة الاستيلاء على صقلية سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م وعلى مالطة سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م ويقول ابن رسته في كتابه: «الأعلاق النفيسة»: إن ساحل سوسة كثير السواد من الزيتون والكروم والأشجار، وبه قرى كثيرة يتصل بعضها ببعض، وهي - مثل بنزرت - يصاد بها أنواع مختلفة من الأسماك، وخاصة من الحيتان. وجنوبي سوسة مدينة المنستير وكانت في الأصل محرسا كبيرا أو رباطا بناه هرثمة بن أعين وإلى الرشيد لحماية الساحل وحراسته وظلت تتسع مع الزمن إلى أن أصبحت مدينة كبيرة. وإلى الجنوب منها مدينة المهدية التي بناها المهدي مؤسس الدولة العبيدية الفاطمية بتونس. بناها على تنوء صخرى بالساحل لتكون حاضرة له ودار صناعة لأسطولها، ويقول البكري إنها من أعاجيب الدنيا. وإلى الجنوب منها صفاقس وهي مدينة تجارية مهمة. وتحيط بها أشجار الزيتون والفواكه، وفي كتاب الحلال السندسية أنه يصاد بها أنواع من السمك تفوق المحصر، وبيحرها صوف تصنع منه ثياب رفيعة، وقد يوجد في بحرها صدف يشتمل

على لؤلؤ صغير الحب، وأمامها جزر قرقنة ويشتهر سكانها بصيد الإسفنج. وإذا سرنا نحو الجنوب لقيتنا مدينة قابس متوسطة خليجها ويصاد فيه الإسفنج أيضا بكثرة، ويكثر بها النخيل والعيون الجارية، ويقول البكري إن اللوز كثير بها وبالمثل جميع الثمار، ويكثر بها التوت، وحريرها أطيب الحرير وأرقه. وإلى الجنوب الشرقى من خليجها جزيرة جربة الكبيرة المحصنة. وإلى الجنوب منها منطقة نفاوة المشهورة بواحاتها وتشتهر ناحية طرة فيها بصنع الزجاج من قديم لوجود الكارتز هناك بكثرة. والأشجار والزروع تحيط بالأقليم التونسي على امتداد سواحل شمالا وشرقا وفي حوض نهر مجردة غربا وفي واحات نفاوة وشط الجريد. والمنطقة الوسطى وحدها منطقة المراعى وفيها تنتقل القبائل الرحل.

ومناخ القطر التونسي - في جلته - مناخ البحر المتوسط دافئ معتدل، ونزول الأمطار بها يختلف كثرة وقلة حسب أنحائها، وهى تكثر في الشمال شتاء، وتقل قلة شديدة في الجنوب، وتختلف درجة الحرارة فيها باختلاف البقاع ووقوعها على الجبال وسفوحها وفي السهول الزراعية وبالقرب البحر أو في داخل الصحراء.

٢

التاريخ^(١) القديم

كانت تعيش في القطر التونسي وغيره من أقاليم المغرب - في العصور السحيقة - قبائل لا حضارة لها سماها الرومان باسم البربر، وحوالى القرن العاشر قبل الميلاد ارتاد سواحل إفريقيا الفينيقيون بحثا عن مواقع غنية بالخيرات يرسون بها سفنهم للتبادل التجارى، وكانوا شعبا يلاحها احترف التجارة، وأعجبهم ساحل الإقليم التونسي، فاتخذوا فيه مواقع لإقامات مؤقتة يتبادلون فيها السلع التجارية مع أهله وسكانه. ومع الزمن ومرور دوراته المتعاقبة رأوا أن يقيموا لهم في ذلك الإقليم مدينة تكون لبعض أسرهم مستقرا كما تكون مركزا ثابتا لمتاجرهم. وفي تاريخ غير معروف بالضبط هل هو القرن الثامن قبل الميلاد أو قبله أو بعده أسسوا لهم مدينة غربي مدينة تونس الحالية سموها قرطاجة، وأخذت تزداد قوة، وأخذ بحارتها وتجارتها ينشئون لهم مراكز تجارية جديدة في الساحل الإفريقى مثل بجاية وشرشال في الجزائر وطنجة في

المغرب الكبير للأستاذ محمد علي دبور (طبع مطبعة
الحلى في القاهرة)

(١) انظر في تاريخ الإقليم التونسي القديم
خلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسنى
عبد الوهاب (طبع تونس) والجزء الأول من تاريخ

المغرب الأقصى ونزلوا ساحل إسبانيا في الجنوب الشرقي والغربي وأسسوا لها مدينتين: قرطاجنة على البحر المتوسط وقادس على المحيط الأطلسي.

وكان الفينيقيون أصحاب حضارة، ومعروف أنهم اشتقوا لهم من حروف الهيروغليفية المصرية أبجديتهم التي نشروها في البلاد التي نزلوها قديما كما نشروها في العالم القديم. وقد نزل قرطاجة التونسية كثير من أسرهم، وخالفوا السكان الإفريقيين، وامتزجوا بهم مصاهرة وغير مصاهرة، بحيث أصبحت لهم في قرطاجة دولة كبيرة، كما أصبح لهم شعب ضخم يتألف منهم ومن البربر، واتسعا في تجارتهم مع المراكز التجارية التي أنشئوها في المواقع المذكورة آنفا وفي فرنسا وصقلية، وجابت قوافلهم الصحراء في الجنوب وحملت من السودان الرقيق والعاج والتبر. ولا نصل إلى أواسط القرن الثالث قبل الميلاد، حتى نجد روما تحاول أن تخضع من شوكة تغزؤهم في البحر المتوسط، وسرعان ما نشبت الحروب بين الطرفين وظلت أكثر من مائة عام ابتداء من سنة ٢٦٤ إلى سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وكان ميدانها لنحو عشرين عاما جزيرة صقلية موضع النزاع بين القوتين الكبيرتين، وأذعنت قرطاجة في نهايتها للصلح، وعادت الحرب بينهما للشوب سنة ٢١٨ قبل الميلاد واستمرت حتى سنة ٢٠٢ إذ بادت حملة هانيبال الكبرى بالإخفاق، وكان قد كوّن جيشا ضخما اقتحم به جبال البرانس وجنوب فرنسا وشمال إيطاليا محاولا أن يفتح روما، غير أن الأقدار لم تسعفه، وبعد ذلك بنحو خمسين عاما نشبت بين روما وقرطاجة حرب ثالثة ظلت ثلاث سنوات من سنة ١٤٩ إلى سنة ١٤٦ قبل الميلاد انتهت بانتصار روما وتدميرها نهائيا لقرطاجة الفينيقية. وكانت حضارتها قد استقرت في الشمال التونسي قرونا وأجيالا متعاقبة، وكانت حضارة متقدمة لا في شئون الملاحة والتجارة فحسب فهم أساتذتها في العالم القديم بل أيضا في صناعة السفن والمعادن والزجاج وفي زراعة الحبوب والبقول وأشجار الفاكهة وغراسة الزيتون والمظنون أنهم نقلوه - كما نقلوا كثيرا من أشجار الفاكهة - إلى إفريقية في تونس وغيرها من موطنهم الأصلي في الشام، ومن أكبر الأدلة على اهتمامهم بالشئون الزراعية في إفريقية التونسية أن نجد عالمهم الزراعي الكبير: ماجون (Magon) يؤلف أقدم كتاب عالمي في الزراعة وغراسة الأشجار وقد نقله الرومان إلى اللاتينية حينما قهروا القرطاجيين التونسيين واستولوا على البلاد منذ سنة ١٤٦ قبل الميلاد. كما استولوا على ما فيها من كنوز العلم والرفان وكنوز الخيرات والطيبات.

ومنافسة لقرطاجة الفينيقية وهياكلها الضخمة ومبانيها السامقة أقام الرومان لهم بجانيها قرطاجة جديدة شادوا فيها هياكل ومعابد ومباني بأسقة كما شادوا مسرحا للتمثيل وملعبا لمصارعة الحيوانات وبعض الحمامات. وكانوا يحكمون قرطاجة والقسم الشمالي من الإقليم التونسي مباشرة، وما وراءه في نفس الإقليم وفي نوميديا (القسم الشرقي من الجزائر) كان

يحكمه ولاية تابعون لهم من البربر، واشتهر من بينهم والر يسمى يوغرطة حارب الرومان وحاول الاستقلال ببلاده ووقع في أيدي أعدائه فسجنوه بروما إلى أن قضى نحبه سنة ١٠٦ قبل الميلاد. وأخذت البلاد تستكين لروما، وأخذ بعض البربر ينشأ بها ويتعلم فيها مثل يوبا الثانى المتوفى سنة ٢٢ للميلاد. وهو جزائرى، وقبره بالقرب من شرشال، وله مؤلفات مختلفة باللاتينية في تاريخ الرومان وفي الجغرافية والموسيقى. واندماج بعض البربر في الحياة الرومانية واستطاعوا الوصول إلى أعلى الوظائف في الدولة، حتى ليصبح أحد أباطرة روما ويجلس على عرشها سنة ١٩٣. للميلاد بربرى من مواليد لمطة على الساحل الإفريقى ويقال: بل من مواليد لينة بجوار طرابلس، وهو سبتيموس سيفيروس. وتابعت روما قرطاجة في العناية بالزراعة في إفريقية التونسية وشق القنوات بها وإقامة السدود والخزانات والصحاريح والمواجل، مما جعل الزراعة تزدهر بها في زمنهم الذى امتد نحو ستة قرون طوال. وتظل التجارة مزدهرة بها أيضا وتظل القوافل تتحدر إلى الجنوب لحمل السلع من السودان. وقد نزلتها - وعاشت فيها - أسر رومانية كثيرة. وحين اعتنقت روما المسيحية حاولت نشرها فيها، وابتنت لها بعض الكنائس، ويبدو أنها عملت على نشر لغتها اللاتينية، وقد ظلت حية في بعض الألسنة بعد الفتح الإسلامى - كما سنرى - قرونا طويلة، وسنرى بعض الأمراء الأغالبة يتعلمونها، كما تعلمها المعز لدين الله الفاطمى.

وتأخذ الأحوال في روما تسوء، حتى إذا مضينا في القرن الخامس الميلادى زادت سوءا على سوء، مما جعل أحد ولايتا في إفريقية المسمى بونيفاس يخرج عليها ويستغيث بقبائل الرواندال الجرمانية التى كانت قد استولت على إسبانيا، وتقدم تلك القبائل، وتعيث في إفريقية التونسية دمارا وفسادا لمدة مائة عام من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٥٣٤ للميلاد، خرَّت فيها كل - أو أكثر - ما كانت تزدهى به البلاد من أسباب الحضارة وال عمران مما أقامه بها الفينيقيون والرومان إلى أن خلاصها منهم القائد البيزنطى بليزير Bélisaire سنة ٥٣٤ للميلاد، وأصبحت إفريقية التونسية - من حينئذ - تابعة لقيصر بيزنطة (القسطنطينية) ويسمى العرب سكان هذه الدولة باسم الروم. وكانت بيزنطة تولي على إفريقية حاكما عاما يلقب بالبطريق Patricius مقامه بقرطاجة، وأسندت إليه إصدار الأوامر والإشراف على الموظفين وعلى أداة الحكم والشئون المالية، وكانوا يتبعون سياسة خرقاء ظالمة في فرض الضرائب الفادحة والجبايات والإتاوات الباهظة. ولم تكن بيزنطة - وبالتالي حكامها - بنشر لغتها اليونانية في البلاد على نحو ما عنت روما وحكامها - من قبل - بنشر اللغة اللاتينية، فلم تكن اليونانية تتجاوز السنة الموظفين والجند البيزنطيين، وظلت اللاتينية هى اللغة المسيطرة في المدن الإفريقية: في قرطاجة وسوسة وغيرها بسبب ما كان فيها من جاليات رومانية كبيرة.

الفتح^(١) - بقية الولاة - الدولة الأغلبية

(١) الفتح

كان يحكم قرطاجة وإفريقية قبيل الفتح العربي بطريق بيزنطي يسمى جريجوريوس وسماه العرب جرجير، وحين رأى ضعف الدولة البيزنطية واستيلاء العرب على أكبر دُرَّتَيْن في تاجها: الشام ومصر صمَّ على الاستقلال، فخلع طاعة بيزنطة وضرب الدنانير باسمه، وبينما هو غارق في حلمه إذا الجيش العربي الفاتح للشام ومصر يستولى على بركة وطرابلس وتوابعها في سنتي ٢٢-٢٣هـ/٦٤٢-٦٤٣م. ويتوفى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ويخلفه عثمان بن عفان فيؤلى على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ويأمره بغزو إفريقية، فيسير إليها في عشرين ألفاً من الصحابة والتابعين يتقدمهم نفر من الصحابة أو من أبناء كبارهم، مثل ابن أبي سرح الصحابي وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن العباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن جعفر وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ولذلك سُمِّيَ الجيش جيش العبادة، ووصلت طلائع الجيش إلى إفريقية التونسية في سنة ٢٧هـ/٦٤٧م واستولت على قابس، وكان جريجوريوس قد عرف أن العرب لابد أن سينازلونه، فانسحب من قرطاجة إلى الداخل محتفياً بحصن أنشأه البيزنطيون إلى الجنوب الغربي من القيروان يسمى سُبَيْطلة وجمع إليه جيشاً جراراً من البيزنطيين والبربر، يقال إنه كان مائة ألف، والتحم الجيشان وانتصر المسلمون وقتل جريجوريوس في المعركة، قتله عبد الله بن الزبير، وفتحت إفريقية التونسية أبواب مدنها لسرايا الجيش العربي الباسل، وأسرع البيزنطيون والبربر في كل مكان إلى طلب الصلح، وصالحهم القائد ابن أبي سرح على مقدار من المال، وكانت الوقعة حاسمة، فلم تقم بعدها لبيزنطة قائمة، ويقال إن ابن أبي سرح ترك بعد ذلك القطر التونسي وعاد إلى مصر دون أن يولى عليها أحداً وهو قول غير صحيح، لأنه لم يحدث أن العرب في فتوحهم الأولى فتحو

الثالث من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع الدار البيضاء) وتاريخ ابن خلدون والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار والحلل السندسية في الأخبار التونسية للوزير السراج وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب

(١) راجع في الفتح وبقية الولاة والدولة الأغلبية كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم وتاريخ الطبري وابن الأثير وتاريخ إفريقية والمغرب للرفيق القيرواني (قطعة منه طبع تونس) ومعال الإيمان للدهاغ وابن ناجي ورياض النفوس للملكي والبيان المغرب لابن عذارى والقسم

بلدا وفرضوا عليها إتاوات وضرائب وتركوها وانصرفوا. وكان فتحنا لم يحدث، مما يجعلنا نرجع ما قاله بعض المؤرخين من أنه خلف عليها نافع بن عبد القيس الفهري، وكان يتخذ زويلة التي فتحها في حملة عمرو بن العاص مقرا لحكمه في طرابلس وبعد ضم إفريقية التونسية إليه. ولإقامته في زويلة ظن خطأ أن ابن أبي سرح لم يترك وراه في إفريقية التونسية عاملا، ويبدو أن الخليفة عثمان بن عفان ولي عليها بأخرة من أيامه سنة ٣٤ للهجرة معاوية بن حُديج السكوني. وتحدث فتنة عثمان فيعود، وتضطرب الأمور في إفريقية كما اضطربت في الولايات الأخرى.

ولما استقرت الأمور لمعاوية بن أبي سفيان أرسل إلى إفريقية جيشا عداده عشرة آلاف بقيادة معاوية بن حُديج سنة ٤٥هـ/٦٦٥م وعلم قيصر بيزنطة بهذا الجيش فأرسل إلى قرطاجة نجدة بحرية والتحم بها وبين انضم إليها من البربر معاوية بن حديج وهزمهم هزيمة ساحقة لم يعد البيزنطيون بعدها يقدمون لعون قرطاجة، واستشهد في هذه الفزوة أبو زمعة عبيد الله البلوي الصحابي، وكلف معاوية عبد الله بن الزبير بفتح سوسة ففتحها وفتح عبد الملك بن مروان بنزرت.

وولي معاوية عقبة بن نافع الفهري على إفريقية سنة ٥٠هـ/٦٧٠م ويجرد وصوله إليها رأى أن الحكم العربي لا يثبت فيها ولا يستقر إلا إذا أنشئت بها مدينة عربية تكون معسكرا للجيش العربي الذي تتغلغل جنوده في إفريقية بحيث تكون دارا لأسرهم وقاعدة لنشر الدين الحنيف ولفته العربية، واختار للمدينة موقعا على بعد نحو ثلاثين ميلا من البحر المتوسط، وسماها «القيروان» أي المعسكر، وبدأ فيها بإنشاء الجامع المنسوب إليه في وسطها، وبني بجواره دار الإمارة، وأحاط بها سورا، وسرعان ما أصبحت مدينة كبرى وظلت أم المدن في إفريقية قرونا متطاولة في العلم والثقافة وفي التجارة، واستقرت عمارتها منه خمس سنوات حتى سنة ٥٥هـ/٦٧٤م وأصبحت مركزا لتحركات الجيش الفاتح بعد أن كان مركز تلك التحركات برقة وزويلة. وعزله معاوية وولاه أبا المهاجر في نفس السنة المذكورة آنفا، ومن أعماله الجليلة فتحة الجزيرة شريك وإدخاله جميع بلاد الجريد في الإسلام، وبالمثل جميع بلاد الجزائر وتغلغل فيها بجيشه إلى تلمسان حيث دارت بينه وبين قبيلة أوربة البرنسية وزعيمها كُسَيْلة معركة انتصر فيها وأسر كُسَيْلة فعامله معاملة كريمة جعلته يعتنق الإسلام واعتنقته معه قبيلة أوربة. ويتوفى معاوية ويخلفه ابنه يزيد فيعيد عقبة بن نافع ثانية واليا على إفريقية سنة ٦٢هـ/٦٨١م واستخلف زهير بن قيس البلوي على القيروان واتجه بجيشه إلى شط الجريد وأذعن له، كما أذعن الزاب في الجزائر ومضى يجاهد في سبيل الله إلى أن وصل إلى البحر المحيط، فأدخل فيه قوائم فرسه ورفع يده إلى السماء قائلا بأعلى صوته: «اللهم إني أشهدك أني وصلت براية

الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعبد أحد سواك» وكرّ راجعا بعد أن دُوخ القبائل المغربية ودانت له، وكان قد وُيخ كُسيْلَة زعيم قبيلة أوربة في أول ولايته الثانية لوقوفه قديما ضد الإسلام، وأسرّها في نفسه هو ومن غضبوا له من البربر الذين لم ينسوا قوميّتهم البربرية، وصمّم كسيْلَة على الثأر، حتى إذا تقدّم عقبة جيّشَه بالزّاب في عودته، وبقي في نفر قليل معه إذا كسيْلَة الأثيم يحاصر عقبة مع جمع من الروم ومن قومه سنة ٦٤٤هـ/ ٦٨٣م ويهجمون عليه وعلى من معه من أصحابه وكانوا نحو ثلاثمائة، وقتلوهم قتال الأبطال، وتكاثروا عليهم فاستشهدوا جميعا، ودفنوا في نفس المكان -نُصِرَ الله وجوهمهم- وأقيم على قبر عقبة مسجد يعرف باسمه، وهو من المزارات الكبرى في المغرب. واتسعت ثورة كُسيْلَة، وتبعته جموع غفيرة من البربر دخل بها القيروان، وتراجع الجيش العربي بقيادة زهير بن قيس إلى برقة انتظارا لجيش عربي يقدم عليه للقضاء على تلك الثورة، وتصادف أن ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز كانت قد بدأت وشغل بها مروان بن الحكم حتى إذا أصبحت الخلافة خالصة لعبد الملك بن مروان وهدأت الأمور في المشرق أرسل إلى زهير سنة ٦٦٩هـ/ ٦٨٨م جيشا جرارا زحف به زهير إلى كُسيْلَة وجموعه، فمزّقهم شرّ ممزق، وقتل كسيْلَة وخلق كثير من البربر، واسترجع زهير القيروان وتمقّب المنتهزمين في الجزائر إلى أن أخرجهم منها، وعاد إلى العاصمة ورتّب شئونها، ورأى أن يعود بعد هذا النصر العظيم إلى المشرق، وبينما هو في نفر قليل من صحبه عند برقة إذا هو يرى بعض سفن للروم وهم يسوقون أمامهم بعض المسلمين، أسروهم على حين غفلة، فنازلهم وكُتبت له الشهادة عند ربه، ويقول الرقيق القيرواني عنه: «كان زهير من رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين».

وولّى عبد الملك بعد زهير على إفريقية حسان بن النعمان سنة ٧١هـ/ ٦٩٠م وكانت لا تزال للروم جالية كبيرة في قرطاجة تتجسّس لبليزطة وتعيثُ فسادا ضد العرب فحاصر البلدة وفتحها عنوة وأذعن من بها من النصارى، ولم يكد ينصرف عنها حتى تحصنوا بها فعاد إليهم وهدم حصون قرطاجة وأسوارها حتى لا يحميهم منه شيء، وفرّ منها كثيرون إلى البحر المتوسط وما وراءه، وطهر بنزرت وشمال إفريقية التونسية من الروم وفرض الجزية على من ظل منهم ومن البربر على دينه المسيحي، واشتعلت في أوائل عهده فتنة في قبيلة جراويّة الزناتية بجبال الأوراس في الجزائر تزعمتها امرأة بربرية اسمها «دهيا» وسماها العرب الكاهنة، ونازلا حسان سنة ٧٦هـ/ ٦٩٥م ولم يكتب للمسلمين النصر، واضطر حسان إلى التراجع حتى مدينة سرت بليبيا، وظل بها خمس سنوات منتظرا مددا من مصر أو من دمشق، وأتاه في سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩م مدد ضخم فاشتبك مع الكاهنة في معركة عنيفة قتلت فيها سنة ٨١هـ وأسلم ابنان لها فجعلها قائدين لجيش مكون من اثني عشر ألفا من العرب والبربر، وبذلك دعم نظرية

الإسلام في المساواة التامة بين العرب والموالى المسلمين بربراً وغير بربر فلا فرق بين عربي وبربري في جميع الحقوق حتى في قيادة الجيوش. وساد الأمن والنظام المغرب جميعه. واتجه إلى عمارة البلاد فجند بناء الجامع الأعظم بالقيروان، ورأى بثاقب بصيرته ضرورة أن يكون لإفريقية التونسية ميناء بدلا من قرطاجة، ولم يلبث أن اختار للميناء موحدا بجوار قرية تسمى تينس أو ترشيش، وشق إلى البحر المتوسط قناة تدخل إليها السفن وتخرج منها وألحق بالميناء دار صناعة كبرى لإنشاء أسطول ضخم يحمي شواطئ الديار الإفريقية من غارات الروم، وجلب من مصر ألف أسرة قبطية لمساعدته في إنشاء تلك الدار والأسطول، وسُمي الميناء تونس، ولم تلبث تونس أن أصبحت أما كبيرة من أمهات المدن المغربية إلى اليوم، وبني بها الجامع الكبير المسمى جامع الزيتونة لزيتونة كانت فيه. واستحدث حسان للولاية تنظيمها إداريا وماليا عُممه في جميع البلاد المغربية، ونشر العربية في المغرب وجعلها اللغة الرسمية في جميع الدواوين، ونظم الجبايات في المدن ومع رؤساء القبائل، وقسم الأراضي التي كانت ملكا للدولة البيزنطية بين صغار الفلاحين من البربر، مما جعلهم يدخلون في دين الله أفواجا نصرة للدين الحنيف. وبكل ما قدمت عن حسان بن النعمان تعد ولايته على إفريقية خاتمة الفتح الذي بدأه عمرو بن العاص سنة ٢٢هـ/٦٤٢م فقد استقر الدين الحنيف في جميع البلدان المغربية واعتنته المغاربة، لما تحمل تعاليمه من المساواة التامة بين جميع المسلمين عربا وبربرا وغير بربر.

(ب) بقية الولاة

ويخلف حسان بن النعمان على المغرب موسى بن نصير سنة ٨٦هـ/٧٠٥م وكان ماهرا في الإدارة وشنون الحرب وبدأ أعماله بتوجيه حملة إلى جبل زغوان - وأتممها بحملات أخرى عادت بفنائم وافرة، ثم قام بحملته الكبرى التي اكتسحت المغرب حتى طنجة على المحيط وإقليم السوس في أقصى الجنوب. وأتم التنظيمات الإدارية لبلاد المغرب، إذ قسّمه ولايات، وجعل لكل ولاية قاعدة عربية يحكمها أحد ولاته، فالمغرب الأقصى عاصمته طنجة، والمغرب الأوسط عاصمته تلمسان، والمغرب الأدنى عاصمته القيروان، ومده شرقا حتى شمل طرابلس وغربا حتى شمل نوميديا (قسنطينة وبجاية) وإقليم الزاب إلى نهر شلف في الجزائر، وجعل برقة ولاية قائمة بنفسها وعاصمتها برقة (المرج منذ القرن السابع الهجري) وأضاف إلى هذه الولايات ولاية جنوبي المغرب الأقصى، هي ولاية السوس الداخلة في الصحراء، وجعل عاصمتها سجلماسة، وولى عليها طارق بن زياد النفاذوى البربري، ثم نقله إلى طنجة. وفي سنة ٩١هـ/٧٠٩م عزم على غزو إيبيريا، فأرسل إليها حملة استطلاعية بقيادة طريف، وهو أيضا بربري، فنزل بإيبيريا في موضع يقابل مدينة طنجة، سُمي جزيرة طريف لنزوله فيه، وعاد يحمل إلى موسى أنباء طيبة، فأرسل في السنة التالية طارقا على رأس حملة كبيرة، وجاءته أنباء

فتوحاته، واستمده طارق، فذهب إليه على رأس حملة جديدة أتم بها معه فتح الأندلس. والحملتان الأوليان كانتا تتكونان من العرب والبربر، ونفس قائديهما: طارق وطريف كانا - كما أسلفنا - بربرين وبذلك خطا بسياسة حسان خطوات، فجعل من البربر ولاية وقوادا للجيش. ومنذ عقبة بن نافع كان البربر يشتركون مع العرب في حملاتهم الحربية وجهادهم في سبيل الله، مما يدل - بوضوح - على تغفل الإسلام في نفوسهم، حتى أصبحوا سريما من دعائه وحماته، وكانت ككرة جند موسى بن نصير منهم سواء في فتوحه لبقيّة المغرب حتى ديار السوس أو في فتوحه لإيبيريا.

وعزل سليمان بن عبد الملك قصير النظر موسى بن نصير عن إيبيريا والمغرب جميعا سنة ٩٦هـ/٧١٤م وصيغ صولجان الخلافة بيد عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩هـ/٧١٧م فدخل إصلاحا كبيرا على أداة الحكم في الدولة إذ يأمر الولاية بالتنسوية المطلقة بين العرب والموالي أو الشعوب المفتوحة في الخراج وجباية الأموال أخذا بتعاليم الدين الحنيف، ويرسل إلى إفريقية عشرة من الفقهاء على رأسهم إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ويقال إنه أسند إليه الولاية، وكلّفهم أن يعملوا على نشر الإسلام، وأسلم على أيديهم أفواج بربرية لا تكاد تحصى فضلا عن أنهم بثوا في الشباب فكرة التفقه في الدين، مما أعد أهل إفريقية التونسية والمغرب ليشاركوا سريما في الدراسات الدينية.

ولا نكاد نغضى في القرن الثاني الهجري حتى يتوفى الخليفة العظيم عمر بن عبد العزيز، ويتولى بعده الخليفة الطائش يزيد بن عبد الملك، فيعزل ابن أبي المهاجر عن إفريقية ويولى عليها عاملا ظلوما غشوما هو يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج، فقدم إلى القيروان سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م وسرعان ما أخذ البربر بسياسة الحجاج في ظلم موالى السواد في العراق والتفريق بينهم وبين العرب في الخراج، مما يتعارض تعارضا شديدا مع تعاليم الإسلام في رفع الفروق بين المسلمين عربا وموالى، وكأنما عمى يزيد ابن أبي مسلم عن رؤية الفروق الواضحة بين الموالى الفلاحين في سواد دجلة والفرات من جهة والبربر من جهة ثانية، فإن البربر قبل ولايته كانوا قد أصبحوا مع العرب رفقاء سلاح وجهاد، وأتوا معهم فتح بقية البلاد المغربية وإيبيريا، مما جعل البربر - حين طفق الكيل - يجمعون على قتل يزيد بن أبي مسلم الباغى وقتلوه سنة ١٠٣هـ/٧٢١م وتولى بعده بشر بن صفوان الكلبي، ويُذكر له أنه غزا صقلية سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م وأصاب منها غنائم وافرة، وولى بعده هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السلمي وأساء السيرة، فعزله ولّاها سنة ١١٤م سفيها كبيرا هو عبيد الله بن الحبحاب، ويُذكر له أنه جدد جامع الزيتونة وعنى بدار الصناعة وغزا أسطوله صقلية، غير أنه كان باغيا طاغيا هو وعماله، فتصفوا في جمع الخراج وجباية الأموال من البربر، وبلغ من سفه

عامله على طنجة عمر بن عبيد الله المرادي أن صرح بأنه يريد تخميس أراضي البربر أي أخذ حُصنها للدولة زاعماً أنها قُيِّمَت للعرب وغنائم حرب لهم. وكان الخوارج صفرية وإباضية قد دأبوا منذ ولاية يزيد بن أبي مسلم وما أنزل بالبربر من حيف وعسف في شئون الخراج يدعون لعقيدتهم ومبادئها التي توجب التسوية بين العرب والموالي بربراً وغير بربر في الشئون المالية ومناصب الدولة حتى منصب الخلافة، فهي ليست حقاً لقرش وحدها دون العرب وبقية المسلمين بل هي حق لأَكفأ المسلمين جميعاً عرباً وغير عرب حتى لو كان عبدا حبشياً، ووجد الخوارج في بلاد المغرب تقبلاً شديداً لمبادئهم بسبب سياسة ولاية بني أمية الغاشمين في القرن الثاني الهجري، إذ رأى البربر - أو كثير منهم - فيها ما يخلصهم من ظلم الأمويين وعسف ولائهم. وأخذ جبل نفوسة في ليبيا يصفى للدعوة الإباضية، وهي دعوة معتدلة إذ تدعو لإمام يحقق العدالة والمساواة المطلقة بين المسلمين عرباً وغير عرب، ولا تكفر المسلمين ولا تقاثلهم إلا إذا بادروها بالقتال، واستجاب - أو أخذ يستجيب - المغرب الأقصى للصفرية، وهي دعوة متطرفة إذ تكفر المسلمين وتعد دارهم دار حرب، وتزعم دعوتهم بالقرب من طنجة بربري من قبيلة مضفرة البُتْريَّة هو ميسرة، وبإيعاز البربر وكوّن منهم جيشاً احتلّ به طنجة، وفكك بعاملها الغُشوم عمر بن عبيد الله المرادي، وهُزم ميسرة في بعض الوقائع، فولت الصفرية عليها خالد بن حميد الزناتي سنة ١٢٣ ولحقه جيش لابن المحجّاب في الجزائر على نهر شلف، وهزمه خالد في معركة عنيفة، سميت معركة الأشراف لكثرة من قتل بها من أشراف العرب. وعزل هشام بن عبد الملك واليه ابن المحجّاب سنة ١٢٤هـ/٧٤١م وولى على إفريقية كلثوم بن عياض القشيري يعاونه ابن أخيه بلج بن بشر، وملتقيان بخالد بن حميد والصفرية جنوبي طنجة وهزمان ويقتل كلثوم، ويضطر بلج إلى العبور إلى الأندلس ببقية الجيش. ويولى هشام على إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي، ويقدم إلى القيروان، وسرعان ما يستنفر الصُفْريَّةَ لحربه قائدان صغريان: عربي هو عكاشة بن محصن وبربري هو عبد الواحد بن يزيد الهواري، وكانا قد اجتمعا في الزاب بالجزائر، واتفقا على أن يسير عكاشة مع جيشه في السهول شمالي جهال الأوراس ليهاجم القيروان من الجنوب ويسير عبد الواحد من ناحية قسنطينة ليهاجم القيروان من الشمال، وعرف حنظلة خطتهما، فأسرع بلقاء عكاشة وهزمه هزيمة ساحقة، وتقدم عبد الواحد إلى القيروان، فاستثار حنظلة فقهاها، فخرجوا مع جيشه لمنازلته، وخرج معهم نساء القيروان حاملات للسلح مستبسلات للموت مع الجيش، فامتأ الرجال حمية ودارت الدوائر على عبد الواحد وجيشه من الصفرية، وحُبل رأسه إلى حنظلة فخرّقه ساجداً.

وقُتِل الوليد بن يزيد الخليفة الأموي سنة ١٢٦ فطمع عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع في الاستيلاء على ولاية إفريقية وأعلن الثورة سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م ففكر حنظلة

في حربه، وكان تقيا ورعا، فكره أن يتقاتل المسلمون، وترك القيروان عائداً إلى المشرق. وصارت الخلافة إلى مروان بن محمد سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م فأقر ولاية عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية درةً للانقسامات والفتن بها، ولأنه أعلم بشئونها إذ هي داره ودار جده عقبة بن نافع. ولم تلبث الإباضية أن ثارت بطرابلس سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م بإمامة عبد الله بن مسعود التجيبي فأرسل إليه عبدالرحمن أخاه إلياس، ففرض على ثورته، وباع الإباضية بعده الحارث بن تليد بالإمامة، واتخذ وزيراً له عبد الجبار بن قيس المرادي، ونازلاً بجيوش عبد الرحمن مرارا، واغتيل سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م وبذلك انتهت ثورتها. وفي نفس السنة قضى العباسيون على الدولة الأموية، فأقروا عبدالرحمن بن حبيب في ولايته على القيروان وإفريقية، وسمع بتجمع للصُفْرية في تلمسان سنة ١٣٥هـ/٧٥٢م ففاجأهم وهزمهم. وأرسل حملة إلى صقلية وعادت بهنائهم كثيرة، ومن أهم أعماله استيلائه على جزيرة قَوْصَرَة التي تبعد عن تونس نحو ثلاثين ميلاً، واستمرت تابعة للقيروان وإفريقية حتى تنازل عنها أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية لفردريك الثاني ملك صقلية سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م. وتآمر على عبد الرحمن أخواه إلياس وعبد الوارث وقتلاه سنة ١٣٧هـ/٧٥٤م وتولى إلياس وقتله حبيب بن عبد الرحمن، وتولى مكانه، وفي سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م ثارت عليه قبيلة وَرْغُجُومة النفاوذة الصُفْرية واستولت على القيروان منه واستباحتها، واشتبك معها حبيب سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م وقتلته، وظلت في القيروان تستحلّ المحارم وترتكب العظائم، فاستمض لأهلها أبو الخطاب عبد الأعلى بن السُّنَّح. إمام الإباضية في طرابلس وجبل نفوسة، فخلص القيروان منهم سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وولى عليها عبد الرحمن بن رستم الإباضي، وأرسل المنصور العباسي محمد بن الأشعث وإلى مصر بجيش جرار إلى إفريقية، فنازل أبا الخطاب في معركة حامية الوطيس قتل فيها، ففرّ وأليه على القيروان عبد الرحمن بن رستم إلى الزاب في الجزائر وأسس للإباضية دولة في تيهرت استمرت حتى سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م وتولى الأغلب بن سالم التميمي على إفريقية سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م وقتل سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م في بعض حروبه، وخلفه عمر بن حفص المهلبى، وكان بطلا مغوارا وابتنى بالزاب مدينة طُبنة، وثار عليه إباضية طرابلس بزعامة أبي حاتم وحاصروا القيروان، وخرج إليهم وقتل سنة ١٥٤هـ/٧٧٠م.

وولى القيروان وإفريقية بعد ابن حفص المهلبى ابن عمه يزيد بن حاتم، وفيه يقول مؤرخ القيروان الرقيق: «كان كثير الشبه بجده المهلب في حروبه ودهائه وكرمه وسخائه، وقلم أظفار الصُفْرية في الزاب، وانسحبت فلولهم إلى ديار زناتة في الصحراء. كما قَلَمَ أظفار الإباضية في طرابلس وجبل نفوسة وقتك بأبي حاتم الإباضي وصحبه هناك وبذلك ظلت لأهل السنة المنزلة العليا في القيروان وجميع بلاد المغرب. وقد ضبط أمور الدولة بمنتهى الحزم، ومن أعماله تجديده بناء جامع القيروان سنة ١٥٧هـ/٧٧٣م وترتيبه للأسواق فيها، إذ أفرد لكل صناعة وتجارة

مكانا معينا. وكان أدبيا حفيا بالشعراء يميز لهم العطاء. وشدوا إليه الرحال من المشرق، وبذلك أحدث في القيروان حركة أدبية، وكان يعقد لها الندوات في دار الإمارة. وما يروى من سيرته الزكية أنه رأى يوما بإحدى ضواحي القيروان غنا كثيرا فسأل عن صاحبه ف قيل له إنه لابنه، فطلبه وعنفه على مزاحمته الرعية في صور التكسب وأمر بذبحها وتوزيعها على الناس. وظل واليا على إفريقية سبعة عشر عاما حتى توفي سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م وولى بعده أخوه روح بن حاتم سنة ١٧١هـ/ ٧٨٧م وكان عالى الهمة عادلا حسن السيرة، وفي أيامه ظهرت دولة الأدارسة بالمغرب وبويع إمامها الأول إدريس الحسنى سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م وأسسوا مدينة فاس واتخذوها عاصمة لهم، وتوفي روح سنة ١٧٤هـ/ ٧٩٠م ودفن مع أخيه في قبر واحد. وتولاها بعده نصر بن حبيب المهلبى وكان حسن السيرة، وعزله الرشيد وولى عليها الفضل بن روح، واضطربت عليه الأمور، فولى الرشيد عليها سنة ١٧٩هـ/ ٧٩٥م هرثمة بن أعين وكان من كبار قواده وكان حسن السياسة والإدارة، وابتنى رباط المنستير بين سوسة والمهديّة لحماية الساحل من غارات نصارى البحر المتوسط، وظلت الأبنية تتسع حوله حتى أصبح مدينة كبيرة في القرن السادس الهجرى. ولم يلبث هرثمة أن أثر العودة إلى المشرق سنة ١٨١هـ/ ٧٩٧م، وولى عليها الرشيد محمد بن مقاتل العكوى ولم يمدد سيرته فزله.

(ج) الدولة الأغلبية

كان إبراهيم بن الأغلب التميمى قد ولاه هرثمة على الزاب، فضبطه بحزمه، وأعجب به هرثمة لقوة شخصيته، واستشار الرشيد هرثمة في وال كفه يوليه إفريقية، فأشار عليه بإبراهيم وامتدحه له، وكانت إفريقية تكلف الدولة العباسية نفقات باهظة بما ترسل إليها من الجيوش، وكان والى مصر يرسل إلى واليها سنويا مائة ألف دينار، وكان إبراهيم يتطلع لحكم إفريقية - مثل أبيه - وكان الرشيد يأمل في وال يرعيه من نفقاتها الباهظة، ولم يجد بأسا من كثرة ثناء هرثمة على إبراهيم بن الأغلب في أن يوليه عليها وسر إبراهيم، وقال له إننى لن أحتاج إلى ما ترسله مصر لإفريقية من أموال، وأتعهد أن أرسل سنويا إلى بيت المال ببغداد أربعين ألف دينار، وكأنه وقر للدولة أو تعهد أن يوفر لها مائة وأربعين ألف دينار سنويا، سوى ما كانت تكلفها الجيوش من أموال ونفقات ضخمة. وكان قد درس في شبابه بمصر وحضر حلقات فقهها: الليث بن سعد، مما أتاح له أن يكون فقيها مثل أستاذه، وكان الليث يعجب بتلميذه، مما جعله يهبه جارية، هى جلاجل زوجته وأم ابنه زيادة الله، وكان شاعرا خطيبا. واقتنع به الرشيد فكتب له العهد بولاية إفريقية سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م وجعلها لعقبه يتوارثونها من بعده. ومن حينئذ بدأت شخصية إفريقية - وخاصة إفريقية التونسية - في الظهور، فقد أصبحت بها دولة مستقلة وإن ظلت تدن بالولاء اسميا للعباسيين، وأخذت تعمل جاهدة على

النهوض بالبلاد نهضة حضارية قوية. وقد ساس إبراهيم إفريقية سياسة رشيدة، وصمم على أن تكون له قوة عسكرية تحميه هو وأسرته ممن كانوا لا يزالون بالقيروان من الحراسانيين وغيرهم من الجند، وكوئنها من ثلاثة عناصر: البربر المستعربة والصقالبة الذين كان يجلبهم تجار الرقيق وزنوج السودان الذين كانت تجلبهم القوافل. وابتنى له ولأهل بيته ضاحية على بعد نحو أربعة كيلو مترات من القيروان، سماها «العباسية» ونقل إليها معسكرات جنده وخزائن السلاح والأموال كما نقل إليها حواشيه واتخذها دار إمارته. وظل يدير دفة هذه الدولة إدارة حازمة ويؤسس بنيانها الشامخ طوال اثني عشر عاما إلى أن توفي سنة ١٩٦هـ/٨١١م ويخلفه ابنه أبو العباس عبداً له، ولم يكن سيوسا ويتوفى سنة ٢٠١هـ/٨١٦م فيخلفه أخوه زيادة الله، وكان من أعلم أهل بيته فصيح اللسان بصيرا بشئون الإدارة والحكم، فثبت سلطان أسرته، وتقلب دائماً على خصومه، وشجع العلم والعلماء. ومروا أن ولاية إفريقية حاولوا غزو صقلية مراراً، وكان زيادة الله عظيم الهمة، فأخذ يعد العدة لفتحها، بادئا ببناء سور حصين حول نجر سوسة، وبني بجوارها رباطاً لحمايتها وحماية الساحل واتخذها مرساة لأسطوله، وبني له فيها دار صناعة كبيرة، وأخذ يكثر من قطعه وسقته، حتى أصبح أقوى أسطول حربي في البحر المتوسط. ويغزو به سردينيا سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م ويعود محملاً بالفنائم. ويرسل إلى صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م جيشاً بقيادة الفقيه أسد بن الفرات قاضي القيروان لفتحها، ونزل الجيش بمدينة مازر، والتقى بجموع الصقليين وهزمهم، وأخذ يستولى على حصون ومدن متعددة، وفي حصار سرقوسة شرقي صقلية توفي القائد العظيم أسد بن الفرات، ومضى الجيش في فتوحه. وهو حدث من أعظم الأحداث في تاريخ الأمة العربية، ولزيادة الله وقائده ابن الفرات مجده وشرفه. ويدل أكبر الدلالة على قوة هذا الأسطول الأغلب الفاتح لصقلية أن نجد أهل مدينة نابولي في إيطاليا يستنجدون بزيادة الله ضد أعدائهم المجاورين لهم من الفرنج سنة ٢٢٢هـ/٨٣٦م وينجدهم الأسطول وتظل نابولي بأيدي جنوده وبهارته زمناً غير قليل. وجدد زيادة الله بناء جامع عقبة في القيروان ولبي نداء ربه سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م وخلفه أخوه الأغلب، وفي عهده فتح الجيش أكثر ما بقي من صقلية سنة ٢٢٤هـ/٨٣٨م وتمكن الأسطول من الاستيلاء على مدينة باري شرقي إيطاليا سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م واتخذها قاعدة حربية ومرساة لسفنه في البحر الإديرياتي، ويتوفى سنة ٢٢٦هـ/٨٤٠م ويتولى مقاليد الحكم أخوه أبو العباس محمد، وفي أيامه أغارت بفترة سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م بعض سفن إيطالية على شواطئ الساحل ونهبت بعض أقوات السكان وأسرت عدداً منهم، ساقنهم إلى إيطاليا عبيداً أرقاء وباعنهم في الأسواق، وغضب الأمير الأغلب محمد حمية لمواطنيه، فأمر الأسطول بخروج قطع منه لغزو إيطاليا وأرست عند مصب نهر تيبير المنحدر من جهة روما، وانتشر جنودها في ضواحي روما واقتحموها عنوة واستولوا على بعض ما في كنيسها الكبرى من تحف، وظلوا يترددون عليها

وعلى أنحائها نحواً من شهرين، وعادوا دون أن يصاب أحد منهم بأذى، ويتوفى الأمير محمد سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م ويتولى ابن أخيه أحمد وفي أيامه استولى المسلمون في صقلية على مدينة قصر يانعة المنيرة سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م وأعاد بناء جامع تونس وزينه بقباب ونقوش وأعمدة رخام بدعته كما زين جامع عقبة في القيروان بقبة خارجة عن البهو ومحراب رخام مزودين بالنقوش، وبني الماجل (الصهريج) الكبير بالقيروان وماجل سوسة، وتوفى سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م وخلفه ابنه زيادة الله الثاني، ودار العام، فتوفى، وتولى بعده ابن أخيه أبو الفرائيق سنة ٢٥١هـ/٨٦٥م وفي عهده فتح الأسطول سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م جزيرة مالطة وظلت تابعة للقيروان نحو قرنين ونصف حتى استولى عليها روجار الأول ملك صقلية سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ويتوفى أبو الفرائيق سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م وخلفه أخوه إبراهيم وفي أيامه فتحت سرقوسة آخر معاقل الروم في صقلية سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م. وفي نفس السنة بنى مدينة رقادة على بعد ثمانية أميال جنوب القيروان، ونقل إليها أهل بيته ودار إمارته ورجال دولته وجنده، وبعد عهده من أزمى المهود علما وحضارة في الدولة الأغلبية إذ بنى في عاصمته: رقادة بيت حكمة كبيت هرون الرشيد والمأمون في بغداد، وجلب إليه طائفة بارعة من العلماء أطباء ورياضيين وفلكيين وموسيقين وألحق به مكتبة ضخمة، فتح أبوابها للطلاب والقصاص. وبعث بذلك في إفريقية التونسية نهضة علمية وثقافية واسعة. وأنشأ إبراهيم محارس ورباطات كثيرة على الساحل واستحدث فيها نظام إشارات بالأضواء ترسل تواتر من رباط إلى رباط عند حدوث أى هجوم، بحيث إذا حدثت أى غارة بحرية للأعداء في أى بقعة على الساحل علمت بذلك في الحال جميع الرباطات والمحارس. وأصيب في أواخر ولايته بمرض السوداء، مما جعله يسفك دم كثيرين من أقاربه، وعلمت بذلك الدولة العباسية فأرسلت إليه سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م أن يعفى نفسه من الحكم ويتنازل عنه لابنه عبد الله. وصدع لهذا الأمر، وسلم صولجان الحكم لابنه، وكأنما أراد أن يكفر عما صنع من سفك الدماء فرأى أن يمضى بقية حياته في الجهاد، وأعد أسطوله إعداداً كبيراً لغزو إيطاليا في نفس السنة، وعبر به مضيق مسينا قاصداً قُلُوبِيَّةَ وأرض إيطاليا الجنوبية، واستولى على عدد من الحصون الإيطالية في الجنوب غير أن الموت باغته، فعاد به الأسطول إلى بالرم في صقلية ودُفن بها، ونقل ابنه عبد الله رفاته إلى القيروان. وكان عيادته على جانب كبير من التقوى والصلاح وكتب إلى عماله بالرفق في معاملة الرعية، وتوفى سريماً سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م. وخلفه ابنه أبو مضر زيادة الله، وكان أبو عبد الله الصنعاني داعية عبيد الله الفاطمي قد نشر دعوته الإسماعيلية الفاطمية في كتامة بالجزائر، ودخل في دعوته كثيرون، فكُون منهم جيشاً قضى به على دولة تيهرت الإباحية، وتقدم بجموعه من الجزائر قاصداً القيروان ولقيه جيش أغلبي في قرية الأربس، فهزمه، وأحس أبو مضر زيادة الله الأغلبى أنه لن يستطيع الصمود لأبي عبد الله الصنعاني داعية الفاطميين، فخرج عن ملكه فاراً إلى المشرق وتردد بين مصر والشام في

انتظار نجدة من العباسيين، ووافاه الأجل بمدينة الرملة في فلسطين. وهكذا انتهت في إفريقية التونسية دولة الأغالبة التي استطاعت في نحو مائة عام أن تنهض بها نهضة حضارية ثقافية كبرى، كما استطاعت أن تكون لإفريقية وللغرب أكبر أسطول في البحر المتوسط لزمها، ومن أعمالها الجيدة فتح صقلية ومالطة وتكريتها ونشر الإسلام بها آمادا طويلة إلى أن استولى عليها النورمان.

٤

الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - الهجرة الأعرابية

(أ) الدولة^(١) العبيدية

كان أبو عبد الله الصنعاني قد تعرف على جماعة من قبيلة كُتامة الجزائرية في الحج وقدم معهم إلى ديارهم، وكان لسانا جدلا، فأعجب من اجتماعوا حوله من هذه القبيلة، ولما اطمان لهم أخذ يعلن بينهم أن آل البيت هم الأحق بإمامة المسلمين وخلافتهم، ودعا للرُضا المعصوم المستتر منهم صاحب الزمان، وأخذ المستجيبون له يتكاثرون ودخلت كُتامة في دعوته وطاعته فأخذ ينظمها تنظيمًا عسكريًا، وزحف بها - كما أسلفنا - إلى إفريقية التونسية وهزم جيش الأغالبة في الأربس، وتقدم إلى القيروان ودخلها بجنوده واستولى على دواوينها وخزائنها، وكان قد أرسل إلى عبيد الله المهدي إمامه يستقدمه من سَلْمِيَّة في سوريا مقر الدعوة الإسماعيلية. وخوفا من ولاية العباسيين اتجه به رفاقه إلى سجلماسة مركز الصفرية في المغرب الأقصى فسجنه صاحبها، وخلصه أبو عبد الله الصنعاني، وقدم به إلى القيروان سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م وسلمه مقاليد الحكم. وسمى المؤرخون دولته باسم الدولة العبيدية تمييزًا لها في إفريقية من دولة أحفاده بمصر التي لقبوها باسم الدولة الفاطمية. وباع أهل القيروان عبيد الله وتلقب بأمير المؤمنين. ويبدو أنه أحس في أبي عبد الله الصنعاني ندمه على ما أولاه من الخلافة والملك فبادر إلى سفك دمه على نحو ما صنع قديما المنصور العباسي بأبي مسلم الخراساني داعيته، وبين المؤرخين خلاف في نسب عبيد الله المهدي إلى البيت الفاطمي وهل هو علوي حقيقة أو غير علوي، وصحح نسبه

الأهار وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار وخلاصة تاريخ تونس لحسن حسي عبد الوهاب.

(١) انظر في الدولة العبيدية بتونس البيان المغرب لابن عذارى ومعالم الإيمان للدباغ وابن ناجي والقسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب وسيرة الأستاذ جوزو والحلة السراء لابن

ابن خلدون. وأخذ يصرف الأمور في الدولة، وقرب منه قبيلة صنهاجة الجزائرية وأرسل زعيمها مصالة على رأس جيش إلى المغربين الأوسط والأقصى واستطاع الاستيلاء على مدينة فاس من الأدارسة الحسينيين. وأخذ دعائه يحاولون إقناع فقهاء السنة بمبادئ الدعوة الفاطمية وعقدوا لذلك مجالس تجرّد لهم فيها كبار الفقهاء في القيروان وناظرهم مناظرات حامية مبيّنين ما في الدعوة العبيدية الإسماعيلية من مبادئ تخالف الإسلام من مثل تقدّيس الخليفة العبيدي وأدّعاء أنه الصورة المجسّدة لله في الأرض وأنه معصوم وأنه يعلم الغيب إلى غير ذلك مما كان يزعمه دعاة عبيد الله المهدي، وشعر أن القيروان ليست - بفقهاؤها وشيوخها - دار أمن له ولأمرته، فرأى أن يختار موطناً على الساحل لمدينة جديدة له، واختار رأساً بارزاً بين سوسة وصفاقس، وأخذ منذ سنة ٣٠٣ يؤسسها، وتم له تأسيسها سنة ٣٠٨ هـ/٩٢٠م وسماها المهديّة نسبة إليه ونقل إليها آلُه وجنّده ودواوينه وأمواله واتخذها مقر حكمه. وكانت قد عصت عليه صقلية فردّها إلى طاعته وولّى عليها أحد عماله، كما كانت قد عصت عليه طرابلس وشبت بها ثورة إباحية، فردّها ابنه وولّى عهده القائم إلى الطاعة وأغرمها ثلاثمائة ألف دينار، ومضى القائم في حملة إلى الإسكندرية والفيوم وعاد دون طائل، وفي سنة ٣١٥ خرج القائم إلى المغرب الأوسط وبنى مدينة المحمدية (المسيلة). وتوفي عبيد الله المهدي سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٣م وخلفه ابنه القائم، واهتم - مثل أبيه - بالأسطول وبعث على بعض قطعه وسفنه يعقوب بن إسحق فغزا جنوة وكركس وكرسيكا وسردانيه، وعاد بفنائمه وافرة، وثار عليه سنة ٣٢٦ هـ/٩٣٣م أبو يزيد مخلد بن كهداد الزناتي من الصُفريّة النُكاريّة الذين يستحلون سفك الدماء، وتبعه خلق كثير، وفي سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٤م زحف إلى إفريقية التونسية، واستولى على تبة والأربس وباجة وتونس ورُقادة بجوار القيروان وعلى القيروان نفسها وحاصر المهديّة واستولى على سوسة، وتوفي القائم في أثناء ذلك سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥م وخلفه ابنه المنصور واستنجد بقبيلة صنهاجة، فجاءته وفكت عن المهديّة الحصار، وأرسل أسطوله إلى سوسة ونصرها ضدّ أبي يزيد واستبيح معسكره نهباً وإحراقاً واتجه إلى القيروان فمنعه أهلها من دخولها وظل المنصور يتعقبه، وظفر به في أرض كتامة بالجزائر في أول سنة ٣٣٦ هـ/٩٤٧م. وأنشأ المنصور - انتهاجاً بانتصاره عليه - مدينة بالقرب من القيروان سنة ٣٣٧ هـ/٩٤٨م سمّاها «المنصورية». وولّى على صقلية ابن أبي الحسين الكلبي، وظلت إمارتها لمعقة حقبة طويلة. وتوفي سنة ٣٤٦ هـ/٩٥٢م وخلفه ابنه المعز، وفي سنتي ٣٤٧ و ٣٤٨ دُوخ قائده جوهر الصقلّي البلاد المغربية إلى المحيط، ودان له المغرب الأوسط (الجزائر) والأقصى. وبلغ المعز اضطراب أحوال مصر بعد موت كافور الإخشيدي ولانشغال بغداد عنها بما كان بها من الفتن، فأرسل إليها قائده جوهر الصقلّي في جيش جرار سنة ٣٥٨ هـ/٩٦٨م فدخلها حتى القسطاط دون مقاومة تذكر، وخطب جوهر في الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص بالقسطاط باسم المعز، وأقام بمصر الدعوة الفاطمية وأخذ في بناء

القاهرة، واستولى عسكره على الرملة وبعض بلدان الشام . وأرسل إلى المعز يحثه على القدوم إلى مصر فعزم المعز على المسير إليها، ورتب شئون الدولة في إفريقية، ورحل في موكب ضخم في شوال سنة ٣٦١هـ/٩٧١م ونزل القاهرة التي بناها له جوهر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م وظلت مقر خلافته وخلافة الفاطميين من بعده إلى نهاية دولته، وكان محظوظا إذ أظلت خلافته البلاد العربية من الشام إلى السوس الأقصى.

(ب) الدولة الصنهاجية^(١)

لما عزم المعز على الرحيل إلى مصر ونقل خلافتهم إليها فكر فيمن يؤيّه على إفريقية، وكانت قبيلة صنهاجة البربرية قد أيدت دعوتهم بزعامة شيخها زيري في حرب الثائر الصّغرى محمد بن كيداد، وكان لزيري اليد الكبرى في هزيمة محمد وإنقاذ المهديّة والقيروان منه وكافأه الخليفة المنصور على ذلك بتوليته على المنطقة الغربية في الجزائر، وفيها أسس مدينة أشير ودفع ابنه بلكين إلى تأسيس ثلاث مدن: الجزائر ومليانة جنوبي شرشال والمدينة إلى الجنوب منها، وكان بلكين ذا بأس وحزم وشجاعة ونجدة مع إخلاصه للعقيدة العبيدية وتفانيه في نصرتها، فرأى المعز أن يُنبئ عنه في إفريقية، وأنزله القيروان وكناه أبا الفتوح يوسف، ولم يجعل له ولاية على طرابلس وصقلية، وكان حريا أن يضيف إليه صقلية خاصة لأنها بعيدة عن مصر ولن يستطيع نجدتها سريعا لا هو ولا عقبه، وأيضا فإنها تُعدّ امتدادا لإفريقية التونسية في البحر المتوسط وهي التي فتحتها وأدخلت بها سكانها والإسلام وحضارته فكان ينبغي أن يتركها لبلكين. وكان بلكين نقيب البصرة، فأخذ يعمل على إقامة دولة بربرية إسلامية في الديار المغربية، وهي أول مرة في التاريخ الإسلامي يتاح لبربري من صميم أهل المغرب تأسيس دولة مغربية إسلامية، وكان الأمويون في الأندلس يثيرون أهل فاس والمغرب الأقصى على العبيديين وواليهم بلكين، فقاد جيشا سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م لتأديب الخارجين على الدولة هناك، ودخل فاسا كما دخل أصيلا على المحيط الأطلسي. وتوفي سنة ٣٧٤هـ/٩٨٤م وخلفه في ولايته ابنه المنصور ونشبت حروب بينه وبين أعمامه، وانهمزوا ولاحق بعضهم بالأندلس واتفق لهم - في عهد الطوائف - أن أسسوا لهم مملكة بفرنطة، واشتبك في حروب طويلة مع قبيلة زناتة، وأنهكتهم الحروب معها ومع أعمامه، فرأى أن ينسحب جنوده من المغرب الأقصى حتى يضع نهاية للحروب المستمرة مع زناتة، وقصر إمارته على إفريقية التونسية والجزء الشرقي من الجزائر حتى

وابن خلدون ومعالم الإيمان في معرفة أهل القيروان
للدباغ وابن ناجي.

(١) راجع في تاريخ الدولة الصنهاجية البيان
المغرب لابن عذارى والقسم الثالث من كتاب
أعمال الاعلام لابن الخطيب وتاريخ ابن الأثير

الزاب ووادي نهر شلف، وكانت جاءت هدية ثمينة من الخليفة الفاطمي بها قبيلة وزرافات تبارى الشعراء القيروانيون في وصفها، وتوفي سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م وخلفه ابنه باديس أبو مناد، ولما جاء تقليد الخليفة الفاطمي له أمور إفريقية سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م أقام بالمهدية موكبا استعرض فيه الجنود وسفن الأسطول وقذف القاطون بالنار، ولعبت بين يديه القبيلة والزرافات وإبل شديدة البياض. واستقرت له الأمور في إفريقية التونسية، ونارت عليه قبيلة زناتة في المغرب الأوسط (الجزائر) سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م فسير إليها جيشا جرارا وجعل عمه حمادا قائده، وله ملك ما يفتحه، وانتصر عليهم، وعاد إلى قسنطينة، وأسس لنفسه قلعة حصينة نسبت إليه باسم قلعة بني حماد، وجعلها قاعدة لحكمه ومركزا لجيشه، ويبدو أن باديس ندم على ما تعهد به لعمه أن يمتلك ما يفتحه، فطلب إليه التنازل عنه، وأبى حماد، ونشبت بينها حروب كادت ترجع فيها كفة باديس، غير أن الموت عاجله - وهو يوشك على النصر - في المحمدية بالجزائر سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م.

وتولى المعز بعد أبيه باديس وكان في الثامنة من عمره فقام بشئون الدولة كبار رجالها وأعمامه ماعدا حمادا فإنه ظل مصمما على الاستقلال بقلعته عن القيروان وابن أخيه المعز، واستولى على بعض مدن في الزاب، ونازله جيش للمعز سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م وهزمه فتقدم يطلب الصلح مع المعز حقنا للدماء على أن يظل مواليا له مع تمتعه بالاستقلال في قلعته ومنطقته. وانقسمت بذلك دولة صنهاجة إلى إمارة شرقية عاصمتها القيروان وإمارة غربية عاصمتها قلعة بني حماد، وبلغ المعز سن الرشد وكان يحسن تدبير الحكم فبني ذكره وعلت شهرته وهادته الملوك على تنائي الديار، إذ جاءت هدية من السودان تحمل إليه عبدا وزرافات وأسودا، وجاءته هدية من قيصر القسطنطينية، وجاءه تقليد من الخليفة الفاطمي بلقب شرف الدولة. وكان الشعب حائقا على العقيدة البهيدية لمبادئها المنحرفة عن روح الإسلام، وأخذت تنشب في القيروان ثورات على أتباع تلك العقيدة، فتابع المعز شعبه، وخلع طاعة الفاطميين في القاهرة، وحمل جميع رعيته على مذهب الإمام مالك الذي ارتضته المغرب وفقهاؤها منذ القرن الثاني الهجري، حتى إذا وافقت سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٧م كشف القناع عن وجهه وأمر بقطع اسم خلفاء القاهرة الفاطميين من خطب الجمعة وذكر اسم الخليفة العباسي في بغداد، وبذلك تطهر المغرب على يده من المذهب الشيعي الاسماعيلي الفاطمي. وحين جاءت هذه الأنباء الخليفة الفاطمي امتلا غيظا وموجدة، ففرض عليه أحد وزرائه المسمى باسم البازوري أن يتخلص من جموع نجدية بدوية نزلت بشرقي النيل في الصعيد وأخذت تعيث فيه فسادا بدفعها إلى المغرب لضرب المعز بن باديس والقضاء على سلطانه ونفوذه، ولقى هذا العرض استحسانا من المستنصر، وأقبلت جموع هؤلاء الأعراب - وكانت تقدر بمئات الألوف - على ليبيا وإفريقية التونسية ووافقت المعز، وهزمت، واضطرت إلى إخلاء القيروان والانتقال إلى المهديّة - وكان عاملها ابنه تميم - فانتقل

بأهله وحاشيته إلى تلك المدينة، وظل بها إلى وفاته سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م ودفن برباط المستير مع آبائه، وقد بلغت القيروان وإفريقية التونسية في عهده كل ما كان يأمله أهلها من تقدم في المدينة والحضارة والعلوم، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة، كما ازدهرت النهضة الأدبية وتكاثر الشعراء كثرة مفرطة مما سنعرض له في غير هذا الموضع. واستخلف على الدولة بعده ابنه تقياً وانكمشت الدولة إذ لم يعد يتبع تقياً منها إلا جزء من ساحل البحر المتوسط بين سوسة وقابس، وكان عالماً وشاعراً ومثالاً للحاكم العربي الصلب وفي عهده أغار أسطول جنوى من ثلاثمائة سفينة على المهديّة سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م ولم يلبث أن انصرف لشدة مقاومته وأغارت بعده ثلاث وعشرون سفينة إيطالية فهزم بحارتها وقتل كثيرين منهم وعادوا مدحورين إلى البحر المتوسط وما وراءه. وفي أيامه استولى النورمان سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م على جزيرة صقلية وفي السنة التالية على جزيرة مالطة، ولم يكن يشاغب تقياً أساطيل الغرب وقراصنته فحسب، فقد كان يشاغبه الأعراب المهاجرون إلى إفريقية التونسية، وظل صامداً على الرغم من قلة جنده وقلة موارده إلى أن توفي سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م. وخلفه ابنه يحيى، وكان محبوباً من الرعية، وأنشأ أسطولاً كبيراً غزا به جنوة وسردانية وعاد بأموال وغانم وافرة وتوفي سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م وولى بعده ابنه علي وقد أنشأ في عاصمته مدرسة للكيمياء عهد بها إلى الكيميائي الأندلسي أمية بن أبي الصلت ونايزه أحمد بن خراسان أمير تونس، فأرسل إليه جيشاً اضطره إلى إعلان الطاعة، وتوفي سنة ٥١٥هـ/١١٢١م وخلفه ابنه الحسن في الثانية عشرة من عمره، وفي أوائل عهده سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م هاجم أسطول نورمانى المهديّة، ولقيهم جنود الحسن وأزّلوا بهم مقتلة عظيمة، وعادوا خاسئين مدحورين. وأعد رجار الثانى أسطولاً ضخماً مكوناً من ثلاثمائة سفينة وهجم به على المهديّة، ورأى الحسن أن لا طاقة لجنده القليلين بلقائه فانسحب سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م من المهديّة حقناً للدماء واستغاث بعبد المؤمن بن علي أمير دولة الموحدين بالمغرب الأقصى وكان النورمان قد احتلوا المهديّة فخلصها منهم سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م وولى عليها الحسن بن علي الصنهاجى وأشرك معه عاملاً من الموحدين، وبذلك انتهت الدولة الصنهاجية من إفريقية التونسية بعد ما أدى حكامها الأولون والأخرون من أعمال ومآثر جليلة.

(جم) الهجرة^(١) الأعرابية

أعلن المعز بن باديس استقلاله بالقطر التونسي عن الدولة الفاطمية بمصر، وأسقط اسم الخليفة الفاطمي المستنصر من خطب الجمعة، وأمر الخطباء أن يذكروا الخليفة العباسي القائم

(١) خير مصدر قُطِل القول في هذه الهجرة ابن خلدون في الجزء السادس من تاريخه (طبعة بولاق).

بأمر اقه على المنابر، وجاءه منه تقليد يعترف له فيه بالاستقلال، وعلم بذلك كله المستنصر الفاطمي فاستشار وزراءه ماذا يصنع، وتقدم منه وزيره اليازوري. ذاكرا له أن خير تأديب للمعز يردعه أن نطلق عليه الأعراب البدو من قبائل سليم وهلال وزغبة ورياح الذين نزلوا في قفار الصعيد بين النيل وزروعه والبحر الأحمر، والذين يشكو الفلاحون المصريون من غاراتهم، فتكون قد تخلصنا منهم، وانتقمنا بهم من المعز وصنيعه. واستصوب المستنصر رأيه ومشورته، فاستدعى شيوخ هذه القبائل وعرض عليهم الهجرة إلى بلاد المغرب، ووعدهم أن يوليهم أعمالها، ومنح الشيوخ أعطيات كبيرة، ومنح كل أعرابي من عامتهم بعيرا ودينارا، وقال لهم المستنصر: «قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي» وكانوا يعدون بثبات الألوف، فانصبوا على المغرب كسيل جارف، وبدأوا بأرض برقة وطرابلس فاستولوا عليها، وتقدموا فاحتلوا مدينة قابس، وحاول المعز بن باديس إيقاف هذا الطوفان المنهمر على بلاده، فالتقى بجموعهم في موضع يسمى «حيدران» بين قابس وصفاقس ولكنه هزم وانسحب مع قلول جنده إلى القيروان. ورأى خطأ أن يستقدم بعض شيوخهم إلى القيروان ويزوجهم من كرياتته، زُلفى لهم وقرى، ونصحه ابنه تميم أن لا يستدعيهم، ولم يستمع لنصيحته، وجاءوه وانتهت جماعاتهم القيروان، واضطر إلى الانسحاب والالتجاء إلى المهديّة لحصانة قلاعها وأسوارها وكان قد ولى تميا عليها، فاتخذها قاعدة لما بقي من ملكة منذ سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م. ولم يقض هؤلاء الأعراب المهاجرون على دولة المعز بن باديس وسلطانه فحسب، بل لقد قضا على كثير من الزروع والمنشآت وأحدثوا كثيرا من الاضطراب والغوضى، ووقفوا - إلى حين - النهضة الحضارية التي كان قد بثها الأغالية في البلاد وتمتها الدولة الصنهاجية، وليس ذلك أيضا فحسب، فقد تحولوا بإفريقية التونسية من نظام الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، بل أصبحت دولة واحدة منظمة ترعى مصالحها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، بل أصبحت دولا متفرقة أو قل وحدات صغرى من الدول، على نحو ما كان يعيش هؤلاء البدو في قبائلهم من انقسامها إلى عشائر، وكما أن لكل عشيرة شيخها وحياتها المستقلة، كذلك أصبحت إفريقية التونسية إفريقيات وتحولت مدنها إقطاعيات وإمارات لنحو مائة عام ويلاحظ ذلك ابن خلدون قائلا: «لما تغلب العرب على إفريقية وانحل نظام الدولة الصنهاجية وارتحل المعز بن باديس من القيروان إلى المهديّة انتزى الثوار في البلاد» وكون كل ثائر في بلد دولة أو إمارة صغرى وراثية. وهكذا تأسس في البلاد - على هدى نظام العشائر المتفرقة - نظام أمراء الطوائف، ولكل أمير بلده أو إقطاعيته، وهو غالبا أمير أعرابي ورثت عنه أسرته إمارته، ونذكر من أهمهم: بنى الورد من لحم في بنزرت، وبنى جامع من بنى هلال في قابس، وبجانبهم أمراء بربريون مثل بنى الرند من مفرّوة الزناتية بقفصة وبنى مليل من برغواطة بصفاقس، ومن أهم هذه الإمارات الصغرى إمارة تونس وكانت لبني خراسان. وبدون ريب أضعف هذا التفتت إفريقية التونسية، مما جعل

النورمان- كما مرُّ بنا آنفا- يفتزون المهديّة سنة ٥١٧ ويعيدون الكرة سنة ٥٤٣ بقيادة روجار الثاني ويظلّون بها نحو اثني عشر عاما ويستولون على ساحل إفريقية التونسية الشرقي ومدنه: قابس وصفاقس والمنستير وسوسة، وينزل روجار في قصور المهديّة الشاغرة، ويتخذ فيها دواوين لحكم تلك المدن وإدارتها إلى أن خلصتها دولة الموحدين سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م. وكل ما حدث من ذلك إنما كان بسبب هجرة الأعراب الكبيرة إلى إفريقية وما نشأ عنها من تفتت قواها في عهد إماراتها أو دولها الصغرى، فإذا روجار الثاني ملك صقلية يغزوها ولا يجد على أسوارها من كانوا يحمونها ويسحقون أعداءها سحقا.

٥

دولة^(١) الموحدين - الدولة الحفصية

(أ) دولة الموحدين

أنشأ هذه الدولة ابن تومرت المصلح الديني المغربي الذي زار المشرق وتلمذ فيه على الأشعرية وغيرهم، ورجع إلى المغرب، فنظم فيه ثورة واسعة ضد دولة المرابطين المغربية وفقهائهم المالكية، وتبعه كثيرون، وسُميَ جمهورهم باسم الموحدين، وإليهم نُسبت الدولة. وبدأ منازل المرابطين سنة ٥٢٤ هـ/ ١١٢٩ م غير أنه توفي سريعا فخلفه عبد المؤمن بن علي وهو يعد المؤسس الحقيقي لتلك الدولة، وقد استطاع القضاء على دولة المرابطين وأخذ يتملك الأندلس منذ سنة ٥٤٠. وذكرنا - آنفا - أن الحسن بن علي آخر أمراء الدولة الصنهاجية استنجد به حين استولى منه روجار الثاني على المهديّة وساحل إفريقية التونسية الشرقي، وما إن علم بجلبية الأمر حتى امتلأ غيظا ولباه بجيش جرار سنة ٥٥٣ هـ/ ١١٥٨ م ومضى يفتح مدن المغرب الأوسط. الجزائر وبجاية وقسنطينة وبعض مدن إفريقية التونسية، وكان بنو خراسان يحكمون تونس ففتحها عنوة سنة ٥٥٤ هـ/ ١١٥٩ م ورافقه في هذه الرحلة أسطول كبير، وتقدم إلى المهديّة وحاصرها بهجنوده برا وبأسطوله بحرا، وطال الحصار إلى ستة أشهر، واحتلها عيد المؤمن يوم عاشوراء سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م وأقطعها الأمير الحسن بن علي الصنهاجي وأشرك في حكمها أحد الموحدين. ونقل عبد المؤمن عاصمة إفريقية التونسية منها إلى مدينة

الأعلام لابن الخطيب والاستقصا لأخبار دول
المغرب الأقصى للناصرى وعصر المرابطين
والموحدين لمحمد عبده عنان.

(١) انظر في دولة الموحدين البيان المغرب والجزء
الرابع من تاريخ ابن خلدون والمنا بالامامة لابن
صاحب الصلاة والمعجب للمراكشي وتاريخ
الدولتين الموحدة والحفصية للزركشي وأعمال

تونس، وتظل عاصمة للبلاد إلى اليوم ويقم فيها دواوين الحكم، ويطبق فيها وفي ولايتها ما اتخذته في دولته بالمغرب من التراتيب المخزنية في تنظيم المصالح الحكومية وظلت هذه التراتيب قائمة إلى نهاية حكم الدولة الحفصية، ويتوفى سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م وخلفه ابنه يوسف وتظل إفريقية التونسية هادئة لعهد حتى إذا كانت سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م ثار عليه بنو الرند في قفصة بشط الجريد فخرج إليهم وتغلب سريعا عليهم، وعاد إلى عاصمته: مراكش وتوفى سنة ٥٨٠هـ وخلفه ابنه يعقوب وكان من وزرائه الشيخ عبد الواحد جد الحفصيين، وكان تقي الدين بن أخى صلاح الدين الأيوبي فكر في الاستيلاء على ليبيا وإفريقية التونسية للاستعانة بها في حرب الصليبيين، وكلف بهذه المهمة قراقوش وابن قرانكين، واستولى الأول على مدينة قابس واستولى الثاني على مدينة قفصة، وفي هذه الأثناء فكر بنو غانية ولاية المرابطين في جزر ميورقة ومنورقة وباسية أن يثأروا لدولتهم من الموحدين، ونسل منهم إلى إفريقية التونسية على وأخوه يحيى يريدان أن يقيميا فيها دولة ويعدا جيشا للانقضاض على الموحدين. وعلم يعقوب بما يحدث في إفريقية التونسية فخرج إليها في جيش جرار سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وظل طوال طريقه يبني في سائر أعماله المارستانات للمرضى والمساجد للمصلين وانقض على قفصة وقتل ابن قرانكين كما انقض على قابس ولم يجد بها قراقوش واستولى على أمواله وأهله مما اضطره إلى إعلان طاعته، أما ابن غانية فعين علما بمقدم يعقوب انسحب إلى شط الجريد وفيه لقي على مصرعه سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م. وعاد يعقوب إلى عاصمته، وأخذ يهزم في الإعداد لموقعة الأرك التي سحق فيها سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م ملك قشتالة ألفونس الثامن ومن تجمع له من حملة الصليب الهولنديين والإنجليز، وازداد حينئذ عيث يحيى بن غانية واستولى على شط الجريد والقبروان وطرابلس وقابس وصفاقس وتونس، وتوفى يعقوب سلطان الموحدين سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م وتولى ابنه الناصر وظل يفكر في شأن يحيى ورأى أن يرسل حملة بحرية كبرى إلى أخيه عبد الله في جزائر البليار (ميورقة ومنورقة وباسية) حتى يبحث جذور جرثومة الفساد واستولى عليها أسطوله سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م وصمم بعد ذلك على قطع فروع الجرثومة في إفريقية التونسية واستتصالح يحيى بن غانية، فخرج في جيش جرار ومعه وزيره أبو محمد عبد الواحد بن يحيى بن أبي حفص سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م وأوقع يحيى هزيمة ساحقة بالقرب من مدينة قابس، واسترجع مدينة المهدية وغيرها من المدن التونسية، وعاد إلى مراكش سنة ٦٠٣هـ واستخلف أباه محمد عبد الواحد بن يحيى بن أبي حفص على تونس (إفريقية التونسية) وطرابلس، وأخذ زمام الأمور بها يتجمع ويستقر في يده ويد أبنائه، وكأنما كان حكمه لتونس وطرابلس تمهيدا قويا لقيام الدولة الحفصية، وقد نازل يحيى بن غانية في نواحي طرابلس وهزمه وفر جريحا.

(ب) الدولة^(١) الحفصية

استقام حكم عبد الواحد في تونس وطرابلس وأحبه الناس وعظموه إلى أن توفي سنة ٦١٨ هـ/١٢٢١ م وخلفه ابنه عبد الرحمن، وعزله سريعا سلطان الموحدين وولى أخاه عبداقه، فعمد لأخيه أبي زكريا يحيى بحكم قايس سنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م ولم يلبث أن غضب عليه ونهض لحربه، وخالفه بعض القواد، والتحقوا بجيش يحيى وتمت له الغلبة على أخيه، فدخل تونس سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٧ م وبابته بمجرد دخوله، وأخذ يعمل على الاستقلال بولايته وكان مما حفزه على ذلك أن أبناء سلطان الموحدين يعقوب العظيم صاحب موقعة الأرك وأبناء عمومتهم أخذوا يتصارعون على الملك والحكم وأخذت دولة الموحدين تضعف ضعفا شديدا وسرعان ما قطع أبو زكريا اسم سلطان الموحدين من خطب الجمعة وجعلها باسمه سنة ٦٢٧ هـ/١٢٢٩ م وبذلك أعلن قيام دولته الحفصية واستقلاله نهائيا عن دولة الموحدين. وفي سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م وقع مع فريدريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة - تفاديا لقارات أسطوله على ساحل تونس - معاهدة اعترف فيها بتملك فريدريك لجزيرة قوصرة (بنظلاية) بعد أن ظلت تابعة لإفريقية التونسية خمسة قرون وكان من شروط المعاهدة أن تظل الدولة الحفصية تأخذ نصف جبايتها وظل هذا الشرط ساريا طوال حياة أبي زكريا، وبمجرد وفاته انتقض هذا الشرط وأجبر المسلمون فيها وفي مالطة وصقلية على الخروج منها جميعا إلى العدو الإفريقية، ومن بقى أجبر على اعتناق النصرانية. وظل أبو زكريا يتعقب يحيى بن غانية حتى توفي في برية تلمسان سنة ٦٣١ هـ/١٢٣٣ م. وفي سنة ٦٣٤ هـ/١٢٣٦ م بايعت تونس أبا زكريا ثانية، ويقال إنه أعلن حينئذ قطع اسم سلطان الموحدين من خطب الجمعة أو خليفتهم وذكر اسمه فيها. وكان بدء قيام الدولة الحفصية إنما كان في سنة ٦٣٤ هـ والرأى الأول أكثر سدادا.

وتعاطمت حملات نصارى الإسبان ضد عرب الأندلس وأخذت مدنها الكبرى تسقط في

وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسني
عبدالوهاب وكتابه وقات عن الحضارة العربية
وتاريخ إفريقية في العهد الحفصي لروبارت تشفيك
وراجع فيه خاصة علاقات حكام الدولة الحفصية مع
أسراء وحكام صقلية وموافقه إيطاليا وفرنسا
واسبانيا.

(١) انظر في الدولة الحفصية البيان المغرب لابن
عذارى وتاريخ ابن خلدون ومعالم الإيمان للدباغ
وابن ناجي والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن
أبي دينار ورحلة التجاني ورحلة المهدري والفارسية
في مبادئ الدولة الحفصية لابن قنفذ والحلل
السندية في الأخبار التونسية للوزير السراج

حجورهم فأرسل إليه زيان بن مردنيش صاحب بلنسية سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م وفدا يستنجده لنصرته ضد أعداء الاسلام، كان فيه أبو عبد الله بن الأبار، وأنشده قصيدة فريدة منها قوله:

أدرك بخيلك خَبَلَ اللَّهِ أَنْدَلَسَا إِنْ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسَا

ولبَّاهم بأسطول محمَّل بالأغذية والأسلحة، ووقعت في أيدي النصارى. وقد ابتقى جامع القصبة في تونس وصومعته ونقش عليها اسمه، وحين تَمَّتْ أُنْشِئَ فيها بنفسه، وأنشأ في قصره داراً للكتب جمع فيها ستة وثلاثين ألف مجلد في مختلف العلوم والآداب. وكان عادلا حسن السيرة كما كان فقيها وشاعرا أديبا، وكان يأخذ نفسه بالتقشف والزهد في متاع الحياة، وجمع للدولة بعهده وسياسته الرشيدة أموالا طائلة، وأخذت تونس (إفريقية التونسية) تستعيد مجدها وشخصيتها القوية أيام الأغالية والصنهاجيين، ونفقت سوق العلم والأدب وكثر العلماء والشعراء وتوفى أبو زكريا سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م.

وخلفه ابنه المستنصر محمد وكان أبوه عفى بتربيته فديرُ أمور الدولة تدبيرا محكما وانتعشت تونس في عهده. ولما قضى التتار في بغداد على الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة العباسي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وأصبح المسلمون بدون خلافة وخليفة جاءته في سنة ٦٥٧هـ بيعة أمير مكة بالخلافة بإنشاء عبد الحق بن سبعين صوفي الأندلس، وكان مجاورا هناك فقررت على الملأ واحتفل بها احتفالا عظيما، ومن حينئذ تلقب بأمر المؤمنين، وبإيمانه بنو مرين بفاس. وفي ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م غرَّتْ الأماشيُّ لويس التاسع بعد تنكيل مصر به وبحملته المشهورة، فقاد حملة كبيرة هاجم بها تونس برا وبحرا، وحاصرها ستة أشهر، ودُفِنَ تحت أسوارها، وعادت الحملة مدحورة إلى البحر المتوسط وما وراءه بعد أن أغرمها المستنصر مالا كثيرا. ومن أعماله الجليلة بناء الحنايا التي كان يجري عليها الماء إلى مدينة قرطاجة من زغوان في أيام الرومان وأصلح ما أفسده الزمن منها، ومُدَّها في تونس إلى السقايات المختلفة: جامع الزيتونة وغيره، وازدهرت الحياة والحضارة بتونس لعهد ازدهارا عظيما. وتوفى سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م وتولى بعده ابنه يحيى الواثق وكان حسن السيرة غير أن عمه أبا إسحق إبراهيم ثار عليه سنة ٦٧٨ واستولى على أزمة الحكم، وخرج عليه في سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م ثائر يسمى أحمد بن مرزوق المسيلي ادَّعى أنه الفضل ابن أمير المؤمنين الواثق بن المستنصر، وتمكن من الاستيلاء على تونس بمساعدة أعراب قابس الهلاليين، وبعد سنة ونصف من حكمه تصدَّى له الأمير عمر أخو الواثق وجمع له جموعا سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م وقبض عليه وقتله، وتولى شئون الحكم. وسرعان ما خرج عليه بالجزائر ابن عمه يحيى بن إبراهيم واستقل ببجاية وقسنطينة، وتوفى عمر سنة ٦٩٤هـ/١٢٠٤م وخلفه أبو عبيدة محمد بن الواثق وحاول استرجاع القسم الشرقي في الجزائر وأخفق، وتوفى سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م دون عقب واضطربت

الأمر في تونس، واستطاع أبو يحيى زكريا بن اللحياني أن يستولى على زمام الأمور سنة ٧١١هـ/١٣١١م وكان شيخا كبيرا، فتنخل عن الحكم لابنه أبي ضربة، وحاربه أمير قسنطينة الحفصى أبوبكر سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م وهزمه وقبض على صولجان الحكم في تونس وتلقب بالمتوكل على الله، وخرج عليه بعض الأمراء من أسرته وأمدهم بنو زيان أمراء تلمسان من بني عبد الواد فأصهر إلى سلطان بن مرين في المغرب الأقصى، وهاجم معه ديار هذه الإمارة أو المملكة سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م واقتسماها فيما بينهما. وصفا له الجو حتى وفاته سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م وأخذ يعنى بالحركتين العلمية والأدبية وازدهرت لعهد، كما عنى بشئون الزراعة والصناعة والتجارة، فازدهرت جميعا، وما يدل على هذا الازدهار ما ذكره المؤرخون من أن عدد دكاكين العطارين وحدهم في أيامه بلغ في تونس سبعمائة دكان. وبويع بعده لابنه أبي حفص الثاني، وتار عليه أخوه أبو العباس. وانتهاز السلطان المرىي أبو الحسن فرصة هذه الفتن فاتجه في جيش جرار إلى تونس سنة ٧٤٨م وقتك بسطانتها أبي حفص، واستقام له ملك المغرب الأوسط، والأدنى لمدة سنتين ونصف، غير أنه لم يحسن السياسة مع الأعراب كما كان يحسنها سلاطين تونس فتاروا عليه وتنازلوه في تونس وهزموه، وجاءه الخبر بأن ابنه أبا عنان تار عليه في مراكش، فعاد سريعا إلى عاصمته سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م. وعادت تونس للحفصيين، وتولى زمام الخلافة والحكم الفضل بن أبي بكر الحفصى، ودبر له الحاجب القديم الشرير ابن تافراجين مؤامرة قتل فيها، وتولى أخوه أبو إسحق إبراهيم سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م واتخذ ابن تافراجين حاجبها، واضطربت عليه الأمور إلى أن توفى ابن تافراجين سنة ٧٦٦م ولم يلبث أن توفى سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م. واستولى على زمام الأمور في تونس أبو العباس أحمد الحفصى سنة ٧٧٣هـ/١٣٧٠م وهو من خيرة الحكام الحفصيين قمع الأعراب وأهل الفساد، واسترجع ما ضاع من الدولة في أثناء الفتن مثل المهديّة وسوسة وقابس وشط الجريد وجزيرة جربة، وساد الأمن والعدل فازدهرت البلاد. وفي أيامه غزا الجنويون والفرنسيون المهديّة في ثمانين قطعة، ودافعهم عنها جيشه وردهم على أعقابهم خاسرين، وتوفى سنة ٧٩٦هـ/١٣٠٣م بعد ما أعاد لتونس ما كان لها من هبة وقوة.

وخلفه ابنه أبو فارس عبد العزيز، وفيه يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب: «هذا السلطان درة عقد الدولة الحفصية وفخر من مفاخر البلاد التونسية، سار يعذل وتدير وسياسة، فازدهت إفريقية (التونسية) في أيامه، وبلغت شأوا بعيدا في الثروة والعمران». وقد بدأ عهده بإخضاع طرابلس وقابس وقفصة والجريد وبسكرة والصحراء، وكان بنو سليم قد أكثروا من الثروات فقلّم أظفارهم، واستصرخوا سلطان فاس المرىي بالمغرب الأقصى فأرسل لهم جنودا من عنده وانضم إليهم أمير بجاية الحفصى ابن أبي زكريا، واتجهوا بجموعهم إلى تونس سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م فهزمهم وقتل الناصر الحفصى، وصمم على التار من السلطان المرىي،

فلما شارف عاصمته «فاس» أرسل إليه بالطاعة، فعفا عنه ونصحه أن يحكم بالعدل الذي لا تستقيم حياة الرعية بدونه. ورجع إلى عاصمته بعد أن دان له شمال إفريقيا بالسمع والطاعة. وفي سنة ٨٣٥هـ/١٤٣٢م احتل ملك أرجون جزيرة جربة وأنجدها ولاذ المحتلون بالفرار. وقد أنشأ طائفة من القلاع والمحارس لحماية السواحل والتغور، وبنى مارستانا للمرضى والعجزة، وأنشأ لنفسه قصرا بضاحية باردو في تونس وأحاطه بحديقة بديعة وشيد فيه خلفاؤه الحفصيون والعثمانيون قصورا وحدائق أنيقة. ومن مآثره الجليلة تشييده مكتبة لطلاب العلم في أحد أروقة جامع الزيتونة إلى الشمال وجمع لها آلاف من المجلدات وقفها عليها، وقد نعى عن كاهل الشعب كثيرا من الضرائب الفادحة وبسط العدل والأمن، وتوفي سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٤م.

وتولى بعده حفيده محمد المنتصر، وأنشأ مدرسة سميت المدرسة المنتصرية، وبنى زاوية الشيخ الصالح أحمد بن عروس وتوفي بعد عام وشهرين، وخلفه أخوه أبو عمرو عثمان سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م وظل العدل والأمن والاستقرار الرعية طوال حكمه الذي امتد إلى نحو أربعة وخمسين عاما إذ توفي سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م وقد قمع ثورة لعمه أبي الحسن في قسنطينة وبجاية، وثارت عليه تلمسان وأعادها إلى طاعته، وكان أخوه المنتصر توفي ولم يكمل مدرسته المنتصرية فأكملها، وشيد لنفسه مدرسة كبيرة جعل فيها مسجدا للصلاة وغرفا للدراسة ومسكن للطلبة وسماطاً يتد كل يوم للفقراء، ووقف عليها ما يكفيها ويكفي من بها من العلماء والطلبة، وبنى ثلاثة مكاتب لقراءة القرآن، وعنى بإنشاء مكتبة عمومية في أحد أروقة جامع الزيتونة، وأتمها بعده حفيده أبو عبيد الله محمد، ونسبت إليه فسميت العبدلية. ومن حسناته كتابة مصحف بخط يده في عدة أسفار جعله بجانب نسخة البخاري التي وقفها أبوه في جامع الزيتونة. وخلفه حفيده أبو زكريا، لمدة ست سنوات، ووليها بعده أخوه أبو عبيد الله محمد الذي أتم المكتبة العمومية التي ابتدأها جده كما أسلفنا.

وكانت الدولة العثمانية قد عظم شأنها وأصبح لها أسطول ضخم يتنافس الأسطول الإسباني أقوى أساطيل أوروبا حينذاك في البحر المتوسط، وكان لها أمهران من أمراء البحر هما الأخوان: عروج وخير الدين ويسميه الإفرنج بربروسة، وكانا يشتغلان بالقرصنة لحساب الدولة العثمانية، وتقدما إلى الأمير أبي عبد الله محمد الحفصى المذكور آنفا طالبين منه الموافقة على أن يتخذوا من جزيرة جربة قاعدة لأعمالها البحرية ضد السفن الإسبانية لتخليص مدينة الجزائر من احتلال الإسبان على أن يكون له الخمس من غنائمها، وقبل منها هذا العرض، وظل ذلك مدة، وحدث أن استطاع عروج وخير الدين تخليص مدينة الجزائر فعلا من يد الإسبان واتخذها منذ سنة ٩١٦هـ/١٥١١م قاعدة لأعمالها البحرية واستغنيا عن جزيرة جربة التونسية. وكانت الدولة التونسية قد أخذت في التدهور والضعف الشديد لعهده الأمير أبي عبد الله محمد، ورأى

ذلك خير الدين رأى العين، وتوفى الأمير أبو عبد الله سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٦م وخلفه ابنه الحسن فرأى خير الدين أن يزحف إلى تونس من الجزائر، وضمها إلى الدولة العثمانية كما ضم إليها الجزائر، وزحف إليها فعلا واستولى عليها سنة ٩٣٥هـ/١٥٢٩م فلقباً الأمير الحفصى الحسن إلى كارلوس الخامس ملك إسبانيا، فرأها فرصة عظيمة، وقدم معه سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٧م ودخل مع الحسن تونس عنوة، وفرّ خير الدين بجنده إلى الجزائر وأذن كارلوس لجنده بتبّ تونس، فاستباحوا حماها، وأجلس الحسن على عرشها وأشرك معه في الحكم أحد قواده، وعقد معاهدة معه بمقتضاها يتنازل للإسبان عن بعض المدن التونسية سوى ما اشترطه عليه من دفع أموال باهظة سنوياً، وثار على الحسن ابنه أحمد حاكم عنابة (بونة) وانضم إليه كثيرون. وبعد قتال عنيف استولوا على تونس وسلموا عيني الحسن، ففقد بصره وفر إلى القيروان وتولى ابنه أحمد مكانه، واستولى الإسبان على المهديّة والمنستير وجربة والقيروان وكان أهل طرابلس قد استغاثوا بالدولة العثمانية فأزاحت عنهم فرسان مالطا كما ذكرنا في حديثنا عن ليبيا. سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م بفضل أسطول درغوت الذى كان مرابطاً أمام الجزائر، وقد استطاع أن يفتك المهديّة والقيروان وجربة والمنستير من أيدي الإسبان وأقام بكل منها حامية عثمانية وثانياً، وكان خير الدين (بر هاروسة) قد حرّر الجزائر من الإسبان وأصبحت ولاية عثمانية، فأرسل الأمير أحمد الحفصى إلى واليها سنة ٩٧٧هـ/١٥٧٠م أحد وزرائه يستنجد به ضد الإسبان، فانتهز الفرصة وقدم بجيش استولى به على تونس وأخذ البيعة فيها للسلطان العثماني، فاستنجد الأمير الحفصى أحمد بالإسبان أعدائه فأعادوا الحماية وعرف الأمير أحمد خطاه، فترك الحكم لأخيه محمد سنة ٩٨٠هـ/١٥٧٣م ورحل إلى صقلية وظل بها إلى مماته، وخضع محمد للحماية الإسبانية، وأشرك الإسبان في الحكم الكُنت سِرْبُلُونى وازدادوا عسفاً وعتواً، وتكررت استغاثة التونسيين بالدولة العثمانية، فأرسلت إليهم في سنة ٩٨١هـ/١٥٧٣م قوة عثمانية كبيرة بقيادة الوزير سنان باشا، ففتك بالحماية الإسبانية فتكا ذريعاً وطرد بقيتهم من البلاد إلى البحر المتوسط وما وراءه، وأرسل بالأمير الحفصى محمد إلى الأستانة فظل معتقلاً بها إلى وفاته. وبذلك انتهت الدولة الحفصية بعد أن حكمت تونس نحو ثلاثمائة وخمسين عاماً.

العهد^(١) العثماني

كانت فاتحة أعمال سنان باشا بعد تحريره القطر التونسي أن أعلن إلحاقه بالدولة العثمانية، فأصبحت إحدى ولاياتها في إفريقية الشمالية الممتدة من مصر إلى الجزائر، وأخذ يرسى النظام الذي سيقوم على أسسه الحكم في تونس، فنظم الديوان الذي تجتمع فيه الهيئة الحاكمة للنظر في شئون الجند والولاية، وقدر الرواتب، ورتب لجباية الأموال مشرفا باسم الباي، وجعل للبلاد حامية عسكرية عدادها أربعة آلاف جندي من الإنكشارية، وهم جند الدولة الذين كانت تربيهم تربية إسلامية عسكرية، وكانت تجلبهم من الأناضول ومن سبائها في أوربا، وجعل على كل مائة منهم أميراً يسمى «الدای» وجعل عليهم رئيساً هو الأغا، وانتخب بعض الأعيان من البلاد لمشاركة الديوان في الحكم، وضرب السكة باسمه. ولما أنهى كل هذه الترتيبات وخطب الخطباء في تونس باسم السلطان العثماني عاد إلى إستانبول دار دولته وحكومته. وعينت إستانبول لتونس والياً بلقب باشا، ولم يلبث الدايات أن شغبوا على الوالي سنة ٩٩٩هـ/١٥٩١م واتفق الرأي على اختيار أحدهم ليكون له الرأي النافذ في شئون الإنكشارية، وسرعان ما أخذ هؤلاء الدايات يتسلطون على الحكم في تونس ويعينون الوالي منهم وتضطر الدولة إلى قبول الواقع، وأول داي مهم منهم تولى شئون البلاد عثمان داي، وكان من خيرة الجند الذين رافقوا سنان باشا، وقد تولاها سنة ١٠٠٧هـ/١٥٩٩م فسنّ قوانين وطّد بها الأمن والعدل في البلاد، وأشرف على القرصنة في البحر المتوسط وعظم حظ تونس من غنائمها الوافرة، وفي أيامه سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م أخرج الإسبان من بقى بديارهم من الأندلسيين إلا من تنصر أو تظاهر بمتنصره، فهاجر منهم آلاف إلى تونس، وأكرمهم عثمان داي، إذ أقطع ذوى اليسار منهم ما اختاروه من الأراضي ووزع على المحتاجين منهم الأموال والتفقات فانتشروا في أرجاء البلاد وأخذوا يؤسسون فيها المدن والقرى وينشئون المصانع والمزارع والبساتين، وبذلك أحدثوا في إقليم تونس نهضة عمرانية وصناعية وزراعية، ويقال إن

ورحلني العياشي والناصرى ودائرة المعارف الإسلامية في مادة تونس وما بها من مراجع تاريخية عن العصر التركي وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب.

(١) انظر في العهد العثماني بتونس كتاب المؤرخ في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار والحلل السندسية في الأخبار التونسية للوزير السراج وذيل بشارت أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان لحسين خوجه تحقيق الطاهر المعموري (طبع تونس)

المهاجرين منهم في عهد عثمان دای كانوا يبلغون ثلاثين ألفا، ولم يلبث أن توفي سنة ١٠١٩هـ/١٦١١م ودفن بزاوية ابن عروس. وخلفه يوسف دای، واستمر نزول المهاجرين الأندلسيين في البلاد وأقاموا عليها عمرا وفيرا، وقد استرد جزيرة جربة من والي طرابلس العثماني، واتفق على تسوية الحدود بين تونس والجزائر، ومن أعماله إنشاءه جامع الكبير ومدرسة سميت المدرسة اليوسفية نسبة إليه، وتنظيمه أسواق المتاجر، ونشط الأسطول التونسي لأيامه بقيادة قبطانه مراد، ويقال إنه غنم في إحدى غاراته البحرية تسعين سفينة.

وتوفي يوسف دای سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣١م وخلفه القبطان مراد رئيس البحر، وفي أيامه تمتعت تونس بحياة رغدة آمنة فأحبه الناس، وعمل على أن تظل ولاية تونس في بيته فتنازل عن الحكم لابنه حمودة، وأقرت الدولة العثمانية صنيعة، وبذلك أصبح حكم تونس وراثيا في أسرته، وكان عهده وعهد ابنه حمودة عهدا هنيئا في تونس واستطاعت كتبية الصبائية أن تقضي على العصاة قضاء نهائيا في عهد حمودة فأمنت السبل وعاش الناس في اطمئنان سابغ أو غامر في جميع أنحاء الإقليم، ومن أعماله بناء جامع بدیع بجوار زاوية أحمد بن عروس وصومعة أنيقة لجامع الزيتونة ومارستان للمرضى، وعُني بقصور الحفصيين في باردو. واشتهرت زوجته عزيزة حفيدة الدای عثمان بأعمال بر كثيرة، من ذلك أنها حبست وقفا كبيرا على مارستان كان خاصا بمرضى الأعصاب، ولذلك سمي دار الدراوش، ومن الطريف أنها خصت قسا من الوقف بالعود والرباب والضارين عليها ترويحاً لأولئك المرضى، وبذلك سبقت الطب الحديث إلى تبين تأثير الموسيقى في مداواتهم وتهذنة أعصابهم. وتوفي حمودة المرادی سنة ١٠٧٦هـ/١٦٦٦م وخلفه ابنه مراد وكان حسن السيرة وقبضي بقوة على زمام الأمور، وسمع بأن جنود الإنكشارية في طرابلس قتلوا والي فذهب إليهم ونكل بهم، وأجلس ابنا له في عمله. وتوفي سنة ١٠٨٦هـ/١٦٧٦م. وولي بعده خلف سى شاع في أيامهم البغي والظلم، وتنازعوا في الاستيلاء على الحكم واستعان بعضهم بالجزائر، ودخلت جنودها تونس غير مرة، مما جعل الدای إبراهيم الشريف يفتك بأخر أمرائهم سنة ١١١٤هـ/١٧٠٣م. وبذلك انقضت الدولة المرادية، وعاود الجزائريون الكرة على البلاد التونسية، وهزموا إبراهيم الشريف.

وجزع أهل الحل والعقد في تونس من الشيوخ وغيرهم، واتفقت كلمتهم على إسناد الدولة للباي حسين بن علي وكان قد تقلد وظائف حربية وإدارية مختلفة للأسرة المرادية، ولم يجد بدا من النزول على رأيهم وإرادتهم. وفرح به أهل تونس وبايعوه في ربيع الأول سنة ١١١٧هـ/يوليه ١٧٠٥م. وبدأ أعماله بإصلاح سور تونس وتحصين قلاعها، ولم يلبث الجيش الجزائري أن خيم بالقرب من تونس فدارت الحرب وثبت التونسيون، وتقهقر الجزائريون إلى بلادهم. وأخذ الإقليم التونسي يعيش في أيامه حياة رغدة آمنة وانتعشت المزارع والمتاجر والمصانع، وأخذ يعني بإنشاء المدارس، فأنشأ في تونس مدرستين كما أنشأ مدرسة في كل من

القيروان وسوسة وصفاقس ونفطة، واتخذ قصر باردو مقرا لحكومته وبني به قصرا ومسجدا. ورضيت عنه الدولة العثمانية فجعلت ولاية تونس وراثية في أسرته، ولم يكن له ولد في أول أمره فتبنى ابن أخيه علي بن محمد، وعُني بتربيته وجعله وليا لعهده ثم رزق بابنيه محمد وعلي، فنقل ولاية العهد منه إلى ابنه محمد الرشيد وجلب لعل ابن أخيه من الدولة العثمانية لقب الباشا، ولكن عليا ظل غاضبا، ووصل إلى الجزائر، فشجعه حاكمها العثماني على مفاضة عمه وأمه بجيش جرار، زحف به إلى الإقليم التونسي والتقى بجيش لعمه وانتصر عليه سنة ١١٤٧هـ/١٧٣٥م ودخل تونس وتقلد شعار الولاية، وأصبح تابعا لوالى الجزائر العثماني يؤدي إليه الخراج، أما عمه حسين باي فإنه نجا مع ابنه إلى القيروان وأخذ يعد جيشا للقاء ابن أخيه حتى إذا كانت سنة ١١٥٣هـ/١٧٤١م التقى الجيشان جنوبي القيروان ودارت الدوائر على جيش حسين وقتل في المعركة. وأصبح علي واليا لتونس دون منازع. وكان البحارة الجنويون يقيمون في مرسى طبرقة بالشمال الغربي للقطر التونسي، فبعث ابنه يونس على رأس جيش شردهم كما شرد فرانسيس في قرية بجوارهم أقاموا بها مراكز تجارية. وحدث شقاق بين الابن وأبيه، وتحاربا ودارت الدوائر على ابنه. وكان علي باشا متعمقا في الدراسات اللغوية، وله شرح كبير على كتاب التسهيل لابن مالك في النحو، وجمع في قصر باردو مكتبة نفيسة، وأنشأ أربع مدارس بعاصمته: الباشية نسبة إليه والسليمانية ومدرستي بير الحجاز، وكان راعيا للأدباء والشعراء من أمثال علي الغراب ومحمد الوزغي. وكان ابنا عمه حسين قد فرأ بعد مقتل أبيها إلى الجزائر مستنجدين بوالها التركي، وظلا هناك ستة عشر عاما استطاعا في نهايتها أن يقتما الوالى التركي بأن يرسل معها جيشا لنصرتها على ابن عمها وأخذها بتأريها، وأرسل معها جيشا جرارا، حاصرا به تونس، ودافع ابن عمها على دفاعا مستميتا سنة ١١٦٩هـ/١٧٥٦م وخُرَّ صريعا في المعركة.

وتربّع ابن عمه محمد الرشيد على كرسي تونس، وكان مولعا بالموسيقى والتلحين والضرب على مختلف الآلات، فترك تدبير شئون الدولة لأخيه علي، ولم يلبث أن توفي سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م وخلفه أخوه علي واهتم بتعزيد التجارة والزراعة والصناعة، وانتشر في القطر الأمن. وأنشأ في تونس محكمة شرعية ومدرسة لقبت بالجديدة، كما أنشأ تكية للضعاف والعجزة من الرجال والنساء، ولما تم بناؤها وأخذت تقدم الغذاء للمحتاجين قاد إليها جماعة من القُنى فاقدى البصر وجلس معهم وأطعمهم بيده. وحدث في أوائل حكمه سنة ١١٨١هـ/١٧٦٨م أن ألحقت فرنسا جزيرة كورسيكا بممتلكاتها فلم تصادق الحكومة التونسية على هذا الإلحاق ولا اعترقت بالجنسية الفرنسية لأسرى تلك الجزيرة ممن حملهم إلى تونس أمراء البحر المتوسط وقراصنتها، وأعلنت فرنسا الحرب على تونس وأطلق أسطولها قنابل على نفور المنتستير وسوسة وحلق الوادى وبنزرت وبعد اتصالات أبرم الصلح بين فرنسا وتونس

بياردو سنة ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م. ولما تقدمت به السن ووهن منه الجسم أشرك ابنه حمودة معه في الحكم، وكاناب الدولة العثمانية في ذلك فوافقت، وتوفي سنة ١١٩٦هـ/ ١٧٨٢م. وخلفه ابنه حمودة، وكان أبوه قد عُني بترتيبه وإعداده لإدارة الحكم والدولة إدارة سديدة وفي عهده استأجر بحارة تونسيون من بعض بحارة البندقية سفينة لحمل بضائعهم من الإسكندرية إلى صفاقس، وعُرِّج بهم البحارة على مالطة، فقبض واليها على التونسيين وزج بهم في السجن بحجة ظهور وباء فيهم وأمر بإحراق ما معهم من السلع. وعاد التجار التونسيون إلى العاصمة تونس، وتظلموا لخمودة، فطلب من نائب جمهورية البندقية أن تؤدي جمهوريته قيمة ما ضاع على التجار التونسيين بمقتضى القانون التجارى، وأفضى هذا النزاع إلى إعلان تونس الحرب على البندقية سنة ١٢٠٤هـ/ ١٧٩٠م وجهزت لذلك أسطولها، ورضيت البندقية بدفع الغرامة وانمقد الصلح بين الحكومتين. وفي سنة ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٥م وفد على تونس والى طرابلس على القرمانيلى فرارا من ثورة لعل برغل فيها، فأحسن استقباله حمودة، وكان على برغل قد استولى أيضا على جزيرة جربة التونسية، فأرسل إليها حمودة الأسطول التونسى فاستردها بمجرد ظهوره أمامها، وأرسل أحد قواده على رأس جيش مع والى طرابلس فدحر على برغل وأقر عليها على القرمانيلى، وعاد الجيش ظافرا منصورا. ونشبت الحرب بينه وبين الجزائر سنة ١٢٢١هـ/ ١٨٠٧م وكانت لهم الجولة الأولى وأعاد حمودة الكرة وانتصر جيشه انتصارا ساحقا. وكل ذلك يدل على أن تونس حظيت في عهد حمودة بمكانة دولية كبيرة.

وقد عم فيها الرخاء والأمن ونشطت الزراعة والصناعة والتجارة بها نشاطا كبيرا إلى نهاية حكمه سنة ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م وكان معاصرا لنزول الحملة الفرنسية مصر وانتصار المصريين عليها انتصارا حاسما سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠١م وهو انتصار هز العرب في جميع بلدانهم هزة عنيفة جعلتهم يستيقظون من سباتهم الطويل ويستشرفون عصرهم الحديث مستشعرين فيه كيانهم وهويتهم العربية الإسلامية، ونرى البلى حمودة يستشر - بقوة - شخصية تونس ويحاول - جادا - أن يعيد إليها قواها التى طمرها العثمانيون حقبا متوالية، فيأمر بتجنيد التونسيين وإشراكهم في الجيش والحكم مع الترك أو الحامية التركية، وضرب للتونسيين بنفسه مثلا وطنيا كريما في ملبسه ومطعمه، فلم يكن يلبس إلا من منسوجات تونس ولم يكن يطعم إلا من خيراتها وطيباتها متباهيا بذلك مفاخرها، وبذلك ابتدأ الداء حمودة ببلده العصر الحديث في القرن التاسع عشر بدءا قويا سديدا.

افضل الثاني

المجتمع التونسي

١

عناصر^(١) السكان

البربر هم العنصر الأول الذي سكن القطر التونسي وعمر أرضه أجيالاً وقروناً قبل أن ينزله عناصر جدد، واختلف المؤرخون في أصلهم ونسبهم، فقليل هم إفريقيون أصلاً وموطناً وقيل بل هم آسبويون، فمن قائل إن أصلهم من اليمن، ومن قائل إن أصلهم من العماليق انتقلوا من ديار الشام إلى إفريقية، ومن قائل إنهم أخلاط من كنعان والعماليق، ومن قائل إنهم من عرب الشمال من ولد قيس بن عيلان، ومن قائل إن جدهم مازيغ كان أخاً لفلسطين وأن أبناءه بارحوا الشام واخترقوا مصر إلى إفريقية، ومازيغ كان ابن كنعان بن حام، وهم بذلك حاميون لاساميون، ويعلق ابن خلدون على هذه الآراء وما يماثلها في بيان نسب البربر بأنها «أحاديث خرافة إذ مثل هذه الأمة (البربرية) المشتعلة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض (المغربية) لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور، والبربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام، فما الذي يحوّجنا إلى التعلق بهذه الترهات في شأن أوليتهم ولا يحتاج إلى مثله في كل جيل وأمة من العجم والعرب». ويضيف ابن خلدون إلى ذلك قوله «إن نسبة البربر يزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب مثل لواتة يزعمون أنها من حمير، ومثل هواره يزعمون أنها من كندة ومثل زنانة يزعمون أنها من بقايا التباينة.. وهذه كلها مزاعم، والحق الذي شهدت به الرطانة والمعجمة (في ألسنة البربر) أنهم يمحزون عن العرب». وابن خلدون محق في وصف ذلك كله بأنه مزاعم وترهات، إذ لا حاجة للبربر بذلك كله، إذ هم شعب عريق أصيل مضاهٍ لشعوب العالم العريقة الأصلية مثل

عبد الوهاب: الجزء الثالث، المغرب الكبير لرشيد
التاحوري: الجزء الأول، كذلك تاريخ المغرب
الكبير لدبور وبرنشفيك ١/٣١٣ وما بعدها.

(١) انظر في عناصر السكان بتونس الجزء
السادس من تاريخ ابن خلدون، وكتاب ورقات عن
الحضارة بإفريقية للأستاذ حسن حسني

العرب والمصريين والفرس والروم. أما تسميتهم باسم البربر فالملطونون أن الرومان - وربما اليونان - هم الذين أطلقوه عليهم أخذًا من الكلمة الإغريقية Barbarus ومعناها الأجنبي الذي يرطن بلغة غير مفهومة، إذ كانت لغة البربر - بالنسبة للرومان واليونان - أصواتًا مبهمّة، والكلمة بهذا المعنى الإغريقي تلتقى بمعنى البربرة في العربية وهو التمتمة بالكلام بحيث لا يفهمه السامع.

وظل البربر لا يتصلون بالشعوب القديمة أمادًا طويلة حتى إذا كان القرن العاشر قبل الميلاد أو قبله أو بعده بقليل كان فينيقيون من سكان لبنان - وكانوا شعبًا ملاحيا - يجوبون الساحل الإفريقي بحثًا عن مواضع يتبادلون فيها سلعهم وعروضهم مع البربر، وأعجبتهم تونس، فنزلوا بها، ومع مرّ عشرات السنين اتخذوا لأنفسهم فيها موطنًا ومركزًا لتجارتهم، إذ أسسوا فيها مدينة قرطاجة بالقرب من مدينة تونس الحالية، واستوطنتها كثير من أسرهم الفينيقية، وأنشأوا بها دولة وجيشًا منهم ومن البربر، وقد امتزجوا بهم وصاهروهم وعلموهم الملاحة والتجارة وتبادل السلع وفلاحة الأرض وغرس الأشجار، ونقلت إليهم قوافلهم المتعمقة في السودان كثيرًا من الزوج، وفسحوا لبعض اليهود في النزول بمدينتهم. وبذلك أصبح يوجد فيها لعهدهم أربعة عناصر من السكان: عنصر بربري من سكانها الأولين وعنصر فينيقي وعنصر زنجي وعنصر يهودي، ويدور الزمن وتستولى روما على قرطاجة، وتبني من أنقاضها قرطاجة جديدة، وتستوطنها أسرٌ رومانية كثيرة، وتضيف القوافل زونجًا جديدًا كثيرين إلى البلاد، ويقد عليها منذ سنة ٧٠ للميلاد بعد تحطيم الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس أسر يهودية كثيرة. ويدور الزمن دورة ثانية وتستولى جموع الواندال على تونس سنة ٤٣٩ للميلاد، ويظلون بها حتى سنة ٥٣٤ مضيّفين إلى البلاد عنصرًا ألمانيًا جديدًا، ويخلفهم البيزنطيون حتى سنة ٦٤٧ مضيّفين بدورهم العنصر البيزنطي الإغريقي.

ثم يكون الفتح العربي، وتظل تتقدّم إلى القطر التونسي جيوش لإكمال الفتح أو للقضاء على بعض الثورات طوال القرن الأول الهجري، وتخذ ثورات البربر ضد الإسلام والعرب، وتشتمل في القرن الثاني ثورات الحوارج من البربر. وتظل الدولتان الأموية والعباسية ترسلان الجيوش لإخمادها، وكثير من جنود هذه الجيوش استقر في إفريقية التونسية وأصبحت مستقرا له منذ أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان في سنة ٥٠هـ/٦٧٠م فقد سكنها بعض الجنود الفاتحين وأسره وأخذوها موطنًا لهم ومقرا. وأخذ كثير من جنود هذه الجيوش يسكن في بعض بلدان تونس عاملا على نشر الإسلام والعربية. وكانت هذه الجيوش تضم عناصر من العرب ومن البلاد الإسلامية المفتوحة: إيران وسكان الرافدين في العراق والشام ومصر وكل هذه العناصر أخذت تمتزج بالبربر في تونس امتزاجا سريعًا بحكم ما يجمع بينهم من الدين واللغة.

ولم تشارك مصر في هذا الامتزاج بمن كان ينتظم منها في الجيوش العربية فحسب، بل شاركت أيضا في عهد حسان بن النعمان سنة ٧٦هـ/٦٩٥م بألف أسرة قبطية طلبها للمساعدة في تأسيس دار صناعة لسفن أسطوله الذي سيحمي به سواحلها ويفزو جزر البحر المتوسط. وجاءته ووزعها بين تونس وورادس وقرطاجة، ومنذ إبراهيم الأغلب يستكثر الأغلبية في الحرس من الصقالبة، وأيضا من الزنوج، وكانوا لمهد إبراهيم أكثر من خمسة آلاف، ولكثرة خيرات تونس وطيباتها وحسن معاملة الإسلام للنصارى واليهود ظل ينزلها منها كثيرون.

وفي منتصف القرن الخامس الهجرى تدخل القطر التونسي جموع الهجرة الأعرابية التي تحدثنا عنها في الفصل الماضى، والتي كانت تيلغ - فيما يقال - نحو نصف مليون، ولابد أن جماهير كبيرة منهم ألفت عصاها بتونس وبلداتها وسهولها وزروعها حتى لقد أصبحت بلدان مختلفة على الساحل وفي الداخل بأيديهم. وحقا سببت هذه الهجرة الكبيرة غير قليل من الاضطراب في البلاد والفوضى، ولكن ربّ نعمة سببت نعمة، فإن هذه الهجرة أتت بسرعة تعريب البربر والشمال الإفريقى المغربى جميعه، فإن من كانوا يستقرون في البلاد المغربية من الجيوش العربية الغازية في القرنين الأولين الهجريين كانوا قلة بالنقياس إلى جموع البربر العديدة، ولذلك كان تعريب البربر بطيئا، حتى إذا حدثت هذه الهجرة تعرب البربر نهائيا وأصبحوا شعبا عربيا، إذ امتزجوا بالعرب معيشة ومصاهرة، حتى أصبح لا يوجد فرق بين عربى وبربرى، ويصور ذلك ابن خلدون في قبيلة هواة قائلا: إنهم صاروا في عِدَاد الناجعة (الرعاة) بنى سليم في اللغة والزئى وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الإبل وممارسة الحروب». وهكذا الأعراب مع البربر في كل أرجاء المغرب، وفي الحق أن هذه الهجرة الأعرابية الضخمة لم تكن عنصراً جديداً أضيف إلى ما كان بتونس من عناصر، بل كانت شعباً أضيف إلى شعب واندمج فيه وأصبح الشعبان شعباً واحداً، ويستولى النورمان على صقلية سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م.

ويعود إلى تونس كثرة من أبنائها الصقليين ولا نكاد تؤسس الدولة الحفصية حتى تحدث نكبة الأندلس الكبرى نكبة سقوط مدنيهم في حجر الإسبان النصارى واحدة إثر أخرى، ويأخذ الأندلسيون في الهجرة إلى المغرب الأقصى، ويتجه كثيرون منهم إلى تونس، ويرحب بهم مؤسس الدولة أبو زكريا وابنه المستنصر، ويفسحان لملئانهم وأدبائهم في المرحتين الأدبية والعلمية، كما يفسحان للزراع وأصحاب الصناعات منهم، وتأخذ أعدادهم في التزايد طوال القرن السابع الهجرى، وخاصة مع سقوط البلدان الأندلسية مثل إشبيلية وبلنسية، وكان كثيرون من هؤلاء الأندلسيين المهاجرين يرجعون إلى أصول عربية وبربرية، وكان بينهم من يرجعون إلى أصول

مصرية أو شامية أو إيرانية، ممن قدم أبائهم من آسيا مع الجيوش الفاتحة للأندلس كما كان بينهم مسلمون يرجعون إلى أصول إيبيرية وقوطية ووندالية من سكان إسبانيا القدماء، وكثر نزول هؤلاء المهاجرين الأندلسيين بتونس بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ويقال إنهم بلغوا حتى هذا التاريخ نحو مائة ألف أو يزيدون. وفي سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م نفى الإسبان بقية من كان بها من المسلمين إلا من أعلن تنصره أو تظاهر بذلك، وقدم إلى تونس منهم في سنة واحدة لعهد عثمان داي نحو ثلاثين ألفاً، ورُحِبَ بهم كما مر بنا في الفصل الماضي، وهو ترحيب لا يستحق شكره من أجله وحده بل يستحقه أيضاً قبله التونسيون الذين أتاحوا لهم المعيشة الكريمة بينهم في المدن، حتى كان لميسورهم في تونس العاصمة حيان: حومة الأندلس وزقاق الأندلس، وتأسست للعمال والصناع قرى ومراكز بالقرب من العاصمة زاولوا فيها صناعاتهم من المنسوجات الحريرية وغيرها، وأنزل القرويون منهم في مناطق خصبة غزيرة المياه شمالاً على ضفاف نهر مجردة. ومن المؤكد أن الإسبان الذين احتلوا تونس نحو أربعين عاماً (٩٤٣-٩٨١هـ) لم يخلفوا وراءهم أسراً إسبانية حين طردهم سنان باشا إلى البحر المتوسط وما وراءه.

وكان الولاية في العهد العثماني يتخذون لهم حاميات عسكرية من الإنكشارية، وكانت تضم تركيا من الأناضول وأجناساً متنوعة من مختلف أنحاء الدولة العثمانية وأسرى جيوشها من الدول الأوروبية وكانت تربيتهم جميعاً تربية إسلامية عسكرية، وترسل ببضعة آلاف منهم إلى تونس وبالمثل إلى بعض البلاد العربية، وكانوا يتزوجون من تونسيات فربطتهم بتونس صلات عائلية وثيقة. واتسعت حركة القرصنة حينئذ لسببين: حلق العثمانيين بالبحارة، وقد استطاع خير الدين (بربروسه) وعروج وأسألها أن يجعلوا البحر المتوسط في القرن العاشر الهجري بحراً عثمانياً، والسبب الثاني غيظ الأندلسيين المهاجرين من الإسبان والأوروبيين الذين كانوا يساعدونهم في الحروب، فكانوا يوغرون صدور البحارة الترك عليهم ليأسروهم ويسترقوهم، وكانوا يسحبونهم على وجوههم من البحر بالآلاف أحياناً، وكان كثيرون منهم: إسباناً وفرنسيين وإيطاليين ويونانيين وكرتيين ونورمانا يعتقدون الإسلام وترد إليهم حرياتهم ويكونون أسراً ويندججون في أهل البلاد. وكانوا يتولون في تونس أحياناً مناصب عليا. وهذه العناصر الإفريقية والآسيوية والأوروبية المفرطة في الكثرة، منذ أيام الفينيقيين إلى هذا العصر لها دلالتان: دلالة أولى على وفرة طبقات الرزق التي عُرفت بها تونس والتي جعلت كثيراً من الشعوب تتسابق على النزول بها وأحياناً على المكث بها حقبة أو حقبة من الزمن ودلالة ثانية هي ما حملته تلك الشعوب إلى تونس من حضارات كان لها غير قليل من التأثير في حياتها مع الاحتفاظ دائماً بما لها من ذاتية وشخصية.

المعيشة^(١)

عنى القطر التونسي - على مر الأزمنة بالزراعة، وقد أولاها الفينيقيون والقرطاجيون اهتماماً كبيراً، إذ رأوها تنتج وفرة من حبوب وبقول متنوعة، وقد حملوا إليها من موطنهم شجرة الزيتون، وربما أيضاً الكروم والتين واللوز، ويدل - في وضوح - على اهتمامهم بالزراعة أن أقدم كتاب عالمي فيها وفي غرس الأشجار ألفه عالم قرطاجي يسمى ماجن Magon وأن الرومان نقلوا عن قرطاجة هذا الكنز الزراعي النفيس إلى لغتهم حين استولوا عليها سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وعُتوا - مثل القرطاجيين - بالزراعة وحفروا لها القنوات لجلب المياه، وأقاموا بها الصهاريج والخزانات والأحواض، مما لا تزال شواهد قائمة في إفريقية التونسية. وظل أهلها في العهد الإسلامية يمتنون بالزراعة، فهي معاشهم، ومنها قوتهم وزادهم. وقد عُنِيَ بها الأغالية عناية كبيرة، وما يدل على ذلك أنهم كُونُوا لرى الأراضى وجلب المياه وتخزينها في الصهاريج وتوزيعها في السقايات إدارة كبيرة، عُنُوا لها مشرفاً سموه «صاحب المياه» واستغلوا في ذلك كل ما خلفه القرطاجيون والرومان والبيزنطيون في البلاد مع ما أضافوه من قنوات ودواليب وأحواض وخزانات جديدة، مما جعل البلاد التونسية تلقى في حجورهم بكل ما تستطيع من طيبات الثمار، وتزدهر فيها الزراعة وغرسة الأشجار ازدهاراً لم يبلغاه في عصر من العصور، وأخذت البلاد تعيش في بُلْهنية من العيش، وأخذ الأغالية يمتنون منها أموالاً طائلة، ساعدتهم مساعدة عظيمة في بناء أسطولهم الذي فتحوا به صقلية ومالطة، كما ساعدتهم لا في بناء قصر أو قصور فحسب، بل في بناء مدينة هي العباسية ومدينة ثانية هي رقادة التي زارها أبو عبيد البكرى، فقال في كتابه المسالك: «ليس بإفريقية أعدل هواء ولا أرق نسباً ولا أطيب تربة من مدينة رقادة، ويذكرون أن من دخلها لا يزال ضاحكاً مستبشراً من غير سبب»: مدينتان كبيرتان ينتهيا دولة الأغالية التي أظلت البلاد التونسية قرناً من الزمان بفضل ما جنت من خيراتها. وإذا تركنا شمالي تونس إلى الداخل لقيتنا مدن في السباسب والواحات كثيراً ما نوه بها جغرافيو العرب ورحالهم لما بها من البساتين المثمرة والكروم والمشمش والتين

إفريقيا وتونس لابن أبي دينار وكتاب وركات عن الحضارة العربية في إفريقية التونسية للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب.

(١) راجع في المعيشة المسالك لأبي عبيد البكرى ورحلة التجاني والبيان المغرب لابن عذارى وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان والمؤنس في أخبار

واللوز والفسق، ويقولون إن بها غدراناً وآباراً كثيرة. وبعض الجهات - وخاصة في النواحي الشرقية - مغازات شاسعة تنمو فيها الأعشاب والحشائش وترعاها قطعان الغنم والأبقار والإبل والحمل.

وظلت الزراعة مزدهرة في عصر الدولة الصنهاجية حتى منتصف القرن الخامس الهجري، وأصابتها غير قليل من الانتكاس مع الهجرة الأعرابية، حتى إذا كانت الدولة الحفصية وأخذ يعم الأمن والاستقرار في البلاد بعد حركات قراقوش وابني غانية عادت الزراعة في البلاد إلى الازدهار بفضل عناية مؤسس الدولة أبي زكريا بشئون الري وعناية ابنه المستنصر، ويقول ابن أبي دینار إنه أكمل بناء الحنايا والقنوات التي كان يجري عليها الماء إلى مدينة قرطاجة في الزمن الأول (الأيام القرطاجيين والرومان) وأصلح ما فسد منها، وأجرى الماء عليها من عيون جبل زغوان في الجنوب الغربي إلى تونس وجناتها وزروعها وسقاياتها وجامعها الكبير: جامع الزيتون. ويتوّه الحسن الوزان بما شاهد حول تونس في القرن العاشر الهجري من زروع وبساتين قائلاً: «توجد في خارج تونس مزارع غاية في الإبداع تنتج فواكه رائعة بكميات قليلة ولكنها في غاية الجودة، وهناك عدد لا يُحصى من البساتين المزروعة بالبرتقال والليمون، وبالورود وبزهور جميلة أخرى، وفي المكان الذي يدعى البارود على الخصوص توجد البساتين والقصور الفخمة». ويتوّه ابن أبي دینار في زمنه أوائل القرن الحادي عشر الهجري ببساتين تونس وبساتينها، ويقول إن من رأى ثمارها وفواكهها يعجزه الوصف إذ لا تدخل تحت حصر» ويقول أيضاً: «يدخل إليها في فصل الخريف أزيد من ألف حمل من العنب بخلاف ما يباع معه من تين وبطيخ وغيرها». وبدون ريب كان للمهاجرين الأندلسيين إلى تونس فضل كبير في هذا الازدهار منذ عصر الدولة الحفصية، وازدادت الزراعة ازدهاراً حين ازداد المهاجرون منهم زيادة مفرطة في سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م وما بعدها لعهد الداي عثمان والداي يوسف كما مر بنا في الفصل الماضي، ويقال إن عددهم بلغ حينذاك أكثر من مائة ألف، وقد استقر كثيرون منهم - كما أسلفنا - في المناطق الخصبة الشمالية حول نهر مجردة، ونزل بعض منهم في أنحاء قليلة المياه فاستخرجوها عن طريق طواحين الرياح، ونزل بعضهم في أماكن صعبة بسفوح الجبال، واستطاعوا - بجدد - أن يحيلوا كل ما نزلوا فيه واستقروا به إلى جنات وزروع وقنوات وعيون. وتلقانا أشجار الزيتون والبرتقال واللوز والفسق في كل مكان كما تلقانا أشجار النخيل، وخاصة في الواحات ومنطقة شط الجريد. ويبدو أن الرومان تغلفوا مع القوافل التجارية إلى هذه المنطقة وظل كثيرون منهم فيها بعد الإسلام لا قرناً بل قرناً متطاولاً، حتى لرى التيجاني الذي زارها في أوائل القرن الثامن الهجري يقول في زيارته لها التي سجلها في رحلته: «إن أهل توزر (غربي شط الجريد) وأكثر بلاد الجريد من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح الإسلامي» ويقول إن بعضهم كان لا يزال يتكلم اللاتينية.

وعرف القطر التونسي مختلف الصناعات - وخاصة اليدوية - من قديم كالنجارة والحداة وعصر الزيتون واستخراج المعادن. وكان بها معادن كثيرة مثل الرصاص والحديد والزنك والزنبرق والفضة والذهب أتاحت للقطر موارد مالية غير قليلة، حتى لئرى الأغلبية يخصصونها بإدارة يستندونها إلى موظف سموه: «صاحب المعادن» واشتهرت «قرطاجة» في غربى القطر بما كان يستخرج فيها من معدن الحديد، مما هيا لصناعات حديدية مختلفة مثل الأقفال والمفاتيح والأبواب والنوافذ، واشتهر «طرة» من إقليم نفاوة في الجنوب الشرقى للقطر بمعدن الكارترز، وهيا بدوره لصناعات زجاجية وبلورية. ومن أهم الصناعات صناعة الخزف مطليا وغير مطلى وما يتصل بها من الآنية والأباريق والكيزان والمواعين، ويقول ابن أبى دينار في فواتح كتابه «المؤنس»: «تُصنع بتونس آنية للماء من خزف شديد البياض في نهاية الرقة والشفافية لا يعلم له نظير في سائر الأقطار». ومن الصناعات صناعة دبغ الجلود وكان ينتفع بها في صناعة السروج. ومن الصناعات عصر الزيتون في معاصر كثيرة معدة له، وتونس تشتهر بهذه الصناعة منذ عصر الرومان، وكانوا يرسلونه إلى روما في مواعين كبيرة، ويدل على كثرة معاصره في الحقب الاسلامية ما يذكره ابن أبى دينار وهو أن أبى يزيد مخلد بن كيداد - حين زحف على إفريقية التونسية في عهد الخليفة العبيدى القائم بأمر الله ودخل القيروان وتونس - نهب اثني عشر ألف جابية زيتا. ويقول الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقية الذى سجل فيه زيارته لتونس: «على مسافة أربعة إلى ستة أميال حول تونس تنتشر مصانع عديدة لإنتاج الزيت لا لتعوين مدينة تونس فحسب، بل للتصدير كذلك، ويصنع من حطب الزيتون فحم يستخدم في المدينة، ويستعمل جزء منه في التدفئة».

وكانت صناعات المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والكتانية منتشرة في تونس وغيرها من بلاد القطر التونسي، ويقول أبو عبيد البكرى في كتابه المسالك عن النسيج بمدينة سوسة: «الحياكة بها كثيرة ويغزل بها غزل تباع زنة الثقال منه بمقايين من ذهب». ويؤوه الحسن الوزان في القرن العاشر الهجرى بما كان من النسيج في تونس وصناعاته قائلا: «غالبية سكان تونس من الحماكة (النساجين) وتصنع فيها كمية كبيرة من الأقمشة المثقنة كل الإتنان والتي تباع في كل إفريقية، وهى مرتفعة السعر كثيرا لأنها ناعمة ومتينة، ويرجع السبب في ذلك إلى أن النساء يتقن مهنة الغزل كل الإتنان» ويرجع بنا الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إلى مدينة رقادة في عهد الأغلبية قائلا: «كان بها دار الطراز وكانت مصنعا تنسج فيه الأكسية من الحرير والقطن والصوف، وكذلك الصناعات والأحزمة إلى غير ذلك من الخلع التى يهبها الأمير (الأغلبى) في الأعياد وعند تقليد المناصب لأعيان الأمة ورجالات الدولة، وكانت تُكتب على هذه الخلع كتابات موشية بخيوط الحرير والذهب، وهى تقوم مقام الأوسمة في عصرنا الحديث».

ولا بد أن الصناع كانوا يوشون ثياب النساء بهذه الخيوط وبخيوط أخرى فضية لتكمل زينتهن بالها من لمعان وبريق.

وكان الصناع التونسي يعني بزركشة ما ينسج من السجاجيد وخاصة للأمرء وأعيان البلاد، وكان يرسم عليها بعض الحيوانات أو بعض البلاد، ويذكر الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب أنه صُنِعَ للمعز الفاطمي قبل تحوله إلى القاهرة مقطع كبير رائع من الحرير الأزرق الملون النسوج بالذهب وقد رُسِمَت فيه صورة الأرض بكل ما تشتمل عليه من الأقاليم والمدن والأنهار والجبال وصورة الحرمين الشريفين. ولعل في عرضنا لذلك كله ما يدل على الرقي الحضاري الذي نعمت به تونس قبل العصر الحديث، وكانت الأخشاب فيها وافرًا مما هيأ للتفنن في صناعة الأثاث، كما هيأ الزجاج والخزف للتفنن في صناعة الموائع والحرير والصوف والقطن والكتان للتفنن في الرياش وكل ما يلزم القصور والمنازل من فنون الزينة والزخرف.

ومن الصناعات التي كانت مزدهرة بتونس الوراقة أو صناعة الورق والكتابة فيه، ومعلوم أن بغداد لم تعرفه إلا في عصر الرشيد، وقبل ذلك كانت الكتابة في الرق أو الجلد المهيأ للكتابة وكذلك في البردي الذي كانت تستخدمه مصر منذ عصور الفراعنة، وهو نبات كانت تضم أوراقه الطويلة بعضها إلى بعض بطريقة خاصة، فيصبح صالحا للكتابة فيه. وكان القطر التونسي يجلب النوعين من المشرق وكان اعتماده الغالب على الرق وجلب معها الأقلام والمداد. وتعرف على صنعها، حتى إذا فتحت صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٨م وكان بها بردي كثير أخذوا - كما يقول ابن حوقل - يقتلون أكثره حبلا للسفن» وأقله كان يُصنع طوامير أو صحفا لدواوين الأمير الأغلب ومَن تلاه من حكام القطر التونسي، وأخذ الشعب التونسي يحسن صناعة الورق من الكتان ويسمى الكاغد نفس اسمه الذي نقله العباسيون مع الورق من الصين، ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب إن صناعته انتقلت من تونس إلى صقلية وعبرت صناعته مضيق ميسينا إلى سائر نو فنانبولي، فألمانيا حيث استطاع جوتنبرج بعد قليل اختراع الطباعة، وبدهى أنه لولا الورق ما اخترعت الطباعة. ومن الممكن أن تكون أوروبا عرفت الورق ونقلت صناعته عن الأندلس، غير أن الأستاذ عبد الوهاب يرجع معرفتها به عن طريق تونس وصقلية.

ومنذ فتح العرب القطر التونسي تبنى فيه المنشآت العمرانية وتشاد، ولا يشاد بناء مفرد أو قصر مفرد، بل تشاد مدن، بدأ ذلك عقبه بن نافع ببناء القيروان، وبنى تونس بعده بقليل حسان ابن النعمان، وبنى الأغالة العباسية ورقادة، وأحالوا قرية سوسة على الساحل مدينة ونفراً ضحاً، وبنى عبيد الله المهدي مدينة المهدية وجعلها داراً لحكمه ونفراً لأسطوله، وأحال حفيده المنصور قرية صبرة بجوار القيروان إلى مدينة وسماها «المنصورية» نسبة إليه. وكانت المدينة

من تلك المدن حين بُنِيَ لا يُقْتَصَر فيها على قصر للحاكم، بل كانت تبنى فيها قصور ومساكن لآل بيته ولجنده وحاشيته ودواوينه، ويبنى فيها جامع كبير ومخطط شارعان متعامدان يقام عليها حوانيت للصناع والتجار ومساكنهم، فهي مدينة كاملة. وكانت هذه المنشآت - بل المدن - العمرانية تحتاج إلى مالا يكاد يمحى من العمال والصناع، إذ لا بد لها ممن يقطعون الأحجار ومن يقطعون الرخام وينحتونه أعمدة للقصور وكذلك للمحارس والحصون التي كانت تشاد على طول الساحل التونسي باسم رباطات.

وكان يبنى حول كل بلدة جديدة - وقد يبنى حول بعض البلدان القديمة - سور ضخم لى جميعها من الأعداء حين يهاجمونها وتقام فيه أبواب كبيرة مصفحة بالحديد. ولم يكن العمران حينئذ مدنا ومعازل وحصونا فحسب، بل كان أيضا صهاريج وأحواضا كبرى لسقاية الزروع والمساجد والشعب. وكل ذلك استلزم صناعات كثيرة من حداة ونجارة وغير نجارة وحداة سوى النقاشة واستخدام الفسيفساء (الموزايكو) فى حيطان الغرف والسقوف والأروقة المختلفة الرسوم بما يترأى فيها من الأزهار والرياحين والمناظر البديعة، وزخرفوا بالفسيفساء أحيانا صهاريج الماء وأحواضه. وكان الحكام يبنون لأنفسهم قصورا شامخة على نحو ما مر بنا فى الفصل الماضى من تشييد أبى فارس لقصره الضخم فى إحدى ضواحي تونس المسماة باردو، وتوالت فى الضاحية قصور للحكام من الحفصيين والعثمانيين كانت تنهر من يراها فضلا عن يزورها ويرى منحوتاتها ونقوشها البديعة. وحتى المنازل العادية للشعب كان أصحابها يتأنقون فيها، يقول الحسن الوزان عن منازل تونس: «لأكثر المنازل منظر بديع، وهى مبنية بحجارة مجهزة وجيدة النعت، وسقوفها مزدانة كثيرا بالفسيفساء وبالجمص المجزج، مع فن رائع، ومزودة باللون الأزرق وبألوان زاهية أخرى.. وتبلط الغرف بمربعات من بلاط مطلى بلون فاتح كما يبلط الصحن أيضا ببلاط مطلى بالدهان. وبيوتها على العموم - وحيدة الطابق - ولها مدخل بديع.. ويلجأ كل واحد إلى جعل مدخل بيته أكثر أناقة وأكثر زينة. وبجانب منازل المدينة وقصورها كانت هناك دور صناعة خاصة بالأساطيل وحاجاتها وإعدادها فى تونس وسوسة والمهدية، واستلزمت كثيرا من الخشب والحديد لصنع سفن الأسطول وأيضا من الخيال ونسيج الكتان لإشراعات السفن وقلاعها، وبلغت سفن الأسطول فى عهد الأغالة ثلاثمائة سفينة، سوى ماكان يحتاج إليه الأسطول من الأسلحة والعتاد الحربى من مثل السيوف والرماح والأقواس والسهام والمنجنقات وآلات هدم الأسوار، سوى بناء الأحواض الواسعة فى الثغر لخدمة السفن.

وهذا الإنتاج الصناعى الوافر وما سبقه من الإنتاج الزراعى الكثير هيا تونس - منذ عصر القرطاجيين - لأن تصبح سوقا عالمية كبرى، فكانت ترسل بمنتجاتها شمالا إلى شعوب

البحر المتوسط الأوربية وشرقا إلى مصر والشام وتركيا وغربا إلى الجزائر ومراكش وإسبانيا وغربا أوروبا حتى إسكندناوة، ومنذ عصر القرطاجيين كانت قوافلها تتغفل في فلولات الصحراء الكبرى إلى السودان الأوسط والغربي محملة بالسلع التونسية من الزيتون وزيت النخل ومن المنسوجات القطنية والكتانية والحريرية ومن السروج واللبد وأقفال الحديد والمفاتيح والإسفنج الذي يصاد على الساحل والملح المطحون الذي يحمل من ملاحات تونس الكثيرة، وتعود محملة بالجلود وريش النعام والعاج أو ناب الفيل والتبر والرقيق الأسود الكثير. وذكرنا في الفصل الماضي أن إبراهيم بن أحمد الأغلب استكثر من هذا الرقيق الزنجي في حرسه حتى بلغوا عشرة آلاف عَدًا، ومنذ الأزمنة السحيقة كان يظل كثيرون من هذا الرقيق في القطر التونسي مما جعل لهم فيه - من قديم - بعض القرى. وطبيعي أن تنشأ في كل بلد تونس سوق داخلية يشتري منها أهلها ما يحتاجون إليه من الحبوب والثمار والخضر والصناعات المختلفة. وأول من أمر بتنظيم هذه الأسواق في القطر التونسي الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤هـ) يقول أبو عبيد البكري: «كان السُّمَّاط - وهو سوق القيروان - متصلا (أى دكاكينه متلاصقة) فيه جميع المتاجر والصناعات وهو الذى أمر بترتيبه هكذا». وانتهت الأسواق في تونس وغيرها هذا النظام، حتى إذا كان عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٦ - ١٧٠هـ) رتب أسواق القيروان. عاصمته ترتيبا جديدا، وفي ذلك يقول ابن عذارى في البيان المغرب: «قد مهد أمور لبلاد، ورتب أسواق القيروان، وأفرد لكل صناعة مكانا». ومعنى ذلك أنه جعل لكل صناعة مجموعة من الدكاكين خاصة بصناعتها وبيعها، ومحدثنا الحسن الوزان عن سوق تونس حين زارها، ويذكر أن أهم الأمكنة في سوق تونس مكان تجار المنسوجات، يقول: «وهناك سوق خاص في تونس يحوى عددا كبيرا من تجار القماش، وبعد هؤلاء أكثر أهل المدينة ثراء، ويشغل تجار آخرون وصناع معهم هذا السوق كالعطارين، وباعة الأشربة والترياقات، وباعة العطور والحريز، والخباطين والسراجين (باعة السروج) والفرائين (باعة الفراء) وباعة الفاكهة، والحلايين، وصناع الزلابية (حلواء) والقصابين (الجزارين) الذين يذبحون في فصل الربيع والصف من الخراف أكثر من سائر الحيوانات الأخرى، وثم يهن كثيرة أخرى تمارس في هذا السوق لا يتسع المقام لذكرها».

الرّفة - المطعم والملبس - الأعياد - الموسيقى - المرأة

(أ) الرّفة^(١) - المطعم والملبس

مما يميز القطر التونسي كثرة الأمتعة والسلع والثمار والفواكه فيه، مما أتاح له - وخاصة في مدنه الشمالية حياة رافهة، ويصور ابن أبي دينار ما كان فيه أهل مدينة تونس من رفاهة في حياتهم بأن أغلبهم كانت لهم جنات وبساتين خارج المدينة، يقضون فيها الصيف والخريف مع أسرهم، فكانوا ييكرّون في الذهاب إلى المدينة كل يوم حيث يزاولون أعمالهم ويعودون في المساء إلى بساتينهم وجناتهم ومن أجل ذلك كانت الدكاكين في أسواق تونس لا تفتح صيفا وخريفا إلا بعد طلوع الشمس.

ويقول الحسن الوزان إن الخبز ظريف جدا في تونس، وهو أبيض اللون ومخبوز بشكل حسن، ولا يُصنع من الدقيق فحسب بل يمزج معه السميد، وتبذل عناية كبيرة في إعداد عجينه إذ يضرب بمدقة شبيهة بتلك التي يضرب بها الأرز في مصر. ويذكر الحسن الوزان عقب ذلك وجبتين شعبيتين أولاهما تسمى البسيس، وهي وجبة خفيفة مؤلفة من دقيق الشعير المحلول بالماء ويوضع فيه قليل من الزيت أو شيء من عصير الليمون أو البرتقال، ومن عادة الباعة والصناع وسكان المدينة تناول هذه الوجبة في النهار، والوجبة الثانية تسمى البازين، وهي أفضل من سابقتها، وتُصنع من عجينة تُقلى في الماء، وبعد أن تنضج تُرَصّ في وسط وعاء وتُسقى بالزيت أو بمرق اللحم. ويقول الحسن الوزان: هناك وجبات أخرى أكثر لذة في الطعم، ومن مطاعمهم لحم يسمى المروزية نسبة إلى مدينة إيرانية تسمى مرو الروز واللحم فيها يطبخ بأبزار نفوح، ويعدون أكلها عقب الإفطار في الصوم من التطيب. ومن طعامهم الزرير ويسمى في بعض البلدان باسم المويس وهو خليط من الأبزار والبحارات حار الطبيعة. ويصاد السمك على طول الساحل التونسي، وهو رخيص الثمن، ويصطادون منه أنواعا كثيرة منها نوع يسمى سبارس يصاد في صفاقس، وقد تكون الكثرة من سكان البلدة صيادين. ويشتهر سكان مدينة المهدية بصيد المحوت، ولأهلها شغف بأكله وتفنن في طرق صيده. وكما تتنوع مطاعم سكان القطر

الحضارة العربية بإفريقية للأستاذ حسن حسني
عبد الوهاب وبرنشفيك ٢٨١/٢ وما بعدها.

(١) انظر في الرّفة والمطعم والملبس الحديث عن مدينة تونس في كتاب وصف إفريقيا لحسن الوزان وراجعه في صفاقس، وكذلك كتاب ورقات عن

التونسي تتنوع حلواؤهم، ومنها المقروض ويقول برتشفيك إنه يصنع من السميد والتمر والعسل والبهارات ويقط في الزيت وينوه به ابن أبي دينار، ويقول: هو أطيب حلوانهم وليس بعده شيء، ومنها الزلاية وهي حلواء من عجينة رقيق يصب في الزيت ويقط ثم يصب في محلول السكر، ومر بنا - منذ قليل - أنه كان بتونس سوق خاصة للزلاية.

وإذا تركنا الطعام إلى الملبس وجدنا الحسن الوزان يقول: «أهل تونس طيبون للغاية ومحبتون كثيراً، ويلبس صناعها وتجارها وأئمتها وجميع موظفيها هنداماً جميلاً لائقاً، ويضعون فوق ردوسهم قلنسوة مغطاة بقماش طويلة، كما يضع العسكريون وموظفو البلاط قلنسوة على ردوسهم ولكن بدون قماش. ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب كانوا يلبسون الشاشية التونسية الحمراء ويكتسبون القشايبة الصوفية. أما السيدات فيقول عنهن الحسن الوزان: إن سيدات تونس هنداماً جيداً، وعندما يكن في الخارج يسترن وجوههن.. بوضع عصاية عريضة جداً من قماش فوق الجبين، وهناك حجاب آخر يدعى سفساري يجعل من ردوس النساء ردوساً ضخمة كبيرة، ولا تعني النساء إلا بزيتنهن وعطرن، بدليل أن باعة العطور هم دائماً آخر من يفلق دكاكينهم» ولا بد أنهم كن يعنين بجواهرهن وكانت في تونس سوق لبيع الجواهر للنساء كي يكملن بها زيتنهن. ويفصل القول فيما كان من تزيين النساء في ملابسهن لذلك العصر الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب قائلاً: «أهم ما ورثت النساء عن أمهاتهن بالمهدية في ذلك العصر أنواع من الكساء والتطريز بالحريز على الثياب الداخلية مثل القمعة وغيرها، ومنها أنواع من الوشاح والحواشي الحريرية المزركشة بألوان متغايرة، ومن هذه الحواشي تحمل صدور بعض الثياب النسائية، وهي تحفة فنية». ويقول في موضع آخر عن حجاب النساء في الساحل التونسي إنهن عند خروجهن من بيوتهن يرتدين إزاراً أسود ولا يتركن ظاهراً من وجوههن إلا العيون.

(ب) الأعياد

كتب ابن أبي دينار في كتابه: «المؤنس في أخبار إفريقية وتونس» فصلاً^(١) طريفاً عن الأعياد في تونس وأن أهلها كانوا يخرجون فيها للنزهة والتسلية بمواطن الجمال في ضواحي تونس، ويستهلها بعيد عاشوراء في اليوم العاشر من المحرم، وفيه ينفق التونسيون أموالاً طائلة في الأطعمة والفراخ والحلواء. وعادة في اليوم التاسع السابق له يطعمون الدجاج ويتحلون بالبودية وهي مثل الكنافة عند المصريين ويعبرون عما يأكلون من ذلك بقولهم: «الفطير

(١) انظر الفصل في أواخر كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار.

وما يطير» وما يطير الدجاج والفطير الدودة. ومن رأى هذا العيد في تونس رأى العجب، فالحوانيت - وخاصة حوانيت الفواكه - تزين. وعادة يخرج الناس زكاة أموالهم في هذا اليوم، ولذلك يتكاثر فيه الإنفاق على المأكّل والشارب، وكل يتفق بقدر استطاعته ويبيع من آلات الطرب والملاهي للصبية ما يفوت الحصر.

ومن ذلك عيد المولد النبوي الشريف لسيد الكائنات ﷺ، وأول من عني بإقامة الاحتفال به بين حكام الدولة الحفصية أبو فارس عبد العزيز في مطلع المائة التاسعة للهجرة، وأصبح ذلك تقليدًا سنويًا في ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الأول كل عام إذ تودد القناديل وتضاء الشموع وتزين المكاتب ويقام احتفال عظيم بدار نقيب الأشراف يحضره القراء والفقهاء والناس من أطراف البلد ويتعالى الغناء والأشعار والأناشيد بالمذائع النبوية، ويظل الاحتفال بهذا العيد في بعض زوايا تونس خمس عشرة ليلة متوالية تنشد فيها مدائح الرسول الكريم، وتُهرَّجُ الناس للتفرج. وتُصنع في أثناء ذلك الأطعمة الفاخرة احتسابًا لوجه الله تعالى وقرى لحبيبه خير البرية.

ومن ذلك عيد الربيع أو عيد النيروز في أول مايو من كل عام، ويقول ابن أبي دينار إنهم كانوا ينفقون فيه أموالًا نفوت الإحصاء ويتفاخرون بصنع أطعمة باهظة التكاليف من مثل المرقاز، ويقول برتشفيك إنه نوع من النقاق، ويكثرون من شراء الفواكه والرياحين والبقول، ويقول إن ما يباع في هذا اليوم من الفواكه والخضار والرياحين يبلغ مقدار ما تشتريه تونس في عام، ويذكر أنهم يجعلون من ذلك حوانيت في منازلهم يطلقون فيها جميع البقول والرياحين، ويقول إنهم يتجاوزون ذلك إلى الغناء وآلات الطرب فيجتمعون عند مكان يسمى بالوردة، وفيه يجتشد أهل الخلاعة والمجون من مغان ومطربين ومشعوذين، ويذهب كثيرون من أهل تونس للفرجة عليهم وشراء ما يعرض من فاكهة وحلوى.

ويذكر ابن أبي دينار أنه كانت تقام أعياد في ليلة النصف من رجب والسابع والعشرين منه وليلة النصف من شعبان والسابع والعشرين منه. وكانت ليالي شهر رمضان تعدُّ عيда كبرى، وكانوا يحتفلون بها غاية الاحتفال ويقومون بواجب رمضان وواجب حقه أتم القيام، ويحتم الإيام القرآن العظيم في صلاة التراويح بأغلب المساجد. وكان يقام احتفال كبير حين يحتم صحيح البخاري، ويذكر ابن أبي دينار أن النادى كان ينادى في سوق تونس بأن الحتم لصحيح البخاري غدًا صباحًا أو عشية فيتسارع النساء والصبيان والحواص والعوام لذلك. وكان هذا نفسه يحدث في القاهرة حين تحتم قراءة صحيح البخاري في الليالي الأخيرة من رمضان.

(ج) الموسيقى^(١)

عقد الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى الجزء الثانى من كتابه: «ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية» مبحثاً طويلاً رائعاً عن الموسيقى وآلات الطرب فى القطر التونسى ذكر فيه أنه ليس لهذا القطر مآثور قديم ذو بال فى الموسيقى، وأنه يتصل فيها مباشرة بالعرب. وقد عرف عن الفاتحين الأولين طريقة الهداء التى اشتهر بها العرب من قديم، حتى إذا تولاها المهالبة وخاصة يزيد بن حاتم (١٥٤ - ١٧٠ هـ) استعالت القيروان إلى مركز نشاط أدبى بن استقدمهم معه من الشعراء والمغنين من بغداد، فُعرفت من حينئذ بالقطر التونسى آلات الطرب مثل الطنبور والمزاهر (الدقوف) وشبّابات القصب. وازدادت فى القيروان المعرفة بالفناء وآلات الطرب حين نزل بها زرياب على زيادة الله الأعلى سنة ٢٠٥ وظل لديه أشهراً قبل رحلته المشهورة إلى قرطبة، وزيادة الله يستمع إلى ألحانه. ويُظنُّ أنه أخذت بعض الجوارى فى القصر عنه شيئاً من تلاحينه، وما نلبث أن نسمع بأن فى القيروان حياً خاصاً للملاهى والطرب، يقصده أهلها للفرجة وكان مجمعا للمغنين والضاربين على الآلات الموسيقية، وكان أهل الخلاعة والمجون يحتفلون إليه، ويذكرون من أساء المغنين فيه قاسما الجوعى وأبها شرف. وغضى إلى أيام إبراهيم بن أحمد الأعلى (٢٦١-٢٨٩ هـ) فنجدته يرسل سفارات متعددة إلى المشرق لتجلب إليه صفوة من العلماء والموسيقين ليحدث فى رقادة - التى شادها بجوار القيروان - نهضة علمية وموسيقية، وجلب إليه من بغداد مغن اسمه مؤنس، لقن غناؤه جوارى القصر فى رقادة عاصمة الأغالبة وهو يقوم فيها مقام زرياب فى قرطبة عاصمة الأمويين، وجلبت لزيادة الله الأصغر آخر الأغالبة جوارٍ يُحسنُ الفناء من بغداد. ويتكاثر هؤلاء الجوارى المغنيات كما يتكاثر المغنون أو قل يأخذون فى التكاثر لعهد العبيدين، وتنسج الموجة فى عهد الدولة الصنهاجية وما كان فى قصورها من مجالس الأُنس ويشترك فى الفناء غير تونسى يتقدمهم عبد الوهاب حاجب المنصور الأمير الصنهاجى (٣٧٤ - ٣٨٦ هـ) وكان شاعراً ويتغنى فى شعره ويلحنه، ويتحدث مراراً مؤرخ القيروان إبراهيم الرقيق عن مجالس غنائه. وفد على يحيى حفيد المعز بن باديس فى عاصمته المهديّة (٥٠١ - ٥٠٨ هـ) أمية بن أبى الصلت الشاعر الأندلسى، وكان متقناً لعلم الموسيقى الأندلسية، فنقل إلى المغنين فى المهديّة ألحان المغنين فى الأندلس، ولحن لهم - على أساسها - الأغانى الإفريقية، ومن حينئذ أخذ الفناء فى إفريقية التونسية وما يصعبه من موسيقى يزدهران، وما لبثت الهجرات الأندلسية المارة بنا - فيها أسلفنا -

وما به من مراجع وبرنشفيك ٤٣٢/٢ وما بعدها
ووصف إفريقيا للحسن الوزان ص ٤٥٣-٤٥٤.

(١) انظر فى الموسيقى الجزء الثانى من كتاب
ورقات عن الحضارة العربية فى إفريقية التونسية

لمهد الدولة الحفصية أن زادت بها ازدهاراً، وما يدل على هذا الازدهار في العهد الحفصي أنه كان للجيش فيه فرقة موسيقية تصحب أمير البلاد الحفصي في حفلاته وتنقلاته تمشي وراء الأعلام السلطانية تدق الطبول وتنفخ في البوقات، وذكر برنشتيك أن السلطان أباً فارس الحفصي (٧٩٥-٨٣٣هـ) ألغى ضريبة كانت تؤخذ من الموسيقيين والمغنيات المحترفات، وأهدى ملك نابولي آلة أورغن إلى ابن السلطان عثمان سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م ويذكر الحسن الوزان أن السلطان الحفصي أباً عبداقه بن الحسن الذي زار تونس في عهده سنة ٩٢٢ للهجرة كان يعيش بين المطربين والمطربات في قصره وبساتينه. ولا يعني الولاة العثمانيون بالموسيقى إلى أن تولى رمضان باي (١١٠٨-١١١٠هـ) إذ كان خبيراً بأنواع الموسيقى ذات الأوتار وذات الزامير، وكان عارفاً للألحان ولوعا بالفناء، وجلب من بلاد النصارى الآلة الموسيقية المعروفة باسم الأورغن وكان مغنيه «مزهود» يطربه بتلاحيته عليه.

وتزدهر الموسيقى بتونس في العهد الحسيني العثماني منذ عهد الباي محمد الرشيد (١١٦٩ - ١١٧٢هـ) وكان يتقن النظم بالشعر العربي، كما كان يتقن الضرب على مختلف الآلات الموسيقية مثل العود والكنجة، وجعله ولعه بالألحان والإيقاعات يؤلف بين الأغاني الأندلسية المعروفة في تونس باسم المألوف والألحان التركية. وقد أدخل فيها من تلك الألحان البَشْرَف وهو افتتاح اللحن واستهلاله. وكان للبايات احتفال موسيقي يقيمونه ليلة العيد في باردو، وكان أشبه بموكب موسيقي كبير، ويحضر فيه كبار الفقهاء، فإذا صُلِّيَ المغرب مُدَّ سَماط بأنواع الأطعمة وألوان الحلوى، ويجلس الباي في صدر السماط وتتوالى طبقات المدعوين، وبعد بَرُهة يجلس الباي ببهو، ويجلس عن يمينه وشماله الفقهاء والكتاب، ويصطف باقي الناس صفين عن اليمين وعن الشمال، وتوقد الشموع ويؤتى بالمجامر يفوح منها الطيب والمسك، ثم يدخل المُنُون من الترك بآلاتهم فيغنون باللسان التركي برهة ثم يخرجون ويدخل بعدهم المطربون والمُنُون بالفناء العربي. وظلت هذه المواكب تمتد في مواسم الأعياد بباردو حتى نهاية هذا العصر.

وبجانب هذه الحركة الفنية عند سكان الحضر، وخاصة في تونس كانت هناك حركة غنائية بدوية عند أهل الوبر التونسيين حملها إليهم - كما يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب - بنو سليم وبنو هلال في هجرتهم الكبيرة، إذ ظلوا يحافظون على أغانيهم التي ورثوها عن أسلافهم في بوادي نجد والحجاز، وقد لقنوها في بوادي تونس بعض عبيدهم وأرقائهم من أصحاب الأصوات الشجيّة، لينشدوها في الأعراس مصحوبين بعازفي الشبابات وضارب الطبول. ويقول الأستاذ عبد الوهاب إن لهم عزفاً يسمى طَرَق الصيد أي صيد الأسد، يُعرَف به على الشبابة البدوية، وفيه يقصون أفاصيهم الغرامية في وصف رحلاتهم مع محبوباتهم

ويتخلّلون مقاطع الأقصوصة بطرق حوافر الخيل للأرض ونبح الكلاب ووزير الأسد، للدلالة على تطور الأحداث في القصة أو في الرحلة الغرامية فراراً من الأهلين لعدم رضا الأب عن زواج المتحابين، وكأنهم يتشغلون فيها قصص الغرام النجدية التي كان يحرم فيها الأب النجدى الزواج بفتاته أو ابنته على من يتنزل بها من شباب القبيلة كما هو معروف في قصة ليلى العارمية وعاشقها ابن عمها قيس المجنون بها غراماً وهياماً.

(د) مكانة المرأة^(١)

مرُّ بنا في حديثنا عن الملبس في القطر التونسي أن النساء في تونس والمهدية كن يبالغن في العناية بزيتنهن وعطرهن وهندامهن، ولا نريد أن نعرض لذلك وما يماثله مما يتصل بمظهرهن، إنما نريد أن نقف عند مدى إحساسهن بكرامتهن، ويصور ذلك بوضوح ما يروى من أخبارهن، فمن ذلك ما تذكره الروايات عن أبي جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية فإن هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤ هـ) كان قد أقام عيونا على أسرة إبراهيم بن محمد حفيد عبد الله بن العباس وإخوته لما كان يبلغه من نشاطه ويعرفه فيه من الحزم وبعد النظر أو لعله كان يتوقع من أبناء الأسرة أن يفكر أحدهم في الثورة على خلافتهم الأموية، ولم يوعز إلى عيونه بتعقب إبراهيم بن محمد وحده بل أيضاً بتعقب أخويه السفاح وأبي جعفر المنصور ويبدو أن المنصور رأى أن يتعدى - لفترة - عن أنظار هؤلاء العيون، واختار القيروان لنزول بعض أقربائه فيها وتصادف أن رأى في مقامه لديه فتاة تسمى «أروى» أعجب بها، فطلب يدها فاشترطت عليه أن لا يتخذ معها سرارى أو جوارى، وإن تسرى عليها كانت عصمتها بيدها، وانفصلت عنه، كما تجرى بذلك عادة القيروانيات من قديم، وقبل أبو جعفر شرطها، وعاد بها إلى أهله. وتطورت الظروف، وأصبح خليفة، وأنجب منها المهدي الخليفة بعده وأخاه جعفرًا والد زبيدة حفيدة أروى وزوجة ابن عمها هرون الرشيد الخليفة بعد أبيه، وورثت عن جدتها حصافتها. وقد برّ المنصور بوعدة لأروى، فلم يتزوج عليها إلى أن توفيت سنة ١٤٦ للهجرة، وكان قد أقطعها ضيعة، فوقفتها - كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب - على ذريعتها من الأرامل اللاتي يموت عنهن أزواجهن، وكذلك على العوانس اللاتي لم يتزوجن، حفظاً لكرامتهن وصيانة لهن، وهى مأثرة وبر رفيع بفلذات الكبد من البنات سجلته أروى في تاريخ المرأة التونسية، كما سجلت شعورها بالكرامة في صورة نبيلة.

الثاني قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب للرفيق
القهرواني ص ١٢٠ وما بعدها وفي الموقف الثالث
ولاية خفاجة بن سفيان في صقلية.

(١) انظر في الموقف الأول القسم الأول من كتاب
ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية
للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وفي الموقف

وموقف كريم ثان لنساء القيروان عامة حين استنفر عبد الواحد بن يزيد الهواري وعكاشة بن محسن الصفرية في الجزائر للهجوم على القيروان، وكان الصفرية قد اشتهروا بسفك الدماء وهتك الحرم وسبيهن، وكان عبد الواحد قد اقترب من القيروان في ثلاثمائة ألف، وأخذ حنظلة بن صفوان وإلى القيروان يستعد للقائه، وما إن أخذ بمد صفوف جيشه لهذا اللقاء حتى فوجئ بنساء القيروان جئن للتحريض على الجهاد والاشتراك في الحرب، يقول الرقيق القيرواني: «خرج نساء القيروان فعقدن الألوية، وأخذن معهن السلاح، وعزمن على القتال واستبسلن للموت مع الرجال، وحلفن لأزواجهن: لئن انهزم أحد منكم إلينا موليا عن العدو لنقتلنه» وحين سمع الناس هذا الوعيد والتحريض الشديد من النساء وطنوا أنفسهم على الاستشهاد فالموت أولى بهم من عار سبائ زوجاتهم، وانتهاكهن وبيعهن في الأسواق بيع الإماء. والتحم القتال وتداعى الأقران والأبطال، وانتصر حنظلة والجيش ونساء القيروان، وقتل عبد الواحد وقتل من جموعه مائة وثمانون ألفا، وهى مفخرة باقية للمرأة التونسية لاستشعارها - إلى أقصى حد - كرامتها وحبتها للوطن استشعاراً يسجله لها التاريخ في الأزمنة الإسلامية الماضية.

وموقف كريم ثالث للمرأة التونسية لا في القطر التونسي بل في صقلية، فإن واليها خفاجة بن سفيان كان قد شدد الحصار على أهل طرميس سنة ٢٤٨هـ/٨٦٣م وكانوا ينازلون جيشه نزالا ضارياً ورأوا أن يقفوا الحرب وطلبوا من خفاجة وفدا للمفاوضة، فأرسل إليهم وفدا على رأسه زوجته لمفاوضتهم، وهى أول سيدة عربية تتولى السفارة بين قومها وأعدائهم، واستقبلوها بحفاوة، ونزلوا على إرادتها فيها وضعت لهم من شروط الصلح، وسلموها مفاتيح المدينة، وبذلك نجحت سفارتها نجاحاً عظيماً، إذ حققت دماء المسلمين وسلمتهم مفاتيح مدينة بأكملها ودخلوها صلحاً، وابن هذه السيدة البطل محمد بن خفاجة هو فاتح مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م إذ أعد لفتحها أسطولا قضى به على حاميتها الرومية، وظلت مالطة تابعة لصقلية إلى أن استولى عليها النورمان بعد نحو مائتين وثلاثين عاما. ومعنى ذلك كله أن للمرأة التونسية تاريخاً مجيداً في المصور الإسلامية بصور حصافتها وكياستها وشعورها بكرامتها إلى أقصى حد.

الدين^(١)

كان بربر القطر التونسي - مثل بقية البربر في الأقطار المغربية - وثنيين يعبدون الشمس والقمر والكواكب السيارة ويقدمون لها القرابين، وكانوا يقدسون كثيراً من الأحجار والأشجار، وكان القرطاجيون وثنيين مثلهم، ويبدو أنهم أخذوا يفسحون لليهود في النزول بقرطاجة منذ القرن الثالث قبل الميلاد، ولم يلبثوا أن عملوا على نشر اليهودية بين البربر، ولم يعتنقها إلا قليلون من البدو، وأخذ اليهود يقدون على القطر التونسي بعد تحطيم الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد حتى إذا كان الفتح العربي أخذوا يتكاثرون - مع السنين - في القيروان حتى كان لهم فيها حارة - أو كما نقول الآن حَيَّ - وكان لهم مقبرة خاصة بهم، وأيضاً كان لهم سوق يسمى سوق اليهود، وكان لهم معبد يؤدون فيه شعائره الدينية، وكل ذلك بفضل الإسلام وما بثه في المسلمين من روح التسامح مع أهل الكتب السماوية، وصدوراً عن هذه الروح كان علماءنا المتعمقون في علوم الأوائل يفسحون لهم في التلمذة عليهم وفي أخذ ما عندهم من هذه العلوم وما أضافوه إليها، مما جعل نفرًا منهم في القيروان يتزودون من معارف أطبائنا المسلمين ما أتاح لهم أن يصبحوا من كبار الأطباء على نحو ما سنعرف في فصل الثقافة.

وكانت المسيحية قد أخذت تنتشر منذ القرن الثاني للميلاد في قرطاجة وبعض بلدان القطر التونسي عن طريق بعض القساوسة من قبط مصر الذين حاولوا الدعوة لها مبكرين، وبذلك عُرِفَتْ فيها - أو أسست - كنيسة العقيدة الأرثوذكسية المصرية. وبعد ذلك حين اعتنقت روما العقيدة المسيحية أخذت تعمل على نشرها لا في إيطاليا وحدها بل أيضاً في الولايات التابعة لها، واتسع العمل على ذلك منذ عهد الإمبراطور قسطنطين واستيلائه في روما على أزمة الأمور سنة ٣١٢ للميلاد إذ أعلن المسيحية ديناً رسمياً للدولة وأخذ يعمل على نشرها في قرطاجة وإفريقيا، وبذلك أصبح للمسيحية في القطر التونسي كنيسة: الكنيسة الأرثوذكسية القبطية السابقة،

كتب التاريخ وخاصة البيان المغرب لابن عذاري
ومعالم الإيمان لابن ناجي ورياض النفوس للمالكي
وتاريخ ابن خلدون وخلاصة تاريخ تونس لحسن
حسن عبد الوهاب.

(١) انظر في اليهود والنصارى كتاب وركات
للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في مواضع
متفرقة وبرهنتيك ٤٢٩/١ وما بعدها وكتاب تاريخ
المغرب الكبير لدبوز وراجع في الحركة الإسلامية

وكنيسة روما الكاثوليكية. وكان في القطر التونسي - حين الفتح - مسيحيون كثيرون، إذ كانت الجاليات والحاميات الرومانية مسيحية، وكانت روما قد نشرتها قبل الفتح في بقايا السلالات القرطاجية وبين البربر، واعتنقها كثيرون من الشعب البربري في المدن لما رأوا فيها من الدعوة إلى المساواة والعدل الذي لا تصلح حياة الشعوب بدونه، غير أنهم عادوا فوجدوها دين حكامهم من الرومان الذين يظلمونهم ظلما فادحا في الضرائب وغير الضرائب، فانصرفوا عنها إلا قليلا منهم، ومع ذلك ظل قساوسة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يدعون لها، وتغلغلوا بدعوتهم حتى بلاد الجريد التي كانوا يسمونها قسطنطينية. وبعد الفتح العربي أخذ كثيرون من هؤلاء المسيحيين يدخلون في الدين الحنيف طواعية، وبدون أى إكراه، لبساطته ولتحريره الشعوب من كل عبودية ومن كل ظلم مع محوه لجميع المحاجز الطبقية والاجتماعية بين أفراد الأمة، فهم جميعا متساوون في كل الحقوق وكل الواجبات، وبذلك نفهم كيف أوشك الإسلام في القرن الأول الهجرى أن يقضى على المسيحية قضاء مبرما في القطر التونسي مع أن العرب طوال هذا القرن وبعده رخصوا للمسيحيين التونسيين تجديد كنائسهم وتركوا لهم منتهى الحرية في إقامة طقوسهم وشعائهم الدينية. ولولا أن عناصر مسيحية ظلت تنزل البلاد من وقت لآخر لانمحت المسيحية من القطر التونسي - أمام المد الإسلامى - محو تاما، وأول ما كان من ذلك استخدام حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) ألف أسرة قبطية للمساعدة في إنشاء دار الصناعة بتونس، وبذلك ظلت الكنيسة الأورثوذكسية حية في القطر التونسي. ويحلب إبراهيم بن الأغلب آلافا من الصقالبة لحرسه، وجلب حفيده إبراهيم بن أحمد رهبانا من صقلية للمساعدة في الترجمة بدار الحكمة التي أسسها، مما أتاح للكنيسة الكاثوليكية أن تظل حية هي الأخرى، ويحلب العبيديون بدورهم صقالبة وصقليين، ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إن المسيحيين وفدوا بكثرة في عهد الدولة الصنهاجية، وخاصة أن أمهات بعض حكامها كن مسيحيات ويتمتعن بحريتهن الدينية. وكانت في تونس حارة خاصة بالمسيحيين ومقبرة أيضا خاصة بهم وكنيسة يقيمون فيها شعائهم، وأخذوا يتكاثرون حين عظم نشاط أمراء البحر العثمانيين وكانوا أسرى حقا، ولكن الدايات كانوا يساعدونهم في أداء شعائهم الدينية، ويدل على كثرتهم حينئذ ما يقال من أن مراد باي قبل أن يتولى الولاية سنة ١٠٢٢هـ/١٦١٤م حين كان أميرا للبحر جلب لتونس في إحدى المرات اثني عشر ألف أسير أوربي مسيحي.

ويأخذ البربر في اعتناق الإسلام منذ فتح عبد الله بن سعد بن أبي سرح القطر التونسي سنة ٢٧ للهجرة، واستقر العرب في بعض مدنه وأنعائه، ولم يكن العرب غزاة فاضين فقط بل كانوا يعدون أنفسهم - قبل كل شيء - ناشرين للإسلام وهداة في أطباق الأرض، وما نصل إلى عهد حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) حتى نجد في جيشه كتيبة بربرية كبيرة تبلغ اثني

عشر ألفا كما يقول ابن عذارى تشترك في فتوحه وجهاده في سبيل الله. وهي رمز قوى لاندماج البربر في الإسلام، فإنهم لم يسلموا فحسب بل أصبحوا من دعاة الإسلام وحماته، وقد اشتركوا بقوة في جيش طارق بن زياد الفاتح لإيبيريا، ونفس القائد: طارق كان بربريا، وولاه موسى بن نصير والى إفريقية بعد حسان على طنجة، ثم كلفه بفتح إيبيريا سنة ٩٢هـ/٧١١م وأخذت انتصاراته تتوالى، واستمد موسى بن نصير، فلحق به على رأس جيش مزيج من العرب والبربر وتم لها اكتمال الفتح المبين.

ومعنى ذلك أننا لا نصل إلى الربع الأخير من القرن الأول الهجرى، حتى يصبح البربر لا في القطر التونسي وحده، بل في جميع بلاد المغرب شعبا إسلاميا لا يؤدى شعائر الإسلام وفروضة الدينية فقط، بل أيضا يعمل على نصرة الإسلام ونشره لا في ربوع المغرب وجباله الوعرة وصحاريه المترامية فحسب، بل أيضا في إيبيريا بأوروبا، وهو ما أذهل جماعة المؤرخين والمستشرقين الغربيين، فإن الرومان ظلوا يحتلون البربر قرونا متطاولة وظلوا يحاولون نشر المسيحية في ديارهم، ولم يجدوا بينهم آذانا صاغية، وما هى إلا أن يغزوهم العرب، وإذا هم يفتحون أذرعتهم وأفندتهم للإسلام، فيصبحون في نحو نصف قرن شعبا إسلاميا، إذ وجدوا الإسلام يحمرهم من الظلم والاستعباد اللذين طالما ذاقوها في حكم البيزنطيين والرومان تحت ظل المسيحية سوى ما تحمله تعاليمه للشعوب من العدالة بين الناس والمساواة وبحو كل الفوارق الطبقية والجنسية. وانضافت إلى ذلك تطبيقات ولاية القرن الأول الهجرى عقبة بن نافع وابن أبى المهاجر وحسان بن النعمان وموسى بن نصير لتعاليم الإسلام ومبادئه في حكم البربر بحيث أصبح البربرى يشعر أنه عضو عامل - كبقية الأعضاء عربا وغير عرب - في أسرته الإسلامية الكبرى، فله ما للعرب من الحقوق، وعليه ما عليهم من الواجبات، فهو يتولى حكم هذه المدينة أو تلك، وهو يقود الجيوش الإسلامية في المغرب وخارج المغرب، لا فرق أى فرق بين بربرى وعربى.

وتوَّج عمل ولاية القرن الأول الهجرى في نشر الإسلام بين البربر بالبعثة التعليمية التي أرسلها عمر بن عبدالعزيز إلى القيروان سنة مائة للهجرة على رأسها إسماعيل بن عباد بن أبي المهاجر، وأسند إليه ولاية المغرب وكانت البعثة مكونة من عشرة من صفوة الفقهاء في الأمة أرسلهم عمر لتفقيه البربر والعمل على نشر الإسلام بينهم، وأهمهم بالإضافة إلى إسماعيل عبَّاد بن يزيد الماعفرى المعروف بالحبل، وعبدالرحمن بن رافع التنوخى وإسماعيل بن عبيد الأنصارى وسعد بن مسعود التجيبى، وكل منهم بنى في القيروان دارا لمسكنه ومسجدا لصلاته واجتماعه بالبربر بفقهم في الدين وكتابا لتعليم الناشئة مبادئ العربية وتحفيظها القرآن الكريم. وبذل كل منهم أقصى ما يستطيع في نشر الدين الحنيف، يتقدمهم في ذلك

إسماعيل بن عبادته بن أبي المهاجر، وفيه يقول ابن عذارى: «ما زال إسماعيل حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام، حتى أسلمت بقية بربر إفريقيا على يديه في دولة عمر بن عبدالعزيز، وهو الذى علم أهل إفريقيا الحلال والحرام».

وعلى هذا النحو أصبح البربر في نهاية القرن الأول الهجرى شميا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة فهو يتغلغل في ذات نفوسهم، ويتمتع قلوبهم وأفئدتهم، وخلف عمر بن عبد العزيز خلفاء أمويون ضلوا السبيل فولّوا على القيروان وإفريقية ولاية طاعين باغين أخذوا يفرقون بين العرب والبربر في الخراج، مما جعل البربر يفكرون في مخرج من هذا الظلم الفادح، وسرعان ما أخذ الحوارج الصفرية والإباضية ينشرون مبادئ عقيدتهما الآخذة بتعاليم الإسلام في النسوية بين العرب والبربر في الخراج وغير الخراج. ونكّب البربر بتولية عبيد الله بن المحبّاب القيروان وإفريقية، وكان هو ونوابه في إفريقية جميعها يتمتعون بالحق والصفاء، فصاحوا في التفرقة بين البربر والعرب، وأخذت جموع كثيرة في المفرقة الأقصى والأوسط تنضم تحت لواء الصفرية، وكانوا متطرفين تطرفا شديدا يستحلون من المسلمين سفك الدماء وسبى النساء واسترقاقهن، وانضمت جموع أخرى تحت لواء الإباضية في جبل نفوسة ولم يكونوا يستحلون - مثل الصفرية - سفك دماء المسلمين ولا سبى نسايتهم. وتار الصفرية بالمغرب الأقصى وتقدم جيشان لهم إلى القيروان سنة ١٢٤هـ/٧٤١م يريدون الاستيلاء عليها وهزما هزيمة ساحقة. ودخلت قبيلة ورفجومة الصفرية القيروان سنة ١٢٨هـ/٧٥٥م وأخرجها منها أبو الخطاب الإباضى سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وولّى عليها عبد الرحمن بن رستم الإباضى، وسرعان ما نازل جيش عباسى أبا الخطاب وقضى عليه، وفر عامله عبد الرحمن بن رستم إلى الجزائر وأسس في تيهرت دولة إباضية.

وكل هذه الإمامات للإباضية والصفرية بالقيروان لم تترك بها أى أثر، وكأنها كانت سحابات صيف لم تكد تلم حتى أفلعت، ولا نسمع عن أى أحد من القطر التونسي اعتنق إحدى هاتين العقيدتين. ومعنى ذلك أن القيروان ظلت دارا كبرى للسنّة، ولم تأبه بتعاليم الصفرية والإباضية، وقد امتشقت الحسام ونازلت الأولين منازل ضارية كما مر بنا في الفصل الماضى، بل لقد دمّرت جيشين لها ومحققتها محقا ذريعا. وأخذت القيروان في أواخر القرن الثانى الهجرى وطوال القرن الثالث عذيين من مذاهب أهل السنّة هما مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك، وكان للمذهب الثانى غير قليل من الغلبة لكثرة فقهاءه. وما إن تستقر الأمور في القيروان لبني عبيد الفاطميين حتى يعلنوا عقيدتهم الشيعة، وحتى يأمر عبيد الله المهدي أول خلفائهم بتعطيل تعليم الشريعة والفقه على مذاهب أهل السنّة، ويريد مذهبي مالك وأبى حنيفة، ومنع شيوخ المذهبين من إلقاء دروسهم في جامع عقبة فكانوا يقرنون تلايمهم إما في بيوتهم وإما في حوانيتهم، وكانوا قد اضطهدوا

محمد بن اللباد رئيس المالكية، وسجنوه، وعادوا فردوا إليه حريته وألزموه الاعتكاف في بيته، فكان تلاميذه يقصدونه خفية ويقروون عليه في بيته، وكان ربيع القطن يقرئ تلاميذه في حانوته الذي يبيع فيه القطن. وظل العبيديون يحاولون القضاء على مذهبي مالك وأبي حنيفة، وعلماء السنة يقاومونهم مقاومة حادة وينزلون دعائم منازل ضارية، وكان الفقيه سعيدين الحداد يقود هذه المنازل في أيام عبيد الله المهدي، وسمع به وبإسكاته الدعاة وإلزامهم الحججة، فاستدعاه - كما يقول المالكي في كتابه «رياض النفوس» - وعرض عليه الحديث النبوي: «من كنت مولاه فعلي مولاه» فقال له سعيدين: هو حديث صحيح قد رواه أهل السنة، فالتفت إليه وقال له: فما للناس لا يكونون عبيدنا؟ فقال له سعيدين: أعز الله السيد، لم يرد (الرسول) ولاية الرق، إنما أراد ولاية الدين، فقال له عبيد الله المهدي: هل من شاهد يؤيد كلامك من كتاب الله عز وجل، فقال له: نعم، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ، وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ثم قال سعيدين: فما لم يجعله الله لنبي لم يجعله لغير نبي، وعلى لم يكن نبيًا إنما كان وزير النبي ﷺ. وبذلك أفحمه، فقال له انصرف. ولم تغف المسألة في العقيدة العبيدية الفاطمية عند محاولة الخلفاء العبيديين استبعاد الناس، فقد حاولوا إقناعهم بأنهم الصورة المجسدة للذات العلية تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا إلى غير ذلك من ضلالتهم التي صورنا أطرافا منها في كتابنا - هذه السلسلة - عن مصر. وظلت القيروان تقاطع عقيدتهم إلى أن انتقلوا إلى القاهرة وعادت لمذاهب أهل السنة نشاطاتها وخاصة مذهب مالك، ولم يلبث المزمز الصنهاجي سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م أن حمل الناس والفقهاء على اتباعه، فظل هو المذهب السني الأساسي في القطر التونسي إلى اليوم، وحقا اشترك معه المذهب الحنفي أيام العثمانيين، ولكن ظل هو المذهب السني للجماهير التونسية.

٥

الزهد والتصوف^(١)

هذا القطر أو هذه الدار التونسية الكبيرة للدين الحنيف أخذت تتحول سريعا إلى دار

الفلسفي والسني ما كتبنا عنها في الجزء الخاص بمصر من هذا التاريخ للأدب العربي وكذلك انظر في هذا الجزء ترجمة أبي الحسن الشاذل.

(١) راجع في الزهد والتصوف كتاب رياض النفوس في التراجم وكذلك طبقات علماء إفريقية لأبي العرب ومعلم الإيمان لابن ناجي، وبرنشفيك ٣٣٢/٢ وما بعدها. وانظر في المزمزين الصوفيين:

كبرى لعبادة الله الواحد الأحد، وأخذت المساجد تُبنى في كل بقعة وفي كل بلد، وكان الفاتحون يُقرنون البربر القرآن ويفقهونهم في الدين وينشرون تعاليم الإسلام وما يدعو إليه من العبادة والتسلك، وقد تميز أفراد البعثة التي أرسل بها عمر بن عبدالعزيز سنة مائة للهجرة بالزهد في عرض الدنيا الزائل، وكان منهم إسماعيل بن عبيد الذي اشتهر في القيروان باسم تاجر الله، لأنه كان يتجر ويحمل ثلث كسبه لله، ينفق في وجوه الخير، وهو يمثل شخصية زهاد الدين الحنيف الأولين. فهو يعبد الله ويفقه الناس في الدين، ويحفظ الناشئة القرآن في كتاب، وهو لا يعيش كلاً أو عبثاً على الدولة ولا عالة على الناس، بل يتجر ويكتسب من التجارة ما يقيم به أوده، ثم هو يقوم بالواجب الأكبر عليه للأمة: واجب الجهاد لأعدائها وأعداء دين الله، وبأخرة من حياته في القيروان حمل سيفه وخرج مجاهداً لإعلاء كلمة الله في صقلية وخرق في البحر المتوسط سنة ١٠٧ للهجرة، وبلغته بعده في القيروان يزهد كثيرين تُعنى كتب الطبقات بالترجمة لهم والحديث عنهم ومن أهمهم في أواسط القرن الثاني الهجري زياح بن يزيد اللخمي، وكان زاهداً وعابداً ناسكاً، وتوفاه به طويلاً أبو العرب في الطبقات والمالكى في رياض النفوس. وبالمثل نوها بالتهلول بن راشد وزهد وورعه، وكان يحاصرها على بن زياد أول من أدخل كتاب الموطأ لمالك بن أنس إلى إفريقية التونسية، توفي سنة ١٨٣ للهجرة، وله كتاب في الزهد، وبالمثل لعبد الملك بن أبي كريمة مولى إسماعيل بن عبيد تاجر الله كتاب في الزهد، وكان من أهل الفضل والورع.

ومن أهم ما سجلته كتب الطبقات هؤلاء الزهاد الورعين أنهم كانوا دائماً يخرجون في وقت من السنة للعبادة في الرباطات والمحارس التي كانت متخذة على طول الساحل التونسي لإقامة المجاهدين المتربصين بالقراصنة الغربيين أعداء الله حين يغيرون فجأة في موضع على الساحل التونسي الطويل. ومعروف أن زيادة الله الأول الأغلبى حين أعد حملته المشهورة لفتح صقلية في سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م جعل قائدها أسد بن الفرات قاضى القيروان وكبير فقهاء في زمنه. وفي ترجمة سحنون أكبر فقهاء القيروان بعده أنه كان يربط وقتاً في السنة بالقرب من ميناء سوسة، ومع أنه كان على شيء من الثراء كان يتخشن في ملبسه ومطعمه مع الورع الصادق والزهادة في الدنيا، وكان ابنه محمد الذي خلفه في حلقته لإقراء الطلبة يخرج وقتاً في السنة - مثل أبيه - للمرابطة وحراسة المسلمين، وتروى له مقتلة في قرصنة الروم، فقد تصادف أن لقيهم ذات مرة وقد أشرفوا - في غيبة الرجال - على نهب بعض الأموال وسبي الحرير فنقلد سيفه وأخذ بيده رحمه وامتطى جواداً له، ورآه بعض المرابطين فأسرعوا إليه، وكبر وكبروا معه، واشتبكوا في حرب مع القراصنة، وأجهزوا على بعضهم، ففرت بقيتهم هاربة إلى البحر المتوسط وما وراءه. وإنما نسوق ذلك لندل على أن الزهاد والنسك في الحقب الإسلامية الأولى لم يكونوا

يعيشون للزهد وعبادة ربه فقط، بل كانوا دائماً يحملون السلاح ويتقدمون الصفوف في حرب أعداء الله والوطن، مؤمنين بأن جهاد أعداء الله لا يقل عن عبادته نسكاً وقرْباً إليه. ولم يكونوا يمشون عائلة على المجتمع، بل كانوا دائماً يحترقون حرقاً تدرّ عليهم أرزاقهم، على نحو ما مرّ بنا آنفاً عند إسماعيل بن عبيد تاجر الله.

وأخذ هؤلاء الزهاد والعباد يتكاثرون في القيروان أثناء القرن الثالث الهجري، حتى لنتراهم يتخذون مسجداً سموه مسجد السبت، كانوا يقصدونه يوم السبت للذكر والعبادة، وكانوا ينشدون فيه الأشعار بتطريب فرادى وجماعة، وكان ذلك كان مقدمة لما سيصير إليه ذكر الله في البلدان المغربية، إذ سيصبح اجتماعات دورية للذكر في المساجد والزوايا بعد أن كان مرتبطاً بجهاد أعداء الدين والوطن ومراقبتهم على الساحل التونسي الطويل في الرباطات والمحارس الكثيرة التي كانت تُعدّ بالمشرات. وحاول - مبكراً - يحيى بن عمر الكتاني المتوفى سنة ٢٨٩ للهجرة أن يقاوم الاجتماع المار للذكر في مسجد السبت، فألف كتاباً يردهم عن هذا الطريق الذي ابتدعوه ولم يستجيبوا إليه.

ومن يقرأ التراجم في كتاب رياض النفوس للمالكي المتوفى سنة ٤٧٢ للهجرة وكتاب معالم الإيمان للدباغ وذيله لابن ناجي المتوفى سنة ٧٣٨ يلقاه كثير من الزهاد النساك وخاصة بين الفقهاء والتقاة، وأخذ التصوف ينشط في الدولة الحفصية منذ مؤسسها أبي زكريا، وكان ورعاً تقياً، وكان كلما بنى مسجداً نهض بأول أذان فيه قرأ لربه، وبنى أمراء الدولة كثيراً من المساجد في تونس وبلدانها. وأخذ التصوف ينشط في عهد تلك الدولة، وكان بعض أئمتها الأندلسيين ينزلون القطر التونسي قبل تلك الدولة في القرن السادس الهجري، ومن نزل بها منهم أبو مدين شعيب، وهو من إشبيلية، أجاز البحر إلى المغرب، فاشتهر به خبره في التصوف والنسك، وتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م وله فيها زاوية كبيرة، وله أتباع كثيرون، وكان قد نزل بتونس فترة، وتبعه في طريقته الصوفية غير تونسي، منهم أبو سعيد خلف بن يحيى التميمي المتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م والمدفون ببلدة جبل المنار بالقرب من قرطاج، والبلدة مسماة باسمه وفي رأيي أن أبا مدين كان ينزع في تصوفه المتزعم الفلسفي، وهو المنزع الذي بدأه الحلاج والذي كان أصحابه يؤمنون بالاتحاد بين المخلوقات والمخالق جل شأنه أو بعبارة أخرى بين الإنسان وربه، واقترن بذلك الإيمان بالفناء في الذات العلية، والباحثون في هذا المنزع، منهم من يقف عند الظاهر من عبارات أصحابه وأشعارهم فينسبونهم إلى القول بالاتحاد مع الذات الإلهية وأكثر من ذلك بالحلول وأن الله يحل في الإنسان وجزيئات الطبيعة، ويؤثر عن أبي مدين أنه كان يقول: «ي قل، وعلى ذلك، فأنا الكل» والعبارات قد تفسر بأن أبا مدين يؤمن بالاتحاد في الذات العلية وحلولها فيه وقد تفسر بأنه إنما يؤمن بالفناء في الذات الربانية. وزار تونس بعده من أصحاب

المنزغ الصوفي الفلسفي ابن عربي المرسى الأندلسي الناشئ بإشبيلية والمتوفى بدمشق سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م وهو من أئمة هذا المنزغ، وظل في تونس فترة ألف فيها كتابه: «الدوائر الإحاطية في مضاهاة الإنسان» ونظن ظنا أنه خلف بتونس بعض مريديه المعجبين به ويمنّزعه.

ومن المؤكد أن هذا المنزغ الصوفي الفلسفي لم يكتب له الشيوع والانتشار في تونس، إنما الذي كتب له ذلك المنزغ الصوفي السني الذي لا يؤمن أصحابه بعلول الذات العلية في جزئيات الكون ولا باتحادها معها أو مع الإنسان ولا بالفناء في الذات الربانية، فحسبهم محبة الله وذكره وتسبيحه، وقد قام على هذا المنزغ في القرن الخامس عبد الكريم القشيري المتوفى سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م والإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ/١١١٢م وسرعان ما أخذت الطرق الصوفية السنية في الظهور أثناء القرن السادس الهجري، ومن أهمها طريقتان: القادرية نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني مولدا الحسيني نسباً نزيل بغداد المتوفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م والطريقة الأحمدية أو الرفاعية نسبة إلى الشيخ أحمد الرفاعي البغدادي المتوفى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م. ورُحِّيت البلاد الإسلامية بهاتين الطريقتين، وأخذت تضيف إليها طرقاً صوفية سنية جديدة، وتجرد شيخ تونس هو الشاذلي أبو الحسن علي بن عبد الله الحسيني المنسوب إلى بلدة شاذلة بالقرب من مدينة تونس المولود سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م لإنشاء طريقة صوفية سنية، بجانب الطرق التي عمت وشاعت في البلدان العربية، وأخذ يحاول نشرها في تونس، وتبعه مريدون كثيرون رجالاً ونساء، منهم علي القرجاني وحسن السيجومي وللاً (السيدة عائشة المنوبية) المتوفاة سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م وهي من قرية منوبة غربي مدينة تونس ولها زاوية كبيرة، ولبعض النساء ببلدتها اعتقاد فيها، ولذلك يزورها ويتوسلن بها لحاجاتهن: حُمل وغيره. وفي تونس تعرف بتلميذه أبي العباس المرسى، وصحبه مع جمع من مريديه إلى الإسكندرية سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م وسرعان ما أصبحت طريقتة أهم الطرق الصوفية السنية بمصر. وظلت طريقتة حية بتونس مع طريقة القادرية السابقة لها، ومع طرق أخرى وفدت على تونس من المغربين الأوسط والأقصى مثل طريقة التجاني والطريقة العروسية للشيخ أحمد بن عروس المتوفى سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م. وله في تونس زاوية كبيرة.

وقد تكاثرت زوايا المتصوفة في تونس والأقطار المغربية كثرة مفرطة، وتحولت في الحقب المتأخرة إلى ما يشبه تكايا ينزلها مع الدراويش الجوالين كثير من المشعوذين الدجالين، وكان منهم من يدعى لنفسه الكرامات وأنه من أولياء الله، والله براء منه لانحرافه عن جادة الدين والتصوف السني الحقيقي.

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة العلمية^(١)

(أ) فاتحون مجاهدون معلمون

خرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح والى مصر للخليفة عثمان في جيش للمسلمين عداده عشرون ألفا للاستيلاء على إفريقية التونسية سنة ٢٧هـ/٦٤٧م والتقى بجيش والى بيزنطة الناصر عليها والمستقل بالبلاد: جريجيوريوس وكان في مائة ألف من الروم والبربر، ونصر الله المسلمين، وقتل جريجيوريوس في المعركة وسحق جيشه سحقاً، وأخذت مدن إفريقية التونسية تفتح أبوابها للمسلمين. وعادة يذكر المؤرخون هذا الفتح المبين ولا يتحدثون عن جنوده وأنهم كانوا جنود الدين الحنيف خرجوا وحاربوا جهاداً في سبيل نشره، بقيادة ابن أبي سرح أحد كتاب الوحي ومعه في المقدمة العبادة: عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ويقال أيضاً كان معهم عبد الله بن جعفر وعبد الله بن مسعود، ولذلك سمي جيش العبادة وكلهم من نقاة الأمة الورعين. لم يخرجوا إلى إفريقية التونسية ابتغاء دنيا، إنما خرجوا للجهاد في سبيل الله ونشر دينه الحنيف في أرجاء إفريقية، وبضربة من يد عبد الله بن الزبير قتل جريجيوريوس وبضربات من أيدي زملائه العبادة وأيدي جند الدين الحنيف المجاهدين في سبيله انهزم الجيش الضخم ومن بقى من عساكره أصابهم رعب شديد واعتصموا بالمعاقل

للسراق وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي وانظر في جامع عقبة والزيتونة معالم الايمان لابن الدباغ وابن ناجي وكتاب وروقات عن الحضارة العربية في إفريقية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وانظر المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس لابن دينار.

(١) انظر في الفاتحين المعلمين كتب التاريخ مثل فتوح مصر لابن عبد الحكم وقطعة من تاريخ إفريقية للرفيق القمرواني (طبع في تونس) ومقدمات الجزء الأول من رياض النفوس وراجع في النشأة العلمية طبقات أبى العرب والبيان المغرب لابن عذارى والحلة السراء وأخبار النحويين البصريين

والحصون، ولم يلبثوا أن جاءوا إلى ابن أبي سرح مستسلمين طالبين الصلح فصالحهم، ودانت إفريقية التونسية للدين الحنيف وجنوده.

ونجد عند الفاتحين داتها هذا الشعور بأنهم مجاهدون في سبيل الله، فابن أبي سرح قبل منازلة جرمجور يوس يخطف في الجيش محرّضا على الجهاد، إنه ليس فتحا ولا غزواً إنما هو جهاد في سبيل إعلاء كلمة الدين الحنيف، وداتها نجد هذا الشعور ماثلا في أذهان الفاتحين وكان أول من تعمق في البلاد المغربية مجاهدا في سبيل الله حتى المحيط الأطلسي عقبة بن نافع، وقد أدخل فيه قوائم فرسه ورفع وجهه إلى السماء مناجيا ربه بقوله: «اللهم إني أشهدك أني وصلت براية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يعبد أحد سواك» فهو وجنوده لم يكونوا غزاة للمغرب الأقصى يجمعون منه الغنائم، إنما كانوا جنوداً لله يريدون أن ينشروا دينه إلى أقاصي الأرض المعمورة. وتوفي عقبة وثار كسيلة، ودخل بجموعه القيروان، وفنك زهير بن قيس القائد بعد عقبة به وبجيشه حتى إذا دان له المغرب أبى أن يظل حاكما له، وعاد إلى المشرق قائلا: «إني ما قدمت إلا للجهاد، وأخاف أن تميل نفسي إلى الدنيا فأهلك». فقاداة الجند الفاتحين للمغرب والجند أنفسهم لم يكونوا طلاب دنيا إنما كانوا مجاهدين يبتغون نشر الإسلام طالبين ما عند الله من ثواب الآخرة، وهم لذلك لا يبالون بالموت، فقد باعوا أنفسهم لله، صفقة كلّت غزواتهم في الفتوح الإسلامية بالانتصارات الحاسمة.

وتتضح خلال ذلك صفة ثانية لهم هي أنهم ناشرون للإسلام، فليس همهم من فتوحهم تملك الأرض وماعليها من طيبات الرزق، إنما همهم تملك القلوب للدين الحنيف، وهم لذلك يحاولون - كل بقدر إمكانه - تعريف البربر به وبتعاليمه، وأخذ يستجيب لهم البربر، لما وجدوا في عقيدته من بساطة، إذ لا تعدو الإيمان بوحداية الله. وليس فيها فكرة التثليث المعقدة عند النصراني، والله رحيم وسعت رحمته كل شيء، وهو عالم قادر شمل علمه - وشملت قدرته - كل ما في الكون، والسلمون عربا وبربرا سواسية في جميع الحقوق والواجبات مع العدل المطلق الذي لا تصلح حياة الشعوب بدون، ومع محو جميع الفروق الطبقيّة والاجتماعية بين أفراد الأمة، ومع تحرير الشعوب من كل عبودية. وقد أخذ هذا الجند الفاتح للمغرب المجاهد في سبيل الله يحاول - بكل ما يستطيع - نشر هذا الدين، فهم يحفظون البربر شيئا من القرآن، وهم يقفونهم على تعاليم الإسلام وهديّه، وبذلك كانوا معلمين للبربر كما كانوا مجاهدين. ونجح تعليمهم سرّيعا، وأخذت جماعات كثيرة من البربر تعتنق الدين الحنيف لا اعتناقا ظاهريا، بل اعتناقا يتعمق منها القلوب والأفئدة، فإذا هي تخلص له، وإذا هي تحمل السلاح لنشره وحرب أعدائه وأعداء الله، فمن ذلك ما يقال في ولاية أبي المهاجر الإفريقية (٥٥-٦١ هـ) من أن قبيلة أوربة اتحدت مع جيشه في الاستيلاء على الساحل الشمالي للجزائر. وبصبح البربر جزءا

لا يتجزأ من الجيش العربي لعهد حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) إذ نراه يعين ابني الكاهنة التي قادت ثورة عنيفة ضد المسلمين قائدين في الجيش بعد إسلامها، وأدخل فيه كتيبة من البربر عداها اثنا عشر ألفا، وبذلك لم يعد في الجيش أى فارق بين العرب والبربر، فهم يجندون فيه ويتولون قيادة بعض فرقه الكبيرة، ويتولى بعده موسى بن نصير (٨٦-٩٦هـ) فيتخذ من البربر ولاية وقوادا مثل طارق بن زياد فقد ولاه طنجة ثم جعله قائداً للجيش الفاتح لإيبيريا وكان جيشه مؤلفاً من سبعة عشر ألف جندي عربي واثني عشر ألف جندي بربري، وأمر موسى الجنود العرب أن يعلموا إخوانهم جنود البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين كما يقول ابن عذارى، وفي رواية أخرى: أن موسى ترك سبعين رجلاً من العرب يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام. وهؤلاء السبعون فقيها لا يعدون شيئاً بالقياس إلى ما حدث حتى تاريخ ولاية موسى بن نصير من اندماج المغرب في الأمة الإسلامية. إذ أصبح يدين بدينها القويم ويتكلم بكثيرون من أهل بالمرية وهو عمل ضخم لا ينهض به سبعون فقيهاً، إنما نهضت به الجيوش العربية الفاتحة للمغرب التي خرجت إليه للجهاد في سبيل الله، ولنشر دينه وتعاليمه، مما يجعلنا نزعّم أن هؤلاء الجنود كانوا مجاهدين في نشر الدين الحنيف بالمغرب من جهة ومعلمين لأهل القرآن وتعاليم الإسلام من جهة ثانية.

(ب) النشأة العلمية

أخذ ينشأ في القيروان وتونس - منذ أواخر القرن الأول الهجري - جيل من مواليد إفريقية التونسية يكبُّ على حلقات العلماء الوافدين من المشرق ينهل منها مثل عكرمة مولى ابن عباس المفسر المشهور، ويقول المالكي في رياض النفوس إن مجلسه كان في مؤخر جامع عقبة في القيروان حيث كان يلقي دروسه على الناس في التفسير والحديث ومات سنة ١٠٥ للهجرة. وذكرنا في غير هذا الموضع أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أرسل إلى القيروان بعثة تعليمية مكونة من عشرة فقهاء اختارهم، ليفقهوا الناس في الدين وما يتصل به من تفسير للذكر الحكيم ومن شرح لبعض الأحاديث النبوية، وهم: إسماعيل بن أبي المهاجر المخزومي، وجعيل بن عمير، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري، وعبد الله بن يزيد الماعفري، وسعد بن مسعود التجيبي، وعبد الرحمن بن رافع التتوخي، وحبان بن أبي جبلة القرشي، وبكر بن سودة الجذامي، وموهب بن حصى، وطلق بن جابان الفارسي. وأسند إلى ابن أبي المهاجر - بجانب عمله الديني - ولاية إفريقية والمغرب كما أسند إلى جعيل بن عمير قضاء الجند، ويمجرد أن نزلوا القيروان اتخذ كل منهم داراً لسكناه ومسجداً لصلاته وتعليم الناس أمور دينهم وستة رسولهم. وهؤلاء المعلمون الرسميون للدولة كان يشترك معهم في تعليم الشباب علماء آخرون من أهمهم يحيى بن سعيد الأنصاري الذي أرسله عمر بن العزيز عاملاً على الصدقات،

وكان محدثاً كبيراً ومن روى عنه الحديث الأئمة أبو حنيفة ومالك والليث بن سعد فقيه مصر والأوزاعي فقيه الشام. وقد نزل مدينة تونس وأخذ عنه شبابها الحديث يتقدمهم خالد بن أبي عمران التجيبى قاضى القيروان وزميله عبدالرحمن بن زياد وعلى بن زياد.

والثلاثة من تلامذة يحيى بن سعيد الأنصارى والمعلمين العشرة الذين أرسلهم إلى القيروان عمر بن عبد العزيز وقد رأوا أن لا يكتفوا بما أخذوا عنهم بل ينبغي أن يضيفوا إلى ذلك رحلة علمية إلى مصر والحجاز والعراق للأخذ عن كبار الفقهاء والمحدثين وحملة العلم في تلك الديار. ولفت خالد بن أبي عمران التجيبى أنظار الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة في مصر ومالك وإمام الحجاز، ورووا عنه بعض أحاديث، وهى في موطأ مالك مأخوذة عنه بسند يحيى بن سعيد المذكور آنفاً. وعبدالرحمن بن زياد تولى القضاء بالقيروان مرتين كان أبوه من جند حسان بن النعمان ولد له سنة ٧٤ للهجرة وتوفى سنة ١٦٦ وحل للقاء العلماء والمحدثين في مصر والشام والعراق والحجاز وعنه روى الحديث الفقيهان المصريان ابن لهيعة وابن وهب كما رواه عنه سفيان الثوري العراقي. وعلى بن زياد التونسي معاصره رحل بدوره إلى المشرق وتلمذ في مصر لليث بن سعد وابن لهيعة وفي العراق لسفيان الثوري وحل عنه كتابه المعروف باسم جامع سفيان وفي المدينة تلمذ لمالك، وهو أول من أدخل كتاب الموطأ في الفقه المالكي إلى المغرب، وكان يعاصره من الشباب العلمى في القيروان عبدالله بن فروخ الذى ثقف الفقه والحديث على شيوخ القيروان، ورحل إلى العراق ولزم أبا حنيفة فترة، ثم رحل إلى الحجاز ولقى مالك بن أنس وكان يكاتبه، وهو أول من نشر فقه أبي حنيفة في القيروان.

وهذه النشأة للعلوم الدينية رافقتها في إفريقية التونسية نشأة العلوم اللغوية لسبب طبيعى، وهو أن من يريد حفظ القرآن ورواية الحديث النبوى لا يمكنه أن يتقن ذلك إلا إذا وقف على سُنن العربية وكانوا يستمعون على ذلك في أول الأمر برواية الأشعار، وكانت مدينتا البصرة والكوفة جاذبتين في القرن الثانى الهجرى في وضع قواعد العربية، وولى القيروان والمغرب يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٥-١٧٠هـ) وكان بحراً فياضاً وصحب معه إلى إمارته المعمر بن سنان التميمى، وكان - كما يقول ابن الأثير في ترجمته بالهجرة السرياء - من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها، وعنه أخذ أهل إفريقية حرب غطفان وغيرها من وقائع العرب. ومن صحبه يزيد كان سره أبو على الحسن بن سعيد البصرى، وهو من النحاة البصريين وكتاب الدواوين. وكان يزيد غيثاً مدراراً في الجود والعطاء، كما ذكرنا، فأثمه غير شاعر، كما أمه أوفد عليه غير عالم نحوى ولغوى، ومن أمه يونس بن حبيب إمام البصرة في النحو واللغة، وتسامع به شباب القيروان فأكبوا عليه يأخذون عنه ما عنده، ووقد على يزيد من الكوفة قتيبة الجعفى وهو من نحاتها، وقد أفاد منه الشباب القيروانى وانتفعوا به، ووقد عليه

أيضا عياض بن عَوانة الكلبي النحوي الكوفي سنة ١٥٥ فرُحِبَ به، وخصه بتعليم أولاد أسرته وعنه أخذ أبناء القيروان النحو والعربية. وأخذ ينشأ في القيروان سريعا جيل يعنى برواية الأشعار والأخبار كما يعنى باللغة والنحو على شاكلة أمان بن الصمصامة بن الطرماح الطائي الشاعر المشهور في العصر الأموي، وكان الصمصامة هاجر إلى القيروان في أوائل القرن الثاني، وولد له فيها أمان، وكان راوية للغة والشعر كما يقول ابن حزم، وتعلم له كثيرون من شباب القيروان في النحو واللغة والأدب. وما نصل إلى أواخر القرن الثاني الهجري حتى يصبح للقيروان نهضة بالمعنى الدقيق لكلمة نهضة من مثل عبد الملك المهري تلميذ أمان وعياض بن عوانة وغيرها من النهضة والرواة، ويتكاثر النهضة في جيله وجيل تلاميذه.

(ج) دور العلم : الكتابات - المساجد - جامعا عقبة والزيتونة - بيت الحكمة - الزوايا - المدارس

منذ استقر العرب في القيروان والبلدان بإفريقية التونسية أخذت تنشأ كتابات لتحفيظ الناشئة القرآن وتعليمهم مبادئ العربية - حتى يحسنوا أداء الآيات القرآنية - والأحاديث النبوية. ويبدو أنها أخذت تتكاثر منذ عهد حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) وكان يتعلم فيها أبناء البربر والعرب جميعا، وظلت أساس التعلم في البلاد، مثلها في ذلك مثل جميع البلدان العربية، وتنبه الفقيه محمد بن سحنون المتوفى سنة ٢٥٦ للهجرة إلى أهمية التعليم في الكتابات وما ينبغي أن يؤخذ به في هذا التعليم من آداب ومن صفات في المعلمين وطرائق معاملتهم للناشئة، مما جعله يكتب فيه كتابا بعنوان «آداب المعلمين» وفيه يرسم لهم قواعد التربية للناشئة من أبناء المسلمين، وما ينبغي أن يتصفوا به في السلوك معهم وواجبات المعلم إزاءهم وأخذه لهم بالتهج السليم، وعنى بنفس الموضوع بعده أبو الحسن القاسمي المتوفى سنة ٤٠٣هـ إذ ألف فيه كتابا باسم «الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين» وهو أوسع من كتاب محمد بن سحنون وأكثر تفصيلا، وفيه تحدث عن آداب معلم الإناث وما يصلح أن يعلم للناشئة وما لا يصلح وسياسة المعلم في تعليم الصبية إلى غير ذلك من موضوعات طريفة.

وكانت الدار الثانية للتعليم بعد الكتابات المسجد، حيث كان الشيوخ يتحدثون في التفسير والحديث النبوي والفقه واللغة العربية والناس يتحلقون حولهم كما تتعلق الناشئة والشباب للتعلم وأخذ ما لديهم من تعاليم الدين وعلوم الإسلام والعربية. وقد أخذت تنبى في القيروان وتونس وغيرها من البلدان مساجد كثيرة، ومربنا أن جميع أعضاء البعثة التي أرسلها عمر بن عبد العزيز إلى القيروان لتعليم الفقه والتفسير والحديث النبوي بنى كل منهم مسجدا وألقى به كتابا. أما الكتاب فلتحفيظ القرآن، وتعتقد الصلاة في المسجد، ويجلس الشيخ في جانب منه يلقي بعض دروسه الدينية.

وهناك مسجدان بل جامعان كبيران تحولوا مع السنين إلى جامعتين عظيمين، وهما جامع عقبة بن نافع في القيروان وجامع حسان بن النعمان في تونس المسمى جامع الزيتونة، والجامع الأول بناء عقبة في تأسيسه للقيروان بين سنتي ٥٠ و ٥٥ للهجرة وجدده حسان بن النعمان في ولايته (٧١-٨٦هـ) وازداد العمران في القيروان وضاق بأهلها فوسعه عبيد الله بن المحبحاب في ولايته (١١٦-١٢٢هـ). ومنذ أنشئ هذا الجامع يتخذ الشيوخ من أهل العلم لمدارسة الناس في علوم الدين وتحول سريعا مركزا للعلوم الدينية يؤم شيوخه الطلاب من كل أنحاء المغرب فضلا عن أرجاء إفريقية التونسية، ولم يتأخر ذلك إلى القرن الثاني الهجري بعد توسعة ابن المحبحاب له، كما قد يظن، إذ بدأ ذلك فيه منذ إنشائه في القرن الأول، يدل على ذلك ما ذكره أبو العرب في طبقاته، وأشرنا إليه في غير هذا الموضع، من أن عكرمة مولى ابن عباس وتلميذه المتوفى في سنة ١٠٥ كان يجلس في مؤخره ويلقى على الناس دروسه في التفسير والحديث النبوي، ولابد أن زخر الجامع بحلقات أخرى لشيوخ مماثلين في الفقه والتشريع الإسلامى. وأيضا لشيوخ يروون الأشعار والأخبار، حتى إذا ظهرت نحل الخوارج أخذ دعايتها يدعون لها، وتكونت حلقات حول بعض هؤلاء الدعاة في جامع القيروان وخاصة حول عقبة الإباحية. وحين ازدهرت الدعوة لمبادئ المعتزلة في القرن الثاني أخذت طريقها إلى جامع عقبة. وكان أهل السنة يضيّقون بمنافرات الدعاة لعقائد الخوارج والمعتزلة، حتى إذا ولي سحنون إمام المذهب المالكي السنن القضاء سنة ٢٣٤ للهجرة أمر بوقف مناظراتهم وإلغاء حلقاتهم، حتى لا يفسدوا - في رأيه - الناس والشباب. وأكبر الظن أنهم عادوا إلى الجامع بعد وفاته سنة ٢٤٠ يتحلّقون فيه ويتجادلون. ونغضى إلى قيام الدولة العبيدية في القيروان، فيحرم خلفاؤها تدريس الشريعة الإسلامية على مذاهب أهل السنة من مالكية وحنفية في الجامع، ويضطر الشيوخ إلى تدريسها للطلاب في بيوتهم وحوالياتهم ويظل ذلك إلى مبارحتهم إفريقية التونسية وعاصمتهم المهدية إلى القاهرة، وتعود إلى الجامع حلقات أهل السنة وخاصة المالكية وتظل له مكانته الكبيرة في الحركة العلمية بالبلاد.

وجامع الزيتونة بتونس ظل مع جامع عقبة في القيروان يقود الحركة العلمية منذ القرن الأول الهجري في إفريقية التونسية، بناء حسان بن النعمان في ولايته (٧١-٨٥هـ) وجدده عبيد الله بن المحبحاب سنة ١١٦هـ/ ٧٣٤م للهجرة. وأعاد تجديده وزخرفه - كما يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب - الأمير أحمد بن محمد الأغلب وأتم بنيانه أخوه زيادة الله سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م. وأضاف إليه بنو خراسان في إمارتهم لتونس بعض تجديدات، منها زيادة أبوابه إلى اثني عشر بابا بعد أن كانت ستة، ودخلت عليه تجديدات أخرى في الحقب التالية. وهو مثل جامع عقبة أخذت الدروس الدينية تعقد فيه منذ تأسيسه، وأخذ شباب تونس يختلفون إلى حلقات شيوخه، وأخذوا يتمون دروسهم فيه ويتخرجون مثل خالد بن أبي عمران التجيبى

قاضي القيروان المتوفى سنة ١٢٥هـ/٧٤٢م وهو أحد من سُنوا لزملانهم في تونس والقيروان الرحلة إلى المشرق للتزود من حلقات علمائه، كما مرُّ بنا في غير هذا الموضع، واقتدى به في طلب العلم بالشرق تلميذاه عبدالرحمن بن زياد وعلي بن زياد، والثلاثة في الذروة من علماء إفريقية التونسية، وأمّ الطلاب حلقاتهم بتونس من كل فج. وتكثر أسماؤه فقهاء تونس ومحدثيها في القرن الثالث الهجري حتى إذا ولي الفاطميون بأخرة من هذا القرن عطلوا في جامع الزيتونة دراسات الفقه على أساس مذاهب أهل السنة، حتى إذا انحسر ظلهم عن المهديّة وغادروها إلى القاهرة عادت إلى الجامع حلقاته الدينية، وخاصة حلقات المذهب المالكي وشيوخه النابيين، وقد تهيأ له ولجامع عقبه من قديم أئمة في الفقه، وخاصة الفقه المالكي، وكذلك في الحديث لا يقلون فقها وعلماء عن نظرائهم في البلاد العربية. وقد نال جامع الزيتونة الحظ الأعظم أيام الدولة الحفصية إذ عنيت عناية كبيرة بيمانيه ومكتباته وشيوخه وطلابه.

ومن دور العلم المهمة في إفريقية التونسية وإن لم تعمر طويلا بيت الحكمة الذي أنشأه إبراهيم الثاني الأغلبى محاكاة لدار الحكمة التي أسسها ببغداد هارون الرشيد ورعاها ابنه المأمون. وكان هذا البيت خاصا بعلوم الأوائل مثل دار الحكمة البغدادية، وللأستاذ حسن عبد الوهاب مبحث قيم فيه بالقسم الأول من كتابه ورقات عن الحضارة العربية في إفريقية التونسية، وفيه يتحدث عن تأسيس إبراهيم الثاني الأغلبى له، ونظاياه وخزائنه وتمداده سنويا بالعلماء والمخطوطات، إذ كان يرسل سنويا سفارة إلى بغداد لجلب إخصائين في علوم الأوائل وشراء مخطوطات الكتب النفيسة في الطب والفلك والرياضة إلى غير ذلك. ويستظهر الأستاذ عبد الوهاب أن المترجمين فيه ترجموا أحيانا من اللسان اللاتيني بعض الكتب، ويقول إن هذا البيت أوجد النواة لمدرسة الطب القيروانية التي أثمرت في الحركة العلمية بالمغرب، ويذكر أن قسطنطين القسيس المسيحي المولود بقرطاجة سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م والناشئ بالقيروان والمتلمذ لشاهير أطبائها نقل كتبهم الطبية المهمة إلى اللسان اللاتيني في جامعة ساليرنو ومنها انتقلت إلى الجامعات الإيطالية وغير الإيطالية مما كان له أثره العميق في النهضة الثقافية بالبلاد الأوروبية. ونغضى إلى عهد علي بن يحيى الصنهاجي أمير المهديّة (٥٠٩ - ٥١٥ هـ) فنجدته ينشئ مدرسة للكيمياء زودها بما تحتاجه من آلات لتحليل المعادن وأدوات مختلفة للتقطير.

وأخذت تونس منذ القرن السابع الهجري تستكثر - مثل بقية بلدان المغرب - من زوايا المتصوفة، وتبعثتها في ذلك بقية بلدان الإقليم التونسي وهي أشبه بمساجد صغرى تضم مبانى للشيوخ والطلاب وتلقى فيها دروس العلوم الدينية واللغوية، مما جعلها تشارك في نشر التعليم بمستوياته المختلفة، وكان يلحق بها عادة كتاب لتحفيظ القرآن

الكریم . وفي عصر الدولة الحفصية تجدد الحركة العلمية تزدهر بفضل رعاية الدولة لها وما أنشأت من مدارس شارك فيها المهاجرون الأندلسيون إلى تونس، وأول مدرسة أسسها هذه الدولة مدرسة الشماعية أسسها أبو زكريا أول حكامها، وأسست الأميرة عطف أرملته المدرسة التوفيقية، وأسس أبو زكريا بن السلطان أبي إسحق مدرسة تالفة هي مدرسة المعرض بسوق الكتبيين، وأسست أخت السلطان أبي بكر مدرسة رابعة، وأسس الوزير ابن تافراكين مدرسة خامسة، وأسس السلطان أبي عبد الله بن أبي فارس المدرسة المنتصية، وتوفى قبل أن تتم فائمه بناءها أخوه أبو عمرو عثمان على أكمل بناء وأتقنه ووقف عليها وقفا كافيا. ونمضى إلى العهد العثماني، ويظل للحركة العلمية نشاطها وخاصة حين قدم إلى تونس المهاجرون الأندلسيون سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م ويؤسس مراد باي الثاني مدرسة عرفت بالمرادية في سوق القماش. وأسس الباي حسين بن علي ثلاث مدارس: الحسينية والنخلة والمدرسة الجديدة، وأسس مدارس أخرى بالقیروان وسوسة وصفاقس ونفطة، وأسس ابن أخيه على أربع مدارس: الباشية في سوق الكتبيين والسليمانية ومدرسة بير الحجار ومدرسة حوانيت عاشور. وبلغت المدارس في تونس بأخرة من هذا العهد العثماني عشرين مدرسة.

(د) المكتبات

وبما عمل على أن تظل الحركة العلمية نشيطة في القيروان وتونس وغيرها من بلاد إفريقية التونسية على توالي الأزمنة تأسيس المكتبات العامة وفي الجوامع والمدارس والزوايا. وكانت دانا مفتوحة الأبواب للشيوخ والطلاب يقيدون منها، وفي مقدمتها المكتبة العتيقة بهجامع عقبة في القيروان، ولابد أن كان الشيوخ في القرنين الثاني والثالث للهجرة يهدون إليها نسخة أو أكثر من مؤلفاتهم، واهتم الأغلبية بها ووقفوا عليها كتب كثيرة. ومثلهم الأعيان وأصحاب اليسار، ولا تزال إلى اليوم تموج بفنائس المصاحف المزخرفة وأمهات الكتب في الفقه والتفسير والحديث والقراءات واللغة والأدب. ولما أنشأ إبراهيم الأغلب الثاني بيت الحكمة برفادة أسس فيه مكتبة ضخمة وأخذ يجمع إليها ذخائر الكتب وروائعها في علوم الأوائل وغيرها من العلوم الدينية واللغوية، وحين بنى عبيد الله المهدي مدينة المهديّة نقل إليها كثيرا من روائع الكتب في هذه المكتبة، وأسس حفيده المنصور مكتبة في مدينة المنصورة وجلب إليها آلاف المخطوطات، ونقل العزيز منها ومن مكتبة جده المهدي كثيرا مما كان بها من المؤلفات معه إلى القاهرة غير أن بقية فيها من الكتب ظل ينتفع بها طلاب العلم والعرفان. ومن المؤكد أن سوق الوراقين الذين ينسغون الكتب كانت رائجة، ويروى عن حمدون بن مجاهد الكلبي أنه قال: «كتب يبيد ثلاثة آلاف وخسمائة كتاب» كما يروى عن أبي العرب التميمي صاحب كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس أنه قال: «كتب يبيد أربعة آلاف كتاب» واشتهر كثيرون بتكوتهم لأنفسهم

مكتبات خاصة مثل أحمد بن علي بن حميد وكان أبوه من وزراء الأغالية، وشغف بجمع الكتب، وبيعت مكتبته بعد وفاته بألف ومائتي دينار، وشغف عبد الله بن أبي هاشم التجيبي المتوفى سنة ٣٤٦ للهجرة بنسخ الكتب وجمعها، فلما توفي بلغ وزن ما عنده من الكتب سبعة قناطير جميعها بخطه ما عدا كتابين. وكثير من العلماء كانوا يحرصون على جمع الكتب وتكوين مكتبات لهم كبيرة، منهم الطبيب أحمد بن الجزار المتوفى بالقيروان سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م كانت له مكتبة ضخمة، إذ يقول ابن جليل الأندلسي في كتابه طبقات الأطباء: إن وزن كتبه التي خلفها بلغ عشرين قنطارا. ويروي أن المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٤هـ) أشفق على أبي بكر عتيق السوسى الفقيه الحافظ الورع حين علم بضيق ذات يده بما لا يمكنه من اقتناء الكتب، فأرسل إليه -كما في كتاب معالم الإيمان- مجموعة كبيرة من أمهات كتب العلوم الدينية حملها إليه عشرون حمالا، ومعه رسالة رقيقة يقول له فيها: «هذه كتب في خزانتنا ضائعة. وبقاؤها عندنا مما يزيدنا ضياعا، وأنت أولى بامتلاكها للانتفاع بها» فالتمس الشيخ أن يكتب على كل جزء منها أنه موقوف على طلبة العلم، وأودعت جميعا بمكتبة جامع عقبة بالقيروان ليتنفع بها الشيوخ والطلاب.

ولم تلبث سيول الأعراب الجارفة من بني سليم وهلال أن اكتسحت القيروان بأخرة من أيام المعز بن باديس سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م وتوقفت بالقيروان الحركة العلمية المزدهرة، وحاول علي بن يحيى حفيد المعز الصنهاجي (٥٠٩-٥١٥هـ) أن يستردَّ المجد العلمى لإفريقية التونسية أو شيئا منه، فأنشأ بالمهدية مدرسة للكمياء، كما مرُّ بنا، وألحق بها مكتبة، غير أنها لم تمكث سوى نحو ربع قرن. وظلت إفريقية التونسية مضطربة نحو قرن نهب فيه -أوضاع- كثير من الكتب النفيسة التي كانت مودعة في جامعي القيروان والزيتونة، حتى إذا كان عهد الدولة الحفصية وأخذ مؤسسها يستردَّ للبلاد ما كان بها من نهضة علمية أسس في القصة بعاصمة تونس مكتبة ضخمة جمع لها بقايا مكتبات الأغالية والصنهاجيين، وأضاف إلى ذلك كثيرا من الكتب والمؤلفات ويقال إنها كانت تحتوى ستة وثلاثين ألف مجلد، وظل خلفاؤه يعنون بجمع الكتب لها، وظل الشيوخ والطلاب ينتفعون بكتبها طوال أيام الدولة الحفصية، وكان بها كتب نفيسة كثيرة، حتى لنرى ابن خلدون يذكر أنه بعد تأليفه لمقدمته بقلعة أبي سلامة في الجزائر احتاج إلى مراجعة بعض أمهات الكتب، فولَّى وجهه إلى تونس ليطلع على ما يريد منها في المكتبة الحفصية. واشتهر السلطان أبو فارس عبد العزيز أنه حين صار إليه صولجان الحكم سنة ٧٩٦هـ/١٣٠٤م عنى بتأسيس مكتبة تحت الصومعة بجامع الزيتونة وقف كتبها على طلبة العلم، وجعل لها وقتا محدودا للاطلاع فيها كل يوم وجعل عليها قومةً ومتاولين يناولون الكتب للطلبة ويردونها إلى مكانها بعد فراغهم منها، واشترط في وقفه أن لا يعار منها كتب في الخارج محافظة عليها وصيانة، وعنى بعده السلطان أبو عبد الله محمد بن الحسن بتأسيسه لمكتبة بنى لها مقصورة بطرف

صحن جامع الزيتونة، ونقل إليها كتب مكتبة أبي فارس وجعل لها وقتا محددًا للاطلاع وقومة ومناولين وسميت نسبة إليه باسم المكتبة العهدية. وعبث الإسبان حين استولوا على تونس - في القرن العاشر الهجري - بهذه المكتبة وعاثوا فيها فسادا، وأنقذ بعضهم منها كتبًا أرسل بها إلى مكتبة الفاتيكان بروما، ولا تزال بها إلى اليوم. ولم يكن العثمانيون أصحاب حضارة ولا ثقافة، فلم يعنوا بمكتبات تونس العناية الواجبة، حتى إذا قامت الدولة المرادية أخذ النشاط يعود إلى جامع الزيتونة ومكتبته، واطرد هذا النشاط في عهد الدولة الحسينية منذ استولى على مقاليد الحكم مؤسسها حسين بن علي إذ عين بالجامع أربعين مدرسا في مختلف العلوم الدينية واللغوية وأجرى لهم رواتب، وانتظم التعليم بالجامع منذ ذلك الحين.

٢

علوم^(١) الأوائل

لا يُذكر أحد من أصحاب علوم الأوائل قبل أيام الدولة الأغلبية إلا ما يتردد في كتب التراجم عن أشخاص يسمونهم فقهاء البدن، ولم يكونوا أطباء بالمعنى الدقيق لكلمة طب، إذ كانوا يعتمدون على بعض المعارف والخبرات البسيطة. وأول ذكر للطب بمعناه الدقيق - وبالمثل لعلوم الأوائل - نلتقى به في عهد الدولة الأغلبية حينما أنشأ إبراهيم الثاني الأغلب (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) في عاصمته رقادة بجوار القيروان بيت الحكمة الذي ألما به فيها أسلفنا، إذ استقدم له من بغداد الدارسين للطب وعلوم الأوائل كي ينهضوا بالدراسة فيه، وكان ممن استجابوا له في سنة ٢٦٤ هـ/٨٧٧م إسحق بن عمران، وكان حاذقا بالطب وعلوم الأوائل، وفيه يقول إبراهيم الرقيق مؤرخ القيروان: «كان إسحق طبيبا حاذقا متميزا بتأليف الأدوية المركبة بصيرا بفرقة العلل» ويقول ابن جليل الأندلسي في كتابه طبقات الأطباء: «به ظهر الطب في المغرب وعُرفت الفلسفة» ويقول صاعد الأندلسي: «من اشتهر بعلم الطب وسائر العلوم المستنبطة من العلم الطبيعى إسحق بن عمران، وكان مقدما في جودة قريحته وصحة

الخامس من تاريخ الأدب العربي لبروكلمان والقسم الأول من كتاب ورقات عن الحضارة العربية. بإفريقية التونسية والعلم عند العرب لألدوميل وتاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراشكوفسكى.

(١) انظر في علوم الأوائل بإفريقية التونسية كتاب طبقات الأطباء لابن جليل وطبقات الأمم لصاعد والجزء الأول من البيان المغرب لابن عذارى وأخبار الحكماء للقفطى ومقدمة ابن خلدون، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ومعالم الإيمان لابن ناجى وبرنشفك ٢/٢٨٧ وما بعدها. والجزء

علمه، وهو الذى ألف بين الطب والفلسفة بديار المغرب». وواضح أنهم جمعوا له بين الطب والصيدة والفلسفة وعلوم الطبيعة، وهو - يحق - مؤسس مدرسة الطب وعلوم الأوائل بإفريقية التونسية، ومن تلمذوا له فى الطب محمد بن الجزار وزياد بن خلفون، وفى الطب والفلسفة إسحق بن سليمان الإسرائيلي، وفى الفلسفة أبو سعيد الصيقل، وألف مجموعة من الكتب فى الطب وغيره، لم يبق منها إلى اليوم سوى كتابه: المالبخوليا وفى مكتبة ميونخ مخطوطة منه، ويقول ابن جليل فى هذا الكتاب: «لم يُسبق إسحق بن عمران إلى مثله، توفى سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م. وكان يعاصره ويعمل معه فى بيت الحكمة فلكى من مواليد القيروان هو إسماعيل بن يوسف، رحل إلى العراق ودرس هناك علم الفلك والتنجيم، ويقول الزبيدي: «كان غاية فى علم النجامة» وحقق فى بغداد صناعة الطلاء المتصلة بتجميل وجوه النساء وأبدانها وتطريتها بصنوف من الطيب والعقاقير، وهو ما يسمى عند الغربيين باسم «الماكياج»، ولعلمه بهذا الطلاء والفلك اشتهر باسم الطلاء النجم، وكان يشتغل فى بيت الحكمة بالفلك والرياضيات، ولما غلب الفاطميون على القيروان غادرها إلى قرطبة. وهو دليل على أن بيت الحكمة فى رقادة كما كان يعنى بالطب كان يعنى بالرياضيات، ونفس المشرف عليه وهو أبو اليسر رئيس دواوين إبراهيم الثانى الأغلبى كان يعرف بلقب الرياضى مما يدل على علمه بالرياضيات، ولا بد أن كان البهت يعنى أيضا بالكيمياء والطبيعات وأيضا بالفلسفة، فقد وضع إسحق بن عمران فيه أساس الدراسات فى كل ذلك.

ومن الأطباء الذين لمح اسمهم أيام إبراهيم الثانى الأغلبى زياد بن خلفون، وكان طبيبا فى دمنة (مارستان) القيروان، وكان يذهب إليها فى أيام معينة من الأسبوع لزيارة من بها من المرضى، وكان يزور أيضا دار الجذماء لرؤية المصابين والكشف عليهم وتتبع مسيرة مرضهم، توفى سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م. وفى سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م جلب أحد رسل زيادة اقه الأصغر إليه طبيبا يهوديا ناشئا من مصر يسمى إسحق بن سليمان الإسرائيلي، تلمذ لإسحق بن عمران فى بيت الحكمة حتى إذا توفى خلفه فيه، وسرعان ما انتهت دولة الأغالبة فخدم العبيدين منذ خليفته المهدى إلى العزيز، ويقول فيه ابن جليل: «كان مشهورا بالحدق والمعرفة، جيد التصنيف بالعربية بصيرا بالمنطق يعنى بالفلسفة متصرفا فى ضروب المعارف»، وعمر حتى بلغ المائة، وتوفى حول منتصف القرن الرابع، وأسند إليه يهود إفريقية رياستهم الدينية، وله مؤلفات فى الطب بالعربية وترجمت سريعا إلى العبرية، ومن مؤلفاته العربية كتاب الحميات وكتاب البول وكتاب النبض وكتاب الترياق وكتاب بستان الحكمة وكتاب الأغذية والأدوية. ويشتهر فى القرن الرابع الهجرى طبيبان يهوديان من تلامذة إسحق بن سليمان الإسرائيلي هما دونش وموسى بن العزاز، ودونش من مواليد القيروان بأخرة من القرن الثالث الهجرى تخرج على يديه إسحق بن سليمان الإسرائيلي فى الطب والنجوم والحساب والفلسفة، وكان يتقن العربية،

ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إن ابن البيطار ينقل في كتابه عن الصيدلة أو الأدوية المفردة عن كتاب له يسمى التلخيص وَصَفَ فيه لبعض النباتات، مما يدل على أنه كان كتابا في الأدوية المفردة، ويذكر الأستاذ عبد الوهاب أن له كتابا في الحساب الهندى وكتابا ثانيا في الفلك وحركة الكواكب، وموسى بن العزار طبيب إسرائيل، توفى بعد سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م وقد خدم هو وأبناؤه الدولة العبيدية وخلفاءها في المهديّة وبعد تحوّلهم إلى القاهرة وله كتاب باسم الأقرباءين أى الصيدلة، مما يدل على اهتمامه بتركيب الأدوية وطرق العلاج بها. ومن أطباء العبيديين الإفريقيين أعينُ بن أعين، وكان يحترف في القيروان طب العيون - ويسميه العرب - الكَحالة، ولما انتقل المزمز إلى القاهرة انتقل في جملته، وكان ماهرا في معالجة الرمد المزمن، وعن شفى على يديه شيخ المالكية ابن أبى زيد، وله كُتُاب في الطب وكتاب في أمراض العيون ومداواتها.

وتوارث الطب في القيروان - منذ عهد الأغالية - أسرة بنى الجزار، وأول من اشتهر بالطب فيها أبو بكر بن الجزار تلميذ إسحق بن عمران طبيب بيت الحكمة كما يذكر ابن جليل، ومثله أخوه إبراهيم وكان يُعنى بالكحالة أو طب العيون. وابنه أحمد المولود سنة ٢٨٥هـ/٨٩٨م بالقيروان أبرع أطباء الأسرة وقد توفى سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م ومن طريف ما يروى عنه أنه بنى عند باب داره عيادة لاستقبال المرضى، وأفرد فيها قسما خاصا لصيدلية جعل لها فقى يسمى رشقا، تعدّ بين يديه جميع الأدوية من معجونات وأشربة ومراهم، وكان إذا فحص المريض ووقف على دائه وصف له في ورقة ما يناسبه من الأدوية، فيأخذها إلى رشيق ويعطيه دواءه الموصوف، بالضبط كما يحدث في عصرنا، فللأطباء عياداتهم وللأدوية صيدلياتها. وأحد بن الجزار يقوم في الطب بالقيروان مقام ابن سينا في إيران والزهرائى في قرطبة. وللأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ترجمة ضافية له في القسم الأول من كتابه ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية تحدث فيها عن سيرته ومؤلفاته وفي مقدمتها كتابه: «زاد المسافر وقوت الحاضر» في علاج الأمراض مجلدان، ويقول عنه إنه «من أهم الكتب الطبية العملية التى وضعها المسلمون»، ويذكر أن قسطنطين المعروف باسم الحكيم الإفريقى عمّد - حين رأس كلية ساليرنو في جنوب إيطاليا - إلى ترجمة هذا الكتاب إلى اللاتينية ونسبه - كذبا وبهتاناً - إلى نفسه، ويلم بما كتب حول الكتاب من بحوث في العصر الحديث، ويذكر مؤلفات ابن الجزار بأسمائها وقد بلغت سبعة وثلاثين كتابا في الطب والتاريخ والجغرافيا والأحجار الكريمة، وله بجانب كتبه الطبية الكثيرة كتابان في الصيدلة بعنوان: «البغية في الأدوية» و«الاعتماد في الأدوية المفردة».

وتظل حركة علوم الأوائل التى غرس الأغالية جذورها نامية في أرض القيروان الطبية.

وتلتقى بأبي عبد الله محمد بن يوسف التاريخي القيرواني نزيل الأندلس المتوفى سنة ٣٦٣ في عصر المستنصر الأموي، وله كتاب عن مسالك إفريقيا وممالكها انتفع به أبو عبيد البكري في كتابه «المسالك والممالك»، ويظل القيروان عصر الدولة الصنهاجية، وكل كتب القيروان العلمية النفيسة ترجعها القسيس قسطنطين سالف الذكر في أثناء رياسته لكلية ساليرو ولدير جبل كاسينو، ولم يكد يترك كتابا علميا مهما لعلماء القيروان من أمثال إسحق بن عمران وابن الجزار إلا ترجمه هو ورهبان هذا الدير. وانتقلت ترجماته إلى العالم الغربي منذ القرن الحادي عشر الميلادي إذ توفي سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م وكان لتلك الترجمات، كما مر بنا، أثر بعيد في النهضة العلمية الأوروبية. وكان يعاصر الرياضي الفلكي الجزائري ابن أبي الرجال رياضي قيرواني، هو عبد المنعم بن محمد الكندي القيرواني المتوفى سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م وكان إماما في الرياضيات حاذقا في فك الأشكال الهندسية لإقليدس. ومر بنا - منذ قليل - أن الأمير علي بن يحيى الصنهاجي (٥٠٩-٥١٥هـ) أنشأ مدرسة للكيمياء في عاصمته المهديّة، وقد أشرف عليها كيميائي أندلسي كبير، هو أمية بن أبي الصلت، ولم تدم بعد وفاته طويلا، غير أنها تدل على ما ظلّ بالمهديّة والقيروان من روح علمية حتى مطلع القرن السادس الهجري.

وتلتقى في أوائل عهد الدولة الحفصية بعالم تونس موسوعي كبير هو التيفاشي الكيميائي أحمد بن يوسف المولود بقفصة التونسية سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م وقد ولاه أبو زكريا خطة القضاء ببلدة قفصة وله رحلات كبيرة إلى الشام والعراق وإيران وأيضاً مصر واستقر بها حتى توفي بعد سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م وكان قد تعمق كل فروع الثقافة الإسلامية كما تعمق علوم الأوائل، ورأى أن يضع للدارسين في وطنه والأوطان العربية موسوعة تضم كل العلوم والفنون والتاريخ، وجعلها في أربعين كتابا، وأفرد منها كتاباً للطب والطبيعة ومظاهرها وكل ما فيها من نبات وحيوان ومعادن، وفي كل فرع من علم يذكر ما فيه لليونان والفرس وغيرها من المعجم والعرب، ومن كتب هذه الموسوعة كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار وهو في علم المعادن، وقد نشر في هولانده بالقرن الماضي مع ترجمة لاتينية، وحققه في مصر الدكتور محمد يوسف حسن ونشره مع مقدمة تحليلية. وله كتاب عن الفناء والموسيقى وآلات الطرب سماه: «متعة الأسماع في علم السماع»، وفيه تحدث عن تاريخ الموسيقى عند العرب وفي إفريقية التونسية وفي الأندلس على مر العصور حتى زمنه، وهو طريقة نفيسة، وتلتقى في عهد المستنصر بطبيبه: ابن أندراس محمد بن أحمد المتوفى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٦م وكانت له مشاركة في الرياضيات والمعقولات، ويشتهر حينئذ آل الصقل الزيات بالطب وابن الكماد الرياضي بوضعه الجداول الفلكية قبل سنة ٦٧٩هـ/١٢٨١م. وكان يلعب من حين إلى حين عالم بعلوم الأوائل وخاصة في مجال الطب لحاجة الناس والبيمارستانات إليه، ونضرب مثلاً لهم عبد السلام بن إبراهيم الزيات الصقلي المتوفى سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٣م وقد ألف ابنه أحمد المتوفى سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م للسultan

الحفصى أبى فارس عبدالعزيز - كما فى الضوء اللامع للسخاوى - مختصراً فى الطب بوجه إلى ثمانين باباً، ونضرب مثلاً ثانياً بطبيب هو عبدالرحمن بن أبى سعيد الصقلى المتوفى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م ومثلاً ثالثاً هو أحمد الحميرى من أطباء تونس فى القرن العاشر الهجرى وله كتاب فى الطب والأطباء يسمى تحفة القادم.

ولم نعرض حتى الآن لعلم الجغرافية فى تونس، وتلقانا فى مقدمة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م فصول مختلفة فى حديثه عن العمران إذ يفرد فصلاً للحديث عن العمران فى الأرض وما بها من البحار والأنهار والأقاليم، وهو يعدها كرة، نصفها يابس ونصفه فقط المسكون أو المعمور، ويتحدث عن أقاليمها السبعة وانقسام كل إقليم إلى عشرة أجزاء، ويقول صراحة إنه ينقل عن بطليموس الجغرافى المصرى القديم والإدريسى فى كتابه المشهور: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق الذى ألفه فى نحو منتصف القرن السادس لروجار الثانى النورمانى ملك صقلية، ويكمل حديثه الجغرافى فى ذلك عن الربع الشمالى من الأرض الأكثر عمراناً من الربع الجنوبى ويذكر مقتطفات من كتاب الإدريسى، ويضيف بعض معلومات عن جزر المحيط الأطلسى والسودان، وينقل عن ابن سعيد الجغرافى الأندلسى. وأهم من هذا الحديث الجغرافى الذى غلب عليه فيه النقل حديثه الذى يعد سابقاً فيه تأثير البيئة الجغرافية فى حياة البشر وتأثير الهواء فى ألوانهم والجوع والخصب فى أبدانهم وأخلاقهم، وبجانب هذه الجغرافيا الاجتماعية عنده جغرافيا اقتصادية يصور فيها العمران البدوى والحضرى، ونصف الحضرى والمعاش وألوانه. وهذه الوجوه من الجغرافيا الاقتصادية والاجتماعية تعد الجوانب الجغرافية عنده.

ومعروف أن كثيرين من جغرافىي العرب عُنوا بوضع خريطة للعالم، وكان بطليموس الجغرافى المصرى القديم قد وضع خريطة للعالم تدارسها علماء العرب فى عصر المأمون ووضعوا للعالم خريطة أكثر دقة، ومازال جغرافيو العرب يضعون خرائط على هدى خريطة المأمون حتى جاء الإدريسى المذكور آنفاً ووضع خريطته الكبيرة التى تراعى درجات الطول والعرض وقد أهداها إلى روجار الثانى الملك النورمانى. ونجد جيلين فى أسرة الشرق بصفاقس فى الاقليم التونسى يعنىان بوضع خرائط للعالم ما بين عامى ٩٥٧هـ/١٥٥٠م و١٠٠٩هـ/١٦٠٠م تمد صوراً منقحة لخريطة الإدريسى كما يقول كراتشكوفسكى فى كتابه تاريخ الأدب الجغرافى العربى، وقد وضع أولهم: على بن أحمد الشرقى الصفاقسى سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م أطلساً فى ثمانى ورقات يصورها سواحل البحر المتوسط وهى محفوظة فى المكتبة الأهلية بباريس. وفيها خريطة للقبلة وضحت عليها مواقع جميع البلدان بالنسبة للكعبة، ويلها خريطة عامة للعالم ثم خرائط لسواحل إسبانيا وجزر البليار وسواحل إيطاليا ومعها جزيرتا كورسيكا وسردينيا والساحل

المقابل لإفريقيا ثم خرائط لسواحل البحر الأسود والساحل الجنوبي لآسيا الصغرى والشام ومصر وخريطة لليونان وجزر الأرخيبيل وكريت وساحل إفريقيا المقابل لها، وخريطة لبرقة وطرابلس وتونس. وفي أوكسفورد خريطة للعالم رسمها أحد أبناء الأسرة سنة ١٩٧٩هـ/١٥٧٩م. ويذكر كراتشكوفسكى خريطة للعالم لأحد أبناء الأسرة سنة ١٩٨٦هـ/١٥٧٩م. وكان آخرهم محمد بن علي الشرقى الصفاقسى وله خريطة للعالم رسمها سنة ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م. وتدل هذه الخرائط على أن خريطة الإدريسي تحولت عند هذه الأسرة إلى أطالس وخريطة حائطية، وهو بلا ريب عمل جغرافى جليل لتونس.

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد^(١)

مرُّ بنا حديث عن نشأة علوم اللغة والنحو بالقيروان وأنها اعتمدت على بعض رواة اللغة والشعر مثل أمان بن الصمصامة بن الطرماح، كما اعتمدت على بعض نحاة كوفيين وافدين مثل قتيبة الجعفى وعياض بن عوانة، وسرعان ما ظهر جيل قيروانى خالص يعنى باللغة والشعر مثل أبى محمد عبد الله بن محمود المكفوف المتوفى سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م وأصله من سُرْت بلبييا، ويقول القفطى: «كان من أعلم خلق الله تعالى بالعربية والغريب والشعر وتفسير المشروحات وأيام العرب وأخبارها ووقائعها.. وله كتب كثيرة أملاها في اللغة والعربية والغريب، وله كتاب في العروض يفضلها أهل العلم على سائر الكتب المؤلفة فيه لما بين فيه وقرب، وعليه قرأ الناس المشروحات، وإليه كانت الرحلة من جميع إفريقية والمغرب، وله أشعار فصيحة وأراجيز غريبة، وله كتاب في شرح صفة أبى زبيد الطائى للأسد جود فيه وحسنه. وكان يعاصره عبد الملك بن قُطْن المَهْرَى القيروانى شيخ أهل اللغة والعربية وراوى القوم وعميدهم ورئيسهم كما يقول القفطى وكان من أحفظ الناس لأنساب العرب وأشعارهم ووقائعهم وأيامهم، وكانت الأشعار المشروحة تُقرأ عليه مجردة من الشرح فيشرحها ويفسر معانيها، فلما دخلت هذه الأشعار مشروحة إلى القيروان نظر طلبة العلم من العربية فيها فلم يجدوا في شرحه خلافا لما قال أصحاب الشروح ولا وجدوا عليه في روايته وشرحه اللغوى شيئا من الخطأ، وهو

وكذلك ابن الأبار في الحلة السرياء وابن عذارى في البيان المغرب وانظر المؤلفات المذكورة للحصرى وابن شرف وابن رشيق في تراجمهم وراجع كتابنا المدارس النحوية في ابن عصفور ومراجعته.

(١) راجع في تراجم هذه الموضوعات طبقات النحويين واللغويين للزبيدي وإنهاء الرواة للقفطى ومعجم الأدباء لهاقوت وانظر في عبد الدايم بن مزروق بغية المنتسب للضبي والصلة لابن شكوال وراجع الأنموذج لابن رشيق في المنه بأشعارهم منهم

تلميذ لأمان بن الصمصامة وعياض بن عوانة وقتيبة الجعفي وكثير من الأعراب مثل أبي النعيم الأعرابي وغيره، غير أنه عُمِّرَ عمراً طويلاً، إذ توفي سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م. ومن معاصريه أحمد بن إبراهيم بن أبي عاصم أبو بكر اللؤلؤي المتوفى سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م وكان من العلماء النقاد في العربية والغريب والنحو والقياس وأكثر دواوين العرب، وهو تلميذ أبي محمد المكتوف المذكور آنفاً، وألَّفَ كتاباً في الضاد والظاء فحسَّنه وبَيَّنَّه. ولم تلبث القيروان أن أخرجت لغويًا كبيراً طار اسمه في الآفاق هو القُرَاز محمد بن جعفر التميمي المتوفى سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م درس على شيوخ القيروان، ثم رحل إلى العراق فدرس على أئمة اللغة والنحو، ونزل في القاهرة أيام العزيز نزار (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) وعُرف فضله، فعين في دواوين العزيز، وألَّفَ له - استجابة إلى طلب منه - كتاباً في الحروف التي ذكرها النحاة في قولهم: إن الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى على أقصد سبيل وأقرب مأخذ وأوضح طريقة، فبين معاني الحروف مع ترتيبها على حروف المعجم، فبلغ الكتاب ألف ورقة، وقدم إلى العزيز صورةً منه فأعجبه ورضيه. وتوفي العزيز فعاد إلى القيروان وشُغِفَ به وبمجالسه الطلاب والمتأدبون لعلمه اللغوي الغزير وحسن تذوقه للأدب، ولم يكن ذواقة للأدب والشعر فحسب، بل كان أيضاً ناقدًا بصيرًا وشاعرًا مجيدًا، وتفرج على يديه ابن شرف القيرواني الشاعر المبدع وابن رشيق الشاعر والناقد المتبحر. وله في اللغة معجم سماه «جامع اللغة» وهو معجم كبير رتبته على حروف المعجم، ويقول ياقوت في معجم الأدباء عنه إنه يقارب في الحجم معجم التهذيب للأزهري، وله في الضاد والظاء وتبادلها في الكلمات مبحث كبير في ثلاثة أجزاء، وله المثلث في اللغة، وله كتاب ما أُخِذَ على المتنبي من اللحن والغلط، وكتاب العشرات يذكر فيه اللفظ ومعانيه المترادفة، وفي دار الكتب المصرية منه مخطوطة، وله إعراب مقصورة ابن دريد وشرحها، وكتاب الحل والشيات في أوصاف الأديين طُبِعَ في صيدا بلبنان، وله شرح رسالة البلاغة في مجلدات، ومن كتبه الطريفة ضرائر الشعر، وهو دراسة تفصيلية لما يجوز للشاعر استعماله من ضرورات الشعر، وهو مطبوع بنونس. وملتقى بتلميذه الحسن بن محمد التميمي اللغوي النسابة، وكان القزاز قد عفى به بحبة له، فبلغ به نهاية الأدب وعلم الخبر والنسب، وكان شاعرًا نابعاً قوى الكلام خبيراً باللغة، وكان شديد الشغف بديوان ذي الرمة، وعنه أخذته الناس كما أخذوا دواوين الجاهلية. وكان يعاصره إسماعيل بن إبراهيم القيرواني اللغوي، تقدَّم في علم الغريب وطلبه وعلو سماعه، وكان يبحث عن الشذوذ اللغوي بحثاً شديداً، وإلى أمهات كتبه ترجع - كما يقول القفطي - جميع النسخ وبها تُقَابَلُ وعليها تُصْلَحُ، وهو من مدَّاح المعز بن باديس وفيه يقول:

بَدَّ الملوك جلالَةً ومهابَةً وَعَلَا على النظراء والأشكال.

وملتقى بعبد الدائم بن مرزوق المتوفى سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م كما في بغية المنتمس للضيبي،

درس العربية على شيوخ القيروان وارتحل إلى المشرق وتجوّل في حلقات شيوخه بالبصرة وبغداد، ودخل الشام والتقى بأبي العلاء المعري، وأخذ عنه ديوانه: سقط الزند واللزوميات، وعاد إلى بلده، ولم تلبث هجرة الأعراب أن اكتسحت القيروان فهاجر إلى الأندلس، ونزل المرية وإشبيلية، وهناك أخذ يلقى دروسه، ويروى أشعار أبي العلاء، ومن تلمذ عليه عالم الأندلس اللغوي ابن السّيد البطليوسى بشهادة ما يرويه عنه في كتابه: «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب» كما لاحظ الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، ويقول إنه أول من أدخل شعر أبي العلاء إلى إفريقية والأندلس، وأكبر الظن أن نسخة سقط الزند التى شرحها ابن السيد وطبعت مع شروح السقط الأخرى في القاهرة مأخوذة عن نفس المخطوطة التى حملها ابن مرزوق عن أبي العلاء، وكأنه شرحه بمجرد أن سمعه من ابن مرزوق، وأظن نفس الظن إزاء شرح ابن السيد لطائفة كبيرة من شعر اللزوميات المطبوع في جزئين في القاهرة، إذ اعتمد في هذا الشرح - فيما أظن - على رواية اللزوميات التى سمعها عن ابن مرزوق، والأبيات - في رواية ابن السيد - تصحح كثيراً من أبيات اللزوميات المنشورة، ولعل محققاً تونسياً محظوظاً يجد في جامع الزيتونة أوجامع عقبة مخطوطة من اللزوميات مأخوذة - أو مروية - عن نسخة ابن مرزوق قبل مبارحته القيروان إلى الأندلس، ويمكن التأكد من ذلك يمراجعتها على شرح اللزوميات لابن السيد، وله معجم في اللغة وشرح على ديوان المتنبي.

ويلقانا في أوائل عهد الدولة الحفصية محمد بن أبي الحسين المتوفى سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م حاجب أبي زكريا مؤسس الدولة ووزير ابنه المستنصر، وهو من أسرة بنى سعيد الغرناطية، وكان لغويا وشاعراً وكان ابن سيده الأندلسي قد رتب معجمه «المحكم» على أساس مخارج الحروف طبقاً لمعجم العين للخليل بن أحمد، فقلب ترتيبه إلى ترتيب معجم الصحاح للجوهري، وسمى صنيعه «ترتيب المحكم»، وكان يعاصره عالم لغوى من علماء الهجرة الأندلسية في القرن السابع الهجرى هو أحمد بن يوسف اللّيل الأندلسي المتوفى بتونس سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م وله على كتاب الفصحى لثعلب شرح سماه: «تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصحى» ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إنه ينقل فيه مراراً عن معجم القزاز: «جامع اللغة» وعن كتابه: «المثلث» كما ينقل فيه أيضاً عن معجم ابن مرزوق، وكان أعمال ابن مرزوق - وفي ظننا ما رواه من شعر أبي العلاء - كان لا يزال محفوظاً في موطنه حتى نهاية القرن السابع الهجرى.

وكل من نظمناهم في سلك اللغويين - أو كثرتهم - يوصفون في كتب التراجم بأنهم كانوا نحاة كما كانوا لغويين غير أننا لاحظنا أنه غلبت عليهم مباحث اللغة، ومربنا في الحديث عن النشأة اللغوية أنه كان بين اللغويين نحويان كوفيان استوطنا القيروان وقد خلف بعدهما جيل

قبروانى خالص غنى بالنحو وتعليمه، منه حمدون محمد بن إسماعيل المتوفى بعد المائتين، وفيه يقول الزبيدى: «كان مقدما في العربية والنحو وكان يقال إنه أعلم بالنحو خاصة منه باللغة، لأنه كان يحفظ كتاب سيبويه ويستظهره» ويقول القفطى له كتب في النحو وأوضاع في اللغة، وكان أحد التشدّيقين في كلامه والمتقّرين في خطابه. وكان يعاصره أحمد بن أبى الأسود النحوى القبروانى كان يقرئ النحو واللغة بمسجد قرب داره، يقول الزبيدى عنه: «له تصانيف في النحو والغريب ومؤلفات حسان، ويقول القفطى: كان غاية في علم النحو واللغة. ومن معاصريه عبد الله بن أبى حسان اليحصبى المتوفى سنة ٢٢٧هـ/٨٤١م رحل إلى العراق وأخذ النحو عن أعلامه في البصرة والكوفة، وعاد إلى القبروان فأفاد الطلاب بما حمل من النحو وقواعده. وينشط علماء النحو في القرنين الثالث والرابع للهجرة بالقبروان، ومنهم السُخى أبو على النحوى الضير المتوفى سنة ٣٤٢هـ/٩٥٣م ويؤنه المالكى في كتابه: «رياض النفوس» بعرفته الواسعة باللغة والنحو وله كتاب أقبسة الأفعال. وكان يعاصره ابن الورّان إبراهيم بن عثمان المتوفى سنة ٣٤٦هـ/٩٥٧م يقول الزبيدى عنه: «إمام الناس في النحو (بالقبروان) وكبيرهم في اللغة وعظيمهم في العربية والعروض، وانتهى في اللغة العربية إلى ما لعله لم يبلغه أحد قبله، وأما في زمانه فما يشك فيه أحد، حفظ كتاب سيبويه وكتاب المصنف في غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام وإصلاح المنطق لابن السّكيت ومعجم العين للخليل بن أحمد وغير ذلك من كتب اللغة ثم كتب الفراء، وكان يميل إلى قول أهل البصرة مع علمه بقول الكوفيين، وكان يفضل المازنى في النحو وابن السّكيت في اللغة، وكان يستنبط من مسائل العربية والنحو أموراً لم يتقدم فيها أحد. واشتهر بعده عبد العزيز بن أبى سهل النحوى اللغوى القبروانى الضير المتوفى بالقبروان سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م وكان شاعراً مطبوعاً، ويقول ابن رشيق في وصفه: «كان مشهوراً بالنحو واللغة جداً مفتقراً إليه فيها بصيراً بغيرها من العلوم.. ولا غنى لأحد من الشعراء الحذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه، ولم ير ضريراً أطيب منه نفساً ولا أكثر حياء. وكان يعاصره عبد العزيز بن خلود النحوى، نوه ابن رشيق بشعره وقال له في سائر العلوم حظوظ وافرة، وحقوق ظاهرة، وأغلبها عليه علم النحو والقراءات وما تعلق بها، وفيه ذكاء يخرج عن الحد المحدود. وتلتقى بعلى بن فضال المتوفى ببغداد سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وهو من سلالة الفرزدق الشاعر الأموى المشهور ومن أبناء القبروان النابيين في عصره غادرها مع الهجرة الأعرابية المشهورة إلى الشرق حتى نيسابور وغزنة، وعاد إلى بغداد، فضمه نظام الملك إلى مدرسته النظامية بها حتى وفاته، وهو مفسر كبير للذكر الحكيم، وله مصنفات مختلفة في الأدب والتاريخ، وكان إلى ذلك عالماً كبيراً في النحو واللغة، وما صنّفه في النحو «إكسير الذهب في صناعة الأدب» في عدة مجلدات وكتاب العوامل والهوامل وكتاب الإشارة إلى تحسين العبارة وشرح عنوان الإعراب والمقدمة وشرح معاني الحروف وغير ذلك وله كتاب في العروض.

ودرس مثله في النظامية ببغداد معاصره ومواطنه عبد الله بن مسلم القيرواني النحوي أبو محمد المتوفى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م ويقول القفطي: كان له معرفة بالنحو واللغة. وتكاد تتوقف الحركة العلمية في الدراسات النحوية نحو قرن أو تزيد بسبب الهجرة الأعرابية وماحدث بعدها من حروب قراقوش وابن قراتكين وابن غانية: على ويحيى.

وتنهض بالبلاد الدولة الحفصية ويعود إلى الحركة العلمية نشاطها، وخاصة في مدينة تونس عاصمة تلك الدولة، ويثدها المهاجرون من الأندلس في صدر تلك الدولة من كبار العلماء والأدباء بوقود أدبي وعلمي جزل، فتزداد اشتعالا وضياء ونورا. ومن صفوة من هاجر إليها من نحاة الأندلس إمام كبير من أئمة النحو هو ابن عصفور الإشبيلي أبو الحسن علي بن مؤمن المولود سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م والمتوفى سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م وقد رُحِبَ به مؤسس الدولة أبو زكريا واتخذ أستاذا ومعلما لابنه وولى عهده المستنصر، وأسند إليه التدريس في جامع الزيتونة وفي مدرسته الشماعية، وكان يدرس للطلاب كتاب سيبويه وكتاب الجمل للزجاجي والإيضاح لأبي علي الفارسي وله عليها شرحان، كما كان يدرس لهم مصنفه البديع: المقرب في الصناعة النحوية والمتن في الصناعة الصرفية واتخذت أعماله في عصرنا موضوعات للحصول على الدرجات العلمية في الجامعات العربية لحسن عرضه لمسائل النحو وأبوابه حدودا وترتبا ونقسيا، وفي كتابنا المدارس النحوية ترجمة له وبيان لبعض آرائه التي انفرد بها بين النحاة، وأخذ عنه في تونس النحو تلاميذ كثيرون بحيث أصبحت له فيها مدرسة كبيرة، وتذكر أسماؤه نحاة في القرون التالية، ومن أهمهم في العهد العثماني محمد فتاة الفقيه في القرن الثاني عشر الهجري كان يقرئ الطلاب في جامع الزيتونة مفتي ابن هشام في النحو ولعبد القادر الجبالي شرح على شواهد المفتي في أربع مجلدات ولمحمد سعادة حاشية على الأشموني سماها تنوير السالك من شرح منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ولمحمد بن علي بن سعيد الهجري المتوفى سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤م حاشية مطولة على شرح الأشموني لألفية ابن مالك.

ومنذ نزول العرب واستيطانهم في إفريقية التونسية كان كثيرون منهم ينشدون الأشعار العربية ويروونها للأجيال الناشئة، وما يتقدم القرن الثاني الهجري حتى تتردد في كتب التراجم أسماء رواة الشعر كان يلتف حولهم الشباب في القيروان وغير القيروان لكتابة الأشعار وتداولها، نذكر منهم سليمان بن حميد الغافقي، وله ترجمة في كتاب الحلة السراء لابن الأبار، وهو ممن قدموا مع الحملات التي كان يوجهها الأمويون إلى القيروان والمغرب، وله مشاركة في الأحداث التي مرت بنا أيام عبدالرحمن بن حبيب وقتل أخيه إلياس له وعاش إلى أيام يزيد ابن حاتم المهلبى (١٥٥-١٧٠هـ) ويقول ابن الأبار في التعريف به: «فارس العرب قاطبة بالمغرب في عصره وأحسن الناس لسانا وأبلغهم، إلى معرفة بأيام العرب وأخبارها ورواية لوقائعها

وأشعارها.. مُحلت عنه نوادر مستطرفة وحكايات مستملحة، وروى له ابن الأثير شعراً في أحد موافقه مع بعض ثوار البربر. ومن هؤلاء الرواة المبكرين للأشعار في القيروان الحكم بن ثابت السعدي، دخل إفريقية - كما يقول ابن عذارى - سنة ١٤٤هـ/٧٦١م مع جيش محمد بن الأشعث للقضاء على ثورة الإباضيين في طرابلس وتونس لعهد المنصور، وكان أحد قواد الجيش وبعد القضاء على تلك الثورة سكن القيروان، حتى إذا تولى الأغلب التميمي بعد ابن الأشعث شهد معه حرب بعض الثوار من البربر سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م وهو من سلالة سلامة بن جندل الشاعر الجاهلي المشهور، وكان شاعراً ورواية كبيراً للشعر، روى عنه أبناء القيروان كثيراً من أشعار الجاهليين والمخضرمين. ومن هؤلاء الرواة للأشعار الحسن بن منصور بن نافع المذحجي، وفيه يقول ابن الأثير: «كان بصيراً باللغة نافذاً في النحو عالماً بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها». وحرى أن نضيف إلى هؤلاء الرواة المبكرين للأشعار الجاهلية والإسلامية المعمر بن سنان التيمي القادم مع يزيد بن حاتم المهلبى في ولايته، وقد ذكرناه في نشأة العلوم اللغوية، وأيضاً لابد أن نضيف كبار الشعراء الوافدين على يزيد بن حاتم لمديحه مثل ربيعة الرُّمى الشاعر العبّاسى التاه وبالمثل من وقد عليه من اللغويين والنحاة أمثال يونس بن حبيب عالم البصرة النحوى واللغوى الكبير، فهؤلاء جميعاً شاركوا في رواية الشعر الجاهلى والإسلامى لشباب القيروان.

ومر بنا أن عبد الملك بن قطن كان يشرح أشعار الجاهليين والإسلاميين ويفسر معانيها وأنها حين نُقلت إلى القيروان ومعها شروحها وجد طلابه أن هذه الشروح تطابق شروحه. ولم تنتقل إلى القيروان في القرن الثالث الهجرى الدواوين القديمة الجاهلية والإسلامية فقط، بل أخذت تنقل أيضاً دواوين الشعراء العبّاسيين ويشهد لذلك ما روى عن أبى اليسر الشيباني رئيس ديوان الإنشاء المتوفى سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م من أنه أدخل إلى إفريقية رسائل المحدثين (العبّاسيين) وأشعارهم، وهو لم يدخل دواوين أمثال بشار وأبى تمام فحسب، بل أدخل أيضاً رسائل أمثال عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والمناظر وسهل بن هرون وغيرهم، ومثل ذلك أصبح منذ القرن الثالث الهجرى مدُّ أيدي المتأدين في القيروان وتلقاه أبصارهم عن طريق من كانوا يرحلون إلى المشرق-أو يفدون منه- ويحملون نفائسه من الدواوين والرسائل. ومَن يقرأ المنتخبات الرائعة من الشعر والنثر التى جمعها أبو إسحق إبراهيم المصرى المتوفى سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م باسم «زهر الآداب ونثر الألباب» و«جمع الجواهر فى الملح والنوادر» يعرف أنه لم يكن فى المشرق ديوان لشاعر عبّاسى ولا رسائل لكاتب أموى أو عبّاسى ولا مجموعة فى الشعر أو فى النثر، لم يكن شئ من ذلك كله غائباً عن القيروان وأدبيها المصرى، فقد اختار فى مجموعته السالفتين أروع وأبدع ما للمحدثين العبّاسيين من شعر ونثر وأخبار ونوادر وملح كما يقول، حتى لنجد عنده قطعاً من نصوص أدبية مفقودة إذ نراه مثلاً يختار لسهل بن هرون قطعاً

من قصصه الطريفة التي صاغها محاكاة لقصص كليلة ودمنة، والتي لا يوجد منها الآن في المشرق شيء. وقد ولد بقرية تسمى الحضر بجوار القيروان فنُسب إليها، وهو أستاذ علمين من أعلام الأدب في القيروان: ابن رشيقي وابن شرف، وكان ودودا ومألفا لشباب القيروان ومتأدبها، فكانوا يجتمعون عنده ويأخذون عنه كما قال ابن رشيقي وقال عنه أيضا: إنه كان شاعرا ناقدًا عالما بتنزيل الكلام، وقد افتتح به كتابه الأغودج في شعراء القيروان، وذكره مرارا في كتابه العمدة، واستشهد فيه ببعض أشعاره. وكان بحق - كما قال ابن رشيقي - ناقدًا ذواقا للأدب، فجمع - وخاصة في زهر الآداب - فرائد بدعية من شعر المحدثين ونثرهم وأخبارهم، وكأنه أراد بذلك أن يكمل كتاب البيان والتبيين للجاحظ، إذ رآه يشغله بكلام الإسلاميين والجاهليين، ولا يعنى بالعباسيين العناية الكافية فرأى أن يكمل مختاراته الجاهلية والإسلامية بمختاراته الشعرية والنثرية للعباسيين، ولاحظ ذلك ابن بسام في ترجمته بالقسم الرابع من كتابه الذخيرة. فقال: «عارض المصري أبا بحر الجاحظ بكتابه الذي وسمه بزهر الآداب فلمعري ما قُصِرَ عن مداه ولا قصرت خطاه، ولولا أنه شغل أكثر أجزائه وأنعائه بكلام أهل العصر (يريد العباسيين) دون كلام العرب لكان كتاب الأدب، لا ينازعه ذلك إلا من ضيق عينيه الرمدم، وأعمى بصيرته الحسد». وهى شهادة قيمة بروعة الكتاب وروعة ما يحمل من النصوص العباسية شعرا ونثرا. وربما كانت أهم مجموعة أدبية بعده في القطر التونسي مجموعة الحماسة لأبي الهجاج يوسف بن محمد البياسي الأندلسي نزيل تونس المتوفى سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٦م وقد كتبها بتونس سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م وقرأها الطلاب عليه، ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية. وحاول ابن شرف القيرواني الشاعر المتوفى سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م بالأندلس أن يكون له نصيب في عالم النقد، فكتب مبحثا يسمى نارة أعلام الكلام، وتارة رسائل الانتقاد، وطبع بالعنوانين، تناول فيه الشعر والشعراء منذ الجاهلية إلى زمنه، وهو ملاحظات مجملة أكثر منه آراء نقدية، أو هو انطباعات عن الشعراء في جمل مسجوعة، وكأنه يؤلف مقامة - لامبحثنا نقديا - عن الشعراء، ومن قوله عن أبي نواس: «أول الناس في خرم القياس. وذلك أنه ترك السيرة الأولى وتتكب عن الطريقة المثل، وجعل الجد هزلا صادم الأفهام قد كُت.. فتهاذى الناس شعره، وأغلوا سعره، وشغفوا بأسخفه، وكلفوا بأضعفه» ويقول عن ابن الرومي: «شجرة الاختراع، وثمرة الابتداع، وله في المهجاء ما ليس له من الاطراء، فتح فيه أبوابا، وخلع منه أثوابا، وطوق فيه رقابا، يطول عليها حسابها، ويمحق فيها ثوابه» وكأنه يقبس هجاءه بمقياس خلقى لا بمقياس فنى، ويقول في المتنبي: «شغلت به الألسن، وسهرت في أشعاره العيون الأعين، وكثر الغائص في بحرته، والمفتش في قعره عن جُمانه (لؤلؤه) ودرّه، وله شيعة تغلو في مدحه، وعليه خوارج تتعاون في جرعه»، وهكذا أرلؤه في الشعر انطباعات لا تحمل تعليلا ولا دليلا.

ولم تكن القبروان بالبلاغة كما عنيت بالنقد، وأكبر نقاد القبروان وبلاغيتها المدودين في النقاد والبلاغيين الكبار ابن رشيق المتوفى بمازى في صقلية سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م وله كتاب «قراءة الذهب في صناعة الأدب» وهو في السرقات الشعرية، وله كتاب «العصدة في صناعة الشعر ونقده»، وهو يجمع فيه بين النقد والبلاغة، ويقول فيه القفطى: «اشتمل على ما لم يشتمل عليه تصنيف من نوعه وأحسن فيه غاية الإحسان» وقال القاضى الفاضل: «هو تاج الكتب المصنفة في هذا النوع» وقال فيه ابن خلدون في مقدمته: «هو الكتاب الذى انفرد بهذه الصناعة - يريد صناعة الشعر - وإعطائها حقها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله». وهى شهادة قيمة. وكل من يقرأ الكتاب يعرف بوضوح أن ابن رشيق وضع بين يديه كل ما أنتج المشرق من مباحث ومؤلفات في النقد والبلاغة من مثل البيان والتبيين للجاحظ وطبقات فحول الشعراء لابن سلام والشعر والشعراء لابن قتيبة والبدیع لابن المعتز ونقد الشعر لقدامة ونقد النثر لابن وهب والموازنة للأمدى والصناعتين لأبى هلال العسكري وكتابات الحامى في البديع والبلاغة وأضاف إلى ذلك كتاب المتع في علم الشعر وعمله لعبد الكريم النهشل، وسوى من ذلك كله - وربما اطلع على كتب أخرى - كتابه الذى ذاع وشاع في العالم العربى غرباً وشرقاً منذ تأليفه إلى اليوم لدقة منهجه وحسن تبويبه وترتيبه، ولما يحمل من مواد طريفة تحيط بالشعر وصنعه ونقده وفنون بلاغته، وقد بدأ بالدفاع عن الشعر والشعراء واضعاً الشعر في مرتبة بلاغية أعلى من مرتبة النثر، ويفرد باباً لبلاغة اللفظ والمعنى قائلاً إنها متلازمان، فاللفظ جسم وروحه المعنى، ويقول إن للشعر لغة خاصة به، ويعرض للمكثرين والمقلين من الشعراء وللمطبوعين والمتكلفين ولأصحاب مدرسة البديع وللوزن والقافية وعمل الشعر وشحذ القريحة له ولافتتاح الشعراء قصائدهم بالنسيب وللمبدأ والخروج من فاتحة القصيدة إلى موضوعها وللمخترع في الشعر والبديع، ويفصل القول في الاستعارة والتشبيه أهم ألوان البيان ويفيض إفاضة واسعة في ذكر ألوان البديع ومحسناته متأثراً بأبى هلال العسكري في كتابه الصناعتين والحامى في كتابه حلية المحاضرة، وقد اعتمد على الكتاب الأخير اعتماداً واسعاً في حديثه عن ألوان البديع وفنونه من مثل الجناس والطباق والمقابلة والتسيم والترصيع وصحة التقسيم إلى غير ذلك من محسنات كثيرة. وكأن القبروانين لم يجدوا حاجة إلى التأليف في البلاغة وفنون البديع بعده، وبالمثل في نقد الشعر وصناعته، وقد تحدث حديثاً مستفيضاً عن موضوعات الشعر بادئاً بالنسيب ومفصلاً القول في كل موضوع تفصيلاً دقيقاً، وتحدث عن السرقات الشعرية، وافق مع النقاد في أن السرقة إنما هى في البديع المخترع الذى يختص به شاعر ويسرقه أحد الشعراء، لا في المعاني المشتركة بين الشعراء، ويذكر ما يحتاج إليه الشاعر من المعارف والثقافة. والكتاب غنى بالأفكار والآراء النقدية، ومثله في هذا الفن كتابه: «أنموذج الزمان في شعراء القبروان» وقد جمعه من بطون المخطوطات وغيرها من الكتب وحققه

تحقيقا علميا سديدا الأستاذان محمد العروسي المطوي وبشير البكوش وقدما له بمقدمة قيمة. وقد استطاعا بدأبها العلمي جمعه من مخطوطات مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري والوافي بالوفيات للصفدي وغيرهما من المخطوطات والمصادر، وبذلك ردّاه إلى الحياة بصورة إن لم تكن طبق الأصل تماما، فهي مقارنة له أشد القرب، وفي الكتاب مائة ترجمة للشعراء من معاصريه، مما يدل على حدوث نهضة شعرية لعصره في القطر التونسي. وهو يستهل كل ترجمة لشاعر بسطور عنه وعن صفته وشعره ثم يورد ما اختاره من أشعاره مع بعض أحكام نقدية. والكتاب يؤرخ بدقة للحركة الأدبية في عصر الدولة الصنهاجية، وبعبارة أدق في عصر المعز بن باديس. ولا يلقانا بعد ابن رشيّق ناقد كبير أو بلاغي كبير في القيروان أو تونس إلا ما كان من حازم القرطاجني نزيل تونس في عهد المستنصر بن أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية، وعاش حتى سنة ٦٨٤ هـ - ١٢٨٦ م وله في النقد والبلاغة كتابه المعروف: «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» وهو فيه يمزج بين قواعد النقد والبلاغة عند العرب وقواعدها عند اليونان وبدون ريب أفاد منه المتأدبون بتونس، وأنه أعاد لهم درسه مرارا، وقد تحدثت عنه في الجزء الخاص من هذه السلسلة بالأندلس.

٤

علوم^(١) القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

بمجرد أن أُسست القيروان وتونس كان هناك مقرنون كثيرون يُقرنون الناشئة في الكتائب، ودانها أينما وُجد الفاتحون في صدر الإسلام والعصر الأموي دَوَّوا بالقرآن الكريم دَوَّى النحل، وكان منهم دانها من يتجرّدون لتحفيزه للداخلين في الإسلام وإقراهم آياته الكريمة، ومن الصعب التعرف عليهم ومعرفة أسمائهم، فهم كالجنديّ المجهول، يُرى أثره ولا يُعرف اسمه، غير أن كتب التراجم أحيانا تذكر بعض الأسماء ممن حَفَّظُوا بإقراء القرآن في الأزمنة المبكرة،

بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان لحسين خوجة تحقيق وتقديم الأستاذ الطاهر المعموري وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف وعنوان الأريب عما نشأ بالملكة التونسية من عالم وأديب وكتاب وروقات للأستاذ حسين حسني عبد الوهاب والحياة الثقافية بإفريقية صدر الدولة الحفصية (مقال في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة).

(١) راجع في هذه العلوم طبقات أبي العرب ورياض النفوس للمالكي وطبقات القراء لابن الجزري ورحلة العبدى وطبقات المفسرين للسيوطي ومعارف الإيمان لابن الدباغ وابن ناجي ومقدمة ابن خلدون في العلوم والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون والحلل السندسية في الأخبار التونسية لأبي عبد الله السراج تحقيق الأستاذ محمد الحبيب الهيلة وذيل

من ذلك اسم أبي منصور مولى سعد بن أبي وقاص، وهو - كما في كتابي رياض النفوس والمعال - ممن دخل إفريقية وسكن القيروان، وكان مقرنا للقرآن ومحدثا وفقهيا مفتيا. واجتماع الفقه ورواية الحديث النبوي مع إقراء القرآن الكريم لأبي منصور لا يستغرب، لأن التابعين من أمثاله كانوا يجمعون بين إقراء الناشئة والناس للقرآن وإسماعهم بعض الأحاديث النبوية وتفقيهم في الدين بمعرفة أحكامه وتعاليمه. وعلى هذه الشاكلة كان الفقهاء العشرة أعضاء وفد عمر بن عبد العزيز لسنة مائة للهجرة، فهم يقرنون الناس الذكر الحكيم ويروون لهم بعض الأحاديث النبوية ويعلمونهم أمور دينهم الخفيف. وعُني بعض القيروانيين بحمل قراءات القرآن عن نافع قارئ المدينة. وكان ورش المصري قد حمل قراءته فأخذتها جماعة من القيروان عن تلاميذه المصريين. ومن أهمهم في القرن الثالث الهجري محمد بن عمرو بن خيرون المتوفى سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م. وقد حمل قراءة ورش، وقدم بها إلى القيروان كما يقول ابن الجزري في طبقاته، وكان الغالب على قراءة الناس فيها قراءة حمزة أحد القراء السبعة، ولم يكن يقرأ قراءة نافع إلا خواص الناس، فلما قدم ابن خيرون إلى القيروان اجتمع عليه الناس ورحل إليه القراء من آفاق المغرب، ومن مؤلفاته كتاب الابتداء والتمام وكتاب الألف واللام. وكما أخرجت القيروان إماما لغويا هو القزاز، وإماما ناقدًا بلاغيا هو ابن رشيقي. أخرجت إماما في القراءات، هو مكى بن أبي طالب القيسي المولود بالقيروان سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م ولما استكمل القراءات بالقيروان رحل إلى مصر سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م وتلمذ في القاهرة لشيخ قرائها ابن غلبون، وكأن يعود إلى بلده ثم يرجع إليه، حتى أخذ كل ما عنده، وهاجر إلى قرطبة سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م وظل يقرئ بها الناس حتى توفي سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م وله في القراءات كتاب التبصرة في خمسة أجزاء، وكتاب ثان في أصول قراءة نافع، وكتاب ثالث في المد لورش، وذكر له ابن خلكان عشرات من الكتب في القراءات والتفسير والفقه والعربية. وكان يعاصره أحمد بن عمار المهدوي المتوفى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وله كتاب الهداية في القراءات السبع وله عليه شرح كما يقول ابن الجزري وله كتاب الموضع في تحليل وجوه القراءات. وظلت قراءة الذكر الحكيم ناشطة في القيروان على مدار السنين، واشتهرت بها أسر توارثتها جيلا بعد جيل، ويصور ذلك - من بعض الوجوه - ما ذكره العبدري في رحلته حين زار تونس في سنتي ٦٨٨هـ/١٢٩٠م و٦٩١هـ/١٢٩٢م والتقى بالرحالة التونسي أبي الحسن علي بن إبراهيم التجاني في مسجد إقرائه، وما قال له: «أنا الثاني عشر مدرسا من آبائي على نسق كلهم قعدوا هنا» (أي في هذا المسجد) للإقراء، وهذا يعني أن بيت التجاني في تونس توارث الإقراء للقرآن طوال اثني عشر جيلا متعاقبين، وإذا حسبنا لكل جيل ثلاثين سنة على الأقل كان معنى ذلك أن الأسرة توارثت إقراء القرآن نحو ثلاثة قرون ونصف أي منذ منتصف القرن الرابع الهجري. ومن كبار القراء في العهد الحفصي أبو القاسم اللبيدي معاصر التجاني صاحب الرحلة، وكان الطلاب يقرءون

عليه بمسجد إقرائه كتاب التيسير في القراءات السبع للداني. وأشهر القراء بعده محمد بن بدّال المتوفى بمنتصف القرن الثامن الهجري وكان يدرس لطلابه قصيدة الشاطبي في القراءات: حرز الأمانى ويفسر أبياتها لهم، ولجمال ترتيله وحسن صوته كانت تُشدُّ إليه الرحال لسماعه، وكان السامعون من حوله يُروّون بين خاشع وبالك وداع. وكان يعاصره محمد بن محمد بن حسين الأنصارى. وكان يقرئ تلاميذه بقراءة الأئمة الثمانية، ومنهم الفقيه الكبير محمد بن عرفة الوردغى الآتى ذكره بين الفقهاء والمتوفى في أوائل القرن التاسع الهجري وكان مقرنا كبيرا وبحودا عظيما للقرآن الكريم. ويكثر في ترجمة العلماء أن يقال عنهم إنهم يجيدون في قراءة القرآن، ونجد في العهد العثماني وظيفة في جامع الزيتونة مخصصة لقراء القرآن العظيم على كرسى الجامع، ومن تولّاها الشيخ على السويسى، وأيضا وظيفة أخرى لشيخ القراء ومن تولّاها في القرن الثاني عشر الهجري مصطفى الأزميزلى، وكان يعاصر قاره باطابق وله كتاب في القراءات العشر سماه: «الجواهر النضرة والرياض العطرة في متواتر القراءات العشرة».

وطبيعى أن كانت الأجيال الأولى في القيروان وتونس التى اعتنقت الدين الحنيف وأخذت تحفظ بعض آيات القرآن تطلبت معرفة تفسير ما تحفظه، فكان المحدثون الأولون لهم يحاولون إفهامهم ما يحفظونه، وتتشأ في المشرق حركة واسعة في تفسير القرآن، ويشتهر عبد الله بن عباس الصحابى الجليل ابن عم الرسول ﷺ بإتقانه لتفسيره حتى ليصبح إماما كبيرا فيه، ويحمله عنه تلاميذ مختلفون، ويتوزعون بما حملوه في البلدان الإسلامية وتحظى القيروان بتلميذ بربرى له، هو عكرمة مولاه، ويقول أبو العرب في طبقات علماء إفريقية وتونس: «كان مجلسه في مؤخر المسجد الجامع (جامع عقبة بالقيروان) في غربى المنارة بالموضع الذى يسمى بالركيبة». وما من ريب في أنه كان يلقى في مجلسه على الناس تفسير مولاه ابن عباس للقرآن الكريم، وسمعه منه خلق كثيرون من أهل القيروان وغيرهم، وقد أدخل الطبرى تفسيره الذى حمله عن ابن عباس في تفسيره الكبير بحيث يمكن لباحث أن يستخرجه منه وينشره مستقلا، وما زال عكرمة يلقى دروسه حتى توفى سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م. ومن المفسرين للذكر الحكيم في القرن الثاني الهجري يحيى بن سلام وقد حرره بالقيروان سنة ١٧٥هـ/٧٩١م وكان الطلاب يقصدونه من كل فجٍ لسماعه منه، ويذكر أبو العرب في طبقاته أن عيسى بن مسكين سمع تفسير ابن سلام من موسى بن جرير، كما يذكر أن أسد بن الفرات قاضى القيروان وفتاح صقلية المتوفى سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م كان يفسر الذكر الحكيم في بعض مجالسه أوفى بعض دروسه بجامع القيروان، وللمقرئ الكبير مكى بن أبى طالب المار ذكره كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية في معانى القرآن وتفسيره وأنواع علومه: سبعون جزءا، وكتاب الإيضاح في ناسخ القرآن ومنسوخة ثلاثة أجزاء. ويلقانا في القرن الخامس لعهد الدولة الصنهاجية مفسر كبير هو على بن

فُضِّلَ المتوفى سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وله التفسير المسمى البرهان العميدي في عشرين مجلدا، وله تفسير ثان باسم الإكسر في علم التفسير؛ خمسة وثلاثون مجلدا، وله النكت في القرآن. وصنف كتابا في شرح بسم الله الرحمن الرحيم، ومروا بنا أن نظام الملك ألحقه بمدرسته النظامية في بغداد يدرس لطلابها، وله كتب كثيرة في النحو ذكرنا بعضها في حديثنا عن النحاة في القيروان، ولعله كان يدرس في النظامية التفسير والنحو معا. ومن كبار المفسرين في أوائل عصر الدولة الحفصية عبد العزيز بن محمد القرشي المعروف بابن بزيمة المتوفى سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م وهو من كبار الفقهاء الحفاظ وله تفسير جمع فيه بين طريقة ابن عطية الأندلسي وطريقة الزمخشري وعليه تخرجت طائفة كبيرة من طلاب تونس في العلوم الدينية. ومن كبار المفسرين في القرن الثامن الهجري محمد بن عبد النور التونسي تلميذ ابن زيتون المتوفى سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م وله اختصار تفسير ألفخر الرازي. وتلتقى في القرن التاسع الهجري بمفسر من كبار الحفاظ هو محمد بن عمر الأبي المتوفى سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م تلميذ ابن عرفة، وله تفسير كبير للقرآن الكريم كان يقع في ثمان مجلدات. ولمحمد زيتونة المتوفى بالقرن الثاني عشر الهجري في العهد العثماني حاشية على تفسير أبي السعود. وبدون ريب كان المفسرون للقرآن الكريم معرضون على الطلاب أمهات كتب التفسير المشرقية للطبري والزمخشري والفخر الرازي وغيرهم، وظل ذلك في العهد العثماني، إذ نجد الشيخ محمد الفاسي يدرس لطلابه تفسير البيضاوي، ولا بد أن غيره من كتب التفسير المهمة كان يعرض على الطلاب.

ويتكاثر المحدثون في القيروان وتونس كثرة مفرطة، ومن قدمائهم في القيروان حنش بن عبداقه الصنعاني، دخل إفريقية غازيا مع موسى بن نصير (٨٦ - ٩٦ هـ) وسكن القيروان وحدث بها، كما حدث بها عكرمة مولى ابن عباس المار ذكره بين المفسرين. وتلتقى ببئنة عمر بن عبدالعزيز التي كانت مؤلفة من عشرة فقهاء، وجميعهم كانوا محدثين وقراء وفقهاء كما مروا بنا وكان يعاصرهم عبداقه بن المغيرة بن أبي بردة قاضي القيروان لعمر بن عبد العزيز ويحيى بن سعيد الذي أرسله عمر بن عبد العزيز عاملا على الصدقات، وكلاهما حمل عنه الحديث كما حمل عن معاصرها أبي غطيف بشر الهذلي، وهو يروى عن جماعة من الصحابة وخاصة عن عبداقه بن عمر بن الخطاب، وعليه اعتماده في الرواية. وتلتقى بمحدث تونسي كبير سبقت الإشارة إليه هو عبد الرحمن بن زياد قاضي القيروان في عهد المنصور وقتلناه عنه في النشأة العلمية إن ابن وهب وابن لهيعة الفقيهين المالكيين المصريين روايا الحديث عنه، وذكرنا معه هناك على بن زياد التونسي، وقتلناه إنه أول من أدخل الموطن لمالك وجامع سفيان الثوري في الحديث إلى إفريقية التونسية، وكان يعاصره المحدث عبد الرحمن بن الأشرس زميله في التلمذة على مالك. وتلتقى بالهلول بن راشد المتوفى بالقيروان سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م وهو تلميذ مالك بن أنس وسفيان الثوري، وتلمذ لثابت بن سعد فقيه مصر، وكان معروفا بالتقوى

والتمسك بالسنة، وتقصّ عنه في ذلك حكايات كثيرة، مما جعل أبا العرب والمالكي والدايع يطيلون في الترجمة له. ومن المحدثين بعده يزيد بن محمد الجُمحي المستشهد في فتح صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وكان ثقة صدوقا كثير الحديث سمع من مالك بن أنس في المدينة وغيره من كوفيين ومصريين وشاميين. وكان يعاصره موسى بن معاوية الصمادحي المتوفى سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م وأكثر مثل الجُمحي من الأخذ عن مالك والكوفيين والبصريين وغيرهم، وكان يرباط بالمنستير على الساحل قرب القيروان في شهر رمضان، ويقول عنه سحنون إنه كان أطول رُفقتنا صلاة، وربما أمضى بعض الليالي مصليا. ومن معاصريه عون بن يوسف الحزاعي المتوفى سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م وكان إذا قال في كتبه «حدثنا» فهو سماع، وإذا قال «أخبرنا» فهو إجازة. ويزدهر مذهب مالك في القيروان منذ القرن الثالث الهجري، وكان العلم المنسوب بأعين أصحابه كتابه «الموطأ» وهو كتاب فقه وحديث، مما جعل فقهاء جميعا محدّثين، ولذلك من الصعب أن نفرد المحدثين من الفقهاء منذ هذا القرن.

ونكتفي بذكر ألع المحدثين في القرون التالية، ومن ألعهم وأنهمهم في القرن الرابع الهجري أبو الحسن القابسي على بن محمد بن خلف المار ذكره في صدر حديثنا عن دور العلم، وإليه انتهى تدريس الحديث النبوي في القيروان وكان قد رحل إلى المشرق ورجع منه بكنوز نفيسة أهمها ما حمله إلى الطلاب والشيوخ في جامع الزيتونة من صحيح البخاري، وكان يدرسه للطلاب، وعنت به إفريقية التونسية بعده كما عنت بصحيح مسلم، وها جيعا وكتب السنة الأربعة المشهورة: للترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجة محل إجلال وتوقير في بلدان العالم الإسلامي جميعه. وللمازري محمد بن علي الصقلي نزيل المهديّة وحامل لواء العلوم الدينية فيها وفي البلدان المغربية المدفون بالمنستير سنة ٥٣٦هـ/١١٤٦م شرح نفيس على صحيح مسلم سماه المعلم بفوائد مسلم، وشرحه القاضي عياض باسم إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، وللأبي التونسي المار ذكره بين المفسرين شرح على صحيح مسلم سماه: «إكمال الإكمال بفوائد مسلم» في سبع مجلدات جمع فيه بين شرح المازري، وشرح عياض، وشرح النووي. ومن كبار المحدثين في القرن الثامن شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي أشي الأصل التونسي المولد والموطن المتوفى سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م. وكان يقرئ تلاميذه في جامع الزيتونة الصحيحين: صحيح البخاري وصحيح مسلم. وتلتقى في أوائل العهد العثماني بالشيخ إبراهيم الرياحي وكان يدرس للطلاب شرح القسطلاني على صحيح البخاري، ويذكر ابن أبي دبنار في أواخر كتابه «المؤنس» طائفة من كبار المحدثين في القرن الحادي عشر الهجري بتونس، منهم أبو العباس أحمد الشريف الحنفي وأبو الحسن علي الفماد وسعيد المحجوز وأبو عبد الله محمد ناج العارفين العثماني، ومن يضاف إلى هؤلاء المحدثين من كتاب ذيل بشارت أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان محمد برناز، ومحمد قويسم، ومحمد فتانة ومحمد زيتونة.

وكان الفقهاء في أول الأمر يجمعون كما ذكرنا بين إقراء القرآن ورواية الحديث النبوي والفتوى فيها يجد من أمور الدين، ولذلك من الصعب أن تميز في القرن الأول الهجري وغير قليل من القرن الثاني بين الفقيه والمحدث والمقريء، ونفس بعثة عمر بن عبد العزيز في سنة مائة للهجرة يقال عن كل منهم في كتب التراجم إنه يجمع بين هذه الصفات الثلاث أو قل إنها تصف بذلك نفرا منهم وتترك الباقيين لأنه معروف أنهم جاءوا لتحفيظ الناس والناتشة القرآن وتفقيهم في الدين بما يلقنونه من تعاليمه ومن أحاديث الرسول ﷺ. ونقرأ عن علي بن رباح اللخمي أنه قدم إفريقيا غازيا في عهد موسى بن نصير وأنه سكن القيروان واختط بها مسجدا ومنزلا لسكناءه وأن أهلها تفقهوا عليه، وهو تابعي روى عن عمرو بن العاص وأبي هريرة وأبي قتادة وغيرهم من الصحابة، وبذلك نستطيع أن نعهده أول فقيه قيرواني. وجاء بعده خالد بن أبي عمران التميمي، قدم أبوه مع جيش حسان بن النعمان واستوطن مدينة تونس، وولد له فيها خالد وحفظه أبوه القرآن وروى عنه وعن بعض القيروانيين الحديث ورحل إلى المشرق وسمع من القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومن عروة بن الزبير وله كتاب كبير عنهم في الحديث وروى له مالك في الموطأ بعض أحاديث نبوية سمعها - كما مر بنا - من يحيى بن سعيد في القيروان، وكان فقيها بصيرا بالفتوى وتولى قضاء تونس إلى أن توفي سنة ١٢٣هـ/٧٤٠م. وولتقى بعده بأبي كريب عبد الرحمن بن كريب قاضي القيروان وفقيها المستشهد في حرب الصفرية سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م.

وأخذ كثيرون من القيروانيين يرحلون إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ولقاء مالك إمام دار الهجرة: المدينة، وسماع الموطأ منه، ولم يلبث نفر منهم أن تجردوا لحمل الكتاب، وسبق إلى ذلك علي بن زياد من أبناء تونس - كما مر بنا في غير هذا الموضع - فكان أول من جلبه إلى موطنه، وأخذ يدرسه في جامع الزيتونة، وحمله - أو أخذه عنه - كثيرون من تونس ومن القيروان ومن غيرها، ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب توجد قطعة من روايته للموطأ في مكتبة القيروان العتيقة، ومر بنا تعريف به في النشأة العلمية، توفي عن سن عالية سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م وذكرنا أنه كان يهاصره عبد الله بن فروخ، وكان أبوه خراسانيا قدم إلى القيروان في جيوش الأمويين وسكنها وولد له فيها عبد الله، وقد حفظ القرآن ثم تتلمذ على شيوخ بلده، حتى إذا أخذ ما عندهم اتجه إلى العراق، ونزل الكوفة وصحب الإمام أبا حنيفة مدة طويلة مكنته من أن يحمل عنه مذهبه الفقهي الحنفي، ولم يرجع إلى القيروان مباشرة بل عرج على المدينة وسمع الإمام مالكا وهو يلقي الموطأ، ورجع إلى القيروان، وأخذ ينشر في طلابه فقه أبي حنيفة، توفي سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م. وكان من أنه الطلاب في زمنه وزمن علي بن زياد شاب تونسي هو أسد بن الفرات، كان أبوه خراسانيا، دخل تونس مع جيش ابن الأشعث

سنة ١٤٤هـ/٧٦١م واستوطن تونس، وولد له فيها أسد، وفيها نشأ وحفظ القرآن، ثم اختلف إلى علي بن زياد وابن فروخ، ورحل إلى الحجاز، فسمع من مالك الموطأ، ثم رحل إلى العراق فاستمع إلى أصحاب أبي حنيفة وخاصة أبا يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني ونزل الفسطاط ولزم دروس عبد الرحمن بن القاسم إمام المذهب المالكي بعد أستاذه مالك ودون ما سمعه عليه في مدونة له تسمى الأسدية، وأخذ أسد يدرس في القيروان مدونته عن ابن القاسم لطلابه، وتولى القضاء لزيادة اقه الأغلبى، فكان تارة يأخذ في قضائه بمذهب مالك وتارة بمذهب أبي حنيفة حسب ما يترأى له من الوجه الصحيح في الحكم. ومعروف أنه كان القائد في فتح صقلية، واستشهد بعد فتحه لبعض بلدانها سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م.

ونحن لا نصل إلى أواخر القرن الثاني الهجرى حتى يكون الطلاب في تونس والقيروان عرفوا - معرفة جيدة - مذهب مالك عن طريق علي بن زياد وأسد بن الفرات، كما عرفوا مذهب أبي حنيفة عن طريق عبد اقه بن فروخ وأسد بن الفرات أيضا وإن غلب عليه مذهب مالك. ومضى المذهبان يتعاشان في القرن الثالث الهجرى. ولكل منهما فقهاؤه، وكان مما مكّن للمذهب الحنفى في القرن الثالث أن الأغلبية كانوا يختارون غالبا القاضى من الأحناف، كما كان يصنع العباسيون، وكانت كثرة الفقهاء في القيروان تؤثر مذهب مالك. ونستطيع أن نميز بين فقهاء الأحناف المهمين حينئذ معمر بن منصور رفيق أسد بن الفرات في تلمذته على عبد اقه بن فروخ، ومثله سليمان بن عمران، وكان يلزم أسد بن الفرات، ومن فقهاء الأحناف أيضا لعهد زيادة اقه الأغلبى الأول أبو محرز محمد بن عبد اقه الكنانى، وكان هو وأسد بن الفرات شريكين في القضاء بالقيروان، وتناظرا أمام زيادة اقه في البيعة، فكان أسد يقول بتحريره وأبو محرز يخالفه متابعا لرأى الأحناف وهم لا يحلونه مُسْكِرًا وإنما قبل إسكاره. ومن فقهاء الأحناف أيضا لعهد الدولة الأغلبية عبد اقه بن محمد بن الأشج، قال الحنفى في طبقاته: كان مذهبه مذهب الكوفيين، توفى سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م. وكان يعاصره الفقيهان الحنفيان أبو العباس بن القيار، وأبو العباس بن عبدون القاضى، ويقول الحنفى عنه: «كان حافظا للمذهب أبى حنيفة، ولله إبراهيم بن أحمد (الأغلبى) القضاء ثم عزله» توفى سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م. ومنذ استولت الدولة العبيدية على القيروان من الأغلبية أخذ المذهب الحنفى يقل فقهاؤه ولما انتهت تلك الدولة أخذ المذهب المالكي في الغلبة عليه حتى إذا كان المعز بن باديس وحمل الناس والفقهاء على مذهب مالك دون غيره من المذاهب إرضاء للجماهير في رعيته قلّ في القيروان وإفريقية التونسية من يعنى بالمذهب الحنفى، ونستطيع أن نذكر منهم في أوائل عهد الدولة الحفصية محمد الزناتى إذ يقول صاحب الحلل السندسية إنه كان إماما في المذهب الحنفى. ويعود المذهب الحنفى إلى ما كان له من الازدهار في زمن الأغلبية أيام الحكم العثمانى، وبعبارة أدق منذ عهد يوسف داي (١٠٠٨هـ/١٥٩٩م - ١٠٤٧هـ/١٦٣٧م) إذ

أصبح قاضى القضاة أو رئيسهم حنفيا، وُسِّى فيها بعد شيخ الإسلام، ولم يكن حكم للقاضى المالكي يتنفذ إلا إذا وافق عليه القاضى الحنفى، وتبع ذلك أن أخذ المذهب الحنفى يدرس فى تونس بالمدرسة الشماعية وغيرها. ومن مشايخ الحنفية فى القرن الحادى عشر المجرى بالمهد العثمانى عن ذكرهم ابن أبى دىنار فى آخر كتابه «المؤنس» محمد بن شعبان إمام جامع يوسف داي، وأبو الحسن كرباسة المدرس بالمدرسة الشماعية، ويتكاثر بتونس فقهاء الأحناف منذ هذا التاريخ، ويضيف حسين خوجة فى كتابه: بشارت أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان جعفر كرباسة. وتتقطع أخبار من ينتمون إلى مذهب الشافعى، ويُذكر عن سعيد بن الحداد الفقيه والمتكلم الكبير المار ذكره المتوفى فى مطلع القرن الرابع المجرى أنه بدأ حياته مالكيا، ثم تحول إلى مذهب الشافعى ثم عاد إلى المذهب المالكي.

وكان المذهب المالكي قد أخذ فى الازدهار بالقيروان وإفريقية التونسية منذ مؤسسه أسد بن الفرات بما كان يلقى على الطلاب من مدوّنات الأسيديّة عن عبد الرحمن بن القاسم إمام المالكية بالفسطاط وكان يعاصره سحنون تلميذ على بن زياد، وقد أخذ عن أسد بن الفرات مدوّناته وحملها معه إلى مملّيتها عليه عبد الرحمن بن القاسم، وقرأها عليه، فأصلح له جوانب فيها، وعاد بها سحنون إلى القيروان، وأخذ يلى هذه الصورة الجديدة من المدوّنات على الطلاب وجاءوه من كل فجّ حتى قالوا إنه تخرج على يديه سبعمائة فقيه. ونسبت المدوّنات إليه - وكان ينهى أن تنسب إلى عبد الرحمن بن القاسم - إذ أصبح اسمها مدوّنات سحنون، وطارت شهرتها فى بلده والبلدان المغربية جميعا. وهو أول من أقام نظام الحسبة فى القيروان حين تولى قضاءها سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م إلى وفاته سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م وخلفه فى حلقة ابنه محمد المتوفى سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩م ويذكر مترجموه له تأليف مختلفة ومرّبنا كتابه: «آداب المعلمين». وكان يعاصره محمد بن إبراهيم بن عبدوس المتوفى سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م وكان جيد القريحة غزير الاستنباط، وله كتاب فى شرح مسائل مدوّنات سحنون، ويقال إنه لما تصفّح محمد بن عبد الله بن عبد الحكم إمام المالكية فى الفسطاط بعد ابن القاسم كتابه وبعض كتب محمد بن سحنون قال فى كتاب ابن عبدوس: هذا كتاب رجل أتى بعلم مالك على وجهه، وقال فى كتاب لابن سحنون هذا كتاب رجل سبّح فى العلم سبّحا. وتلتقى بعدها بيحيى بن عمر الكتانى المتوفى سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م وكان فقيها، وله كتاب فى الرد على الإمام الشافعى، وكتاب ثان فى الحسبة بعنوان: «أحكام السوق» وهو منشور.

وحين استولى العبيديون على القيروان اضطهدوا فقهاء المذهب المالكي إذ حاولوا نقلهم من المذهب المالكي السنّى إلى مذهبهم الإسماعيلي فعارضوهم، وناظروا دعائهم مناظرات حادة، وكان من أهم المعارضين لهم المناظرين المجادلين لدعائهم محمد بن اللباد رئيس المالكية وإمامهم

بالقيروان، فسجنوه فترة، ثم ردوا إليه حريته على أن يلزم بيته ولا يلتقى الطلاب في جامع عقبة، فكان يلقاهم في بيته كما مرُّ بنا إلى أن توفي سنة ٣٣٣هـ/٩٤١م وله مصنفات مختلفة منها كتاب في الطهارة وكتاب في فضائل مالك. وانحسرت غمة العبيديين عن القيروان سنة ٣٦١هـ/٩٧١م برحيل المعز العبيدي إلى مصر. ولمع سريعا تلميذ لابن اللباد، هو عبداهق بن أبي زيد المتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م وإليه انتهت رئاسة المالكية بالقيروان والبلاد المغربية، وإليه رحل الطلاب من جميع آفاق المغرب، ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إنه يعد المجدد للسنة والمذهب مالك في المغرب بعد انحسار حركة التشيع، وله الرسالة الجامعة لمقيدة أهل السنة ردُّها على الشيعة ولها شروح كثيرة، وله كتاب النواذر والزيادات على مدونة سحنون، ويقول ابن خلدون: «جمع فيها ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال». ومن تلاميذه أبو الحسن القابسي المار ذكره بين المحدثين. وتلتقى بعده بأبي عمران الفاسي المتوفى سنة ٤٣٠ ثم بأبي إسحق إبراهيم التونسي المتوفى بمنتصف القرن الخامس وله شرح على المدونة باسم التعليق، كما تلتقى بأبي الحسن اللخمي المتوفى سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م وله كتاب التبصرة. ويلقانا بعده الإمام المالكي الحافظ المازرى محمد بن علي الصقلي المذكور بين المحدثين، ويقول ابن فرحون عنه: إمام أهل إفريقية والمغرب، وصار الإمام لقبا له، فلا يعرف بغير الإمام المازرى، تُدرس الفقه والأصول وله فيها كتب قيمة.

وفي أواسط القرن السادس الهجري استولى عبدالمؤمن على الاقليم التونسي ولم يحاول -فيها يبدو- نشر المذهب الظاهري مذهب دولته فيه، واكتفى بأن يذكر في خطبة الجمعة اسمه أو اسم المهدي ابن تومرت زعيم دولته ولذلك ظل المذهب المالكي مسيطراً ولا نسمع عن اتباعوا المذهب الظاهري في عهدهم وعهد الدولة الحفصية التي خلفتهم إلا عن بعض أفراد اعتنقوا المذهب الظاهري من حين إلى حين.

ومن كبار فقهاء المالكية في القرن السابع الهجري الحافظ الفقيه عبد العزيز القرشي المعروف بابن بزيعة المذكور بين المفسرين ومن أهم تلاميذه أبو القاسم بن أبي بكر المعروف بابن زنون قاضي تونس في صدر الدولة الحفصية المالكي المتوفى سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م وهو محرر عقد الصلح بين المستنصر والجيش الفرنسي بعد موت لويس التاسع تحت أسوار قرطاجنة سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م. وفي أواخر هذا القرن السابع وصل من القاهرة كتاب مختصر ابن الحاجب في الفقه المالكي وشغل بشرحه علماء البلدان المغربية. وتلتقى في القرن الثامن بمحمد بن عبد السلام الهوارى بمجد الحركة الفقهية كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وشيخ الجيل التالي المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م المتولى قضاء الجماعة، له شرح لمختصر ابن الحاجب يعد من أهم شروحه، كما يقول ابن فرحون. ومن أنبغ تلاميذه ابن خلدون المؤرخ والفقيه المالكي الكبير، وستترجم له بأخرة ن هذا الكتاب، ومن أنبغهم أيضا محمد بن عرفة الورغمي

المتوفى سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، شيخ شيوخ عصره، كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، ويفتح ابن فرحون ترجمته بقوله: «هو الإمام العلامة المقرئ الفروعى الأصولى البهائى المنطقى شيخ الشيوخ، وبقية أهل الرسوخ، وله تأليف منها تقييده الكبير فى المذهب المالكى فى نحو عشرة أسفار، أقبل الناس على تحصيله شرقا وغربا». ومن تلاميذه فى القرن التاسع الهجرى محمد بن عمر الأبهى المذكور بين المفسرين والمحدثين.. وله فى الفقه شرح على مدونة سحنون.

طبعى أن يتراجع ازدهار دراسات الفقه المالكى فى العهد العثمانى، وخاصة منذ عد يوسف داي فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الهجرى، إذ أصبح رئيس القضاة حنفيا، وأصبح حكم القاضى المالكى لا ينفذ إلا بعد مصاده عليه، ويذكر ابن أبى دينار فى آخر كتابه المؤنس من فقهاء المالكية بالقرن الحادى عشر محمد فتاة المدرس فى جامع الزيتونة، ومثله سعيد الشريف وعبد القادر الجبالى، وتظل دراسة الفقه المالكى ناشطة فى جامع الزيتونة إلى العصر الحديث. ويضيف حسين خوجه فى كتابه ذيل بشارت أهل الايمان بفتوحات آل عثمان: سعيد الشريف ومحمد الحبيص وله حاشيتان على مختصر خليل فى الفقه.

ومن يقرأ كتب تراجم العلماء والفقهاء - منذ القرن الثانى الهجرى يشعر كأنما كانت القيروان مرآة للمذاهب الكلامية التى نشأت فى العراق، إذ كانت مبادئها ونظرياتها تثار فى القيروان، ويتحاور فيها ويتجادل كثيرون، ومن أوائل ما كان من ذلك الجدل فى مبادئ الحوارج، وخاصة مبادئ الإباضية والصفيرية التى اعتنقها كثيرون من أهل المغرب - منذ أوائل القرن الثانى الهجرى - وكانت قد اقترنت بها فى المشرق فكرة المسلم مرتك الكبيرة أما الصفيرية فذهبت إلى الحكم عليه بالكفر وغالت فى سفك الدماء كما مر بنا فى الفصل الماضى، وقالت الاباضية إنه كافر نعمة لا كافر ملة وحكمت عليه بأنه مسلم عاصٍ ولم تعد دار المسلمين - مثل الصفيرية - دار حرب، وذهب أهل السنة من الماكية وغيرهم إلى أنه مسلم فاسق، وذهبت المرجئة إلى إرجاء الحكم عليه لربه يوم القيامة، كما ذهبت إلى أنه يكفى فى الإيمان القول أى التلفظ بالشهادتين، ولا ضرورة فيه للعمل، وهو أداء الفروض الدينية، بينما أهل السنة يرون أن الإيمان قول وعمل، فمن لم يؤد الصلاة والفروض الدينية لا يعد غسلا. ويروى أبو العرب فى ترجمة يحيى بن سلام المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة والمذكور بين المفسرين أنه كانت تجري مناقشات بجلسته فى الإرجاء. وكان مذهب الاعتزال والمعتزلة قد ازدهر بالمشرق فى القرن الثانى الهجرى وتجادل أهل البصرة وبغداد طويلا مبادئ الخمسة المشهورة وهى القول بالوحدانية وبأن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الإيمان والكفر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالعدل على الله وأنه يعمل الأصلح لعباده، وأنه منفذ - لا بد - وعده ووعيده.

وينتقل هذا المذهب إلى القيروان ويتجادل أهل السنة مع معتنقيه، وفي خبر عند أبي العرب، أنه كان للمعتزلة بالقيروان سقيفة يجتمعون فيها، وتوقف شخص بإزائهم وهم يتجادلون يستمع إليهم.

وإذا مضينا إلى القرن الثالث وجدنا محنة خلق القرآن التي امتحن بها الفقهاء من أهل السنة في عصور المأمون والمعتصم والواثق ينتقل الجدل والحوار فيها إلى القيروان، فمنهم من يقول إن القرآن - كما قال أهل السنة - قديم، ومنهم من يقول - كما قال المعتزلة - إنه حادث مخلوق غير قديم. ويذكر أبو العرب في طبقاته مناظرة حدثت أيام زيادة الله الأغلب (٢٠١-٢٢٣هـ) عن خلق القرآن كان الجعفرى يقول فيها إنه غير مخلوق، والنعيرى يقول إنه مخلوق. وفي طبقات أبي العرب أنهم كانوا يتجادلون كثيرا في التشبيه على الذات العلية. واتسع الجدل في ذلك كله بجامع عقبة، إذ كان لكل فرقة ممن ذكرناهم حلقة يجتمعون فيها ويتجادلون جدلا كثيرا. وكان أهل السنة يضيّقون بهذا الجدل وما يحدّثه من جلبة وضوضاء في جامع عقبة حتى إذا تولى سحنون قضاء القيروان سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م «فرّق» - كما يقول مترجموه - حَلَقَات أهل البدع منهم في المسجد الجامع وشرّد أهل الأهواء وكانوا فيه حَلَقًا من الخوارج: صُفْرِيَّة وإباضية ومعهم معتزلة، يتناظرون ويظهرون زيفهم.. وأمرهم أن لا يجتمعوا فيه» وقد أتاح هذا الجدل الواسع للمعتزلة وغيرهم في القيروان حركة جدلية واسعة، حتى ليصف أبو العرب والخشني في طبقاتها غير واحد بأنه كان من الجدلين المناظرين الذين يعرفون كيف يدفعون الخصوم بالحجج والبراهين الساطعة، ولم يصف بذلك المعتزلة أو كما يسميائهم أحيانا العراقيين بل يصفان بذلك كثيرين من أهل السنة. ومن كبار متكلميهم المجادلين عن عقيدتهم المحققين لخصومهم أبو عثمان سعيد بن محمد المشهور بابن الحداد رأس المدرسة الكلامية بالقيروان كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وقال الخشني في طبقاته: غلب عليه الكلام والجدل والمناظرة.. وله مقامات كريمة ومواقف محمودة في الدفاع عن الاسلام والدّب عن السنة» ويصفه المالكي في رياض النفوس بأنه كبير المناضلين عن السنة وكانت له مجالس كثيرة مع أهل العراق (يريد المعتزلة) القائلين بخلق القرآن من أهل القيروان، ويسوق الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب من هذه المجالس مجلسا تحاور فيه مع عبد الله بن الأشج في خلق القرآن وأُسكته وقطعه، ولما سلط عبيد الله المهدي داعيته أبا العباس المخطوم لجدال فقهاء القيروان ومحاولته إقناعهم ببادئ دعوتهم الإسماعيلية كان أكبر من تصدّى من أهل السنة له ولغيره من دعائهم في أربعين مجلسا سجل منها الخشني في طبقاته أربعة مجالس ونسوق مثالا من هذه المجالس، فقد سأله أبو العباس المخطوم هل يجوز تقديم المفضول (أى أبى بكر وعمر في الخلافة) على الأفضل (أى على) فأجابه بمقال من القرآن هو قوله تعالى: ﴿وقال لهم نبيهم إن

الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم يريد أنه فضله على النبي، والنبي أفضل منه، ودليل آخر ذكره من السنة وهو أن الرسول ﷺ أمر على جيش عمرو بن العاص فكان يقسم الفتيه (الفناتم) ويأمر وينهى فيطاع ويصلى بهم الصلوات. وتحت يديه في الجيش أبو بكر وعمر وهما جميعا أفضل منه. وعلى هذا النحو كان سعيد بن الحداد يبيح أباه العباس المخطوم ومحاوره حوارا مخفيا بأدلة قرآنية وأحاديث نبوية، ويضيف إلى ذلك حججا منطقية دامغة مما يجعله من كبار المتكلمين المدافعين عن عقيدة السنة لافي القيروان وحدها. بل في العالم الإسلامي جميعه. وإذا كانت القيروان عرفت المذاهب المبكرة في العراق للمعتزلة وغيرهم فإنها عرفت مذهب الأشعري الذي أخذ في الانتشار منذ القرن الرابع الهجري حمله إليها أبو الحسن القاسبي المذكورين المحدثين، والمتوفى سنة ٤٠٣ ومعلوم أن للأشعري نظرات دقيقة في النوسط بين القائلين بالجبر وأن حرية الإنسان معطلة وبين القائلين من المعتزلة بالاختيار وحرية الإنسان في إرادته، وأيضا بين أهل السنة من مثل ابن حنبل القائلين بأن القرآن قديم والمعتزلة القائلين بأنه محدث مخلوق وقد أوضحنا مذهبه في حديثنا عنه في كتابنا: «المصر العباسي الثاني». ومن كبار الأشعريين القيروانيين محمد بن عتيق التميمي القيرواني أخذ علم الكلام بالقيروان عن أبي عبد الله بن الحسين بن حاتم صاحب أبي بكر بن الباقلاني (الأشعري) ورحل إلى بغداد ودرس بها علم الكلام بالمدرسة النظامية، وقال السلفي كان مشاراً إليه في علم الكلام قال لي أنا أدرس علم الكلام منذ سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة توفي سنة ٥١٢ هـ/١١١٨م. ولعل في كل ما قدمت ما يدل - بوضوح - على أن علماء القيروان استوعبوا جميع المذاهب الكلامية الشرقية، وعم المذهب الأشعري هناك منذ القرن الخامس الهجري.

٥

التاريخ^(١)

منذ الحقب الأولى في اليهود الإسلامية يعني أهل إفريقية التونسية بكتابة التاريخ، وأول

والغرب (طبع تونس) ومقدمة أنموذج الزمان لابن رشيق (طبع تونس) وابن خلدون ومعالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجي ورحلة التجاني والاحاطة للسان الدين بن الخطيب في يحيى بن خلدون ومقدمة تاريخه والتعريف بابن خلدون بقلمه والأدلة البيئية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية»

(١) راجع في المؤرخين التاليين طبقات أبي العرب ورياض النفوس للمالكي ومجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة في سيرة المهدي لجعفر الحاجب ومقدمة سيرة الاستاذ جوزر المطبوعة بالقاهرة وكذلك مقدمة افتتاح الدعوة وطبقات الخشن وقطعة الرقيق القيرواني من كتاب تاريخ إفريقية

مؤرخ نلتقى به عيسى بن أبي المهاجر، حفيد أبي المهاجر وإلى إفريقية التونسية والمغرب (٥٥ - ٦١ هـ) توفى بأواخر القرن الثاني الهجري، وله كتاب مغازى إفريقية، وهو مفقود غير أن المؤرخين بعده ينقلون عنه نقولا مستفيضة على نحو ما نجد في طبقات علماء إفريقيا وتونس لأبي العرب. والمؤرخ الثاني بعده عبد الله بن أبي حسان الجعفي المتوفى سنة ٢٢٧ هـ/٨٤١ م وله كتاب في أخبار إفريقية وحروبها ولحمده بن زيادة الله الأغلب المتوفى سنة ٢٨٣ هـ/٨٩٦ م كتاب في دولتهم الأغلبية، ولأبي علي بن الوكيل القيرواني المتوفى سنة ٣١٠ هـ/٩٢٢ م كتاب في تاريخ إفريقية. وكل هذه الكتب التاريخية مفقودة. ولجعفر بن علي الحاجب كتاب في سيرة المهدي الفاطمي ومن كتب التاريخ التي يظن أنها كتبت قبل انتقال العبيديين الفاطميين إلى مصر أو بعد انتقالهم مباشرة سيرة الأستاذ جعفر وافتتاح الدعوة الفاطمية والمجالس والمسائرات للقاضي النعمان القيرواني العبيدي، ومن الكتب التاريخية العبيدية كتاب لأحمد بن الجزار الطبيب القيرواني المشهور المذكور بين الأطباء وهو كتاب باسم تاريخ الدولة يريد الدولة العبيدية. ومن الكتب المهمة كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب محمد بن تميم القيرواني المتوفى سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٤ م وهو منشور بتونس، ونلتقى بعده بكتاب طبقات علماء إفريقية لمحمد بن الحارث بن أسد الخشني المتوفى سنة ٣٦١ هـ/٩٧١ م وهو مكمل لسالفه ومطويعان معا بدار الكتاب اللبناني ببيروت، وللرفيق القيرواني صاحب ديوان الرسائل في عهد باديس الصنهاجي وابنه المعز المتوفى حول سنة ٤٢٠ هـ/١٠٢٩ م كتاب مهم في تاريخ إفريقية والمغرب، وهو مفقود سوى قطعة منه نشرها د. منجي الكعبي بتونس تؤرخ لنحو قرن وربع من ولاية عقبة بن نافع إلى ولاية عبد الله الأغلب وهو ابن إبراهيم مؤسس الدولة الأغلبية، ويلقانا بعده كتاب أنموذج الزمان في شعراء القيرواني لابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ م ومر بنا حديث عنه بين النقاد، وكان يعاصره أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله الفلكي المتوفى سنة ٤٤٩ هـ/١٠٥٧ م وله الكتاب البديع: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ويقدم في أوائله قصة الفتح العربي في إفريقية كاملة معتمدا في الأكثر من رواياته على المؤرخين القيروانيين السابقين له، وفي نهاية كل طبقة من العلماء والفقهاء يفرّد فصلا لأهل العبادة والنسك، طبع القسم الأول منه في القاهرة وطبع القسم الثاني في تونس. ومن أهم كتب التراجم القيروانية والتونسية بعده كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لعبد الرحمن بن محمد الأنصاري المعروف بالديباج المتوفى سنة ٦٩٦ هـ/١٢٩٦ م وهو يعتمد

الإيمان بفتوحات آل عثمان ومقدمته وفيه ترجمة
لمحمد السراج، وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف.

= لابن الشماع (طبع تونس) والمؤنس لابن أبي
دينار والمجلل السندسبة للسراج، وذيل بشائر أهل

على المالكي إلى حد كبير وأكمّله بإضافات وتعليقات أبو الفضل بن عيسى بن ناجي التنوخي المتوفى سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٦م والكتاب وإضافات ابن ناجي مطبوعان معا. وللتجاني عبد الله بن محمد المتوفى بعد سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م رحلة مشهورة مطبوعة بتونس تجول فيها مع أبي يحيى اللحياني قبل سلطنته في البلاد التونسية حتى أقصى الجنوب وغربا حتى طرابلس وهو فيها يدون أخبار البلاد وأوصافها وعلماءها وعبادها بحيث أصبحت الرحلة تاريخاً علمياً وأديباً واجتماعياً للبلدان التونسية في مطالع القرن الثامن الهجري. ولأبي محمد عبد الله بن عبد البر التنوخي المتوفى سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م تاريخ مرتب على السنين مثل الطبري. ويحيى بن خلدون المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد بتلمسان حتى زمنه. ولعبد الرحمن بن خلدون أخيه المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م تاريخه المشهور «العبر» وبه جزءان عن البربر بإفريقية التونسية والبلاد المغربية وبها معلومات تاريخية طريفة عنهم وعن شعوبهم وقبائلهم ودولهم يتفرد بها لأخذه من مصادر مغربية لم يطلع عليها سواه. ولأبي العباس أحمد بن الشماخ المعروف بابن الهنتاتي المتوفى في أواخر القرن التاسع الهجري كتاب عن الدولة الحفصية باسم الأدلة البيئية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية ألفه في أواخر سنة ٨٦١هـ/١٤٥٧م وللزركشي كتاب تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية وينتهي به في تاريخ الدولة الحفصية إلى سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م، ولابن أبي ديتار الذي كان حياً سنة ١١١٠هـ/١٦٩٩م كتابه النفيس: «المؤنس في أخبار إفريقية وتونس» ولحسن خوجه المتوفى سنة ١١٤٥هـ/١٧٣٢م ذيل بشارات أهل الايمان بفتوحات آل عثمان وهو ترجمات لعلماء البلدان الكبيرة: القيروان وصفاقس وجربة وسوسة وتوزر وباجة، وخصّ تونس بالترجمة فيها لاثنتين وأربعين عالماً دينياً. ولمحمد بن السراج المتوفى سنة ١١٤٩هـ/١٧٣٦م الحلل السندسية في الأخبار التونسية يعنى فيه بالحديث عن المدن التونسية وعلمائها وأدبائها بادئا بمدينة سوسة.

الفصل الرابع

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب القطر التونسي

كان البربر ينتشرون قديما في جميع الأراضي الممتدة غربي مصر من واحة سيوه إلى المحيط الأطلسي، وكانوا يتكلمون لهجات بربرية شتى رُدّها علماء الأجناس واللغات القديمة إلى أصلين: لبيى في شرقي تلك الأراضي ونوميدي في أواسطها وغربيها، وهى لهجات تتحد جنسا وتتفاوت فيما بينها بحيث يصعب التفاهم بين سكان منطقة في ليبيا كسكان جبل نفوسة وسكان منطقة في الإقليم التونسي كسكان منطقة الجريد فضلا عن سكان المغرب الأوسط في الجزائر والمغرب الأقصى في المملكة المغربية.

ونزل الفينيقيون - كما مرُّ بنا - بساحل تونس، أو بعارة أدق أخذوا يرودونه منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، وكُونُوا لهم غربي مدينة تونس الحالية مدينة قرطاجة حوالى القرن الثامن قبل الميلاد، ولعبت تلك المدينة في المنطقة - كما أسلفنا - دورًا حضاريا عظيمًا إلى أن دحرها الرومان واستولوا عليها في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، ونشروا بالمنطقة لغتهم اللاتينية كما نشروا بها المسيحية حين اعتنقوها، وتهدبهم إمبراطورًا عظيمًا هو سبتيموس سيفيروس Septimus Severus وكاتبًا بارعا هو أبولوى Abulée كما تهدبهم بعض القديسين مثل تروتوليان Tertulien. وتظل المنطقة تابعة لروماسة قرون طوال، وكانت تنبعا أيضا بقية الساحل الإفريقي من برقة إلى المحيط الأطلسي، مما جعل اللاتينية تسود في كل تلك المناطق سواء في شئون الحكم الرسمية أو في شئون الدين ولذلك اضطر كثيرون من البربر في تونس وغيرها من الأقاليم المغربية أن يتعلموا اللاتينية ويتقنوها تحدثا وكتابة. وقد نزلها الواندال الجرمانيون سنة ٤٣٩ وظلوا بها مائة عام يدمرون كل ما بها من مظاهر الحضارة والعمران إلى أن خلعتهما منهم بيزنطة، وحاولت تنشر بها اليونانية غير أن اللاتينية ظلت هى اللغة المسيطرة على الألسنة وفي شئون الدين إلى أن فتحها العرب، وظلت فترة غير قليلة متداولة وخاصة في قرطاجة وما حوالها، ونراها لا تزال حية على بعض الألسنة في قصبة جنوبي الإقليم التونسي

في القرنين السادس والسابع الهجريين كما يحدثنا عن ذلك الإدريسي والتجاني في رحلته، وإن كان من المؤكد أنه أصابها حينئذ غير قليل من التحريف بسبب اختلاط المتكلمين بها بسكان تلك المنطقة البربرية ولغتها.

وعلى الرغم من القرون المتطاولة التي عاشت فيها اللغة الفينيقية المتحضرة بالإقليم التونسي والقرون الأخرى التي عاشت فيها اللاتينية المتحضرة بهذا الإقليم وأتقنها كثير من البربر تكلماً وكتابة على الرغم من ذلك لم تتحول اللغة البربرية - لا في تونس ولا في أي إقليم آخر - إلى لغة متحضرة أيام الفينيقيين بحيث أصبح لها حروف استحدثها البربر يكتبونها بها، ومن ثم لم يتركوا قبل الإسلام أي أثر كتابي بلغتهم البربرية يمكن منه التعرف الدقيق على تاريخهم القديم، وقد رجع العرب في معرفته إلى الكتب والكتابات اللاتينية، وما يؤكد ذلك أننا نجد ياميسال ملك نوميديا البربري أيام الفينيقيين يحرر كتبه باللغة الفينيقية لغة قرطاجنة، كما نجد بين ملوكها أيام الرومان من يحرر كتبه باللاتينية أو الإغريقية، فلم تكن البربرية - قبل الفتح العربي الإسلامي - إذن لغة حضارية وكان كثيرون من البربر يعرفون اللاتينية كما أسلفنا وقد أخذت اللغتان تزايل السنة أهلها وتحل محلها العربية في تونس وغير تونس من أقاليم المغرب مع اعتناق السكان الإسلام واختلاطهم بالعرب عن طريق المصاهرة والمعايشة معهم، وخاصة في المدن التي نزلوها، إذ كان سكانها - لذلك - أسرع في التعرب من سكان القرى الريفية والجبال والنجاد والبادي، وكانوا يعدون في الإقليم التونسي وغيره بالآلاف، وقد بلغ عدد الجنود الفاتحين في عهد الأمويين وأوائل عهد العباسيين نحو مائة وخمسين ألفاً سوى من كان يرافقهم من النساء والأطفال، وما يذكر - بالنسبة للجيم - للفاتحين في العهود الإسلامية الأولى أنهم لم يكونوا غزاة يجمعون غنائم الفتوح، كما يحاول المستشرقون أن ينعتوهم، بل كانوا ناشرين للدين الحنيف، وتسلسل منهم - كثيرون من مدن الإقليم التونسي وغيره من الأقاليم المغربية - إلى القرى والجبال والبادي يدعون إلى دين الله بحمية وحماة بالغة.

وقد جعلت تعاليم الدين الحنيف السامية وما يدعو من إخاء وتسامح ومعاملة حسنة شعوب البربر تقبل عليه، وخاصة بعدما رأوه يرفع عن كواهلهم ظلم الأمم السالفة التي كانت تتمصر لنفسها خيرات بلادهم وترهقهم بالضرائب الفادحة، مما دفع البربر - وخاصة في المدن - إلى الدخول في الدين الحنيف ومرتّباً بنا أن قبيلة بربرية - هي قبيلة أوردية - اعتنقت الإسلام في عهد عقبة بن نافع حوالي سنة ٦٠ للهجرة. وكان البربر الذين أسلموا يقبلون على حفظ كثير من آي الذكر الحكيم واستظهار بعض الأحاديث النبوية، وكانوا يتلقون ذلك في كتابات أخذت تنشأ سريعاً في المدن وبعض القرى الكبيرة، كما كانوا يتلقون في حلقات كثيرين ممن

كانوا يعتلون بالمساجد منصات محاولين أن يعلموا الناس بعض تفسير القرآن شارحين لهم بعض الأحاديث النبوية مع التعرض لجوانب من تعاليم الدين الخفيف، وأخذ كثيرون في البوادي وسفوح الجبال يسعون إلى حفظ الذكر الحكيم كما مرُّ بنا في الحديث عن الثقافة وشغل عمر بن يَمَكْتَنَ بحفظ القرآن ومراجعته فيه الجنود العرب المارِّين بمنطقته حتى حفظه جميعه.

ومن المؤكد أن المدن التونسية - كما أسلفنا - أخذت في التعرب سريعاً عن طريق من نزها من الجنود العرب طوال القرن الأول الهجري بعد الفتح وشرطاً من القرن الثاني، فهي لم تنتظر طويلاً حتى يتم لها التعرب. وما لا ريب فيه أن القيروان التي أنشأها عقبة بن نافع في منتصف القرن الأول الهجري لتكون معسكراً لجيشه كانت عربية خالصة منذ إنشائها، وتبعها في التعرب مدن تونس وسوسة وصفاقس وقابس، بحيث لا تقضى طويلاً في القرن الثاني الهجري حتى تصبح مدناً عربية خالصة، أما في الداخل والبوادي والجبال فقد ظل يغلب على الناس التخطاطب بالبربرية طوال القرون الأربعة الأولى للهجرة.

وما نكاد نصل إلى منتصف القرن الخامس للهجرة حتى يأخذ الإقليم التونسي في إكمال تعربه، إذ اكتسحته موجات من قبائل هلال وسليم وزُغْبَة ورياح بأمر الخليفة الفاطمي المستنصر بالقاهرة - كما مر - للقضاء على دولة المعز بن باديس الصنهاجي انتقاماً منه لخلعه تبعية بلاده للدولة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية وإعلانه استقلاله وعودة الإقليم التونسي إلى مذهب أهل السنة. واستطاعت هذه الموجات الهدوية الكثيفة أن تلجته مع أسرته للمقام بمدينة المهدية وأن تحتاح القيروان وكل الإقليم التونسي بمدنه وديانه وجباله وبواديه، وكانوا يبلغون نحو نصف مليون نسمة وامتزجوا بالبربر وتكوّن من الشمين شعباً عربياً تام العروبة في اللغة والدين والزى والمطعم والعادات والأخلاق والمآثم والأعراس، واجتاحوا البلاد بإيلهم وخيلهم ورجلهم ونهبوا خيراتها عشرات من السنين، ومع كل ذلك حملوا إلى كل أنحاء الإقليم التونسي وأطرافه النائية اللغة العربية وفرضوها على البربر فرضاً عن طريق الامتزاج بهم ومصاهرتهم، حتى يقول ابن خلدون - كما مر بنا في الفصل الماضي - عن قبيلة هواة البربرية التونسية إنهم «صاروا في عداد الناجعة (بني هلال وسليم) في اللغة وسُكُنَى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاتن الرحلتين في الشتاء والصيف في تلالهم، وقد نسوا رطانة البربر واستبدلوا بها فصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم» فهم قد أصبحوا - بفضل هذه الموجات الهدوية من بني سليم وهلال وزُغْبَة - عرباً في العادات وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وما ينساق في ذلك من اللبس والمطعم والأفراح والاتراح والسلوك والأخلاق، ويقول ابن خلدون إن رطانة البربر زابت ألسنتهم وحلت مكانها الفصحى، ونراه يقول في موضع آخر عن

هواره إنهم «تبّدوا» - مع الأعراب - ونسوا رطانة الأعاجم وتكلموا بلغات العرب وتخلوا بشعارهم في جميع أحوالهم.

ولم تبّد هواره التونسية أو تتعرب وحدها في الإقليم التونسي، بل تعرب الإقليم جميعه من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في خلال قرن بل يزيد، إلى أن استولى على الإقليم زعيم دولة الموحدين المغربية عبد المؤمن بن علي، ولكن هل العربية التي حملتها قبائل هلال وسليم وزغبة إلى الإقليم التونسي هي الفصحى أو هي عربية دارجة عامية؟ وترجع أنها الفصحى، ويدل على صحة رأينا أن القبائل من سليم وهلال وزغبة كانت قد انضوت تحت لواء الأعصم القرمطي حين غزا الشام ومصر سنة ٣٦٠ للهجرة ورأى الخليفة الفاطمي العزيز - حين صالحه - أن ينزلها في صعيد مصر، وحوّلهم بعده الخليفة الفاطمي المستنصر إلى تونس لضرب المعز بن باديس كما أسلفنا، وكانت الجزيرة العربية مصدرها لا يزال سكانها يحافظون على الفصحى بشهادة الجوهري في مقدمة معجمه الصحاح إذ يقول إنه أخذ اللغة عن أهلها مشافهة، وإنه طوّف في بلاد ربيعة ومضر، ونجد الباهري في كتابه دُمَيّة القصر المؤلف في منتصف القرن الخامس الهجري يترجم لشعراء كثيرين من قبائل نجدية شتى ويتشد من أشعارهم، مما يدل على أن الفصحى كانت لا تزال حية بعد مغادرة بني سليم وهلال للجزيرة بنحو قرن، ويبدو أنها ظلت حية في الجزيرة العربية قرونا بعد ذلك، فإن عمارة اليمن تشهد - كما مر بنا في الجزء الخامس من هذه السلسلة - بأن تامة والبادي وأهل الجبال في اليمن - لمصره بالقرن السادس الهجري - كانوا يتكلمون الفصحى ولا يلحنون في كلامهم. وما لا شك فيه - إذن - أن قبائل بني سليم وهلال التي نزلت مصر وتركها إلى ليبيا وتونس وماوراءها من بلاد المغرب لم تكن تنطق عربية مولدة أو عربية عامية، إنما كانت تنطق عربية فصيحة، ومن الخطأ أن يتشكك بعض الباحثين في صفاء عربيتهم مستدلا على رأيه بشعر القصص الملالية المعروفة التي تحكى مغامرات أبي زيد اللّالي في شعر شعبي يختلف في صياغته - قليلا أو كثيرا - عن صياغة الشعر العربي الكامل الفصاحة فضلا عما يجرى فيه من خلل الإعراب، غير أن هذا القصص نشأ في عصور متأخرة، حين أخذت لهجات شعبية تشع في السنة أهل تونس وغيرها، وما يؤيد رأينا أن نجد ابن خلدون ينشد قصيدة بديعة لأحد رؤساء قبيلة عوف من بني سليم، وكانت تستولى على ما بين قابس وسوسة، وهو عنان بن جابر، وكان أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية قد أوغر الصدور بين قبيلته وقبيلة علاق، فنشبت بينها معارك ضارية، وأغضب ذلك من أبي زكريا عنان بن جابر فرحل بقبيلته إلى صحراء المغرب الأوسط (الجزائر) فكتب إليه محمد بن أبي الحسين وزير أبي زكريا قصيدة يعاتبه فيها على هجرته عن وطن آبائه، ويدعوه إلى العودة إليه، ثم كتب إليه قصيدة ثانية، فرد عليه عنان محزونا لما اضطر إليه من فراق موطنه، وفيها يتحدث عن بسالة قبيلته في الحروب بمثل قوله:

وَكُنَّا إِذَا مَا الْجَبِشُ صُفَّتْ جَنُودُهُ تَرَانَا عَلَى خَيْلٍ عِتَاقِي ضَوَامِرِ
نَخُوضُ وَغَاها وَالْقَنَا تَقَرَّعُ الْقَنَا بِكُلِّ حُسَامٍ مَشْرِقِي وَبَاسِرِ

وَنَسْجُ القصيدة جزل متين، وهى معربة إعراباً تاماً، وترجع إلى النصف الأول من القرن السابع الهجرى مما قد يدل - من بعض الوجوه - على أن قبائل سليم - ومثلها غالباً قبائل هلال - لم تزايل ألسنتها الفصاحة ولا أصابها خلل الإعراب فى النطق حتى عصر عنان بن جابر. وقد يسند رأينا - من بعض الوجوه - ما حكاه العبدى فى رحلته عن أهل برقة الليبية من أن «كلام عرب برقة من أفصح كلام عربى سمعناه، ويقول: وعرب الحجاز أيضاً فصحاء، ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيرهم، وهم الآن (فى أواخر القرن السابع الهجرى) على عربيتهم لم يفسد من كلامهم إلا القليل، ولا يخلون من الإعراب إلا بما لا قدر له بالإضافة إلى ما يعربون». ويسوق العبدى أمثلة من كلامهم سمعها كما رواها وفيها يحتفظون حتى زمنه بالإعراب. ومن بقايا هذا الإعراب - فى رأى - احتفاظ قبائل المعاميد والمرازيق وأولاد يعقوب وغيرهم فى النواحي الجنوبية من الإقليم التونسى - إلى اليوم - بنون النسوة فى كلامهم، فيقولون: «النساوين يشربن ويأكلن ويفزلن» ولا تزال هذه النون تنتشر فى نواحي طرابلس وبرقة الليبيتين كما يقول الأستاذ عبد الوهاب.

وليس معنى كل ما قدمت أن العامية العربية لم تأخذ طريقها إلى ألسنة أهل المدن فى الإقليم التونسى إلا فى وقت متأخر، فالظنون أن هذه المدن مثل القسقاط فى مصر وغيرها من المدن العربية استخدمت مبكرة لغة عامية بها غير قليل من الألفاظ البربرية المحلية، وخالية من الإعراب، متخففة من الحركات وملتمسة التسيكين لآواخر الكلمات. ويبدو أن هذه العامية القيروانية أو التونسية أخذت تشيع فى الألسنة منذ أوائل القرن الثالث الهجرى وأن فاتحى صقلية من القيروانيين والتونسيين سنة ٢١٢ للهجرة حملوها إليها، كما حملوها إلى مالطة حين فتحوها سنة ٢٥٥ للهجرة لعهد الأمير الأغلبى أبى الغرائيق، وقد ظلوا يحكمونها حتى سنة ٤٨٥ للهجرة حين انتزعها منهم روجار النورماندى صاحب صقلية، وظل المسلمون بها تحت ولاء النورماند نحو مائة وستين عاما إلى أن أجبرهم على مبارحتها فريدريك الثانى إمبراطور المانيا سنة ٦٤٧ لعهد المستنصر الحفصى كما مر بنا، ومن حينئذ أصبحت مالطة مسيحية خالصة، وقد ظلوا إلى اليوم يتداولون فى حياتهم لهجة عربية مالطية مشتقة من اللهجة العربية التى كان يستخدمها آباؤهم وبعق يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب: «إن بقاء هذه اللهجة فى مالطة لظاهرة عجيبة، بل حجة قوية ومعجزة بالغة فى حيوية اللغة العربية ورسوخها العميق فى قرارة نفوس من يتكلم بها من الأجيال. ألا ترى هذه الجزيرة المسيحية النحلة قد تماقت عليها - منذ ثمانية قرون - أمم ودول متعددة، آخرهم الإنجليز وودوا لو يحملون أهلها على

التخاطب بلغتهم، فلم ينتهياً لهم ذلك، وبقي المالطيون محافظين على ما عندهم من العربية خلفاً عن سلف، وإن في ذلك لذكرى لأولى الألباب».

وظلت العامية شائعة على ألسنة أهل القيروان والمدن الساحلية الشمالية إلى أن خففت من حدتها في منتصف القرن الخامس الهجري الزحفة الهلالية والسليمية، وقد مضى الزاحفون يعمرون المناطق البعيدة والأطراف النائية التي لم يكن لها عهد بالعربية، وكان مما عمل على نشر العربية في الإقليم التونسي بعد هذه الزحفة هجرة الأندلسيين إليه في أوائل القرن السابع الهجري إذ يقول ابن خلدون: «إن ملكة العربية صحت في إفريقية (تونس) بجلاء أهل شرقي الأندلس إليها» ومعروف أن هذا الجلاء كان في أوائل القرن السابع، على أننا لا نصل إلى أوائل القرن الثامن الهجري حتى يحدّثنا التجاني في رحلته عن شعراء سليميين وهلالين اشتهروا بأشعارهم الملحونة، ويسمون القوالين. وأطال ابن خلدون في أواخر هذا القرن في الحديث عن هؤلاء الأعراب القوالين في تونس والبلاد المغربية، وكأن اللحن شاع على ألسنة الأعراب جميعاً في القرن السابع الهجري، وربما سبق هذا التاريخ في بعض الأنحاء وتأخر في أنحاء أخرى مثل عرب برقة بشهادة العبدري كما مر بنا. ويقول ابن خلدون في الفصل الذي عقده لأشعار الأعراب وأهل الأمصار لمعه: «إنهم يقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعراب على ما كان سلفهم المستعمرون يأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرتاء والهجاء» ثم يقول: «وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم (أشعارهم) موقوفة الآخر، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب». وأخذت هذه العامية التونسية تتأثر بعد ابن خلدون بلغة من احتلها من الإسبان ومن الترك على نحو ما مر بنا في حديثنا عن تاريخها، وبذلك احتوت العامية التونسية بعض طرائف في مقدمتها الرطانة البربرية التي امتزجت بها من قديم.

وإذا كان ابن خلدون لاحظ أن المهاجرين الأندلسيين القدامى في القرن السابع الهجري بثوا روحاً وانتعاشاً في ملكة العربية التونسية فإن ملاحظته تنصب - فيما بعد - على المهاجرين الأندلسيين في أوائل القرن الحادي عشر الهجري، إذ بثوا نفس الروح والانتعاش، وحالوا بينها وبين الركود الأدبي الذي رافق العثمانيين في حكمهم للبلاد العربية المشرقية. ومن المؤكد أنه كانت هناك لغة عامية يتداولها الناس - كما مر بنا - وأخذت تشيع في البوادي والأنحاء البعيدة منذ القرن السابع الهجري، وربما قبل ذلك في بعض الجهات، غير أنه من المؤكد أنه كان للفصحى دائماً السيادة عليها، لأنها لغة القرآن الكريم والدين الحنيف ولغة الثقافة والعلم يختلف فروعه، ولغة الأدب وروائعه الشعرية والنثرية.

كثرة^(١) الشعراء

طبعي أن يكون أول شعر ينشد في الإقليم التونسي بالقيروان وغير القيروان هو ما كان ينشده الجند الفاتحون، ومعروف أن الشعب ظل متصلا في هذا الإقليم وغيره من أقاليم المغرب، مما جعل الدولتين الأموية والعباسية ترسلان الجيوش إلى القيروان من حين إلى آخر حتى منتصف القرن الثاني الهجري. وكان في هذه الجيوش غير شاعر نابه تلقن عنه الشباب الإفريقي في القيروان وغيرها الشعر إما لهم مما نظموا وإما لغيرهم مما رَوَوْه وأنشدوه، ولم تَمُنْ كتب التراجم منهم إلا ابن اشتهر بينهم بقيادة أولوية، ومن قدماء مَنْ ترجمت لهم أبو الخطار الحُسام بن ضِرار الكلبي، وكان شاعرا مفوها وفارسا نابها بين أقرانه في القيروان، وولاه حنظلة بن صفوان والي إفريقية لهشام بن عبد الملك الأندلس سنة ١٢٥ للهجرة وعُزل عنها سنة ١٢٨ فعاد إلى القيروان وسرعان ما توفي بها، وأنشد له ابن الأبار في كتابه الحلة السَّيراء أشعارا بديعة. ومن شعراء الجند الذين قدموا في عهد بني أمية سليمان بن مُحمَّد الغافقي وفيه يقول ابن الأبار: «فارس العرب قاطية بالمغرب في عصره، وأحسن الناس وأبلغهم، إلى معرفة بأيام العرب وأخبارها، ورواية لوقائعها وأشعارها، ويقال إنه توفي سنة ١٦٠ للهجرة وهو القائل:

وإنا إذا ما الحربُ أُسِّيرَ نارُها نَلْتَقَى المنايا دارعين وحُسْرًا

ومن شعراء الجند الذين قدموا إلى القيروان في عهد بني العباس الحكم بن ثابت السُّعدي من سلالة سلامة بن جندل الشاعر الجاهلي المشهور، قدم إفريقية في جيش محمد بن الأشعث الحزاعي سنة ١٤٤ لعهد المنصور إغاثةً وعونا للأغلب التميمي والي القيروان، وأصبح من قواد جيشه، حتى إذا استشهد الأغلب سنة ١٥٠ للهجرة رثاه رثاء حارا، وكان الأغلب شاعرا، وتولى القيروان بعده عمر بن حفص المهلبى، واستشهد في بعض المعارك، فولها أبو جعفر

السندسية للوزير السراج ووفيات الأعيان لابن خلكان في تراجم حكام الدولة الصنهاجية ومقدمة ابن خلدون وتاريخه.

(١) انظر في الشعراء التالين الحلة السَّيراء لابن الأبار وأنموذج الزمان في شعراء القيروان لابن رشيقي والبيان المغرب لابن عذارى والحريدة (قسم شعراء المغرب - للعماد الأصهباني) والحلل

النصور يزيد بن حاتم المهلبى وكان غاية في الجود محمداً، وظل واليا عليها من سنة ١٥٤ إلى وفاته سنة ١٧٠ واستطاع أن يتحول بها إلى بيئة كبيرة من بيئات الشعر والأدب واللغة في زمنه، وكان شاعرا مجيدا، ومن طريف شعره قوله في وصف كرم أسرته:

ما يألف الدرهمُ المضروبُ غِرَقَتنا إلا لِمَاساً قليلاً ثم ينطلق^(١)

وقد جاء القيروان وفي صحبته المعمر بن سنان التميمي، من تيم الرباب، اتخذ زميلا له في طريقة ليؤنسه بطرائف الأخبار، ويقول ابن الأبار: «كان أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها، وعنه أخذ أهل إفريقية حرب غطفان وغيرها من وقائع العرب» وترجم ابن الأبار لابنه عامر، ويذكر بعض أشعاره، ويقول من أحفاده حمزة بن أحمد بن عامر وكان أديبا ظريفا. وتسابق غير شاعر في الوفود على يزيد كما توافدوا قديما على جده المهلب في خراسان، ومنهم ربيعة الرقي الشاعر العباسي المشهور، وفيه يقول:

هو البحر إن كلَّفتَ نفسك خَوْضَهُ تهالكَت في آذِيهِ المتلاطم

وهي قصيدة طارت شهرتها في العصر العباسي، وله فيه مدائح أخرى بديعة، ومن الشعراء الكبار الذين وفدوا عليه بالقيروان ابن المولى، وفيه يقول:

وإذا تباع كريمةٌ أو تُشترى فسواك بائعها وأنت المشتري

ويقال إنه أعطاه على هذه القصيدة الرائعة كل ما كان في بيت ماله، وابن المولى وربيعة الرقي ترجمتان مفصلتان في كتاب الأغاني، وقد أقاما عنده في القيروان طويلا والتف حولهما شباهها يروون عنها شعرها وشعر معاصريها. وذكر ابن خلكان في ترجمته بين من وفد عليه من الشعراء المشهور التميمي وأنه أغدق عليه مالا جزيلا.

ومر بنا في الحديث عن اللغويين أن كرم يزيد بن حاتم لم يجلب إلى عاصمته الشعراء فقط بل جلب إليها جلة من النحاة المشهورين مثل يونس بن حبيب وقتيبة الجعفي، وكانت قد أخذت تنشأ في القيروان طائفة من المعلمين الشعراء، منهم أمان بن الصمصامة بن الطرماع ويبدو أن أباه كان قد نزل القيروان في أوائل القرن الثاني الهجري واتخذ التعليم مثل أبيه حرفة له، وفيه يقول الزبيدي: «كان شاعرا عالما باللغة»، وكان يعاصره معلم، يعكف شباب القيروان على أخذ اللغة والشعر منه، كما يأخذون النحو والعربية والأدب، هو عياض بن عوانة، ويقول الزبيدي إنه كان ينظم الشعر ويجود فيه. ولا نكاد نخطو في النصف الثاني من القرن الثاني

المجربى حتى نرى أعمال اللغويين المقيمين والوافدين من أمثال أمان بن الصمصامة ويونس بن حبيب والرواة من أمثال المعمر بن سنان التميمي وسليمان بن حميد الغافقي تشر نامارا يانمة كثيرة في شباب ترسخ في نفوسهم فطرة العربية ويطلب كثيرون منهم التخصص في الفقه لأعلى أساتذته في القيروان وتونس فحسب، بل أيضا في الحجاز والعراق، من أمثال عبد الرحمن بن زياد وكان شاعرا وعلى بن زياد الذي أدخل لأول مرة كتاب الموطأ إلى المغرب، وقد توفي سنة ١٨٣ وكان يعاصره عبد الله بن فروخ وعبد الله بن غانم الرُعَنيّ الفقيهان القيروانيان المشهوران.

وعلى الرغم من أن إبراهيم بن الأغلب استقل بالقيروان سنة ١٨٤ وكون بها دولة الأغالبة التي ظلت بها أكثر من قرن وحققت لها نهضة ثقافية كما مر بنا في الفصل الماضي، على الرغم من ذلك فإن نهضة الشعر بها لا تتراعى لنا واضحة، إذ يظل أصحاب التراجم لا يعنون غالبا طوال هذه الدولة إلا بن سال الشعر على لسانه من حكامها أو من أفراد الأسرة ومن شاركهم في هذه الموهبة من الفقهاء واللغويين. وكان إبراهيم بن الأغلب مؤسسها شاعرا، ويسوقون له أشعارا في الفخر، وكان قد نشأ بمصر وتزوج بها، وكان قد فارق زوجته وسار وحده إلى القيروان وحن إليها فأنشد:

ما سرتُ ميلا ولا جاوزتُ مرحلةً إلا وذكرُك يُثني دائما عُنقى
ولا ذكرتُك إلا بتُ مُرتقبًا أرعى النجوم كأن الموت مُعتقى

وكان حفيده الأمير أبو العباس محمد شاعرا (٢٢٦ - ٢٤٢) وهو الذي استولى على رومة فترة من الزمان ثم اضطر جيشه إلى الانسحاب لتكاثر من جاءها من نجدات المسيحيين، وله أشعار يفخر فيها بنسبه وأسرته، من مثل قوله:

أنا الملك الذى أسمو بنفسى فأبلغ بالسمو بها السحابا
أظللُ عشيرتي بجناح عِزى وأمنعها الكرامة والثوابا

ومن أفراد الأسرة الشعراء أحمد بن سودة والى صقلية المتوفى سنة ٢٦٠ وله أشعار بديعة في الحماسة والفخر. ومن أفراد الأسرة أيضا مهريّة الأغلبية المتوفاة سنة ٢٩٥ ولها مراثية بديعة في رثاء أخ لها مات غريبا. ومن عُرف بالشعر ونظمه في عهد الأغالبة عيسى بن مسكين القاضى المتوفى سنة ٢٩٥ وشعره في التحسر على الشباب، وكان يعاصره الفقيه أحمد الصواف وشعره في الحكم والمواعظ. ومن اشتهر بالشعر من اللغويين في عهد الأغالبة الحسن بن منصور المذحجي، يقول ابن الأبار: «أقل ما تصرف فيه الشعر وكان بصيرا باللفة نافذا في النحو عالما

بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأسماءها ومن قوله في رثاء ابن عم له :

لَكَأَنِّي لَمْ أَتَضَنَّكَ اللَّحْدَ سُدَّ يَمِينُ قَدْ فَارَقَتْهَا الشَّمَالُ

وأشعر منه، بل ربما كان أشعر اللغويين عامة في القيروان حتى نهاية عهد الأغالبة عبد الملك المهرى أستاذ أهل اللغة والنحو والرواية في عهد الأغالبة، توفي سنة ٢٥٦ للهجرة، وله مرثية بديعة لسحنون، ومن تلاميذه الشعراء حمدون الملقب بالنمجة، وفيه يقول الزبيدي - كما مر بنا - شعره عليه أثر التكلف، أما في النحو والعربية والغريب فهو الغاية التي لا بعدها.

وتنتقل إلى عصر الدولة العبيدية في القيروان والإقليم التونسي منذ سنة ٢٩٧ إلى سنة ٣٦١ وقد تحول به عبيد الله المهدي أول خلفائها هناك إلى عصر دعاية للمذهب الإسماعيلي الذي جاء بحمله، فكان فقهاؤه ودعاته يجادلون عنه فقهاء المذهب السني بالقيروان، وكانت القيروان سنية فكانوا يعتقدون فيها المناظرات بينهم وبين أبي عثمان سعيد الحداد وغيره من فقهاء السنة القيروانيين العظام. ولأبي عثمان مع دعائهم أربعون مجلسا حفظ لنا الحشفي في طبقات علماء إفريقية - كما مر بنا - أربعة منها علا فيها صوته وفكره على دعائهم. وطبيعي في هذا الجو المشحون بالجدل في حقائق المذهب الإسماعيلي أن يطمح خلفاء الدولة الفاطمية التونسيون أن يكون لهم أنصار من الشعراء يعتقدون دعوتهم ويدافعون عنها، وطبيعي أن يثروا عليهم الأموال ثرا، وكما قال بشار قديما :

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَبِهُ الْحَدَّ سَبَّ وَتَقَشَّى مَنَازِلُ الْكِرْمَاءِ

وقد أكثر عبيد الله المهدي وخلفاؤه من نثر الحب، وتكاثرت طيور الشعراء من حولهم تلتقط هذا الحب في القيروان وفي المهديّة عاصمتهم الجديدة، وتبارى الشعراء من أمثال خليل بن إسحق الطرابلسي الذي عرضنا له في ليبيا وأمثال سعدون الورجيني القائل في مدح المهدي :

هَذَا الْإِمَامُ الْفَاطِمِيُّ وَمَنْ بِهِ أَمْنَتْ مَغَارِبُهَا مِنَ الْمَحْضُورِ

ومضى قائلا إن مدن الشام والعراق لا بد أن تستسلم له حتى يسود فيها العدل الذي لا يستطيع الناس الحياة بدونه. وكان المهدي نفسه شاعرا، يُحَسِّنُ نظم الشعر، وتتداول الكتب قطعة طريفة تَسَبَّبَ له تارة وتارة أخرى تَسَبَّبَ إلى داعيته أبي عبد الله الصنعاني، وهي نقض على هذا النحو :

مَنْ كَانَ مُغْتَبِطًا بِلَيْلٍ حَشِيَّةٍ فَحَشِيَّتِي وَأَرِيكَتِي سَرَجِي
مَنْ كَانَ يَعْجِبُهُ وَيُبْهَجُهُ نَقْرُ الدُّفُونِ وَرَنَةُ الصَّنَجِ
فَأَنَا الَّذِي لَا شَيْءَ يَعْجِبُنِي إِلَّا اقْتِحَامِي لُجَّةَ الْوَهَجِ

فهو يعيش حاملا سيفه ومعتظيا سرج حصانه مزدريا حياة الترف واللهو والاستماع إلى الفناء ونقر الدفوف ورنات الصُوج، وكل ذلك يتركه وراءه، إذ لذته جميعها في قيادة الجيوش واقتحام لجج الحرب ولهيبتها المستعر، وهى أخلاقية مُثلٌ لمؤسس دولة، ويحق أسس دولتهم العُبيدية في الإقليم التونسي، وكان ابنه القائم شاعرا مثله، وله قصيدة حماسية خاطب بها العباسيين، مفتتحا لها بقوله:

ألا إن حدَّ السيف أَشْفَى لذي الوَصْبِ وَأُخْرَى بَنِيْلُ الحقِ يوما إذا طُلِبَ

وخلفه ابنه المنصور وكان جوادا ممدحا وفارسا مقداما، وقد استطاع في أول خلافته القضاء المبرم على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد كما مرَّ بنا في القسم التاريخي، وفيه يقول شاعره أيوب بن إبراهيم:

يا بَنَ الإمامِ المرتضى وابنِ الوصيّ (م) المُصْطَفَى وابنِ النَبِيِّ المرسلِ
اللَّهُ أعطاك الخلافةَ واهبًا ورآكَ للإسلامِ أُنْعَمَ مَقْبَلِ

ولأبي القاسم الفزارى فيه قصيدة بديعة حين أَمَنَ أهل القيروان بعد ثورة مخلد بن كيداد سنعرض لها في غير هذا الموضع، ويتولى الخلافة بعده ابنه المعز، ويأتيه الشعراء من كل فجٍّ وفي مقدمتهم ابن هاني الأندلسي وله فيه قصائد طنانة، وقد ترجمنا له في قسم مصر، وحين فتح جوهر العقيل مصر للمعز أنشده ابن هاني قصيدة افتتحها بقوله:

يقول بنو العباس هل فُتِحَتْ مِصرُ فَقُلْ لِبني العباسِ قد قُضِيَ الأَمْرُ

ومن أهم شعرانه على بن الإيادي، وسنخصه بترجمة.

وينتهى عصر الخلافة العُبيدية في الإقليم التونسي سنة ٣٦١ بانتقال المعز الفاطمي إلى القاهرة واتخاذها عاصمة للملك وملك أبنائه وأحفاده من بعده، ووقع اختياره على بُلْكَيْن بن زيري الصنهاجي ليخلفه على الإقليم التونسي، فأسس بها دولة صنهاجية أتاحت للإقليم التونسي كل ما كان يحلم به من ازدهار فكري وأدبي. ومع أن المعز بن باديس غلب على أمره أمام موجات بني هلال واضطُرَّ إلى أن ينسحب إلى المهديّة سنة ٤٤٩ فإنه استطاع هو وابنه تميم ومن خَلَفَها فيها أن يستثمروا لهذا الإقليم كل ما كان ينتظره من نهضة أدبية وفكرية، وفي المعز يقول ابن خلكان: «كان محبا لأهل العلم كثير العطاء مدحه الشعراء وانتجعه الأدباء، وكانت حضرته محط بني الآمال» ويقول في ابنه تميم: «كان محبا للعلماء، معظما لأرباب الفضائل حتى قصدته الشعراء من الآفاق على بعد الدار كابن السراج الصوري وأنظاره، وكان يميز الجوائز

السنية ومعطى العطاء الجزيل» واقتدى به ابنه يحيى (٥٠١ - ٥٠٩) في سيرته، فكانت عنده جماعة من الشعراء - كما يقول ابن خلكان - قصوده ومدحوه وخلدوا مديحه في دواوينهم، ومن جملة شعرائه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي، وله فيه مدائح كثيرة أجاد فيها وأحسن، وله أيضا مدائح في ولده أبي الحسن علي (٥٠٩ - ٥١٥ هـ). وفي حفيده الحسن، وكان روجار صاحب صقلية قد استولى منه على المهديّة سنة ٥٤٣ واستردها منه عبد المؤمن أمير الموحدين سنة ٥٥٥. وسار الحسن سيرة آبائه في العناية بالعلماء والشعراء.

وعصر هذه الدولة الصنهاجية يعد عصر ازدهار للإقليم التونسي ولشعرائه، إذ أصبحوا يعدون بالعشرات، حتى لنجد ابن رشيّق المتوفى سنة ٤٥٦ يؤلف فيهم كتابه: «أنموذج الزمان في شعراء القيروان» يضمّنه مائة ترجمة لشعراء قبروائيين في زمنه، وبينهم شاعرة مبدعة، وكان الكتاب مفقودا، واستطاع الأستاذان محمد العروسي الطوي وبشير البكوش أن يجمعا من مسالك الأبهار لابن فضل الله العمري وغيره من المخطوطات التي احتفظت بترجمته، وأن يعيداه كأما تركه ابن رشيّق بالأسس، وهو عمل علمي جليل فضلا عما قدما له من دراسة وما ملأ به هوامشه من تحقيقات قيمة، وبذلك وضعا تحت يد الدارسين للنهضة الشعرية في القيروان أروع نص يمكنهم من تصوير هذه النهضة، ولم يحطّ الإقليم التونسي بنصّ مماثل قبل ابن رشيّق ولا بعده له خطورته، ويقال إنه كان له كتاب عن شعراء المهديّة سقط من يد الزمن، ولو أنه وصلنا لا تسعت تحت أعيننا صورة النهضة الشعرية في هذا الإقليم الشقيق لذلك العهد الصنهاجي، إذ الأنموذج لا يصور كل ذلك العهد، فقد كتبه ابن رشيّق حوالي سنة ٤٢٥ وبغلب أن يكون كثير من المترجم لهم فيه قد عاشوا إلى منتصف القرن الخامس ورأوا موجات بني سليم وهلال تأتي على القيروان وكثير من المدن، ومع ذلك فقد انسحب المعز بن باديس إلى المهديّة، وخلفه عليها سريعا ابنه تميم من سنة ٤٥٤ هـ إلى سنة ٥٠١ م ومرت هنا كلمة ابن خلكان عن تميم وكيف كان يغلق الأموال على الشعراء والعلماء وكيف قصده الشعراء، من الأقاليم البعيدة فضلا عن إقليمه، ونهج نهجه ابنه يحيى وحفيده علي وابنه الحسن في نثر الأموال على الشعراء، ولا يبيّن حمديس الصقل وأمّية بن أبي الصلت الأندلسي في الثلاثة مدائح راتنة، وبالمثل لمن كان يحف بهم من شعراء القيروان، غير أنهم جميعا لم يقيّض لهم ما يقيّض للمعز بن باديس من عناية ابن رشيّق بالترجمة لشعراء القيروان والإقليم التونسي لزمنه.

وكان الإقليم التونسي منذ زعفة بني هلال وسليم قد تحول إلى ما يشبه عصر الطوائف المعروف في اليونان، ففي المهديّة أسرة المعز بن باديس وأبنائه، وفي تونس بنو خراسان كانوا عمالا للدولة الصنهاجية واستقلوا عنها منذ سنة ٤٥٨ وفي قفصة والجريد بنو الرّند، وفي سوسة الهلاليون، ويشتهر آخر أمرائهم جبارة بن كامل بن سرحان البعيد الصيت بالجلود وإغداقه

الأموال على الشعراء، ومن يده أخذها روجار الصقلي واستردها منه عبد المؤمن مع البلاد الساحلية. واستولى الهلاليون أيضا على قابس، إذ ظلت لبني جامع منهم حتى سنة ٥٥٤ واشتهر من أمرائهم بأخرة من أبياتهم أبو الحملات مدافع، ومنها استنزله عبد المؤمن أمير الموحدين، وكان جوادا ممدحا، والتف حوله كثير من الشعراء. ومن الغريب أن هذا العصر الذي توزع فيه الاقليم التونسي بلدانا وإمارات متعددة لم يضعف فيه الشعر بل ظل مزدهرا، وخاصة حول أمراء المهديّة وقابس وسوسة، إذ كان أمراء البلدان فيه يتنافسون في جذب الشعراء إليهم، وكلّ يحاول أن يجمع في بلده العديد منهم، ليتحدثوا عن مناقبه ومفاخره، وكانت تحف بتميم بن المعز في المهديّة كوكبة من الشعراء، منهم - كما في الخريدة - حميد بن سعيد، وكان من الشعراء المجيدين وهو الذي جمع شعر تميم، ومنهم - كما في الحلل السندسية - محمد بن حبيب القلانسي وأبو الحسن بن محمد الحداد، وملتقى بشعراء أمير قابس أبي الحملات مدافع آخر أمراء بني هلال بها، ومنهم جعفر بن الطيب الكلبي وسلام بن فرحان القابسي وهو من الشعراء المجيدين والسككلى القفصى ويحيى بن التيفاشي، كما نلتقى فيها بشعراء جبارة بن كامل بن سرحان أمير سوسة المار ذكره، ومنهم أبو ساكن عامر بن محمد بن عسكر الهلالي وأبو الحسين بن الصبان المهدي والتراب السوسى وهو من الشعراء المبدعين، وكان وراء هؤلاء الشعراء الذين سميناهم شعراء بارعون مثل تميم بن المعز صاحب المهديّة وعلى الحصري المهاجر إلى الأندلس وأبي الحسن علي بن محمد الخولاني المعروف بالحداد المهدي المهاجر إلى الاسكندرية وأبي الفضل بن النحوى التوزري وابن بشر المهدي وعبد الله الشقراطسي ومحمد بن شرف المهاجر مع ابنه إلى الأندلس.

ويدخل الإقليم التونسي منذ منتصف القرن السادس الهجرى في حوزة الموحدين، غير أن ابني غانية وقراقوش يحدّثان فيه شغبا - كما مرّ بنا - ظل فترة طويلة، ويعيد الأمن فيه إلى نصابه وإلى الموحدين أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد مؤسس الدولة الحفصية بتونس، وقد اتخذها عاصمة له، وظلت عاصمة للدولة بعده حتى سنة ٩٨٦ حين انتهت دولة الحفصيين، بل لقد ظلت إلى اليوم عاصمة للإقليم التونسي. وكان أبو زكريا سيوسا حليبا منصفا محسنا لتدبير دولته، وكان معدودا في العلماء وفي الشعراء وله شعر مدون مع إحسانه لاختيار الرجال الذين يديرون معه دفة الحكم، مما جعل أيامه خير أيام على الإقليم التونسي وأكثرها أرزاقا وجمعت دولته طائفة من كبار العلماء ونابهي الشعراء لا من الإقليم التونسي وحده، فقد نزل بدياره كثرة غامرة من علماء الأندلس وشعرائه مثل ابن الأبار وأحمد بن عميرة وحازم القرطاجني وتظل هذه السيول الأندلسية وافدة على تونس في عصر ابنه المستنصر مثل ابن برطلة رئيس الوفد الذى قدم إلى تونس سنة ٦٥٧ مباحيا المستنصر خليفة وأميرا، ومثله ابن القصير شاعر المستنصر وله فيه مدائح كثيرة، وعلى شاكلتها ابن أندراس أهم أطباء المستنصر. وهذه الأساء

الأندلسية التي ذكرناها إنما هي رموز. فقد كان علماء الأندلس وشعراؤها الذين نزلوا بتونس وماوراءها من المدن لا يُحْصَوْنَ عدداً. وقد بعثوا فيها جميعا حركة أدبية عظيمة، اقترنت بما كان في البلاد من نشاط أدبي، فإذا هي تبدأ - منذ الأيام الأولى للدولة الحفصية - في نهضة أدبية عظيمة، فإذا التفتنا إلى شعراء تونس وجدناهم كثيرين، مثل أبي طاهر الحميري المتوفى سنة ٦٣٩ وعنان بن جابر الهلالي المتوفى سنة ٦٤٥ وأحمد اللباني المتوفى سنة ٦٥٩ وابن عُرَيْبَةَ المتوفى مثله سنة ٦٥٩ ومحمد بن أبي الحسين وزير المستنصر المتوفى سنة ٦٧١. ووراء هؤلاء في القرن السابع الهجري غير شاعر مبدع مثل ابن الشهاب التُّوزَرِيُّ المتوفى سنة ٦٨١ وله شرح وتخميس لقصيدة الشِّقْرَاطِيْسِي اللامية في المديح النبوي، وكان يعاصره ابن السُّمَّاط البكري المهدوي المتوفى سنة ٦٩٠ وأشعاره جميعها مدائح نبوية رائعة. وتظل هذه النهضة الشعرية أيام الحفصيين مطردة في القرن الثامن الهجري، ويلقانا به شاعران من أسرة التجاني هما أبو الفضل وعبد الله صاحب الرحلة، وقد توفيا سنة ٧١٨ للهجرة، وملتقى بإسحاق بن حُسَيْنَةَ المتوفى سنة ٧٤٠ وبمحمد الظريف المتوفى سنة ٧٨٧، وما تلبث تونس أن تلقى بدرتها اليتيمة ابن خلدون المتوفى بالقاهرة سنة ٨٠٨ وهو نائراً أكبر منه شاعراً. وقبلنا نلتقى بشاعرهم في الحقب المتأخرة للدولة الحفصية، باستثناء الشهاب بن الخلوفا المتوفى سنة ٨٩٩ وأبي الفتح بن عبد السلام المتوفى سنة ٩٧٥. وفي رأيي أن ضعف الشعر لعهد الدولة الحفصية في القرنين التاسع والعاشر الهجريين يرجع إلى ما أخذ يسود منذ زمن ابن خلدون في الإقليم التونسي وبجاية بعامة من اللغة العامية التي لا تحفظ بالإعراب في أواخر الكلمات، مما جعله يقول بمقدمته في الفصل الخاص بأشعار العرب وأهل الأمصار لزمته: «فأما العرب أهل هذا الجبل المستجمعون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون، ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والثناء والهجاء، ويستطردون بالخروج من فن إلى فن في الكلام.. وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه، ماعدا حركات الإعراب في أواخر الكلم فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر. ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب». ويبدو أن هذه العامية غير المعربة اتسع استخدامها في الإقليم التونسي، مما جعل الناطقين بالشعر الفصيح العرب يقلون، وكان زملاؤهم من أصحاب الشعر العامي المسمون بالقوالمين يظهرون في العهد الأول للدولة الحفصية على استحياء غير أنهم أخذوا يتكاثرون منذ زمن ابن خلدون والقرن التاسع الهجري.

وكانت شئون الحكم في أواخر عصر الدولة الحفصية قد ساءت سوء شديدا واستعان بعض حكامها بالإسبان ونزلوا في ديارها - كما مرُّ بنا - منذ سنة ٩٤٢ وأخذت البلاد تعاني من ظلم الإسبان وعسف الحفصيين ويستولى العشانيون سنة ٩٨١ على الإقليم التونسي ويظل يعاني من

سوء الحكم العثماني إلى أن تتولاه الدولة الحسينية منذ سنة ١١١٧ غير أن لهذا الحكم السيء حسنة فإن الإسبان أخرجوا من ديارهم من بقي بها من المسلمين سنة ١٠١٦ فاستقبلهم الحاكم التركي للإقليم التونسي: عثمان داي استقبالا كريما، وأوسع لهم في اقتطاع الأراضي ومزاولة الصناعات، كما أوسع للشخصيات الفكرية والأدبية اللامعة أن تزاوّل حياتها في تونس، وبذلك أخذوا يرقون لها دورها الثقافي في العصر الصنهاجي وأوائل العهد بالدولة الحفصية غير أنه لم يتح لتونس حينئذ حكام يستطيعون أن يحققوا لتونس هذا الدور، حتى تولت الأسرة الحسينية شئون الإقليم، وكان مؤسسها مثقفا مستتيرا وكان أبنائه يحسنون العربية، بل كان ولي عهده من بعده: محمد الرشيد شاعرا وموسيقيا، وله ديوان شعر، وكما كان مولعا بالشعر كان مولعا بالغناء والموسيقى، وإليه يرجع فضل ترتيب الأغاني الشعبية التونسية والأندلسية. وبهق تفتتح هذه الأسرة الحسينية عصرا جديدا بتونس، ظل يواكبها إلى آخر هذا العصر وفترة في العصر الحديث، وكما أذكروا من إنشاء المدارس والاهتمام بجامعة الزيتونة وعلماؤها من كل صنف أذكروا أيضا من الاهتمام بالشعراء والأدباء، وبذلك ظلت بتونس حركة أدبية ترافقها طوال عصر الدولة الحسينية، ومن نلتقى به من شعرائها في أول العهد بها ابن أبي دينار صاحب كتاب المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس وأحمد برناز ومحمد الوزير السراج صاحب الحلل السندسية ومحمد الحضراوي ومحمد سعادة وإبراهيم بن القاسم الخراط، وأعل منهم مرتبة في الشعر على القراب الصفاقسي وله ديوان منشور ومحمد الورغي والطوير القيرواني ومحمد الشافعي ومحمدة ابن عبد العزيز والحجري، ونلتقى بأخيرة من العصر بمحمد ماضور القاضي وكان يتزج في شعره نزعة صوفية كما نلتقى بمحمد الأصرم والطاهر بن عاشور، ونجد عندهم معارضات كثيرة، والطريف أنهم يعارضون بعض شعراء الأندلس في قصائدهم مثل ابن زمرك.

٣

أغراض الشعر والشعراء

أخذت الحركة الشعرية تنهض في القيروان والمهدية منذ عصر الفاطميين أو منذ أوائل القرن الرابع، واتسعت في عصر الدولة الصنهاجية اتساعا كبيرا أتاح لابن رشيق أن يؤلف فيها كتابه النموذج الذي ترجم فيه لمائة شاعر وشاعرة، واتسعت مع تلك الحركة حركة نقدية خصبة، فألف ابن رشيق كتابه البديع: العمدة في صناعة الشعر ونقده.

ولم تتوقف موجات الحركة الشعرية مع الزخفة الأعرابية لبني سليم وبني هلال، فقد ظلت منها - كما أسلفنا - أسراب في المهديّة وفي قابس وسوسة وعادت إلى الانتعاش مع الأزمنة الأولى للدولة الحفصية، وغذتها حينئذ هجرة الأندلسيين إلى تونس وما وراها من البلدان،

وبالمثل غذتها هجرة مماثلة في القرن الحادى عشر الهجرى انتشرت الأدب شعراً وتراً مما كان قد صار إليه من الضعف الشديد وغلبة العامة عليه. ولن نستطيع أن نفصل الحديث في الحركة الشعرية لاتساع جوانبها ومناحى القول فيها، بل سنعتمد إلى غير قليل من الاجمال في عرض أغراض الشعر ومن جمل في كل غرض، متخذين ممن نذكرهم رموزاً لمن عاصروهم - وكذلك لمن خلفهم - من الشعراء، ونستهل ذلك بالحديث عن غرض المديح والتأبين من شعرائه على مر العصور.

شعراء المديح

أخذت سوق المديح تنفق في الإقليم التونسى مع قيام الدولة الميمنية التى كان خلفاؤها يتخذون منه منشورات للدعاية لحكمهم، ومر بنا ذكر بعض مادحيهم، ومن أهمهم أبو القاسم الفزارى المتوفى سنة ٣٤٥ وله مدحة بديعة في المنصور الفاطمى حين انتصر على محمد بن كيداد الناصر الخارجى سنة ٣٣٦هـ وفيها يذكر من اشتهروا في الجاهلية والإسلام بالشرف والجلود والبأس، ثم يأخذ في مديح المنصور وأنه لا يقل عنهم بأساً وجوداً وشرفاً بمثل قوله^(١):

كريمُ المساعى والأيدى سمْتُ به أبوةُ صِنْتِي من ذُؤابةِ هاشم
شريفُ الأدنى والأقصى مهذبٌ إذا ما عَدَدْنَا فَضْلَ أهلِ المكارمِ

وكان يعاصره على بن الإيدى، وسنخصه بكلمة. ويدور الزمن ونلتقى بحكام الدولة الصنهاجية، وكانوا يحوروا فياضة، فجذبوا إليهم الشعراء من كل بلدة ومكان في الإقليم التونسى، وتجلت مواهبهم الشعرية الخصة في مدائحهم، من ذلك قول ابن سفيان في المنصور الصنهاجى المتوفى سنة ٣٨٦ للهجرة^(٢):

ومُعْتَرِكُ ضائقِ الفضا في مُقايه من الطُّمنِ والأرضِ العريضةِ خاتَمُ
تَجَلَّى لها المنصورُ فأنجابَ جُنُحُها وليته في لثَمِ الترابِ الجماجمِ^(٣)
قناتهم في حيث لا سيفٌ يَنْتَضِى كأن ضياءه في التراقي تماثَمُ^(٤)
كأن الطللاً وسطَ العجاجِ خناصرُ وقد صيغ من بهضِ الفِرندِ خواتمُ^(٥)

(١) مجمل تاريخ الأدب التونسى للاستاذ حسن

حسنى عبدالوهاب ص ٨٦.

(٢) النموذج الزمان في شعراء القروان جمع وتحقيق

محمد العروسى المطوى وبشير الكوش ص ١٠٠.

(٣) الجنب: الطلام.

(٤) ينتضى: يُسَل من عمده.

(٥) الطلا: الأعناق. الفرند: السيف.

وتصوير الفضا وأنه ضاق بالقتل تصوير قريب، غير أنه جعل الأرض كأنها تحولت خاتماً يختم على قتل الأعداء، ويستمر فيجعل تناثر جاجهم ورءوسهم على التراب كأنها تنفذ للنصور أمراً بلشمها للتراب، ويتصور ضياء سيوف جيشه في تراقبهم كأنه تأنم، ويتسع به الخيال فيجعل أعتاقهم وسط غبار الملحمة كأنها خناصر وقد أحاطت بها من بيض السيوف خواتم. وهي روغات متتابعة من الخيال الديدع، وقد عقب ابن رشيقي على الأبيات بقوله: «هذا كلام منتقى، ليس فوقه مرتقى». ويقول قرهب الخزاعي في باديس بن المنصور^(١):

أَبْنَى مَنَادَ سَلَكْتُمْ سَنَنَ الْهُدَى وَالْعَقْدُ مِنْكُمْ بِالْإِسْفَاءِ مُعَارُ
وَكَاَنَّ بَادِيسَ الْمَمْلُوكِ فِيكُمْ شَمْسُ الضُّحَى وَكَأَنَّكُمْ أَقْمَارُ
رَاقٍ تِلَاعَ الْعِزِّ يَحْمِي حَوْرَهُ حَدُّ الْبَوَائِرِ وَالْقَنَا الْخِطَارُ
وَحَدَا بِمَدْحِهِ جَاوَزَ فِي مَهْمِهِ وَشَدَا بِهِ الْحُضَارُ وَالسَّمَارُ

والكلمات في الأبيات رصينة، ولكن المعاني مطروقة في المديح، فبنو مناد أسرة باديس يسلكون طريق الهدى، وهم أهل الوفاء، وباديس شمس وهم أقمار من حوله، وهو راقٍ تلاح أعالىه حامٍ لحوز ملكه ونواحيه بالأسلحة الفاتكة، وهو محبوب حتى ليحدو بمدحه في الفقار كل خائف وحتى ليشدو باسمه ويتغنى الحضار والسمار. ولإبراهيم بن القاسم القيرواني مدائح متعددة فيه وسنفرده بكلمة. وكان المعز بن باديس غيثاً مدراراً، حتى قيل إن الشعراء الذين مدحوه وحَفُّوا به بلغوا المائة عدداً، ومن رائع مدائحه قول عبد العزيز بن خلوف الحروري^(٢):

لَوْ يَسْتَطِيعُ لَادْخَلَ الْأَمْوَاتِ مِنْ نَعْمَاءٍ فِيمَا نَسَلَتْ الْأَحْيَاءُ
سَوَتْ رَعَايَاهُ يَدَا إِنْصَافِهِ حَتَّى الشَّوَامِخُ وَالْوَهَادُ سَوَاءُ
مَتَنَوَعِ الْعِزَمَاتِ مَاءُ مُسْقٍ فِيهِمْ وَعَنْهُمْ صَخْرَةُ صَمَاءِ
مَا أَنْتَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَّا مِثْلَمَا بَعْضُ الْحَصَى الْيَاقُوتَةُ الْحَمْرَاءُ

فلو يستطيع المعز لنشر الأموات كي يقاسموا الأحياء من رعيته ما ينثر عليهم من نعماء، وإن يدي إنصافه لتسوى تسوية عادلة بين الأغنياء والفقراء من رعاياه، وإنه لمتنوع العزمات فهو على رعيته غيث مدرار، وهو على أعدائه صخرة صماء، وما يلبث الشاعر أن يأتي بصورة بديعة فالمعز حقاً واحداً من الناس إلا أنه ينفرد عنهم كما تنفرد من بين الحصى الياقوتة الحمراء.

وفيه يقول ابن شرف القيروان^(١):

شهابُ الحرب مهلكٌ كلُّ باغٍ ومحرقُ كل شيطانٍ رَجِيمٍ
تقطعُ دونه البيضُ المواضِي وتُجفِلُ منه إجمالُ الظلِيمِ^(٢)
ويَجْلُو عنه ليلُ النّقعِ وَجْهُ كبدِ التّم في الليل البهيمِ^(٣)

فهو لا يهلك البقاة فحسب، بل يدمرهم ويحرق شياطينهم الملعونين ، كأن لم يكونوا شيئا مذكورا، ومن دونه تقطع السيوف الحداد القاطعة، وتنفر منه نفور النعام في البوادي، حتى إذا أثير بالغبار الكثيف في الحرب تجلّ وجهه كما يتجلّى البدر في اكتماله بالظلام المعتم الداجي. وكان يعاصر ابن شرف الحسن بن رشيق القيرواني شاعر المعز وسنفره بكلمة. وخلف المعز في المهديّة ابنه تميم، وكان محبا للعلماء ومعظما للشعراء وقصوده من الآفاق البعيدة، وله أشعار جيدة، وفي عهده أغار أسطول النصارى على المهديّة وعاثوا فيها فسادا سنة ٤٨٠ هـ إلى أن انسحبوا منها بعد صلحهم مع تميم، ووصف شاعره أبو الحسن الحداد هذه الحادثة في قصيدة فائية استهلها بقوله^(٤):

أَنْيَ يَلْمُ الخَيْبَالُ أَوْ يَقْفُ وَبَيْنَ أَجْفَانِنَا نَوَى قُذْفُ

وخلف تيمّا ابنه يحيى، وبه نزل أمية بن أبي الصلت الشاعر الأندلسي الكبير فأغدى عليه من إكرامه وكذلك ابنه علي وحفيده الحسن وأغدى عليهم من مدائحهم، وبني عليّ أسطولا للقاء روجار وحماية المهديّة فتبارى الشعراء في مديحه بسببه من مثل محمد بن بشير المهدي وغيره، وكان متولى قايّس رافع بن جامع اللّلال مدّ يده إلى روجار ضده وضد العرب فصمّ على فتحها وتم له ذلك سنة ٥١١ وتبارى الشعراء في تهنته بهذا الفتح من مثل قول محمد بن بشير الذي يتهم رافعا بأنه أصبح نصرانيا^(٥)

سَلُّ رَافِعًا مَا الَّذِي أَجْرَى تَنْصَرُهُ وَهَلْ يَبْقَى الذَّلُّ عَنْهُ مِنْ بَعْثٍ وَثِقَا
لَوْ لَمْ يَرِ الرُّومُ أَهْلًا وَالصُّلَيْبُ أَبَا لَمْ يَشْكُ مِنْ عَيْشِهِ فِي قَايَسٍ رَنَقًا^(٦)

يقول له إن حياته في قايّس كانت صفوا هنيئة لولا ما كدرها من تعاونه مع روجار وأعوانه

(١) الأتودج ص ٣٤٢.

(٥) قذف: بغيطة.

(٦) الحلال ٣٥٥/٢ وقابل بتاريخ الأديب التونسي

(٢) البيض المواضي: السيوف القاطعة. تجفل: تنفر.

ص ١٧٦.

(٧) الرنق: الماء الكدر.

(٣) النقع: غبار الحرب.

(٤) الحلال السندسية ٤٦٨/٢. قذف: بغيطة.

من النصارى حتى لكأنما فارق دينه وتنصر بوقوفه مع أعداء الإسلام لا يذكر عهدا ولا ذمة. وفي أواخر عصر الطوائف يلقانا مدافع بن رشيد من بنى جامع الهلالين وكان شجاعا حتى لُقِبَ بأبى الحملات، كما كان جوادا مدحاً، وذكر صاحب الخريدة من مداحه أبا محمد الكلبي والسكدي القفصى ويحيى بن التيفاشى، وأهم شعرائه جميعا سلام بن فرحان القابسى جليسه ووزيره، وأنشد له العماد فى مديحه ميمية بدیعة يقول فيها^(١):

هَنِيءٌ مُدَافِعٌ أَنْ اِقَّةَ حَوَّلَهُ سَعْدًا يَنَالُ بِهِ كُلُّ الَّذِي رَامَا
قُمْ فَافْتَحِ الْأَرْضَ فَالْأَمْلَاكُ كُلُّهُمْ سَوَاكُ أَضْحَوْا عَنِ الْعِلْمَاءِ نَوَامَا

وكان فى نفس الحقة أميراً على سوسة جبارة بن كامل بن سرحان الحميد الصيت المشتهر بالجوهر، وهو هلالى مثل مدافع أمير قابس وشاعره ابن فرحان، ومن مداحه أبو الحسين بن الصبان المهدوى وفيه يقول^(٢):

فَقَى لِلْمَشِيرَةِ عِزُّهَا غَدَا لَجَمِيعِ الرِّايَا إِيمَالَا

فهو ثمال وغياث لا للمشيرة وحدها بل لجميع الناس، وأهم منه بين شعراء جبارة التراب السوسى، وسنخصه بترجمة موجزة.

ونغضى إلى عصر الدولة الحفصية وكان مؤسسها أبو زكريا يحيى بن عبدالواحد، وكان شاعرا محسنا، وله أشعار حماسية جيدة وفى موضوعات مختلفة، واهتم بالحركة العلمية والأدبية فى عهده، وفسح فيها وفى دولته للمهاجرين الأندلسيين، ولهم فيه ولعاصريهم من التونسيين مدائح كثيرة، وهو جدير بها لما امتاز به من بعد النظر وحسن التدبير مع سمو المهمة، وكان يتلقب بالأمير فحسب، وعرض له بعض الشعراء بأنه ينبغي أن يتسمى بأمير المؤمنين قائلا^(٣):

أَلَا جِلُّ بِالْأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَا فَأَنْتَ بِهَا أَحَقُّ الْعَالَمِينَا

فزجره زجرا شديدا، ولم يقبل منه ذلك. حتى إذا تولى ابنه المستنصر عمل على أن تأتبه البيعة بالخلافة كما مر بنا فى تاريخه، وكان ذلك من أسباب تكاثر العلماء والأدباء والشعراء فى تونس، إذ أصبحت تعدُّ نفسها - من بعض الوجوه - حامية حمى الإسلام. ومن أهم شعرائها ابن عَرَبِيَّةَ وسنخصه بكلمة. وحدت نفس لويس التاسع بعد إخفاقات حملته على مصر أن يغير على تونس سنة ٦٦٨ للهجرة وحاصرها نحو أربعة أشهر، وكان عداد جيشه الذى هاجم به

(١) الخريدة (قسم شعراء المغرب) طبع تونس (٢) الخريدة ١/١٣٨.

(٣) الحلال السندسية ٤/١٠٢٤. ١٢٤/١.

مصر سبعين ألفا فأصبح لا يُرى فيه إلا قتيل أو أسير أو جريح، وقُيدَ لويس إلى دار تعرف بدار ابن لقمان والأغلال في يده وحارسه الطواشي صبيح، وافتك نفسه من الأسر بدية كبيرة، فقال للويس بعض التونسيين مشيرا إلى كارته بمصر^(١):

يا فرنسيسُ هذه أخت مصر فتأقُبْ لما إليه تَصِيرُ
لك فيها دارُ ابنِ لقمان قَبْرٌ وطواشيك مُنْكَرٌ ونَكِيرُ

وصدقت الأقدار قول هذا الشاعر التونسي فإن لويس دُفن تحت سور تونس، وعاد جيشه إلى فرنسا مغذولا مدحورا، ولم يخل حكم المستنصر من عصيان بعض القبائل عليه في الجهات النائية، وعصت عليه رياح في جهة بسكرة، ووصلت إليه جماعة منها على غير أمان، فصلب أبدانهم ببسكرة وردهوسهم بتونس، وفي ذلك يقول أبو عبيد الله بن أبي تميم الحميري مادحا للمستنصر^(٢):

ويا حَسَنَ ما قُرْتُ به أعيُنُ الوَرَى رهوسُ رياحٍ في رهوسِ رياحٍ
فهذِي دماءُ المارقين مباحةٌ وهذا جَنَى الإسلامِ غيرُ مباحٍ
بمستنصرٍ يَرى العدا بكتائبٍ نعمُ نواحي أرضهم بنُواحٍ

ويظل خلفاء المستنصر معنيين بالحركتين الأدبية والعلمية. واشتهر بين كتاب دواوينهم وشعرائهم آل التجاني وتنبغ في الشعر بين نسانهم زينب بنت إبراهيم التجاني، ولهم أثر غير قليل في الحركة الأدبية حتى زمن الخليفين أبي عسيبة وأبي ضربة. واشتهر بين مداح الخلفاء في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، بل قبل ذلك بفترة عبد الله التجاني صاحب الرحلة المشهورة المتوفى بعد سنة ٧١٨ وسنخسه بكلمة، وكان يصادق كبير مشيخة الدولة أبا يحيى اللحياني الحفصي وتولى الخلافة حيناً. ومن خلفوه أبو بكر المتوكل، وكان شاعرا وفي شعره وشعر معاصريه من أهل تونس يقول ابن فضل الله العمري في مسالك الأبحار: «لأهل إفريقية (تونس) لطف أخلاق وشمال بالنسبة إلى أهل برّ العُدوة (المغرب) وسائر بلاد المغرب يجاورتهم مصر وقربهم من أهلها ومخالطتهم إياهم ومخالطة من سكن عندهم من أهل إشبيلية من الأندلس وهم مَنْ هم خفة روح وحلاوة بادرة، وأهل انطباع، وكرم طباع، وناهيك من بلاد من شعر ملكها السلطان أبي بكر المتوكل قوله:

الشائل النيفر وعبدالمجيد التركي ص ١٣٠.

(١) الحلال ١/٣٢٢.

(٢) الفارسية لابن منقذ تقديم وتحقيق محمد

مَواطِنُنا في دهرهم عَجائبُ وأزمانُنا لم تُعْصِدْهُن الغرائبُ
مَواطِنُ لم تُحْكِ التَوايِخُ مِثْلَها ولا حَدَّثَتْ عَنها اللَيلُى النَواهِبُ

وقوله في الحماسة:

انظُرْ إلَينا تَجدُنا ما بنا دَهْشُ وكيف يَطرُقُ أَشدَّ الغَابةِ الدُهْشُ
لا تَعرِفُ الحادِثَ المَروِبَ أنْفُسُنا فإِنتا بارتِكاِبِ المَوتِ تَنْتَبِشُ

وقوله في الغزل:

عَسَى اللّهُ يَذُنِي لِلْمَحِبِّينَ أَوْبَةً فَتُشْفَى قُلُوبُ مِنْهُمُ وَصَدُورُ
وَكَمِ مِنْ قَاصِي الدَارِ أَمسى بِحُزْنِهِ فَأَعَقَبَهُ عَندَ الصَباحِ سِرُورُ

وإذا كان هذا رقة طبع السلطان فما ظنك بغيره من العلماء والأدباء^(١). ولعل هذا الحكم الدقيق لا ين فضل الله العمري خير رد على ابن خلدون المتوفى بعده بستين عاما وما ذهب إليه في مقدمته من عراقة العجمة في لغات أهل الأمصار، كما هو واضح - كما يقول - في لغات أهل إفريقية وأشعارهم، ويتسع بالتهمة في الإقليم التونسي قائلا: «ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف، وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها، ولم تزل طيقتهم في البلاغة حتى الآن مائلة إلى القصور». وابن فضل الله العمري إنما يتكلم عن شعراء الإقليم التونسي فما بالنا بالقرون التالية لابن رشيق وابن شرف ومن بها من الشعراء التونسيين المجيدين المحسنين، من أمثال علي المحصرى وعبد الله الشقراطسى من شعراء القرن الخامس بعد ابن رشيق وابن شرف وأبى الفضل بن النحوى والتراب السوسى من شعراء القرن السادس وابن عَرِيَّة والسُّمَّاط المهدوى من شعراء القرن السابع وعبد الله التجاني وابن حسينة من شعراء القرن الثامن، وجميعهم ممن تباهى بهم تونس، وستترجم لهم في الصحف التالية محاولين أن نوضح براعاتهم الشعرية، ونفس ابن خلدون كان شاعرا وله مدائح في السلطان أحمد معاصره، وهو لا يتفوق في شعره تفوقه في نثره، ولذلك سنترجم له بين الكتاب. وفي الحق أنه قسا في حكمه على شعراء تونس وبالف في قسوته. وفي سنة ٨٣٨ تولى أبو عمرو عثمان حتى سنة ٨٩٣ وهو خاتمة خلفائهم الضابطين للحكم وإدارته، وفي الحلل

(١) صحح الأعشى ١١٥/٥ وقارن بتاريخ الأدب

التونسي ص ١٨٥.

السندسية أنه ممدوح الشهاب ابن خلوف^(١) الجزائري المتوفى سنة ٨٩٩ وله في مديحه^(٢):

تلقاه أنى حَلْ يَسْطُ لِلْقَرَى بُسْطًا يُظَلِّلُهَا الْفَنَّا الرِّيَانُ
شَرَفُ أُتَيْهِ وَبَيْتُ مَلِكٍ شَامِخٍ فوق السَّمَاءِ غَدَاً لَهُ إِيوَانُ

فهو جواد لا يزال جوده يفيض في كل مكان يحل فيه، ولا تزال رماح شجاعته وشجاعة جيشه تطله وتظل من حوله من رعاياه، شرف ناله من بيت ملك سامق، إيوانه فوق السماك في أعلى مكان. وَيُخْتَمُّ العصر الحفصى بأبى الفتح بن عبد السلام الذى بكى الدولة الحفصية وتاريخها بكاء حاراً.

ويعود إلى المديح والشعر بعمامة غير قليل من الانتعاش في عصر الدولة الحسينية، العثمانية كما أسلفنا إذ كان حكامها يولدون بتونس ويتربون فيها تربية عربية، وأخذوا يشعرون بأنهم تونسيون وأن واجبههم أن ينهضوا بتونس علمياً وأدبياً وهو ما وضعه نصب عينيه مؤسسها حسين بن على، وبالمثل على ابن أخيه حين استولى على الحكم، ودارت الدوائر عليه لابن عمه محمد الرشيد، فاستولى على صولجان الحكم، وكان شاعراً بارعاً وموسيقياً ماهراً فبث في تونس حركة أدبية وموسيقية تحفّق بالحياة، وسار سيرة أبيه وابن عمه في تشجيع العلماء والشعراء، ولم يلبث أن توفى فخلفه أخوه على الثانى، وتعرض حكمه لمرات عنيفة كانت له فيها دائماً الغلبة، وخلفه ابنه حمودة وكانت أيامه أيام رخاء ويسر، ونعمت فيها الرعية بالأمن والاستقرار ورخاء الأسعار وصلاح البلاد، فكان طبيعياً أن يكون القرنان الحادى عشر والثانى عشر الهجرى قرنى عمران وخصب في الحياتين العلمية والأدبية، غير أن تونس أصابها حينئذ ما أصاب البلاد العربية من تخلف في الحياة العلمية، ففدت تعتمد على المتون والشروح وكان ابن خلدون لم يخلف وراءه فيها من ينهض بالحياة العلمية في المستوى الذى كتب فيه مقدمته، وأيضاً فإن الحياة الأدبية - وحياة الشعر خاصة - أصابها غير قليل من التخلف، إذ أخذ الشعراء يرتضون لأنفسهم الاكتفاء في كثير من الأحيان بأن يعارضوا هذا الشاعر أو ذاك من شعراء الأسلاف، فإن تركوا المعارضة فإلى تمسك شديد بفنون البديع وخاصة فن التورية، وبذلك ضيقوا على أنفسهم القنوات التى ينبغى أن يجرى فيها الشعر وملأوها بما لا يحصى من المحسنات البديعية، وهى محسنات كانت من الكثرة بحيث كادت تخنق الشعر خنقاً، ونصبح وكأننا في حاجة إلى مصباح ديوجين لنجد شاعراً تونسياً يخلص أشعاره من هذه الأعشاب والمعوقات الضارة التى تكاد تفقدها الحياة، ومع ذلك لن نعمد أن نجد بين شعراء المديح من يخفف عن شعره عبء

أعياه هذه المعنات، من مثل قول السراج صاحب اللؤلؤ السندسية مهنتا محمدا الرشيد بجلوسه على أريكة الولاية^(١) :

أَمِيرُ السَّامَةِ يَهْنِكُمْ شَبَابُ الْوَلَايَةِ بَعْدَ الْمَشِيْبِ
وَأَيَّامُ مَلِكِكَ أَلْبَسَتْهَا عَلَى الْعِزِّ ثَوْبَ الْجَمَالِ الْعَجِيبِ
مَلِكُكَ يَخَالُ سَنَا وَجْهَهُ ضَمَى الشَّمْسُ مِنْ فَوْقِ غُصْنِ رَطِيبِ

فقد رُدُّ إلى الولاية شبابها وألبسها ثوب الجمال العجيب، وكأنما سنا وجهه ضعى الشمس من فوق غصن رطيب. وهو مجرد كلام وليس فيه رصانة التعبير ولا دقة المعاني ولا دقة التصوير، إنه مجرد كلام منظوم على وزن وقافية. وبنفس الأسلوب يهني حمودة بن عبد العزيز محمدا الرشيد باى حين استولى على صولجان الحكم قائلا^(٢) :

الآن قد وانى الأمير وطاب لى زمن الحسين أن أبيت مسهرا
الأروعُ الملك الرشيدُ محمد أعلى الملوك ذرا وأطيب عنصرا
وأجل من جلى الخطوب وقد دجت ليلا وأفضل من يقود العسكرا
بذل النوال كما استهلّت ديمة وهكفه سيف يريك تسهرا

والأبيات ليس فيها روح وبعض ألفاظها قلق ولا يكاد يستقر في موضعه على نحو ما يتضح في كلمة «مسهرا» في البيت الأول وكلمة «تسرا» في البيت الرابع، وبدلا من أن يبيت هانئا لا اعتلاء محمد الرشيد باى منصة الحكم يبيت مسهدا. وخير من هذين الشاعرين الطوير القيروانى في تهنتته لملى باى الثانى حين انتصر على بعض خصومه وأذاقهم وبال عصيانه مستهلا تهنتته الطويلة بقوله^(٣) :

فَتَحْ وَنَصْرُ وَإِسْعَادُ وَإِقْبَالُ لَمَنْ لَهُ خَضَعْتُ صِيْدُ وَأَقْبَالُ^(٤)
وَمَنْ لَهُ هِمَّةٌ شَمَاءُ قَدْ سُجِّتْ لَهَا عَلَى الْفَلَكِ الدَّوَارُ أَذْيَالُ^(٥)
وَمَنْ سَرِيرُهُ طَابَتْ وَسِيرَتُهُ الـ خَرَاءُ سَارَتْ بِهَا فِى الْفَلَكِ أَمْثَالُ
عَلَى بَنِ حُسَيْنٍ مَنْ لَهُ فَخْرُ عَلَى الْمُلُوكِ وَإِعْظَامُ وَإِجْلَالُ

والقصيدة بها شيء من الرصانة يحول بينها وبين السقوط كسابقته، وإن كانت لا تستمر في

(١) الأدب التونسي في العهد الحسينى ص ٤٠. صيد: جمع أصيد: السيد الشريفه أقبال: جمع قبل: ملك.
(٢) نفس المصدر ص ٤٥.
(٣) الأدب التونسي في العهد الحسينى ص ٤٥. (٥) شهاب: سامية.

هذه الديباجة. وأكثر من هذه القصيدة رصانة وجزالة قصيدة لخليفة المشرق في نفس المدح
يحمسه ويستثيره فيها على منازلة خصومه مستهلا لما بقوله^(١):

قاتل بِسَعْدِكَ فالعالي تنجّد واعزّم فبَدُّكَ لم يزل يتجّد
والحربُ أنت مُجيدُها ومجبلُها والخلقُ تعلم والوقائع تشهد
سمعتُ خيولك بالحروب فهزّها طربُ وباتت للصهيل تردّد
ما ذاك إلا أنها عودتْها حنّ الدّما حيث التّجيع المورّد^(٢)

ويستمر الشاعر طويلا في وصف معارك على باى وما يخوض فيها من الدماء إلى أعدائه
وما يقطف من رموسهم. والقصيدة حماسية قوية، ولم نشد شيئا من شعر الشعارين الرسميين
على العراب الصفاقسى ومحمد الورغى، لأننا سنخصصها بترجيتين بمجلتين. ونتوقف الآن لترجم
لبعض من مروا بنا من شعراء المديح، وسنحاول الإيجاز قدر المستطاع.

على^(٣) بن محمد الإيادى

نشأ وتربى بتونس، وهو من أهم شعراء الدولة العبيدية بالقروان والمهدية، وخدم الخلفاء:
القائم والمنصور والمزم، وذكره محمد بن شرف فقال: «وأما على بن الإيادى التونسي فشره
المورد العذب، ولفظه اللؤلؤ الرطب، وهو بختري الغرب، يصف الحمام، فيروق الأنام، ويشبّب
فيعشق وعجّب». ومن شعره في وصف أسطول القائم بالمهدية:

اعجب لآسطول الإمام محمد ولحُسنِه وزمانِه المُستغرب
لبست به الأمواج أحسن منظر يبدو لعين الناظر المستعجب
من كل مُشرقة على ما قابلت إشراف صدر الأجلد المُتَّصِب^(٤)
دهماء قد لبست ثياب تصنع تسمى العقول على ثياب ترهب^(٥)

وتصويره للسفن بأنها منتصبة الصدر كالصقر ترتقب ما تنقض عليه تصوير بديع، ويتصور
اللون الأبيض في أعاليها كأنه ثياب ترهب، ويتحدث عن نار النفط التي تقدفها بالسنتها على
الأعداء وعما يحفها من مجادف مصفوفة في الجانبين تطير بها في عباب البحر المتوسط طيارا.
ويطيل في وصف الأسطول متقللا بين تصاوير رائعة وهى قصيدة بديعة، ومثلها قصيدة ثانية

(١) الأدب التونسي في العهد الحسيني، ص ٤٥. للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص ٩٦.

(٢) النجيب: دم الجوف.

(٣) انظر ترجمة الإيادى في تاريخ الأدب التونسي (٥) دهماء: سوداء لطلاتها بالقار.

(٤) الأجلد: الصقر.

وصف فيها القصر الذى أنشأه المنصور بِصَبْرَةٍ إحدى ضواحي المهديّة، وفيه يقول:

بنى قُبَّةً للملك فى وسط جنةٍ لها منظرٌ يَرْهَى به الطَّرْفُ مُوَبِّقُ
لها جدولٌ يَنْصَبُ فيها كأنه حَسَامٌ جَلَاهُ القَيْنُ بالأَرْضِ مُلَصِّقُ
لها مجلسٌ قد قام فى وسط مائها كما قام فى قَبْضِ الفرات الخَوَزَنِيُّ
إذا بَثَّ فيها الليلُ أشخاصَ نَجْمِهِ رَأَيْتُ وجوهَ الزُّنْجِ بالنَّارِ تُحَرِّقُ

والصور بديعة فالجدول كأنه حسام جلاه القين أو الحداد فهو يلمع أشد اللعان بما فيه من مياه، وهو مُلَقَّبٌ على الأرض بل ملصق بها لا يتركها أبدا، وقد قام وسط الماء مجلسها، وكأنه قصر الخَوَزَنِيِّ الذى بناه المنذر بن ماء السماء قديما على ضفة الفرات، حتى إذا دجا الليل وانتشرت النجوم على صفحة السماء رأيت وجوه الزنج تُحَرِّقُ بالنار. وتتكاثر هذه الصور وما يماثلها فى شعر الإيادى مما يدل بوضوح على ثراء ملكته الشعرية، وقد توفى سنة ٣٦٥هـ/٩٧٦م.

الكاتب^(١) الرقيق إبراهيم بن القاسم القيروانى

نشأ وتربى فى القيروان وإليها نُسب، وهو شاعر باديس ورتبى الإنشاء فى الدولة الصنهاجية لمدة خمس وعشرين سنة، وهو مؤرخ إفريقية الكبير، وتاريخه فيها وفى المغرب فى عدة أجزاء، لم تنشر منه حتى الآن سوى قطعة صغيرة، ويقول عنه ابن خلدون فى مقدمته: «الرقيق مؤرخ إفريقية والدول التى كانت بالقيروان ولم يأت من بعده إلا مقلد له» ويقول ابن رشيق: «هو شاعر سهل الكلام محكمه لطيف الطبع قويّه، تلوح الكتابة على ألفاظه، غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار، وهو بذلك أخلق الناس، وله فى باديس أشعار مختلفة منها قوله:

وما مثلُ باديسٍ ظهيرٌ خِلافةٍ إذا اختيرَ يوما للظهيرِ موضعُ
نصيرٍ لها من دولَةٍ حاتمِيّةٍ إذا نابَ خطبُ أو تفاقمَ مطعمُ
حسامُ أميرِ المؤمنين وسَهْمُهُ وسمٌ زُعافٌ فى أعاديهِ مُنْقَعُ

فياديس ظهير الخلافة وعونها ونصيرها الأكبر حين تنوب كارثة أو يتفاقم خطب، إنه حسام أمير المؤمنين وسهمه وسمٌ قاتل لأعاديهِ. وله قصيدة يصف فيها وقعة حربية استبسل فيها باديس بشلف قرب المحمدية (المسيلة) سنة ٤٠٥ وكتب له فيها النصر على أعدائه، يقول:

ص ٥٥ ومجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٢١.

(١) انظر فى الكاتب الرقيق معجم الأدباء ٢١٦/١

وفوات الوفيات ٤٧/١ وابن رشيق فى الأنموذج

لم أَسَّ يوماً بشلفٍ راع منظرُهُ وقد تضايق فيه ملتقى الحَدَقِ
والبيضُ في ظلماتِ النَّقْعِ بارقةٌ مثلُ النجومِ نهارتُ في دُجَى النَّسَبِ
وقد بدا مُغْلِمًا باديسُ مُشْتَهَرًا كالشمسِ في الجوِّ لا تخفى عن العَدَقِ
وأثى راحته لو فاضَ ناهلُها وبأسها في الورى أشقوا على الفرقِ
لو صُوِّر الموتُ شخصًا ثم قيلَ له أبو منادٍ تهْدَى ماتٌ من قَرَقِ

وهو يصور في البيت الأول ما أخذ الناس من الفزع في أول المعركة، ويقول إن السيوف كانت تلمع وتبرق في ظلمات الفبار وكأنها نجوم تنهارى في دجى الليل، ولم يلبث أن بدا باديس وسط ظلام المعركة وكأنه الشمس لا تخفى عن الأبهصار، ويتجسد له المجد والبأس في راحته، فلو فاضت على الورى لأشفقوا على أنفسهم من الفرق في جوده وبأسه، وما يلبث أن ينفذ في مديحه لباديس إلى صورة طريفة، فلو تجسد الموت شخصًا، ثم قيل له هذا أبو مناد باديس مات من الفرق والفزع، وقد علق ابن رشيقي على بعض أبيات القصيدة بقوله إنها بديعة «حسنًا وملاحة وإيجازًا وفصاحة وليس في ألفاظ الكتابة العذبة مثل ما أتى به ولا مستزاد عليه، ألا ترى كيف تأتى فأغرب، ونقى فأعجب». وله مدائح رائحة في محمد بن أبي العرب قائد باديس. وزار القاهرة وله قصيدة يشوق فيها إلى أهلها ومنتزعاتها البديعة، وقد توفي حوالى سنة ٤٢٠هـ/١٠٣٠م.

ابن^(١) رشيقي

هو أبو على الحسن بن رشيقي، ولد بمدينة المحمدية المعروفة الآن باسم المسيلة لأب رومى من موالى الأزد سنة ٣٩٠ وكان أبوه يحترف الصياغة فعلمه صنعته، وأحس الغلام بنزعة فيه إلى الأدب، فهاجر إلى عاصمة القيروان المشهورة به حينئذ سنة ٤٠٦ وأخذ ينهل من حلقات شيوخها ويختلط بالأدباء والشعراء القيروانيين، وأخذت ملكته الشعرية تتفتح، واشتهر بجودة الحاطر وحسن القريحة، حتى إذا كانت سنة ٤١٧ وكان المعز بن باديس قد بنى لنفسه بناء في صبرة: إحدى ضواحي المهديّة، رأى أن ينشده قصيدة، وما قاله فيها:

يا بن الأعزّة من أكابر حميرٍ وسلالة الأملاك من قحطانٍ

خلكان ٨٥/٢ وشذرات الذهب ٢٩٧/٣ والتنف من أشعار ابن رشيقي وابن شرف للمعنى ومجمل تاريخ الأدب التونسي للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص ١٨٣ وديواته بتحقيق د. عبد الرحمن ياغى.

(١) انظر في ترجمة ابن رشيقي آخر كتابه: أنموذج الزمان في شعراء القيروان والحريّة للمصاد الأصهباني (قسم المغرب - طبع تونس) ٢٣٠/٢ وإنهاء الرواة ١/ ٢٩٨ ومعجم الأدباء ٨/ ١٩٠ وابن

من كُلِّ أَهْلَجٍ أَمَرَ بِلِسَانِهِ يَضَعُ السُّيُوفَ مَوَاضِعَ التَّيْجَانِ
وأعجب المعز بالقصيدة، وشعر ابن رشيقي باستحسانه لها، فحاول أن يتقرب منه بقصيدة
لامية أكثر من القصيدة الأولى إبداعاً وافتاناً، فُقِّدَ في ديوانه وأخذ الصلة منه، وحُمِلَ على
مركب تمييزاً له بين أقرانه، وفي مديحها يقول:

لَدُنَّ الرِّمَاحِ لَمَّا تُسْقَى أَسْتَهْأَ من مهجة القَيْلِ أَوْ من مهجة البَطْلِ
لَوْ أَوْرَقْتَ مِنْ دَمِ الْأَهْطَالِ سُرُقُنَا لَأَوْرَقْتَ عِنْدَهُ سُرُرُ الْقَنَا الدُّهْلِ
إِذَا تَوَجَّهَ فِي أَوَّلَى كَسَانِيهِ لَمْ تَفِرْقِ الْعَيْنَ بَيْنَ السَّهْلِ وَالْجَبْلِ
فَالْجَيْشُ يَنْفُضُ حَوْلِيهِ أَسْتَهْأَ نَفَضَ الْعُقَابُ جَنَاحِيهَا مِنَ الْبَلْلِ

فرمّاح المعز لَدُنَّ لما يسقيها من مهج الملوك والأبطال، ولو أن الرماح تورق من دم الأبطال
لأورقت رماحه الدقيقة، وما أعظم كتابته إنه حين يتوجه في أولاهما لا تستطيع التفرقة بين
السهل والجبل وما يلبث ابن رشيقي أن ينفذ إلى صورة بديعة، فالجيش ينفذ من حول المعز
أستته نفض العقاب جناحيه من البلل ويقول ابن خلكان: هذا البيت من فرائده، وكان كثيراً
ما ينفذ إلى مثل هذه الفرائد، فقد غاب المعز عن حضرته وكان العيد ماطرًا، فأنشد:
تَجْهَمُ الْحَبِيدُ وَانْهَلَتْ بِوَادِرِهِ وَكُنْتُ أَعْهَدُ مِنْهُ الْبَشَرُ وَالضُّحَا
كَأَنَّهُ جَاءَ يَطْوِي الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ شَوْقًا إِلَيْكَ فَلَمَّا لَمْ يَجِدْكَ بِكِي

وكان يعرف كيف ينفذ إلى هذه الصور البديعة، ويُدْعُها إنما يرجع إلى ما تحمل من عنصر
المفاجأة، ومن ذلك قوله في تميم بن المعز:

أَصْحٌ وَأَعْلَى مَا سَمِعْتَاهُ فِي النَّدَى مِنَ الْخَبَرِ الْمَأْتُورِ مِنْذُ قَدِيمِ
أَحَادِيثُ تَرَوُّهَا السُّيُوفُ عَنِ الْحَيَا عَنِ الْبَحْرِ عَنْ كَفِّ الْأَمِيرِ تَمِيمِ

وقد ظل مع المعز يؤلف كُتُبَه الراتمة: العملة وغيره، حتى إذا كانت الهجرة الحلالية وتراجع
أمر المعز بكى القيروان طويلاً، ورحل إلى جزيرة صقلية واستقر بمدينة مازر إلى أن وافاه أجله
سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، وله في بكاء القيروان وما صارت إليه أشعار كثيرة بديعة.

التراب^(١) السوسي

هو من شعراء عصر الطوائف ومن أهل سوسة. الثغر المعروف على المتوسط إلى الجنوب

(١) انظر في التراب السوسي الحريدة ١٣٠/١

والحلال السندسية ٣١٠/٢.

الشرقى من تونس ومثلها مثل قابس دخلت في حوزة العرب الهلالية بعد زحفهم إلى الإقليم التونسي. وما زال يتوالى أمراء من عرب الهلالية منذ عهد تميم بن المعز، انتزعوها من أيدي الدولة الصنهاجية، وتقلكها أخيراً جبارة بن كامل بن سرحان الهلالي الذي اشتهر بهجوده، فأقبل عليه الشعراء يقدمون إليه مدائحهم وفي مقدمتهم شاعره التراب السوسى، وهو سوسى المولد والمربى والحياة والوفاة، وله فيه قصائد بديعة طوال إمارته لسوسه إلى أن استولى عليها روجار صاحب صفلية حين أخذ المهديّة من يد الحسن بن على بن يحيى بن تميم الصنهاجى سنة ٥٤٣ واستولى معها على بقية بلاد الساحل التونسي إلى أن خلاص عبد المؤمن سوسة والمهديّة وبلاد الساحل جميعا من أيدي النورمان النصارى سنة ٥٥٥ ودخل جبارة في طاعته. وللتراب السوسى قصيدة بديعة في جبارة على نهج قصيدة مهبّار الديلمى: (بكر العارض تحدوه النعامى) ومقدمتها لا تقل عنها وجدا واضطرام الحب شوقا وغراماً، كما لا تقل عنها نسقا موسيقيا بديعا، وفي مديحه لجبارة يقول:

| | |
|--|---|
| مُعْبِلُ الْقَلْبِ عَلَى سُبُلِ الْهُدَى | مَعْرُضٌ عَنْ كُلِّ سَاجِرِ الْأَنْثَامَا |
| لَيْسَ يَنْتَرَى مَا الْمَزَامِيرُ وَلَا | يَسْمَعُ الصَّنَجِ وَلَا ذَاقُ الْمُدَامَا ^(١) |
| وَإِذَا اسْتَصْرَخْتَهُ فِي حَادِثٍ | فَعَلَى الْحَادِثِ جَرُدَتْ حُصَامَا |
| بَيْتَهُ كَعْبَةً بِشَرِّ نُسَبَتٍ | تَقْصِمُ الْغَمَّ عَنِ النَّاسِ انْفِصَامَا |
| لَذَوَى الْحَاجِ زِحَامٌ حَوْلَهَا | زَحْمَةُ الْحَجَاجِ قَدْ زَارُوا الْمَقَامَا ^(٢) |

وجبارة، - في الأبيات - يقبل على طرق الهدى ويعرض عن كل ما يجير إثمها، كما يعرض عن كل لهُو من مزامير وخمر وضرب للصنج، وإنه ليفينك غوث السيف القاطع في أى حادث يعتريك. وما يلبث التراب السوسى أن ينفذ إلى صورة بديعة، فبيّت جبارة كأنه كعبة تفصم الغم عن قاصديه من ذوى الحاجات. ويتخيل أنهم يزدهجون حول منزله ازدحام الحاجاج حول الكعبة، وله في جبارة قصيدة ثانية وقف فيها طويلا عند أطلال صاحبه وتحدث عن أيامها الخوالى ومن كان بها من الغانيات الغائيات وأطال في وصفهن، وخرج إلى مديح جبارة بمثل قوله:

| | |
|----------------------------|--|
| جِبَارَةُ ابْنِ كَامِلٍ | كَهْفُ النَّسْدَى وَالْكَرْمِ |
| الْعَارِضُ الَّذِي إِذَا | أَخْلَفَ صَوْبُ الدَّيْمِ |
| سَرَتْ سَحَابُ جُودِهِ | مِنْ غَيْثِهِ الْمُنْجِمِ |
| وَأَسْطَرَتْ مِنَ الْعَيَا | نَهْرًا لِكُلِّ مُقِيمٍ ^(٣) |

الفارسُ الذى إذا أُسرجَ كُلُّ شَيْطَمٍ^(١)
 وُسِّلَ كُلُّ مُرْهَفٍ وُسِّلَ كُلُّ لَهْنَمٍ^(٢)
 تراه إن صاح بهم تحت وطيسٍ قد حَمَى
 تراكبوا من خَوْفِهِ بَعْضًا على بعضهم

والأبيات تسيل عنوبة مع صور بديعة، فالعارض أو السحاب الذى يخلف صوب الدبم والأمطار لا يزال يحطل بجانبه عارض جوده بغيته المذرار، حتى ليفيض أنهارًا من الحيا والغيث المتدافع لكل معدم، وحين يسرج كل فرس كأنه أسد ضخم، ويسل كل سيف حاد ولهزم قاطع ترى الأعداء حين يحمى وطيس الحرب ويصبح بهم يتراكبون بعضا على بعض فزعا منه ورعبا ما بعده رعب. والقصيدة تموج بمثل هذه الصور البديعة، مع ما تموج به من خفة في الموسيقى حتى لكأنما تطير عن الفم طيرانا، مما يرتفع بالتراب السوسى إلى منزلة عليا في عالم الشعر. وقد ظل الناس في الإقليم التونسي يفرون بإنشادها حتى أوائل القرن الثامن الهجرى، إذ يشهد التجانى بذلك في رحلته قائلا إن أعراب زماننا قد أولعوا بإنشادها وكثرة ترادها حتى عصره. ولعل في ذلك ما يدل - من بعض الوجوه - على صحة ما زعمناه في غير هذا الموضع من أن الفصحى كانت لا تزال تجرى في ألسنة الناس - وخاصة من الأعراب - حتى هذا التاريخ.

ابن^(٣) عَرَبِيَّة

هو أبو عمرو عثمان بن عتيق المهدوى، من شعراء المهديّة وفقهائها ومحدثيها الأعلام. ولد سنة ٦٠٠ وبها منشؤه ومرباه. وله كثير من المصنفات منها كتاب جوامع الكلم النبوية، وآثار السحابة في أشعار الصحابة، وله ديوان سماه قصائد المدح ومصائد المنع، وكانت له في أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية مدائح كثيرة، وقد استدعاه مع جماعة من خواصه وشعرائه لنزهة في روضه المسمى بأبي فهر، فنظموا في وصفه قصائد وقدموها إليه، وأجابهم عنها بأبيات تتضمن تفضيل قصيدة ابن عريبة على قصائد من حضره من الشعراء قائلا:

ألا إن مضمَارَ القريض لَمُتَدُّ به شُعْرَاءُ السُّبْقِ أَرْبَعَةُ لُدْ
 فأما المجلَى فَهُوَ شاعرٌ جَمَّةٌ أنى أَوَّلًا والناسُ كُلُّهُمْ يَحْدُ

وجمّة من قرى المهديّة، وواضح أنه يريد بشاعرها ابن عريبة، وله شعر طريف في

(١) الشيطم الطويل الضخم ويعنى به الفرس. ٥٠٣/٢ وما بعدها وكتاب الفارسية في مبادئ

(٢) لهزم: سيف قاطع. الدولة الحفصية ص ١١٣ ويحمل تاريخ الأدب

(٣) انظر في ترجمة ابن عريبة الحلال السندسية التونسي ص ١١٧.

التشوق إلى بلده، وهو ما جعله في أثناء مدحه لأبي زكريا يطلب إليه أن يوليه قضاء بلدته
جمعة قائلا:

ذَكَرْتُ جَمْعَةَ وَالذِّكْرَى تَهْجِجُ أَسَى وَأَيْنَ جَمْعَةُ مِنِّي وَالْمُنْتَسِرُ
وَمَا مَنَائِي لِبَالِيهَا الَّتِي سَلَفَتْ وَمَا هَوَايَ مَحَانِيهَا الْمَعَاطِرُ^(١)
لَكِنْ بِهَا رَجُمٌ مَجْفُوفٌ يَنْسَتْ مِنْ أَنْ تَقْرُبَنِي مِنْهَا الْمُقَادِيرُ
فَلِإِنْ رَأَى مَنْ أَدَامَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ لِي خَطَّةٌ فِيهَا فَمَاجُورُ

وكان ابن عريبة خير أبا زكريا بين قضاء جمعة أو قضاء المنتسير بالقرب منها، وعينه قاضيا
بتبرسق وظل بها إلى وفاته سنة ٦٥٩. ولما توفي أبو زكريا وتولى ابنه المنتصر نظم قصيدة
رائعة جعل شطرها الأول عزاء في أبي زكريا وشطرها الثاني تهنئة للمستنصر، وتحضى على هذه
الشاكلة:

وَلْتَنْ طَوَى بَنَرَ الْإِمَارَةِ مَغْرُبٌ فَلَقَدْ جَلَا شَمْسَ الْخِلَافَةِ سَطْلَعُ
فَأَضَاءَ بِالْمَرْحُومِ ذَلِكَمُ الثَّرَى وَأَنَارَ بِالنَّصُورِ ذَاكَ الْمَرْبَعُ
بَسَطُوا لِسَانَ الشُّكْرِ فِيمَنْ بَاهَمُوا وَتَوَّأ عَيْنَانَ الصَّبْرِ عَمَّنْ وَدَّعُوا
وَرَأَوْا خِلَالَ مُحَمَّدٍ فَبَاشَرُوا وَتَذَكَّرُوا بِحَيِّ الرُّضَا فَتَجَبَّعُوا

ويقول الرواة إنها قصيدة طويلة، ويدل ما ذكره من أبياتها السالفة على مهارة ابن عريبة
في الجمع بين التعزية والتهنئة في كل بيت من أبياتها. ولو وصلتنا القصيدة أو عبارة أدق
لو وصلنا ديوان ابن عريبة لاستطعنا أن نحكم على إبداعه الشعري بصورة أكثر دقة، ومع ذلك
فالأشعار التي أنشدناها له الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب تدل على موهبة شعرية فذة، وإذا
كان التراب السوسى يدل على خطأ حكم ابن خلدون في أن الشعر التونسي توقف بعد ابن
رشيقي وابن شرف، فابن عريبة يدل بدوره على خطأ هذا الحكم.

عبد الله^(٢) التجاني

هو عبد الله بن محمد التجاني، من أسرة ظلت راعية للأدب والثقافة منذ عهد مؤسس الدولة
الحفصية أبي زكريا إلى عهد أبي يحيى زكريا الذي اشتهر باسم ابن اللحياني (٧١١-٧١٧هـ).

(١) معانيها: منعطفاتها.
المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ٢١٢ وراجع
الرحلة طبع تونس.

(٢) انظر في التجاني المحلل السندية (راجع
الفهرس) والقسم الثالث من كتاب الورقات

وقد ولد عبد الله حوالي سنة ٦٧٠هـ/١٢٧٢م ورعاه أبوه محمد خير رعاية، فأخذ ما عند أبيه وأسرته من الأدب والفقه، وانتظم مبكراً مثله في ديوان الإنشاء وعُرف بالبراعة في الشعر والترسل، وكان طموحه أوسع من ذلك، فأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين من أهل تونس والطارئين عليها. وانعقدت صداقة وثقى بينه وبين أبي يحيى زكريا المشهور بابن اللحياني كبير أمراء الدولة الحفصية، حتى إذا رأى هذا الأمير أن يقوم برحلة واسعة في شرقي الإقليم التونسي وجنوبيه سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٧م اصطحبه معه في تلك الرحلة التي ظلت سنتين ونصفاً، وفي نهايتها تجول معه في الإقليم الطرابلسي، وأقام به التجاني مدة تحدثنا عنها في طرابلس وعن أخذ عنه صحيح البخاري ومسلم، وعاد إلى تونس وأخذ في تأليف رحلته الطريفة، وفيها يتحدث عن البلدان التي زارها مع ابن اللحياني جغرافياً وتاريخياً مع عرض أعلامها من الفقهاء والمحدثين وأصحاب العربية والشعراء الأفاضل على مر العصور حتى عصره، ويذكر أن الأمير ابن اللحياني فكر سنة في الحج فجاءتهم الأنباء بمجاعة شديدة في برقة، ويذكر أن ابن حُسَيْنَة نظم قصيدة ينهاء فيها عن الحج حينئذ، وينشد مطلعها، ويقول إنها سقطت من ذاكرته، غير أن له قصيدة جعلها معارضة لقصيدته، وينشدها، وفيها يقول مادحا ابن اللحياني:

| | |
|-----------------------|---------------------|
| مولي زهت الأيام به | وتحلت من بعد المظلم |
| شرف بالإرث تملكه | فتقل أحسن منتقل |
| بأس كالنار إذا اضطربت | وندى كالفيت الثنهل |
| يُنضى الآراء مسندة | في قول أنفذ أو عمل |
| فأقم للدين تجسده | في عز باقي متصل |
| فشرط الحج قد ارتفعت | لزال القنرة والسبل |

والقصيدة طويلة، وهي تدل على قدرة ملكته الشعرية إذ يندفع فيها ولايكاد يتوقف، ويقول لابن اللحياني أقم فيكفي ما تقدمه للدين من خدمات، وقد ارتفع عنك الحج لفقد شرط الاستطاعة وأمن السبل. وتتملأ الرحلة بأشعار يتبادلها مع أصدقائه وأبيه وأفراد أسرته، من ذلك محاولة الشاعر ابن حسينة أن يتبادل معه الشعر، فأجابه مادحا:

| | |
|--------------------------|----------------------------|
| أحمرز كل منقبه حيمه | ومن لم تلب في الدنيا نديده |
| أعنت على النظام يحن طبع | وأفكار مؤيدة سيده |
| وتسألني الجواب وإن فكرى | ليقص عن مجاريك المديده |
| فمهذ لي على التقصير عذرا | وهون من مطالبك الشديده |
| ودم في عزه وبلوغ قصد | وسعد دائر وعلا جديده |

وهو يعلى من شاعرية ابن حسينة ويجعله أكثر منه تفوقا في عالم الشعر، ولم يكن ابن حسينة يقلُّ عنه شاعرية وبراعة فيها يورد من أشعار له.

على^(١) الغراب الصفاقسى

منشؤه ومرباه مدينة صفاقس في القرن الثاني عشر الهجرى، وكان أبوه محمد في ثراء ونعمة مما أتاح له الاختلاف إلى حلقات العلماء والأدباء في بلدته والتَّهَلُّ من ينابيع علمهم وأدبهم وانتقل إلى تونس، فحضر دروس علمائها المختلفين في المنطق والفلك وأصول الفقه والفقه المالكي والحديث النبوى والبلاغة والعربية، ويقال إن أصل مجيئه إلى تونس قضية شرعية في إرث أبيه وتعرف على رجالاتها: رجال الدواوين وساستها وقد وضع بين يدى ديوانه مقدمة طريفة ذكر فيها أنه كان في بدء حياته (بصفاقس على ما يظن) لا يزال حين تفتحت موهبته الشعرية ينتقل بين الجدد والمجودين إظهارا لمقدرته، وكثير منها لم يكن مطابقا للواقع بل على حسب ما يقتضيه المقام من المفاكهات أو محاكاة للبلغاء في بعض المطارحات. ويعود الغراب إلى ذكر ذلك في مقدمته لديوانه لعلى الثانى بن الحسين وقد سماه «ديوان هجعة النفس والعين في صفات الأمير على بن الحسين». وكان اتصاله برجالات العصر من الساسة وكتبة الدواوين سلما طبيعيا لاتصاله يعلى الأول ابن الأمير محمد الذى استلب أولاد أخيه الحسين الحكم إلى أن استرده محمد الرشيد وإخوته بعد عشرين عاما بفضل جيش جزائرى نصرهم على عمهم، واستقر الحكم من حينئذ في يد الأسرة الحسينية. وقد أسند على الأول إلى الشاعر خطة العدالة التى كان يروى إليها، وله فيه ثلاث مدائح، أهمها مدحة رائية، وفيها يقول:

ملك له فضلٌ ومجدٌ وسؤددٌ وكلُّ ملكٍ عن معاليه يقصُرُ
له عِفَّةٌ مقرونةٌ بصيانتهِ عن الفَحْشِ فى أفعاله وتطهُّرُ
إذا وقعتْ أسيفُهُ فى عِداته رأيتُ رهوسَ المعتدين تطهِّرُ
إذا رَفَعَ الأعلامَ فاجزُمُ بفتحهِ لما أمَّ والجمعُ الصحيحُ يُكسِرُ

عنوان الأريب عما نشأ بالملكة التونسية من عالم أدبى (طبع تونس) ٣٢/٢ وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مخلوف (طبع القاهرة) ويجمل تاريخ الأدب التونسى للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص ٢٣٩ وكتاب الأدب التونسى في العهد الحسينى للهادى الغزى (طبع تونس) ص ٩١.

(١) انظر في ترجمة الغراب مقدمته العامة لديوانه والخاصة التى وضعها بين يدى ديوانه الثانى في مدائح على باى بن الحسين وهو مضمَّن في ديوانه بتحقيق وتقديم محمد الهادى الطاهر المطوى وعمر ابن سالم (طبع تونس) وقد ضُمَّ الديوان رسائله ومقاماته، ومن الكتب التى اهتمت بالترجمة له كتاب

وإنما ذكرت البيت الأخير لأنه كان يتصنع أحياناً لقواعد النحو، فقد ذكر فيه الرفع والمجرم والفتح والجمع الصحيح السالم والجمع المكسر، ولكن ذلك كله لم يفسد البيت عنده، وهو لا يكثر من مثل ذلك في شعره، فقول من قال إنه كان يكثر من التورية في شعره يريد مثل ذلك من التصنع لبعض مصطلحات العلوم وخاصة النحو وأنه يخرج بذلك عن الحد المحدود فيه مبالغة، إذ تتضح في شعره قوة شاعريته وأنه يتدفق فيه رغم ما قد يتصنع له من المحسنات وخاصة الجناس، وله مدحة لم يُخل منه بيتاً من أبياتها وقد ذكر في فاتحتها أن ذلك طُلب منه. والحق أنه يتميز بشاعرية خصبة، وديوانه الثاني أنشأه في علي بن الحسين وقد استولى على صولجان الحكم بعد أخيه الرشيد من سنة ١١٧٢ حتى سنة ١١٩٦ وكان سياسياً مُحْكماً وقرب الشاعر منه وعاش في زمنه حتى توفي سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م وأهداه أكثر من ثلاثين مدحة مكوناً بذلك هذا الديوان الثاني الذي قلنا أنفاً إنه سماه: «ديوان هجة النفس والعين في صفات الأمير علي بن الحسين» وله يقول في بعض مديحه:

| | |
|------------------------------------|--|
| مليكُ إذا الآمال منك توجَّهت | إليه فثِقْ أن الإيَّاب مغانمُ |
| بحلمٍ وعدلٍ خُصُّ، هذا لمن جنى | وهذا لجُرحِ النَّائباتِ مَراهمُ |
| له وثباتٌ في وَغَى الحربِ تنثني | - وتجنين عنهن - الكُماةُ الضَّراغمُ ^(١) |
| له عَفَّةٌ لو أنها في الورى سرتُ | لما علقتُ بالعالمين مآثمُ |
| إذا انبجستْ مُزْنُ السماء وكُفَّهُ | فذاك له كَفٌّ وذلك ساجمُ |
| نَعْمنا به في ظلِّ عيشٍ كأنما | بنا من جنانِ الخُلْدِ حُفَّتْ تماثُمُ ^(٢) |

والقصيدة تتدفق برنات موسيقية بديعة، والألفاظ سلسلة عذبة، والتقسيم في البيت الثاني دقيق، فالعدل لمن جنى والحلم مرهم لجرح النائبات، وله وثباتٌ في وَغَى الحرب يتحاشاها ويحيد عنها الشجعان شجاعاً ضاربة، ويبالغ في وصف عفته وأنها لو وزعت على العالمين ما كان في الدنيا مآثم، ويقول إذا انفجر مزن السماء بالغيث وكفه بالجمود وتوقف المزن وكف فكفه تظل هائلة ولا تتوقف أبداً، ويذكر أنهم نعموا بالأمير علي الثاني في ظل عيش ناعم رافه، حتى لكأنما يعيشون معه في جنان الخلد، وقد حفت معيشتهم بتماثم وتعويزات حتى لا تتبدل أبداً. ولعل صوت على الغراب الصفاقسي انتضح لنا الآن، وهو صوت فيه غير قليل من جمال العبارة وحسن الصياغة وأحياناً مع المبالغة الشديدة.

(٢) تائم: تعاويز.

(١) الكماة الضراغم: الشجعان الأسود.

محمد^(١) الورغي

هو محمد بن أحمد الورغي، نسبة إلى قبيلة ورَّغة التي كانت تنزل قرب مدينة الكاف في الجنوب وقيل بل كانت تنزل على الحدود التونسية الجزائرية، ولا نعرف شيئاً عن ميلاده ولا عن نشأته، ويبدو أنه التحق أولاً بالكتاتيب، وحفظ فيها القرآن الكريم. ونفاجأ به في جامع الزيتونة بتونس يدرس على شيوخه الفقه والتاريخ وعلوم الحديث والتفسير والكلام والمنطق وعلوم العربية والبلاغة، ويبدأ من الذكاء ماجعله يجلس للتدريس بجامع الزيتونة. وجعلته نزعته الأدبية يختار العمل كاتباً في ديوان الإنشاء لعهد الأمير على الأول، ونال في عهده من الشهرة والجاه ماجعله كاتبه وشاعره الأول فلا يترك حادثاً ولا عيداً إلا ويدبج فيه مدحة، وتدور الدنيا دورات وإذا أولاد أخيه حسين يستردون السلطان المفقود، ويجلس على أريكة الحكم محمد الرشيد لمدة ثلاث سنوات ثم أخوه الأمير على الثاني حتى سنة ١١٩٦ ويوشك نجمه أن يأفل منذ ولاية الرشيد سنة ١١٦٩ فيسجن ويعذب، وما يزال يبعث بمدانحه إلى أخيه الأمير على الثاني، ويتوسط له عند أخيه وترد إليه حريته، حتى إذا أصبح صولجان الحكم بيده قرَّبه منه، ونظن ظناً أن لزوجته ابنة على الأول أثراً في قرَّبه منه وقرب على الغراب الصفاقسي كما مر بنا، مما جعله ينظمها بين كتابه وشعرائه. وظل الورغي يحظى بجوائز على الثاني حتى وفاته سنة ١١٩٠ للهجرة. ومدانحه منقسمة بين على الأول وعلى الثاني، ومن بدع ما له من مديح في على الأول قصيدته في إيقاعه بقبيلة النمامشة حين نهب ركب حجيج من فاس وألزمها برد كل ما نهبته، وله يقول:

| | |
|--|---|
| هو العزُّ في سُمْرِ القَنَا والقَوَاضِ | وإلا فما تَغْنِي صدورَ المراتِبِ |
| وسَيَّانِ أَعْمَارُ الرجالِ وَصِيدُهَا | إذا لم يَمِيزُ فَضْلُهَا بالتجاربِ ^(٢) |
| هو الملك الداعي إلى الحق وحده | وإن كَثُرَتْ أَهْلُ الدَوَاعِي الكَوَازِبِ |
| وَمَنْ عَرَفَ الأيامَ قَصَّ غَرِيبِهَا | وفى قصصِ اليَاشَا عيونَ الغرائبِ |
| ومن مثله يُدْعَى لكشفِ مَلَمَةِ | إذا قال: واغوثاهُ أَهْلُ المصائبِ |

التونسي في العهد الحسيني ص ١٤٩ وديوانه مطبوع بتونس.

(٢) أَعْمَارُ الرجال: من ليس لهم خبرة من العامة. الصيد: السادة.

(١) انظر في الورغي شجرة النور الزكية لمخلوف وعنوان الأريب لمحمد النفر والجزء الثاني من تاريخ ابن أبي الضياف والورغي للحبيب ابن الخوجة ومجمل تاريخ الأدب التونسي للأستاذ حسن حسني عبدالوهاب ص ٢٤٧ والأدب

ترى الخيل فى آثارهم مستطيرة سحائبُ حَتَفٍ أُرِدَّتْ بِسجائبِ
وما ارتفعت شمسُ الضحى قَبْدَ رمحهم عن الأفق حتى أنشَبوا فى المغالِبِ^(١)

والأبيات حماسية والورغى يقول فيها إن العز فى الرماح والسيوف ولا فضل بين شجاع وجبان إذا لم تميزهما التجارب فى وطيس الحرب، ويصف علياً الأول بأنه يعيش للدفاع عن الحق وكشف الملمات عند أهل المصائب، ويقول إن خيل على الأول عصفت بأعدائه، وما زالت سحائب حتفها تعقبها سحائب حتف حتى دمرتهم، وما ارتفعت شمس الضحى قدر رمح حتى أنشَبوا فى مغالِب فرسانه كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً. وتختلف مدائحه فى على الثانى عنها فى على الأول فأكثرها استعطافات واعتذارات على شاكلة قوله:

يا أيُّها الملكُ الذى نَظَرَ السُّنَا فى وجهه الأَسْنَى فقالَ مَوْفُقُ
أنت الذى يَنْسَى الغَريبُ بِقَرِبِهِ أوطانَه ويجوِّدُ منه المُتَلِقُ
مالى أحاولُ شَرِبُهُ من عَفوكم فأَذَادُ وهو على الوَرَى يتدفقُ
إن كان لى الذَّنْبُ العَظِيمُ فحلُمكم يَتَلَى به ذاك العَظِيمُ ويُسْحَقُ
قالت قَتِيلَةُ للرَّسولِ «وربما» مَنْ الفَتى وهو المُفِيطُ المُحَقُّ

والقصيدة من نفس الوزن والقافية اللذين اختارتها قتيلة ليهاء أبيها النضر بن الحارث ومقتل رسول الله له بعد غزوة بدر بالصفراء، ويقال إن رسول الله ﷺ حين سمع شعرها قال: أما إني لو سمعت هذا قبل مقتله لم أقتله، وتتل الورغى فى البيت الأخير بجزء مؤثر من بيت لقتيلة، وكماله:

ما كان ضُرُّكَ لو منتَ ورُبَّما مَنْ الفَتى وهو المُفِيطُ المُحَقُّ

وكانه يلفت علياً الثانى إلى مدى تأثر الرسول باستعطاف قتيلة، وهو يتخذ وزن قصيدتها وقافيتها وسيلة إلى قلبه، ويتأثر ببعض معانيها، وله قصيدة فى مديح على الثانى تسبل عنوبة وسلاسة بدأها بقوله:

حاجة المدح لِحُلُو الفَزْلِ حاجة الصَّبِّ لِأَوَّلَى القُبْلِ

حتى إذا استوفى الفزل فيها أخذ يمدحه بانتصاره على بعض الثائرين مُسَبِّحاً عليه كثيراً من الشمائل مهالفا مهالفاً مفرطة. وكان لا يقل عن على الغراب الصفاقسى متانة أسلوب وروانة صياغة وجزالة ألفاظ، ولم يستكثر مثله فى شعره من مصطلحات العلوم ومحسنات البديع.

شعراء الفخر والهجاء

الفخر وما يتصل به من الحماسة من موضوعات الشعر القديمة، حتى لقد سمي أبو تمام مختاراته من الشعر حتى عصره باسم ديوان الحماسة إشارة إلى أنه الموضوع الغالب على الشعراء قديماً، ومدُّ مختاراته إلى عصره، ودائماً يزدهر في البيئات الحربية التي تكثر فيها الحروب، ولا تغلو إذا قلنا إن القيروان ظلت تشهد حروباً كثيرة في القرنين الأول والثاني للهجرة، واتصل شيء من ذلك في فتح صقلية سنة ٢١٢ ثم في فتح مالطة سنة ٢٥٥ وهاجمها محمد بن كهداد الصغرى في عصر القائم الفاطمي ثم كانت زحفة بنى سليم وهلال في القرن الخامس، ومنذ غلب روجار النورماندى على صقلية سنة ٤٨٤ كانوا يتنازلون الساحل الشمالى للإقليم التونسى واستولوا على المهدية مراراً. وفي القرن السادس الهجرى صُلِّيَ الإقليم نار الحرب التي أشعلها فيه قراقوش وابنا غانية، واستولى عليه الموحدون، ثم قامت الدولة الحفصية وكانت القبائل في الجنوب والجزائر مأتى تناوئها، ونزها الإسبان بأخرة من الدولة ثم العثمانيون. وإنما ذكرنا ذلك لتدل على أن الإقليم التونسى كان معداً دائماً ليزدهر فيه شعر الفخر والحماسة، وأول عصر ازدهر فيه هذا الشعر عصر الدولة الأغلبية إذ نجده على لسان مؤسس الدولة الأغلبية إبراهيم بن الأغلب وحفيده أبى العباس بن الأغلب إذ يقول في قصيدة بناها على الفخر بالنسب والحسب^(١):

أنا الملك الذى أَسْمُو بنفسى فأبلغُ بالسَّمَوِ بها السُّحَابُ
إذا نَقَبَتْ عَنْ كَرْمِي وَمَجْدِي وَجَدْتِنِي الْمَصَاصَةَ وَاللُّبَابُ

فهو يسمو بنفسه مصمداً في السَّاء حتى يبلغ بها السحاب، وهو المصاصة أو الجوهر واللُّباب من المجد والكرم، ويضئ متحدتاً عن سياسته وحسن تدبيره وشجاعته. وكان من بيته أحمد بن سودة الأغلبى المتوفى سنة ٢٦٠ وإلى الزاب وطرابلس وصقلية، وكان بطلاً في الحروب وله في جميعها وقائع مشهورة، وله شعر كثير يفخر فيه ببأسه وبطولته وبلائته في الحروب من مثل قوله^(٢):

أنا مَنْ قد جال ذكرى وَجَرَى بين الأنام

(١) مجمل تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٩. (٢) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٦٣.

أَرْكَبَ الْهَوَلَ بِكَرًا نَى عَلَى الْجَيْشِ اللَّهُامُ^(١)
تَعْرِفُ الْأَنْسَرُ بِأَسَى فَهَى مِنْ فَرَقَى حَوَايَى

فقد طار اسمه وطار صيت شجاعته بين الناس بركوبه أهوال الحرب، وإن النسور لتعرف بأسه فهى ما تزال حائرة حول راياته، ولا تزال خلفه وأمامه تنتظر غذاءها من أشلاء أعدائه ممن يذيقهم كأس المنون. وكان القائم بأمر الله، الفاطمى شاعرا مثل أبيه وله مثله شعر يفتخر فيه، من ذلك قوله، وقد غزا مصر مرارا ولم يكتب له النصر كما كتب فيها بعد لجوهر الصقل، ومن قوله يذكر هذا الغزو آملا في النصر^(٢):

فَسَرْتُ بِخَيْلِ اللَّهِ تَلْقَاءَ أَرْضَكُمْ وَقَدْ لَاحَ وَجْهُ الْمَوْتِ مِنْ خَلَلِ الْحَبِّ
وَأَرْدَفْتُهَا خَيْلًا عَتَاكَ يَقُودُهَا رَجَالٌ كَأَمْشَالِ اللَّيْثِ لَهَا خَبٌّ^(٣)
فَكَانَ بِحَمْدِ اللَّهِ مَا قَدْ عَرَفْتُمْ وَفَزْتُ بِسَهْمِ الْقَلَجِ وَالنَّصْرِ وَالْقَلْبِ^(٤)
وَذَلِكَ دَأْبَى مَا بَقِيَتْ وَدَأْبُكُمْ فَدُونَكُمْ حَرْبًا تَضْرُمُ كَاللَّهَبِ

وهو يصور سيره بجيشه تلقاء مصر وقد تراءى الموت له ولرجاله، ولم ينكص، بل أردف خيله خيولا أخرى عليها رجال شجعان كأنهم الأسود، يشون ويسرعون حتى تم له النصر، غير أنه اضطر إلى العودة بجيشه إلى المهديّة، وهو يتوعد خصومه بأنه سيظل يعاود الكرة عليهم وسيظل يشعل حربا تضطرم باللهب حتى يحقق ما يريد من النصر النهائي. وشاعر الفخر في الدولة الصنهاجية تميم بن المعز وسنخصه بكلمة، ومن نلتقى بهم في العصر أبو طاهر التجيبى، ومن طريف ما له في عزة النفس^(٥):

إِلَى كَمْ أَقْرُ النَّفْسَ فِي الْمَرْتَعِ الْمَعْلِ وَأَقْنَعُ مِنْ جِدِّ الْمَكَاسِبِ بِالْهَزْلِ^(٦)
أَكْلَفُ أَقْلَامَى مَدَى مُتَمَاحِلًا وَلَمْ أَعْتَمِلْ مُهَرَّى وَرُمَى وَلَا تَغْيِي
وَمِنْ كُلِّ الْأَقْلَامِ لَا الْبَيْضُ هُمُ أَقْنَعُ بِهِ بَيْنَ الْمَذْلَةِ وَالْقَلْبِ

فهو يرى نفسه بكتابات وأدبه قد أقام في المرتع المجذب، إذ الأقلام لا تعود على صاحبها بحياة رافهة إنما الذى يعود عليه بذلك سلاحه، ويقول إن من كانت الأقلام لا السيوف مدى همه في الحياة أقام فيها بين الذل والفقر، وإنه حرى به أن يحمل سيفه حتى يمد بين الأبطال

(٤) الفلج: النصر.

(٥) نفس المصدر ص ١٣٨.

(٦) المحل: المجذب.

(١) اللّهام: العظيم.

(٢) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٨٣.

(٣) خب: غفّ سريخ.

الشجعان ويعيش معيشة جديدة به. ويلقانا في أول الدولة الحفصية مؤسسها أبو زكريا، وله قصيدة حماسية طويلة يقول في فاتحتها^(١):

أَجِبْ دَاعِيَتَهَا فَالْتَجِبْ يُجِيبُ وَثَبُّ لَهَا فَالْتَجِبْ يُخِيبُ^(٢)
وَيْشُمُ عَزْمَةً لَا يَغْمُزُ الْعِزَّ مَتْنَهَا فَذُو الْعَزْمِ فِي الْيَوْمِ الْقَصِيبِ يُصِيبُ
وَلَا تَنْتَبِعِ الْعَلْيَاءُ إِلَّا بِأَبْيَضٍ لِفَرْيَبِهِ فِي هَامِ الْكُمَا غُرُوبُ^(٣)

وهو يدعو كل شخص إلى أن يخوض غمار الحرب، إذ لا يُنْكَلُ عنها إلا الجبان. ويتدرع بعزم قوى فصاحب العزم هو الذي يصيب الهدف المأمول، ودائها تتسلح للعلياء بسيف حاد يقطع رموس شجعان الأعداء قطعاً ولا يبقى منها بقية. وتلقانا عند شعراء هذه الدولة الحفصية أشعار حماسية كثيرة، ونجد ابن خلدون يشارك فيها واصفاً شجاعة البدو وبطولة فرسانهم، وبالمثل نجد طائفة من هذه الأشعار عند شعراء العصر الحسيني، وما يمثلها فيه قصيدة على الغراب الصفاقسي في الأسطول الذي أنشأه على الثاني الحسيني، وفيها يقول^(٤):

بِشَأْنِهِ فِي الْإِسْلَامِ زَادَ بِهَا عِزًّا وَأَيَّاتُ نَصْرِ نَوْرُهَا يُذْهِبُ الْعِزًّا
سَوَابِحُ قَلْبِكَ لِلْمَغَانِمِ أَنْشَتْ يَسَابِقُ أَفْلَاكُ السَّمَاءِ جَرِيئَهَا وَخَزَا
يَفْزُزُ بِأَجْرِ مَنْ عَلاهَا وَمَغْنَمٍ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْبَحْرِ أَوْ رَكِبُوا غُرًّا^(٥)
إِذَا لَقِيَ الْإِسْلَامُ كُفْرًا تَرَى بِهَا جَمِيعَ الْعِدَا أَسْرَى وَأَعْنَاقَهُمْ خَزَا

والقصيدة توج بحماسة ملتهبة، فالأسطول وسفنه بشرى للإسلام وآيات نصر مجيدله، وإن السفن لتسابق أفلاك السماء في جريها حتى لا يمكن أن يفلت منها العدو، وحتى إذا لقيته أصبح كل أفرادها إما أسرى وإما مذبحين ذبحا، فهم بين أسير وقتيل، وكان يعاصر على الغراب الأمير على الثاني الحسيني وله في الفخر شعر بديع وسنخسه بكلمة، ومن أنشد لهم الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب أشعاراً في الفخر ابن سعيد المجري ومحمدة بن عبدالعزيز.

وإذا تركنا الفخر إلى المهجاء لم نجد ابن رشيق ولا من جاءوا بعده يتوسعون في الكتابة عن هذا الفن، إما لأن أهل الإقليم لم يكونوا يعجبون به، وإما لأن الشعراء أنفسهم لم يكونوا يعيشون له كما كان يعيش بعض الشعراء في العراق وفي الشام ومصر، ومع ذلك فقد توقف ابن

(١) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٨٨. (٤) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٢٤١. الأدب

(٢) النخب: الجبان. (٥) غرّاً: غزاة.

(٣) لفرّبه: لجانيه. هام الكما: رموس

الشجعان.

رشيق عند شاعر يسمى بكر بن عل الصابوني، وقال إنه كان صاحب نادر وهجاء خبيث، ولم يكدهم من هجائه إلا بأمثلة قليلة كان يسف فيها إسفاقا شديدا، ونجد عند بعض هجائيهم هجاء للفقهاء كالشأن في الأندلس من مثل قول أبي طالب الدلائي^(١):

لا تَكُنْ مِثْلَ مَعْشَرِ فُقَهَاءٍ جَعَلُوا الْجِلْمَ لِلدِّرَاهِمِ صَيْدًا
طَلَبُوهُ فَصَيَّرُوهُ مَعَايَا ثُمَّ كَادُوا بِهِ الْبَرِيَّةَ كَيْدًا

وفي ظننا أن أحد الأسباب في انصراف الناس بتونس وغيرها من البلاد المغربية إلى المتصوفة أن وجدوهم زهادا في كل ما بيد الحكام من أموال فاطمأنوا إليهم، وبما ساقه ابن رشيق في أنموذجه قول بعض الهجائي في أحد الكتاب^(٢):

وَكَاتِبٍ يَمَسُخُ مَا يَنْسَخُ جَمِيعُ مَا يَكْتَبُهُ يَنْسَخُ
جَرَتْ فَلَا أَدْرَى أَثْوَابُهُ أَمْ عِرْضُهُ أَمْ جِهْرُهُ أَوْسَخُ

وقد ععم الوساخة في حبر الكاتب وعِرْضُهُ وأثْوَابُهُ، وبذلك لسه لسعا شديدا، وأكثر منه لسعا وإيلاما ما قيل في مصلوب، وهو قول قهرّب الخزاعي، ويبدو أنه صلب معه آخرون بنفس تهمة المروق عن الدين^(٣):

مَا رَاقَبَ اللَّهَ فِي عِرْضِ النَّبِيِّ وَلَا خَافَ الْعِقَابَ وَلَا صَلَّى وَلَا سَجَدَا
مَرَدَدْتُمْ فَلَقَيْتُمْ بَسْطَ مَقْتَدِرٍ وَتِلْكَ سُنَّتُهُ فِي كُلِّ مَنْ مَرَدَا

فهو - وأصحابه - مارقون ملحدون، يستحقون ما نزل بهم من عقاب أليم. وتخف حدة الهجاء في زمن الدولة الحفصية ويعود إلى الاشتغال في عصر الدولة الحسينية، وخبر من يمثله محمد الرشيد الحسيني في هجاء ابن عمه على الأول وبيان عقوقه لعمه ونهيه للحكم منه ومن إخوته، وظل يكرر ذلك طويلا في مثل قوله^(٤):

اسْتَأَصَلَ النَّاسَ نَهْيًا وَاسْتَبَاحَ دِمَا
بَغَى عَلَيْنَا وَأَهْلِينَا وَشَتَّتَنَا
قَدْ عَقَّ وَالِدَهُ وَالْعَمُّ يَا عَجَبَا
وَمَا نَجَا غَيْرُ مَنْ نَجَّاهُ رَجُلَا
وَعَمَّ بِالْجَوْرِ وَالْخُسْرَانُ أَعْمَا
حَتَّى ابْنَهُ بِسِهَامِ الْحَرْبِ أَصْلَا

(٤) ديوان محمد الرشيد ص ٦٤ وانظر الأدب التونسي في العهد الحسيني ص ٦٩.

(١) الأنموذج لابن رشيق ص ١١٨.

(٢) الأنموذج ص ٢٤٩.

(٣) الأنموذج ص ٣٢٩.

وهو يجوه بظلمه وعسفه واستباحة أموال الناس ودماهم وتشتيته له ولأخوته وفرارهم منه إلى الجزائر، مع عقوق ضخم لأبيه ولعمه الحسين وابن عمه، بل لقد ظل يوقد الحرب حتى نصر الله الشاعر وعاد إلى صولجان حكمه. وحرى أن نتوقف الآن قليلا لنخصه ونخص تميم بن المعز بكلمة.

تميم^(١) بن المعز الصنهاجي

كانت الدولة الصنهاجية تنسب نفسها وقبيلتها إلى حمير، وهو أثر من آثار التعرب الذي أحدثته الزحف الهلالية في قبائل البربر، إذ انتسبت كل قبيلة إلى قبيلة عربية وخاصة القبائل العربية الجنوبية، وولد تميم لأبيه المعز بمصر (المنصورية) سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م وعنى بتربيته وتثقيفه عناية واسعة، ولما بلغ سن الثالثة والعشرين فُوض إليه حكم المهديّة، ولم تلبث الزحف الهلالية أن قلمت إلى القيروان بدعوة من المعز لاستعانتهم بهم في حرب أبناء عمه بنى حماد أصحاب القلعة المنسوبة إليهم في الجزائر، ونصحه تميم أن لا يفعل ذلك ولكنه لم يستمع إلى نصحه فقدموا القيروان والإقليم التونسي وخرّبوا كل ما نزلوا به، ولم يجد المعز بدا من أن يلجأ إلى تميم في المهديّة سنة ٤٤٩ وظل بها إلى أن توفي سنة ٤٥٤ وطالت إمارة تميم فيها وتهدّد سلطانه بها وظل ينازل بنى هلال مراراً إلى أن توفي سنة ٥٠١ عن تسع وسبعين سنة، وابتغجه شعراء الأندلس والمغرب والشام فأجزل لهم العطاء سوى من كان ينتجعه من شعراء الإقليم التونسي أمثال أبي الحسين بن خصيب وأبي عبد الله محمد بن علي القفصى وأبي الحسن علي بن محمد الحداد، ومن مدحه من شعراء أبيه ابن شرف وعبد الكريم بن فضال وابن رشيق ومرّ بنا مدحه له. وكان مع شاعريته الفذة ناقدًا مجيدًا للشعر، قال ابن الأبار: كان يعترض الشعراء وينتقد عليهم ألفاظهم، ويذكر أن شاعرا أنشده في وقت هرج:

تَبَيَّنْتَ لَا يَخَامِرُكَ اضْطِرَابُ إِلَيْكَ تَمُدُّ أَعْيُنُهَا الرُّقَابُ

فقال له: أرايتي - ويحك - طرت خِفَّةً ورميت بنفسي من علو هذا القصر قلقا واضطرابا، وسكته ولم يسمع من قصيدته سوى هذا البيت، وروى له شعر كثير، من ذلك قوله يحمس بعض القبائل لمنازلة الأعداء:

مَتَى كَانَتْ دِمَاؤُكُمْ تُطَلُّ أَمَا فَيْكُمْ بِشَارٍ مُنْتَقِلُ
أَغَاثُكُمْ ثُمَّ سَالَمٌ إِنْ فَشَلْتُمْ فَمَا كَانَتْ أَوَانِلُكُمْ تُذَلُّ

الأعلام ٧٣/٣ وبجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٦٨.

(١) انظر في ترجمة تميم الحلة السراء ٢٧/٢ وابن خلدون ١٥٩/٦ وابن خلكان ٣٠٤/١ وأعمال

وَنِعْتَمَ عَنْ طِلَابِ الْمَجْدِ حَتَّى كَأَنَّ الْعِزَّ فِيكُمْ مُضْمَجِلٌ
وَمَا كَسَرْتُمْ فِيهِ الْعَوَالِي وَلَا بِيضُ تَقْلٌ وَلَا تُسَلُّ^(١)

وتيم يستير حمية القبيلة بذكر الثأر الذي يشتمل له الغضب في صدر كل عربي، فالعار كل العار عند العرب أن لا يأخذوا بثأرهم وأن تظل دماؤهم وتذهب هدرا دون مناضل عنها يقتحم لها الموت اقتحاماً. ويضرب للقبيلة على وتر ثان هو الذل، فالعربي الكريم لا يمكن أن يقبل الذل ولا الضيم، فقبل كل شيء عزة النفس، ومن أجلها تحطم الرماح وتغل السيوف. ولا بد أن القبيلة امتلأت غيظاً وحقدًا على أعدائها، واندفعت تطلب ثأرها وتحامي عن كرامتها وعزتها باذلة المهج والأرواح. ويشد متحمسا غاية التحمس:

بَكَرَ الْخَيْلَ دَامِيَةَ النُّحُورِ وَقَرَعَ الْهَامَ بِالْقُضْبِ الذُّكُورِ^(٢)
لَأَتَحْمِنَهَا حَرْبًا عَوَانًا يَشِبْ لَهَا رَأْسُ الْكَبِيرِ^(٣)
فَإِمَّا الْمَلِكُ فِي شَرَفٍ وَعِزٍّ عَلَى التَّاجِ فِي أَعْلَى السَّرِيرِ
وَإِمَّا الْمَوْتُ بَيْنَ طُبَا الْعَوَالِي فَلَسْتُ بِخَالِدٍ أَبَدَ الدُّهُورِ^(٤)

فسيظل تيم يدفع الخيل في موقعة بعد موقعة وقد تلطخت نهورها وصدورها بدماء الأعداء، وسيظل يضرب في رموسهم وأعناقهم بسيوفها الحادة مشعلا مع أعدائه حروبا ضارية يشيب لها كل من يراها، ويقول إنه لن يقادر ساحة هذا الشرف والعز، فإذا يحمي التاج على رأسه ويصونه، وإما الموت الزؤام بين الرماح والسيوف، أو بعبارة أخرى إما حياة شريفة عزيزة، وإما موت أيضا شريف عزيز، موت الأبطال الكرام. ومن طريف ما لتيم في هجاء منافق:

رَأَيْتَكَ قَاعِدًا عَنْ كُلِّ خَيْرٍ وَأَنْتَ الشَّهْمُ فِي قَالُوا وَقُلْتُ
وَأَطْوَارٍ لَهَا لَطْفٌ وَجَنَقٌ وَالْفَاظُ تَنْمُقُهَا وَسَنَتُ
وَقَدْ يَمُدُّ الْوَعْدَ وَلَيْسَ يُوفَى وَلَيْسَ بِقَسَائِلٍ يَوْمًا فَعَلْتُ
كَخَزِّ الْمَاءِ فَوْقَ الْمَاءِ طَائِفٍ يَرُوقُ وَمَالَهُ أَصْلُ وَتَبْتُ^(٥)
كَذَلِكَ زَهْرَةُ الدَّقْلِ تَرَاهَا تَشُوقُ الْقَيْنَ حَسَنًا وَهِيَ سُحْتُ^(٦)

(٤) ظا: جمع ظبة: حد الرمح القاطع.

(٥) خز الماء: الطحلب.

(٦) الدقل: نبت مرزهر أحمر، السحت: الخبيث

الكريه.

(١) العوالى: الرماح. بيض: سيف.

(٢) القضب الذكور: السيوف الحادة القاطعة.

(٣) الحرب العوان: الحرب المكررة مرة بعد

أخرى.

وهو يصوره يقعد عن كل خير، ويبادر بكلام فيه حلق ولطف وتميق دون أن تكون فيه فائدة وإذا وعد أخلف ولم يوف بوعده، ولا خير عنده ولا غناء فيه كالخز الذي ينسجه الماء أحيانا على سطحه يروق النظر ولا أصل له، بل كزهرة الدفل الحمراء تشوق العين ولا رائحة لها ولا عطر تنشره حولها

محمد^(١) الرشيد الحسيني

من أهم ما يميز الحكم العثماني في عهد الدولة الحسينية التي امتد حكمها منذ سنة ١١١٧ للهجرة/ ١٧٠٥ للميلاد أن حسين بن علي مؤسسها مع أنه كان تركي الأصل كان تونسي المولد والنشأة واللغة فأخذ يعني بتقاليد التونسيين هو وجميع أفراد أسرته كما عنوا بالحركة العلمية في جامع الزيتونة وفيما أنشؤا من مدارس كثيرة، وعنوا أيضا بالحركة الأدبية فعضوا إليهم كثيرا من الشعراء وأغدقوا عليهم الأموال والرواتب، وشاركوا بأنفسهم في الحركة العلمية والأدبية، وقد اشتهر على^(٢) الأول بشرح له على كتاب التسهيل لابن مالك كما اشتهر على الثاني بمداسته صحيح البخاري غير تعمقه في النحو والفقه وأصول الدين والبيان كما تشهد مدائح الغراب الصفاقسي. واشتهر محمد الرشيد الذي استرد حكم تونس له ولإخوته بأنه كان شاعرا فذا كما كان موسيقارا كبيرا، وإليه يرجع فضل ترتيب الأغاني الشعبية التونسية والأندلسية المسماة باسم المؤلف، وله ديوان شعر، ونراه فيه أيام غربته بالجزائر يفتخر بتونس وما نشر فيها أبوه من العلوم والآداب بمثل قوله عن تونس ويسميتها باسمها القديم: ترشيش:

أَقَمْنَا بِقَدْرِ الْجُهْدِ قَائِمَ شَرِّعِنَا فترشيشُ أضْحَى عِلْمُهَا يَتَدَفَّقُ
وجرَّتْ ذِيُولُ الْفَخْرِ عَنْ نُظْرَانِهَا فلا الشَّامُ يحكيها وما هي جَلَّتْ
وما في جميع الأرض مصرُ يفوقها وليس لنا نَهْلٌ عليها محلُّ
أبَى اللَّهُ أَنْ تُمَحَى دِيَارُ أَعْرَةَ وَتَدْرُسَ آثَارُ الْمَعَانِي وَتُحَقَّقُ^(٣)

فهو يفخر بأن أباه أقام في تونس الشريعة وأحيا بها الآداب حتى غدت تفاخر الشام وعاصمتها جلت أو دمشق، ويرفعها فوق جميع البلدان العربية، رغم أن ليس فيها كمصر نيل يتدفق، ويقول إن الله حفظها وصانها عن أن تعفى ديارها ورسومها. ويتسم له الدنيا ويعود إلى تونس ويجلس على أريكتها ويشعر بفخر لا يضاوية فخر وينشد:

(١) ومجلد تاريخ الأدب التونسي ص ٢٣٦.

(٢) تدرس: تمحي.

(٣) انظر في ترجمة محمد الرشيد المشرع الملكي

والتاريخ الباشي والخلاصة النقية للباحي المسعودي

أَيْشِيْهُنَا فِي الْعَالَمِيْنَ قَبِيْلُ وَنَيْلُ عُلَانَا مَا إِلَيْهِ سَبِيْلُ
أَرَى الْغَزْلَ لَا يَأْوِي سِوَى بَيْتِ مَجْدَنَا وَلَا فِي جِمَانَا يَسْتَنْدِلُ ذَلِيْلُ
وَأَنْ نَحْنُ سِرْنَا فِي كُمَاةِ جِيوشِنَا فَلِلْخَيْلِ وَقَعَ فِي التَّرَى وَصْهِيلُ
تَكَادُ جِبَالُ الْأَرْضِ مِنْ عَظَمِ بَأْسِنَا تَذُوبُ عَلَى سَطْحِ التَّرَى وَتَمِيلُ

وهو يرفع نفسه وأسرته فوق العالمين، فلم ينل أحد مانالوا من العلاء والمجد والعز، حتى إن أحدا في حماهم لا يمكن أن يصيبه أى أذى أو أى ذل. ثم يتحدث عن شجاعته وشجاعة جيوشه وكيف إذا سارت هزت الأرض خيولهم وزلزلتها زلزالا، بل إن الجبال لتكاد تميل أمام بأسهم وتذوب ذوبانا. وهو فخر لا يستغرب ممن دحر جيوش ابن عمه واسترد حكم أبيه لأسرته سنة ١١٦٩ للهجرة ولم يتمتع بنصره وحكمه طويلا فقد توفى بعد ثلاث سنين سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م.

٥

شعراء الغزل

لا يكاد شاعر ينظم الشعر إلا وينظم في الغزل بعض أبيات له مصورا فيها حبه إزاء المرأة ومعبرا عن هذه العلاقة الإنسانية الخالدة. ويوج كتاب الأنموذج لابن رشيق بأشعار الغزل والحب، منها الطبيعي الذي يتدفق عن نفس صاحبه في سهولة وطواعية، ومنها المتكلف الذي يصنعه صاحبه صناعة. وأيضا منه المستقل بقطع مفردة، ومنه الذي يوضع تمهيدا لما وراءه من مديح وغير مديح. ولن نستطيع أن نعرض ما في الأنموذج من طرائف الغزل الكثيرة، ولكننا سنكتفي ببعض ما أنشده لكبار العلماء والشعراء، ممن أعجب بهم ابن رشيق مثل أبي عبد الله بن جعفر التميمي المعروف بالقزاز المتوفى سنة ٤١٢ وكان لا يبارى في علوم اللغة والنحو والقراءات، ويشيد بحيد شعره وبلوغه فيه بالرفق والدعة أقصى ما يحاوله أهل القدرة على الشعر من توليد المعاني وتوكيد المباني، ويذكر من بديع غزله^(١):

أَمَا وَمَحَلِّ حُبِّكَ مِنْ فَوَادِي وَقَبْرِ مَكَانِهِ فِيهِ الْمَكِينِ
لَوْ أَنْبَسْتُ لِي الْأَمَالَ حَتَّى تَصِيرَ لِي عَيْنَانِي فِي يَمِينِي
لَصُنْتُكَ فِي مَكَانٍ سَوَادَ عَيْنِي وَخَطْتُ عَلَيْكَ مِنْ حَزَنِ جَفُونِي
فَأَبْلُغُ مِنْكَ غَايَاتِ الْأَمَانِي وَأَمْنُ فَيْكِ أَفَاتِ الظَّنُونِ

(١) الأنموذج ص ٣٦٦ وإنباء الرواة ٨٤/٣ ومعجم

الأدباء ١٧/ وابن حلكان ٣٧٤/٤.

والقطعة طريفة، فهو يريد أن يضع صاحبه في سواد عينه ويحيط عليها جفونه، حتى يحفظها ويصونها ويبلغ منها كل أمانيه، ويغضى في القطعة قائلا إنها يخاف عليها من الخفى وراء الحائط العيون، وإنها كل دنياه. ويشيد ابن رشيق بابن الهلال عبد العزيز بن أبي سهل الخشني النحوي اللغوي المتوفى سنة ٤٠٦ ويقول عنه: «كان شاعرا مطبوعا يلقي الكلام إلقاء ويسلك طريق أبي العتاهية في سهولة الطبع ولطف التركيب وقرب مأخذ الكلام، وينشد من غزله قوله^(١)»:

| | |
|-----------------------------|-------------------------|
| يا غُصْنًا غُصْنًا من الآسِ | ودرةً وهى من الناسِ |
| صوركِ الله على صورةٍ | كانت بها أسباب وسواسِ |
| ترديدٌ ذكرى لك في خاطري | أكثرُ من ترديد أنفاسِ |
| نسيت ودَى وتناسيتني | وليس قلبي لك بالناسِ |
| وليس لي منك سوى حسرةٍ | تجولُ بين الشوق والياسِ |

فغصن صاحبه كفصن الآس يتنى لنا ونعمه، ويعجب أن تكون درة متألثة وهى من الناس، وقد صورت صورة جميلة كانت أسباب وسواسه واختلاط عقله، وإن ذكرها لتتردد في خاطره أكثر من تردد أنفاسه، وقد نسيت وده وتناسيتني وليس قلبه لها بالناسي، فقد حفرت صورتها فيه حفرا، ولم يبق له منها سوى حسرة تتردد بين الطمع في اللقاء واليأس. ويقول^(٢) محمد بن علي الأزدي:

| | |
|-------------------------------|----------------------------|
| ترنو بأحفانٍ سُكاري بلا | سُكرٍ من الحسني مراضٍ صحاح |
| أخضرٌ - لِمَا استضحكت - خُذها | فلاخٌ ما بين الشقيق الأفاع |
| بمهجتي أنبى التي صُبرت | جسمي للأسقام منها مُباح |
| ومن إذا رُمْتُ سلوا دَعَا | قلبي ولهي: حبها لا يبرأ |

فهى ترنو بأحفان كأنها سكرى عليلة من الحسن وهى صحاح غاية الصحة، وضحكت واهمر خداه، وكأنما ومض ثغرها المشبه للأفاح في نصاعة بياضه بين ورد الشقيق المتوهج حمرة على خدودها. وإنه ليفديها بمهجته رغم ما أصابت به جسمه من الأسقام، ويقول إذا أراد سلوا عنها نادى قلبه وعقله حبها لا تيرح أبدا. ويقول الأتلامي محمد بن سلطان شاكياءه وآلامه فيه^(٣):

(١) الأئودج ص ١٦٠ وإنهاء الرواة ٨٤/٢.

(٢) الأئودج ص ٢٨٤.

(٣) الأئودج ص ٤٠١.

مُقَلَّةٌ إِنْسَانُهَا غَرِقُ حَشَوُهَا التَّسْبِيدُ وَالْأَرْقُ
وَصَابَاتٌ مَضَاعِفَةٌ وَدَمَوْعٌ ثَرَّةٌ دُفْقُ
وَحْشًا يَنْطَوُّ بِهِ لَهَبٌ عَنْ قَلِيلٍ سَوْفَ يَحْتَرِقُ
وَفَتَى أَشْفَى عَلَى جُرْفٍ مِنْ هَلَاكِ مَاهٍ رَمَقُ
وَنَحْ أَهْلَ الْحَبِّ وَيَحْمُ لَيْتَ أَهْلَ الْحَبِّ مَا خَلَقُوا

والشكوى بديعة، ومن شأنها أن تحنو صاحبته عليه لو سمعتها، ويقول ابن رشيقي: «هذه هي الألفاظ العذبة الغزلة الرائقة التي تلتصق بالقلب وتعلق بالنفس، وتجري مجرى النفس، وهذه هي طريق الحذاق في التغزل خاصة لأن المراد منه استدعاء المحبوب واستعطافه بركة الشكوى ولطف العتاب وإظهار الألم والإقرار بالقلبة.

ومر بنا في حديثنا عن الغزل بالجزء الخاص من الأندلس أن أديبة متظرفة عفيفة تسمى حمدة من مدينة وادي آش كانت تهوى صديقة لها وأنها نظمت فيها مقطوعة غزلية بديعة تصف فيها فتنها بحسنتها وجمالها، وكانت لها أخت تسمى زينب شاعرة مبدعة. ومن الطريف أننا نجد في أوائل الدولة الحفصية شاعرة من بيت التجاني تسمى زينب بنت إبراهيم التجاني تفتن بشعر إحدى صواحبها فتقول في وصف حسنة وجمالها^(١):

إِذَا انْسَدَلَتْ مِنْهُ عَلَيْهَا ذَوَابَةٌ كَقَصْرِ أَرَاكِ عَانَقَتْهُ أَرَاقُمُ^(٢)
أَثِيثٌ طَوِيلٌ فَهَوَ يَسْتَرْ جِسْمَهَا إِذَا نَزَعَتْ عَنْهُ الْمَلَأَسَ أَسْحَمُ^(٣)
كَأَنَّ الصَّبَاحَ ارْتَاعَ مِنْ خَوْفِ طَالِبٍ بِشَارٍ فَالْوَى بِالذُّجَى بِتَكْتُمِ

وهي تتصور ذوائب صاحبته أو ضفائرها كأنها أراقم أو حيات تعانق غصن أراك أو بعبارة أخرى تعانق قانتها الهيفاء الرشيق، وتقول إن شعرها أثيث أو كثيف ملتف، وإذا نزعَتْ عنه ثيابها بدا سواده على جسدها الأبيض الناصع، حتى وكأنه صباح أخذ الغزع من مطالب بثأر، فاختبأ في دُجى هذا الشعر، متخفياً ومتسراً ما استطاع.

ونختار ثلاثة من الشعراء الغزلين من العصور المختلفة غلب عليهم الغزل واشتهروا فيه، وهم على المصري في زمن الطوائف وأحمد الليلياني في زمن الحفصيين ومحمد ماضور في زمن الحسينيين.

(١) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية (٢) أراقم: حيات.
(٣) أسحم: أسود.

هو علي بن عبد الغنى الفهرى المحصرى ابن أخت المحصرى صاحب زهر الآداب كان كفيفا، وحلّف فيه عدّوان الزحفة الملالية على القيروان مرارة شديدة، فولى وجهه نحو الأندلس، وتهاداه أمراء الطوائف وخاصة المقتدر بن هود أمير سرقسطة، وفيه يقول ابن بسام في كتابه الذخيرة: «كان بحر براعة ورأس صناعة، وزعيم جماعة، طرأ على جزيرة الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه بالقيروان، والأدب يومئذ بأفقنا نافق السوق، معمور الطريق، فتهاذته ملوك طوائفها تهادى الرياض النسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأنس المقيم». ولما خلع يوسف بن تاشفين ملوك الطوائف استقر في طنجة يقرئ بها القرآن إلى وفاته سنة ٤٨٨ وكان عالما فذا بالقراءات وطرقها، وله منظومة في قراءة نافع، وكان شاعرا مبدعا، وله في الشعر ديوان لم يصلنا، ومن رائع غزله قصيدته المرقصة:

| | |
|---------------------------------|-------------------------------------|
| أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ | بِالْبَلِّ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ |
| أَسْفُ لَلْبَيْنِ يُرَدُّهُ | رَقْدُ السُّمَارِ فَأَرْقُهُ |
| مِمَّا يَرْعَاهُ وَيَرْصُدُهُ | فَبِكَاهِ النُّجْمِ وَزَقِّ لَهُ |
| فِي النُّوْمِ فَعَزُّ نَصِيدُهُ | نَصَبْتُ عَيْنَائِي لَهُ شَرْكَا |
| وَعَلَى خَدْيِهِ تَسْوُدُهُ | بِمَا مِنْ سَفَكْتُ عَيْنَاهُ بَدِي |
| فَعَلَامُ جَفُونُكَ تَجَحُّدُهُ | خَذَاكَ قَدْ اعْتَرَفَا بِدَمِي |
| فَلَمَلُ خِيَالِكَ يُسَيِّدُهُ | بِاللَّهِ هَبِ الْمَشْتَاقُ كَرَى |

والقصيدة طويلة، وبلغ من روعتها أنه عارضها من شعراء العرب كثيرون آخرهم شوقي محاولين أن يقتبسوا منها شيئا من حسنها الموسيقى ومن معانيها البديعة، وهو يسأل ليل المحبوب عن غده، وهل سيستمر حتى قيام الساعة. وقد نام السمار، أما هو فيسهد أسفه على الفراق وإنه ليبكى بدموع غزار، حتى ليبكى النجم له، وينام لماأما آملا في رؤيته حلما فلا يراه. ويقول إن عينها سفكت دمه، وشاهده تورّد خديها المعترفين به ففيم جحود جفونها، ويسألها أن تبه نوما لعل لطيفها يسمده. والقصيدة تكتظ برقة بالغة، وهى رقة تشهد له بشاعرية فذة، وبما أنشده له ابن بسام:

الرابع ص ٢٤٥ ويجمل تاريخ الأدب التونسي
ص ١٥٨.

(١) انظر في ترجمة علي المحصرى معجم الأدباء
٣٩/١٤ وابن خلكان ٣٣١/٣ وجنوة الحميدى:
٢٩٦ وابن بشكوال في الصلة والذخيرة القسم

رُدِّي حُشَاةَ عاشقٍ مهجورٍ بينَ الملوَمِ عليكِ والمعدورِ
ذكرُ الفراقِ فماتَ إلا شوقه وأولو الهوى مَوْتى بغيرِ قبورِ
ودُعْتُ مَنْ أهوى بل استودعْتُها قلبي ويسرُّ مدامي وزفيرى
فبكْتُ بِرَجَسَتَيْنِ خِفْتُ عليهما نفْسِي فلم أَلْتَمِ بغيرِ ضميرى

وهو يسأل صاحبتَه أن ترد عليه مهجته، بعد أن هجرته وفارقتَه، ويحس كأنه مات، وما أهل الهوى إلا موتى بغير قبور، ويقول إنه ودَّعها بل لقد استودعها قلبه ودموعه وزفيره وحنَّ عليه فبكَّت، وهم أن يقبلها وتراجع خوفا عليها من نفسه الحار فاكتمى بأن يقبلها سرا في ضميره. وكان يعيل إلى الجنس والتلاعب به حتى في الحب وفي القوافي كقوله:

إن كُتِمْتُ الهوى فقد صار سِرِّي علانيه
لسقامِ أذابنى وشحوبِ علانيه

فلم تعد هناك فائنة من كتمانِه، فقد أصبح سره فيه ذائعا ومعروفا لسقامه وشحوبه الذى علاه، وكان يعرف كيف ينفذ إلى مثل هذا الجنس في قافية البيتين بخفة، مما يدل على قدرة شاعرية بديعة، مع ما يمتاز به شعره من طرافة الأخيلة وحلاوة الموسيقى.

أحمد^(١) اللباني

هو أحمد بن إبراهيم القيسى المشهور باسم اللباني نسبة إلى قرية تسمى لليانة بالقرب من المهديّة، وقد نهل من حلقات شيوخها وأعلام أدبائها. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة فغادر المهديّة إلى تونس، واختلط برجال الدولة، وطمحت نفسه إلى الثراء، فعمل في التجارة وكون بينه وبين تجار جنوة ومرسيلية علاقات تجارية أترى منها ثراء طائلا، وأوغر حساده صدر المستنصر عليه، فكان ذلك سببا في مصادرتِه وإهدار دمه سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م وله أشعار غزلية بديعة، منها قوله:

هذا العَذِيبُ وهذه نَجْدُ أين الذى يَقْضِي به الوجودُ
ما هكذا حالُ المحبِّ إذا أعلامُ رُبْعِ حبيبِه تَبْدُو
سَرَّحَ دموعَ العينِ مُتَبَدِّرا وبذكرِ ماضى عهدهم فاشدُّ
والثَمَّ على شَغَفِ مواطنهم إن عاقَ عن مقْصودك البعدُ

(١) انظر في ترجمة اللباني الملل السندسية ٥٠١٢

ومجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٩٥.

ولعل ما نرجو تجود به كف الزمان وسعد الجَد

وهو يعجب فهذه ديار المحبوبة: العذيب ونجد، وهو لا يزال يبكي، وأن له أن يكف عن بكائه، فتلك أعلام ربح محبوته تيدو، فعق له أن يسرح دموع العين ويشدو بذكر الماضي من عهد الأحبة، بل إنه ليدعو المحب إلى لثم مواطئ أقدامهم إن عاقه عنهم البعد ولم يستطع سريعا لقاءهم، ويأمل أن تجود له كف الزمان بأمنيته ويساعده الحظ في نيلها. ويقول متغزلا:

خَلِّاني يا صاحبي وَنَجِّدَا هِجْتُمَا بِالْمَلَامِ شَوْقًا وَوَجِدَا
فَلْيَنْجِدْ بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَدُّ مَسْتَجِدُّ مَا دَامَ رَبُّمَا لُسْعَدَى
لَا تَقُولُوا مَرَامُ سَعْدَى بَعِيدُ رَبُّ سَعْدَى أَنِّي فَقَرَّبُ بَعِيدَا
أَهْلٌ وَدَى مَا حُلْتُ عَنْ حَفِظِ عَهْدِي وَهَوَاكُم مَّا غَيَّرَ النَّأْيُ عَهْدَا^(١)

وهو يطلب إلى صاحبيه أن يدعاه ونجدا ويكفًا عن لومها فإنه كالريح تزيد نار زده المستكنة بين جوانحه اشتعالا بتملقه بسعدى، ولا نقولا إن ربح سعدى بعيد، قرب سعد حدث فقرب الربع والديار، وبلغت إلى سعدى قاتلا لها إنه لا يزال على العهد ويقسم لها بحبها ما غير العباد له عهدا ولاحبا. ويلومه عذول في تعلقه بمحبوبته تعلقا مسرفا، فيقول له:

رُدُّ لِي قَلْبِي لَتَعَذَّلْ فَهوَ فِي كَفِّهِ أَجْمَعُ
لَفِظُهُ دُرٌّ يُسَاقُطُهُ وَنَطَاقُ السَّمْعِ يَجْمَعُهُ

فقلبه ليس معه ليعذله، بل هو مع صاحبه، وإنه ليرأى له جمال لفظها وهي تنثره دررا ونطاق سمعه يجمعها دررا وراء درر. ولعل في ذلك كله ما يصور افتتانه في غزله ورقته.

محمد^(٢) ماضور

من أسرة فاضلة من الأسر الأندلسية التي نزلت الإقليم التونسي في القرن الحادى عشر الهجرى واستقرت ببلدة سليمان، منشئة فيها كثيرا من البساتين وحقول الحبوب المتنوعة، وولد بتلك البلدة محمد لأبيه محمد ماضور أحد علمائها الأفاضل سنة ١١٥٠ هـ/١٧٣٧ م وفيها منشؤه ومرباه على أبيه وعلمائها حتى إذا أصبح شابا تحول إلى تونس وجامعتها الزيتونة، فنهل من حلقات علمائها، وأعجبهم فيه ذكائه، فأسندوا إليه - حين استكمل دراسته - الدرس للطلاب بتلك الجامعة، وعاد إلى بلدته «سليمان» إماما وخطيبا بجامعها، حتى إذا توفي أبوه حل محله في

(١) حلت: تغيرت. النأي: البعد.

(٢) انظر في ترجمة محمد ماضور بمجلد تاريخ العهد الحسينى للهادى القزى ص ١٠٤.

منصب القضاء ببلدته، وظل يلبه إلى وفاته سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م.

وكانت موهبة محمد ماضور الشعرية قد تفتحت مبكرة، فُعرف بين الشعراء والأدباء برقة أشعاره، وقد خلف ديوانا لا يزال مخطوطا، ومعظمه غزل ينبت عن حس مرهف، من مثل قوله:

إلى كم تجسورُ ولا تنصفُ وتهجرُ تيهًا ولا تمصفُ
وحتى متى الهجرُ لا ينقضي وإخلافُ وعدك لا يُخلفُ
وقد عيلَ صبري وشقَّ الهوى على وبي ربحه تعصفُ
وأسرُّ الهوى لجُي للثوى وقلبي بنيرانه يـرجفُ^(١)
ولبُّ سَهَا واصطبارُ وهى وشوقُ كَهَى القلبِ لا يُصرفُ

وهو يقول إن صاحبه نظلمه ولا تنصفه فدانا تهجره ودانا تخلف وعدها له، حتى نفذ صبره، وشوقه ينتقد في فؤاده وإنه لأسير الهوى ويكاد يتلفه، بينا قلبه يتلظى بنيرانه، وقد سها ليه ووهى منه اصطباره، وشوقه لا يريم. ويقول:

يا ظبيةً أشعلت في القلب نيرانا وخلفتني مع الأشواق حيرانا
صبري ودمعي لما حملت من شغفي هذا تلاشى وهذا صار غدرانا
يا شمسَ حُسنٍ تبتت في ملاحظتها هلا قرنتِ بذاك الحُسنِ إحسانا
ما إن ذكرتُك إلا صرتُ من طربٍ من طيب ذكراك ولهاننا ونشوانا

فصاحبه أشعلت في قلبه نيرانا لا تنطفئ أبداً، وقد تلاشى صبره وذرف الدمع مدرارا حتى ليستحيل غدراننا، ويستعطفها بحسنها الفاتن أن تقرن به إحسانا إليه ومودة، ويترف بأنه أصبح من طيب ذكراها مؤلما منتشيا. ويقول:

شوقي يزيد على طول المدى حُرقا يا ظبية الإنسان رفقا بالذي عَشِقا
فه ذاك المُحبِّا نورُ بهجته يَغشى سَنَا القمر الساري إذا انسقا
يهواك لُبِّي وقلبي مَعَ جِوانحه كذاك سمعي وطرفي كلما رَمَقا

وهو يقول لصاحبه إن قلبه يزداد مع الزمن حرقا ولوعات مضنية، ويتوسل إليها أن ترفق بعاشقها، ويتولاه العجب لجمال وجهها وينخيل كأنما القمر يستمد سناه وضوءه في ليلة اكتماله من نوره البهيج. ويقول لها إن كل ما فيه يوها، يوهاا ليه وقلبه وجوانحه وسمعه وبصره.

الفضل تحت مس طوائف من الشعراء

١

شعراء الغربة والشكوى والعتاب

كان كثير من سكان الإقليم التونسي يرحلون عن ديارهم إما طلباً للكسب وابتغاء الرزق وإما طلباً للعلم وابتغاء التعمق فيه وإما طلباً للجهاد في صقلية أو في الأندلس وابتغاء الاستشهاد في سبيل الله، ومن غادر القيروان إلى مجاهد صاحب دانية في شرقي الأندلس (٤٠٥-٤٣٦هـ) للجهاد ضد نصارى الشمال، ابن الصفار السوسي، وحين دخل عليه مدحه بقصيدة يائية حكى في فاتحتها حوار زوجته معه وقولها له: لمن تتركني وتترك أطفالك يقول^(١):

| | |
|--|---|
| بَكَتْ وَشَكَتْ وَاسْتَرْجَعَتْ وَتَوَجَّعَتْ | فَطَلْتُ لَهَا مُسْتَرْجِعًا مُنَاكِبًا |
| وَقَالَتْ أَمَا تَنْهَاكَ أَنْ تَذْكُرَ التَّوَيَّ | نَهَى قَدْ نَهَتْ عَنْكَ الصَّبَا وَالتَّصَابِيَا |
| وَمَنْ لَصْفَارٍ مِنْ عِيَالٍ تَرَكْتَهُمْ | كَزُغِبِ الْقَطَا يَهْجُونَ طُعْمًا وَسَاقِيَا |
| وَلَنْ يَجِدُوا لِلْعَيْشِ بِعَدِكَ لَذَّةً | وَلَنْ يَشْرَبُوا مِنْ بِعَدِكَ الْمَاءِ صَافِيَا |
| فَقُلْتُ لَهَا إِنْ الَّذِي لَيْسَ غَيْرُهُ | إِنَّهُ كَفَاهُمْ حَافِظًا وَمُصْرَاعِيَا |

وهو يصور ساعة الوداع لزوجته وصفاره وهي تبكى وتتوجع، وهو يبكي، ويقول له ألم ينك عقلك الذي طالما نهاك عن الصبا والتصابي. وتستعطفه بصغار في المهد كزغب القطا لم ينبت بعد ريشهم، ولن يطيب لهم عيش بدونه، غير أن نداء الجهاد كان أقوى من نداء الأطفال فقال لها إنى تركتهم لربي الكافي الحافظ الراعى. وكان شباب القيروان وغيرها من مدن تونس لا يزال يعدّ حقائبه للترحال إلى المشرق للنهل من أساتذته في مصر والحجاز والشام والعراق ولم يكن آباؤهم يقفون حجر عثرة في طريقهم بل كانوا يشجعونهم للنهوض بهذه الرحلات العلمية، رغم ما يشعرون به من فقدهم وما يطوى في ذلك من شوق وحنين، ومن خير ما يصور ذلك قول علي الناسخ مخاطب ابنه وقد سافر إلى مصر وهو صغير السن ابتغاء العلم^(٢):

(٢) الأنموذج ص ٢٦٢.

(١) الأنموذج ص ٢٦٦.

يادهِرُ مالِكَ لاَ تَرْمِي لِمَكْتَبٍ
 لَمْ يَكْفِ صَرْفَكَ صَرْفِي عَنْ ذَوِي ثَقْتِي
 ابْنُ وَكَانَ آبَا لِي فِي مَحَبَّتِهِ
 أَمْسَيْتُ فِي وَطَنِي فِي مِثْلِ غُرْبَتِهِ
 وَاقِهِ يَأُولَدِي الْمَجْنُوبُ مِنْ كَيْدِي
 فَمَا الْحَيَاةُ إِلَى نَفْسِي بِمُعْجِزَةٍ
 مَا بَاتَ مِنْكَ خَلِيًّا قَطُّ مِنْ كُرْبٍ
 حَتَّى تَعْقَبَ بِالتَّفْرِيقِ فِي عَيْبِي^(١)
 أَمْسَى بِأَرْضِ الْفَلَا فَرْدًا بِغَيْرِابٍ
 يَا مَنْ لِمَغْتَرِبٍ بِمَاكِ لِمُغْتَرِبٍ
 لِلرَّأْيِ ذَاكَ وَإِنْ أَمْسَى بِهِ عَطْيِي
 إِنْ لَمْ تَجْزِ بِي أَعْلَى السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

وهو يعتب على الدهر أنه لا يبيت يوما خاليا من إحدى كربه وأنه لم يكف نوابه صرفه عن ثقائه حتى تعقبته في ابنه البار به فحرمته منه وكأنما ألفت به في فلاة دون أب يرعاه، ويشعر بفراق ابنه له كأنه أسمى غريبا في وطنه، وكأن مغتربا ييكي بدموع غزار مغتربا، ويتماسك الأب، أمام فلذة كبده، فيقول له إن رأيك في الرحلة هو الصواب وإن كان فيه عطبي وتلفي، ويضع نصب عينيه طموحه الهائل، فالحياة لا تعجبه ولا ترضيه إلا إذا تعدت به أعلى الشهب السيارة الساطعة، ويعلق ابن رشيق على أبيات هذا الشاعر فيقول: «هذا كلام يظهر عليه التوجع والتفجع، وتشوبه رافة الإشتاق، ورقة الاشتياق، حتى تدر عليه الجفون بحلب الشنون (الدموع)، وليس يخفى على أحد ممن يعرف الكلام حسن هذا التخريج والتلطف في الاعتذار عما فعل الغلام، وإن هذا الشعر ليهون رزية من أصابه مثل هذا المصاب في ولده، حتى يسهل على الآباء فقد الأبناء ويحسر الغلمان على مفارقة الأوطان». وعن تلهفوا على وطنهم تلهفا شديدا زمن الدولة الصنهاجية ابن عبدون الوراق السوسي، وستخصه بكلمة. ولعل الحصري الشاعر المبدع قطعة يتشوق فيها إلى القيروان ونونس حين إقامته بالأندلس، وهو فيها محزون حزنا شديدا وفيها يقول^(٢):

عَلَى الْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَإِنْ عَفَّتِ الدَّارُ
 وَحَقُّ بَكَاءِ الْعَيْنِ وَالْقَلْبُ مُسْعِدُ
 شَفَى اللَّهُ دَاءَ الْقَيْرَوَانِيِّ بَعْدَنَا
 وَكَيْفَ غِنَاءُ الطَّيْرِ فِي غَيْرِ أَيْكَمَا
 أَلَا يَا بَرَوْقًا لُحْنٌ مِنْ نَحْوِ صَبْرَةٍ
 عَسَى فِيكَ مِنْ مَاءِ الْعَيْنَيَاتِ شَرِبَةٌ
 سَلَامٌ غَرِيبٍ لَا يَشُوبُ فَيُزْدَارُ
 لِمَنْ بَاتَ مِثْلِي لَا حَبِيبٌ وَلَا جَارُ
 فَقَدْ مَرَضْتُ لِلْقَيْرَوَانِيِّنِ أَبْصَارُ
 وَقَدْ بَعُدْتُ مِنْهَا فِرَاحُ وَأَوْكَارُ
 وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا دُمُوعِي أَمْطَارُ
 وَلَوْ مِثْلَ مَا يُوعَى مِنَ الْمَاءِ يَنْقَارُ

وهو يحیی العدة القصوى: القيروان وديارها ويصرح بأنه يانس من العودة بعد أن أنزل بها

أعراب سليم وهلال الدمار، وإنه ليكي بكاء لا ينقطع للوطن وما صار إليه من الوحدة الموحشة فلا حبيب ولا جار، ويدعو للقيروانيين: القيروان وتونس أو القيروان وصيرة المذكورة في الأبيات وكانت بلدة كبيرة قريبة منها، يدعو لها أن يزايها ما غشى الأبصار فيها من مرض الهمم والتخريب. ويوجب أن تغفى الطير في غير أيكها وقد بدت عنها أوكارها وفراخها الصغار، إنه وأمثاله من شعراء العتوة القصوى لا يستطيعون الغناء إلا أن يكون بكاء وأنينا. وتلوح له بروق من نحو صيرة وهي بروق خلب، ليس فيها أمطار إلا دموعه، ويتمنى جرعة ماء من حنيات تونس ولو قدر ما يحمل منقار طير من الماء حتى يشفى به أو صاب نفسه وفؤاده. ويقول الشاعر الحفصى ابن عُرَيْبٍ يشوق إلى المهدي وأهله بها^(١):

أَقُولُ لِرَكْبٍ قَافِلٍ عَنْ مَعْرُسٍ بِجَمَّةٍ تَرْدِي بِالْحَمُولِ مَشَاجِئُ^(٢)
لَكَ اللَّهُ أَمْتَعْنَا عَنِ الْبِلَدِ الَّذِي أَكَابِرُهُ أَسْلَفْنَا وَأَبَالِجُهُ^(٣)
وَعَنْ وَطَنِ لَوْلَا الْعَلَا وَطِلَابُهَا لَعَزُّ عَلَى مَثَوَايَ أَنِّي خَارِجُهُ
وَشَاطِئُهُ أَنِّي تَسْوَعُ حَسْنُهُ وَخَضْرِيهِ أَنِّي تَدْفَعُ مَائِجُهُ
سَلَامٌ عَلَى الْمَهْدِيَّتَيْنِ فَفِيهِمَا أَبُ بَنَتْ عَنْهُ قَاصِرُ الْخَطُو هَادِجُهُ^(٤)

وهو يقول لركب راجع من منزله آخر الليل بجمة جارة المهدي، وبغاله تضرب الأرض بحوافرها لتقل ما تحمله: لك الله أمتعنا عن البلد الذي يتميز رجاله ببلج وجوهم وطلاقتها وبشرها، وحدتنا عن هذا الوطن الذي اضطربنا إلى تركه في طلب العلا وعن شاطئه المتنوع الحسن وخضرمه أو بحرته الذي تتدافع أمواجه. ويهدي المهدي وأختها (صيرة) سلامه، ففيها أبوه الذي تركه واهن العظم قاصر الخطو يتهدج في شبيه مرتعشا، وإنه ليمتلئ عليه برا وشفقة. ويقول حمودة بن عبد العزيز أحد رجالات الدولة الحسينية المتوفى سنة ١٢٠٢ هـ/١٧٨٨ م متشوقا في الغربة إلى أهله بتونس^(٥):

مَلَّتْ دَهْرِي وَمَلَّتْنِي حَوَادِثُهُ فَبَعْدَكُمْ لَيْسَ لِي فِي الْفَيْشِ مِنْ أَرْبٍ
لَهْفِي عَلَى زَمَنِ لَابِلٍ عَلَى سَكَنِ عَهْدْتُهُمْ مَتْنِي الْأَمَالِ وَالطَّلَبِ
كَمْ لَيْلَةٍ بَعْدَهُمْ قَدْ بَتُّ أَسْهَرَهَا أَشَابَتِ الرَّأْسَ مِنِّي وَهْنِي لَمْ تَشِبْ
كَأَنَّ أَفْلَاكَهَا مِنْ طَوْلٍ مَا انْقَلَبَتْ أَلْقَتْ عَصَاهَا لِمَا لَاقَتْ مِنَ التَّمِبِ

(٣) أبالجه جمع أبلج: الناضر وجهه بشرا.
(٤) الهادج: الماشي متقللا في ضعف وارتعاش.
(٥) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٢٥٨.

(١) المحلل السندسية ٥٠٥/٢ ومجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٩٧.
(٢) تردى: تضرب الأرض بالحوافر. المشاجع: الهلال

وهو يقول إنه ملّ دهره وما تقلب فيه من أحداث السياسة حتى لم يعد له بعد أهله في العيش من أرب. ويذكر أيام أن كان يقضى زمنه مع أهله وهم كل مناه من دنياه، وقد أصبح بعدهم يعيش مسهدا مفكرا فيها بِلْتَه به الليلي، ويتخيل كأن أفلاكها من طول ما سارت أَلَقَتْ عصاها واستراحت لا تبرح ولا تريم لشدة ما عانت من التعب والمشقة. وحرى بي في ختام حديثي عن الغربة وتشوق القيروانيين والتونسيين فيها إلى ديارهم أن أشير إلى أنهم كثيرا ما تشوقوا إلى الديار التي بارحوها إلى وطنهم، ومن أهم الأقطار التي كانت تملأ نفوسهم بها صباية بما تمتعوا به فيها ويمتازها الطبيعية الفاتنة مصر، وكان الكاتب الرقيق الذي مرت ترجمته كثيرا ما يكلفه حكام الدولة الصنهاجية سفارات إليها، وله رائية يتشوق فيها إليها وإلى ساكنيها أشاذ بها ياقوت في ترجمته، وأهم منها قصيدة لأبي الفضل يوسف بن محمد المعروف باسم ابن النحوى، وكان قد حج، وفي رجوعه افتتن بمصر وبنيلها وطبيعتها فنظم تلك القصيدة يصور تشوقه إلى ديارها ومشاهدها الفاتنة وفيها يقول^(١):

حَدَّثَانِي عَنْ نَيْلٍ مِصْرَ فَإِنِّي مِنْذُ فَارَقْتُهُ إِلَى الْمَاءِ صَادِي
وَالرِّيَاضِ الَّتِي عَلَى جَانِبِيهِ وَاجْعَلَاءَ مِنَ الْأَحَادِيثِ زَادِي
إِنْ مِصْرًا هَا مَعَانٍ لِعَمْرِي قَدْ تَأَثَّرْتُ عَلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ
هَذِهِ الْأَرْضُ إِنَّمَا هِيَ نَادٍ مِصْرُ مِنْ بَيْنِهَا سِرَاجُ النَّادِي

وهو منذ فارق مصر ونيلها الكوثر - كما يقول شوقي - ظامئ إلى جرعة ماء منها، وقد خلبت رياضها وورودها ورياحيتها، ويقول إن مصر حظيت بجمان ومشاهد لم تحظ بها سائر البلاد، ويتصور المعمورة جميعها ناديا ومصر سراج النادي. وهي تحية كريمة لمصر من تونسى يوثق العلاقة بين الشعبين من قديم.

وتكثر الشكوى على ألسنة القيروانيين والتونسيين، مثلهم في ذلك مثل إلداتهم من شعراء الأقاليم العربية، فهم يشكون مثلهم من الدهر وما يصيبهم من بلائه وأرزائه، ويشكون من الإخوان أنانيتهم وعدم وفائهم، ومن طريف شكواهم من الدهر وصروفه ونوائيه قول إبراهيم المصري صاحب «زهر الآداب» وغيره من التأليف الرائعة والتصانيف الفائقة كما يقول ابن^(٢) بسام:

تَلَاخِظُنِي صُرُوفُ الدَّهْرِ شَرْزَا كَأَنَّ عَلِيَّ لَلْأَيَّامِ وَتَرَا
وَفِي عَيْنِي دُمُوعٌ لَيْسَ تَرَقَّا^(٣) وَفِي قَلْبِي صُدُوعٌ لَيْسَ تَبْرَا

(٢) الذخيرة القسم الرابع ص ٥٩٤

(٣) رقا للدمع: جف بعد جربانه.

(١) الحريدة (قسم شعراء المغرب - طبع تونس)

أَقْلَبُ فِي الدُّجَى طَرْفًا كَلِيلًا إِذَا جَبَّ السَّظْلَامُ عَلَى زُرٍّ
وَلَوْ نُشِرَ الذِّي أُطْوِيَ عَلَيْهِ عَلَى مِنْ تَحْتَوِيهِ الْأَرْضُ طُرًّا
أَصَمُّ مَسَامِعِ الدُّنْيَا عَوِيلًا وَهَزَّ جَوَانِحَ الْأَيَّامِ دُغْرًا

وهو يشكو شكوى مرة من صروف الدهر وكيف أنها تنتظر إليه غاضبة كأن لها عنده ثأرا وما تزال التوائب تنزل به وما تزال دموعه لا تحف أبدا، وقد تصدع قلبه، ولا يبرأ من صدوعه أبدا، وأف لليل، فإنه لا يزال مسهدا فيه كلما زُر عليه رداء الظلام، ويقول إن ما يطوى عليه من المعلوم لو وزع على جميع من تحتويم الأرض من الأنعام لأصموا مسامع الدنيا عويلا وأنيئا ولمزوا ضلوع الأيام دغرا وفزعا ما بعده فزع. ويقول تميم بن المعز شاكيا من الزمان وأرزائه^(١):

وَذِي عَجَبٍ مِنْ طَوْلِ صَبْرِي عَلَى الَّذِي أَلْقَى مِنَ الْأَرْزَاءِ وَهُوَ جَلِيلُ
يَقُولُونَ مَا تَشْكُو فَقُلْتُ مَتَى شَكَا شَبَا السَّيْفِ عَضْبُ الشُّفْرَتَيْنِ صَقِيلُ^(٢)
وَإِنْ امْرَأًا يَشْكُو إِلَى غَيْرِ نَافِعٍ وَيَسْخُو بِمَا فِي نَفْسِهِ لَجَهْلٍ
عَذَابِي أَنْ أَشْكُو إِلَى النَّاسِ أَنْتَى عَلِيلُ وَمَنْ أَشْكُو إِلَيْهِ عَلِيلُ

وهو يقول إن الناس يتعجبون من طول صبري على ما يصيبني من الرزايا والمصائب العظيمة، ويسألونني متى تشكو، وأجبتهم هل يشكو حد السيف القاطع، ولن أشكو؟ إن من يشكو إلى من لا يستطيع نفعه ويُسِرَّ إليه بما في نفسه دون فائدة لجهول بالناس وحقاتقهم، وإنه ليعذبني أن أشكو إلى الناس أنتى عليل ومن أشكو إليه مثل عليل ويقول ابن خلدون في شكوى الزمان^(٣):

إِلَى مَنْ مَقَامِي حَيْثُ لَمْ تَرِدِ الْعُلَا مُرَادِي وَلَمْ تُعْطِ الْقِيَادَ ذُلُولُ
وَيَذْهَبُ لِي مَا بَيْنَ يَأْسٍ وَمَطْعَمٍ زَمَانُ بَيْنِ الْمَعْلُوباتِ بِخِيلِ^(٤)
أَمَا لِلْيَالِي أَنْ تَرُدَّ خَطُوبَهَا فَنِي كِبْدِي مِنْ وَقْعِهَا قُلُولُ
يَرُوعُنِي عَنْ صَرْفِهَا كُلِّ حَادِثٍ تَكَادُ لَهُ صُمُ الصَّلَادِ نَزُولُ^(٥)

وحق ابن خلدون يشكو من أن العلا لا تعطيه ما يريد وأنه لا يجد في دنياه ذلولا تعطيه القيادة، ولا يزال بين يأس ومطعم أو أمل، والزمان بخيل المعلوبات ويقول أما أن ليالي

(١) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ١٦٩.

(٤) المطويات: المال.

(٥) الصلاد جمع صلد: الصخرة الصلبة.

(٢) شبا السيف: حد طرفه. عضب: قاطع.

(٣) نفس المصدر ص ٢١٨.

أن تردّ خطوبها وكوارثها عنه وإن فلولها وشررها ليتضحان في كبده، وإن كثيرا من الأحداث لينزل به مما تكاد يتشقق له الصخر الصلب. ويقول ابن سعيد الجعري في العهد الحسيني المتوفى سنة ١٧٨٥ للميلاد^(١):

يطول علىّ الليلُ حتى كأنما ليالي من قرط الجوى ليلة الحشر
ويزعجني الإصباحُ حتى كأنما نهاري سيفٌ سلّ من حيث لا أدري
خليلِي إن الدهر أبدى إساءتي وأظهر ما قد كان أضمر من مكري
وما ضرّ مثلي أن تلظى بناره وهل ضرّ إبريّا تلظىه بالجبر

فليله يطول عليه من فرط الوجد حتى كأنه ليلة الحشر، ويزعجه الصباح حتى كأنما سيف نهاره سلّ عليه من حيث لا يدري. ومخاطب صاحبيه، فالدهر قد أظهر ما كان يضمر من مكروء وأساء إليه إساءة بالغة، وبتماسك، وبجمع إرادته، ويعلن أنه لن يضمره التلظى بناره، وهل يضمر الذهب الخالص التلظى بالجمر وطيهه ١٢

وعلى نحو ما أكثر القبروانيون والتونسيون من الشكوى سواء من الدهر أو من الناس أكثروا من العتاب وما قد يجر إليه من الاستعطاف، وهما باهان قديمان في الشعر العربي، ومن طريف ما للفرّاز من عتاب لأحد أصدقائه وكان قد أولم وليمة في ختان لابنه وابن أخيه ولم يدعه سهواً^(٢):

واحسرتا مات أترابي وأقراني وشئت الدهرُ أصحابي وأخذاني
وغيّرتُ غيرُ الأيام خالِصتي والمنتضى الحرُّ من أهلي وإخواني
وصار من كنت في السراء أذكره بل لست أنساه في الضراء ينساني

وهو يتحسر على أصدقائه جميعا، إذ غيّرت الحوادث أخلصهم وأصفاهم وأعزهم، وصار من كان يذكره في السراء ولا ينساه في الضراء ينساه كأن لم يكن بينهم ود ولا صداقة. ومن طريف ما نقرؤه من عتاب في عصر الدولة الصنهاجية عتاب خديجة بنت أحمد بن كلثوم المعافري لأخيها، وكانت شاعرة مجيدة وأعجبت بشاعر أندلسي نزل بديارها، وشبّب بها، فغار لذلك إخوتها فكتبت إلى كبيرهم^(٣):

أخى الكبيرُ وسيدى ورنيسى ما بال حظي منك حظٌ نجيس

(١) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ٢٥٦. (٢) الأغودج ص ١٢٤ والخريدة ١/٣٢٧.

(٢) الأغودج ص ٣٨.

أبى رضاك بطاعةٍ مقرونةً عندى بطاعة ربى القدوس
 فإذا زللتُ وجدت حلمك ضيقاً عن زلتى أبداً لفرط نحوس
 يا سيدي ما هكذا حكمُ النهى حق الرئيس الرفق بالمرموس
 وإذا رضيت لى الهوان رضيتُ وجعلتُ ثوبَ الذل خير لبوس

وخديجة تعاتب أخاها عتاباً رقيقاً فهو أخوها وسيدها ورئيسها وتشكو من حظها السيء معه، مع أنها تبغى رضا وتطيعه طاعتها لربها القدوس، فإذا ودّت شاعرا وجدت حلمه لا يسمع ودّها ولا يغفره لها لفرط نحوسها، وتستعطفه فليس هذا حكم العقل ولا حق المرموس على الرئيس من الرفق، وتحاول أن تغيل قلبه إليها، فإذا كان قد رضى لها الهوان رضيته ولم تخلع عنها ثوب الذل يوما. والقطعة رقيقة تنتهى الرقة. وخديجة بجانب زينب التيجانية الشاعرة التى مر ذكرها فى الحديث عن الغزل رمزان قويان لمشاركة نساء القيروان وتونس فى الحركة الأدبية بالمصور الماضية. ويقول ابن رضى معاتباً^(١):

أجذك لم أجد للصبر باباً فتدخله على سمية وضيق
 وإن أُصبر فغن إفراط جُهدٍ وإن ألقى فحشبك من قلوب
 سأعرض عنك إعراضاً جميلاً وأبدي صفحة الوجه الطليق
 ولا ألقاك إلا عن تلاقٍ بهيئ المهد بالذكرى سحيق

فقد أعتته صديقه حتى لم يعد يجد للصبر باباً، ومع ذلك إن استطاع يوماً الصبر فغن فرط جهده، وحرى به أن يقلق أشد القلق، ويقول له سأعرض عنك إعراضاً جميلاً، وسألقاك بوجه بشوش حين يتصادف اللقاء، وقد بعد المهد بالذكرى بعداً شديداً. ويقول على الحصرى معاتباً بعض خلانته^(٢):

بَرِمْتُ بما ألقاه ممن أواقُ وأوذيتُ حتى لأرى من أصادقُ^(٣)
 إذا ما امرؤ أصفيتهُ الودَّ وانقا يخلته لم تصف منه الخلائقُ^(٤)
 فيا ليت شعرى هل إلى الناس كلهم أنا مذنبٌ أم ليس فيهم موافقُ
 فلا أنا مسرورٌ بمن هو واصلى جذارا ولا آسى على من أفارق
 وإنى لمن يبغي انتقامى لقامُ وإنى لمن يبنى ودادى لوامقُ

(٣) أواق: أتبادل معه الود.

(٤) خلته: صداقته.

(١) النموذج ص ٤٤١.

(٢) المجلد فى تاريخ الأدب التونسى ص ١٦٠.

وعلى المصري متبرم بأصدقائه لما يلتقى من أذاهم، وقد يظن بشخص خيرا فيصفيه الود لما رأى من بعض صفاته، حتى إذا اختبره وجد أخلاقه كدرة غير صافية، ويعجب هل أساء إلى الناس جميعا حتى لا يجد بينهم صديقا موافقا، وجعله ذلك لا يُسرَّ بن يحاول صداقته ولا يأسى على من ينتقضا نقضا، ويعود فيقول إنه يقمع ويقهر كل من يحاول انتقاصه، وأما من يد له يد الوداد فإنه يصبح وامقا له ومحبا. ويلقانا عتاب غنيف بين وزير المستنصر الجفصى محمد بن أبي الحسين وشيخ قبيلة سليم: عنان بن جابر، وسنخصه بكلمة، ويرسل شاعر العصر الحسيني الأول على الغراب الصفاقي بقطوعة شعرية لحمد بن كمون يعاتبه لإبطائه في كتابة عقد له^(١):

يا أبا عبد الله حَتَامَ أسمى لَكَ فيما أرومُ شهرا فشهرًا
هل لهذا الوقوفِ منك وجريي غايةُ ينتهى لها الجريُّ أخرى
ما أرى فى قضاءٍ ما رُمْتُ عُسرا ولئن كان، إن للفسرِ يُسرًا
ليت شعري أفي وقوفك هذا طولَ جرى تروم أم رُمْتُ أجرا

وهو يعتب على الكموني أنه دائم السعى له والإلحاح عليه لا يوما بعد يوم بل شهرا بعد شهر ليكتب له العقد، والكموني يسوف ويماطل، ويقول له ليس فيها أريد عشر، وإن كان فإن للفسر يسرا، ويسأله هل تريد منى طول جرى لمزيد من الإلحاح أو تريد منى مزيدا من الأجر. وحرى بنا الآن أن نتوقف لنخص شاعر الغربة ابن عبدون بكلمة، وبالمثل شاعر العتاب الغاضب: ابن أبي الحسين.

ابن^(٢) عبدون

هو محمد بن عبدون الوراق من أهل مدينة سوسة على ساحل البحر، وينوّه ابن رشيق بشعره قائلا إنه «شاعر وطىء الكلام، كلف بعذوبة اللفظ والتسلل إلى المعنى البعيد بلطافة وسكون جاش». وحدث أن توفيت زوجته وابنه في آن واحد، ففارق بلدته «سوسة» في سنة ٣٩٣ للهجرة ورحل إلى جزيرة صقلية ونزل على أميرها ثقة الدولة يوسف بن عبد الله ومدحه، وكان قد أناب عنه في الحكم ابنه جعفرًا منذ سنة ٣٨٨ لإصابته بالفالج، فالحقه بابنه، فأدناه وقربه، غير أنه سرعان ما حنَّ إلى بلده، فرفع إلى جعفر قصيدة يسأله فيها الرجوع إلى وطنه، وصور مدى رغبته في ذلك من خلال تشوقه إلى رؤية قصر طارق وكان يباطا بقرب سوسة، له

(١) الديوان ص ٣١٠. والحلل السندسية ٣٠٧/٢ والمجلد في تاريخ الأدب

(٢) انظر في ترجمة ابن عبدون الأنموذج ص ٣٩٠ التوسى ص ١٠٨.

برج شديد العلو، ويصور حينها متأججا في صدره إلى سكانه قائلا:

يا قَصْرَ طَارِقِ الذِي طَرَقْتُ أَحْسَأَى فِيهِ بِلَابِلُ الصَّنِيرِ
وَأَقِهَ مَا قَصَّرْتُ عَنْ تَلْفٍ لَكِنِّي قَصَّرْتُ بِالْقَسْرِ
فَسَاكَ مُنْهَلُ الْحَيَا وَسَقَى غَصْرًا تَقْضَى فِيكَ مِنْ عَصْرِ
أَعْطَى عَهْدَهُ أَفَقَةً مَنْ أَعْطَى الْعَهْدَ بِجَانِبِ الْحَجْرِ
لَوْ أَسْتَطِيعُ سَبَحْتُ مِنْ طَرَبٍ شَوْقًا إِلَيْكَ سَوَادَ ذَا الْهَجْرِ

وهو يهتف بقصر طارق المجاور لمدينته سوسة وما يثير في صدره من شجون، ويقول إنه لم يقصر إزاءه عن تلف وإنما قصر قسراً وجبراً، ويدعو له ولأيامه الخوالي فيه بالسقيا، ويعاهده عهد حجاج بيت الله الحرام عند الحجر أو الحطيم بجانب الكعبة المقدسة أنه لو استطاع لسبع إليه سواد البحر المتلاطم بين صقلية سوسة. ويقول ابن رشيق تعليقا على هذه المقطوعة: «رقة الشوق ظاهرة على هذا الشعر ولطف الحضارة مع مياه تكاد تنبع من جانبه، فهو أندى من الزهر، غب القطر، وأحلى من الوصل بعد الهجر». ولما سمع جعفر بن ثقة الدولة هذه الأبيات ازداد به إعجابا وفيه ضئانة، فمنعه من السفر، فكتب ابن عبدون إلى أبيه ثقة الدولة يسأله فيها سأل فيه ولده، ويشكر لما ناله لديهما من الجود، ويشوق إلى وطنه مجسداً شوقه في قصر طارق قائلا:

يا قَصْرَ طَارِقِ هُمِّيْ فِيكَ مَقْصُورُ شَوْقِي طَلَبُوقٍ وَخَطُوقِي عَنْكَ مَأْسُورُ
إِنْ نَامَ جَارُكَ إِنِّي سَاهِرٌ أَبَدًا أَهْكِ عَلَيْكَ وَهَاكِي الْبَيْنَ مَعْدُورُ
عِنْدِي مِنَ الْوَجْدِ مَا لَوْ فَاضَ مِنْ كَبْدِي إِلَيْكَ لَاحْتَرَقْتُ مِنْ حَوْلِكَ الدُّورُ
لَا هُمْ إِنْ الْجَوَى وَالْوَجْدُ قَدْ غَلَبَا صَهْرِي فَكُلُّ اصْطِبَارِي فِيهِمَا زُورُ

وهو يهتف بقصر طارق همة ويقول له إن شوقي لك حر طلبوق وخطوقى إليك مقيد مأسور، وإن نام جارك نوما هنيئا فإني أتهيج سهرًا مريراً أهكى فيه عليك بكاء لا ينقطع. ويذكر أن في كبده من لواجع الوجد ولبيه ما لو فاض على ما حول القصر من الدور لاحتترقت جميعا، ويفزع إلى ربه فإن ما يحمل من الجوى والوجد اللتاع قد غلبا صبره، ولم يعد يستطيع احتمالا لها. ومضى في القصيدة يمدح ثقة الدولة ولم يجد عنده - كما لم يجد عند ابنه جعفر - مأوله، فاضطر إلى أن يخرج من صقلية خفية دون علمها. وعاد إلى سوسة، وبها توفي حوالي سنة ٤٠٠ هـ/١٠١٠ م. وينشد له ابن رشيق مقطوعة بدئية في ملعب سوسة الروماني وفيها يتحدث عن شادوه وملكهم وجبوشهم، ويقول إن الأرض ضمتهم جميعاً:

طَحْنَهُم طَحْنُ الرَّحَا فَإِذَا الْإِنْسَانُ وَالْدَهْرُ صَخْرَةٌ وَزَجَاجٌ

فالناس جميعا يطحنون طحن الرحا، بل لكأن الدهر صخرة، وهو يطحنهم بل يفتتهم كأنهم زجاج لا يعاد له سبك.

محمد^(١) بن أبي الحسين

هو أبو عبد الله محمد بن أبي الحسين العنسي كان أحد الرجال ذكاء، وقر به منه أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية وابنه المستنصر. حتى كان كبير رجالاتهم ووزرائهم، وكان متفتتا في ضروب العلوم ومتعمقا في اللغة، وله معجم رتب فيه محكم ابن سيدة على نهج الصحاح للجوهري بحسب أواخر الكلم، واختصره في معجم سماه الخلاصة. وكان مع ذلك سيواسيا يحسن تدبير الدولة الحفصية ويقود جيوشها في المعارك الحربية، وما زال المستنصر حفيظا به إلى أن توفي سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م. وكان شاعرا مجيذا. وكان أبو زكريا يقرب منه شيوخ القبائل ومن بينهم عنان بن جابر زعيم عشائر مرداس من قبيلة بني سليم النازلين في قابس، وكانت له مكانة كبيرة عند أبي زكريا وصلات وعوائد. ويبدو أنه ظن به وبعشائر المرداسية بعض الظنون فأوقع بينها وبين قبيلة علاق ونسبت بينها معارك. وتنبه عنان بن جابر لصنيعه، فغضب غضبا شديدا، ورحل مع عشائره إلى بني هلال في الجزائر أو المغرب الأوسط، وعرف أبو زكريا خطأه فسأل وزيره ابن أبي لح ن أن يكتب إليه مسترضيا، وكان مما تبادل معه ابن أبي الحسين قصيدتان رائيتان، وابن أبي الحسين في قصيدته يعاتبه في شيء من اللين حينما وفي شيء من الجفاء حينما آخر، لعله يعود إلى صوابه ويرجع إلى موطنه، وله يقول مستطرذا من التشبيب إلى عتابه عتابا رفيقا:

يُخَصُّ بِهَا عَنِّي عِنَانُ بْنُ جَابِرٍ
فَكَيْفَ طَوَى كَشَعًا عَلَى نَفْسِ غَادِرٍ^(٢)
بِوَاطِنِ صُنَاهَا بِحِفْظِ الظَّوَاهِرِ
نَجَرُ بِهَا أَذْيَالُنَا جَرُّ سَادِرٍ^(٣)
عَلَى كُلِّ رِثَالٍ بِخَفَانٍ خَادِرٍ^(٤)

فَدُونَكُمْ يَا لِلرُّجَالِ تَحِيَّةٌ
فَقَى مَا دَعَتْهُ زُلَّةٌ فَأَجَابَهَا
وَقَدْ كَانَ بَيْنِي - يَا عِنَانُ - وَبَيْنَكُمْ
وَفِي كُلِّ عَامٍ كَانَ لِلْجَيْشِ وَقْعَةٌ
تَظَلُّلُنَا الرِّايَاتُ وَهِيَ خَوَافِقُ

(٢) طوى كشعا: أضرته.

(٣) سادر: لا يزال بشيء.

(٤) الرثال: الأسد والشجاع الجري. خفان:

مأسدة. خادر: مقيم.

(١) انظر في ترجمة محمد بن أبي الحسين القسم الثالث من كتاب ورفات عن الحضارة العربية بإفريقية ص ٧٥ وكذلك كتاب المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ١٩٩ ومنها تقتطف بعض أشعار ابن أبي الحسين.

وهو يخص عنان بن جابر بتحية يستحقها. إذ هو فقي عزيز شريف لم يستجب يوما إلى أى زلة تدعوه، ويعجب إذن كيف ولّى مفاضيا مطويا على القدر بدولته، ويحاول أن يجذبه إليه، بما كان بينها من صداقة ومن اشتراك في حرب أعداء الدولة سنويا جازين أذبال الخيلاء بانتصاراتهم غير مبالين بشيء، والرايات تظل متحركة أبطال جيشهم بل ليوته التي اندفعت من مأسدة خُفان المقيمة بها تريد أن تلتهم الأعداء التهاما، ويمضى ابن أبى الحسين معانبا لعنان:

أذكرُكَ العهدَ الذى كان بيننا وإن كنتَ عنه ساليا غيرَ ذاكرٍ
وكنْتَ تُجيرُ الناسَ فى خَيْرِ دولةٍ فأصبحتَ جارا فى هلالِ بنِ عامرٍ
وكنْتَ كُلِّيتِ القبابَ عِزًّا وَمُنْعَةً فصرتَ كأمثالِ الرِّثالِ النُّوافِرِ^(١)
وكنْتَ نزيلَ المُلْكِ تجنى ثمارَهُ أفانينَ من أَفنانِ رِيَّانٍ ناصِرٍ
وقد كُنْتَ تَلْقَى العِزَّ تحتَ ظلاله فها أنتَ تَلْقَى الذُّلَّ تحتَ الهواجرِ

وهو يذكره بما كان بينه وبين رجال الدولة الحفصية من عهد وميثاق، وكأنه نسيها نسيانا تاما، ويقرن حال العز القديمة لجابر بما صار إليه، فقد كان يجير الناس وأصبحت قبيلة هلال تحبسه، وكان كالأسد عزا ومنعة فصار مثل النعام المتناثر في البوادي وكان يجنى ألوانا من ثمار ملك وطيد ناضر، وكأنما يحاول أن يؤنبه، فيقول له إنك طالما تحمت بالعز في ظلال الملك الحفصي وها أنت تصطلي بالذل في هواجر المغرب الأوسط. ويعود إلى اللين مع عنان فيقول:

عزيرٌ علينا - يا عنانُ - ضلالةٌ حدث بك لا تلوى على زَجَرِ زاجرٍ
فديتُكَ لا تشترى الضلالةَ بالهدى فديتُكَ لا تشترى العمى بالبصائرِ
وما العَرَبُ العَرَباءُ إلا بعهدِها فمن كان أَوْفى كان أولَ فاخِرِ
هَذَتْكَ الهَوادى - يا عنانُ - وأمطرتُ ذَرَاكَ العَوادى بين يادٍ وحاضرِ^(٢)

وهو يتلطف له ذاكرا أن هجرته بعشائره كانت ضلالة لم يستمع فيها إلى نصح ناصح ولا إلى زجر زاجر، ويفدّيه بنفسه أن لا يشتري الضلالة بالهدى ولا العمى بالبصر وأن يتبع سنن آبائه بالوفاء بالعهد. ويدعو الله له أن يهديه وأن تطر السحب الغادية أكتاف دياره بادية وحاضرة. وقد رد عنان بن جابر عليه غنيفا بقصيدة تُعدّ من درر الشعر التونسي، وفيها يذكر أنه لم يرح موطئه إلا بعد أن ضاقت به الأرض كحلقة خاتم، وبعد أن تبين من أبى زكريا حالا، لا يطبق احتمالها، فهاجر إلى بلد من بلدان بنى هلال بن عامر لا يعرف أهلها الذل، ويذكر أنه إنما غادر

السحب. الرأى : الكف والمضى.

(١) الرثال: النعام.

(٢) هذتك الهوادي: يدعو له بالهدى. العوادي:

موطنه صيانة لنفسه ولقومه من الأذى، ويفتخر بأنه ما من أحد من قومه إلا نال عزا ورفعة ويتحدّى من يعاديه، إذ يطئون أرضه بحوافر خيلهم ويقضون عليه قضاء مبرما. والقصيدة على لسان هذا البدوي عنان بن جابر السلمي تُعدُّ أحد البراهين القوية - كما مرُّ بنا - على خطأ ابن خلدون فيما زعمه من أن أغراب بني سليم وهلال زايلت ألسنتهم الفصحى في أرجاء الإقليم التونسي منذ القرن السابع الهجرى بل ربما قبله بفترة غير قليلة.

٢

شعراء الطبيعة

من قديم يتغنى الشاعر العربي بالطبيعة، ومعلوم أن الشاعر الجاهل لم يترك في بيئته الصحراوية زهرة ولا شجرة ولا سحايًا ولا نجما ولا طائرا ولا حيوانا أليفا ولا وحشيا إلا تغنى به واصفا لجماله أو لسرعته أو لقوته، وتبعه الشعراء في العصور التالية يصفون الرياض والأنهار وما أودع على ضفافها من جمال، كما يصفون الحيوانات والطيور من كل نوع، ويصف إبراهيم الحصري صاحب زهر الآداب الياسمين قبيل تفتحه قائلا^(١):

لقد راعَ رأسُ الياسمينِ منورًا كأقراطٍ دُرٌّ قَمَعَتْ بِعَمِيقِي^(٢)
يميلُ على ضعفِ الفصونِ كأنما له حالتا ذى غَشِيَةٍ ومُفِيقِ
إذا الريحُ أدنته إلى الأرضِ خِلَّتْ نسيمَ جَنُوبٍ صُمُغَتْ بِخَلُوقِ^(٣)

فالياسمين وهو يوشك على التفتح وقد انبثقت في أعلاه زهرة حمراء يروعك منظره، وكأنه أقراط ذهبية خُصِبَتْ بعقيق أو ياقوت، ومنه ما يميل منحنيًا لضعف غصونه، ومنه ما يظل ثابتًا في وقوفه، وكأنما له حالتا مفشٍّ عليه ومفِيق، وإذا مر به النسيم ظننته تعطر بخلق أو طيب ذكي الرائحة. ويقول إبراهيم بن غانم الكاتب القيرواني واصفا النيل^(٤) وكان قد أقام بمصر فترة وعاد إلى القيروان وتوفي بها سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٠م.

النيلُ بينَ الجانبينِ كأنما صُبَّتْ بصَفْحَتِهِ صَفِيحَةُ صَيْقِلِ
بَأَتِيكَ مِنْ كُنْدَرِ الزَّوَاخِرِ مَدُّهُ بِمَمْسُكٍ مِنْ مَائِهِ وَمُصْنَدِلِ^(٥)

(١) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ١١٩.

(٤) الأنموذج ص ٥٠.

(٥) ممسك: مطهب مطهب المسك. مصندل: مطيب

(٢) العقيق: حجر كريم أحر.

مطهب الصندل.

(٣) ضمخ: لطخ. خلق: ضرب من الطيب.

وَكأنْ ضَوْءُ الْبدرِ فِي تَموِيجِهِ برقُ تَموِجٍ فِي سَحَابٍ مُسْبِلٍ
وَكأنْ نَورَ السُّرُجِ فِي جَنبَانِهِ زُهرُ الكواكبِ تَحْتَ لَيْلٍ أَلِيلٍ^(١)

وهو بـصور النـيل بين شاطئـيه كأنه سيف حداد بالغ في جلالة لشدة لمعانه، ويقول إن فيضانه يأتيك بلون كدر كأنه اختلط بمسك أو بشجر الصندل الأحمر، يشير بذلك إلى ما كان يختلط به في فيضانه من الطمى المائل إلى الحمرة، وكأن ضوء البدر على صفحة أمواجه برق يوج في سحب يطل مدراراً، وكأن نور المصابيح في جنباته كواكب مشرقة لامعة في ليل شديد الظلام. ويقول عبد العزيز بن خـلوف المتوفى حوالى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٩م في وصف سحابة^(٢):

مَرْتَجَةُ الْأَرْجَاءِ يَخْبِسُ سَيْرَهَا يُثْقِلُ فَتَعْطِيبُ الرِّيحُ سَرَاها
أَخْفَى مَسَالِكهَا الظَّلَامُ فَأَوْقَدْتُ مِنْ بَرَقِهَا - كَيْ تَهْتَدِي - بِمُصَابِها
وَكأنْ صَوْتَ الرُّعْدِ خَلْفَ سَحَابِها حَادٍ إِذَا وَتَبَ الرَّاكِبُ صَاها

وهو يقول إنها سحابة مثقلة بمطر غزير، وكأن ثقل ما تحمله يحبس سيرها، وتطلقه الرياح، فتسير وثيدة في ليلة ذاجية وكأن الظلام أخفى مسالكها، فأوقدت من برقها مصباحاً كي تهتدى به في سيرها، ويتصور كأن صوت الرعد فيها حاد خلفها إذا توانت الركائب وتباطأت صاح بها كي تمضى في سيرها بسرعة. وكان يعاصر هذا الشاعر ابن أبى حـديدة وكان يعنى بوصفه للسحب والنجوم، وسنخـصه بكلمة. ومعروف أن البحر المتوسط يمتد طويلاً على شواطئ الإقليم التونسي شرقيه وشماليه من قابس إلى بنزرت، فكان طبيعياً أن يتعرض الشعراء في ثغوره المختلفة لوصفه، من مثل الشاعر أبى الحسين الكاتب، وكان حسن البصر بصناعة الشعر - كما يقول ابن رشيـق - سالكا لجميع شعابها، داخلاً من جميع أبوابها متقناً لها في لطافة وحلاوة، وقد توفى سنة ٤٠٨هـ/١٠١٨م وفي البحر يقول^(٣):

انْظُرْ إِلَى الْبَحْرِ وَأَمْواجِهِ فَقَدْ علاها زَبَدٌ مُتَبَقٍ
تَخَالُها الْعَيْنُ إِذَا أَقْبَلَتْ خَيْلاً بَدَتْ فِي حَلْبَةٍ تَسْتَبِقُ
حُمْراً وَدُهْناً فَإِذَا ما دَنْتُ مِنْ شاطئِ الْبَحْرِ علاها بَلَقُ
ظُهورها دُرٌّ وَأَكْفَأُها أَلْبَسها الجَرَى صَبِيبَ الْفَرَقِ

وهو بـصور أمواج البحر حين تعانق رمال الشاطئ وما يعلوها من زبد، ويخالها خيلاً تستبق

(٣) الألوذج ص ٣٦٣.

(١) ليل أليل: ليل شديد الظلام.

(٢) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ١٣٣.

في حلبة، ويراهما حين تعانق الرمال يملوها لونان أسود منها وأبيض من الزبد مما يجعلها بلقاء في مرأى العين، وكأنما الرمال تحيلها درا سانلا بيننا وأواخرها يتصب عرقا أو زيدا. وكان على بن حبيب التنوخي شاعرا عذب اللفظ - كما يقول ابن رشيق - لطيف المعنى قليل التكلف، وقد توفى حوالى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٩م وله في تصوير المد والجزر عند صفاقس^(١):

بَلَدٌ يَكَادُ يَقُولُ حَيْبٌ مِنْ تَزْوَرِهِ أَهْلًا وَسَهْلًا
وَكَأَنَّهُ وَالْبَحْرُ يَحْجُو بِسِرِّ تَارَةٍ عَنْهُ وَثَمَلًا
صَبٌّ يُرِيدُ زِيَارَةً فَلِذَا رَأَى الرُّقْبَاءَ وَلَّى

وهو تعليل طريف للمد والجزر أمام صفاقس التي ترحب داتها بضيوفها، وكأنما أمواج البحر حين تمتد أمامها وتقترب منها وسرعان ما تتراجع، عاشقٌ يريد زيارتها، ويرى الرقباء فيولّى راجعا من حيث أتى.

ونلتقى بأبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية، وكان شاعرا مجيدا وناقدًا بصيرا بالشعر، وله أشعار مختلفة في الحماسة ووصف آلات الحرب وغير ذلك، ومن شعره يصف حديقة ونهرها وأزهارها من الرياض التي أنشأها قرب عاصمته تونس باسم أبي فهر^(٢):

وَسَالُ نَمِيرُ الْمَاءِ بَيْنَ اخْضَارِهَا فَجَاءَ كَمَثَلِ الْفَرْقِ بَيْنَ الثَّوَابِ
وَالَا كَمَا شَقَّ الْكَتَهْوَزَ بَارِقُ وَالَا كَمَثَلِ الصُّبْحِ بَيْنَ الْفِيَاهِبِ^(٣)
وَلِلنَّجَسِ النَّضْرِ أَصْفَارٌ تَخَالُهُ كَشَمْسٍ أَصِيلٍ بَيْنَ بَيْضِ السَّحَابِ
وَلِلْيَاسَمِينَ الْقَصْصُ فِي خُضْرِ بُسْطِهَا نَشَائِرٌ دُرٌّ أَوْ سَبَائِكُ سَاكِبِ
مَعْطَرَةُ الْأُرْدَانِ يَنْفَعُ نَفْسُهَا بِحَبِيكَ عَرَفَ الطَّيْبُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ^(٤)

فماؤها العذب ينساب بين خُضْرَتِها المائلة إلى السواد وكأنه قَرَقُ شعر في أعلى ضفائر أو كأنه برق في كهور أو سحاب متراكم أو كأنه ضوء صبح يشق غياهب الليل وظلماته. ويقول إن الترجيس النضر المصفر يتهدل بين الأزهار البيضاء كشمس أصيل تسدل على الطبيعة من خلال سحب بيضاء، وزهر الياسمين يتناثر على بسطها وكأنه نثار دُرٍّ أو سبائك صانع حافق، والحديقة جميعها معطرة الجوانب، ونفحها يحمل أفاويه ذكية، وبحبيك شذا طيبها من كل منعطف وركن. ويستمر أبو زكريا في مثل هذا الوصف بتصيدته. ومن وصف جنات «تَوَزْر» وحدائقها شاعرها

(١) النموذج ص ٢٨١ والمحلل السندسية ٣٢٦/٢. (٢) الأردان: الأكماء يريد أكماء الزهر. بغم
نفحها: قمل المكان بأفاويه الطيب. عرف: شذا
ورائحة. (٣) الكهوز: قطع السحاب الضخمة.

أبو علي بن إبراهيم، وسنفرده بكلمة. وبالقرب من تَوَزَّرَ شَطَّ الجريد وبه سَبَخَةٌ إذا حاد سالكها عن طريقه غاص في رمالها ولم يَرَّ له أثر، وتسمى التاكمرت وماؤها ملح أجاج، وهو أَوْها شديد الحرارة ملء بالرمال العاصفة، وقد وصفها ابن حُسَيْنَة المتوفى حوالى سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠م قائلا^(١):

قطنا التاكمرت سُرَى وبيزنا صبيحة يومنا حتى الزوال
فلا تسأل لما قاسيت فيه من الأهوال والكُرب الثقَالِ
فليلٌ لا تسير به نجومٌ كأنَّ يَيطَتْ إلى بعض الجبال
وأرياحٌ تَصُمُّ الآنَّ منها تهبُّ عن اليمين مع الشمال
تصدُّ عن الطريق القَصْدِ قَصْدِي وتضربُ حُرَّ وجهي بالرمالِ
ولا أستطيع فَتَحَ العينِ فيها لبعض الأمر إلا بساغتِالِ

يقول ابن حُسَيْنَة إنه قطع التاكمرت في ليلة وصبيحة يوم حتى الظهر وقد قاسى من الأهوال والكرب الثقيلة ما يعزَّ وصفه، فالليل طويل حتى كأنها علقت نجومه ببعض الجبال فهي لا تتحرك، والرياح تهب ذات اليمين وذات الشمال محملة برمال تصك الأذان ضاربة الوجوه بحصبانها وملقاة ستارة كثيفة على الأعين حتى لا يمكن فتحها إلا بضروب من الاحتيال. ويقول محمد الظريف المتوفى سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٦م في وصف روض^(٢):

الروضُ أصبح يُجَلَى في غلاته وأنشد الطيرُ فوق الفصن وأزَجَلَا
وأَلَّت القُضْبُ من أوراقها بُسْطًا وألَّسَ الرُّوضُ من أنواره حُلَا
وقبلَ الطَّلُ خَدَّ الأرض فابتسمت أزهارها ففدت تزهو بحسنِ حُلَى
والوردُ لما اعتلى من فوق وَجَنَّتِه ماءُ الحياءِ بدا في خَدَّه خَجَلَا

فالروض يُجَلَى في أجل ثيابه البديعة، والطير يتغنى فوق الفصن، وألقت الأغصان على الثرى بسطا خضراء من أوراقها، وليس الروض حللا من أنواره وأزهاره وقبل الطل خدود الأغصان فابتسمت أزهارها وافتخرت بأجل حل، أما الورد فقد اعتل فوق وجنته ماء الحفر، فبدت حمرة الحجل في خدّه، ويقول الأمير محمد الرشيد الحسينى في وصف الربيع^(٣):

قَسِيمَ الرِّبِيعِ وَوَجْهَهُ يَهْلَلُ وَالطَّلُ يَمْلَأُ خَدَّهُ وَيَقْبَلُ
فَدَفَقَتْ أَنْهَارُهُ وَتَفَتَّقَتْ أَزْهَارُهُ وَالذُّوحُ خُودُ تَرْفَلُ

(٣) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ٢٣٨.

(١) الحلل السندية ٣٩٢/٢.

(٢) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ٢١٦.

بِقِلَاتِيدِ مُوسِيْعِيَّةٍ بِزَرْجَدٍ تَجْبَاهُهَا بِيَدِ الرِّدَاذِ نَكْلُ
وَالرَّغْدُ يَضْرِبُ بِالطُّبُولِ وَبَرْقُهَا كَالشَّمْعِ تُطْفِئُهُ الرِّيحُ فَيُسْتَعْلُ

فالربيع وقد بوجهه التهلل يعانق الطل ويقبله مرارا وتكرارا، والأنهار تدفقت والأزهار
تفتحت والأشجار تتبختر بقلائد مزينة بزرجد، بينما يتوجها المطر بالأزهار، وكأنما الرعد
يضرب بطبول ابتهاجا بالربيع، وأمامه شموع البرق فرحة به، وكلما أطفأتها الرياح عادت أكثر
اشتعالا وأوفر ضياء.

وإذا تركنا الطبيعة الصامتة إلى الطبيعة الحية وجدنا الشاعر التونسي يكثر - كما أكثر سلفه
المشرقي من قديم - من وصف الحمام والديكة والفرس، وينشد ابن رشيق فيها جميعا أشعارا
كثيرة، من ذلك ما أنشده لعنترة التيمي الذي كان مفتونا بالحمام الداجن، وفي صفات أحدها
يقول^(١):

وَأَصْفَرَ فَاقِعَ لَا عَيْبَ فِيهِ يَفُوتُ - إِذَا وَئَى - عَصَفَ الْجَنُوبِ
كَأَنَّ الشَّمْسَ يَوْمَ الصُّخْرِ أَلْقَتْ عَلَيْهِ رَدَاهَا عِنْدَ الْغُرُوبِ
وَتَنْتَظِرُ شَخْصَهُ الْأَلْحَاطُ عَشَقَا كَمَا نَظَرَ الْمَحَبُّ إِلَى الْحَبِيبِ

فهو أصفر فاقع لونه لا عيب فيه، يفوت الريح حين يطير حتى لتعجز عن مدهاء، وكأنما
الشمس ألفت عليه رداء أصيلها الذهبي، وإنه ليفتن الأبصار حين تنتظر إليه ويغلب لبها كما
يغلب المحبوب لب محبه. ويقول ابن الغطاس في وصف طائفة من الحمام^(٢):

تَوْسَدَنَّ مَطْوِيُّ الْجَنَاحِ كَأَنَّمَا لَهْنٌ حَشَايَا فَوْقَهُ وَدَرَانِكُ^(٣)
وَيَمْلَنُ عَلَى خُضْرِ الْقَصُونِ كَأَنَّمَا لَهْنٌ عَلَى قُضْبِ الْأَرَاكِ أَرَانِكُ^(٤)
وَلَا شَدُوْ إِلَّا مَا تَصَوَّغَ لِحُونُهَا وَلَا دَمَعُ إِلَّا مِنْ جَفَوْنِي سَافِكُ

فقد اتخذن من أجنحتهن وسائل، وكأنها لمن كالحشاي والطنافس للإنسان، وقد اتخذن من
غصون الأراك أرائك وقاعد ينزلن عليها للراحة، وما أجل شذوها وغناها وما تصوغ منها
من لحون تثير فيه الشجن، وإن دموعه لتنزل مدرارا. وملتفت عبد الرازق بن علي النحوي إلى
قمرى من الحمام على غصن شجرة ينوح فيخاطبه قائلا^(٥):

(١) الأراك: شجر. أرائك: مقاعد.

(٢) الأنموذج ص ١٥٦.

(٣) الأنموذج ص ٣١٧.

(٤) الأنموذج ص ٢٣٤.

(٥) درانك: بيط وطنافس.

أَقْرَأُ أَيْكَ الْجَزْعَ هَلْ أَنْتَ جَازِعٌ وَهَلْ لَكَ الْفُؤَادُ نَازِعٌ عَنْكَ نَازِعٌ
وَفِي لَحْنِكَ الْمَسْجُوعُ فِي رَوِّقِ الضُّحَى دَلِيلُ أَسَى لَوْ أَنَّ جَفْنَكَ دَامِعٌ
أَثَارَ كَمِينِ الشُّوقِ أَنَّكَ صَادِعٌ وَإِنْ كَانَ لَا يَدْرِي مَرَاذُكَ سَامِعٌ
كَأَنَّ نَسِيمًا لِلشَّمَالِ وَلِلصَّبَا نَسِيبُ الصَّبَا طَيْبًا إِذِ الشَّمْلُ جَامِعٌ
وَإِذَا لَيْسَ بِسِرٍّ لِلْمَسْرَةِ ذَائِعٌ وَلَيْسَ بِنِسَامٍ بِالْمَنْمَةِ ضَائِعٌ

وهو يخاطب قمرى أباك المجرع متعجبا ومتسائلا إذ يراه ينوح هل هو جزع لا يستطيع صبرا على فراق أليفته وصاحبته التي نزحت بعيدا عنه مثله، ويقول له إن في نبرات صوتك أسى وحزنا عميقا وإن جفونه لا تريحه بدموع تخففه عنه، ويذكر أنه أثار في نفسه بهراجة كوامن حبه ولواعجه، وإن كان أحد لا يدري مقصدك من نواحك فقد استمدت لي ذكرى محبة، حتى كأنما تهب على صبا كسبب الصبا طيبا حين كان الشمل ملتثا بالمحبة، ونعيش في سرور دائم وعهد وثيق.

وسنخصص عبد الواحد بن فتوح المنفى بالديكة والحمام بكلمة. وأكثر شعراء القيروان وتونس من وصف الخيل وخاصة الفرس، إذ كانت أمتها أمة حرب ونزال، ومن ذلك أن أبا الحسين الكاتب الذي مرت بنا مقطوعة له في وصف أمواج البحر يصف فرسا أشقر له قائلا^(١):

لِي فَرَسٌ قَدْ حَسَنَتْ حَالُهُ وَاسْتَكْمَلَ الْإِعْجَابَ إِكْمَالُهُ
أَشْقَرُ كَالْبَرْ جَلَا لَوْنُهُ عَنْ مَحْضِهِ بِالسُّبُكِ صَقَالُهُ
كَأَنَّمَا الْبَدْرُ إِذَا مَا بَدَا غُرَّتْهُ وَالشَّمْسُ بِسُرْبَالِهِ
كَأَنَّ فِي حُلُقُوبِهِ جُلُجُلًا حَرَّكَهُ لِلتَّمَسِّعِ تَفْهَالُهُ

وهو فرس بلغ الغاية من الحسن حتى ليعجب به كل من يراه، فرس أشقر شقرة ناصعة، جلاء فيها صانعه أتم جلاء، وكأنما البدر غرته البيضاء المشرقة وكأن الشمس رداؤه الذهبي اللدني، وكان في حلقومه جرسا ما يزال يرن بصهيله، ومع هذه الأبيات أبيات أخرى بديعة، ويعلق عليها جميعا ابن رشيق بقوله: «هذا شعر جمع شذور الحسن واشتمل على فنون الملاحاة، حتى خلطت حقيقته ببجازه، وطوى إسهابه في إيجازه، واشتبه حوكه بطرازه، ونهضت صدوره بأعجازه، وأما التجنيس والطباق، والمقابلة والاتفاق، فمن حلاه المشهورة، وصفاته المذكورة».

وكان الخليفة الفاطمي بالقاهرة: نزار رأى أن يرسل إلى المنصور بن بلكين الصنهاجي واليه

على الإقليم التونسي وإفريقية سنة ٣٨٤ هدية سنية ومعها قبل وطائفة من الخيل وحمار مخطط بديع الشكل، فكان يخرج بها جميعا في مواكبه، ومثله ابنه باديس، وحفيده المعز، ومنذ المنصور يتبارى الشعراء في وصفها ناقدين إلى تصاویر لما رأتها، من ذلك قول التونسي علي بن يونس التوفي سنة ٤١٠ في قصيدة يمدح بها المنصور واصفا هدية نزار وما كان بها من الخيل والإبل والفيل^(١) :

| | |
|---|--|
| جُرْدٌ سَبَقَ البرقَ غيرَ حوافل | وَجَرَيْنِ أَبْعَدَ شَأْوِهِ والأقربا |
| يُرْقَلْنَ فِي حُلَلِ العراقِ وحُلِيِّه | زَهْوًا فَتَحْسِبُهُنَّ رَوْضًا مُعْتَبِرَا |
| ونجائبٍ مثل السفينِ تَرَى لها | تَحْتَ الْقَبَابِ تَنْطَلِطًا وَتَنْغَضِبَا ^(٢) |
| يحملن من زِيِّ الملوكِ هَوادِجًا | مثل القصورِ مُفَضِّضًا وَمُنْهَبَا |
| والفيلُ يَخْطُرُ بَيْنَهَا وَكَأَنَّهُ | وَكَاثِنَا طَوْدُ أَنْفٍ عَلَى رُيِّ |
| شَرِسٍ إِذَا أَحْفَظْتَهُ سَهْلٌ إِذَا | لَاظَفْتَهُ صَبٌّ إِذَا مَا صُوعِبَا |

وهو يقول عن الخيل إنها جُرْدٌ قصيرة الشعر، وهي صفة من صفات الخيل الكريمة، ويقول إنها تسبق البرق غير حافلة به وتجري شوطيه الأبعد والأقرب، وإنها لتبخر في سروج مزركشة ولجم محلاة بالجواهر، حتى لكأنك تنظر منها إلى روض زاو بأزهاره. ويصف الإبل بأنها كالسفن ضخامة، وإنك ترى لها تحت الهودج هدير الغاضب وزبحرته، وإن هودجها الضخمة لتزدان بفافر الرياش المفضض والمنهب، والفيل يَخْطُرُ متهاديا بين تلك الإبل والخيل وكأنه جبل أشرف على رُيِّ وتلال، ويصفه بأنه شرس إذا أغضبه، سهل إذا لاطفته صَبٌّ إذا ما أثرت. وأهديت من السودان في الجنوب زرافة إلى المعز بن باديس، فصورها شاعره ابن رشيق تصويرا بديعا في قصيدة مديح له جاء فيها^(٣) :

| | |
|--|---|
| وَأَتَتْكَ مِنْ كَسْبِ الملوكِ زرافَةٌ | شَتَّى الصِّفَاتِ لِلنَّهْجِ أَثْنَاءُ ^(٤) |
| تَحْتَهَا بَيْنَ الخَوَافِقِ مِشْيَةٌ | بَادٍ عَلَيْهَا الكِبَرِ والغِيْلَاءُ |
| وَتَمُدُّ جِهْدًا فِي الهَوَاءِ يَزِينَهَا | فَكَأَنَّهُ تَحْتَ اللَوَاءِ لَوَاءُ |
| حُطَّتْ مَايَغُرُّهَا وَأَشْرَفَ صَنْدُهَا | حَتَّى كَانَ وَقُوفُهَا إِقْعَاءُ ^(٥) |

وهو يقول للمعز أنك زرافة ذات صفات شتى في لونها انعطافات أو يقع كثيرة حراء

(١) الأتموزج ص ٣٠٠.

(٢) تنطلمطا :

(٤) أثناء: يريد أنها ثنائية اللون.

(٥) الإقعاء: جلوس الرجل على مؤخرته ونصب

ساقه وفخذه.

(٣) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ١٤٦.

وصفراء ودكناء ويميزها بين الخوافق أى الخيل المسرعة مشية خاصة يبدو عليها فيها الكبر والخيلاء والمعجب الشديد، كما يميزها جيد طويل جدا ترفعه إلى أعلى، وكأنه لواءان ممتدان، وتُرى لطول يديها وقصر رجلها وإقبالها عليك بصدرها كأن وقوفها ضرب من الإقماء أو الجلوس على المآخر مع نصب اليدين وهو تصوير بديع، ومثله تصويره لفحل الإوز، إذ يقول^(١):

نظرتُ إلى فحل الإوز فبخلتُهُ بين الثقل فى وحلٍ وما هو فى وحلٍ
ينقل رجله على حون فترةٍ كمتعل لا يحسن المشى فى الثقل
له عتق كالصولجانٍ ومخيطٍ حكى طرف المرجون من يانع النخل^(٢)
يداخله زهوٌ فيلحظ من عملٍ جوانبه ألباط متهم العقل

وهو يمسد ذكر الإوز في مشيته المتثاقلة كأنه يخطو في وحل، فينقل رجله، أو كأنه لا يس نعلًا لا يحسن المشى فيه. وبعد أن جسد مشيته هذا التجسيد الرائع، أخذ يصور خلقته فله عتق طويلة طول عصا الملوك المسماة بالصولجان، وله محطم أو متقار معقوف كمرجون النخل الذى يحمل شماريخه وتمره، ثم صور شموخه في وقفته فقال: كأنما يداخله زهو فينظر من أعلى إلى جوانبه نظر المشدود الذى يظن أنه متهم العقل لطول نظره وإمعانه فيه. وحرى بنا أن نلم ببعض شعراء الطبيعة ممن ذكرنا أننا سنخصص كلا منهم بكلمة مع ترتيبهم ترتيبا تاريخيا وهم عبدالواحد بن فتوح وصاف الديكة والحمام وابن أبى حديدة وصاف السحب والنجوم وأبو على بن إبراهيم وصاف البساتين.

عبد الواحد^(٣) بن فتوح الزواق

نشأته ومرباه بتونس وبها تأدب، ثم استوطن القيروان، وانتظم في سلك كتاب الدواوين، وفيه يقول ابن رشيق: «شاعر مفلق قوى أساس الشعر وأركانه وثيق دعائمه وبنائه، كأنه أعرابي بدوى يركب ظهر الشعر ويغوض بحر الفكر، يتكلف بعض التكلف، وفي قصائده طول، ويُعدّ من خيار طبقة» توفي سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٦م. ومن شعره في وصف الديك:

وهب للأطيار ذو خبيرةٍ منه بما يصرف من خبرها
فنص جيذا ورقي ونبرا دار الذى عود من خدرها^(٤)

(١) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٤٧.

(٢) الصولجان: عصا الملك الرامزة لسلطانه.

محطم: متقار. المرجون ما يحمل الثمر. المنق.

(٣) انظر في عبد الواحد بن فتوح الأنموذج

ص ٢٢٦ والمجلد في تاريخ الأدب التونسي

ص ١٣٥.

(٤) نص: رفع.

واستفتح الصوت بتصفيقه اسـ
فبَلَّ البَلْبَلُ في غُصْنِهِ
كَأَنَّمَا تَوَجَّ يا قَوْتَهُ
كَأَنَّمَا يَخْطِرُ في حُلَّةِ
تفتاح ذات الطَّار في شِعْرها^(١)
وَأَرَقَّ الوَرْقَاءُ في وَكْرها^(٢)
واغْثَ الشَّفَقَيْنِ من شَطْرها^(٣)
من عَذْبِ الوَشَى لم يَشْرها

وهو يقول إن الديك هبَّ. للطير يريد أن ينافسه بما يعرف من خبره وتجربته فنصَّ جيده ورقفه ورقى منبرا في دار صاحبه وماعُود من مسكنها، واستفتح الصوت بتصفيق جناحيه وتحريكهما كما تستفتح صاحبة الطار الضرب عليه تقدمة لما توقع عليه من أشعار. وما إن رفع الديك صوته وصياحه حتى اضطرب البلبل في غصنه وألث به الوسوس، وحتى أرق الورقاء في وكرها، الحسن ما يسمعان من صياحه، ويخجل لمن يراه كأنما توجَّ يا قوتُهُ ناصعة الأحرار. وسقط منها لأذنيه قرطين بديعين، وإنه ليخطر ويتختر في حلة مزركشة كأنها صنعت من وشى عدن، غير أنه لم يشرها، إذ هي منحة إلهية مُنحها في خلقه. ويقول في وصف حمام:

بجَتَابُ أُرْدِيَةِ السُّحَابِ بخافقٍ
لو سابق الريحَ الجنوبُ لغايةٍ
يَسْتَقْرِبُ الأرضَ البسيطةَ مذهباً
ويظلُّ يَسْتَرْقى السماءَ بخافقٍ
يبدو فيعجب من يراه لحسنه
مُتَرَقِّقٌ من حيث دُرَّتْ كأنما
كالبرق أَوْمَضَ في السحاب فأبرقا
يومًا لجأكَ مثلها أو أسبقا
والأفق والسُّقْفُ الرفيعةَ مُرتقى
في الجوِّ تحسبُ الشهابَ المُحرِقا
وتكاد آيةً عِتْقِهِ أن تنطلقا
لبس الزجاجة أو تَجَلْبَبُ زَيْبًا

وهو يقول إن الحمام لا يزال يقطع بخافقه أو جناحه أودية السحاب رداء وراءه، وكأنه برق يومض ويبرق ويلعب للناظرين، ولو سابق الريح لغاية أو مقصد ما تأخر عنها بل ربما سبقها، وهو يعيش في الأرض ويتخذها مسكنا ومأوى ومع ذلك يرتقى ويصعد إلى الآفاق والسقف العليا، ويظل مصعدا بجناحه في السماء حتى يُظَنُّ أنه شهاب فيها سيسقط على الأرض، ويقرب ممن يراه فيعجب بحسنه وتكاد آية عتقه أن تنطق بجمال منظره، ويقول إنه مترقق متلألئ أينما درت ببصرك حوله ظننت كأنما تدور حول زجاج دُرِّي أو حول زئبق رجراج بهي. ويعلق ابن رشيق على هذه الأبيات بقوله: «لا أعرف أحدا وصف الحمام بمثل هذه الصفة».

(١) تصفيقه: تحريك جناحيه.

(٢) الشفقين: القرطين.

(٣) بلبل حير.

ابن^(١) أبي حديدة

هو أبو العباس أحمد بن القاسم اللخمي، أحد الكتاب النابيين في الدولة الصنهاجية وظل يعمل فيها بديوان الرسائل بجانب ابن رشيقي وابن شرف إلى أن توفي حوالى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ويبدو أن منشأه ومرباه في القيروان، ويقول فيه ابن رشيقي: «شاعر فكه الشعر رائق التشبيه مولع به قليل التكلف قوى المنهج والظرف، ممن رفض الم والهجاء، وكان يَغْبِرُ التصنيع خبيرة جيدة ولا يركبه إلا في الأماكن التي تصلح له كما شرط حذائق المتقدمين، وله بديهة مرضية، وله في وصف سحب:

| | |
|---|---|
| يَسَارِبُ مُنَاقِبَةٍ تَنوُّ بِثِقَلِهَا | تَسْقَى الْبِلَادَ بَوَابِلُ غَيْدَاقٍ ^(٢) |
| مَرَّتْ فَوْقَ الْأَرْضِ تَسْحَبُ ذَيْلُهَا | وَالرَّيْحُ تَحْمِلُهَا عَلَى الْأَعْنَاقِ |
| وَدَنَتْ فَكَادَ التُّرْبُ يَنْهَضُ نَحْوَهَا | كُنْهَوْضٍ مَشْتَاكِ إِلَى مَشْتَاكِ |
| فَكَأَنَّمَا جِئَتْ تَقْبَلُ تَرْبَهَا | أَوْ حَاوَلَتْ مِنْهُ لَذِيذَ عِنَاقِ |

وهو يقول: رب سحابة ملآنة مطرا تنوء بثقلها منه تسقى البلاد منه بوابل غزير، ويتخيلها كأنها امرأة جميلة تمر على الأرض تسحب ذيلها من المطر المتدفق والرياح يحملها على الأعناق إجلالا لها، ويقول إنها دنت من الأرض فنهض الترب لها نهوض مشتاق إلى مشتاق، وكأنما جاءت محمولة على الريح لتقبل تربها، بل وكأنما تحاول منه عناق محب لمحبوته غابت عنه طويلا. وله في النجوم:

| | |
|--|---|
| وَلَقَدْ حَمَى عَنْ مَقَلَّتِي كَرَاهِمَا | وَوَدَّقَ لَهْنٌ عَلَى الْأَرَاكِ حَبِينُ |
| فِي لَيْلَةٍ لَيْسَ الْحَدَادُ هَوَاؤُهَا | فَكَأَنَّمَا هُوَ رَاهِبٌ مَحْزُونُ |
| قَدْ رُصِّعَتْ زُفْرُ النُّجُومِ سَاءَهَا | فَكَأَنَّمَا هِيَ لَوْلُؤُ مَوْضُونُ ^(٣) |
| وَكَأَنَّمَا خَلَّلَ الظَّلَامُ رَوَانِيَا | أَحْدَاقُ رُومٍ مَا لَهْنُ جَفُونُ ^(٤) |
| وَكَأَنَّمَا الْفَلَكَ الْمُدَارُ عَلَى الدُّجَى | بَحْرٌ أَحْصَا بِهَا وَهْنُ سَفِينُ |

وهو يقول إن حنين حمامات على الأراك ملئناة نعى النوم عن عينيه في ليلة ليس الهواء فيها ثياب الحداد في دجاها فكأنما هو راهب محزون أشد الحزن، وقد رُصِّعَتْ النجوم المضيئة

(١) انظر في ابن أبي حديدة الأنموذج ص ٧١ (٢) موزون: مترام.

والمجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٤١. (٤) رواها: ناظرات.

(٢) مناقبة: مختلفة. غيداق: كثير.

المشرقة السماء وكأنما هي لآلئ تتداخل في نسيجها المحكم، ولكأنها وهي ترنو خلال الظلام أحداق روم ليس لمن جفون فهي ما تنى رانية مديّة نظرها، ولكأنما الفلك المستدير على الدجى بحر أحاط بتلك النجوم وهن سفنقه. كأن لا فارق كوني بين البر والبحر والسماء عند ابن أبي حديدة وغيره من الشعراء التونسيين، فهم يتفنون بسفن البر من الإبل، ويتفنى ابن أبي حديدة بسفن السماء من النجوم.

أبو علي بن إبراهيم^(١)

لم يزد صاحب الحلل السندسية في التعريف به عن قوله إنه كان كاتباً، وأكبر الظن أنه توزر الأصيل، والتحق بدواوين الدولة الحفصية في القرن السابع الهجري. وتوزر هي عاصمة واحات الجنوب التونسي، وكان لها نهر ينقسم إلى ثلاثة أنهار كبار، وكل نهر من الثلاثة ينقسم إلى ستة جداول، وأتاح لها ذلك أن يكثر بها النخيل والبساتين، ولأبي علي بن إبراهيم وصف رائع لها ولنخيلها وبساتينها وجداول مياهها ضُمّنه قصيدة له رائعة، ومن قوله في نخيلها:

النَّخْلُ مِثْلُ عِرَاسٍ مَجْلُوءٍ فِي سُندَسِيَّاتِ اللَّبَاسِ تَبَخَّرُ^(٢)
وَكأنما نُظُمُ الْحَبْلِ لَنَحْرِهَا مِنْ لَوْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ يَتَخَيَّرُ
وترى الزَّبَرْجَدَ عَسْجَداً وَبَاقِئاً ذَا أَحْمَرٍ قَانٍ وَهَذَا أَصْفَرُ^(٣)
أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ الْمَصْفَى طَعْمُهُ وَمَذَاقُهُ لَا يَدْعِيهِ السُّكَّرُ

وهو يقول كأن حدائق النخل بتوزر فرح كبير يضم ما لا يكاد يحصى من عرائس تجلّ في ثياب سندسية اللون تتبخّر فيها، وقد استدارت حول نحوها عقود متخيرة من اللؤلؤ المضيء في أول نشأة البلح وإنما لتستحيل إلى زبرجد أخضر، وتستحيل الزبرجد إما عسجدا ذهبيا وإما ياقوتا قانيا، ومنه الرطب وغير الرطب، وإن طعمه لأحلى من العسل، مع مذاق بديع لا يستطيع السكر أن يدعيه لنفسه لجماله وحسنه. ويصف بساتين توزر وأشجارها وأزهارها، فيقول:

اللُّوْحُ قَدْ لَبَسَتْ غَلَاتِلُ سُندَسٍ تَخْتَالُ فِي أَيْدِي النِّسِيمِ وَتَخْطُرُ^(٤)
حَلَّتْ هَوَادِيهَا عَقُودُ أَزَاهِرٍ فَتَبْرُجَتْ عُجْبًا لِمَنْ يَتَبَصَّرُ^(٥)
وَالطَّيْرُ قَدْ رَقِيتْ مَنَابِرَ قَضِيهَا خَطَابُهَا تَشْدُو بِلَحْنٍ يَسْحَرُ

(١) انظر في أبي علي بن إبراهيم وقصديته الحلل السندسية ٤٣٥/٢.
(٢) سندسيات: نية إلى السندس وهو الدياج.
(٣) الصجد: الذهب.

(٤) غلاتل: جمع غلالة: ثوب رقيق. تخطر: تتبخّر.

(٥) هودايا: مقدماتها.

والقضبُ يَنْبِيها النسيمُ فَنَنْتَبِيْ
كَعَقَاتِلٍ تَبْغِي السُّرَارَ فَتَلْتَقِيْ
بَعْضُ يَقْبَلُ بَعْضُهَا وَيُقَهِّقِرُ
إِصْفَا الْحَدِيثِ وَتَارَةً تَأْخُرُ^(١)

فالشجر الملتف قد ليس ثيابا رقيقة من السندس الأخضر، وهو يخال في أيدي النسيم ويتهتّر، وقد حُلَّتْ مقلّماته عقود زهر منمقة تبرّج فيها لناظريه أيما تبرّج. والطير قد صعدت إلى منابر غصونها، وخطباؤها تنفخ بلحن ساحر يخلب الألباب، والفصون يشبه النسيم فتنتفي وكأما يقبل بعضها بعضا ثم يتقهقر أو كأنهن سيدات يردن المسارة ببعض الحديث فتلتقي مصفية إلى الحديث تارة، وتارة تتأخر، ويستمر أبو علي قائلا:

الأَرْضُ عَاطِرَةٌ تُزَفُّ كَأَنَّمَا
وَتَأْرَجَتْ أَرْجَاؤُهَا فَكَأَنَّمَا
غَشَى نَوَاحِيهَا عَيْبَرٌ يُنْشَرُ
بِسُكِّ يَضُوعٍ خَلَالِهَا أَوْ غَيْرُ^(٢)
وَكَأَن رِيحَانَ الْحَيَاةِ وَرَوْحَهَا
مُسْتَشَقٌّ مِنْ عَرَفِهَا وَمَعَطَرُ^(٣)
وَكَأَنَّمَا كَيْسَتْ بِسَاطِ زَهْرٍ جَدِيدٍ
نُثِرَتْ يَوَاقِيتُ عَلَيْهِ وَجَوْهَرُ

فالأرض جميعها عطرة وكأما تُزَفُّ في عُرْس لها، وكل نواحيها ينتشر فيها عيبر ذكي، وكل أرجائها تفوح بصنوف من الطيب والمسك والعنبر، وكأن أريج الحياة ونسيمها العطر مستنشق من شذاها العطر، وكأما اكتست ببساط من الزبرجد تناثرت عليه جواهر ويواقيت من كل صنف، ويمضي أبو علي واصفا جداولها بمثل قوله:

الماء تَشَعُّبُهُ إِلَيْكَ جَدَاوِلُ قَدْ مَدَّهَا النِّهْرُ الزُّلَالُ الْأَكْبَرُ^(٤)
صَافٍ عَلَى صِفَةِ الْمَهَا يَجْرِي عَلَى رَمْلِ النِّقَا عَذْبٌ قَرَّاحٌ كَوُثَرُ^(٥)
وَكَأَنَّمَا حَصْبَاؤُهُ فِي رَوْتِي أَلِ سَاءَ الَّذِي يَجْرِي عَلَيْهِ جَوْهَرُ

والماء تشعبه وتتوزعه جداول: ثمانية عشر كما أسلفنا، وقد أمدها النهر الكبير بمائه الزلال العذب البارد السلس، والماء في منتهى الصفاء، كأنه مهّا أو بلور ناصع، وهو يجري على رمل يشبه رمل النقا الذي يذكره العشاق التجديون، وهو عذب قراح أو خالص، بل هو كوتر كثر الفردوس وكأما حصباؤه جوهر تناثر من عقود كثيرة. وأبو علي بدون ريب شاعر بارع براعة فائقة.

-
- (١) عقاتل: جمع عقيلة: السيدة الكريمة. السرار: الناجاة وكتمان الحديث. صفا الحديث: سماعه.
(٢) تأرجت: فاحت. بضوع: يفوح.
(٣) عرفها: شذاها.
(٤) تشعبه: تفرقه. الزلال: العذب الصافي.
(٥) المهّا: البلور. قراح: سائغ. كوتر: حلو والكوتر: من أنهار الفردوس.

شعراء الرثاء

(أ) رثاء الأفراد

للغرب - منذ الجاهلية - في رثاء الأفراد تراث ضخم، وهو يتخذ عندهم ثلاثة ألوان هي الندب والتأبين والعزاء، والندب هو البكاء على ذوى الرحم من الأهلين والأقارب عن ليّوا نداء رهم وغادروا الفانية إلى الباقية، والتأبين هو بكاء الشخصيات الفذة الحربية أو السياسية أو العلمية أو الأدبية بذكر فضائلهم وخسارة المجتمع والأمة فيهم، والعزاء استرسال في الحديث عن الحياة والموت وبيان أن الحياة ظل متقل سرعان ما ينحسر عن صاحبه، فالجميع إلى فناء وعدم، وكثيرا ما يختلط العزاء بالتأبين والندب. وكل هذه الألوان الثلاثة مبنوثة في مرثي القيرانيين والتونسيين، وتأخذ في الكثرة منذ عصر الأغالية، ويتوفى فيه سحنون إمام المذهب المالكي ويؤنه تلميذه عبد الملك المهرى بثل قوله^(١):

ولّى - لمرى - بأرض الغرب قاطبةً مَيّتَ له البثوُّ والحضارُ قد خَشِعا
لِلَّهِ أَنْتَ إِذَا مَا هَابَ فَاصِلَةٌ من القضاء كليلُ الحدِّ فارتدعا
هناك بُرُزْتَ يَا سَحْنُونُ منفردًا كسابقِ العَيْلِ لما بانَ فانقطعا
فأذهبْ فقيدًا حَبَاكَ اللَّهُ جَنَّتْهُ وأحصُدْ من الخيرِ ما قد كُنْتَ مُزْدِعا

وهو يقول إن أهل البدو والحضر جميعا قد خشموا حين سمعوا بوفاة فقيه الغرب قاطبة، ويقول ما أعظمك حين كنت قاضيا تقضى بالحق على كل متهم فيرتدع ويزدجر، وينوه بقضائه وأنه سبق فيه مجلّا كل عالم في عصره، وما أعظم المنساة في فقدته ويدعو الله أن يفسح له في فراديسه وأن يميزه الجزاء الأوفى عما غرس وقدم بين يديه. ولما توفى ابنه محمد رثاه أحمد بن أبي سليمان داود الصواف بمرثية بلغت ثلاثمائة بيت، وفيها يقول^(٢):

ألا أيُّها النّاعى الذى جَلَبَ الأسى وأورثنا الأحرانَ لا كُنْتَ ناعيا
نعميتَ إمام العالمين محمداً وقلْتَ مَضَى من كان للدين راعيا
ومن كان حَبْرًا عالمًا ذا فضيلةٍ نقيًا رَضِيًا طاهرَ القلبِ زاكيا

والشاعر يبكى فى محمد بن سحنون إمامته الدينية وفقهه وعلمه ونقاء صدره وطهارة قلبه

(٢) رياض النفوس ١/٣٥٧.

(١) رياض النفوس للمالكي ١/٢٩٠.

وفضيلته أو فضائله. ويتوفى يحيى بن عمر إمام المذهب المالكي في سوسة سنة ٢٨٧هـ/٩٠٠م ويرثه سعدون الوريثي بمثل قوله^(١):

عَيْنُ أَلَمٍ بِهَا وَجَدْتُ فَلَمْ تَنْمِ تَبْكِي يَدْمَعُ كَقَطْرِ الدُّرِّ مُنْجِمِ
عَجِبْتُ أَنْ لَمْ أَمْتَ حَزْناً وَقَدْ دَفَنْتُ كَفَأَى فِي التَّرْبِ أَنْتَى الْعَرْبِ وَالْعَجَمِ
يَا مَوْتَ أَتَكَلَّمْتَ يَحْيَى وَكَانَ قَتَى فِي بُلْدَةِ الْعَرْبِ مِثْلَ الْبَدْرِ فِي الظُّلَمِ
مَنْ كَانَ مِنْ بَعْدِ سَخْنُونٍ لَنَا خَلْفًا مَنْ كَانَ فِي الْحَقِّ مِثْلَ الصَّارِمِ الْخَنِيمِ^(٢)

وهو يقول إنه بات مسهدا محزوننا يبكي بدمع لا ينقطع، ويعجب أن لم يميت حزنا وقد دفنت كفاه في التراب يحيى بن عمر أنقى العرب والعجم، ولتفت إلى الموت لانا، فقد أفقدهم يحيى وكان فقيها لا نظير له، وكان مثل البدر يحسر الظلمات عن الناس، إذ كان خلفا لأستاذه سحنون، وكان في إحقاق الحق وإبطال الباطل مثل السيف الحاد القاطع. وحظيت الأسرة الأغلبية الحاكمة حينذاك بشاعرة تسمى مهرية الأغلبية، توفيت حوالى سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م وكان لها أخ ناسك يسمى أبا عقال هاجر إلى مكة ومات بها غريبا عن وطنه ودياره، وله مواعظ كثيرة أنشدتها المالكي في الرياض وقالت أخته نادية له باكية^(٣):

لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي عَايَنْتُهُ بَعْدَ طَوْلِ الصُّومِ مَعَ نَفْيِ الْوَسَنِ
مَعَ تَرْوِجِ النَّفْسِ عَنْ أَوْطَانِهَا وَالتَّخَلُّلِ عَنْ حَبِيبِ وَسَكَنِ
يَا شَقِيقًا لَيْسَ فِي وَجْدِي بِهِ عِلَّةٌ تَمْنَعُنِي مِنْ أَنْ أَجِنَ
وَكَمَا تَبَيَّلَ وَجْوهُ فِي الثَّرَى فَكَذَا يَتَلَّى عَلَيْهِنَ الْحَزْنَ

وهي تنجبه بالسؤال إلى شقيقها ماذا رأى في بلاد الغربة بعد ما عانى من طول الصوم والسهاد ومع حرمانه من وطنه وتخليه عن سكنه وأحبابه، وتخزن عليه حزنا عميقا فلن تراه، وتظل مواجدها معلقة به حتى لتشعر أنها ستجن، وتعود إلى نفسها، فكما تبلى وجوه في الثرى يبلى الحزن وتبلى لوعته.

ولكرامية أهل السنة في القيروان للبيديين ومذهبهم الإسماعيلي انضموا إلى محمد بن كيداد اللاتر البربري الصفرى على القائم بأمر اقه البيدي في حصاره للمهدية سنة ٣٣٣ و قتل في هذا الحصار شيخ كبير ن شيوخ أهل السنة هو أبو الفضل الميسى، فرثاه تلميذه أبو القاسم الغزاري، بمثل قوله^(٤):

(١) رياض النفوس ٤٠٥/١.

ص ٧١.

(٢) الصارم الخنم: السيف القاطع.

(٤) المجلد ص ٨٧.

(٣) رياض النفوس للمالكي ٤٣٦/١ والمجلد

بنفسى صريع جالت الخيل حوله بمقتريك الأبطال أى صريع
ولست له أبكى ولكن لمعشر أصيبوا به من فرد وجميع
وللعلم والدين والتقى وطول احتمال واضطناع ضيق
مضى علم العلم الرفيع وطالما أصابت قناة الموت كل رفيع

وهو يتمنى لو استطاع أن يفدى هذا الشيخ الصريع بروحه، ويتصوره والخيل تجول حوله في معركة الأبطال، ويقول إنه لا يبكى له ولكن يبكى لخسارة معشر فجعوا فيه، كما يبكى للعلم والإسلام والدين والتقى وطول ما أدّى واحتمل في سبيل طلابه وأهل القبروان، وإن كان قد فقد علم العلم الرفيع فطالما أصابت رماح الموت العلماء من أمثاله. ويؤيّن ابن الخواص الكفيف أبو القاسم عبد الرحمن بن يحيى إمام المالكية ورياستها بالمغرب في زمنه أبا محمد عبداً بن أبي زيد القيرواني المتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٧م وفي تأييده يقول^(١):

كادت تميد الأرض خاشعة الربى وتمور أفلاك النجوم الطلج^(٢)
عجبا أبدرى الحاملون لنعشه كيف استطاعوا حمل بحر مترع^(٣)
علما وحلما كاملا وبراعة وتقى وحسن سكينه وتورع
وسعت فجاج الأرض سعيًا حوله من راغب فى سعيه متبرع
يكونه ولكل باك منهم ذل الأسير وحرقة المتوجع

فالأرض تكاد تضطرب وتموج خاشعة الربى لهول موته، وبالمثل أفلاك النجوم الساطعة، ويهيج الشاعر متسائلاً أعرف الحاملون لنعشه أنهم استطاعوا حمل بحر ممتلئ علما وحلما وبراعة وتقى وحسن سكينه وجمال تورع، وقد اكتظت فجاج الأرض وطرقها الواسعة بالمشيعين الذين جاءوه محزونين عليه ييكونه خاشعين متوجعين ملتاعين. ويحكى غير واحد عن أبي طالب الدلائى الشاعر في الدولة الصنهاجية أنه فقد من أحبته نيفا وأربعين غريقا في البحر - ربما كانوا ذاهبين إلى صقلية - فصار شعره رثاء كله تفجعا عليهم ووفاء لهم^(٤)، من ذلك قوله في أحدهم:

نأى يسرورى وصبرى مصاً وأبقى فؤادى عليه صديعا

(٤) انظر في هذا الخبر وأبيات الدلائى الأغوج

(١) الأغوج ص ١٥٣.

(٢) تمور: توج.

(٣) مترع: ممتلئ.

ومات فمات سُرورى به وَصَّتْ حَيَاتى فَمَتْنَا جَمِيعَا
أَصَابَتْهُ عَيْنٌ مِنَ الْحَادِثَاتِ أَصَابَ الْعَمَى نَظَرُهَا سَرِيعَا

وهو يقول إنه حين فارقته أخذ سروره وصبره على بعده معه، وكأنما ترك جرحا بفؤاده، ولم يلبث أن مات غريقا فمات سرور الشاعر، وكان قد صان حياته من الرحيل معه، وشمر كأنه مات معه. ويقول كأن عينا من المحدثات أصابته، ويدعو عليها بالعمى جزاء وفاقا لها، ويقول ابن رشيقي تعليقا على الأبيات: «هذا هو التفجع والتوجع الذى يقطع القلوب حشرات، ويذهب العميون عبرات». وينشد من مراثيه بيتين، هما:

أَوْدَعْتُهُ بَطْنَ الثَّرَى وَتَرَكْتُهُ فِي رَمِيهِ وَالْمَوْتُ مَا لَا يَنْكُرُ
قَدَّمْتُهُ وَلَوْ أَنَّنِي أَنْصَفْتُهُ مَآكُنْتُ عَنْهُ سَاعَةً أَتَأَخَّرُ

فهو قد أودعه في رمسه أو قبره ببطن الأرض. والموت حق لا أحد ينكره، ويقول كأنه قدَّمه إلى الموت ولو أنه أنصفه لرافقه ولم يتأخر عنه ساعة. ويقول ابن رشيقي: «هذه أنفاس مشتتة عن نفس مشتتة قد دلت على ماني الصدر دلالة الشواظ على الجمر». ويموت لابن عبدون الذى مرت ترجمته بين شعراء الغربة ابن وكانت قد ماتت قبله زوجته ويبيكيها بمثل قوله^(١):

قَبْرٌ بِسُوسَةٍ قَدْ قَبِرْتُ بِهِ النَّهْيُ أَدْرَجْتُ قَلْبِي فِي مَدَارِجِ لَحْدِهِ
صُمْتُ عَلَى مَسَامِي فِي رَجَبَةٍ وَصُغِفْتُ مِنْ صَغِي الصُّرَاخِ وَرَعْدِهِ
وَجَهَدْتُ أَنْ أَهْكِي فَلَمْ أَجِدِ الْبُكَاءَ فَسَكْتُ سَكَنَةً صَارِمٍ فِي غَمْدِهِ
هَبْنِي بِكَيْتٍ لَهُ وَمَا يُجِيدِي الْبُكَاءَ مَاءٌ بِخُلْدِي وَالتُّرَابُ بِخُدِّهِ
هِيَهَاتَ قَدْ مَنَعَ الْهَدُوَّ لِنَظَرِي قَبْرَانِ ذَا وَلَدٌ وَذَاكَ لَوْدُهُ^(٢)

وهو يقول إنه دفن النهي والعقل السديد في قبر بسوسة، وكأنما أدخل قلبه في ثنايا لحدّه، ويقول كأنما سُلْتُ أذناه حين سمع رجّة موت زوجته وابنته، بل وكأنما أصابته صاعقة من صغق الصراخ ورعده، وكأنما غَشِيَ عليه فلم يستطع بكاء، وأخلد إلى الصمت إخلاد سيف في غمده، وماذا يجيّد سَلَّ سيف في الموت؟ وماذا يجيّد البكاء وعلى خده دموعه والتراب بخد ابنته، ويقول لقد منع النوم لعيني قبران: قبر ابني الحبيب، وقبر زوجتي المحبوبة. وقال على المحصرى الذى

(٢) الْهَدُوُّ بِتَشْدِيدِ الْوَاوِ: النُّوم.

(١) انظر الأنموذج ص ٣٩٤

مرت ترجمته بين شعراء الغزل يبكي أباه حين ودّع قبره عند رحيله إلى الأندلس^(١):

أبى! نَسِيراً الأَيَّامَ بِعَدِكَ أَظَلُّوا
وَبَنِيانُ تَجْدِي يَوْمَ مِتَّ تَهْلُوا
وَجِسْمِي الَّذِي أَبْلَاهُ فَقَدْكَ إِنْ أَكُنْ
رَحَلْتُ بِهِ فَالْقَلْبُ عِنْدَكَ خَبَا
وَقَى اللَّهَ عَيْتِي مَنْ تَعَمَّدَ وَقْفَةً
بِقَبْرِكَ فَاسْتَسْقَى لَهُ وَتَرَحُّمًا
وَقَالَ سَلَامٌ، وَالثَّوَابُ جَزَاء مَنْ
أَلَمَ عَلَى قَبْرِ الْغَرِيبِ فَلَمَّا

وهو يخاطب أباه يحزنوا قائلاً إن الأيام بعد فقده أظلمت وتهدم بنيان مجده وعزه يوم موته. وإن كنت راحلاً عنك بجسمي الذي أضناه فقدك فإن قلبي عندك مخيم مقيم. ويدعو لمن يقف على قبره مستسقياً مترحماً مسلماً راجياً أن يميزه الله خير الجزاء. ويقول ابن بسام منشداً الأبيات السالفة إن المصري لم يكتف بها في وداعه لقبر أبيه، فقد طأطأ رأسه ومدّ يده إلى التراب حول القبر، قائلاً:

رَحَلْتُ وَهَهْنَا مَنُوءَى الْحَبِيبِ فَمَنْ يَبْكِيكَ يَا قَبْرَ الْغَرِيبِ
سَاحِلُ مِنْ تُرَابِكَ فِي رِحَالِي لَكِي أَغْنَى بِهِ عَنْ كُلِّ طِيبِ

والبيتان مؤثران - كالأبيات السابقة - تأثيراً عميقاً لكل من فقد أباه واضطر إلى فراق قبره بعد موته. وكان على المصري في الذروة من شعراء القيروان المبدعين. ومات له ابن فجزع عليه جزعاً شديداً، ونظم فيه ديواناً على حروف المعجم سماه «اقتراح القريح واجترح الجريج» ومن قوله فيه وقد بلغ به الحزن أقصى غايته^(٢):

ذَوَى رِيحَانٍ الْأَرَجِ وَضَاقَ بِخِلِّ الْفَرَجِ^(٣)
ذَبِيحُ طُلٍّ مِنْهُ دَمٌ وَلَمْ يُقْطَعْ لَهُ وَدَجٌ^(٤)
عُرُوقُ النَّاسِ كُلِّهِمْ إِلَى عِرْقِ الثَّرَى تَشِجٌ^(٥)
بَنُو الدُّنْيَا كَأَنَّهُمْ لِقَلَّةٍ مِنْهُمْ هَمَجٌ
وَهَلْ هِيَ غَيْرُ دَارِ أَدَى إِذَا دَخَلُوا بِهَا خَرَجُوا
تَأْمُلُ كَيْفَ تَأْكُلُهُمْ وَهَمْ وَلَدُهَا يُتَجَرُّوا

(٤) الودج: عرق في العنق إذا قطع الذابح انتهت الحياة

(٥) تشج: تلف وتعود.

(١) انظر في رثاء علي المصري لأبيه. الذخيرة

لابن بسام ٢٧٠/٤

(٢) انظر في الأبيات التالية للذخيرة ٢٧٤/٤

(٣) الأرج: القطر.

يقول إن ريحانه العطر ذوى فجأة، وضاق بهاته الفرج من سقمه ومرضه، ولا يلبث أن يصرخ، فهو لم يمت حتف أنفه، بل مات ذبيحا وطلّ دمه وأهدر دون أن يُقَطَّع منه عرق العنق الذى لا تبقى مع قطعه حياة، ويعود المصرى إلى نفسه، فالتاس جميعا ميتون وكلهم راجعون إلى عرق الثرى الذى يشابهك مع عروقتهم، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في خلق آدم إذ قال: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. ويعجب لأبناء الدنيا وقلة همهم كأنهم هيج لا يعون حياتهم، ويقول إنها دار أذى وإنهم لا يلبثون حين يدخلون بها أن يخرجوا منها، بل تأمل كيف تأكلهم مع أنهم أبناؤها وكأنها هرة تلد أبناءها وتقتضهم. ونغضى إلى العاص الحسينى ويتوفى الشيخ محمد زيتونة العالم الجليل سنة ١١٤٤هـ/١٧٣١م ويرثيه الشاعر محمد الخضراوى بمثل قوله^(١):

قلب يذوبٌ ومهجة تنقطع وأسى يزيدٌ ومقلة لا تهجّع
ولهبٌ نيرانٍ تضرّم وقُدها يَصُلِّي بِحَجَرِهَا الحِشَاءَ والأضلع
وتلهفٌ وبُكَاءٌ وَقَرُطٌ كآبةٍ ومدامعٌ مَسْفُوحَةٌ لا تَقْلَعُ
فعليه فلتبكِ الأنامُ جميعهم وعليه فليَتوجّع المتوجّع

وقلب الشاعر يذوب حزنا لموت العالم الكبير ومهجته تنقطع حسرات ويزداد أسى وحزنا ويبيت مسهدا، وكأنما اضطرم لهيب نار في دخائله احترق حشاه وأضلمه بجمرته الموقدة، ويزيد به التلهف والبهكا والكآبة ولا تقلع الدموع بل تنهمر انهمارا لما نعى الناعى إمام العلماء وشيخ الأنام ومفزعهم في الفتوى ومسائل الدين، وعليه فليبك الناس جميعا ويتوجعوا لفقده ويتفجعوا مرارا وتكرارا.

ويرثى محمد الورغى في العصر الحسينى الأمير محمد الرشيد، ويجمع في مرثيته بين التعزية فيه وتهنئة أخيه على خَلْفِهِ بمثل قوله^(٢):

من أين أدركه الجِمامُ ودونه خَزَمُ السِّلَاحِ وَخَوَمَةُ الحُرَّاسِ
أنغافل البَوَّابُ أم سبقت له قبل الهجوم يدٌ مع العُصَّاسِ
جَهْدَ الزَّمَانِ ولو نَزَى بِمقامه ما ساقه قَسْرًا إلى الأَرْمَاسِ^(٣)
كادت عُرَا الإسلام تنقُضُ بعده لولا مقيم الدين بِالقِسْطِاسِ
ما أخلق الملك العلّى عمادةً بعلى الشهم التزمه الباسِ

(٣) الأرماس: جمع رمس: القبر.

(١) الأدب التونسى في العهد الحسينى ص ٥٧

(٢) الأدب التونسى في العهد الحسينى ص ١٧٠

وهو يعجب من أن الموت أدرك محمدًا الرشيد وسلاحه وحرسه من حوله للحمايته، ويتساءل هل تغافل الحِمَام أو الموت البواب أو سبقت له يد عند الحراس، ويقول إن الزمان لودرى بمقامه ما ساقه قهراً إلى القبور، وإن عُراً الإسلام الوثقى لتكاد تنقض بعده لولا قِيُض لها مقيم الدين بالعدل والقسطاس، عِلى أخوه، وما أجدر الملك الرفيع عماده به لحلقه الكريم.

(ب) رثاء المدن والدول

هذا الضرب من الرثاء قديم في الشعر العربي منذ الجاهلية على نحو ما هو معروف عن الأسود بن يعفر ورثائه لدولة المناذرة في الحيرة ولما قضى العباسيون على الدولة الأموية بكاهها أبو العباس الأعمى المكي. وحين حاصر طاهر بن الحسين قائد المأمون بغداد في حرب الأمين ورمها بالمجانيق وكثر فيها الحرق والهدم بكاهها غير شاعر عباسي بكاه مرأً وتقدم مع الزمن إلى سنة ٢٥٧ ويهاجم البصرة الزنج ويحرقون مسجدها الجامع ويحولونها أنقاضاً، وبكاهها الشعراء وفي مقدمتهم ابن الرومي الذي نفع لها وتوجع مستصرخاً لها الخليفة وجيوشه والأمة، ولَبَّاه الموفق أخو الخليفة، وظل ينازل الزنج نزالاً عنيفاً حتى قضى نهائياً على ثورتهم سنة ٢٧٠. ويدور الزمن دورات، وإذا أعراب بنى سليم وهلال يزحفون إلى القيروان سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م وينازلهم صاحبها المعز بن باديس الصنهاجي، ويلحقون به هزيمة شديدة، ويضطر إلى ترك القيروان لهم وينحاز إلى المهديّة عند ابنه حاكمها تميم، ويدخلون القيروان فيحولونها أنقاضاً، ويقضون على حضارتها، ويفرّ منها كثير من علمائها ونابهي شعرائها، وعن غادرها ابن رشيّق، ونراه يصف تلك النكبة في قصيدة طويلة، ومن قوله الحزين فيها^(١):

| | |
|---|---|
| المُسْلِمُونَ مَقْسُومُونَ تَسَالَهُمْ | أَيْدَى الْعَصَا بِذُلِّهِ وَهَوَانٍ |
| يَسْتَصْرِخُونَ فَلَا يُغَاثُ صَرِيخُهُمْ | حَتَّى إِذَا سَيَّمُوا مِنَ الْإِرْنَانِ ^(٢) |
| خَرَجُوا خُفَاءً عَائِذِينَ بِرَبِّهِمْ | مِنْ خَوْفِهِمْ وَمَصَائِبِ الْمَلَوَانِ ^(٣) |
| هَرَبُوا بِكُلِّ وَلِيدَةٍ وَقَطِيبَةٍ | وَبِكُلِّ أَرْمَلَةٍ وَكُلِّ حَصَانٍ ^(٤) |
| فَتَفَرَّقُوا أَيْدَى سَبَا وَتَشْتَتُوا | بَعْدَ اجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْأَوْطَانِ ^(٥) |

وهو يقول إن المسلمين تقسموا فرقا بيننا أيدي العصاة للرحمن تتألم بغير قليل من الذل والهوان، وهام أهل القيروان يستصرخون فلا يفاث صريخهم حتى إذا بُحَّت أصواتهم من

(١) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ١٤٥

(٤) حصان: سيدة عفيفة

(٥) يقال: تفرقوا أيدي سباً إذا تشتتوا في أرجاء

الأرض

(٢) الإرنان: الصباح والضراح.

(٣) الملوان: الليل والنهار

الصراخ ولا مغيث ولا مستجيب خرجوا على وجوههم يملكون حفاة عاندين يريهم من القتل والأسر وما يأتي به الملوان أو الليل والنهار من مصائب ونكبات، ويقول إنهم فروا من الأعراب بكل مولودة ومقطومة وبكل أرملة وكل عفيفة رجاء أن يحموهن من السبي والهوان، وتفرقوا وتشتتوا في البلاد وتشتت معهم العلماء والشعراء. وكان يعاصره ابن شرف، وله بدوره في القيروان حينئذ بكاء وتفجع مرير، وسنخصه بكلمة. ومن نديها وتذكر إخوانه بها وقد رحل عنها إلى الأندلس على الحصرى، وفيها يقول^(١):

أَلَا سَقَى اللَّهُ أَرْضَ الْقَيْرَوَانِ حَيًّا كَأَنَّهُ عَسْرَاتِي الْمُسْتَهْلَاتُ
فَلِإِنِّهَا لِدَنَةُ الْجَنَاتِ تُرْبَتُهَا مِسْكِيَّةٌ وَحَصَاها جَوْهَرِيَّاتُ
إِلَّا تَكُنْ فِي رُبَاهَا رَوْضَةٌ أَنْفُ فَإِنَّمَا أَوْجُهُ الْأَحْبَابِ رَوْضَاتُ^(٢)
لَا يَشْمَتُنْ بِهَا الْأَعْدَاءُ أَنْ رُزْتُ إِنْ الْكَسُوفَ لَهُ فِي الشَّمْسِ أَوْقَاتُ^(٣)
هَلْ مَطْمَعٌ أَنْ تُرَدَّ الْقَيْرَوَانُ لَنَا وَصَبْرَةٌ وَالْمَعْلَى فَالْجَنِّيَّاتُ

وهو يدعو للقيروان بالسقيا الوفرة كدموعه الغزيرة التي لاتزال كلما ذكرها استهلت فإنها رفيقة الجنات، تربتها مسك وحصاها جواهر لامعة، وإلا يكن في رباهما الآن بعد أن خربها بنو سليم وهلال روضة جديدة بديعة فأوجه الأحباب بها روضات فاتنة، ويذكر ما أصاب القيروان من خراب فيقول: لا يشمت بها الأعداء لأن رُزْتُ ونُكِبْتُ فإن الشمس الساطعة يلم بها الكسوف أحيانا، فهو رزه إلى أجل، وتعود بعده القيروان إلى حضارتها وازدهارها المعهود. ويتحى أن تعود سريعا إلى أهلها هي وصبرة وغيرها من المواضع والمدن. ومر بنا أن عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين استولى على مدينة قابس من يد مدافع بن رشيد الهلال بعد موقعة هُزم فيها مدافع وفر إلى أعراب طرابلس ثم لحق بعبد المؤمن في مدينة فاس فأكرمه وأسكنه بها، وكان ممن فر بعد الموقعة أبو ساكن عامر بن محمد من عشيرة مدافع وأبعد في فراره حتى دمشق وهناك بكى قابس وأيام حكم عشيرته لها. ومن قوله^(٤):

يَا حَارِ طَرْفِي غَيْرِ هَاجِعٍ وَاللَّيْمُ مِنْ عَيْفٍ هَاجِعٍ^(٥)
إِنِّي مِنَ الشُّمِّ الْأُلَى شَادُوا الْعَلَا أَبْنَاءُ جَامِعٍ
وَلَقَدْ مَلَكْنَا قَابِسًا بِالشَّرَفِيَّاتِ الْقَوَاطِعِ

(٤) المزمرة ١٣٩/١ وما بعدها والمجلد السندسية

٣٥٧/٢ وما بعدها.

(٥) هاجع: سائل

(١) الذخيرة ٢٧٧/٤

(٢) أنف: مزدهرة جديدة

(٣) رزنت: نزل بها رزه: مصيبة

تسعين عاما لم يكن فيها لنا أحدُ منازعٍ
عَبَثَ بنا أيدي الزمان وأحدثت فينا البدائع

وحارِ مرثعةُ أي ياحارث، وهو يشكو من أنه يبيت سهدا ودموعه تهمل لا تتوقف لسقوط قايِس في أيدي الموحدين وانتهاء حكم دولتهم من بني جامع الهلاليين، ويقول إنه من الشم العظام الذين شادوا العلا ورفعوها إلى الساء أبناء جامع الهلاليين الذين ملكوا مدينة قايِس بسيوفهم الحادة القاطعة تسعين عاما متصلة لم ينازعهم فيها أحد، وأخيرا عبث بهم أيدي الزمان فأخرجتهم من قايِس وتركوها إلى الأبد. ويبكى الدولة الحفصية في أواخر أيامها وحاضرتها تونس محمد بن عبد السلام وستخصه بكلمة بعد ابن شرف.

ابن^(١) شرف القيرواني

هو أبو عبادة محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي الأجدابي المولود بالقيروان حوالي سنة ٣٩٠ ويبدو من نسبته إلى قبيلة جذام أنه من أبنائها إما صلبية وإما ولاء، كما يبدو من تلقيبه بالأجدابي أن أصل أسرته من أجدابية بليبيا ونزلت القيروان وعلى كل حال هو قيرواني المولد والمنشأ والمربي، ويذكر ياقوت في صدر ترجمته له أنه درس على أبي الحسن القايِسي وأبي عمران الفاسي. وكان القايِسي شيخا جليلا من شيوخ القيروان في الفقه والتفسير والحديث، وتوفي سنة ٤٠٣ فلزم تلميذه أبا عمران الفاسي يأخذ عنه ما عنده كما لزم القزاز عالم النحو واللغة بالقيروان في زمنه وأيضاً لزم أبا إسحق إبراهيم الحصري المتوفى سنة ٤١٣ صاحب زهر الآداب، وكان حبيباً إلى نفوس شباب القيروان قريبا إلى قلوبهم، فكان يجتمع معهم عنده وينهل من معارفه الأدبية الكثيرة. وتفتحت ملكته الأدبية مبكرة، وألف في نقد الشعراء منذ الجاهلية مصنفاً موجزاً وصف كثيرين فيه وصفا مجملا سماه «رسائل الانتقاد» وهو أشبه بمقامة.

ويبدو أنه أخذ يحظى بمكانة مرموقة في الشعر مما جعله يتعرف على رئيس ديوان الإنشاء للمعز بن باديس الصنهاجي على بن أبي الرجال المتوفى سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٥م وأعجب بمدائحه فيه، فرأى أن يقدمه إلى المعز، ونال استحسانه، وأصبح من شعراء الدولة يتغنى بانتصاراتها على

التونسي ص ١٥٠ وابن شرف القيرواني للدكتور طه الهاجري (طبع بيروت).

(١) انظر ترجمة ابن شرف في الذخيرة ١٦٩/٤ وما بعدها والمحرية ٢٢٤/٢ ومعجم الأدباء لياقوت ٩٤/٢ والأفئدة ص ٣٤٦ والمجلد في تاريخ الأدب

قبائل زناتة ولواتة، ويدعو على المعز في المناسبات المختلفة بمُدائحه مع قرينه ورفيقه ابن رشيق، وكان المعز أديبا ويعقد ندوات يحضرها بعض العلماء والأدباء، وأصبحا شاعرية المقربين، وجُرَّ ما ينظمانه في مديحه إلى شيء من المنافسة بينها، وجُرَّت المنافسة إلى شيء من الجفوة ثم الخصومة، وفرزا أحيانا إلى التهاجي وأخذ كل منها يتمقب سقطات صاحبه، ويكتب في ذلك رسائل وخاصة ابن رشيق. وكثيرا ما كانا يعودان إلى التصاقى والمودة - وبينها هم في ذلك إذا بالزحفة الهلالية تدمر القيروان فيتركها الشاعران مع المعز إلى المهديّة، وسرعان ما ينزلان صقلية، ويظل بها ابن رشيق، أما ابن شرف فيرحل عنها مع أسرته إل الأندلس، ويبدو أنه لقي مع أطفاله الصغار عنتا في رحلته بهرا وبرّا، ويصورهم في بعض شعره حماما ضل أوكاره وكلما أفزعهم شيء تزاخوا على ضلوعه، وجفنته لا يسهم - إذ كانوا تسعة، فهذا ينبت عليه وذاك يُزلق عنه، وهو حان مشفق عليهم. وينزل المرية في الأندلس برحاب المعتصم بن صدامح ويمتدحه وينال عطاياه ويرسل ببعض قصائده إلى المعتضد أمير إشبيلية، وظل ينتقل بين أمراء المدن الأندلسية بيلنسية ومرسية وبطليوس وطليطلة والوزير ابن السقاء بقرطبة وينال عطايهم إلى أن توفي سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م. ولم يكن ابن شرف شاعرا فحسب، بل كان أيضا صاحب شعور رقيق رقة مفرطة، كما كان صاحب حس مرهف إلى أبعد حد، ويتضح ذلك في وصفه لنكة القيروان سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م حين نزل بها الأعراب الهلاليون، وأخذوا يفتكون برجالها ويسبون نساءها ويهدمون دورها ويأتون على كل ما كان بها من مظاهر الحضارة والعمران، وله فيها وفيها نزل بها وداعها من الخراب قصائد رائمة، يقول في إحداها - وهي رائية - إنه لم يبق بها سراج مضئ سوى النجوم ولم يعد ينطق فيها خليط معاشر ولا عاد يُرى فيها أحد من نساءها الجميلات فقد رحلن عنها وأصبحن يبتن على قرش الحصا يتفطين بأسمال بالية. ومن رائع تصويره لما حل بالقيروان من عدوان هؤلاء الأعراب الجفوة يوم غزؤهم لها ويصور هذا اليوم الأسود قائلا:

| | |
|----------------------------|---|
| بعد يوم، كأنما حُسِرَ الغل | حُفَاةٌ به عَوَارِي رَجُلِي |
| ولهم زحمةٌ هنالك تَحْكِي | زَحْمَةُ الْعُشْرِ وَالصَّحَائِفُ تَبْلِي |
| وعجيجٌ وضجةٌ كضجيج الـ | حَلْقِي يَكُونُ وَالسَّرَاتُرُ تَبْلِي ^(١) |
| من أَيْامِي وراءهن ينامي | مَلُتُوا حَسْرَةً وَشَجُوا وَتُكَلَّا ^(٢) |

(٢) أَيْامِي: جمع أَيْم: العزب من الرجال والنساء.
تُكَلَّا: فقدوا للولد

(١) في القرآن في وصف يوم القيامة أنه ﴿يَوْمَ تَبْلُ السَّرَاتِرُ﴾ وتعتبر.

وَنَكَالِي أَرَامِلًا حَامِلَاتٍ طفلةً تحمل الرُّضَاعَ وطفلاً^(١)

لقد كان يوما عصيبا لا كمثلته يوم، يوما حُشر فيه أهل القبروان حفاة عراة راجلين، يتدافعون في زحام رهيب كزحام الحشر يوم البعث حين تتلى الصحف، وصياح وضجيج وبكاء من كل جانب كأنه يوم الحشر حقا يوم تُبلى وتبدو السرائر، ونساء أيامي غير متزوجات اكتظوا حسرة وحزنا ونكالي فاقدمات لأزواجهن أرامل مرضعات يحملن طفلات أو أطفالا. ويستمر ابن شرف باكيا ما نزل بالقيروان قائلا:

| | |
|-----------------------------------|---|
| نادبات، عَفراء تُسْعِدُ سَعْدِي | وسعادٌ تجيب بالنوح جُملاً ^(٢) |
| ليس منهن من تودّع جارا | لا، ولا حُرْمَةً تشيعُ أهلا |
| فإذا القَفْرُ ضَمُّهُم فوق الدَّف | حُرُّ لهم غير ذلك النبل نَبْلاً ^(٣) |
| من ثعابين حاملين نبوياً | عُصلاً: ذاهلاً ونَبْلاً ونُصْلاً ^(٤) |
| وشياطين رامحين يُلاقو | ن بجُونِ الفَلَا مساكين عُرْلاً ^(٥) |

وهن نادبات، عفراء تساعد سعدى في الندب واليكاء وسعاد تجيب جملاً بالنواح والعيول، وليس منهن من تقف لتودّع جارا ولا سيدة تودّع أهلا، وإذا الخلاه ضمهم صوب الدهر لهم نبلا غير ذلك النبل من ثعابين حاملين نبوياً صلبة: رامحا ونبالا ونصلا، وشياطين تطعن بالرماح في سود الفلوات، مساكين عُرْلاً دون سلاح، ويكي ابن شرف رجال القبروان الذين ولوا منها فرارا، قائلا:

| | |
|---------------------------------|---|
| وإذا نَجَتْ المقاديرُ منهم | راحلا بالخلاص يحمل رَحْلاً ^(٦) |
| لقى الهَوْنَ والمذْلَةَ أنَّى | كان من سائر البلاد وَحْلاً |
| وترى أشرفَ البريةِ نفساً | ناكساً رأسه يلاطفُ نَذْلاً |
| مُزَّقوا في البلاد شرقاً وغرباً | يَسْكُبونَ الدموعَ هَطْلاً وَوَهْلاً ^(٧) |

والرجال إن نجت المقادير منهم راحلا ومعه رحله وما استصعبه فيه من الأوعية لقي الهوان والذل أنى كان وأين حل، وترى أشرف البرية وأعزها نفسا ناكسا رأسه يلاطف أحد هؤلاء

-
- (١) نكالي جمع ناكلة: فاقدة الولد.
 (٢) عفراء وسعدى وسعاد وجل أساء نساء.
 (٣) فوق: سُدّ.
 (٤) عصلا معوجة يريد صلبة. ذاهلا: رمحا دقيقا.
 (٥) رامحين: يحملون الرماح، جون: سود من كثرة الغبار.
 (٦) الرحل: ما يحمل على الدابة للركوب أو من متاع وأثاث.
 (٧) مَزَّقُوا: تفرقوا. هَطْلاً: متتابعة، وبلا: منهرة.

الأندال، ويا للحسرة لقد مُزّق وفُرّق أهل القيروان في البلاد شرقا وغربا، وإنهم ليسكبون الدموع متتامة ومدرازا. ولا ريب في أن ابن شرف استطاع أن يثأر لقومه وأهله من سكان القيروان من هؤلاء الأعراب الجفافة الغلاظ ثأرا خالدا على مر الزمن بفضل شاعريته الفذة النادرة.

محمد^(١) بن عبد السلام

هو أبو الفتح محمد بن محمد بن عبد السلام مولده ومنشؤه ومرباه بتونس في القرن العاشر الهجري اختلف في شبابه إلى حلقات العلماء بجامع الزيتونة، وكان ذكيا فحمل عنهم معارفهم وأخذوا يتوّهون به وخاصة في الأدب، ولمع اسمه بين أدباء تونس وشعرائها، ولما احتل الإسبان مدينة تونس وأخذت تصدر منهم المظالم التي سجّلها التاريخ غضب ابن عبد السلام لمدينته وقومه وصمّم على مفارقة البلاد واتجه إلى الشام واتخذ دمشق مقرا له، وأخذ يقرئ بها للطلاب العلوم المختلفة ونصوحا جيدة من الأدب إلى أن توفي سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م ودُفن بباب الفرديس، وله قصيدة طويلة أرسل بها من دمشق إلى أهله يتشوق فيها إلى وطنه، ويبكي تونس ودولتها الحفصية، وهو يستهلها ببث أشواقه قائلا:

سلاوا البارق التجديّ عن سُحب أجفاني وعما بقلبي من لواعج نيران
ولا تسألوا غير الصّبا عن صباي وشدة أشواقى إليكم وأشجاني
وكم نحوكم حملتُها من رسالة مدونة في شرح حالى ووجداني
وناشدتُها باقه إلا تفضّلت بتبليغ أحبّابى السلام وجيراني
تعيّة مشتاقٍ إلى ذلك الجعى وسكّانه والنّازحين بأطعان^(٢)

وهو يطلب إلى أهل بلده تونس الحبيبة أن يسألوا البرق المقبل من نجد منوى الحب عما ينفرد من دموع حنيننا إليهم وعما يضطرم في قلبه من نيران الشوق ولواعجه، ويقول لهم: لا تسألوا غير الصّبا - التي طالما ذكرها التجديون المعيون - عن أشواقى وصباي وأشجاني، وكم حملتها إليكم من رسالة مفعمة بمشاعرى الوجدانية، وقد ناشدتها الله واستحلفتها به أن تنفّض بتبليغ أحبّابى وجيراني التونسيين سلامى وإنها لتعيّة مشتاقٍ إلى ذلك الحمى وسكّانه وإلى النّازحين عنه في الأطعان والهوارج ويقول:

(١) انظر في ترجمته وشعره المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ٢٣٠.
(٢) أطعان جمع طمينة: الراحلة يرحل عليها، والهوارج.

سقى الله هاتيك الديار وأهلها
وحيا ربيع الحى من خمر بلدة
هى الحضرة العليا مدينة تونس
لها الفخر والفضل المبين بما حوت
سحائب تحكى صوب مدمى القانى^(١)
تخيرها قبلنا أفاضل يونان
أنيسة إنسان رآها بإنسان^(٢)
من الإنس والحسن المنوط بإحسان

وهو يدعو الله أن يسقى تلك الديار وسكانها بسحائب تحكى ما ينهل من مدمى القانى، ويسأل الله أن يحيى تلك البلدة العظيمة التى تخيرها قديما فضلاء اليونان، إنها المدينة العليا تونس مؤنسة كل إنسان يراها بعينه، وإن لها الفخر والفضل البين بما حوت من رجال الإنس ومن الحسن البارع، ويترسل باكيا الدولة الحفصية بها قائلا:

لقد حل منها آل حفص ملوكها
وسادوا بها عظم الملوك وشيدوا
وكان لهم فيها بهاء وبهجة
وكان لهم فيها عساكر جمّة
وكانت على الأعداء فى حرمة الوغى
مراتب تسمو فوق هامة كيوان^(٣)
بها من مبانى العز أفخر بنيان
وحسن نظام لا يُعاب بنقصان
تصول بأسيايف وتسطو بمران^(٤)
تصول بأبطال وتسطو بشعبان

وهو يبكى الدولة الحفصية مشيدا بملوكها الذين سمت مراتبهم فوق رأس كوكب كيوان أو زحل، وسادوا أكثر الملوك وشادوا بها من قصور العز أفخر القصور وكان لهم فيها حسن وبهجة وجمال، وكانت لهم جيوش كثيرة تصول وتقهّر بسيف ورمح صلبة، وكانت تسطو على الأعداء فى ساح لوغى والحرب بأبطال لا يماثلهم أبطال، ويبكى ما كان بتونس من علم وعلماء وأدب وأدباء قائلا:

وكانت لطلاب المعارف قبلة
وكان لأهل العلم فيها وجاهة
ومن أدباء النظم والنثر معشر
وما برحت فيها محاسن جمّة
لما فى جهاها من أنمة عرقان
وجاء وعز مجده ليس بالفاى
يفوق بنادى بلاغة شعبان
وفى كل نوع أهل جنق وإتقان

وهو يبكى حركتها العلمية والأدبية، ويذكر كيف كان الطلاب يؤمنون أنمتها من كل فج كما يذكر ما كان لعلمائها عند حكّامها وأهلها من جاء وعز مجده لا يفتى، ويشيد بأدبائها من

(٣) كيوان: زحل.

(١) صوب هنا: سيل.

(٤) المران: الرماح.

(٢) إنسان الثانية: إنسان العين وهو المدقة.

الشعراء والكتاب وبلاغتهم التي تفوق بلاغة سحبان المشهور بحسن بيانه في أوائل العصر الأموي، ويتوه بما كان بها من محاسن حضارية وصناعات بديمة قام عليها أهل حلق وافئنان وإتقان. ويأسى لهذا المصير المحزن الذي أصاب مدينة تونس قائلا:

فَشُنَّتْ ذَاكَ الْأَنْسُ مِنْ بَعْدِ جَمْعِهِ كَمَا انْتَثَرَتْ يَوْمًا قِلَاتُنْدُ عِجْيَانِ
فَأَعْظَمَ بَرْزُو خَصَّ خَيْرَ مَدِينَةٍ وَخَيْرَ أَنْاسٍ بَيْنَ عُجَمٍ وَعُرْبَانِ
لِعَمْرِي لَقَدْ كَادَتْ عَلَيْهَا قُلُوبُنَا تَضُرُّمٌ مِنْ خَطْبٍ عَلَيْهَا بَنِيرَانِ
وَمَا الدُّعْرُ إِلَّا هَكَذَا فَاصْطَبِرْ لَهُ رِزْسَةً مَالٍ أَوْ تَفَرَّقُ خِلَانِ

وهو يقول إن كل هذا الأنس الذي كانت تحظى به مدينة تونس وكل هذا الجاه والمجد تفرق وتشتت كما تشتت وتنتثر قلاتند أو عقود ذهبية بديمة، وما أعظمه من رزه فادح نزل على خير مدينة وخير أناس بين الأعاجم والعرب، وإن قلوبنا لتضطرم عليها نيرانا ملتهبة. ويعود إلى نفسه فيقول إنه ليس أمانا إلا الصبر حتى تنجلي عن مدينتنا تلك الغمرة. وهي حقيقة الدهر، فهو دائما يرضا المدن كما يرضا الناس إما في مال وإما في فراق إخوان وخلان.

٤

شعراء الوعظ والتصوف

(أ) شعراء الوعظ

القرآن الكريم دائما يعظ ويدعو الإنسان إلى التفكير المتصل في ملكوت السموات والأرض ليعلم أن له خالقا أحكم صنعه، ودائما ينه إلى أعمال وأقوال من العبادات التي تطهر نفسه كما ينه إلى أنه حرم الفواحش ما كبر منها وما صغر وأنه ينبغي أن يسلك طريق الفضيلة والتعلل بالخلق الحسن حتى ينال رضا ربه ناهذا كل الرذائل ومراقب ربه في كل ما يأتي من قول أو فعل. ويبدئ القرآن ويعيد في عقيدة المعاد وأن الناس سيبعثون جميعا يوم القيامة وكل يحاسب على أعماله ويحصى عليها فيما إلى نعيم الله ورضوانه وإما إلى جحيمه وعذابه. وشرع الله الخطابة الواعظة في صلاة يوم الجمعة كل أسبوع وصلاة العيدين، وواعظ الأمة الأول الرسول ﷺ وتلاه الخلفاء الراشدون يعظون الناس، وبالمثل خطباء الأمة في مشارق العالم الإسلام ومفاريه، وتكاثر الوعاظ - مع مر الزمن - يعظون الناس في المساجد، وللإقليم التونسي مثل غيره من الأقاليم الإسلامية نشاط واسع في هذا الجانب، ويكثف كتاب رياض النفوس للمالكي بأساء وعاظ كثيرين كانوا يعيشون معيشة تقشف وزهد، رافضين متاع الدنيا

طالبين ما عند الله من ثواب الآخرة. وساعد على انتشار هذه الروح الدينية هناك كثرة المحارس أو الرباطات التي أقيمت على طول الساحل التونسي للعبادة والنسك وحراسة البلاد من القراصنة وأعداء الله الروم وغيرهم. ولم يكن هناك فقيه كبير إلا ويقم بها بعض أشهر سنويا للدفاع عن الوطن حين يباغته عدو أو قراصنة، واشتهر سحنون إمام المذهب المالكي في المغرب جميعه بأنه كان يربط وقتا في السنة بالمنستير قرب مدينة سوسة، وكان واعظا وزاهدا كبيرا وكثير من تلاميذه كانوا واعظا زاهدا واشتهر منهم شاعران فقيهان واعظان، هما أبو العباس بن زرزور وأحمد الصواف، أما ابن زرزور فأكثر من الشعر في توحيد الله والرد على المارقين والملحدين، وأما أحمد الصواف فله شعر كثير في المواعظ وسنخسه بترجمة. ويلقانا بعده ابن الرايس الفضل بن نصر المتوفى سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م وهو من أفذاذ الشعراء والعلماء، وله يعط من قصيدة^(١):

ماذا ترىك حوادثُ الأزمانِ وصروفها وطوارقُ الحَدَثانِ^(٢)
والجارياتُ السَّبعُ في الفلكِ الذي يجرى بتقديرِ العظيمِ الشانِ
من خَفْضِ أعلامٍ وَرَفْعِ معاشِرٍ وزوالِ سلطانٍ إلى سلطانٍ
أما الزمانُ فواعظٌ لك صَرَفُهُ لو كنتَ مُتَعَطِّلاً بِصَرَفِ زَمانٍ

وهو يقول: ها هي حوادث الأزمان ونوائبها وحوادث الليل والنهار وما تجري به الكواكب السيارة في الفلك بتقدير الله وما يتصل بذلك من الهبوط بأناس والارتفاع بآخرين وزوال سلطان إلى سلطان، كل ذلك هو الزمان، وحرى بك أن تتعظ بصرفه وبما يجري به من محن وخطوب. ولا ريب في أن حلقات الوعظ الكثيرة التي كانت منبثة في القيروان وغيرها منذ القرن الثالث بل قبله هي التي أعدت لكثرة الوعظ على ألسنة الشعراء. ويقول عبد الله بن رشيح المتوفى سنة ٤١٩/١٠٢٩م^(٣):

خيرُ أعمالك الرِّضا بالمقادير والقضا
بينما المرءُ ناطقٌ قيلَ قد كان فأنقضى

وهو يدعو إلى الرضا بالقضاء فلن يستطيع أحد أن يبدل حكما له، وإنه لابد أن يقبل كل ما ينزله به، فذلك هو عين العقل والصواب. ويخوف عباده بن رشيح من الموت إذ ما يلبث أن ينزل بالإنسان، فيقال: قد كان حيا وانقضى أجله وانتهى. ويقول على بن أبي الرجال رئيس

(١) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ٨٨.

والنهار.

(٢) الأنموذج ص ١١٢.

(٣) صروف جمع صرف: نوائب الهدنان: الليل

ديوان الإنشاء للدولة الصنهاجية المتوفى سنة ٤٢٦ للهجرة^(١) :

أَمَّنُ الزَّمَانَ زَمَانَةَ الْعَقْلِ فَأَغَشَى الْإِلَهَ وَحُلَّ عَنِ الْجَهْلِ^(٢)
واعلمُ بأنك في الحساب غدا تُجزى بما قدمت من فعل

وهو يقول إن من يأمن الزمان لا يبعد صحيح العقل، بل لكأنما عقله به آفة، وأى زمان إتنا نحى فيه حياة قصيرة أو طويلة ثم نلقى الله فحرى بكل شخص أن يخشاه وأن يتخلص مما على عقله من غشاوة الجهل فإنه معروض على ربه في الحساب غدا ويجزى بما قدمت يده من عمل طيب أو سيئ. ويقول على بن حبيب التتوخي المتوفى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٩م واعظا^(٣) :

للمرء في أيامه واعظُ لو فُكِّرَ المَرُورُ في رَمِيهِ^(٤)
كم من قَرِيرِ الْعَيْنِ فِي غِبْطَةٍ أَعْرَاهُ صَرَفُ الدَّهْرِ مِنْ لَبِيهِ
فَفَارَقَ الْأَحْبَابَ عَنْ كُرْهِهِ وَاسْتَبَدَلَ الْوَحْشَةَ مِنْ أُنْبِيهِ
يَارِبُ غَفْرَانِكَ يَرْجُو الَّذِي أَسْرَفَ فِي الدُّنْيَا عَلَى نَفْسِهِ

وهو يعظ المَرُورَ بأنه لو فكر في رمسه أو قبره وأنه مدفون به غدا لطأطأ من غروره، وتذكركم من شخص كان مسرورا في نعمة وحياة رغدة طيبة جرَّه حادث الدهر من ذلك كله، ففارق الأحباب مكرها مرغا وأصبح في حفرة مظلمة لا أنيس ولا رفيق . ويتجه الشاعر إلى ربه معترفا بما أسرف على نفسه من الذنوب راجيا منه الغفران. ويقول عبد الله التجاني الذي ترجنا له بين شعراء المديح من قصيدة وعظيمة طويلة^(٥) :

بَادِرْ إِلَى التَّقْوَى بِدَارِ مَسَارِعِ وَانْهَضْ إِلَى الطَّاعَاتِ نَهْضَ سِبَاقِ .
وَاعْتَمِ مِنَ الْأَيَّامِ مَهْلَةَ سَاعَةٍ قَبْلَ التَّفَافِ السَّاقِ مِنْكَ بَسَاقِ
يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ كَدْحًا وَأَنْتَ لَمَّا كَدَحْتَ مُلَاقِ
وَالْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا هُوَ فَاعِلٌ وَجَزَاؤُهُ جَارٍ عَلَى اسْتِحْقَاقِ

وهو ينصح من يخاطبه بالمبادرة إلى التقوى وعبادة الله بدار مسارع عجل، وبالنهوض إلى

(٤) رسم: قبر.

(١) المجلد ص ١٢٩.

(٥) الحلل السندية ٥١٦/٢ والمجلد في تاريخ

(٢) زمانة: مرض. حُل: تحول.

الأدب التونسي ص ٢١٣.

(٣) الأنموذج ص ٢٨١ والحلل السندية ٣٣٤/٢

والمجلد ص ١٣٤.

أداء الطاعات نهوض من يريد الحصول على قصب السبق، وينصحه كذلك أن لاتأفلت منه مهلة ساعة أو لحظة دون أن يعبد الله حق عبادته قبل أن يوافيه القدر ويبيع يوم القيامة يوم الهول الأكبر والتفاف الساق بالساق كما جاء في وصف يوم البعث بسورة القيامة. ويستعين عبد الله في البعث الثالث بالآية القرآنية في سورة الانشقاق: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ فالإنسان عامل في دنياه وسيلقى جزاء ما عمل من خير أو شر في أخراه. إذ كل يُجْزَى بحمله وينال ما يستحقه من ثواب أو عقاب. وحرى بنا أن نتوقف قليلا عند الصوف ومواعظه.

أحمد^(١) الصوف

هو أحمد بن أبي سليمان داود الصوف، ولد سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م ودخل الكتاب مثل لداته وحفظ فيه القرآن الكريم، واختلف إلى حلقات المحدثين والفقهاء، ولزم حلقة سحنون وكان من أقرب تلاميذه إليه لما عهد فيه من ذكاء، وفي كتاب الحلل السندية روايات مختلفة له عن أستاذه تتصل ببعض أخباره وبعض الأحاديث النبوية. وكان ثقة في الفقه والعلوم الإسلامية، وروى كثيرا من الشعر غذى به ملكته الشعرية، وكان يوصى طلبته بالوقار والتعفف وبجاسة العلماء وبجانبية الأشرار، وكان كثير التأمل في ملكوت السموات والأرض، ونقش على خاتمه: «أحمد تفكر تعتبر» ويؤثر عنه أنه كان يقول: أنا حُبْسُ (موقوف) وكتبى حبس على طلبة العلم، فهو محبوب على عبادة ربه ونسكه وكتبه محبوب على طلاب العلم والمعرفة، وكان شاعرا جيدا وطبيعي أن تكون أكثر أشعاره في الحكمة والعظة الحسنة، وعاش طويلا حتى وافاه الأجل سنة ٢٩١هـ/٩٠٣م ومن وعظه:

| | |
|---|---|
| تَرَكْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ لِأَهْلِهَا | وَجَانِبْتُهَا طَوْعًا فَجَانِبْنِي الرَّدَى |
| أَرَانِي بِحَمْدِ اللَّهِ فِي الْمَالِ زَاهِدًا | وَفِي شَرَفِ الدُّنْيَا وَفِي الْعَرْزِ أَزْهَدًا |
| تَخَلَّيْتُ عَنْ دُنْيَائِي إِلَّا ثَلَاثَةً | دَفَاتِرَ عِلْمٍ ثُمَّ يَتِيمًا وَمُسْجِدًا |

وهو يقول إنه لم يتعلق بشيء من تكاليف الحياة ومتاعها، ولذلك بارك الله في حياته وجانبه الموت، ويصرح بأنه زاهد في كل ما يطمع فيه الناس من المال ومن الشرف والعز والمجد فكل ذلك لا يعتد به إنما يعتد بثلاثة لا غير: بدفاتر العلم ومدارسته وبالمسجد يتبتل فيه إلى ربه وببيت يأوي إليه، فتلك الثلاثة هي غناه وسعادته وكل ما يقتنيه من دنياه. ثم يقول:

(١) انظر في أحمد الصوف رباح النفوس السندية (انظر الفهرس).
للبالكي ٤٠٧/١ وما بعدها والمجلد ص ٦٩ والحلل

ألم تر أن الدهر يَفْرِي أَهْلَهُ
فما حلَّ قومٌ فيه إلا بِفَجْعةٍ
وكم قد رأينا من عزيزٍ مشرفٍ
أنته المنايا وهو في حين غَفْلةٍ
هموماً وأن العيش صار مُنْكَدًا^(١)
وأنتَ لأخرى فيه منتظرٌ غدا
يبعث مَقْرَأً في القباب مُمَهَّدًا
فأضحى ذليلاً في التراب مَوْسِدًا

وفيم تعلق الناس بالدنيا؟ إن الدهر لا يزال فيها يَفْرِي الناس - ويطمعهم - هموماً من بعد همٍّ، وقد صار العيش فيها نكدًا كله، وهل أحد فيها إلا أصابته فجعة أو مصيبة موجعة من موت صديق أو قريب، وإن الكأس التي ذاقوها ليدوقها كل شخص بدوره، وكم قد رأينا من عزيز له شرف لا يدانيه شرف يترك ذلك كله حين يوافيه القدر إلى قبر محمد بين القبور، وإنه ليموت على حين غفلة من أهله وأصفيائه، ويدفن في التراب ويتوسده ويصبح فيه أسيرًا ذليلاً لا شرف ولا طنافس، ولكن تراب بجانبه تراب. وقال مبتهلاً إلى ربه في ختام قصيدة له طويلة:

أَجْرُنِي مِنْ عَذَابِكَ وَاعْفُ عَنِّي وَكُنْ لِي مِنْكَ يَا أُمْلَى مَجِيرًا
فإني قد كبرتُ ورقٌ عَظُمِي وَجِئْتُ إِلَى فَنَائِكَ مُسْتَجِيرًا

فهو لا يخاف الموت ولا يرهبه، ولذلك لا يعد المشيب نذيرًا له بل بشيرًا، إذ سيلقي ربه، وعاش حق توفى في السابعة والثمانين من عمره.

(ب) شعراء التصوف

مر بنا في الفصل الأول كيف أخذت تنشط حركة الزهاد والنساک في القيروان وتونس وغيرها من بلدان الثغور على الساحل التونسي منذ أواخر القرن الثاني للهجرة، إذ بُني بجوار هذه الثغور رباطات - وتسمى هناك محارس - للمجاهدين في سبيل الله ضد القراصنة وكانت أشبه بحصون كبيرة إذ كان بعضها يبلغ نحو ثلاثين غرفة ومعها مسجد وحمامات وأحواض مياه، وكثيرا ما كان يُلْحَقُ بها إسطول للخليل حتى يتمرن العباد فيها والناسكون على الفروسية ولقاء العدو، وطبيعي أن كان بها بعض الأسلحة. وأعطت هذه المحازس أو الرباطات الفرصة لكي تتكون طبقات من النساک الذين وهبوا نفوسهم للنسك والجهاد أعداء الله، وكان الفقهاء - حتى كبارهم من أمثال سحنون إمام المذهب المالكي في الفقه - ينزلونها فترات ويلقون بها محاضرات ودروسا من شأنها أن تزيد النساک نسكا وأن تدلح الحماسة في قلوبهم لحماية الإقليم التونسي.

وصمنا الآن جانب النسك والعبادة، وقد أخذ كثيرون في تلك المحارس يعيشون للنسك الخالص وحاكمهم في ذلك بعض سكان القيروان وغيرها من المدن. وكان التصوف قد أخذ يشيع في المشرق وانبثق عنه ضرب فلسفي آمن بالحللول على نحو ما هو معروف عن الحلّاج المتوفى سنة ٣٠٩ للهجرة، وظلت القيروان ومحارس الساحل التونسي بعيدة عن هذا التصوف الفلسفي، غير أنه مع الزمن أخذ يظهر فيها من استغرقوا في الزهد والنسك، حتى ليتمكن أن نسميهم متصوفة، غير أنهم متصوفة سنيون، وهو تصوف فردى فلا طريقة صوفية للمتصوف ولا مبادئ خاصة يتخذها لطريقته الصوفية مثل أبي عقّال المار ذكره غلبون بن الحسن بن غلبون من أسرة الدولة الأغلبية من أبناء مدينة رقّادة بالقرب من القيروان، وكان عابدا ناسكا، وهاجر إلى مكة واختارها دار مقام له إلى أن توفى. وله أشعار زاهدة كثيرة عليها مسحة من التصوف أنشد منها المالكى في رياض النفوس مقطوعات متعددة^(١).

ومن متصوفة هذا الدور محرز بن خلف المتوفى سنة ٤١٣ وأبو الفضل بن النحوى المتوفى بعده بقرن. وسنخصص كلا منهما بكلمة. ومعنى ذلك أن القيروان ظلت لا تعرف التصوف الفلسفي ولا الطرق الصوفية حتى منتصف القرن السادس الهجرى إلا ما كانت تقرأه في الكتابات المشرقية، وتنتشر موجة التصوف الفلسفي غربى الإقليم التونسى بمدينة بجاية إذ ينزلها أبو مدين شبيب المتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م وكان يشوب تصوفه شيء من النزعة الفلسفية، وتبعه كثيرون في الجزائر والمغرب وزار تونس، وتبعه فيها غير تلميذ مثل أبى سعيد خلف بن يحيى التميمى المولود سنة ٥٥١ والمتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م. ويبدو أن عقيدته الصوفية لم ترسخ في القيروان، وزار تونس - بعده - يحيى الدين بن عربى المتصوف الأندلسى المتوفى سنة ٦٣٨ وأقام بها مدة التف فيها حوله بعض الأتباع، وأهم منه ومن أبى مدين تأثيرا في الإقليم التونسى أبو الحسن الشاذلى المولود سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م والناشئ فيه بشاذلة إحدى بلداته واتجه إلى التصوف مبكرا، ورحل إلى المشرق وتعرف فيه على أحد معتققي الطريقة الرفاعية، وهى إحدى الطرق الصوفية السنية التى ظهرت بالمشرق في القرن السادس الهجرى، وعاد إلى المغرب واتجه غربا إلى فاس ولقى فيها عبد السلام بن مشيش أحد أتباع طريقة أبى مدين، فلزمه مدة، ثم تركه إلى شاذلة وعاش بها فترة، وكان يتركها، أحيانا إلى تونس وينشر فيها دعوته، وتبعه فيها أصحاب كثيرون وكان يهاجم الخانقاهات والتسول بقوة، وتعرف على تلميذه أبى العباس المرسى وأعجب كل منها بصاحبه. ويبدو أنه رأى أن يتسع بدعوته إلى طريقته، فصمم على مغادرة تونس إلى الاسكندرية وصحب معه

أبا العباس المرسى وجما من مريديه ونزلها سنة ٦٤٢هـ، ويقال إنه ترك في تونس حسين تلميذا متصوفا من أتباعه مثل علي القرجاني وعائشة المنوية^(١) وطريقته أقرب إلى الطرق الصوفية السنية منها إلى الطرق الصوفية الفلسفية، وشاعت طريقته لا في الاسكندرية وحدها، بل أيضا في القاهرة والمدن المصرية المختلفة، بفضل تلميذه السكندري ابن عطاء الله، وقد تولى مشيخة الطريقة بعد وفاة أبي العباس المرسى سنة ٦٨٥هـ وله فيه وفي الشاذلي كتابه الرائع لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسى وشيخه أبي الحسن» وقد ساق فيه أربعة أوراد للشاذلي، وأخذت تتولد من هذه الطريقة بمصر طرق جديدة مثل الطريقة الوفائية، وكلها تنزع منزعا سنيا. وظلت الطريقة الشاذلية تشيع في عصر الدولة الحفصية، وأخذت تشيع معها طرق صوفية مختلفة. ولا بد أن نشير إلى اهتمام هذه الدولة ببناء الزوايا في تونس لكبار المتصوفة، حتى اكتظت بها المدينة كما لا بد أن نشير إلى مذكراته في الفصل الأول من أن المتصوفة في العهد الحفصى انحرفوا عن واجبهم من الجهاد ضد أعداء الله وعاشوا عالة على الدولة والأمة مرددين للعامة كلمات القطب والأبدال والكرامات. وتوقف قليلا لتتحدث عن صوفيين سنيين ميكريين هما محرز بن خلف وأبو الفضل بن النحوى.

محرز^(٢) بن خلف

هو محرز بن خلف بن رزين من ذرية أبي بكر الصديق رضى الله عنه، نشأه ومرباه بتونس، ولا بد أن كان والده من فضلائها، وقد عكف على حلقات الشيوخ بها ينهل من معينهم في الفقه والتفسير والحديث النبوى، وأيضاً في علوم العربية. ولم يحاول بعد أن فرغ من تعلمه وأخذ ماعند الشيوخ أن يجلس إلى حلقة يعلم فيها الطلاب الناضجين من الشباب، بل رأى أن يعنى بتعليم الناشئة العربية وأصول الدين الحنيف وتعاليمه، وكان يسلك في ذلك طرقاً تعليمية حميدة مما جعل الناس يطلقون عليه اسم المربي محرز. وكانت مدرسته في مدينة تونس معروفه باسمه، دفن فيها، وكان تقياً صالحاً يتوفر على عبادة ربه والنسك له، مما لفت إليه أنظار مواطنيه، وجعلهم يحسنون الاعتقاد فيه، حتى أطلقوا عليه اسم الولي الصالح، وظل هذا الاعتقاد يلازم التونسيين بعد وفاته عن سبعين عاماً ونيف سنة ٤١٣ حتى لقبوه بسلطان المدينة، لقب خصوه به دون غيره من الصوفية أصحاب الزوايا الكثيرين في البلدة. ونسوق بعضاً من كلام صاحب الحلل السندسية في ترجمته له إذ يقول عنه: «الشيخ الأستاذ الذى شحن بفتحات عوارفه الألباب، وتغذى من الإخلاص بخالص اللباب، وفتح له بحضرة اللطائف أعرض باب... ألا وهو الحجاب الإحاطى بقصور العرفان والكوكب الذى قصر عن مشاهدته العيان، والكهف

والمجمل في تاريخ الأدب التونسى ص ١١٦.

(١) من قرية منوبة بالقرب من تونس.

(٢) انظر في محرز الحلل السندسية ٨٧٤/٤.

الذى استظل تحت جناح مدده الملوان (الليل والنهار).. المالكى مذهب الصوفى دأبا البكرى (نسبة إلى جده) نسا». وهى مبالغة واضحة، غير أنها تدل - من بعض الوجوه - على مدى اعتقاد التونسيين فيه. ومن قوله فى الدنيا وتصاريقها وتقلباتها:

أبدت لنا الدنيا زخارف حُسْنها مكرًا بنا وخديعة ما فُتِرَتْ
وهى التى لم تَحُلْ قط لذائق إلا تكدر طعمها فتنسُرَتْ
خداعةً بجمالها إن أقبلت فجاعةً بزوالها إن أدبرت
وهابةً سَلابةً لِهباتها طَلابةً لخراب ما قد عُمِرَتْ
فإذا بنت أمرًا وتم بناؤها نصبت مجانقها عليه فدمرَتْ

وهى عظة بديعة، يقول: لا تغتر بما يهديه لك الدنيا من زخارفها وزينتها، فذلك مكر منها وخديعة لا تقصر فيها، إنها لم تَصِفْ وتَحُلْ قط لذائق إلا تغير طعمها وتمرر مرا شديدًا، وحذار من إقبالها بحسنها عليك فإنها لا تلبث أن تدبر عنك وتقعك فيها أعطتك، إنها وهابة غير أنها سرعان ما تنسلب ما وهبتك، وإنها لتخرّب ما عمرته لك، وإذا شادت أمرًا ورفقته عاليًا سرعان ما تنصب مجانقها عليه وتدمره تدميرًا كأن لم يكن شيئًا مذكورًا. ومحاول أن يعزى المظلومين قائلًا:

إذا ظالم قد عاهد الظلم مذهبًا وجار غلوا فى غلو اكتسابه
فكله إلى ربّ الزمان وجوره سيبدى له ما لم يكن فى حسابه
فكم ذا رأينا ظالمًا منجبرًا يرى النجم تيهًا تحت ظل ركا به
فلما تمادى واستطال بجوره أناخت صروف الحادثات بيباه
وعوقب بالذنب الذى كان يجتنى وصب عليه الله سوط عذابه

وهو يقول للمظلوم إذا رأيت ظالما باغيا غلا وجار فى بغيه وعدوانه فاصبر ودعه إلى صرف الزمان وتقلبه فإنه سيريه ما لم يكن يخطر على باله، وكم رأينا ظالما عاتيا بلغ من عتوه وتجبره أن كان يرى النجم كأنه يمشى فى ركا به، ولما قادى فى عتوه وبغيه وظلمه نزلت النكات بيباه وأقامت به لا تهرحه فوقب عقابا أليا بذنبه الذى جناء بعمى بصيرته وصب الله عليه سوط عذابه جزاء وفاقا لظلمه وبغيه. وله موعظة جعل موضوعها مدينة قرطاجنة عاصمة الفينيقيين، ومن بعدهم الرومان والبيزنطيون، وتحدث عن عظمة الأولين البحرية وبناء الثانين للطياطرو (اللتياترو) وبناء حناياها لتوصيل مياهها وتشبيدهم للقصور، ويقول إن كل ما عاشت فيه كل تلك الدول المختلفة أصبح أطلالا دوارس، ويغتمها بقوله عن حكامها جميعا واعظا ومنبها إلى أنه لا بقاء لشيء فى الحياة:

لقد وُسِّدوا بعد الحرير جنادلاً ولم يُغْنِ عنهم ما بَنَوْه وشيّدوا ولم يَمُتُوا في الدهر مع من تمتّوا ولن تَسْمَعُوا إلا الصدى بعد هاتِفٍ مجيئاً له ثم الرياح الرُّعَاةُ^(١)

وهو يقول إن حكامها بعد معيشتهم في القصور الباذخة وما كانوا يتوسدون من الحرير والإستبرق والطنافس أصبحوا يتوسدون الصخور والتراب، وعينها حاولوا أن يدفعوا عنهم حوادث الدهر إذ خَرُّوا صرعى جميعاً، وبلغت الشيخ محرز إلى صاحبه هاتفاً إن جزعاً يربوعها الدارسة نادياً وتسمعاً فإنك لن تسمعاً إلا صدى ندائك ورياحاً عاصفة، إذ أصبحت تلك المدينة ذات التاريخ العريق والأبنية الشائخة أطلالا عافية ورسوماً دائرة، وهذه هي الدنيا كل شيء فيها إلى بلى وفناء

أبو الفضل^(٢) بن النحوى

هو أبو الفضل يوسف بن محمد الذى عُرف باسم ابن النحوى، مولده ومرباه بمدينة توزر قاعدة بلاد الجريد فى الإقليم التونسى وتركها شاباً إلى القيروان لينهل من حلقات شيوخها وصحب اللخمي وأخذ عنه صحيح البخارى، ولما توفى لزم تلميذه المازرى حامل لواء الفقه المالكي، وحمل عنه مصنفاته الفقهية وأماله فى الحديث النبوى، ونزل قلعة بنى حماد وأقرأ أو درس بها للطلاب وجال فى أنحاء المغرب، وأقرأ فى سجلماسة وفى فاس، وعاد إلى قلعة بنى حماد وتصدر فيها للتدريس بقية حياته إلى أن توفى عن ثمانين عاماً سنة ٥١٣هـ/١١٢٠م، وكان لا يقبل من أحد عطاء ولا من حاكم راتباً، وظل يعيش طوال حياته من دخل مزرعة له بتوزر. وكان مثلاً رفيقاً للعلماء وعلى سنن الصالحين، قال عياض: «كان من أهل العلم والفضل، شديد الخوف من الله، غالب حاله الحضور معه تعالى». وله قصيدة استغاثية بديعة تسمى «المنفرجة» طارت شهرتها فى الآفاق وفيها يقول:

اشتدّى أزمة تنفرجى قد آذن ليلى بالبلج^(٣)

(١) الزعازع: الشديدة

(٢) انظر فى أبى الفضل بن النحوى الحفيدة

(٣) ٣٢٥/١ وعنوان الدراية للقرينى ص ١١٤

والفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية لابن منقذ

ص ٢٦٨ وكتاب تعريف الخلف برجال السلف

للحنفاوى ١٩٥/١ وما به من مصادر والمجمل فى

تاريخ الأديب التونسى ص ١٧٢ وتاريخ الأدب

العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١٠٩/٥ وذكر

لقصيدته المنفرجة - شروحا كثيرة منها شرح

للقاوسى البجائى وشرح لشيخ الإسلام زكريا

الأنصارى كما ذكرها تشطرات ونغميات مختلفة.

(٣) البلج: ضوء الصباح.

وظلام الليل له سُرُجٌ حتى يفتشاه أبو السُّرُجِ^(١)
 وسحابُ الخير له مطرٌ فإذا جاء الإِبَّانُ بجي^(٢)
 وفوائد مولانا جُمْلُ لسرورِ الأنفس والمهيج
 ولها أَرْجٌ مُحمي أبداً فاقصد مَحْيَا ذاك الأَرْجِ^(٣)
 والخلق جميعاً في يَدِهِ فَذَوُوا سَعَةً وَذَوُوا حَرَجِ^(٤)

وهو يسلم أمره إلى ربه مؤمناً بأن أى أزمة أو كارثة مهما اشتدت لابد أن تنفجر، وأن ليلها ليوشك أن يتلوها البلج أو ضوء الصباح، ونفس ظلام الليل الداجي له سرج من النجوم حتى يغمره ضوء الشمس أبو السرج، وإن كل شيء له أوان، وما أسرع أن يهطل سحب الخير حين يأتي إِبَّانُه وأوانه، وإن نعم الله لتأتى جُمْلًا تترى لتضيء النفوس والأرواح ولها شذى عطر محي دائماً فاقصده واحرص عليه حتى تحيا حياة هنيئة، وارض بقضاء الله في قسمته الخلق بين موسع - ومضيق - عليه في الرزق، فلذلك حكمته. وفيها أيضاً يقول:

وإذا انفتحت أبوابُ هُدًى فاعجلْ لخزائنها وَلِجِ^(٥)
 ولطاعته وَصَبَّاحَتْهَا أنوارُ صباحِ مُنْبَلِجِ^(٦)
 من يخطُبُ حورَ العينِ بها يظفرُ بالخور وبالفَنَجِ^(٧)
 وكن المرضي لها بتقى نرضاه غَدًا وتكون نَجِي

وهو ينصح مخاطبه إذا انفتحت أمامه أبواب الهدى أن يسارع إلى ولوجها ودخولها ليهنأ بطاعة ربه وأنوارها المضيئة المشرقة، وليكون من أهل الجنة ويحظى بالخور ودلائن وجالهن، وهولن ينالهن إلا بتقى الله حق تقاته وعبادته له حق عبادته. ويوصيه بتلاوة القرآن الكريم والتهجيد قربي لرضوان ربه. والمنفرجة في أربعين بيتاً، كلها بهذه اللغة السلسلة العذبة وهذه الموسيقى ذات الألحان البديعة. وكان أبو الفضل صوفياً بحق، يأخذ نفسه بالتقشف ويلبس خشن الصوف، ويعبد الله كأنه يراه أو كما قال عياض كأنه حاضر معه، وله يضرع إلى الله تعالى في بعض تهجده:

-
- (١) سرج: يقصد النجوم. أبو السرج: ضوء الشمس.
 (٢) الإِبَّان: الأوان.
 (٣) أَرْج: عطر.
 (٤) حرج: ضيق.
 (٥) وليج: ادخل.
 (٦) صباحة: إشراق. منبلج: مضى..
 (٧) الخور العين: نساء الجنان كما في القرآن. الفنج: الدلال.

لَيْسْتُ ثَوْبَ الرُّجَا وَالنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا وَقَمْتُ أَشْكُو إِلَى مَوْلَائِي مَا أَجْدُ
وَقُلْتُ يَا سَيِّدِي يَا مُنْتَهَى أَمَلِي يَا مَنْ عَلَيْهِ يَكْشِفُ الضَّرَّ أَعْتَمِدُ
أَشْكُو إِلَيْكَ أَمُورًا أَنْتَ تَعْلَمُهَا مَالِي عَلَى خَنْطِهَا صَبْرٌ وَلَا جَلْدُ
وَقَدْ مَدَدْتَ يَدِي لِلضَّرِّ مُشْتَكِيًا إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ مُلَّتْ إِلَيْهِ يَدُ

وهو يضرع إلى ربه لابساً ثوب الرجاء والأمل والناس نيام قانما بين يديه يشكو متضرعاً متذللاً إلى سيد الكون ومنتهى أمله في دنياه أن يكشف عنه الضر وكل ما يعلمه مما لا طاقة له ولا صبر ولا جلد على حله، ويقول ضارعاً شاكياً لقد مددت يدي إلى خير من قد له الأيدي فلا تردني عن بابك خائباً، واكشف عني ما أصابني من ضر بفضلك وإحسانك وإنعامك.

٥

شعراء المدائح النبوية

الرسول ﷺ المثل الأعلى الكامل للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وهم حين يحججون يقصدون إليه في المدينة لزيارة قبره المطهر، وما من مسلم إلا وهو يتمنى هذه الزيارة الشريفة، فإن أقعدته - أو منعت - الضرورة وكان شاعراً دبج قصيدة يتشوق فيها إلى اكتحال عينيه برؤية قبر حبيب الله وصفه: الرحمة المهداة والنعمة المسداة إلى أمته المخصوص بالإسراء ليلاً إلى بيت المقدس ومعراجة أو رقيه إلى السموات السبع، الذي خُصَّ بالقرآن الكريم معجزته الكبرى التي ليس لها سابقة ماثلة ولا لاحقة، مع ما اتصف به من خلق رفيع يعجز البهائم عن وصفه، ومع رسالته الإلهية الهادية التي تحقق للناس السعادة في الدارين. وقد دبج حسان وكعب بن زهير وغيرهما في حياته قصائد بدعية في مديحه، وتكاثر سيول هذا المديح بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى إلى اليوم على ألسنة شعراء العالم الإسلامي شرقاً وغرباً بحيث تكون نهراً عظيماً لكل بلد أو قطر إسلامي جدولته المتدفق فيه. والإقليم التونسي كغيره من الأقطار الإسلامية له جدول تفرق فيه المدائح النبوية. ولن نستطيع أن نعرض ما قاض على ألسنة شعراء القيروان وتونس من هذه المدائح، وخاصة في العصر الحسيني - لكثرتها، ولذلك ستكتفي بإثنين من العصور المختلفة اشتهرت بمدائحها النبوية، وهما عبادة الشقراطسي وابن السَّمَّاط المهدوي.

عبد^(١) الله الشُّقْرَاطِيْسِي

هو عبد الله بن يحيى بن علي الشُّقْرَاطِيْسِي نسبة إلى قلعة رومية أقيمت قديماً بالقرب من قفصة تسمى «شُقْرَاطس». ومولده ومرباه في «توزر» مثل أبي الفضل بن النحوى، وهو يسبقه بنحو خمسين عاماً إذ توفي سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٤م. ولا بلغ مبلغ الشباب رأى أن يكمل دراسته في القيروان، فاختلف إلى شيوخها، وأخذ ما استطاع منهم حتى غداً فقيهاً محدثاً، وحجاً، وعاد فعين قاضياً في بلده توزر إلى وفاته، وكان مع قيامه فيها بالقضاء يدرس للطلاب وينشر العلم ما استطاع، ويقال إن ابن النحوى درس عليه. وقد طار صيته في أنحاء العالم العربي بقصيدة فريدة في ١٣٣ بيتاً نظمها في مديح الرسول ﷺ، استهلها بقوله:

الْحَمْدُ للهَ مَنْ بَاعَثَ الرَّسُلَ هَدَى بِأَحْمَدَ مَنْ أَحْمَدَ السُّبُلَ
خَيْرَ الْبَرِيَّةِ مَنْ يَدُوْ مِنْ خَصَرٍ وَأَكْرَمَ الْخَلْقِ مَنْ حَافٍ وَمُنْتَبِلِ
تَوْرَةَ مُوسَى أَنْتَ عَنْهُ فَصَّدَّقَهَا إِنجِيلَ عِيسَى بِحَقٍّ غَيْرِ مُفْتَعَلِ
ضَامَتَ لِمَوْلَدِهِ الْآفَاقُ وَاتَّصَلَتْ بُشْرَى الْهَوَاتِفِ فِي الْإِشْرَاقِ وَالطُّفْلِ^(٢)

وهو يحمد الله بآثار الرسل إلى الأمام أن بعث الرسول إلى أمته المحمدية هادياً لها إلى خير السبل أو الطرق وإنه لأفضل البرية جمعاء متبديّة ومتحضرة وأكرم الخلق جميعاً حفاة ومتعلين، ويقول إن توراة موسى بشرت به وصدقها الإنجيل، مشيراً بذلك إلى آية سورة الأعراف وأنه ممن تشملهم رحمة الله ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ويقول إن الآفاق أضاعت لمولده ودقت البشائر في الإشراق والظلام. ويحصى في ذكر معجزات مولده ومعجزاته في حياته وفي الهجرة وما خصه الله به من عروجه إلى السماء. ويعود إلى تفصيل القول في معجزاته ومعجزته الكبرى القرآن، ويلم بأذى قریش لمن اتهموه وهو لا يزال بمكة وخاصة بلالا، ويذكر انتصاره على قریش بهدر إذ حطم جيشهم حطاً، وأسر نفراً من أشrafهم، ويكى أهل مكة من رجال ونساء بدموع غزار، ويذكر يوم فتح مكة، وقد جاءها الرسول في عديد من الجنود من يثرب

(١) التوزري موطنه المتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م، كما

ذكر لها تعقيبات لابن الشباط وغيره.

(٢) الطفل: الظلام.

(١) انظر في الشقراطسي الوفيات لابن منقذ طبع

بهرت) ص ٢٥٢ وعنوان الأريب ٤٢/١، ومجلد

تاريخ الأدب التونسي ص ١٦٣ وبروكلمان ١٠٨/٥

وذكر أن للشقراطسي شرحاً لابن الشباط

ومختلف القبائل، ورأت قريش أن لا قبل لها ببقائه، فاستسلمت ودخلت في دين الله، يقول:

وَيَوْمَ مَكَّةَ إِذْ أَشْرَفْتُ فِي أَمْرِ
خَوَافِقُ ضَاقَ ذَرْعُ الْخَافِقِينَ بِهَا
وَبِحُفْلٍ قَذْفُ الْأَرْجَاءِ ذِي لَجِبٍ
وَأَنْتَ صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ تَقَدَّمَهُم
وَالْخَيْلُ تَغْتَالِ زَهْوًا فِي أَعْنَتِهَا
أَهْلُ نَهْلَانٍ بِالتَّهْلِيلِ مِنْ طَرَبٍ
الْمَلِكُ اللَّهُ هَذَا عِزٌّ مِنْ عُقْدَتِ

يَضِيقُ عَنْهَا فِجَاجُ الْوَعْبِ وَالسَّهْلِ^(١)
فِي قَاتِمٍ مِنْ عَجَاجِ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ^(٢)
عَرْمَرَمٍ كَرْهَاءِ اللَّيْلِ مُنْجِلِ^(٣)
فِي بَهْوٍ إِشْرَاقٍ نَوْرٍ مِنْكَ مَكْمَلِ
وَالْعَيْسُ تَنْتَالِ زَهْوًا فِي ثَنَى الْجِدْلِ^(٤)
وَذَابٍ يَذْبُلُ تَهْلِيلًا مِنَ الذُّبُلِ^(٥)
لَهُ النَّبُوءَةُ قَبْلَ الْعَرْشِ فِي الْأَزْلِ

وهو يتحدث عن يوم فتح مكة ومع الرسول أمم من يثرب والقبائل تضيق عنها فجاج الأرض العسيرة والمهدة السهلة، خوافق متحركة ضاقت بها لكثرتها طاقة المشرق والمغرب، وقد عقدت حركة الخيل والإبل عليها غباراً كثيفاً، وإنه لجيش ضخم متسع الأرجاء له لجب وصخب عرمرم أو شديد، كرهاء الليل ومقداره، تنصب قطعه انصباباً، والرسول - ﷺ - على رأس هذا المحفل، يحف به بهاء ونور منه مكتملان والخيل تغتال في أعنتها ومسيرتها زهواً، والعيس أو الإبل تتابع سائرة في مضاعف من جُدها أو أزمتهما، وأهل نهلان رافعا صوته بذكر الله من طرب وفرح، وذاب يذبل خوفاً من الرماح وكثرة السلاح، وهذا عز لا يماثل عز، عز من كتبت له النبوة في الأزل البعيد قبل خلق العرش وتكوينه، ويتحدث عن الانتصارات في الفتوح الإسلامية في أنحاء المعمورة في العراق وديار الفرس والترك والصين وبلاد النوبة والزنج ومصر والمغرب، كما يتحدث عن منزلة الرسول ﷺ عند الله واختصاصه بالشفاعة للعباد خلاصاً من هول المحشر، ويطلب منه الشفاعة ومن الله الغفران.

(١) فجاج الوعب: الطرق العسيرة.
(٢) ضاق ذرع الخافقين: ضاق وسع المشرق والمغرب. عجاج الحرب: غبارها.
(٣) جحفل: جيش ضخم. قذف: بهد. لجب: صباح. عرمرم: شديد. زهواً الليل: مقداره. منسجل: منصب ومصوب.

(٤) العيس: الإبل. تنال: تسيل وتنصب. زهواً: بطينة أو متتدة. ثنى الجدل: الأوتة المزدوجة الطاقات.
(٥) نهلان ويذبل: جيلان عند مكة. الذبل: الرماح.

ابن^(١) السماط المهدوي

هو أبو يعقوب يوسف بن علي بن عبد الملك بن السماط البكري، ولد بالمهديّة سنة ٦١٣ وبها منشؤه ومرباه، من بيت علم وفضل وثناء، وتفتحت شاعريته مبكرة، وكان من نعم الله عليه أن قصر شعره على مدح الرسول ﷺ، فلا يوجد له في غير هذا المديح شعر إلا التافه التزّور مما قاله في صباه، ويقول صاحب الحلل السندسية: «هو عالي الطبقة في الشعر جدا، وشعره مدون مشهور». وظل يحيا في المهديّة يمدح الحضرة النبوية حتى وافاه الأجل سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م واحتفظ له صاحب الحلل السندسية بخمس قصائد نبوية باهرة، وفي ثانيها يقول متشوقا إلى يثرب وزيارتها الشريفة:

| | |
|-----------------------------------|---|
| رَعَى الحقوق - كما علمت - حَقِيقُ | والصبر عن وادي العَقِيقِ عَقِيقُ ^(٢) |
| ولأهل ذِيكَ الحَمَى بقلوبنا | شغف يسوق نفوسنا ويشوقُ |
| ولذكرهم بَرْدٌ على طَيِّ العَنَّا | تُشْفَى به مرضاهم وتُفِيقُ |
| قومُ بهم طاب النسيمُ بِطَيِّبَةِ | حتى انتنى كالمسك وهو فتِيقُ ^(٣) |
| وغَدَا نراها للشِّفاء مَرائِفًا | وبقاعها كلُّ البقاعِ نفوقُ |
| ومزارها أشهى إلى عُشائِها | من شاطئِ يَأوِي إليه غريقُ |

وهو يقول إن للزيارة النبوية حقوقا ينبغي أن تؤدي، وإن الصبر عن زيارة وادي العقيق بالمدينة المنورة ليعد عقوقا، وإن لأهل هذا الحمى بقلوبنا شغفا وشوقا شديدا ولذكرهم برّداً على الأحشاء حتى وكأنه دواء يشفي المرضى من عللها الدقينة، قوم بهم ذكا النسيم وطاب بطيبة أو يثرب، حتى أصبح كالمسك حين يسطع شذاه، وإن تراها ليود الناس حبا في الرسول أن يرشفوه بشفاهم رشفا، وإن عشاقها في المعورة ليمتنون زيارتها يطلبون بها النجاة كما يتحنن الفريق شاطئا يأوي إليه من الهلاك. ويقول في القصيدة الراهبة:

| | |
|------------------------------|---|
| أَعِدِ الحديثَ فليس بالملولِ | عن خَيْرِ مهوٍ وخَيْرِ رسولِ |
| وأملًا سامعنا بطيب حديثه | فهو الشفاء لحرّ كل غَلِيلِ ^(٤) |
| وإذا بُدِ عليه مصلّا ومسلما | فكذا أتى في محكم التنزيلِ |

(١) انظر في ابن السماط المهدوي الحلل السندسية ٥٠٨/٢ وما بعدها وشجرة النور الزكية ١٩٢/١ ويجمع تاريخ الأدب التونسي ص ٢٠٨.
 (٢) وادي العقيق؛ واد بالمدينة.
 (٣) طيبة؛ المدينة. فتق؛ ساطع الراحعة.
 (٤) غليل؛ شدة العطش وحراره.

وَاخْصُصْ بِتَرَدَادِ السَّلَامِ ضَرِيحَهُ فِي كُلِّ شَارِقَةٍ وَكُلِّ أَصِيلٍ^(١)
 قَمَرٌ لَهُ هَضْبَاتُ مَكَّةَ مُطْلَعٌ وَالرَّوْضَةُ الْفَيْحَاءُ أَفْقٌ أَفُولٍ^(٢)
 جَاءَتْ نَعُوتٌ كِمَالِهِ مَنْصُوصَةٌ فِي الذِّكْرِ وَالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
 هَذَا الْفَخَّارُ وَمَنْ يَكُنْ ذَا وَصْفِهِ فَالْمَدْحُ فِيهِ كَقَطْرَةٍ فِي النَّيْلِ

وهو يطلب من صاحبه أن يعيد الحديث مراراً وتكراراً عن خير رسول ومبعوث أهدى إلى البشرية، وأن يلاً المسامع بحديثه الطيب الذكي فإن فيه شفاء من حرارة كل ظمأ شديد، وأن يدأب ويحذ في الصلاة والسلام على الرسول اتباعاً لهدي القرآن القائل: ﴿إِنَّ آقَةَ مِلَّتِكَ يَهْلُونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. ويقول لصاحبه خُصَّ بترداد السلام وتكراره قبره كل صباح وكل مساء، وإنه لقمر يدر طلع من هضبات مكة وأفقها. وأفل أو غرب في أفق يترب في الروضة الفيحاء ذات الشذى العطر، ويذكر أن نعوت كماله نص عليها التنزيل كما جاء بآية سورة القلم في خطابه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَمَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ كما نصت عليها التوراة والإنجيل وكما جاء بآية سورة الأعراف السالفة في تعليقنا على بعض أبيات عباده الشقراطسي. ومضى ابن السماط في القصيدة يمدد شمائله الرفيعة وبعض معجزاته، وقال هذا هو الفخر الحقيقي ومن يكن هذا وصفه فالمدح فيه كقطرة -حقاً- في نهر النيل. ونبويات ابن السماط تتميز بلغة سلسلة عذبة منتهى العذوبة والسلاسة.

(٢) الروضة الفيحاء: لعله يشير إلى قول الرسول ﷺ ما بين قهري ومنهري روضة من رياض الجنة.

(١) الأصيل: وقت اصفرار الشمس قبل الغروب.

الفصل السادس

النثر وكتابه

١

الخطب والوصايا

معروف أن الإسلام فرض في صلاة الجمعة الأسبوعية والعبدین: الفطر والأضحى خطبتين للوعظ والنصح للمسلمين، وظل يتولى ذلك في تونس وإقليمها كبار الفقهاء الوعاظ من علمائها الأبرار، غير أنه لم يصلنا من هذه الخطب ما نستطيع به الحديث عنها وعرض بعض نصوصها، وطبيعى أن يكون لولاتها في القيروان وقادتها في الحروب أو على الأقل لبعضهم خطب من حين إلى آخر، وأقدم خطبة وصلتنا عن ولاتها خطبة موسى بن نصير التي خطبها بجامع القيروان حين دخلها سنة ٨٥ في أول ولايته على إفريقية وفيها يقول^(١):

«أيها الناس! إنما كان قبلى على إفريقية أحد رجلين: سالم يحب العافية ويرضى بالدون من العطية، ويكره أن يُكَلَّم^(٢)، ويحب أن يُسَلَّم، أو رجل قليل المعرفة راض بالهونى، وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السَّهر، وأحسن النظر، وخاض الفُعر^(٣) وسمت همته، ولم يرض بالدون من المغنم، لينجو ويسلم، دون أن يُكَلَّم أو يُكَلَّم.. إن ظفر لم يزد الطفر إلا حذرا، وإن نُكِب أظهر جلادة وصبرا.. وبعد فإن من كان قبلى كان يعمد إلى العدو الأقصى ويترك عدواً منه أدنى، ينتهز منه الفرصة، ويُدَلّ منه على العورة، ويكون عوناً عليه عند النكبة، وأيم أقه لا أريم^(٤) هذه القلاع والجبال الممتعة حتى يضع أقه أرفعها، ويُدَلّ أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو أجمعها، أو يحكم أقه لى، وهو خير الحاكمين».

وبدأ موسى بن نصير بالجيوب في الإقليم التونسى مثل جبل زغوان، ثم أخذ يمتد بفتوحه العظيمة حتى دان له المغرب جميعه، وكان شديد الطموح فمدّ بصره وراء المغرب إلى شبه جزيرة

(١) تاريخ الأدب التونسى للأستاذ حسن حنى (٣) الفهر: الشدائد.

عبدالوهاب ص ٢٦.

(٢) يكلم: يجرع.

(٣) أريم: أترك.

إيبيريا وأرسل إليها طارق بن زياد وتبعه، وأنتم فتحها ناشرا فيها الإسلام، كما عمل على نشره في ديار المغرب من برقة إلى المحيط، وافتتح له إقليها كبيرا في أوروبا، ولم يترك قلعة ولا حصنا لا في المغرب وحدها كما قال في خطبته بل أيضا في إيبيريا مما جعله يحق من أكبر قواد العرب على مر التاريخ. ومن كبار القواد في الإقليم التونسي بعده أسد بن الفرات أمير الجيش الفاتح لصقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وحين دقت الطبول والبوقات ونشرت الألوية واستعدت السفن لمغادرة ميناء سوسة للفتح تلفت حوله وخطب الجنود، وكان من قوله^(١): «لا إله إلا الله وحده لا شريك له أيها الناس ما ولي لي أب ولا جد ولاية قط، ولا رأى أحد من سلفي هذا قط، وما رأيته ما ترون إلا بالأفلام، فأجهدوا أنفسكم، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه، وتأثروا عليه تنالوا به الدنيا والآخرة».

وكان أسد شيخ فقهائ المالكية في القيروان، واختاره الأمير زيادة الله الأغلبى لقيادة الجيش، وهو ينصح بالمتابعة في العلم وتدوينه، فإن من يثابر في تحصيله ويسهر الليالي يحظى بكل ما يتمناه، وقد مضى حين أرسى أسطوله على شواطئ صقلية يفتح المدن والقلاع واتجه إلى قاعدتها الكبرى: «سرقوسة» في شرقها، وحاصرها واستشهد في حصارها ودُفن تحت أسوارها، وتم فتح جميع مدنها بعده.

ومن المؤكد أن خطبا كثيرة ألقاها حكام الإقليم التونسي في أول حكمهم - وربما في أثنائه - ولكن الكتب التاريخية والأدبية لم تحتفظ بها، وأيضا لا بد أن كثيرا من الوصايا في الدول التي حكمت الإقليم التونسي أوصى بها الآباء الأبناء من بعدهم سقطت من يد الزمن فيها عدا وصية أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية لابنه وولي عهده المستنصر، وفيها يقول^(٢):

«اعلم - سددك الله وأرشدك، وهذاك لما يرضيك وأسعدك، وجعلك محمود السيرة، مأمون السريرة - أن أول ما يجب على من استزعاه الله في خلقه، وجعله مسئولاً عن رعيته في جُل أمرهم ودقته^(٣) أن يقدم رضا الله في كل أمر يحاوله.. واعلم أن الأمر إذا ضاق بحاله، وقصر عن مقاومته رجائه، فمفتاحه الصبر والحزيمة^(٤) وأخذ الرأي من عقلاء الدولة ورؤسائها، وذوى التجارب من نبيها، ثم الإقدام عليه، والتوكل على الله فيها لديه.. ولا تسمع أقوال الفالطين المفلطين بأنك أعظم الناس قدرا، وأكثرهم بذلا، وأحسنهم سيرا، وأجلهم صبرا، فذاك غرور ويهتان وزور.. وعليك بتفقد أحوال رعيته، ولا تنم عن مصالحهم، ولا تسامح أحدا فيهم، ومهما دعيت لكشف ملمة فاكشفها عنهم، ولا تراعى فيهم كبيرا ولا صغيرا إذا عدل عن الحق،

(١) الملل السندية ٧٥٣/٣.

(٢) دقه: دقيقة.

(٣) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٨٧.

(٤) الحزيمة: الحزم.

ولا تقتصر على شخص واحد في رفع مسائل الرعية والمتظلمين، ولا تنف عند مراده فيهم،
واغخذ ثقات صادقين مصدقين لهم في جانب الله أوفر نصيب».

والوصية طويلة، وهي أشبه بدستور يضمه لولى عهده، ليمسك به في حكمه من بعده،
وواضح أنه يطلب إليه أن يكون محمود السيرة وأن يجعل رضا الله نصب عينيه في تدبير أمور
رعيته وإذا نزلت به شدة استعان بالصبر والحزم وبرؤساء الدولة ونبهاتها المجربين وعمل
بمشورتهم ونصيحتهم، ويحذره من الاستماع إلى من يتملقونه في حاشيته زورا وبهتانا ابتغاء
القربي إليه والزلفى لديه، والحاكم الحصيف يبعد عنه هؤلاء المتناقضين المرائين، ويوصيه بتفقد
أحوال الرعية وأن لا يغفل عن مصالحها ولا يتسامح مع من يعتدى عليها ويسارع إلى كشف
كل ملعة تتعرض لها، ويأخذ على يد كل ظالم، ولا يقتصر في رفع مسائل الرعية إليه على
شخص بعينه خشية أن يكون مفضا فيها يعرض عليه، لذلك ينبغي أن يشرك معه آخر أو
آخرين، حتى لا يتعرض في فهم هذه المسائل لفش أو خديعة، وينبغي أن تكون حاشيته مؤلفة
من ثقات صادقين لا يحوم حولهم شك أو ريبة.

ونرى ابن خلدون حين نزل القاهرة سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٤م يجلس للتدريس بالجامع الأزهر
ويتصل بالسلطان المملوكي برقوق فيكرمه ويوفر له الراتب شأنه مع أهل العلم، ويتوفى
البساطي أستاذ المدرسة القمحية المالكية، فيبعينه مكانه في شهر المحرم سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٥م
ونزاه في يوم جلوسه للتدريس بها يخطف خطبة طويلة يستهلها بالحمد لله مطيلا في نعوته
القدسية كما يطيل في الصلاة على الرسول والرضا عن آله وصحبه، ويتحدث عن الملة
الإسلامية وانتصار أهلها على الفرس والروم وفتوحهم العظيمة، ويشيد طويلا بملوكها وبدولة
المماليك ونصرتهم للإسلام وإنشائهم للمدارس وتعميرهم للمساجد وعنايتهم بالعلم والعلماء
ويشيد بالسلطان برقوق وأعماله وأفضاله عليه. وخلت وظيفة أستاذ الحديث في مدرسة
صرغتمش بجوار جامع ابن طولون، فولاه برقوق تلك الوظيفة فاختار كتاب الموطأ للإمام
مالك ليحدث به للطلاب في شهر المحرم سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م وحين جلس للتدريس بها ألقى
خطبة طويلة، وبعد حمد الله فيها والصلاة على رسوله والثناء على السلطان برقوق قال إنه قرّر
للقرأة في دروسه كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس لأنه من أصول السنن وأمهات كتب
الحديث، وأفاض في الحديث عن مالك ونشأته وسيرته وتأليفه لكتابه الموطأ، ثم أخذ يعدد
الطرق لرواية تلامذه مالك عنه الكتاب، وانتقل إلى بيان سننه للكتاب والشيوخ الذين أخذوه
عنهم بتونس والأندلس والمغرب في بلدانه المختلفة، ويذكر مع كل طائفة منهم شيوخهم وسندهم
في الرواية، ويضيف طرقا أخرى، مما جعل سامعيه في هذا المجلس يرمقونه بالثجلة إلى أبعد
مدى. وإنما أطلت في بيان ذلك لأدل على أن علماء تونس - فيها يبدو - كانوا يأخذون في

درسهم الأول بجامع الزيتونة بهذا التقليد من المخططة الطويلة عن الكتاب الذى سیدرسونه للطلاب، وإن لم تصلنا خطيبهم العلمية كما وصلتنا خطب ابن خلدون، إذ سجلها بنفسه فى ترجمته^(١) عن حياته، ويقول إنه أعدّها، وهى مكتوبة بأسلوب أدبى مسجوع بليغ.

٢

الرسائل الديوانية

عرفت القيروان الدواوين منذ أنشأها فيها واليها حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) إذ أقام بجانب دار الإمارة ديوانا للجند وديوانا للخراج وديوانا للرسائل على شاكلة دواوين الخلافة فى دمشق، غير أنا لا نسمع عن كاتب كبير تولى ديوان الرسائل قبل خالد بن ربيعة كاتب عبد الرحمن بن حبيب الوالى فى القيروان من قبل مروان بن محمد، ويذكر البلاذرى أنه كانت بينه وبين عبد الحميد الكاتب المشهور كاتب مروان بن محمد مودة ومكاتبية، وأنه - بفضل هذه المودة - أقر الخليفة عبد الرحمن بن حبيب على ولاية القيروان^(٢)، ويذكر ابن النديم فى الفهرست خالدا بين الكتاب قائلا: «خالد بن ربيعة الإفريقى مترسل بليغ نشأ فى الدواوين، وله رسائل مجموعة فى الأدب نحو مائتى ورقة^(٣)».

وجميع رسائل خالد بن ربيعة سقطت من يد الزمن وسقط معها جميع الرسائل الديوانية فى القيروان إلى أن نلتقى بإبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية ونراه يتبادل مع خُرَيْش الكندى أحد قواد الجند الثائر عليه بتونس سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م رسالتين أولاهما لخُرَيْش يتهدده فيها ويطلب منه طاعته له، ويرد عليه إبراهيم بن الأغلب برسالة يقول فيها^(٤):

«من إبراهيم بن الأغلب إلى خُرَيْش رأس الضلال سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإن مثلك مثل البعوضة التى قالت للنخلة وسقطت عليها: استمسكى فإني أريد الطيران، فقالت النخلة: ما شعرت بسقوطك فيكرهنى طيرانك».

ولا نعرف هل كتب إبراهيم بن الأغلب هذه الرسالة بنفسه أو كتبها له أحد كتاب دواوينه وتلقى الدولة الأغلبية (١٨٤ - ٢٩٦هـ) بكتاب دواوينها وتأخذ فى النهوض بها، ومن اشتهروا

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٢٤٠.

(٢) الفهرست (طبع القاهرة) ص ١٧٧.

(٣) فتح البلدان للبلاذرى (طبع القاهرة) ص ٢٨٠ وما بعدها.

(٤) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٤٢.

من كتبها أبو العباس البريدى محمد بن حيون رئيس ديوان الإنشاء لعهد إبراهيم الأعلى
 الثانى (٢٦١ - ٢٨٩ هـ). وقدم على إبراهيم من بغداد أبو اليسر الشيبانى إبراهيم بن محمد،
 وكان قد غضب على البريدى فأقامه مقامه على ديوان الإنشاء بعاصمته «رقادة» وهو أهم كتاب
 هذه الدولة وسنخسه بكلمة. وكانت الدولة الصنهاجية تبنى بدواوينها ورأس ديوان الإنشاء بها
 لمدة ربع قرن الكاتب الرقيق القيروانى، كما رأسه على بن أبى الرجال، وها من الكتاب
 البلغاء، غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ ببعض ما دبجها من الرسائل. ومع ذلك فإن أمير
 المهديّة الحسن حفيد تميم بن المعز حين هزم أسطول الملك روجار الثانى أمام عاصمته سنة ٥١٧
 كتب إلى سائر الجهات كتباً منها كتاب يقول فى بعض فصوله^(١): «إن صاحب صقلية لَجَّ فى
 طغيان غيّه، واستمر على عدوانه وبغيه، وحمله سوء تدبيره، وفساد تقديره، على اهتضام جانب
 الإسلام، وتوهم أن ذلك سهل للمتمس قريب المرام، فاستجاشي وحشده، واستغزى واستمد، ولما
 استتبّت فى ظنه أموره، وكمل تدبيره، الذى كان فيه تدمير، سير أسطوله نحو المهديّة - حاماها
 الله - فى نحو ثلاثمائة مركب، حُمِل على ظهرها ثلاثون ألف راكب، وزهاء ألف فارس وكان
 إقلاعه فى طالعٍ مقارن للنحوس، قاضٍ عليه بإتلاف الأموال والنفوس، فمن أول ما أنشأه
 الله فيه من صنعه الجميل، وأظهره من عنايته التى لا يؤدى حقها بغير الشكر الجزيل، أن
 أرسل عليهم ريحا صيرت جميعهم إلى التّبار^(٢)، وثابت فى إهلاكهم مناب زرق الأستة وبهض
 الشّفار.. واستظهرنا باستقدام قبائل العرب المطيفة بنا فأقبلوا أفواجا أفواجا، وجاءوا بجىء
 النّيل يمتلج^(٣) اعتلاجا، ويتدفق أمواجا، وكلهم على نيّات فى الجهاد خالصة، وعزائم غير
 راهبة من مواقف الموت ولا ناكسة، ووصل الأسطول المغنول بمن أسلمه السّوق إلى حد
 الحسام، وتحطّاه الفرق من الحِمَام إلى الحِمَام^(٤)، ونزلوا على عشرة أميال من المهديّة بجزيرة
 هنالك فتسرّع إليهم من جُنْدنا ومن انضاف إليهم من العرب المنجدة لنا طائفة أوسعت أعداء
 الله طعننا وضربا، وملأت قلوبهم خوفا ورُعيا، فلما عاينوا ما نزل بهم، أنزلوا عن ظهور
 مراكبهم، ما كان أبقاه الفرق من أفراسهم، وكانت نحو خمسمائة فرس.. فأكذب الله ظنونهم،
 وخيّب آمالهم، وجعل الدائرة عليهم لا لهم.. فولوا أدبارهم يرون الهزيمة غنيمة، والحرب غلبة،
 وتركوا كثيرا من خيلهم وأسلحتهم نهباً مقتسها، وفيتنا^(٥) مفتتا»

ومضى الكتاب يذكر أن الجيش النورمانى كان قد استولى فى أول نزوله على قصر الديماس
 بين المنستير والمهديّة، وكانوا قد أنزلوا به مائة منهم فاستوصلوا عن آخرهم. والكتاب يتميز

(١) الحلل السندية ٤٧٢/٢.

(٢) التّبار: الهلاك.

(٣) يمتلج: يجتمع.

(٤) الحِمَام: الموت.

(٥) فيتنا: مفتتا.

بألفاظ منتخبة مختارة، وليس فيها غريب مهجور، والأسلوب فيه مسجوع، ويطرد في يسر، بما يدل على ما حازته كتابة الرسائل الديوانية في العهد الصنهاجي من تقدم ورقي.

ونغضى إلى عصر الدولة الحفصية وتحدث نهضة حقيقية في ديوان الإنشاء بفضل من عمل فيه من كبار الكتاب الأندلسيين المهاجرين إلى تونس من أمثال ابن الأثير ومحمد بن الحسين بن أبي الحسين وزير مؤسس الدولة أبي زكريا وابنه المستنصر وأيضا بفضل طبقة بارعة من الكتاب التونسيين أمثال أبي العباس أحمد بن إبراهيم الفسافي المتوفى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وقد جمعت له خطة العلامة وخطة الإنشاء وابن الحباب محمد بن يحيى المَعافري وأبي بكر بن خلدون وله كتاب في النظم الحفصية لا يزال مخطوطا وفي معهد الدراسات الإسلامية بمطرد مخطوطة منه، وفي الورقة رقم ٥٣ يتحدث عن طريقة المخاطبات الصادرة عن الخليفة الحفصي قائلا: «في مخاطبة من الأمير الأعظم إلى غيره تقول: من فلان باللقب: أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين وتعد أباه الخلفاء إذا لم تذكر اللقب، فإن ذكرته جعلته جملة، وذكر اللقب أحسن في الحاليتين، ثم تقول أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونه إلى الشيخ أبي فلان أو إلى أبي فلان أو إلى الأشياخ والأعيان والكافة من بني فلان أدام الله كرامتهم وتوفيقهم بتقواه سلاماً عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله. وبعد تمام الصلوة تكون الوصية بتقوى الله وبما يجب. هذا إذا كان كتابا، وإذا كان صكاً، ويسمى الآن ظهيراً فلا يكون فيه صدر ولا وصية ولا اسم المكان الذي كُتب منه»

وكان أبو بكر بن خلدون يعمل في دواوين أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية، ونرى القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ يؤكد استمرار هذا التقليد في الكتابة الديوانية التونسية حتى عصره إذ يقول في كتابه صبح الأعشى عن رسم المكاتبة الواردة إلى القاهرة عن صاحب تونس: «عادة مكاتبتهم أن تفتتح بلفظ من عبد الله الفلاني مع ذكر لقب الخلافة: أمير المؤمنين بن فلان، ويقال في كل أب من آبائه: أمير المؤمنين إن كان قد ولي الخلافة ويدعى له. إلى أخينا فلان، ويؤتى بالسلام والتحية، ثم يتخلص بالبعدية إلى المقصد ويختم الكتاب»^(١). ويورد القلقشندي عقب ذلك مباشرة رسالة من الخليفة الحفصي المتوكل على الله أحمد بن أبي عبد الله الحفصي (٧٧٢ - ٧٩٦هـ) إلى السلطان برقوق حينئذ فيها باسترداده عرش سلطنته سنة ٧٩٦ وهي تستهل بهذه الصورة:

«من عبد الله المتوكل على الله أمير المؤمنين أحمد ابن مولانا الأمير أبي عبد الله ابن مولانا الأمير أبي يحيى أبي بكر ابن الأمراء الراشدين أعلى الله به كلمة الإسلام، وضاعف نوافل سيفه من عبدة الأصنام، وغض عن جانب عجزه عيون حوادث الأيام، إلى أخينا الذي لم نزل

نشاهد من إخوانه الكريم، في ذات الرب الرحيم، قبلة صفاء لم تغرها يد بعاد ولا انتزاح، وتنابر من حفظ عهده، والقيام بحق وده، على ما يؤكد معرفة الخلو من لدن تعارف الأرواح، ونبادر لما يبعث القلوب على الالتفاف، والأمن بفضل إله من عوائق الاختلاف، وإن شحطت الدائر وتنامت الصور والأشباح، ونعترف بما له من مزيد الإعظام بمجاورة البيت الحرام، والقيام بما هنالك من مطالع الوحي الكريم ومشاعر الصلاح، وتجتلي من أنوائه الكريمة الشريفة، ومطالعه العالية المتينة، وجوه البشائر رائحة الفرر والأوضح.. وننتهل إلى إله بالدعاء أن يخبرنا عنه، ويطلعنا منه على ما يقر عيون الفوز ويشرح صدور النجاح، السلطان الجليل الطاهر، الملك الأعظم الظاهر... أبي سميء برقوق»

وواضح أن الكاتب الحفصيّ لم يكن في مستهل رسالته بالأسجاع الحائية، فقد ضمن كل سجمة سجمتين داخليتين، وكان السجع في الرسائل الحفصية أصابه ما أصاب السجع في الرسائل الديوانية - منذ القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي - من تطويل لتضم السجمة تحت جناحيها سجمتين داخليتين كما في هذه القطعة من الرسالة. ويغنى في الرسالة فيحمد الله ناظم الشمل وجابر الصدع الذي قرن بالفسر يسراً، ثم يصل ويسلم على الرسول الذي صدعت بالحق آياته، وقامت بحجة دعواه معجزاته.. ويضيف الصلاة على آله وأصحابه أوليائه دينه الكريم وولائه، وأنصار حزبه المفلح ومُحائنه، وليوث دفاعه في صدور الأعداء وكلماته، ويدعو الكاتب لخليفته، ويذكر للسلطان برقوق أنهم ظلوا حين عزل عن السلطنة يدعون له أن يرد الأمر إلى نصابه، وطيل في تهنته بنصره، وشيد برسالة السلطان برقوق إليه بأنه استعاد سلطانه، ويذكر انتصاراً لأسطوله أذ أغار على بعض جزر البحر المتوسط وكان صاحبها أغار على الساحل التونسي، يقول:

فلم نزل نبيح لأساطيلنا المنصورة حرمة وجهاء، ونطرق طروق الغارة الشفواء بلائه وقراء، ونكتسح بأيدي الاستلاب ما جمعت بها يدها إلى أن ذاقوا من ذلك وبال أمرهم، وتعرفوا عاقبة مكرهم. وكان من جرائرهم المعترضة شجاً في حلق الخطار^(١)، ومتجشئ الأخطار، وركاب البحار، من المهجاج والتجّار، جزيرة غودش^(٢) وبها من أعداء إله جَم كثير، وجمع كبير، فأرسلنا عليهم من أسطولنا المنصور غزباناً^(٣) تَمَقَّت عليهم بالمتون، وعرفت المسلمين بركة هذا الطائر الميمون.. وسارت تحت أجنحة النجاح إليها، إلى أن رمّت مغالب مَراسيها عليها، فلما نزلوا بساحتها، وكبروا تكبيرة الإسلام لإباحتها، بُهِت الذي كفر، وودّ الفرار والحين (الموت) يناديه

(١) الخطار: المتحرّكين بحرا.

(٢) غزباناً: سفناً مطلية بالقار.

(٣) لملها جزيرة رودس.

أين المفرّ، فلما قضى السيفُ منهم أو طاره، وشَفَى الدينُ من دمانهم أوارَه^(١) : جمعوا منهم عددا يُنيف بعد الأربعمائة على الأربعين، وجاءوا بهم في الأصْفادِ مَقْرُنين، وامتَلَأَتْ بغنائهم - والحمد لله - أيدي المسلمين، وانقلبوا فرحين بما آتاهم الله مستبشرين». وإنّا ذكرنا هذه القطعة الطويلة في ختام الرسالة لندل على براعة كاتبها وأنه لم يكن يقلّ عن كتاب المشرق بياناً وبلاغة. وفي ذلك ما يدل على أن الكتابة الديوانية في العهد الحفصيّ رقيت رقياً بعيداً وأن كتابها لم يكونوا يقلّون عن نظرائهم في المشرق فصاحةً لفظاً وروايةً مع اصطفاء الكلام والملازمة بين الكلمة والكلمة والسجعة والسجعة بحيث يجد القارئ لرسائلهم لذة ومتعة مع ما يجد فيها من الحقائق التاريخية كهذه الفارة على جزيرة غودش، غير أن الزمن لم يحتفظ بها جميعاً، فصاعت فيها ضاع من نصوص أدبية تونسية.

٣

الرسائل الشخصية

إذا كان جمهور الرسائل الديوانية القيروانية والتونسية سقط من يد الزمن فإنه احتفظ بكثير من الرسائل الشخصية، ومن أوائل ما يلقانا منها رسالة استعطاف لداود القيرواني المتوفى حوالى سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م وكان قد تقلد ديوان الرسائل لحمد بن مقاتيل العكّي فلما عزل وتولى على القيروان وإفريقية مكانه إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م اختفى داود أياماً وكتب - من مخبئه يستعطف ابن الأغلب - رسالة يقول فيها^(٢) : «ذنبى عظيم، وخنائى ضيق، وحجتي ضعيفة، وعفو الأمير وطوّله^(٣) أعظم من ذلك كله، فإن تداركنى الأمير - أعزه الله - بما أوّمل فذلك الذى يشبهه وينسب إليه وأرجوه منه، وإن يعاقب فبالذنب الذى اجترمته^(٤) وهو أحقّ بانتشالي من زلّتى، وإقالتى^(٥) عن عترتى.. والأمير أولى فى، وأنظر منى لنفسى، وأعل بما سألته ورغبت إليه فيه عينا ويذا، والله ولى توفيقه فيها عزم عليه من ذلك. أنتم الله على الأمير نعمته» فعفا عنه الأمير إبراهيم بن الأغلب وقرّبه منه، واستكتبه، وعهد إليه فى مهماته واتخذ مستشاراً فى أموره، وكان نعم الناصح له الأمين. واشتهر ابنه إبراهيم بإتقان الكتابة وعين مثل أبيه فى الدواوين الأغلبية. وإذا مضينا إلى عهد إبراهيم الأعلى الثانى (٢٦١-٢٨٩) وجدناه يسخط على كاتبه الخاص البريدى محمد بن أحمد بن حيون المتوفى سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م ويزج

(١) أواره: ناره.

(٢) اجترمته: اقترفه.

(٣) طوله: فضله.

(٤) إقالتى: الصفع.

(٥) المجلد فى تاريخ الأدب التونسى ص ٤٥.

به في غياهب السجون، فيرسل إليه رسالة طويلة مستعطفًا، وفيها يقول^(١):

«لكرم العفو وعلو قدره وجليل خطره تسمى إله عز وجل به فسئى نفسه: ﴿العفو﴾
الغفور والطبع البشرى مركب على النقص، مقرون بالزلل.. ولست - أئد إله الأبر - ممن
يدعى العصمة والبراءة من الهفوة، ولست أمت^(٢) إليك إلا بفضلك على، وإحسانك إلى.. وإن
من غرس غرسًا فواجب أن لا يجتته (يقطعه) وإن أبطأ بسوقه^(٣) بل يمه بئد موارده العذبة
حتى تمتد خيطاته^(٤) وتورق أغصانه. أعاذك إله - بما أودعك من معالي الأخلاق - من ترك
العفو عن مقرر معترف لا يعرف إلا فضلك، ولا يرجو إلا عدلك.. فالخطي بعين عفوك،
وأضف^(٥) (أسبغ) على ستر نعمتك».

ويبدو أن ذنب البريدى كان كبيراً فلم يُلن له قلب إبراهيم الثاني الأغلبى ولا صفع عنه،
بل أمر بقتله وسفك دمه. وتكرر الرسائل الشخصية في عصر الدولة الصنهاجية، وسنخص
إبراهيم المصرى صاحب زهر الآداب بكلمة عنه وعن رسائله. وتلتقى بآبن شرف القيروانى
المترجم له بين أصحاب المرائى للمدن والدول، وكما كان شاعرا مبدعا كان ناثرا مبدعا، وقد
رحل إلى الأندلس بعد ما نزل بالقيروان من طوفان الأعراب الهالين، كما أسلفنا، وترجم له
ابن بسام في ذخيرته ترجمة ضافية، وذكر له فصلا من رسالة خاطب بها المظفر بن الأفتس أمير
بطلبوس، وفيها يقول^(٦):

«كتبت وشوقى إلى شرف لُقياه، وشيم^(٧) سقياء، شوق القارطين^(٨) إلى سكون وسكنى،
والقيسين إلى ليلى ولبنى.. واقه ببلوغ الأمل خير كفى، والشيخ يدمه الشتاء وقد رأيت طوفان
قرطية يقيم دهرًا، وإنما أقام طوفان نوح شهرًا». ويذكر له ابن بسام فصولا نثرية يبدو أنه
حبرها للكتاب كى ينتفعوا بها في رسائلهم المختلفة في مديح أمير أو وزير أو قائد أو قاض أو
كاتب أو فقيه زاهد، من ذلك فصل يصلح أن يكتب به إلى حاكم أو وزير، وفيه يقول^(٩):
«يقدم الحزم، ويشئ بالعزم، يشاور ذوى الألباب على أن رأيه لهاب، يثب وثوب اللئث،

(٥) أضف: أسبغ.

(٦) الذخيرة ١٩٣/٤.

(٧) شيم: يارد.

(٨) القارطان: جاهليان خرجا في طلب القرط

(شجر) ولم يعودا.

(٩) الذخيرة ١٨٤/٤.

(١) أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب (طبع)

الدار البيضاء) القسم الثالث ص ٣٠ وقارن

بآبن عذارى ١١٥/١ ويحمل تاريخ الأدب التونسي

ص ٦٥.

(٢) أمت: أنسب.

(٣) بسوقه: ارتفاعه.

(٤) خيطاته: فروعه.

ويتدفق دُفوقَ الغيث، ويُرَواح بين العَجَل والرَّيْث، نومه غرار^(١) واضطرار، وحاجاته سرار^(٢) ثم اقتدار، لا تَبْطِطه الظِّل ولا الظَّلَال، ولا تَطْطِبه^(٣) الكَلَل ولا يَنْتِبه الكَلال (التمب). رأيه قَبْسه (مصباحه) وعزمه فرسه، وبصيرته بَصْرُهُ، وصَنْدُورُهُ وَرْدُهُ، وصَنْدَرُهُ^(٤).

وهذه المقطرة الأدبية البديعة تتوالى هذه الفصول النثرية في المديح للحكام والوزراء ورجال الدولة من قواد وقضاة وكتّاب، ويورد له ابن بسام فصولاً أخرى في الذم لا تقل عن الفصول السابقة في روعتها الأدبية، وفي أول فصولها يقول^(٥):

«فلان غَوْرُه أَقْرَب قَرِيب، وقلبه مورود القلب^(٦)، فسرارته مكشوفة، ودُخَيْلُته معروفة، كتمائنه إخبار، وتدبيره إظهار، رأيه وراء، وساحته غراء، جسّه هامد، وفهمه جامد، لا يعرف الرِّشْد من الفَيّ، ولا يفرّق بين التَّجْبِيل والكَيّ، طُلُل بال، لا يخطر على بال، الشمس عنده سُهّا^(٧) والمُحَقَّق نُهَى^(٨). لا يعلم رأسه، من أين أنفاسه، ولا يدرى دماغه، أين أصداعه».

والفصل يوج كسابقه بالسجع المختار والألفاظ المنتخبة والطباقات والجناسات وناهيك بما يحمل الفصل في سجع من روعة، مما يزين وقعه في الأذن والنفس، إذ ما تزال الإرنانات متصلة في الكلام، وما يزال جرسها يمتع الأسماع والأفئدة، مع ما يهر من الألفاظ الثلاثية التي تطير عن الأفواه في خفة، ويلقّاننا بعد ابن شرف على الحصري الذي مرت ترجمته بين شعراء الغزل، وقد ترجم له ابن بسام في ذخيرته، وأورد له فصولاً من بعض رسائل، استهلها بالفصل التالى له من رسالة^(٩).

«السلام عليك أيها القلب الثانى، والبعيد الدانى، الراقى في سماء المعالى، الواقى من داء اللبالي، أول مَنْ عَنَدْتُ، وأفضل من أَعْدَدْتُ، وَمَنْ لا زال النسيمُ في البُكر والعَشيّات، يُهْدِي إليه أطيب التحيات، وَمَنْ جُعِلَتْ رِقاءه، ولا عَدِمَتْ لِقاءه، وإذا كان الكريم سالماً، كان الزمان مسالماً».

وفي سجعهم نفس العذوبة التي مرت في سجع ابن شرف، وفيه الطباقات وكثير من الجناسات، ومع كثرتها لا يشوبها أى تكلف، وكأنه يستمدّها من نبع فيّاض لا ينضب، وكانت قد نشبت بينه وبين ابن الطراوة النحوى الأندلسى المشهور المتوفى سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م خصومة

(١) غرار: قليل.

(٢) سرار: كتمان.

(٣) لا تَبْطِطه الظِّل ولا الظَّلَال أى حياة الدعة.

ومثله لا تَطْطِبه أى لا تستنبله الكَلال/الأستار/ أى

أنه لا يستنم لحياة الدعة والحصول بل يقتحم

المخاطر والمهلك، ويجد في هذا الاقتحام متاعه.

(٤) صدره وردّه وصدره كأنه النبع الذى يَرِدّه

ويَصْدُر عنه دون التماس رأى من أحد.

(٥) الذخيرة ١٨٨/٤.

(٦) القلب: البر.

(٧) سها: نجم صغير أى أنه لا يميز.

(٨) نهى: عقل.

(٩) الذخيرة ٢٤٧/٤.

ومخاطبات نال كل منها فيها من صاحبه، ويذكر ابن بسام له فصلا من إحدى مخاطباته ورسائله إلى ابن الطراوة، وفيه يقول^(١) :

« ما حياقي بين الحيات، وثياقي في الجميع أو الثبات^(٢) وقد حانت وفاة الوفاء، وخانت صفات الصفاء، وأرداني^(٣) الزمان بأردائه^(٤) وأعياني بقلب أعْيائه. الجاهل هو الحاطي^(٥) والعالِم مبخوس الأحاطي^(٦).. وما أضحكني مرة في، وأطاشني وليس الطَّيشُ في، هذا المتَّخوي^(٧) المتَّخوي^(٨) نظمت قصيدة سميتها سهم الشهم، وضمنتها مسائل لا تحفى على أولى الفهم، فما بلغت حتى تمغته^(٩) وألقاها كأنها حية لدغته. أيما الموه بجهله، والمدعى العلم وليس من أهله، سكرت فصحوك لا يجديك.. وكأني بمن ضحك قد ضامك (ظلمك)، وعين لك قد لامك. وزعم هذا الأهوج الأعوج أنه لم يعرف رسي، ولا سمع باسمي، كأنما ولد بالأمس، أو بُعث من الرأس (القبر)، أو عَمِيَ عن الشمس. »

وكانما بلغت القيروان في القرن الخامس عند ابن شرف وعلى المصري كل ما كانت تحلم به من روعة وإبداع في الكتابة الأدبية وأسجاعها القصيرة وألفاظها المنتخبة الرشيدة، ونغضى إلى عصر الدولة الحفصية، ويرسل أبو الفضل التجاني المتوفى سنة ٧١٨ رسالة إخوانية يتودد فيها إلى ابن عمه عبد الله التجاني صاحب الرحلة المشهورة في أثناء رحلته بالقسم الجنوبي من الإقليم التونسي آملا في لقاء قريب به، وفيها يقول^(١٠) :

« هذا الزمن الذي أوقع ريبا واشتمل الرأس به شيئا، سرعان ما تتقهقر القواطع منه مقصرة، وتحو ليلة أية النهار مبصرة، وتلقى حيلاء من سقط الفرقة مُضغة، ويرجع راجع الشباب صيغة الله (ومن أحسن من الله صيغة) وإذا كان يعيده حامل كلام، ويرده واصل سلام، فما ظنك به حين يلتقي المقيم والأيب، وتقبل الركائب، وتراج من جذب البرى^(١١)، ويراج^(١٢) إلى جنة القرب ونار البرى^(١٣) وحينئذ تنصل الأفراح، وأنشد :

مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فأنسا ابن قيسٍ لا بَسْرَاحٍ^(١٤) »

والقطعة مسجوعة وتحمل كثيرا من الصور وبها طباقات وجناسات واقتباس من الذكر

(١) الذخيرة ٢٤٩/٤.

(٢) الثبات: الجماعات.

(٣) أرداني: أهلكني.

(٤) أردائه: أكمّاه.

(٥) الحاطي: المحظوظ.

(٦) الأحاطي: المحظوظ.

(٧) المتخوي: من النحر.

(٨) المتخوي: المتعاطف.

(٩) دمغته: آلت دماغه.

(١٠) يجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٢١١.

(١١) تراج: تترج. البرى جمع برة وهي حلقة

من نحاس ونحوه توضع في إحدى فتحي أنف

البحر لجذبه بزمام منها لتذليله.

(١٢) براج: يرجع.

(١٣) القري: الطعام يقدم إلى الضيف.

(١٤) براج: فراق.

الحكيم واستشهاد ببيت سعد بن مالك في حرب بكر وتغلب معرّضا فيه بالمحارث بن عباد حين اعتزل هذه الحرب، وهي تصوّر براعة كاتبها الأدبية، وكان يتقلد رئاسة ديوان الإنشاء أيام الخليفة الحفصى أبى يحيى زكريا المشهور باللحياني وابنه محمد الملقّب بأبى ضربة. ومن كتاب الرسائل الشخصية في هذا العصر ابن خلدون، وسنخسه بكلمة. وتتناثر الرسائل في العصر العثماني، من ذلك رسالة تعزية لعلى الغراب الصفاقسى يعزى صديقا له في أمه ومن قوله فيها^(١):

«ترك القلب بعد المسرة أسيفا، وقرع الأسماع قرعًا عنيفا، ذكرُ ما أصبت به في مبدأ لَوْحَتِكَ^(٢)، ومُنبت دُوحَتِكَ، ومنيع مشربك، ومطلع كوكبك، حيث أجابت الدواعى العلوية، إذ قالت لما ﴿أرْجِئى إلى ربك راضيةً مرضيةً﴾.. فمرّ علينا - واقه - هذا المصاب، وبلغنا من الحزن بهذا الرُزْءِ^(٣) النصاب (الغاية).. فتأس يا أخى بصبر ذوى الألباب، وأدخر ما أصبت به عند الله ليوم الحساب، فلا يخفّاكم ما أعدّ للصّابرين من الأجر والثواب ﴿إنما يؤتى الصّابرون أجرهم بغير حساب﴾ أحسن الله لك بها العزاء، وجازاك الله أفضل الجزاء».

والتكلف واضح في هذه الرسالة، وعلى الغراب يكثر في كتاباته من صور التصنع المختلفة، وسنعود إلى بيان ذلك في الحديث عن مقاماته، ولمحمد ماضور المترجم له بين شعراء الغزل رسائل شخصية متعددة، من ذلك رسالة في تهنئة صديق بالإبلال من مرض، وفيها يقول^(٤):

«سلام أعلى وأعلى، وأجلى وأعلى، وأبقى وأبقى، من سلام شائق لمشوق، وواقق لموموق، أخصّ به حضرة الموسم بصدق الإخاء، في الشدة والرخاء، لازالت عيون السعادة تلاخطه، وأيادى الإيادة (التأييد) تفاوضه بمنّة الله تعالى، أما بعد فإني أحمد الله لى ولك على العافية الكافية، والنعمة الضافية الوافية، أمدها الله علينا امتداد رحمته، وأبقاها لدينا بقاء كرامته ومِنْتَه».

ولفه ماضور سهلة وليس فيها لفظ غريب ولا تكلف، وهي مسجوعة، مثلها في ذلك مثل الرسائل الشخصية في عصرها وقبل عصرها، إذ لم يستجيب الكتاب إلى دعوة ابن خلدون بتخليص الرسائل من السجع، وكأنها كانت صرخة في فلاة، والرسالة مكتظة بالجناسات زينة الكتابات الأدبية هي وأخواتها من المحسنات البديعية. وله من رسالة يعزى صديقا في رُزْءِ أصحابه^(٥):

«كتابى هذا عن نفسٍ مستطارة بلوعتها، وكبد مذابة بروعتها، وعن قلب شعاره بُرْحاء (شدة) الجوى فجعا لما فجعك، واشترাকা في عظيم المصاب ملك، وأسفا على من فقدناه فقدان

(١) انظر ديوان على الغراب الصفاقسى (٣) الرزء: المصيبة.

ص ٣٩٣. (٤) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٢٦٣.

(٢) لوحتك: خلقتك ووجدك. (٥) نفس المصدر ص ٢٦٤.

السمع والبصر، ورُمينا فيه بأعظم الحوادث والفِرِّ، وأى رُزْء ما أفضله في القلوب، وأى خطب ما أشتته في الخطوب.. وقد رمانى ساعد الزمان حين رماك، وأصماني سَهْمُه كما أصمأك.. لا أعاد الله عليك بعد هذا الخطب خطبا، ولا أُرَجِّف لك قلبا..
والاستعارات في التعزية والجناسات تخلو من التكلف، والسجع ينزلق في الرسالة - كسابقته - عن اللسان بخفة، والألفاظ فيه متآخية كأنما بينها رحم وقرابة، لما بينها من تلازم في الجرس يسرها في النطق على اللسان، ويزيئها في السمع للأذان.

II

المقامات

فن المقامة فن عربي عباسي ابتكره بديع الزمان عارضا فيه جيل الأدهاء السيارين المحترفين للكُتُوب أو الشحاذة الأدبية عن طريق ما يغلبون به الناس من فصاحتهم، وقد كتب مقاماته بأسلوب قصصي، واتخذها جميعا راوية هو عيسى بن هشام وبطلا هو أبو الفتح الإسكندري، وعيسى يروى في كل مقامة حيلة لأبي الفتح مع شيء من حواراه معه في أساليب أدبية مسجوعة بديعة. وتلقانا في القيروان وتونس رسائل أدبية يسميها أصحابها مقامات، وهي لا تقوم - كما قامت عند بديع الزمان والحريري بعده - على الكدية أو الشحاذة الأدبية، مما يجعل في تسميتها مقامات ضربا من التجوز. ومن أقدمها في القيروان رسالة نقدية لابن شرف سماها «رسائل الانتقاد» عرض فيها نحو أربعين شاعرا منذ العصر الجاهلي حتى عصره، وأنبع ذلك ببحث في سقطات عدد من الشعراء وعيوبهم. وأحكامه على الشعراء مجملّة وغير معللة غالبا، وهي بذلك ليست مقامة وإنما هي رسالة نقدية ولا نسمع بعد ذلك عن عمل لقيرواني حاكى به قصص الشحاذة الأدبية عند بديع الزمان والحريري، حتى إذا كنا في العصر العثماني وجدنا غير شاعر ينسب إليه بعض المقامات، وأول ما يلقانا من ذلك ثلاث^(١) مقامات للشاعر على الغراب الصفاقسي المترجم له بين شعراء المديح، وأولاهها تسمى المقامة الباهية نسبة إلى الشيخ أبي العباس أحمد الباهي في إقامه مدرسة أحدثها لعهد الأمير على باي الأول، وقد حدثه بها أبو الصلاح مسعود عن أبي التناء محمود الذي روى له أخبار تونس مقيضا في مديحها ومديح الأمير على باي الأول. ثم يفيض في وصف المدرسة ومبانيها وغرفها وصفا سهبا، ثم يطب في تهنئة الشيخ الباهي وابنه بإتمام المدرسة ويختم المقامة بقصيدة في مديح الشيخ. وواضح أن هذه المقامة ليس لها من فن المقامة شيء، أما في حقيقتها فإنها رسالة تهنئة للشيخ الباهي المسماة باسمه، وسمى مقامته الثانية باسم المقامة الهندية نسبة إلى الهندي وهو التين الشوكي، وكان شخص ذمه فأخذ يهدئ ويعيد في وصفه ووصف نموه على شجره قبل قطفه والالتذاذ

(١) انظر المقامات في ديوانه ص ٣٣١ وما بعدها.

بطعامه، وحاكى المقامة أبوسنان الهندي عن أبي عاصم الهندي، وليست مقامة إنما هي رسالة في وصف التبن الشوكي، ومقامته الثالثة اتخذ موضوعها عبادة كان كُلف حمودة بن عطاء الله بحملها وغسلها فأبطأ بها عليه، فكتب إليه هذه المقامة مداعبا، وفيها يقول:

«المستول من على هتكم وشریف حُرمتكم أن العبادة إذا كانت في دائرة الوجود وعلى الوجود مشتملة، فأيسرُ إنفاذها على الحال اللازمة لها أو المنتقلة، وإلا فأخبرنا لتعرض عنها ونقول: ﴿عَسَى رَبُّنا أَنْ يَبْدِلنا خَيْرًا مِنْها﴾ فإن الشتاء أرسل يخبرنا بموافاته.. وهذه العبادة غاشية^(١) لجميع أهل بيتنا في البرد، كافية للجمع منهم والفرد، ومنذ فقدت زمن ذلك الحر الكثير، لم يسألني عنها منهم صغير ولا كبير، بل كلما أمال النوم رقايمهم غلقوا أبوابهم ﴿واستشفوا ثيابهم﴾ ولما أن قطب وجه الشتاء وعيس، وقد أصبح أنفه يتنفس، صاروا كلما أقبلت ليلة شاتية، تنقلب جنوهم في المضاجع كل ناحية، وقاموا قبل الفجر يسألوني ﴿هل أتاكَ حديث الغاشية﴾ وجعلوا يتأسفون على فقرهم إليها ويقولون: ﴿يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾.

وليس الحديث عن هذه العبادة مقامة إنما هو رسالة أراد بها إلى الدعاة، ونراه في هذه القطعة من الرسالة يقتبس مرارا من القرآن الكريم آيات يزين بها أسلوبه، وهو يكثر من ذلك في مقاماته كما يكثر من التصنيع لمصطلحات العروض والعلوم وخاصة النحو. وفي هذه القطعة من مصطلحاته الحال اللازمة والمنتقلة، وأيضاً فإنه يكثر من التوريات، ويتكلف لذلك كله في صور مختلفة.

وللشاعر محمد الورغي ثلاث^(٢) مقامات أيضاً، سمي أولاهها الباهية، وهي تتطابق مع المقامة الباهية لعل الغراب في أنها تتخذ موضوعها مديح الشيخ الباهي وابنه اسماعيل وهي بذلك مثل مقامة الغراب رسالة لا مقامة. وسمى مقامته الثانية الورغبة كتبها حين ختن على باي الثاني أولاده وأولاد أخيه محمد الرشيد، وفيها يفتخر بشعره ويضع نفسه فوق شعراء عصره، ويعارض قصيدة أحدهم ويتناولها بالنقد، وهي أيضاً لا تشبه فن المقامة في شيء إلا في نسبتها إليه. وسمى المقامة الثالثة المقامة الحميرية كتبها حين هدم الأمير على باي الثاني الحانات في عاصمته تونس، وجعل بطلها سعد السعود مكتنيا به عن نفسه، وحاور فيها فتاة رامزا بها عن تونس، ويستهلها بقوله^(٣):

«يارواة الأخبار، وحلة القول المختار، شمل الله جمعكم بسلام، وجمع شملكم في دار السلام^(٤). خير المتكلمين من حدث بما نفع، وخير السامعين من أحرز وجمع، وخير ما قيل من

في العهد الحسيني ص ١٥٤ وما بعدها.

(١) الغاشية: الفطاء.

(٢) دار السلام: الجنة.

(٣) انظر في هذه المقامات كتاب الأدب التونسي

الكلم، ما يقال لقائله: سَلِّمْ، فاسموا الآن لحديث حسن، تخيرته في سالف الزمن: كنت ممن حُبِّب إليه معاناة الأسفار، وخفف عنه مفارقة الأوكار، ورأى أن من العجز تفضيل داره على دار، وأن من الأسر اتخاذ خليطة أو جار، وأن يقعد عن كَسْبٍ يحويه ليوم تظهر فيه مساويه، فشددت على وسطى أطماري^(١)، وشعرت لقطع المفاوز بإزارى» ويقول إنه رأى من البلاد ألؤفا، وخلط من أهلها صنوفا، حتى ألقى عصاه بتونس وسمى فتاة فيها أعجب بها «تونس» ويجرى على لسانها بعض أحوالها ويستطرد إلى مديح حاكمها على باى الثانى ويصفها لعهده على لسان فتاته، مشيدا بها وبه قائلا إنها:

«محط الرحال، ومطمح الآمال، تجارتها نافقة، مبانيتها رائقة، وسَلَّمها ثمينة، ومياهاها التى عَمَّت بها مَعِينة، ومساجدها معمورة، وبركاتنا منشورة، ومرثياتها لمدرسها جارية.. وأما خراج بلاده، فقد زاد على معتاده، لكثرة العمارة، بحسن سياسة الإمارة».

وتطلب إليه الفتاة أن ينشئ قصيدة فى مديح الأمير على باى الثانى لخدمه حانات العاصمة، وينظم فيه قصيدة. وواضح أن هذه المقامة مثل أختيها أشبه برسالة منها بمقامة، ونلاحظ أن لفته فى مقاماته أخف وأعذب من لفة على الغراب فى مقاماته. ومثل مقاماتها مقامة الحمودة بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م. ولعل فيها قدمته مايدل على أن فن المقامة لم يزدهر لا فى تونس ولا فى القيروان. بينما ازدهرت فنون النثر الأخرى وخاصة الرسائل الديوانية والشخصية، وحرى بنا أن نترجم لأشهر الكتاب ممن سميناهم، وهم أبو اليسر الشيباني وإبراهيم المصرى وابن خلدون.

٥

كبار الكتاب

أبو اليسر^(٢) الشيباني

هو إبراهيم بن محمد الشيباني ولد سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م ببغداد وبها المنشأ والمربى واختلف إلى حلقات شيوخها من المحدثين والفقهاء واللغويين أمثال الميرد والأدباء أمثال الجاحظ وابن قتيبة، وبدا فيه ميل مبكر إلى الأدب جعله يلقى كبار الشعراء بها من أمثال البحتري وابن الرومي

(١) أطمار جمع طمر: التوب الهالى.
 لابن عذارى (طبع مكتبة صادر ببيروت) ٢٥٤/١
 ونفع الطيب للمقرى وورقات عن الحضارة العربية
 بإفريقية ٢٤٤/١.

(٢) انظر فى ترجمة أبى اليسر الشيباني التكملة
 لابن الأبار (طبع مدريد) ١٩٠/١ والبيان المغرب

ويحمل عنهم دواوينهم، ويبدو أنه عمل في دواوين الدولة العباسية فصرة مع سعيد بن حميد وسليمان بن وهب وأمثالها. وكان فيه ميل إلى الرحلة ولعله عرف ارتحال زرياب إلى الأندلس وماحقق لنفسه من النجاح العظيم لعهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ) فرأى أن يؤم بدوره قرطبة، وقدمها في زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ) وطوف في أنحاء الأندلس، ثم رأى أن يغادرها، ولا تعرف أسباب ذلك، وركب البحر إلى إفريقية، وقصد الأمير الأغلب إبراهيم الثاني (٢٦١-٢٨٩هـ) فلقبه لقاء حسنا، وعمل بدواوينه ولم يلبث أن اتخذه رئيسا لدويان الرسائل لم يجد عنده من الأدب الرفيع والترسل البليغ والشعر الرائع مع حصافة الفكر ومكارم الأخلاق، ويبدو أنه هو الذي دفع إبراهيم الثاني إلى تأسيس بيت الحكمة في عاصمته رقادة، حتى إذا تولى زيادة الله الثالث عهد به إليه مع رياسته لدويان الانشاء، ويقول الكاتب الرقيق مؤرخ القيروان المشهور إنه هو الذي أدخل إلى إفريقية رسائل المحدثين وأشعارهم وأخبارهم، واستمرت له منزلته الرفيعة عند الأغالبة حتى إذا انتهت دولتهم سنة ٢٩٦ وخلفتها في إفريقية الدولة الفاطمية أقره عبيد الله المهدي في عمله مستعينا به في توطيد حكمه، ولم يلبث أن توفي سنة ٢٩٨هـ/٩١١م بعد أن لقن ابنه وعددا من أبناء رقادة والقيروان أصول الكتابة الديوانية، ويذكر من ترجموا له مؤلفات لغوية وأدبية مختلفة، منها: سراج الهدى في معاني القرآن وإعراجه ومشكله، ومسند في الحديث، وكتاب لقط المرجان على شاكلة كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، ويقال إنه كان أكبر منه حجبا. وخلف بجانب ذلك مجموعة من الرسائل النثرية البليغة، واتخذ لبعضها أسماء مثل المرصعة والمدبجة والوحيدة والمؤنسة. وهو صاحب الرسالة العنزاء التي نسبها محمد كرد علي إلى إبراهيم بن المدير في كتاب رسائل البلغاء خطأ، وفي كتاب صبح الأعشى نصوص منها منسوبة إلى أبي اليسر مما يؤكد نسبتها إليه كما في كتاب العصر العباسي الثاني ص ٥٢١ وأشار إلى هذه النسبة الدكتور محمد طه الحاجري في كتابه دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب ص ١٠٧ ووثق نسبتها إلى أبي اليسر الدكتور محمود مكى في بحث قدمه إلى المجمع اللغوي.

والرسالة طويلة وتعرض بدقة موازين البلاغة وأدوات الكتابة، وهي - في رأينا - أول رسالة عرضت في تفصيل صناعة الكتابة الديوانية، ويذكر في مطلعها أن شخصا طلب إليه أن يعرفه بأدب الكتاب، ويطلب ممن يريد حذقها طول الاختلاف إلى العلماء ودراسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والتأخرين والوقوف على الأشعار والأخبار والسير والأسمار والخطب ومحاورات العرب ومعاني العجم وأمثالهم ورسائلهم وعهودهم، مع التزود بالنحو والصرف واللفظ والفقه. ويقول إن من يريد التفوق في صناعة الكتابة ينبغي أن يحسن اقتباس آي القرآن الكريم ووضعها بدقة في مواضعها وكذلك الأمثال والأشعار. ونشر أنه يستمد من الجاحظ

كثيرا من أفكاره عن الكتابة الأدبية. وقد طالب - كما طالب الجاحظ من قبله - باللمامة الدقيقة بين الكلام وطبقات الناس. وبالمساكلة بين الألفاظ والمعاني حتى توضع الألفاظ في مواضعها. ونراه لا يرضى - مستضيئا بأبن قتيبة - عبارات في الدعاء مثل: «أبقاك الله طويلا» فخير منها «أطال الله بقاءك» إذ العبارة الثانية في رأيه أرجح وزنا وأنيب قدرا. ويطلب إلى الكاتب أن لا يستعمل الدعاء: «جعلت فداك» لأنه ابتذل حتى مجته الأفواه. كما يطلب إليه أن يعرف لكل كلمة مكانها. ويضرب مثلا لتوضيح رأيه هو أن شخصا كتب إلى داود بن خلف الأصفهاني صاحب مذهب الظاهرية عن شخص آخر هذه العبارة: «وإن قال كذا فقد خرج عن الملة. والحمد لله» فقال له داود متعجبا من وضع الحمد في عبارته: وتحمده الله على أن تخرج امرأ مسلما من الإسلام. هذا موضع استرجاع وللحمد مكان يليق به. وإنما يقال في العصية: إنا لله وإنا إليه راجعون. ويقول أبو اليسر إنه يوضع مع ذكر الشكوى مثل: «واقه المستعان» ومع ذكر البلوى: «نسأل الله صرف السوء» ومع ذكر النعم: «الحمد لله».

ويستضيء بالجاحظ في النهي عن الإيجاز المفرط في الرسائل والألفاظ المشتركة والمبهمة. ويدعو إلى الاستهلال في مقدمات الرسائل بحيث يشير الكاتب في صدرها إلى المراد منها. ويفض في أوصاف القلم واختيار مادته وطريقة برهه. ويتحدث عن القراطيس والكتابة فيها وطبها ويلفت إلى كتابة التاريخ بالقياس إلى الشهر. فإن كان الماضي أقل من نصف الشهر قيل: لكذا ليلة مضت من شهر كذا وإن كان الباقي أقل من النصف قيل: لكذا ليلة بقيت. ويعود إلى الحديث عن وضع الألفاظ في مواطنها بكل دقة وينهى من ليست له موهبة في الكتابة عن الانتظام في هذه الصناعة.

وينقل عن الجاحظ إعجابه بالكتاب إذ التمسوا من الألفاظ ما ليس متوعرا وحسبا ولا ساقطاً سوقيا. ويبين أهمية الرسائل المحيرة تحبيرا جيدا في استتزال الجبارة وأنها قد تصنع مالا تصنعه الجيوش اللجة. وينقل عن البيان والتبيين للجاحظ نقولا كثيرة مثل تعريف اليونان والروم والفرس للبلاغة والصحيفة التي دونها عن الهنود في البلاغة. وأيضا ما سجله الجاحظ عن بعض بلغاء العرب والمتكلمين. وتأثير الجاحظ وأبن قتيبة واضح في الرسالة. وللجاحظ النصيب الأوفر. ولعل في هذا التلخيص المجلل إجمالا شديدا للرسالة العذراء لأبي اليسر الشيباني ما يوضح كيف أنه عنى عناية واسعة بنقل تقاليد الكتابة في بغداد إلى إفريقية كما عنى زرياب قبله بنقل تقاليد الغناء البغدادى إلى الأندلس. وبدون ريب يفتتح أبو اليسر الشيباني في إفريقية للكتابة الديوانية عصرا جديدا بأكمله.

إبراهيم^(١) الحُصْرِي

هو أبو إسحق إبراهيم بن علي المشهور بالحُصْرِي نسبة إلى قرية بهذا القهروان اسمها الحُصْر، قال ابن رشيقي في التعريف به إنه «نشأ على الوراثة والنسخ لجودة خطه، وكان منزله لزنيق جامع القهروان فكان الجامع بيته وخزائنه، وفيه اجتماع الناس إليه ومعه، ونظر في النحر والعروض. ولزمه شبان القهروان، وأخذ في تأليف الأخبار وصناعة الأشعار، مما قرَّبه إلى قلوبهم، فرأس عندهم، وشرف لديهم. ووصلت تأليفاته حقلية وغيرها وانتالت (انتالت) الصلوات عليه، مات بالنصورة (بالقرب من القهروان) سنة ٤١٣ وقد جاوز الأشد. وكان شاعرا نقادا عالما بتنزيل الكلام وتفصيل النظام، يحب المجانسة والمطابقة ويرغب في الاستعارة تشبُّهاً بأي تمام في أشعاره، وتبعا لآثاره، وعنده من الطبع ما لو أرسله على سجيته لجرى جَرَى الماء، ورق رقة الهواء». ويتبع ابن رشيقي في الثناء عليه ابنُ بسام في الذخيرة قائلا إنه كان صدر الندى ونكتة الخبر الجلي، وديوان اللسان العربي، راض صغابه، وسلك أوديته وشعابه، وجمع أشناته وأحيا مواته». وللحُصْرِي مؤلفات أدبية بديعة، أهمها زهر الآداب وثمر الألباب المنشور في أربع مجلدات، عارض به كتاب البيان والتبيين للجاحظ كما يقول ابن بسام «وما يقصر عنه مداه، ولا قصرت خطاه، ولم يورد فيه كلام العرب كما صنع الجاحظ، وإنما أورد روائع العباسيين من الشعراء والكتاب حتى عصره، وكاد لا يترك لهم مقطوعة شعرية بديعة ولا رسالة أدبية رائعة إلا دونها، يسعفه ذوق مصفى وحس دقيق وشعور رقيق، وأكثر من الاختيار لبديع الزمان فلم يترك له رسالة بليغة ولا مقامة باهرة في رأيه إلا دونها في كتابه، ونعجب أن يقدم لشباب الأدهاء في الإقليم التونسي مقامات بديع الزمان، ولا يصدرون عنها في صنع مقاماتهم، غير أنهم إن كانوا عزفوا عما في مقاماته من الكدية والشحافة الأدبية فما لاشك فيه أنهم مضوا يستوعبون ويتمثلون ما قدمه لهم من غذاء الشعر والنثر العباسي الرفيع، وهو غذاء ظل يحيا حياة متصلة في جيله والأجيال بعده، ومن أجله كان الشباب في إفريقية التونسية يلزمونه في حياته ويلزمون آثاره بعد مماته، إذ كان له من التأليف بجانب زهر الآداب كتاب الجواهر في الملح والنوادر وكتاب المصون والدرر المكتون وكتاب النورين أو نور الظرف ونور الطرف، وجميعها مختارات من رسائل وأشعار «أندى - كما يقول ابن بسام - من نسيم الأسحار، وأذكى من شميم الأزهار» وقد عرض منها فصولا بديعة. وتهنأ الفصول التي اختارها من رسائله، وما اختاره له من رسالة إخوانية قوله:

خلكان ٥٤/١ والرواق للصفدي ٦١/٦.

(١) انظر في ترجمة الحُصْرِي الأنموذج ص ٤٥ والذخيرة ٥٨٤/٤ ومجمع الأدهاء ٩٤/٢ وابن

«قد تقاربت الصفات، وتوازنت الذوات، وتكاشفتنا لما تعارفنا، ورفعت الحلوة حجاب الاحتجاب، وحطت الخلطة لثام الاكتتام، وكنا مع طول الامتحان والاختبار ومدة الالتباس والاختيار، نقتنع من ارتفاع القناع بلمحة، ومن اتقاد الزناد بقدحة، وتبرز المهارات، من معارض الإشارات، وغوامض الاستعارات، في طراز يلق عن مسرى السحر، ويرق عن مجرى الحمى.. ونختلس حركات البيان، في سكتات الزمان، كما اختلس اللفظ المحبب الكون، فهلم الآن إلى التصريح دون التعميص، والتصحيح دون التعميص، وتعال نلطف، وتكاشف، إذ قد لينا ثوب الأمان من الزمان».

والجناسات كثيرة في الرسالة، وبالمثل الطباقات في السطور الأخيرة، والاستعارات كثيرة كثرة مفرطة، وكأنه لم يكن يكثر من هذه المحسنات البديعية في الشعر فحسب، كما قال ابن رشيق، بل كان أيضاً يكثر منها في النثر. ومن فصل في الإشادة بكتابة كاتب يقول:

«إِذَا بَدَأَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى بِرَاحَتِهِ مَطَرًا لِرَدَاءِ الْفَخْرِ بِالْظُّلْمِ
رَأَيْتُ مَا أَسْوَدَ فِي الْأَبْصَارِ أَيْضُ فِي بَصَائِرِ لِحْظِهَا لِلْفَهْمِ غَيْرُ عَمْرٍ
كَرْوَةِ خَطَرْتُ فِي وَشَى زَهْرَتِهَا وَافْتَرَّ نُورُهَا عَنْ ثَغْرِ مَبْتَسِمٍ

وتبرجت في حللها وحليها، وابتهجيت بوسميتها^(١)، ورأيها^(٢)، فاجتنبت ما اشتبهت من خزامها وغرارها^(٣)، واجتليت ما رأيت من غيريها وبهارها^(٤)، ولثمت خدود ورديها وسوسانها^(٥)، ورشفت ثنور أقاجها وخوذانها^(٦)، والنقطة مالا تُخلق^(٧) الأيام بهجته، ولا تغير الأعوام جذته، من نور^(٨) يقطف بالأسماع والأبصار، وزهر يتناول بالخواطر والأفكار، وسرحت الطرف، فيما يفوت الوصف، من غرائب إبداع، وعجائب اختراع، لم تفتزعها^(٩) الأسماع».

والفصل مليء بالاستعارات فسطور كتابة هذا الكاتب تطرأ بسوادها أو ظلمها رداء فخره، وما أشبه كتاباته بروضة تتمايل أغصانها بوشى زهرها، وتتلألأ البسمات على ثغور نوارها. ويمضي في وصف الروضة طويلاً مصوراً بأزهارها كلماته، وكأنما أكب على خدود وردها يلثمه

(١) الوسمى: أول المطر. الولي: المطر بعد المطر.

(٢) الخزامى والعرار: نباتات طيبة الرائحة.

(٣) الحمري: زهر أصفر، والبهار: زهر أبيض وها

عطران.

(٤) السوسن: زهر متعدد الألوان جذاب عطر.

(٥) أقاج جمع أفحوان: زهر عطر يشبه النثر.

والخوذان: نبات عشبي زهره طيب الرائحة.

(٦) تخلق: تولى.

(٧) نور: زهر.

(٨) تفتزعها: تنمو عليها.

وعلى ثغور أقبحائها يرشفه، وظل يقطف من زهر خواطر هذا الكاتب وأفكاره العبقية، مسرّحاً الطرف فيما يفوت الوصف. ويقول المصري من فصل مقذع في المهجاء:

«هو كليل الخاطر سقيم النفس، صدى القرينة عديم الحس، ذو طبع جاس^(١)، وفهم قاس.. قد تعود لئى اللسن بالسباب، وغمز الأعين على الصحاب، واستعمل الملق والكذاب، فهو بين جاهل متغافل، قد حشى قلبه زناً، وملى لسانه مهناً^(٢)، وبين من سمائم غائمه تلذع، وعقارب مكايده تلسع.. قد أسكرته خمر الكبر، فخيّل إليه أن كسرى حامل غاشيته، وأن قارون وكيل نفقته، وبلقيس إحدى داياته».

وذم هذا الأديب المتعالى الدعى شديد الإيلام، إذ لم يترك فيه المصري شيئاً من نفس أو حس أو طبع أو ذهن أو خلق إلا وجّحه، وكأنا يريد أن يمزقه تمزيقاً، ووصّفه بالكبر والتعالى حتى ليخال أن كسرى ملك الفرس من حشمه الذين يحملون من ورائه غاشيته وأن قارون صاحب الكنوز المشهور وكيل على نفقته، وأن بلقيس ملكة اليمن من حواضنه. ومضى يذكر له أنه يخال شعراء الجاهلية الكبار امرأة القيس والتأفة وزهيرا ليسوا شيئاً مذكوراً بهجانه. والرسالة طويلة ونظن طناً أن ابن زيدون استضاء بها في رسالته الهزلية. ولعل فيما قدمت من هذه الفصول ما يشهد له بأنه كان كاتباً مبدعاً إبداعاً رائعاً لا بما كان يزين به كتاباته من محسنات البديع فحسب، بل أيضاً بما كان ينتخب من الألفاظ مسوياً منها ثوراً متلاحقة.

ابن^(٣) خلدون

هو ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى التونسى، ولد بتونس سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م حتى إذا أبلغ قرأ القرآن العظيم على أبى عبد الله بن برّال، وبعد أن استظهره قرأه عليه بالقراءات السبع المشهورة وبقراءة يعقوب أحد العشرة، وعرض عليه الشاطبيتين في القراءات وكتاب التقصّى لأحاديث الموطأ لابن عبد البر وكتاب التسهيل في النحو لابن مالك ومختصر ابن الحاجب في الفقه، وفي خلال ذلك تعلم صناعة العربية على والده

(١) جاس: غليظ.

(٢) رننا: دنسا. مهنا: كذبا.

(٣) انظر في ترجمة ابن خلدون كتابه: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، وهو سيرته بقلمه (طبع القاهرة) والضوء اللامع لأهل القرن التاسع للشخاوى ١٤٦/٤ والحلل السندسية ٦٦٥/٣ وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطف حسين ترجمة محمد عبد الله عنان وبرتشفيك ٤٠٥/٢ وما بعدها

ودائرة المعارف الإسلامية في ابن خلدون، وكتاب ابن خلدون: حياته وتراثه الفكرى (طبع القاهرة) وأعمال مهرجان ابن خلدون في يناير سنة ١٩٦٢ بالقاهرة ودراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع المصري (طبع القاهرة) وعبد الرحمن بن خلدون للدكتور على عبد الواحد واقى (طبع القاهرة) ومجلد تاريخ الأدب التونسى ص ٢١٨.

وعلى الشيخين الحصائري والزُرزالي، وعلى إمام العربية والأدب بتونس أبي عبد الله بن بحر وأشار عليه بحفظ الشعر فحفظ كتاب الأشعار الستة للأعلم وكتاب الحماسة وشعر أبي تمام وطائفة من أشعار المتنبي وسقط الزند للمعري ولازم مجلس المحافظ ابن جابر الوادي أَسَى وسمع عليه صحيح مسلم، وكتاب الموطأ، وأجازه إجازة عامة، وأخذ الفقه عن جماعة منهم أبو القاسم محمد بن القصور قرأ عليه كتاب التهذيب للبرادعي ومختصر المدونة وتفقه عليه، وفي خلال ذلك كان يحضر مجلس الإمام محمد بن عبد السلام، وعليه سمع كتاب الموطأ. ولما ملك السلطان أبو الحسن المربني تونس سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٨م أحضر معه جماعة كبيرة من علماء فاس، فاستمع إليهم وانتفع بهم، وبخاصة من الشيخ أبي عبد الله الأبل التلمساني تلميذ ابن البناء المراكشي، وعنه أخذ الأصول والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليلية.

وواضح من ذلك أن ابن خلدون كان - منذ نشأ - يَكْبُ على تحصيل العلوم بل يلتزمها التهاما، وقد لفت إليه معاصريه منذ حدوثه، مما جعل أبا محمد بن تافراكين المستبد بالدولة بعد رحيل السلطان أبي الحسن المربني عن تونس يستدعيه سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م لكتابة العلامة عن الخليفة الحفصي أبي إسحق وهي وضع كلمة «الحمد لله والشكر لله» بقلم غليظ بين البسلة وما بعدها من مخاطبة أو مكاتبة، وفي سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٣م استدعاه السلطان المربني أبو عنان فارس لينتظم في سلك رجال دولته، ولَبَّاهُ، فأكرم وفادته عليه، وعهد إليه سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٦م بالكتابة والتوقيع بين يديه، ونَفَسَ عليه بعض من حوله هذه المكاتبة عند السلطان وأخذوا يدسّون عليه فاعتقله السلطان سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م وظل في معتقله حتى توفي سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩م ورُدَّتْ إليه حريته بعد وفاته، ولحق بالسلطان أبي سالم وولاه كتابة السر والإنشاء حتى توفي سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م ودخل بعده إلى غرناطة بالأندلس واحتفى به سلطانها ابن الأحمر ووزيره لسان الدين بن الخطيب، وتوثقت الصلة بينه وبين الوزير، وأرسله السلطان سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٤م في سفارة إلى ملك قشتالة، ونجح في سفارته وسرعان ما أخذ أهل السعيات يفسدون ابن الخطيب عليه، وأحس منه شيئا من الانقلاب لم يكن عهده فيه، وكانت قد وردت عليه كتب من الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية يستدعيه، فصمم على مغادرة غرناطة وركب البحر سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٥م إلى بجاية، واحتفل أميرها ورجال دولته به، وخلع عليه، وأخذ يستعين به في تدبير حكمه، وأسند إليه خطابة الجامع، ودرّس للطلاب، وقُتِلَ وخلفه أخوه، وأحس بالسعيات تكثر ضده، وجاءه كتاب من السلطان أبي هو صاحب تلمسان في الجزائر سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٨م يستدعيه - وهو بمدينة بَسْكَرة - لحجابه، فلبَّاهُ، وظل عنده حتى سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٣م إذ استدعاه السلطان المربني عبدالعزيز ليعمل معه، وارتحل إليه، غير أنه توفي قبيل قدومه عليه، ولقيه الوزير أبو بكر بن غازي لقاء كريما، وأحس بدسائس تُحاك ضده من

حواله، فرحل إلى غرناطة سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م رحلته الثانية، وسرعان ما أخذ أهل الدولة بفاس يدسون ضده عند سلطانها ويحثونه على إعادته إلى تلمسان، وعاد إليها وأحس ريبة من أبي حو سلطانها لتركة له وعمله مع الدولة المرينية، فخرج من تلمسان واتجه إلى أحياء أولاد غريف في البادية فأكرموه، ومكث بينهم مع أسرته أربعة أعوام، نزل فيها مع أهله بقنعة ابن سلامة في جبل بني راشد وأسكنوه فيها قصرا، اختل في لوضع أصول كتابه العبر ومقدمته. وأحس أنه محتاج إلى مطالعة أمهات الكتب في مكتبات الدولة الحفصية في تونس ليستعين بها في تاريخه منقحا ومصححا وارتحل في سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٩م يريد تونس ولقي في سوسة سلطانها. فراجعهم وذكر له أنه يريد الرجوع إلى تونس مسكن أبائه، فجهزه إليها، وعاد إلى عثه الذي درج منه، وكان السلطان قد أمر نائبه فيها أن يبعي له منزلا كريما مع راتب كاف. وعاد السلطان الحفصي إلى عاصمته، وأخذ يستشير في شئون الدولة، وطلب إليه الإكباب على تكملة تاريخه، وأكمل وأهدى الخزانة الحفصية الكبيرة منه نسخة، وأحس بسعايات ضده عند السلطان الحفصي فقرر مغادرة تونس متعللا بالحج وركب البحر إلى الإسكندرية سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٣م ودخل القاهرة وانهال عليه طلابها يريدون الاستماع إليه، فانتصب للتدريس بالجامع الأزهر، يقرأ لهم كتاب الأصول للإمام المصري المالكي ابن الحاجب، وأخذت شهرته تنتسج في أروقة العلماء والأمرءاء، ولقى السلطان المملوكي برقوق فأنسه ووفر راتبه، وولاه التدريس في المدرسة القمحية بجوار جامع عمرو أهم مدارس الفقهاء المالكية بمصر. والنس منه ابن خلدون أن يرسل إلى الخليفة الحفصي بتونس رسالة يرجوه فيها أن يرسل إليه أسرته بخرًا، وأرسلها، غير أنه لم يكتب له أن يري أحدا من أهله، فقد غرقت السفينة بكل من كان فيها، وحزن حزنا شديدا. وكان برقوق قلده قضاء القضاة المالكية سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٥م بالإضافة إلى تدريسه في المدرسة القمحية وكثر الشغب عليه وأظلم الجو بينه وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابه في أهله وولده، وعظم جزعه، فاعتزم الخروج من منصب القضاء والخلوص للمعاشرة والتدريس، وظل مترددا، حتى إذا عرف برقوق رغبته أخلاه من هذا المنصب سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٦م. ومكث بعد عزله منه نحو سنتين في حال رفعة وعز من تردد الطلاب والعلماء ووجوه القاهرة إليه، وتوجه إلى أداء فريضة الحج سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٨م ففضى النسك وعاد إلى القاهرة محمولا بمحبة الناس وتحتهم له إلى أن رأى السلطان أن يقلده القضاء ثانية في سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م وصُرف عنه في سنة ٨٠٣. ولم يلبث أن خرج مع السلطان فرج للقاء تيمور لنك وإعصاره التتاري، وهزم فرج وجيشه بالقرب من دمشق وخرج ابن خلدون مع وفد للقاء تيمور لنك والتفاوض معه في تسليم دمشق ووعظه وعطا طويلا استطاع به أن يفديا من النهب والسلب وما كان يأتي جيش تيمور لنك من الفطائع، وعقد صلح بين السلطان فرج وتيمور لنك. وعاد ابن خلدون إلى القاهرة واستقبل بحفاوة بالغة، وأعيد إلى القضاء في نفس السنة، وصُرف في السنة التالية، وأعيد فيها،

وصرف سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م وأعيد سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م ولبي نداء ربه - وهو قاض - في السنة التالية.

وقد بهر ابن خلدون معاصريه ومن جاءوا بعدهم إلى اليوم بتاريخه الذي سماه: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر» وهو ثلاثة أقسام في سبعة كتب، والكتاب الأول مقدمة في الفلسفة الاجتماعية في مجلد كبير، والكتاب الثاني في أربعة مجلدات تناول أخبار العرب في المشرق، والكتاب الثالث في مجلدين يتناولان تاريخ البربر، وهو حجة في تاريخهم، وأيضاً فيها كتبه عن تونس وصقلية والأندلس. والدافع الذي دفعه إلى كتابة مقدمة مسهبة لتاريخه ما لاحظته عند المؤرخين قبله من قبولهم كثيراً من الأخبار الزائفة والخرافية وخضوعهم للأهواء وبعض النحل دون تصور واضح للقوانين الاقتصادية التي تحكم المجتمعات الإنسانية، فأراد أن يفهم على هذه القوانين ومدى سيطرتها على الظواهر الاجتماعية والسياسية، وبذلك فسر التاريخ على أسس تطور الأوضاع الاقتصادية لا على أسس تطور الأوضاع السياسية كما تصوره اليونان. والمقدمة في ستة أبواب، أولها يتحدث عن العمران البشري وضرورة الاجتماع الإنساني ومن قوله في ذلك.

«إن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكاء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وهو معنى العمران، وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن قرضه، وهو قوت يوم من المنطة مثلاً فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وقاخوري. هب أنه يأكله خباً من غير علاج فهو أيضاً يحتاج في تحصيله إلى أعمال أخرى أكثر من هذه: من الزراعة والحصاد والدّراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبّل، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن توفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضفاف، وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه».

ويقول إنه إذا حصل للبشر هذا الاجتماع أو المجتمع وتم لهم العمران كان لا بد لهم من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم، وهذا الوازع إما يكون بواحد منهم له عليهم الغلبة والسلطان، وإما بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد

منهم متميز بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه، حتى يتم له الحكم فيهم من غير إنكار. ويفيض في الحديث عن العمران بالأرض وأقاليمها ومدى تأثير البيئة في السكان سواء في الألوان أو في الأخلاق.

والباب الثاني يتناول العمران البدوي مع مقارنات بالعمران الحضارى وبيان أن الأمم الوحشية تتغلب على مالا يبلغها في الوحشية من الأمم، ويقول إن الانغماس في الترف من عوائق الملك، وإن المظلوم مولع أبداً بالانتداء بالغالب، وإن تغلب العرب على الأوطان يسرع إليها بالخراب وإنهم أبعد الناس عن سياسة الملك. وظن بعض الباحثين أنه يريد العرب عامة، وهو إنما يريد الأعراب المتهددين الجفاة من أمثال بنى هلال وبنى سليم الذين سبق أن تحدثنا عنهم وعن سيولهم التي قدمت إلى إفريقية وخرّبت القيروان وغيرها من المدن في القرن الخامس الهجرى.

والباب الثالث عن الملك وأصنافه وأنه يحصل بالعصبية وحين يسود فيه الترف يفيض إلى الهرم، ويقول إن الدول تنتقل من البداوة إلى الحضارة وإن لها أعماراً مثل الأشخاص، ويتحدث عن الخلافة وانتقالها إلى الملك كما يتحدث عن تسمين بهم الدول من الوزراء والحجّاب والعمال والكتاب ورجال الشرطة وقواد الجيش، وعن الحروب والجباية والمكوس، ويقول إن التجارة من السلطان مفسدة للريعية، وبالمثل تفرده هو وحاشيته بأكبر نصيب من دخل الدولة. وليس شيء يؤذّن بخراب العمران مثل الظلم، ولا بد للعمران البشرى من سياسة عادلة ينتظم بها أمره. والباب الرابع عن البلدان والأمصار وما يجب مراعاته في أوضاع المدن، ويقول إن الحضارة غاية العمران غير أنها تعدّ لفساده. والباب الخامس عن المعاش (الاقتصاد) ووجوه من الكسب ويقول إنه: «إما أن يكون بالاستيلاء عليه من يد الغير على قانون متعارف ويسمى مَفْرَمًا وجباية وإما أن يكون باقتناص الحيوان الوحشى وأخذه بِرُمْتِهِ ويسمى ذلك اصطيدًا، وإما أن يكون من نتاج الحيوان الداجن. كاللبن من الأنعام والحريز من دوده والعسل من نحلته، وإما أن يكون من الزرع نباتاً أو شجراً ويسمى ذلك فلاحاً أو قَلْعاً، وإما أن يكون من الأعمال الإنسانية في مواد معينة وتسمى الصنائع من كتابة وتجارة وخياطة وحياكة وقروسية وأمثال ذلك، وإما أن يكون من البضائع وأعدادها للأغراض^(١)، ويسمى ذلك تجارة». ويفصّل القول عن الفلاحة وعن التجارة وأصنافها وما يحدث فيها من الاحتكار، ويقول إنه يعود على صاحبه بالتلف والخسران، وإنه هو الذى اعتبره الشارع أخذ أموال الناس بالباطل. ويفيض في الحديث عن أمهات الصنائع ويذكر من بينها صناعة التوليد وصناعة الطب ويفصّل القول فيها كما يفصله في صناعة الفناء وأنغامه وآلاته وتطوره من الجاهلية إلى زمنه.

(١) الأغراض جمع عوض: البذل في التجارة.

والباب السادس مقصور على العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه، ويتحدث عن العقل التجريبي وعلوم الأنبياء وأن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب وأن العلم والتعليم طبعيان في العمران البشري وأن العلوم إنما تكثر حين يكثر العمران وتظم الحضارة، ويُفيض في الحديث عن أصناف العلوم بادئاً بالعلوم الإسلامية: علوم القرآن من التفسير والقراءات وعلوم الحديث وعلوم الفقه وأصوله وعلم الكلام وعلم التصوف ومذاهب الوحدة والحلول فيه، ويتسع بالحديث في علوم الأوائل من الحساب والهيئة والمنطق والطبيعات والطب والفلاحة وعلم الإلهيات وعلم الكيمياء والفلسفة عارضاً في كل علم تاريخه وأشهر أعلامه. وينتقل إلى علوم اللسان العربي: علم النحو وعلم اللغة وعلم البيان وعلم الأدب ويقول «إنه لا موضوع له يُنظرُ في إثبات عوارضه أو نفيها وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهى الإجابة في فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، ويقول إن لغة العرب من أهل الحضرة والأمصار لزمته مغايرة أو مخالفة للغة مضر الفصحى، إذ اتخذ كل بَصْرٍ وكل بلد لنفسه لغة عامية عربية مستقلة به، ويتحدث عن صناعة الشعر والنثر وأشعار العرب والأمصار لزمته الموشحات والأزجال وغيرها من فنون الشعر المستحدثة كالموالي. وبذلك كله وضع ابن خلدون في مقدمة تاريخه لأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني علم الاجتماع بأركانه وقواعده وقوانينه أو كما يسميه علم العمران البشري سابقاً بذلك علماء الغرب الذين لم يعنوا به بعده إلا بنحو أربعة قرون، وهو بحق عبقرى قد لا لتونس وحدها بل للعرب جميعاً في كل مكان وزمان.

وواضح من حياة ابن خلدون أنه عمل بدواوين حكام مختلفين، وهو بذلك يعدّ من كتاب الدواوين، وكان السجع قد شاع في كتاباتهم بحيث لا يكتبون رسالة ديوانية إلا مسجوعة سجعاً تاماً، وليس ذلك فحسب، بل كانوا يضيفون إلى السجع المحسنات البيديعية، ورأى أن ينحى هذه الطريقة عن كتابته الديوانية، وأن يكتب بالأسلوب المرسل محاكياً عبد الحميد الكاتب والمحاظ وأضرابها من قدماء الكتاب البلغاء، ويصرح بذلك في كتابه: «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، إذ يقول فيه: «لما استعملنى السلطان أبو سالم [المرينى] في كتابة سرّه والترسيل عنه والإنشاء لمخاطباته كان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل دون الأسجاع لضعف انتحالها وخفاء العالى منها على أكثر الناس بخلاف الكلام المرسل، فانفردت به يومئذ، وكان مستغنياً بين أهل الصناعة». ونراه في المقدمة يهاجم الكتابة الديوانية المسجوعة يعنف في الفصل الذى عقده لانتقاص الكلام إلى فنى النظم والنثر، ويقول: «استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية.. واستمروا على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية.. وهجروا المرسل وتناسوه.. ووجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه.. والمحمود فيها الترسل، وأما إجراؤها على هذا النحو القفى فمذموم، وما حلهم عليه إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطائهم الكلام حقّه في

مطابقتها لمقتضى الحال، فعجزوا عن الكلام المرسل، وجبروه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب (المحسنات) البديعية». وهو يعض إلى مهاجمة الأسجاع في المكاتبات السلطانية مهاجمة المحسنات البديعية التي أكثر منها المتأخرون، وعاد إلى هذه المهاجمة في الفصل الذى عقده في المقدمة بعد ذلك للمطبوع والمصنوع من الكلام، وقال إن تلك المحسنات تطلب اليوم على أهل العصر، وأصحاب الأذواق في البلاغة يسخرون من كلفهم بهذه الفنون ويعدون ذلك من القصور عن سواء وليس بين أيدينا رسائل ديوانية لابن خلدون إلا ما ذكره في كتابه: «الترغيف» من فصل في رسالة أرسل بها إلى ملك المغرب أبى سعيد عثمان بن أحمد المريني يظهريه فيه بأحوال تيمور والتار منذ جنكيزخان وفيه يقول:

«كنت فى العام الفارط توجهت صحبة الرُكَّاب السُّلْطَانِي (الناصر فرج) إلى الشام عندما زحف الطُّطر إليه من بلاد الروم (آسية الصغرى) والعراق مع مَلِكِهِمْ تَمُرُواستولى على حلب وحماة وحمص وبعلبك وغيرها جميعا، وعانت عساكره فيها بما لم يُسَمَّع أشنع منه، ونهض السلطان في عساكره لاستنقاذها، وسبق إلى دمشق وأقام في مقابلته نحوًا من شهر، ثم قفل راجعا إلى مصر، وتخلَّف الكثيرُ من أمرائه وقضاته، وكنت في المخلِّفين، وسمعت أن سلطانهم تَمُرُوا سأل عفى، فلم يَسْعَى إلا لقاؤه، فخرجت إليه من دمشق، وحضرت مجلسه، وقابلني بخير، واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق، وأقيمت عنده خمسة وثلاثين يوما، أباكره وأراوجه، ثم صرَفَنِي ووَدَّعَنِي على أحسن حال، ورجعتُ إلى مصر.. ثم رجع آخِرًا إلى بلاده، والأخبارُ تنصُّلُ بأنه قصد سَمَرْقَنْدَ، وهى كَرْسِيُهُ (عاصمة ملكه) - والقَوْمُ في عددٍ لا يسمه الإحصاء، إن قَدَّرْتُ أَلْفَ أَلْفٍ (مليون) فقير كثير، ولا تقول أنقص، وإن خَيمُوا في الأرض ملأوا السَّاحَ (الساحات) وإن سارت كتائبهم في الأرض العريضة ضاق بهم الفضاء، وهم في الغارة والنهب والفتك بأهل العمران واهتلائهم بأنواع العذاب على ما يحصلونه من فئاتهم آية عجب، وعلى عادة بوادى الأعراب».

والفصل - على هذه الشاكلة - مكتوب بأسلوب مرسل دون أى تكلف لسجع أو لمحسن بديهي. وكان يستخدم هذا الأسلوب في رسائله الشخصية على نحو ما يتضح في رسالة أرسل بها إلى لسان الدين بن الخطيب ردًا على رسائله الموشاة بالسجع والبديع، وقد دون الرسالة ورسائل ابن الخطيب في كتابه: «الترغيف» ويقول ابن خلدون إنه تفادى في رسالته السجع خشية القصور عن مساجلة ابن الخطيب في رسالاته المسجوعة، وهى بمجاملة لابن الخطيب، والحقيقة أنه نحى السجع عن كتاباته في الرسائل الشخصية والديوانية جميعا، ودعا الكتاب - إلى ذلك - كما أسلفنا - في مقدمته غير أنهم ظلوا لا يستمعون إليه في جميع البلدان العربية، إلى أن تحررت الكتابات ديوانية وغير ديوانية من السجع والمحسنات البديعية بمصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وتبعتها البلدان العربية.

القسم الثالث

صَقْلِيَّة

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية^(١)

صقلية جزيرة كبيرة تقع في منتصف البحر المتوسط، فتقسمه إلى شطرين شرقي وغربي، ويكاد يتلاقى شمالها الشرقي بإيطاليا فبينها مضيق مسيني الذي لا يكاد يتجاوز عرضه ثلاثة كيلو مترات. بينما يتسع البحر المتوسط بينها وبين تونس وطرابلس حتى ليبلغ عرضه نحو مائة وعشرين كيلو متر تقريباً أو يزيد وبخاصة أمام طرابلس. وهي في الداخل مرتفعات وهضاب ووديان، وعلى مرتفعاتها أقيمت مدنها الداخلية لتكون حصينة. وفي جنوبها إلى الغرب مدينة جرجنت، والشاطئ الغربي والجنوبي الغربي موانئها لا تصلح للملاحة، وإذا تغفلنا نحو الشمال الغربي وجدنا مروجاً ومراعى متسعة، وغضى نحو الشمال فنجد ثغر أومراً طرابنش، ونتجه غرباً في الساحل الشمالى وهو ساحل صخرى جبلية، ونلتقى بخليج تام الاستدارة، ويلقانا بعده خليج مدينة بلرم (Palermo) عاصمة صقلية الإسلامية ولا تزال عاصمتها إلى اليوم، ووراءها تنحسر الجبال ويلقانا سهل من أخصب السهول، ونستمر في السير على الساحل الصخرى الجبلية حتى تلقانا مسينى على مضيقها. ونسير من مدينة سيني متجهين إلى الجنوب شرقى صقلية في ساحل جبل صخرى ونلتقى بثغر أو مدينة طبرمين، وغضى حتى قرب ثغر أو ميناء قطانية حيث يصبح الساحل رملياً، ويصب فيه بعض الجداول. وإذا مضينا في اتجاهنا نحو الجنوب لقينا ثغر سرقوسة الذى أنشأه اليونان، وبه ولد العالم الإغريقى الفيزيقي المشهور أرشميدس، وبها قتل سنة ٢١٢ ق.م.

وأعلى جبال صقلية جبل إتنا في أقصى الشمال، ويبلغ ارتفاعه ثلاثة آلاف وثلاثمائة متر

المدني (طبع الجزائر) وكتاب العرب في صقلية
للككتور إحسان عباس (طبع دار المعارف -
القاهرة).

(١) انظر في جغرافية صقلية صورة الأرض لابن
حوقل ومعجم البلدان لياقوت ونزهة المشتاق في
اختراق الآفاق للإدريسي وكتاب المسلمون في
جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق

تقريباً، ويجلب هامته شيب أولنج أزل، بينما يغطي جوفه بنار لا تخمد أبداً، وكأنه شيخ رحيم قاس في آن واحد، وقسوته لا توصف، إذ يظل يلتقي بحممه مغيظاً محققاً أياماً، وتغطي حُممهُ الأرض بطبقة خصبة. وتمتد شمالاً الجزيرة سلسلة جبال من الشرق إلى الغرب، أكبر الظن أنها امتداد لجبال الأبنين في إيطاليا وجبال الأطلس في شمال إفريقيا، وهى جبال صخرية جرداء عارية مما كان يُنتظر لها من زينة النباتات الخضراء، وطبقتها الخارجية تتكون من حجارة كلسية وبعض أنواع الرخام الرفيع، ومنها تتكون بعض جبال فرعية، تنحدر صوب الجنوب ومن أهمها الجبال التي أنشئت فوقها مدينة قصر يانة وسط الجزيرة، والجبال التي تتجه نحو مدينة جرجنت. وهذه الجبال غنية بالحزف والرخام والملح المعدني والجص، وكل ذلك يكون ثروة طبيعية مهمة لصقلية، ويوجد الكبريت قرب جرجنت وحول قطانية وبلرّم.

ومناخ صقلية في جلته معتدل، وفصل الشتاء فيها ليس قارس البرد بفضل الجبال الشمالية التي تحميها منه، وهو يمتد فيها من شهر نوفمبر حتى شهر مارس، وفصل الصيف معتدل الطقس إلا ما يجب عليها فيه من رياح السموم التي تأتيها من إفريقيا. ويكفى لتصور اعتدال المناخ فيها أن درجة الحرارة في بلرّم لا ترتفع عن ٢٦ درجة صيفاً ولا تهبط عن ١١ درجة شتاءً، ولذلك سميت بلاد الربيع الأبدى.

واعتدال مناخها هيباً لأن تنمو فيها مختلف الزروع والفروس، وتكثر الأمطار في ساحلها الغربي والشمالي وقد نقل إليها القرطاجيون القمح والزيتون والإغريق الكرمة، ونقل إليها العرب النخيل والليمون واللوز والفسق والتين ومختلف الأزهار، وأيضاً الموز والبرتقال، وبها بعض مراعي في سهولها هيات لكثير من قطعان الغنم والماعز والخنازير. ويكثر في سواحلها صيد البحر بمختلف أنواعه.

٢

التاريخ^(١) القديم

استوطن صقلية في أقدم عصورها شعب الصيقول (Les Sicules) ومنه اشتق اسمها، ومنذ أكثر من ألف سنة قبل الميلاد أخذ يفد عليها غزاة من الشرق أو الجنوب أو الشمال، فكانت

وكتاب العرب في صقلية ص ٢٥ وما بعدها وتاريخ صقلية الإسلامية في القسم الثالث من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسني عبدالوهاب ١٣٥/٣ وما بعدها.

(١) انظر في التاريخ القديم لصقلية كتاب تاريخ مسلمي صقلية لميخائيل أماري: Amari: Storia Dei Musulmani Di Sicilia وكتاب المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ص ١٩ وما بعدها

تخضع لهم بحكم أنها جزيرة صغيرة لا يمكنها مقاومة هؤلاء الغزاة. ولما قبل الفتح الإسلامي تاريخ قديم، وبعده تاريخ نورمانى سنلم بأحوال المسلمين فيه. وأول من سكنها - كما قلنا آنفاً - شنب الصيقول، وكان الفينيقيون - منذ نشأتهم على صفحات التاريخ - شعباً تجارياً يحجوب سواحل البحر المتوسط، ويؤسس له عليها قواعد تجارية، وقد نزلوا سواحل صقلية وأسسوا لهم في شمالها قاعدة هى بلرم. ومضت على ذلك قرون، وإذا اليونان يتبعونهم في الاستيلاء على ساحلها الشرقى ويؤسسونهم به قاعدتين في القرن الثامن قبل الميلاد هما سرقوسة وقطانية، وسرعان ما تحولتا مدينتين كبيرتين، وصعدوا إلى الشمال وأسسوا مدينة مسيني. وفي هذه الأثناء كانت دولة قرطاجة في الشمال التونسى آخذة في القوة ومددت ذراعها إلى صقلية تريد أن تستولى عليها من الإغريق وظلت الحرب بينهما في مدّ وجزر وانتصار وانهازم إلى أن استطاعت قرطاجة أن تفرض سيادتها على الجزيرة سنة ٢٦٤ قبل الميلاد. غير أن القرطاجيين لم يكادوا يحوزونها لأنفسهم حتى نشبت حروب عاتية بينهم وبين الرومان، وعيّنوا حاولوا إنقاذها، ففادروها سنة ٢٤٢ قبل الميلاد، وأصبحت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية، وأصابها ما أصاب أهل روما منذ القرن الثالث الميلادى من التدهور والفتن والفساد الأخلاقى. ولما سقطت روما تحت أقدام المغيرين الشماليين لم تلبث أن سقطت بدورها تحت ضربات الواندال الذين استولوا على إفريقية التونسية، وقد أزهقهم لمدة نحو قرن بالضرائب الفادحة، وأذاقوهم ضروباً من العسف والظلم والاستبداد لا تطاق.

وتسترجع بيزنطة في عهد جستنيان صقلية، إذ كلف قائده بلزاريوس بالاستيلاء على الجزيرة من الواندال كما استولى على إفريقية الشمالية وكانت المدن خالية من حاميات واندالية، ما عدا بلرم، فقد كان بها حامية لهم، وكانت أسوارها منيعة، فقاومته فترة ثم استسلمت مثل أخواتها الصقليّات، وفرحت جميعها بنزول الجيش البيزنطى فيها واستبشرت لمخلصها من ظلم الواندال وتعسفهم في جمع الضرائب، غير أنهم لم يلبثوا أن شعروا بأنهم تخلصوا من ربة عسف إلى ربة عسف جديد، إذ أصلهم ولاه بيزنطة طوال ثلاثة قرون عيّنوا ثقيلاً من الضرائب الفادحة، فقد فرضوا عليهم ضريبة على الأملاك وضريبة على الرؤوس وضريبة على التجارة أو الصناعة وضريبة للجيش أو ضريبة دفاع وضريبة للملاحين وضريبة للموظفين. ولم تكن الدولة البيزنطية وحدها هى التى تجنى الضرائب من صقلية، فقد كانت تجنيها معها الكنيسة: كنيسة روما وميلانو ورافنا، وكان للكنيسة الأولى الحظ الأوفر، إذ كان لها إقطاعات كثيرة موزعة حول بلرم وقطانية وسرقوسة وجرجنت، وكان يديرها قسيسان أحدهما في بلرم والثانى في سرقوسة. وكان هم كل منها أن يجمع أكثر ما يمكن من الضرائب، وبالمثل كان وكلاء كنيسة ميلانو ورافنا، وكان يرسل إلى روما سنوياً أسطولان محملان بالقمح في الربيع وفى الحريف، وكانت ترسل إلى رافنا سفن محملة بنبات القناطر من القمح والفواكه والخضراوات والجلود المدبوغة والحرير

والمواد الصوفية، والفلاح الصقلي يتصب عرقا، ويجمع الضرائب وكلاء الكنائس المذكورة مرة ويجمعها وكلاء الدولة البيزنطية مرة، دون رحمة أو إشفاق. وكانت روما في أثناء ذلك تُرسل إلى صقلية بكثير من العبيد، وأضافت إليهم من كانت تنفيهم من المذنبين ومقترفي الجرائم والجنود المتحدين. وكل ذلك عمل على إضمااف شخصية صقلية في العهد البيزنطي - كما يقول أماري - وأزحق فيها الشعور بالكرامة الإنسانية ولم يبق فيها منه بقية.

٣

الفتح^(١) العربي وعهد الدولة الأغلبية

بينما هذا الظلام يطبق على صقلية ويطبق معه الضنك والضييق والإعس إذا بالعرب يفتحون ديار إفريقية التونسية المواجهة لصقلية ويستولون على جميع بلاد المغرب، وكان طبيعيا أن يفكروا في السيطرة على البحر المتوسط وعلى جزره: صقلية وغيرها، وتبعها لمخطنهم الحربية في التعرف على أحوال البلاد قبل غزوها نراهم يرسلون سنة ٤٥ هـ/٦٦٥ م حملة استطلاعية إلى صقلية بقيادة عبد الله بن قيس، وبعد تعرفه على سواحلها الجنوبية عاد إلى إفريقية التونسية، وأرسلت بعد ذلك حملات بحرية بمائلة بقيادة محمد بن أوس الأنصاري وبشر بن صفوان الكلبي، وتبعهم جميعا في تلك الحملات سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م حبيب بن أبي عبيدة حفيد عقبة بن نافع مؤسس القيروان، واضطر إلى العودة سريعا لاضطراب الأحوال في إفريقية التونسية ويقول ابن عذارى إن ابنه عبد الرحمن غزا بعده صقلية ثم سردانية وقاتل بها حتى صالحه أهلها. وهذه الحملات المبكرة نبهت الدولة البيزنطية إلى أن تحسب حساب الغزو العربي المفاجيء، فأحالت صقلية إلى قاعدة حربية تمثل ثغورها ومدنها وقلاعها وحصونها بالعتاد الحربي الوافر.

وكان من أهم الأسباب التي أسرع بفتح صقلية أن قائدًا بيزنطيا يسمى أوفيموس (Euphemius) وتسميه المصادر العربية فيمي ثار على قسطنطين بطريق صقلية، فأمرته حكومة

الحضارة العربية بإفريقية والمسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدني والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس.

(١) انظر في الفتح والمهد الأغلبى البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون وأعمال الأعلام لابن الخطيب والمؤنس لابن أبي دينار والجزء الثالث من كتاب وركات عن

القسطنطينية بالقبض عليه وتعذيبه، وعلم فيمى بذلك الأمر، فرأى أن يستجد بالأمير زيادة الله الأغلبى حاكم إفريقية التونسية ضد البطريق وحكومته، واستجاب إليه زيادة الله إذ رأى في ذلك فرصة لا تعوض للاستيلاء على صقلية، فأعدّ سريعا جيشا لفتحها، ورأى بكياسته أن يسند قيادته إلى أسد بن الفرات القاضى وشيخ فقهاء المالكية بالقيروان.

وأقلع الأسطول الأغلبى بقيادة أسد بن الفرات من ميناء سوسة في منتصف ربيع الأول من سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وكان يحمل عشرة آلاف مقاتل، وأرسى بعد ثلاثة أيام على ساحل صقلية عند مدينة مازر في الجنوب الغربي، واستطاعوا في وقت قصير الاستيلاء على بعض المدن والحصون الجنوبية، وتقدموا إلى الساحل الشرقي حتى حاصروا مدينة سرقوسة قاطعين نحو مائتي كيلو متر إليها، وتعززوا بمدد جديد إليهم من إفريقية. وكان أسد يباشر الحصار بنفسه ويضيق على المدينة، وانتشر مرض بين صفوف الجند العربى أودى بحياته العظيمة، فلبى داعى ربه في ربيع الثانى سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م ودُفن تحت أسوار سرقوسة. وخلفه على قيادة الجيش محمد بن أبى الجوارى، واستولى على جرجنت في الجنوب بالإضافة إلى مازر، وأخذ يستمد للهجوم على مدينة قصر يائنة، وكانت الحملة قد أصابها غناء شديد بسبب الماركة المتصلة، وأوشكت على الانسحاب إلى إفريقية، غير أن ما نذروا أنفسهم له من الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام تحت راية الشيخ أسد بن الفرات كان يطرد اليأس من نفوسهم ويشد أزهرهم إلى أبعد حد، ولم يلبث الأمل أن ملأ نفوسهم إذ رقدهم مدد جديد من إفريقية ومن أسطول لشرعان المجاهدين الأندلسيين سمع بحملتهم، فجاء يؤيدهم، وتوفى قائدهم محمد بن أبى الجوارى سنة ٢١٦هـ/٨٣٧م فأرسل إليهم الأمير زيادة الله الأغلبى قائدا جديدا هو زهير بن عوف، فصمم على الاتجاه إلى الشمال وغزو بلرم وحاصرها برا وبحرا وضيق الخناق عليها، وفي أثناء ذلك استولى على ماسينى سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م ومازال يزداد شدة في تضيق الحصار على بلرم إلى أن استأس منها الروم، ففادروها بحرا وبراً، تاركين المدينة مفتوحة أمام مخيش المسلمين فدخلها في رجب سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م وكان بها سبعون ألفا قبل الحصار فلم يجد الجيش بها سوى ثلاثة آلاف كما يقول ابن الأثير في تاريخه. واتخذها المسلمون هناك عاصمة لحكمهم في الجزيرة كما كانت عاصمة لمن قبلهم، وظلت كذلك لمن بعدهم، وأخذوا في تشييد القصور بها والمساجد والحمامات والفنادق وإقامة الأسواق بها والهدائق حولها، وحولوها مركزا علميا يث إشعاعات نوره إلى ظلمات القرون الوسطى في أوروبا.

وتوفى هذا القائد المجاهد العظيم زهير بن عوف سنة ٢٢١هـ/٨٣٥م وولى صقلية بعده أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله بن الأغلب واهتم بالحرب البحرية ونازل سفن البيزنطيين غير مرة وانتصر عليها، بل حطمها حطما، وبذلك أصبحت للأسطول الإسلامى الصقلى سمعة كانت

تدخل الرعب والفرع في قلوب الأعداء، وكانت مطامح المسلمين المجاهدين تتجه صوب إيطاليا القريبة ديارها من مسيني فجهز أسطولا أرسل به صوب قَلْوَرِيَّةَ بجنوبي إيطاليا فنزل بها الجند المسلمون ووصلوا إلى نهر البو سنة ٢٢٣هـ/٨٣٨م. ويتوفى أبو الأغلب سنة ٢٣٦هـ/٨٥٠م ويتولى صقلية العباس بن الفضل ويجهز أسطولا لغزو قَلْوَرِيَّةَ سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م. ويقم بها بعض الحاميات، وخرجت مسيني بعون من الروم عليه فأعادها سنة ٢٤٢ وأخذ يفتح الحصون في الداخل الواحد بعد الآخر، وفتح جفلود (شفلودي) على البحر بالشمال في نفس السنة، وشد الحصار على قصر يانة النينة في وسط الجزيرة، واستسلمت سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م بعد جهاد عنيف، وبنى العباس فيها تورا مسجدا، ونصب فيه منبرا وخطب فيه الجمعة. ولعل في ذلك دلالة واضحة على أن قواد الفتح في صقلية وجنودها المسلمين كانوا يعدون غزو مدنها وحصونها جهادا في سبيل الله. وأزعج أخذه لمدينة قصر يانة الكبيرة المحصنة بيزنطة فأرسلت أسطولا يحمل مددا كبيرا من الرجال والمؤن إلى سرقوسة، والتقى به الأسطول الإسلامي الصقل ونشبت بينها معركة عنيفة انتصر فيها الأسطول الإسلامي، واستولى على مائة من سفن الأسطول البيزنطي. ولذا الباقيون بالفرار، ويقول ابن الأثير إن المسلمين لم يستشهد من جنودهم في هذه المعركة البحرية سوى ثلاثة، وكان الجنود البيزنطيون لم يلبثوا حين رأوا أسطول المسلمين وجنوده البأساء أن ألغوا سلاحهم وسفهم وفروا من المعركة منهزمين.

ولم يلبث هذا القائد المجاهد أن لبى نداء ربه سنة ٢٤٧هـ/٨٦٢م وبنولاه خفاجة بن سفيان سنة ٢٤٨هـ/٨٦٣م ويحتل مدينة نوتيس في شرقي الجزيرة إلى الجنوب، وكان أهل طبرمين ينازلون المسلمين نزالا مستميتا، ورأوا أن يجنحوا إلى السلم بعد أن أعياهم القتال وطلبوا إلى القائد خفاجة أن يرسل إليهم وفدا للصلح فأرسل إليهم وفدا يفاوضهم وعلى رأسه زوجته، ومرت بنا في إفريقية التونسية إلى أي حد كانت المرأة التونسية تحافظ على كرامتها ومدى ما كان لها من منزلة في نفوس التونسيين بالقبروان وغير القبروان، وهذه إحدى نسايتهم تتولى السفارة لأول مرة بين قومها وأعدائهم لتضع شروط الصلح، وهي بذلك تعد أول سفيرة عربية، واستقبلها الأعداء بحفاوة واستجابوا لما وضعت من شروط الصلح، وسلموها مفاتيح المدينة، وبذلك نجحت السفارة نجاحا عظيما، فدخلها المسلمون صلحا. ولا ين هذه السيدة محمد الذي كان يناضل نصارى صقلية نضالا عنيفا الفضل في استيلاء المسلمين على مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م فإنه جهز أسطولا لفتحها ونزلها، وقضى على الحامية الرومية فيها واستولى عليها وجعلها تابعة لصقلية. ونزلتها جالية تونسية أشاعت بها لهجتها العربية، ودارت السنة فأرسلت بيزنطة أسطولا تنفي استردادها، ولم يكد يظهر له في مياهها الأسطول الإسلامي الصقل حتى ألقى الرعب والفرع في قلب كل من فيه، فوُلوا على وجوههم فرارا دون أن يخوضوا معركة، وظلت مالطة تابعة لصقلية نحو مائتين وعشرين عاما إلى أن استولى عليها

النورمان مع استيلائهم على صقلية، ولقتها إلى اليوم لهجة عربية. تونسية محرفة حُرِّفَت بمر الزمن، وعينها حاولت الدول التي استولت عليها - ومعها إنجلترا - أن تترك لفتها كما تركت الإسلام وتتخذ في ألسنتها مكانها اللغة الإيطالية أو اللغة الإنجليزية، وبامت كل هذه المحاولات في القرون الثمانية الماضية بالفشل، مما يدل على قوة العربية وحيويتها، وأن قوما إذا اتخذوها لا يمكن أن يتحولوا عنها - مهما دخل عليها من التصحيف والتحريف خلال قرون متطاولة - إلى لغة أخرى لسلاستها وعذوبة جريانها في الألسنة.

ويتوفى خفاجة وابنه محمد، وتؤول ولاية صقلية إلى أحمد بن عبد الله الأغلب، وكان بطلا مقداما قصم على فتح سرقوسة، وكانت بيزنطة لا تزال ترسل إليها بالنجدة تلو النجدة، وكلما انتهزم لهم أسطول جهزوا لها أسطولا آخر، وحاصرها أحمد، واستمر الحصار تسعة أشهر من أوائل المحرم إلى أواخر رمضان سنة ٢٦٤ هـ/٨٧٧ م ثم اقتحمها بجانيقه وخيله وجنده، فاضطرت إلى التسليم بعد أن ذاقَت الأمرين من الجوع وذلك الأسوار وسقوط القلاع، وبعد أن لقي حتفه من المدافعين عنها أكثر من أربعة آلاف جندي بيزنطي. وولى صقلية سنة ٢٦٨ هـ/٨٨١ م محمد بن الفضل فجعل همه القضاء على معقل مهم للروم هو قلعة الملك وكان من فيه يُكثرون من الإغارة على المسلمين ويقضون مضاجعهم، والتقى الجمعان بقرب المعقل وحمل وطيس الحرب وانجلت عن انتصار عظيم للمسلمين واندحار شديد لأعدائهم إذ قتلوا منهم ما يزيد عن ثلاثة آلاف ودخلوا القلعة تخفق على رموسهم رايات النصر.

وولى إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله على صقلية، وفي أيامه سنة ٢٧٥ نشبت معركة عنيفة براً وبحرا بين الروم والعرب، فإن الدولة البيزنطية أرسلت بأسطول ضخم إلى صقلية، ولقيه الأسطول الإسلامي الصقل واحتدمت المعركة، وكانت كارثة الروم هائلة وإذ قتل منهم سبعة آلاف وغرق خمسة آلاف ولاذ من كُتبت له الحياة بالفرار. وانتهز المسلمون هذه الفرصة من النصر على الأسطول البيزنطي، وهاجوا قَلَوْرِيَّة في جنوب إيطاليا تأديبا لمن يحشد الروم فيها لإمداد حاميات المدن والحصون التي لم يستسلم من فيها للمسلمين.

وفي سنة ٢٨٩ هـ/٩٠٧ م استدعى الأمير إبراهيم بن الأغلب ابنه عبداًه والى صقلية وتنازل له عن صولجان الحكم في القيروان وإفريقية التونسية، وصمم على أن يقضي بقية أيامه مجاهداً في صقلية، واتجه إلى سوسة في توب مرقع علامة الزهاد، وأبحر منها على رأس جيش قوى إلى بلرم، وكان قد أعدَّ إعداداً قويا بالأسلحة والعتاد، وسار على رأسه لغزو مدينة طبرمين شرقي الجزيرة إلى الشمال أمنع المراكز التي لا تزال باقية للروم في الجزيرة، وكانوا لا يزالون يرسلون إليها بالإمدادات. وهاجمها ودارت رحى الحرب عنيفة بين الفريقين. وأحسَّ شيئا من التخاذل في صفوف جيشه لاشتداد وطيس الحرب فجمعهم، وأمر قارئاً أن يقرأ عليهم بصوت مرتفع

قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصِمَا فِي رِيهْمِ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ كُلُّاُ اِذَا رَاوُاْ اَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ اَعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ولعل في ذلك ما يؤكد مرة أخرى أن غَزْوً صَقْلِيَّةً وفتح بلدانها إنما كان جهادا في سبيل الله ونشر دينه الحنيف. وبمجرد أن استمع الجند إلى هذه الآيات الكريمة وارتسم أمامهم الفردوس وما أُعِدُّ فيه للمجاهدين امتثلوا حاسة وانقضوا على أعداء الله ودينه الحنيف، فانهزموا انهزاما ساحقا، وأصبحت مدينة طبرمين أمام جيش المسلمين مفتحة الأبواب ولا حامى ولا مدافع، وارتعدت فرائص إمبراطور بيزنطة كما رَوَى ذلك ابن الأثير وابن خلدون وأُعلن في القسطنطينية الحداد سبعة أيام لم يضع فيها على رأسه تاج الملك. وسار إبراهيم بن الأغلب توا إلى مدينة رمطة آخر معاقل الروم شرقى الجزيرة جنوبى طبرمين، ففتحوها له أبوابها سرىعا واستولى عليها دون قتال. ولم تكف إبراهيم بن الأغلب هذه الانتصارات، فقد ركب البحر مع جنده من مسينى إلى شبه جزيرة قَلْوَرِيَّة جنوبى إيطاليا، واخترقها بجنده مستوليا فيها على كثير من الحصون، ونصب الحصار على قلعة كسننتة (Consenza) النابعة شمالى قَلْوَرِيَّة وضيق عليها الحصار، غير أن مرضا ألم به في أثناء ذلك، فأسلم روحه إلى بارئها تحت أسوار هذه القلعة، ونُقل رفاته إلى بلرم ثم نقله ابنه أبو العباس إلى القيروان.

ولعل في كل ما قمتم ما يَصَوِّرُ الدور التاريخى المجيد الذى نهضت به الدولة الأغلبية في القرن الثالث الهجرى الذى ظلَّ فيه صولجان الحكم بإفريقية التونسية في يدها، فقد أضافت إلى البقاع الإسلامية جزيرتين كبيرتين: صَقْلِيَّة ومالطة، وظلت تجاهد في سبيل الله بصقلية وتعدُّ الأساطيل لمنازلة الأسطول البيزنطى وتتكلم به وتغرَّق سفنه شر بمرق. وبدأت تلك الحرب بشارفة تميزها وأنها حرب جهاد ونشر للإسلام، إذ كان قائد الحملة شَيْخُ الإسلام وإمام المالكية وقاضى قضائها أسد بن القرات، وكان يشترك في هذا الجهاد غير واحد من أمراء الدولة الأغلبية، حتى إذا أوشكت شمس دولتهم على الغروب خلع إبراهيم بن الأغلب زى الإمامة والسلطان ولبس زى الزهاد المجاهدين في سبيل الله، وأبلى في الجهاد بصقلية وقَلْوَرِيَّة بلاء عظيما.

العهد^(١) العبيدى - عهد بنى أبي الحسين الكلبيين

(أ) العهد العبيدى

انتهى عهد الدولة الأغلبية في القيروان وإفريقية التونسية سنة ٢٩٦ وانتقلت البلاد إلى عهد جديد هو عهد الدولة العبيدية وانقسم الناس بين راضين عن العهد الشيعى الجديد وساخطين على هذا العهد وهم فقهاء أهل السنة ومن كان يجلبهم من العامة، وكان لذلك تأثيره في صقلية، وانضاف إليه أنه برزت في نفوس كثيرين هناك فكرة الاستقلال والانفلات من التبعية الإفريقية، وأيضاً فإن بعض الولاة كان يمدُّ صقلية كأنها كنز القى إليه، وينبغى أن يأخذ لنفسه منه كل ما يريد من مال وثروة، وقد تفاعلت هذه العوامل بعضها مع بعض وأدت إلى اضطراب وفتن كثيرة في السنوات الثلاثين الأولى من حكم العبيدين لإفريقية التونسية، وأسرع عبيد الله المهدي بإرساله إلى صقلية واليا وقاضيا يحكمانها بمبادئ الفقه الشيعى ويحاولان أن ينشرا فيها الدعوة العبيدية الشيعية، وثاروا على أول ولاته وثانهم، وولوا عليهم من أنفسهم واليا هو أحمد بن زيادة الله ابن قرطب، فاشتراط عليهم أن يعلن ولاءه للدولة العباسية، وكانت عامتهم سنية فارتضوا ذلك وأرسل إلى الخليفة المقتدر بالله يرضع إمارة صقلية تحت سلطانه، وخطب له وقطع خطبة المهدي الفاطمي. وأرسل إليه المقتدر بالوية سود وخلع سود وطرق ذهب، وكان للمهدي العبيدى أسطول بحرى لمطة فأحرقه وقتل قائده. وثار عليه أهل جرجنت وصقلية جميعها فحاول الهروب إلى الأندلس فأسره أهل صقلية هو وابنته وقاضيه وبعثوا بهم إلى المهدي سنة ٣٠٤ فصلبهم وانتهت بذلك حركة ابن قرطب. وأرسلت صقلية تطلب من المهدي واليا وقاضيا وأنهم في غير حاجة إلى جند، ففتنه إلى ما يريدون من الاستقلال فأرسل إليهم من الكتامين حملة تودبهم، وولى عليهم في سنة ٣٠٥ سالم بن أبي راشد، وكان جباراً عاتياً وظالماً عسوفاً، فأخذ ينزل صورا شديدة من التشكيل لا بالأفراد فحسب، بل أيضا بالمدن، وهو تشكيل أدى بأهل صقلية إلى الإجماع في مقاومته فتارت عليه جرجنت، وتبعتهتا بلرم،

المخطط والنويرى في المكتبة الصقلية وأبا الفدا في حوادث سنة ٣٣٦ وسفرنامه لناصر خسرو ومورياتش النفوس للمالكى.

(١) انظر في العهد العبيدى وعهد بنى أبي الحسين المراجع المذكورة في عهد الأغالية والمحلة السيرة لابن الأبار في الخلفاء العبيدين وخبيل بن إسحق واتعاط الحنفا بأخبار الحلفاء للمقرئى وكتابه

فأرسل إلى الخليفة العبيدي القائم يهول عليه الأمر ويقول إن أهل صقلية خرجوا عن طاعته، فأرسل إليه سنة ٣٢٥ جندا جديدا يقوده خليل بن إسحق، واستقبلوه بالشكوى من سياسة سالم وبطشه، يظنون أنه سيرتق الفتق ويصلح الأمر، وسرعان ما خيَّب ظنونهم إذ رأوه يهدم أسوار بلرم ويبنى عند المرسى مدينة جديدة لخاصته وجنده وسلاحه ويحصنها مسميا لها باسم: «الخالصة» وأرهب أهل بلرم إرهابا شديدا في بناتها. وثارت عليه جرجنت واستعدت لحربه، فصار إليها سنة ٣٢٦ وحاصرها ثمانية أشهر، ودخل الشتاء ففك عنها الحصار. وفي سنة ٣٢٧ ثارت عليه جميع القلاع وسكان مازر، وكتب أهل جرجنت إمبراطور بيزنطة يستنجدون به، فأمدهم بالرجال والطعام. واستنجد خليل بالقائم فأمدّه بجيش ضخم أخذ يحاصر به المدن والقلاع سنة ٣٢٨ وحاصر جرجنت وضيق عليها الحناق حتى سنة ٣٢٩ وفر كثير من أهلها إلى بلاد الروم وتنصر كثير منهم وهو لا يرعوى ولا يزدجر، بل يزداد ظلما وإرهابا للأرواح إلى درجة لم يُسمع بها من والٍ مسلم لا قبله ولا بعده. وبعد أربعة أعوام عاد إلى إفريقية، فحمل معه جماعة كبيرة من كبراء الجزيرة وأعيانها وعلمائها، وبين أمواج البحر أمر بثقب مراكبهم، فغرقوا جميعا فيه غير مراعاة عهدا لهم ولا لأبائهم الذين فتحوا صقلية وجاهدوا في سبيل نشر الإسلام فيها بدمائهم وأرواحهم، وإنما لصفحة سوداء له وعار في جبينه لا يمكن أن تطمسه الأيام.

(ب) عهد بنى أبي الحسين الكلبيين

ولى الخليفة العبيدي القائم على صقلية بعد خليل بن إسحق واليا جديدا هو عطف الأزدى فاستمر في سياسة الظلم والقمع، وطّفق الغضب بالمدن الصقلية وفي مقدمتها بلرم، وثارت جميعا في سنة ٣٣٥ ثورة كبرى عامة، والتجأ عطف إلى قلعة الخالصة وامتنع فيها، واجتمع رأى وجوه بلرم وغيرها من المدن على أن يذهب وفد إلى الخليفة الفاطمي الجديد المنصور ويطلب إليه أن يقوم الحكم في صقلية على أسس راسخة من العدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه ومن الحرية في العقيدة فلا يتعرض حاكم وزبائنه لأهل السنة وأيضا الحرية في المعاملات فلا يقتصب من أى تاجر ولا من أى شخص ماله. وكان الخليفة المنصور حقيفا، فرأى أن سياسة الخليفين قبله وما أرسلوا لهم من ولاية جبارين كانت سياسة جائرة باطشة إلى أقصى حد، ورأى أن يقنع بالسيادة الاسمية على صقلية إرضاء لأهلها، وعهد بالولاية عليها لقائد من خيرة قواده سنة ٣٣٦ هو الحسن بن على بن أبي الحسين الكلبي. ومنذ هذا التاريخ أصبح حكم صقلية وراثيا في أسرته، وأخذ يحكمها حكما عادلا رشيدا، وتصادف في أول حكمه أن غلاما من غلمانه اغتصب إحدى جواربه، فأمر بقتله حتى لا تسول لأحد من جنده وغلمانه نفسه بالاعتداء على الحرمات، وأكبر الناس ذلك منه واستبشروا به. ولما رسخت قدمه في بلرم

قبض على مديري الفتنة فيها من بنى الطبرى وصادر أموالهم. واطمأن له الناس والتفوا حوله. وحاول إمبراطور بيزنطة في أول حكمه أن يسترد ما استولى عليه الصقليون من شبه جزيرة قَلُورِيَّة، وأرسل لذلك أسطولاً فرَّده على أعقابهم مخذولاً، وشيَّد مسجداً بها بمدينة رجيو (Reggio) ترسيخاً لحكم المسلمين لها وتثبيتاً، وأجبر الروم في مدينة تارنته Tarente على أداء الجزية. وجمع هذا الوالى وقيل بل ابنه أحمد ثلاثين رجلاً من وجوه صقلية وسار بهم إلى الخليفة المبيدئى فى المهديَّة بإفريقية وباهيوه وخلع عليهم الخليفة. وهو رمز لدخول الجزيرة فى المذهب المبيدئى، ونرى ابن حوقل - وهو من دعاة الفاطميين - يذم الصقليين ذماً شديداً، مما قد يدل على أن العامة فيها لم تعتق هذا المذهب.

وتوفى الحسن سنة ٣٤١ ويخلفه فى حكم صقلية ابنه أحمد، وكان يشاركه فى الحكم والتدبير فاتبع سياسته العادلة الرشيدة وكانت رمطة قد خرجت على الدولة فاسترجعها، وركب البحر إلى قَلُورِيَّة وأحرق أسطول بيزنطة وأسر قائده وأرسل به مع عدد كبير من الروم إلى المعز، وشعرت بيزنطة بأن أملها فى صقلية أصبح من إحدى المستحيلات فأرسلت إلى المعز وفداً يطلب الصلح حاملاً إليه هدايا ثمينة، وتعاقد الوفد معه على ترك الجزيرة له، فى مقابل إخلاء المسلمين مدينتى طبرمين ورمطة لنصارى الجزيرة، وارتضى ذلك المعز، وكانت غلطة كبيرة من أغلاطه. وأخذ المسلمون يتلكتون فى تسليم المدينتين وعُزل أحمد بن الحسن سنة ٣٥٨ وكان حسن السيرة كما يقول ابن خلدون ووُلَّى الجزيرة سنة ٣٥٩ أخوه أبو القاسم على بن الحسن، وكانت مَسِينَى خرجت على الدولة واتخذها العدو مركزاً لأعماله ضد المسلمين، فنازلها وحاصرها حتى أعلنت الطاعة، واستعاد مدينة رمطة وأمر بتجديد بنائها، ونازل الروم بقَلُورِيَّة ومن عاونهم من الألمان والنُزْمان، واستشهد فى إحدى المعارك الطاحنة سنة ٣٧٢ ونقل المسلمون رفاته إلى صقلية. وولى بعده من الأسرة الكلية أحد أبنائها: جعفر بن محمد وكان من أصحاب الرأى والتدبير، فأخذ يحكم صقلية حكماً عادلاً نزيهاً. وحدث فى عهده أن جارية صقلية للخليفة الفاطمى العزيز وكانت محببة عنده وكان لها أنح رهاب بصقلية فتوسلت إليه أن يرجع إلى النصارى فيها قلاع طبرمين ورمطة وأجابه إلى مطلبها وكتب إلى واليه جعفر يأمره بإخلائها لنصارى الجزيرة، فراجع الخليفة بهدائه حتى عدل ن مطلبه. وتوفى سريعا سنة ٣٧٥ وتولى الجزيرة بعده ثقة الدولة أبو الفتح يوسف بن عبد الله سنة ٣٧٧ وهو من خيرة الولاة الكبار، وفيه يقول ابن خلدون: «أنسى بهجلاته وفصائله من كان قبله منهم» ويقول لسان الدين بن الخطيب فى أعمال الأعلام: «كانت أيام الناس فى مدته على أفضل ما يشتهون، وقد ضبط الجزيرة ضبطاً محكماً وظهر من كرمه وجوده على سائر الناس ما لا يحيط به وصف، وعمُّ العدل والرخاء والأمن كل جهات الجزيرة» ولم يتحرك فى وجهه عدو من داخل البلاد ولا من خارجها، وزار القاهرة، واستقامت الأمور فى عهده أعظم ما يكون من الاستقامة، وكانت دار

ولايتة أو إمارته في بلرم مقصد الشعراء والأدباء والعلماء، وهو محمود الشاعر الجزائري المشهور ابن قاضي ميلة، وما زال يسوس الجزيرة وأهلها خير سياسة حتى أصابه الفالج سنة ٢٨٨ وعطل جانبهِ الأمير، واتفق الناس معه على تسليم صولجان الحكم لابنه جعفر، وثار عليه أخوه على وانضم إليه البربر والعبيد، وانتصر عليه جعفر فقتله، وأمر بقتل العبيد ونفى الجند البربري من صقلية، وجعل جنده جميعاً من أهل صقلية المسلمين، فقل بذلك جنده - كما يقول البكري - وأعد لانهيار ملكه. وسخط عليه أهل صقلية لتفاضيه عن كاتبة حسن الباغاني في عسفه في جباية الضرائب، وزادهم سخطاً عليه استخفافه بشيوخ بلرم: فحاصروه وشددوا الحصار عليه، فخرج إليهم أبوه في محقة، وكانت له عندهم منزلة رفيعة، فاحتفوا به، وطلبوا إليه أن ينصفهم منه، واتفق معهم على أن يعزله من ولايته عليهم ويولي أخاه الأكحل، وارتضوه أميراً بعد أخيه، ولم يلبث الأكحل أن أشرك ابنه جعفراً معه في الحكم، وكان غيراً تنقصه الخبرة، فاتبع سياسة حمقاء هي التفرقة بين الإفريقيين والصقليين في المعاملة المالية، واستجار الصقليون من ظلمه بالمرز بن باديس حاكم إفريقية التونسية سنة ٤٢٧ فأرسل معهم ابنه عبد الله في جيش عداده ستة آلاف نصفه من الفرسان، وانضم إليه أهل الجزيرة، وسرعان ما ندموا وتذكروا لعبد الله بن المعز، فعاد مع جيشه إلى إفريقية، وولوا عليهم صمصام الدولة شقيق الأكحل. ولم تطل مدته، إذ ثار عليه أهل بلرم، وخلصوه.

وتدخل صقلية بعد خلع الصمصام في عهد يمكن أن يسمى عهد أمراء الطوائف، وفيه ضاعت كل ممتلكاتها في قَلَوْرِيَّةٍ بإيطاليا، وأخذ قواد الثورة على الصمصام يستقلون ببلدانهم مكونين فيها إمارات، وكانت بلرم من نصيب محمد بن الثمنة أحد القواد، وضُم إليه مدينة سرقوسة، واستقل ابن متكود من قواد الثورة بمدن: مازر وطرابنش والشاقة ومرسى على في الغرب والجنوب الغربي، واستقل ابن الحواس على بن نعمة من قواد الثورة أيضاً بمدنتي قصرمانة وجرجنت، وتفاقت الفتن وسوء الأحوال في الجزيرة، ونشبت الحروب بين هؤلاء الأمراء، وأشدّها ما كان بين ابن الثمنة وعلى بن نعمة. وهُزِم ابن الثمنة هزيمة ساحقة سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م فاستغاث بالنورمان، وكان ذلك إيذاناً قوياً بضياغ الجزيرة من أيدي المسلمين.

التاريخ النورمانى - أحوال المسلمين

(أ) التاريخ^(١) النورمانى

النورمان قبائل متبربرة سقطت من شمالى أوروبا على شرقها وغربها مهاجمة ومكتسحة. وقد اكتسحت الشمال الغربى لفرنسا. واضطر ملك فرنسا إلى إقطاعهم الإقليم المشتق من اسمهم «نورمانديا» فتأقلموا فيه وانتهى عدوانهم. واتجهت جماعات منهم إلى إيطاليا واستولت على أجزائها الجنوبية، وتوالت الفرصة أحد ملوكهم المسمى روجار الأول كى يستولى على صقلية بخيانة أحد أبنائها: «ابن الثمنة»، إذ ساومه فى عونه ضد على بن نعمة على أن يفتح له أبواب مدينة مسينى واحتلها واتخذها قاعدة لأعماله الحربية فى الجزيرة، غير أن ابن الثمنة توفى فى العام التالى، وكان جيش روجار قليلا فلم يسارع إلى فتح مدن صقلية. واستصرخ المسلمون فى صقلية تميم بن المعز أمير المهديّة فى إفريقية التونسية لينقذهم من برائن روجار والنورمان فأنجدهم بأسطول يقوده ابنه: أيوب وعلى، ونزل أيوب فى الجنوب بمدينة جرجنت ولقيه على بن نعمة لقاء حسنا، بينما نزل أخوه على فى بلرم، واستبشر الناس واستعدوا مع عسكريها لجنود النورمان، غير أن على بن نعمة صاحب جرجنت عاد فظن الظنون بهذا الجيش الغربى، وانضم الأخوان إلى حربه، وسقط فى المعركة. وقامت فتنة بين أهل جرجنت والجيش الإفريقى، وكان النورمان قد جموا جموعها ولقوا هذا الجيش وهزموه، واضطر أيوب وعلى أن يعودا إلى إفريقية التونسية بمن بقى من جيشها سنة ٤٦١ للهجرة، واندفع روجار والنورمان يحتلون المدن فى الجزيرة، وهدموا بمدينة بلرم وحاصروها بحرا وبراً خمسة أشهر وأهلها يقاومون، وخنقهم الجوع، وظلوا لا يبالون به إلى أن فشا بينهم وباء، ودخلها النورمان سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م ينهبون ويفتكون بشبابها الباسل ويتوزعون بينهم الصبية ليبيعوهم عبيدا، وأحال روجار مسجدها كنيسة. وسلّمت مازر سربها خوفا من أن يصيبها ما أصاب بلرم وتبعته قطانية فى الشرق، غير أن بقية مدن صقلية ظلت تقاوم النورمان عشرين عاما طويلا، وكان من أشدها

ابن خلدون والعرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس والمجلد الثالث من كتاب ورفات عن الحضارة العربية بإفريقية ص ٤٥٧ والمسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدنى.

(١) انظر فى التاريخ النورمانى بصقلية بن الأنبر ورحلة ابن جبير والمكتبة الصقلية لأمارى وكتابه تاريخ سلمى صقلية المار ذكره، وكتاب Freeman Edward, History of Sicily, Oxford, 1891 وتاريخ

مقاومة لهم سرقوسة بفضل بطلها ابن عباد الذي نظم المقاومة فيها وفي ولاية نوتس. وبعد خمس سنوات من الاستيلاء على بلرم استولى روجار على ثغر أومدينة طرابنش في الغرب وهدم سورها ووزع أرضها على أتباعه. وبعد سنتين من استيلائه عليها استولى على طبرمين في الشرق. وكان ابن عباد بطل سرقوسة استطاع الاستيلاء على مدينته وجهز روجار الأول أسطولا ضخما هاجم به سرقوسة بعد أربعة عشر عاما من استيلائه على بلرم وظلت الجبهة الشرقية تقاومه مقاومة عنيفة مع سرقوسة غير أن كفة الأسطول النورمانى علت أخيرا على سفن ابن عباد، وكان يقودها بنفسه وكلما غرقت سفينة من سفنه انتقل إلى أخرى، وزلت به القدم في إحدى قفزاته، فتلقت موجات البحر منحنية لبطولته، وشيعته إلى قرارها شهيدا، ولولا ذلك لظلت سرقوسة تقاوم النورمان طويلا. وحاصر النورمان مدينة جرجنت ثلاث سنوات طوال إلى أن اضطرت المخصصة والجوع إلى الاستسلام، وظلوا بعدها يحاصرون مدينة قصريانة وهى تضرب أروع الأمثلة فى مقاومتهم مقاومة بأسلة حادة إلى أن سلمها لهم سنة ١٠٩١هـ/١٠٩١م أميرها ابن حمود، وخشى على نفسه من أهلها أن يفتكوا به فلجأ إلى روجار وتنصر فيها يقال خاسرا بذلك بلده ودينه. واستسلمت مدينتا نوتس في الجنوب الشرقى وبشرة في الجنوب. وبذلك استولى روجار على الجزيرة جميعها وأقل نجم الإسلام بها سنة ١٠٩٢هـ/١٠٩٢م وبالمثل استولى على مالطة سنة ١٠٩٣هـ/١٠٩٣م، وظل ملكا عليها وعلى بعض أجزاء في جنوب إيطاليا نحو عشرين عاما حتى سنة ١١٠١هـ/١١٠١م. وخلفه على حكم صقلية روجار الثانى وطال حكمه خمسين عاما ونيفا (١١٠٢هـ/١١٠٢م - ١١٥٤هـ/١١٥٤م) وبينما كان حكم أبيه يعد دورا من أدوار الفتح الحربى وتثبيت الحكم النورمانى فى الجزيرة كان حكمه يعد دورا حضاريا للنورمان - عن طريق العرب- إذ تحضروا فى الجزيرة وامتدت آثار ذلك فى الغرب، وبالمثل حكم ابنه غليوم الأول حتى سنة ١١٦٦هـ/١١٦٦م وحفيده غليوم الثانى حتى سنة ١١٨٩هـ/١١٨٩م. وتولى بعد ذلك ابن عمه طانكرد لمدة أربع سنوات ثم ابنه غليوم الثالث، وتطورت الظروف واستولى أباطرة ألمانيا على صقلية وأصبح فردريك الثانى ملكا عليها (١١٩٤-١٢٥٠م).

وحرى بنا قبل أن نترك الحديث عن الحكم النورمانى بصقلية أن نذكر أنه ظل لأسطول صقلية الإسلامية طويلا استعلاء فى البحر المتوسط بحيث كان يعد من شمالى مصر إلى الأندلس بحيرة عربية، ومر بنا أنه حطم الأسطول البيزنطى مرارا حتى اضطروا أن يرسلوا وقدهم خانمين مستذلين إلى المهدي يطلبون الصلح. وهذه المكانة للأسطول الإسلامى الصقلى ضاعت بضياح صقلية، واستعالت إلى مكانة للأسطول النورمانى الصقلى بحيث أصبح البحر المتوسط بين صقلية ومصر بحيرة نورمانية، وساعدت على ذلك هجرة القبائل العربية من بنى سليم وهلال إلى أفريقية التونسية وقضاؤها على الدولة الصنهاجية بالقيروان وانحيازها إلى

المهدية، فلم يعد عندها من المال ما تستطيع أن تُعِدَّ به أسطولا ضخما يقف لأسطول النورمان، وكان للدولة العبيدية أسطول قوى أيام مقامها بالمهدية حتى إذا بارحها المعز الفاطمي إلى مصر لم تعد تلك الدولة تُعَيِّنُ بأسطولها إلا بعض سفن تحرس سواحلها، ويدل على مدى ما كان يشعر الخلفاء الفاطميون تجاه النورمان الصقليين وأسطولهم من خزي أن نجد الخليفة الفاطمي الحافظ (٥٢٤-٥٤٤هـ) حين يستولى روجار الثاني على جزيرة جربة التونسية لا يكتب إليه مَهْدُدا متوعدا، بل يكتب إليه متخاذلا رَدًّا على رسالة له كما سجل ذلك القلقشندي في الجزء السادس من صبحه ص ٤٥٨ قائلا: «وأما ما ذكرته من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجربة لما شرحت من عدوان أهلها.. واجترانهم في الطغيان على أسباب لا يجوز التغافل عن مثلها.. فإن من كانت هذه حالته حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية، وخلق أن يأخذه الله من مأمته أخذة رابية^(١)». وبدلا من أن يعد أسطولا لإخراج النورمان على وجوههم من صقلية التي طالما طعم هو وأبأوه من خبراتها وطبيباتها أرسل إليه هذا الخطاب المخزي. ومن الغريب أن الحملات الصليبية بدأت بعد قِام استيلاء النورمان على صقلية بسبع سنوات، وقد ظللنا تنازها نزالا عنفا قرنين من الزمان والبحر المتوسط بحيرة نورمانية، وهم يفدون فيه ويروحون، ولو أن أسطول صقلية الإسلامية كان لا يزال قائما لقلَّ من قوتهم بل لأغرق كثيرا من سفنهم المتجهة إلى ساحل الشام ومصر، بل أيضا إلى ساحل تونس على نحو ما هو معروف من حملة لويس التاسع عليها وموته تحت أسوارها سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م. ويتضح من ذلك أن صقلية لم تكن جزيرة إسلامية فقدتها المسلمون فحسب بل كانت درعا كبيرا لهم يحمي نفورهم على سواحل المتوسط، حتى إذا سقط هذا الدرع أخذ الصليبيون يجوبون المتوسط وأخذ النورمان الصقليون يغيرون على سواحل إفريقية التونسية، وكانت آخر غاراتهم وأشدّها على تلك السواحل غارتهم سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م في عهد روجار الثاني وابنه غليوم واغتصاهم لمدينة المهدية وغالب المدن الساحلية الشرقية: قابس وصفاقس وسوسة، وكان ذلك بعد احتلال جربة التي هُناهم بها الخليفة الفاطمي بقليل. وكان ذلك بسبب ما حدث في إفريقية التونسية من قيام عصر أمراء الطوائف بعد الهجرة الهلالية السليمية وتنابد هؤلاء الأمراء وتجارهم ومحاولة بعضهم الاستعانة بصاحب صقلية ضد إخوته وأهله. ولولا أن قِيَضَ الله لإفريقية التونسية عبد المؤمن أمير الموحدين بالمغرب، فقضى فيها على هؤلاء الأمراء المتنازعين وقهر نصارى النورمان المستولن على الساحل التونسي ومدنه وعلى جربة وطرابلس لظلوا بها طويلا إذ أخرجهم على وجوههم، وسحقهم سحقا ذريعا بحيث لم يعد النورمان بعده يحاولون احتلال الساحل التونسي.

(ب) أحوال المسلمين

لما فتح النورمان صقلية الإسلامية ظلوا طوال فتحهم لها يشعرون أنهم دخلاء غرباء على من فيها من المسلمين والعناصر الأخرى الصقلية الأصلية والإغريقية والرومية وغير الرومية. وعَمَّ هذا الشعور في نفوسهم أنهم لم يكونوا متحضرين وواجهتهم مدن إسلامية متحضرة في سكانها وفي نظمها فلم يكن أمامهم إلا أن يحاولوا الانتفاع بحضارتها، غير أنهم كانوا مشبعين بدعوات وإجاءات من بابا روما ضد الإسلام والمسلمين لتمكين سلطان المسيحية فيها واستئصال جذور الإسلام منها، وهو ما يلاحظ على تصرفات روجَّار الأول فيها، إذ أنزل بالمسلمين بها في حكمه الذي امتد نحو ثلاثين عاما صورا مختلفة من التنكيل، وأول ما يلاحظ من ذلك أنه عَمَّ نظام الإقطاع في الجزيرة، فكان يُقَطَّع أنصاره وجنوده والأساقفة والقساوسة ما يفتحهم من البلدان، ويُعَدُّ مَنْ يَفْلَحُ أو يزرع تلك الممتلكات من المسلمين عبيدا يهدون مع الأرض إلى صاحب الإقطاع، على نحو ما صنع بمدينة قطانية حين فتحها، إذ جعل أهلها المسلمين عبيداً مسترقين ومنعها إقطاعاً للأسقف هناك. وكانت هذه أول ضربة أنزلها بأعدائه المسلمين. والضربة الثانية أنه قرَّر على المسلمين عامة دفع جزية، وظلوا يدفعونها حتى نهاية الحكم النورماني. والضربة الثالثة أنه أسكن الروم والفرنج مع المسلمين ولم يترك لأحد منهم - كما يقول ابن الأثير - حُماً خاصاً به - ولا دُكَّاناً ولا طاحوناً ولا قرناً. ويقول بعض الباحثين المعاصرين إن هذا إنما يصدق على جماعات الفلاحين أو من أحاطهم الفتح مسترقين، وهو تخصيص لا يقتضيه كلام ابن الأثير. ويقول آخرون دفاعاً عن الملك النورماني روجَّار الأول إنه لم يشرِّد المسلمين عن مدن صقلية ولو كان يريد التنكيل بهم حقاً لشردهم، وينسَوْنَ أنه كان لا يستطيع تشريدهم وإخراجهم من البلاد، لأنهم كانوا الأداة التي تزرع فيها وتُصنَّع وتتج ولو شردهم لأصبحت خراباً ولجُفَّت ضرعوها ولم يُعَدَّ يجد فيها ما يحميه هو وجنده وشعبه من الجوع والمسغبة.

ومع أن ابنه الملك روجَّار الثاني (٤٩٤-٥٤٨هـ) وحفيده غليوم الأول (٥٤٨-٥٦١هـ) كانا لا يقسوان على المسلمين قسوته ظلت في عهدهما آثار من هذه المعاملة الظالمة للمسلمين صُورُها في رحلته ابن جبير الذي زار صقلية في أيام الملك غليوم الأول، إذ يقول عن مدينة مَسِينِي إنها: «معمورة بمبدة الصلبان، يشون في مناكبها ويرتعون في أكتافها، والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، قد حسَّنوا السيرة في استعمالهم واصطناعهم، وضربوا عليهم إتانة (جزية) في فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجودونها» فتملك الأرض في مَسِينِي - مع سعتها - كان محرماً على المسلمين، فهم يشتغلون في مَسِينِي عَمَّالاً ولا يتحولون بحال مُلاكاً.

ويقول ابن جبير عن مسلمي يلم إن لهم أربابا (ضواحي) انفردوا بسكنائها عن النصارى، ولا جمعة لهم بسبب الخطيئة المحظورة عليهم إلا في الأعياد، فهم ممنوعون من صلاة الجمعة، ويحدثنا عن فتى بمسيحي كان يحفى إسلامه متسميا باسم عبد المسيح وأنه اختفى به وبين كان معه حتى إذا لم يجد حوله من يتهمه بإفشاء سره محافظة على نفسه من النصارى سألم عن مكة ومشاهدها المعظمة ومشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فأخبروه وهو يذوب شوقا وتحرقا إلى مشاهدة تلك الأماكن، وغبطهم على رحلتهم إلى مشاهدتها، وقال: أما نحن فكأقنونا إيماننا خائفون على أنفسنا متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا. وما يذكره ابن جبير مما يدل على اضطهاد المسلمين وإدخالهم في النصرانية قسرا أن فقيها حدثه في مدينة طرابلس أنهم ظلوا يطاردونه بمطالبته بأموال يكتنزها في رأيهم حتى أظهر لهم أنه فارق دينه الحنيف، ولكي يقنعهم بذلك حول مسجدا له بجوار داره إلى كنيسة، فكفوا عنه وقال إنه يكتم إيمانه، وذكر أنه لقي زعيم المسلمين المعروف في تلك الديار باسم ابن حجر ممدوح ابن فلاس الشاعر الإسكندري. فقال له إنهم ظلوا يوالون عليه مصادرات بلغت ثلاثين ألف دينار، وما زال يتخلل عن جميع ممتلكاته وعقاراته حتى أصبح بدون مال، وما قال له: «كنت أود لو أباع أنا وأهل بيتي لعل البيع يخلصنا مما نحن فيه ونصبح في بلاد المسلمين». ويروي ابن جبير قصة تقطع نياط القلوب حسرة إذ يقول إن أحد أعيان الجزيرة وجه ابنه إلى حاج من أصحابنا الحاج راغبا إليه في أن يقبل منه بنتا له عنراء صغيرة السن قد راهقت الإدراك، فإن رضيها تزوجها، وإن لم يرضها زوجها، ممن يرضاه لها من أهل بلده. طمعا في التخلص من هذه الفتنة. وطاب الأب وأخوتها بذلك نفسا لعلهم يجدون يوما السبيل إلى التخلص إلى بلاد المسلمين. وتأجر (طلب التواب) هذا الحاج المرغوب إليه بقبول ذلك، وأعانه ابن جبير ومن معه على اغتنام هذه الفرصة المؤدية إلى خير الدنيا والآخرة، يقول ابن جبير: «وطال عجبنا من حال تودي بإنسان إلى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة في القلب وإسلامها إلى يد من يفرها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق إليها والوحشة دونها، كما استغربنا حال الصبيبة صانها الله، ورضاه بفراق أهلها رغبة في الإسلام واستمساكا بعروته الوثقى».

وهل بعد ذلك من دليل على أن النورمان عاملوا المسلمين في صقلية بمنتهى الظلم والقسوة والعتو والبغى حتى يفارقوا دينهم الحنيف كرها، ومن عجب أن يكتب المؤرخون الغربيون أبناء عمومتهم أنهم عاملوا المسلمين بتسامح لا حد له وبعدل مابعد عدل، فنصدقهم، وهم قد عاملوهم بوحشية ماثلتها وحشية واستذلوهم ونهبوا حريتهم التي خلقهم الله بها وأحبالهم - أو أحالوا الشطر الأكبر منهم - عبيدا مسترقين.

وازدادت هذه الوحشية ضراوة في عهد أباطرة الألمان حين استولوا على صقلية سنة

٥٩١هـ/١١٩٤م فإنهم أخذوا ينزلون بأهلها من المسلمين - بتأثير الكنيسة - صورا فظيعة من الاضطهاد والتنكيل، ومنعواهم منعا باتا من حمل السلاح، وفرضوا عليهم - كما يقول الأستاذ الجليل حسن حسنى عبد الوهاب - أن يُعَمِّدُ أبناءُ النصارى: أمرٌ لا رادَّ له من الهابا دون استحياء، كما فرضوا عليهم أن يضعوا على صدورهم قطعة من النسيج الأحمر طولها شبر وعرضها إصبعان للتمييز بينهم وبين النصارى، وهاجرت كثرة من مسلمى صقلية - وخاصة من التجار والصناع - إلى الساحل التونسى والبلاد الإفريقية، فرارا من هذا الظلم الذى لا يطاق، وبقيت قلة مستضعفة - وخاصة من أهل الأرياف - تتحمل هذا المذاب والهوان، وتعامل معاملة العبيد الأرقاء. وحين صارت إفريقية التونسية إلى أبى زكريا الحفصى وعلم بما يقع على تلك القلة من الظلم فى أبشع صوره كاتب فردريك الثانى إمبراطور المانيا وملك صقلية ليرفع هذا الظلم عن مسلمى الجزيرة، وعقد معه معاهدة تضمن لهم الحرية الدينية، حتى إذا توفى أبو زكريا سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٥م رجع الظلم والعدوان الذى لا يطاق، واستأنوا بالمستنصر بن أبى زكريا، فاتفق مع فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا وملك صقلية سنة ٦٤٧ على إجلائهم إلى إفريقية التونسية، وبالمثل إخلاء مالطة من كل من بقى فيها من المسلمين.

الفصل الثاني

المجتمع الصقلي والثقافة

١

المجتمع الصقلي^(١) في العهد العربي

ظل المسلمون في صقلية - طوال حكمهم بها - لايزيدون عن نصف سكانها وكانت مجمعا لعناصر شتى مسيحيين من سكانها الأصليين الصيقول ومن النورمان والإغريق والصقالبة ومن بقايا الفينيقيين والقرطاجيين مع قلة من اليهود وكانت لهم حارة في بلرم وقلة من الزنوج ونزل أكثر البربر.. نواحي مازر وجرجنت. وكان في كل بلد مَنْ يملكون الإقطاعات الكبيرة وَمَنْ يملكون القطع الصغيرة، وكان الولاة يكتسبون لأنفسهم كثيراً من الذهب والفضة، ويقال إن واليها ثقة الدولة حين ارتحل إلى مصر كان معه ٦٧٠ ألف دينار سوى آلاف الخيل والبغال، ويبلغ ابن حوقل فيقول إن أهلها فقراء بينما نجد الإصطخرى يقول: «في صقلية من الحصب والزروع والمواشي والرقيق ما يفضل سائر المواني المتاخمة للبحر» ونفس ابن حوقل يحدّد الأسواق في بلرم ويبلغ بها نحو الثلاثين إذ كان بها سوق الزياتين والدقاقين والسيارفة والحدادين والسيارفة وبانعى القمح والطرازين والسماكين والأبزاريين وباعة البقل وأصحاب الفاكهة وباعة الریحان والجزارين والخبازين والعطارين والأساكفة والدباغين والتجارين والغضائريين والخشابين، وكان بها للقصابين نحو مائتي حانوت لبيع اللحم وبجوارهم القطانون والحلاجون والحدّامون». وفي ذلك مايدل على انتشار الحركة التجارية في بلرم وأن سكانها لم يكن معهم الفقر كما يقول ابن حوقل، وبالمثل بقية المدن في صقلية.

والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس: الفصل الثاني من الكتاب الأول، وكتاب ورفات عن الحضارة العربية بإفريقية، الفصل الخاص في الجزء الثالث بتاريخ صقلية الإسلامية.

(١) انظر في المجتمع الصقلي في العهد العربي صورة الأرض لابن حوقل وممالك الممالك للإصطخرى ونزعة المشتاق والنويرى والمكتبة الصقلية وإنهاء الرواة في ترجمة ابن البر ١٤٦/٢ ورياض النفوس للمالكى وسفر نامه لتاصر خسرو

وكانت الجزيرة موزعة قبل فتح المسلمين لها إلى ولايتين كبيرتين: ولاية بلرم وولاية سرقوسة، ووزعها المسلمون بعد الفتح إلى ثلاث ولايات كبيرة: شرقية وجنوبية غربية ثم غربية وتضم الشمال. وجعل المسلمون لكل ولاية واليا يدير أعمالها ومعه عدد من العمال يساعدونه في تصريف هذه الأعمال، وكان كل وال يسمى قائدا، ربما لكثرة ما كان ينهض به من الحروب ضد الحصون في إقليمه. وكان في كل ناحية وكل بلد قاضٍ ومعه كاتب لتقييد الأحكام. وكان قاضى بلرم يفصل في القضايا المهمة، ولذلك كان يسمى المقى. وكان السكان المسيحيون في الجزيرة يمثلون ما يقرب من نصف سكانها وعاملهم الولاة المسلمون ونوابهم بمنتهى العدل والتسامح طبقا لتعاليم الإسلام فكان الثرى يدفع سنويا للدولة ٤٨ ديناراً والفرد في الطبقة الوسطى يدفع ٢٤ ديناراً، بينما يدفع من يكسب عيشه بعرق جبينه ١٢ ديناراً فحسب. ولم تكن تؤخذ ضريبة من الرهبان والقسس والنساء والعجزة والأطفال، فهم جميعاً مَغفُون من الضرائب إعفاء تاما. وكانت الضريبة السالفة تسمى خراجا وهى في حقيقتها ضريبة دفاع. وحافظ المسلمون في صقلية - كما حافظوا في كل ديارهم - على مؤسسات المسيحيين الدينية من كنائس وغير كنائس، كما حافظوا لهم على قوانينهم الدينية والمدنية وعلى محاكمهم الخاصة، وأتاحوا لهم الحرية التامة في أداء شعائرتهم الدينية.

وطبىعى أن تكون بصقلية مجموعة من الدواوين للإشراف على نظام الحكم وتدبير شؤونه، فكان بها ديوان المحاسبة الذى يقوم بأعمال وزارة المالية في عصرنا، فيه خزانة الدولة، وفيه موظفون يراجعون ما يجمعه المحاسبون في المدن والأعمال المختلفة من الضرائب. ويقول ابن حوقل إن الضرائب فيها كانت تضم: «خمسةا ومستغللاتها ومال اللطف والجوالى المرسومة على الجماجم ومال البحر والهدية الواجبة في كل سنة على أهالى قَلَوْرِيَّة وقبالة الصيود وجميع المرافق». ولم يسمُ ابن حوقل. الدواوين التى كانت تشرف على جمع هذه الضرائب الكثيرة، ومن الممكن بالمقابلة على النصوص الصقلية أن نعرف بعضها على الأقل فكان عندهم ديوان الخمس المشرف على ما يجمع من غنائم الحرب، فإن للدولة - كما هو معروف - خمس ما يجمع من الغنائم كما تقرر ذلك سورة الأنفال، وكان عندهم ديوان الممتلكات العقارية المستغلة. وديوان اللطف وهو ديوان الهدايا التى كانت ترسل سنويا للخليفة الفاطمى في المهدية والقاهرة، وديوان الجوالى وهو ديوان الجزية التى كانت تؤخذ على الرعوس أو على الجماجم كما يقول ابن حوقل. وكانت تفرض ضريبة على الوارد من البحر، وإما كان لها ديوان خاص وإما كانت تضم إلى ديوان المستغلات، وقبالة الصيود أى ضمانتها يبلغ معين ولعلها كانت تضم أيضا إلى ديوان المستغلات، ولعله هو المسمى في بعض النصوص باسم ديوان التحقيق. وكلمة: جميع المرافق عند ابن حوقل تدل على أنهم كانوا يأخذون ضريبة على كل المنتجات وخاصة الصناعية إذ كان للصناعة ديوان خاص وقد يسمى ديوان الطراز. وكان من أهم الدواوين عندهم ديوان الإنشاء

ويتولاه أبلغ الكتاب مثل ابن الطوبى فى عهد ثقة الدولة وأهلائه. ويبدو أنه كانت فى بلرم طبقة من الشيوخ وبعض الأعيان يرجع إليها الوالى للمشورة فى بعض القضايا العامة أو بعض الأحكام، وكانت تبرز حين يؤخذ رأى فى والى صقلية الجديد، وكثيرا ما كان يؤخذ برأيا فيه كما كان يؤخذ برأيا فى ضبط أموال الدولة.

وكانت الزراعة فى صقلية تُعَلِّمُ محصولا كبيرا من القمح الذى أدخله فيها القرطاجيون وكان يغطى أجزاء كبيرة فيها بردائه الذهبى كل عام، وكانوا قد أدخلوا فيها غرس شجر الزيتون كما أدخل الإغريق غرس الكروم، وعينها يفضل عنب اليونان، ونقل العرب إليها كثيرا من الزروع مثل القصب والأرز والقطن والبصل وكثيرا من الأشجار مثل التخليل والليمون واللوز والفستق وكثيرا من الفواكه مثل التين والبرتقال والتوت وكثيرا من الخضروات ومن الرياحين. وفى سبيل خدمة الزراعة والحصول على إنتاج وافر حفروا القنوات والترع التى مازال موجودة بها إلى اليوم، واستعملوا طواحين الماء والخزانات لتوزيع المياه على الزرع والبساتين كما استعملوا النواعير والمواسير المعقوفة التى توجه مجارى المياه كما يشاءون. وبذلك أحال العرب صقلية إلى مزرعة كبيرة، تتخللها الحدائق والبساتين اليديمة. وكان بها مراعى واسعة يرى بها الماعز والأغنام والمواشى، وكانت بها خيول مشهورة فى عهد البيزنطيين، وأدخل فيها العرب خيولهم، وتفوقت على الخيول البيزنطية.

وكانت فى صقلية بعض صناعات قبل نزول المسلمين بها، ولكن صناعاتها ازدهرت فى أيامهم ازدهارا واسعا بما ألفتها الأرض إليهم من مناجمها فى حجورهم من الذهب والفضة والنحاس والكبريت سوى منتوجات الثروة المعدنية من الشبِّ والقَطْران ومنتوجات البحر المتوسط حولها من التنّ والمرجان ومختلف الأسماك. وأدخل المسلمون إليها صناعة الحرير وتطريز المنسوجات وتزيين السجاجيد بالنقوش البديعة وزركشة الثياب والجلود المصبوغة وإتقان صناعة الحلى. واشتهر ما كان ينتجه المسلمون من الكُتَّان فى الجزيرة شهرة واسعة، ويشيد بكتانها ابن حوقل جودة ورخصا، ويقول إن نسيجه مما يقطع قطعين وكان يباع بمصر من خمسين رباغيا إلى ستين، ويقول ناصر خسرو: يُجَلَّبُ من صقلية كتان رقيق وثياب منقوشة يساوى الثوب منها فى مصر عشرة دنانير مغربية، وفى خطط المقرئى أنه وجد لعة بنت المعز فى خزائنها ثلاثون ألف شقة صقلية. وكان قَطْع الأخشاب فى غابات جبل إتنا والغابات الشمالية يعود بغير قليل من الربح، وكانت صناعة السفن رائجة، وكان يُجَلَّبُ لها الخشب من جفلود والحديد من بلهرا. وكانت بالجزيرة بقاع يكثر فيها البربر، وهو البردى، وكانت مصر من قديم تصنع منه الورق للكتابة عليه، ونقل العرب عنها هذه الصناعة وكان الورق المتخذ منه لكتابة المنشورات والوثائق يسمى باسم الكاغد، ونقلت الدولة الأغلبية صناعته عن مصر إلى إفريقية

التونسية وأدخلتها إلى صقلية، فكان يصنع لها فيها الكاغد أو الطوامير لكتابات الرسمية، وما فضل عن حاجتها يفتله صناع جبالاً للمراكب ولغيرها. واجتازت صناعة الطوامير من مضيق مسيني إلى سالرنو Salerno بإيطاليا وتغلغت - في عهد النورمان - إلى الشمال ومدينة نابولي، واجتازتها إلى أوروبا الوسطى وألمانيا وهو فضل كبير لمسلمي صقلية على الحضارة الإنسانية، فلولاهم ما عرفت ألمانيا الورق ولا صناعته، ولا أتبع فيها بعد - لعالمها الغد «جوتنبرج» - اختراع الطباعة.

ولا ريب في أن صناعة صقلية الإسلامية المزدهرة وازدهار إنتاجها الزراعي أهلها لأن تزدهر بها التجارة، وقد مرت بنا كثرة الأسواق في بلرم حتى لتبلغ نحو ثلاثين سوقاً، وكان يسوق القصابين أو الجزارين وحدهم - كما مر بنا - نحو مائتي محل أو دكان. وأتاح ذلك لصقلية ثراء واسعاً، أما ما يقوله ابن حوقل من فقر أهلها فكان داعية للفاطميين ووجد عامة الناس هناك تنفر من العقيدة الفاطمية وتتعلق بمذاهب أهل السنة فحمل عليهم، ولم يحمل عليهم من ناحية ما وصفهم به من الفقر المادى فحسب فقد حمل عليهم أيضاً من ناحية الفقر الخلقى، فوصفهم بالخبث واللؤم وقلة الذكاء ونقص المروءة وشدة الجهل، وهو متهم في كل ما وصفهم به من الناحية الخلقية وأيضاً من الناحية الدينية فقد رماهم بضعف دينهم لأنهم - في رأينا - لا يدينون بالمذهب الفاطمي الإسماعيلي، بينما يصفهم غيره بنظافة الثياب وحسن الصور إلى مروءات ظاهرة وعشرة حسنة. والحق أن ابن حوقل في ذلك كله مغرض، ومن يقرأ وصف مدنها عند الإدريسي يراه يشيد بقصورها وبساتينها وأسواقها مبهوراً بما فيها من حركة تجارية واسعة لا في بلرم وحدها بل في كل المدن التي زارها وخاصة مسيني وقطانية وسرقوسة ونوطس وجرجنت ومازر وأطرابنش، وإذا كان الإدريسي زارها في العصر النورماني فإننا نجد أماري ينقل في المكتبة الصقلية عن الراهب نيودوسيوس - وكان قد أسر في سرقوسة بالقرن التاسع الميلادي سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م زمن الأغابة ونقل منها إلى بلرم - أنه تحدث بإعجاب عما شاهده من القصور في المدينتين كما تحدث عن أسواق بلرم وكثرة من فيها من جميع الأجناس الأوربية والإفريقية والآسيوية، ويقول نوبل دي فرجي في كتابه «العالم» إن تجارة صقلية بلغت أيام المسلمين ازدهاراً عظيماً لم تدركه في تاريخها لا قبلهم ولا بعدهم. وعلى الرغم من عوادي الأيام على قصور المسلمين ومساجدهم ومبانيهم فيها لا تزال في بقاياها وأروقتها الباقية ما يشهد بأن شعباً عظيماً سكن تلك الجزيرة وشاد فيها روائع من القصور والأبنية الفخمة برخامها وفسيفسائها ونقوشها البديعة، مما يجر فون شاك وتجرد له سنوات طوالاً يصفه في كتابه: الفن العربي في إسبانيا وصقلية. ومن القصور المشيدة التي خلفها المسلمون بهلرم قصر العزيز الذي بناه الأمراء الكليبيون وقصر القبة وقصر المنصورية وقصر الفوارة شرقى بلرم، وسنذكر طرفاً مما نظمته فيها بعض الشعراء في غير هذا الموضع.

وطبيعى أن يكون للزهد والتصوف مسارب في الحياة صقلية إسلامية: وكان القضاء والفقهاء في طليعة من يمثلون الزهد والتقشف والانصراف عن متاع الحياة طلباً لما عند الله من ثواب الآخرة. وتلتقى في أول نزول المسلمين في صقلية بقاضيا ابن أبى محرز، وكانت تُضْرَبُ بعدله ونزاهته وتقواه الأمثال. وكان قد عاد إلى القيروان قبيل وفاته، فأوصى عمر أخاه أن يكتب خبر موته حين ينزل به القضاء خوفاً من أن يكفنه ويدفنه الأمير الأغلبى وينفق ثمن ذلك عليه من بيت مال المسلمين. فيلقى الله وعليه من مال المسلمين شيء، وأنفذ أخوه وصيته، وتمعجب الناس من ورعه حتى في موته. ويذكر صاحب رياض النفوس عن القاضى أبى عمرو ميمون بن عمر المتوفى سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م أنه ولى قضاء صقلية، فاجتاز بمدينة سوسة، فقال: يا أهل سوسة انظروا هذا كسانى وهذه فروق وهذا خُرج فيه كتبى وهذه الجارية السوداء تخدمنى وممها جُبة وكساء. فبهذا رحلت عنكم، فانظروا بأى شيء أرجع. فلما وصل إلى بلرم قالوا له: هذه دار القضاء (وكانت واسعة) تنزل فيها، فتركها ونزل في دُؤيرة (صغيرة) لطيفة، وكانت الجارية السوداء تغزل وتبيع غزلها وتنفق عليه من فضل ذلك. ومريض ولم يخرج ثلاثة أيام فدخلوا عليه لعيادته فوجدوا عند رأسه وسادين محشوتين ثبناً وتحتة حصيرة من البردى. وعاد إلى بلده عن طريق سوسة فاستقبله بعض أهلها، فقال: يا أهل سوسة كما غادرناكم نعود إليكم: هذه جُبَّتى وكسانى وخُرْجى فيه كتبى، وهذه السوداء تخدمنى.

والقاضيان: ميمون وابن أبى محرز مثلان رائعان لمن كان يزهد من أهل صقلية وقضائهما وفقهائهما في متاع الحياة مكتفيا بأقل القليل من عيشته راضيا بحياة التقشف بل واجداً فيها متاعه فليس له مأرب سواها، ومن يمثل ذلك من أهل صقلية ما رواه المالكى في رياض النفوس عن أبى الحسن الصقل الحريرى من أنه قضى عمره - أو شطراً كبيراً منه - صامتاً لا ينطق إلا بذكر الله تعالى أو بما يعنيه، فإذا أقيمت الصلاة تأوه وتواجد وقال: «وَأَذْهَابَ عَمْرِى فِي خُسَارَةٍ». وقد ظل الزهد في صقلية الإسلامية فردياً، ولم يتحول إلى حركة واسعة بحيث تنشأ عنه حركة صوفية، وحقا قد يوصف بعض الصقليين بأنه صوفى دون أن يعنى الوصف بذلك الحقيقة الصوفية إنما يعنى العبادة، وربما كان الشخص الوحيد الذى يمكن أن يسلك هناك في عداد الصوفية هو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكرى الذى حج وسمع العلماء بمكة سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م ويوصف بأنه «إمام الحقيقة وشيخ أهل الطريقة» وله مؤلفات مختلفة تدل على أنه كان ينزع نزعة صوفية، منها: «الأنوار في علم الأسرار ومقامات الأبرار وصفة الأولياء ومراتب أحوال الصفاء والشرح والبيان لما أشكل من كلام سهل التستري». وهدار الكتب المصرية منه مخطوطة في ستة أجزاء وعبد الرحمن فيه فقيه يتمسك بمذهب أهل السنة مستشعراً دائماً القرآن الكريم والسنة النبوية، والكتاب إلى أن يكون زهداً وتقشفاً في الحياة أقرب منه إلى أن يكون تصوقاً بالمعنى الدقيق. وظل التصوف بعد البكرى في صقلية

لا ينفك عن الفقه والحديث ومذهب أهل السنة غير متخذ منهجاً عملياً من التصوف، على نحو ما يلقانا عند الفقيه المحافظ السمنطاري، فقد صنف في الرقائقي وأخبار الصالحين كتاباً كبيراً، كان في عشرة مجلدات، سماه: «دليل القاصدين» كما ذكر ذلك ياقوت عند ذكره بلدته «سمنطار». وبذلك لم يكن - في رأينا - للتصوف حياة في صقلية الإسلامية إلا هذه الحياة السنية الملتزمة بالقرآن الكريم والسنة النبوية والتي تدفع الفقهاء إلى التأليف النظري في التصوف بمعناه العام أكثر مما تدفع إلى التطبيق العملي.

٢

المجتمع^(١) الصقلي في العهد النورمان

من قديم كان يقال إذا كانت روما فتحت أننا حاربنا فإن أننا فتحنا حضارياً بأدبها وفلسفتها وروعة فنونها، وهو ما نستطيع أن نقوله عن النورمان وصقلية الإسلامية فإن النورمان فتحوا صقلية الإسلامية حارباً، وفتحتهم صقلية الإسلامية حضارياً، إذ كانوا شعباً متبريراً ليس له حضارة ولا عهد له بأى حضارة، فلما نزلوا صقلية بهرتم الحضارة الإسلامية فيها، واجتمعت أسباب كثيرة لكي ينجحوا رموسهم أمام من بها من المسلمين، فقد كانوا قلة ضئيلة بالنسبة إلى سكانها، وكانوا لا يعرفون شيئاً من نظمها الإدارية ومن تراتيب أهلها في الزراعة والصناعة وأسباب العمران، فاضطروا إلى استبقائهم لينتفعوا بهم في شئون الصناعة والزراعة وتشديد القصور والمباني الباذخة. ومع ذلك فإن الملك روجار الأول الفاتح لم يحسن معاملتهم بتأثير الكنيسة كما أسلفنا فإذا هو يحيل كثيرين منهم في المدن والقلاع والحصون المفتوحة غنوة إلى عبيد مسترقين، وإذا هو يطبق عليهم نظام الإقطاع مسرفاً في تطبيقه، وإذا هو لا يترك لأحد منهم لا أرضاً متسعة فحسب، بل أيضاً لا حقاً - كما يقول ابن الأثير كما مر - ولا دكناً ولا طاحونا ولا قرناً، وأسكن معهم في الحقول الروم والفرنجة - كما يقول ابن الأثير - حتى يتعلموا منهم طرق الفلاحة والقيام على الزروع والغروس كما حدث في قطانية وغيرها من المدن ومن الحصون والقلاع التي بلغت ثلاثمائة وعشرين عدداً. ويبدو أنه أخذ يثوب إلى ورشده، فخفف من هذه المعاملة الصارمة للمسلمين وخاصة في بلرم وفيمن اتخذهم منهم جنداً في

المشتاق للإدرسي والعرب في صقلية للدكتور
إحسان عباس والمسلمون في جزيرة صقلية وجنوب
إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدني.

(١) راجع ابن الأثير في الجزء من العاشر والحادي
عشر، وتاريخ ابن خلدون وأماري في المكتبة
الصقلية وتاريخ سلسي صقلية وغريمان في كتابه
السالف: تاريخ صقلية ورحلة ابن جبير ونزهة

جيشه وأسطوله، ومع ذلك فقد فرض عليهم - كما فرض على مسلمي الجزيرة عامة - أن يدفعوا جزية، ولم يثنه إلى أن المسلمين لم يكونوا يفرضونها ضريبة عامة على الروم من حيث هي ضريبة، وإنما كانوا يفرضونها على غير المحاربين ضريبة دفاع عنهم، ولذلك لم يكونوا يفرضونها على القساوسة والرهبان والعجزة والنساء والأطفال، فهي ليست عندهم ضريبة اضطهاد، إنما هي ضريبة دفاع لجيش المسلمين الذي يحمي النصارى ومحارب دونهم، نصيبا مما يحتاج إليه في حربه من المؤن وعتدة السلاح، أما هو فجعلها ضريبة اضطهاد عامة، مع استخدامهم في الجيش والأسطول والدفاع عن الجزيرة. وكان ابنه الملك روجار الثاني قد نشأ نشأة صقلية عربية، فإن اللغة النورمانية لم يكن بها علم ولا فلسفة ولا فكر ولا أدب، فاضطر أبوه إلى تعليمه العربية اللغة المنحصرة، وتنفس في الحضارة الإسلامية التي كانت مسيطرة على الجزيرة بروحها وتقاليدها، وأخذت هذه الحضارة تؤثر في حياة النورمان الغالبيين كما أخذوا يُقيدون من نظمها وترتيبها الإدارية، وبالمثل من شئون الزراعة والصناعة والجيش، وفيه يقول ابن الأثير: «سلك طريق ملوك المسلمين من الجانب (ما يركبه) والحجاب والسلاحية والجاندارية وغير ذلك، وخالف عادات الفرنج في ذلك كله فإنهم لا يعرفون شيئا منه، واتخذ الملك روجار الثاني ديوان المظالم الذي كان شائعا عند الحكومات الإسلامية الصقلية فنقله عنهم كما نقل عنها ديوان التحقيق وديوان الجزية وديوان الصناعة، ومنه يتفرع ديوان الطراز الخاص بالمنسوجات المطرزة بالذهب وغيرها، وأيضا ديوان المستغلات من تجارة الموانئ الصادرة والواردة وصيد البحر. وكان في بلاطه. نفر من علماء العرب ومفكرهم وأرباب الأدب والصناعة، وكان هناك ديوان عام ينظر في أمور الدولة اشترك فيه بعض العرب. وخلفه ابنه الملك غليوم الأول، وكان قد تعلم العربية وحذقها مثل أبيه، ويقال إنه كان يعتمد في كثير من المهمات على مسلمي صقلية، وإنه فتح في وجوه مناصب الدولة يتولونها وقرب منه بعض العلماء المسلمين وبعض رجال الأدب والفكر. وقد دفع هو وأبوه النورمان إلى اقتباس الفنون والعلوم والعناصر الأساسية للحضارة الإسلامية، فتعاضروا بعد أن كانوا قوما متبذئين ونقلوا حضارتهم إلى إيطاليا فكانت بذلك من أسباب انبعاث النهضة الإيطالية بها في القرن الخامس عشر قبل غيرها من الأمم الغربية، وهو تأثير عميق لصقلية الإسلامية في النهضة الأوربية الوسيطة، وينقل الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب عن دى سلان وصف البلاط النورمانى في عهد غليوم الأول وأبيه روجار الثاني إذ يقول: «إن كل شيء في البلاط النورمانى أصبح يذكر بالعادات والتقاليد الشرقية من حجاب وغللمان وعبيد إلى خصيان (سود وبيض) وقبان وعازفين، ومن حريم إلى مراسم وتشريفات». ولم تكن اللغة العربية لغة التخاطب فحسب، بل كانت أيضا لغة الثقافة، وكانت المراسيم تصدر عن الديوان الملكي باللغة العربية ثم تنقل إلى اللاتينية أو اليونانية، كما كانت النقود منقوشة بالخط الكوفى» ومر ابن جبير بالجزيرة بعد عودته من الحج في أيام غليوم

الأول حوالى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م فنوه بأنه يتخذ من فتيان مسلمين مجائب حُجَّابَه ووزراءه وعيون دولته وعمالته في الجزيرة، ويقول إنه كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم، ويقول إن أهل دولته من المسلمين يلوح عليهم رونق ملكه، لاتساعهم في الملابس الفاخرة والمراكب الفارغة، وما منهم إلا من له الحاشية والعبيد والأتباع، ويقول عن غليوم الأول: «ليس في ملوك النصارى أترف في الملك ولا أنعم ولا أرفه منه، وهو يشبه بملوك المسلمين في الانغماس في نعم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته، ويذكر ابن جبير حين مرَّ ببلده أنه كان في نحو الثلاثين سنة من عمره وأنه يتقن العربية قراءة وكتابة، والعلامة التي يضعها على رأس مناشيره ورسائله: «الحمد لله حق حمده» وكانت علامة أبيه روجَّار الثاني: «الحمد لله شكرًا لأنعمه». وما يدل على مدى انغماس النورمان في الحضارة الإسلامية التي كانت منبئة في الجزيرة أن زى النساء النصرانيات في بلرم كان نفس زى النساء المسلمات، ويقول ابن جبير إنهن فصيحات الألسن بالعربية الشريفة طبعًا (اللغة الأولى في الجزيرة حينذاك) وإنه رآهن في عيد الفطر قد خرجن فيه وليسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف (الملاءات وما يشبهها) الراققة وانتقبن بالتقب الملونة (أى أنهن كن محجبات تمامًا مثل المسلمات) وانتعلن الأخفاف المذهبة، وبرزن لكنائسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر».

ومن دلائل الانغماس الواضح في الحضارة الإسلامية لعهد غليوم الأول ما يذكره ابن جبير من أن جواربه وحظاياه في قصره كنُ مسلمات جميعهن، وأن الجارية النصرانية من الفرنجيات إذا وقعت في قصره أصبحت مسلمة بفضل مَنْ فيه من الجوارى المسلمات، ولم يكن غليوم ولا أبوه يتعرضان - فيما يظن - لأداء شعائر مَنْ في بلاطها وبلدتها أو عاصمتها بلرم من المسلمين، وربما كان تسامح غليوم في هذا الجانب أقوى وأوسع من تسامح أبيه فقد كان مَنْ في بلاطه من الفتيان يصوم الأشهر تطوعًا وطلبًا للأجر والثواب، وكان إذا دخل وقت الصلاة يخرجون من مجلسه فرادى فيؤدونها، وهو لا يتعرض لهم أى تعرض. ويقول ابن جبير إن بلرم كانت غاصة بالمسلمين ولم فيها أرباض أو ضواح ينفردون فيها بسكتاهم عن النصارى، والأسواق معمورة بهم، ويقول إن لهم مساجد يصمرونها ويقومون الصلاة فيها بأنان مسموع، وإن لهم قاضيا يتقاضون أمامه، ويذكر أن المساجد كثيرة، وكان يحفظ في أكثرها القرآن. على أنه يعود فيذكر أن صلاة الجمعة كانت محرمة على سكان بلرم - كما مرَّ بنا - بسبب الحُطبة الدينية التي تسبقها إذ كانت محظورة عليهم.

وحرى بنا أن نتوقف لنعود إلى المقالة الشائنة بين المؤرخين، من أن النورمان عاملوا مسلمي

صقلية معاملة حسنة وأنهم سمحوا لهم بحرية العقيدة مستدلين على ذلك بما يقول ابن جبير وغيره عن بلاط روجار الثاني وغلبيوم الأول من أنه كان بلاطاً عربياً إسلامياً في نظر أمراء المسيحية، وهو إنما كان كذلك بحكم تبدل النورمان وشعور هذين الملكين بحاجتها وحاجة شعبها إلى تشرب الحضارة الإسلامية العربية، ولذلك أحسنا معاملة المسلمين وسمحا لهم - على الأقل في بلرم - بإقامة شعائرهم الدينية والأذان والصلاة في المساجد، وبالمثل سمحاً بذلك لمن شعرا بحاجتها إليه في بلاطها وحياتها من الفتيان ومن الجوارى والحظايا. أما بعد ذلك فكانت المسألة تتوقف على كثرة المسلمين في البقاع والمدن، فقد اتجه ابن جبير بعد زيارته لبلرم إلى زيارة مدينة طرابنش، ولاحظ أن جميع سكان الطريق بين المدينتين مسلمون يفلحون الأرض في ضياع ومحارث ومزارع متصلة، واقترب من مدينة ثرمة في الشمال، وكان الإعياء قد أخذ منه فبات بقصر قريب منها داخله مساكن وعلال مشرفة، وهو كامل مرافق السكى، وفي أعلاه مسجد من أحسن مساجد الدنيا بهاء، وبات فيه أحسن مبيت وأطيبه وسمع أذان الفجر - وكان قد طال عهده بسماعه كما يقول - وأكرمه القائمون عليه وصلى به الفريضة والتراويح إذ كان في رمضان، وأكبر الظن أنه كان محرساً للمدينة وبني على شاكلة المحارس في الساحل التونسي، وانتهى إلى طرابنش ورأى ما للمسلمين والنصارى فيها من مساجد وكنائس، ورأى المسلمين يصلون يوم العيد بالطبول والبولقات وعجب من ذلك.

وقبل أن نستمع إلى ابن جبير فيما ذكره بتلك البلدة من الفتنة في الدين الحنيف نتوقف قليلاً عند سياسة الملك، روجار الثاني، فقد ظل معتمداً لإجراءات الإقطاع التي فرضها أبوه روجار الأول في البلاد والمحصون التي فتحت غنوة، ولما هاجم أسطوله الساحل التونسي واستولى على مدينة بونة (عنابة) ترك أميره فيليب جماعة من العلماء والنسك يخرجون منها إلى القرى المجاورة بأهلهم وأموالهم، فلما عاد قبض عليه لرفقه وحسن صنيعه بجماعة من المسلمين وجعل الأساقفة والقسس والرهبان يحاكمونه فحكموا عليه حكماً ظالماً بحرقه، كما نص على ذلك التجاني في رحلته. فلم يكن روجار الثاني يؤمن بحرية العقيدة كما يحلو لمؤرخي الغرب - وتأيمهم مؤرخو العرب - القول بذلك. ونفس غلبيوم الأول الذي أشاد ابن جبير بمعاملته لمن في بلاطه من المسلمين ومن في قصره من الجوارى والحظايا السلميات حدثت مذهبة للمسلمين ببلرم في أيامه، إذ أمر وزيره مايون بنزع السلاح من أيدي المسلمين سنة ١١٦٠/٥٥٦م فثار المسلمون ضد هذا الأمر، وانتهز المسيحيون الفرصة فسفكوا دماء كثيرين منهم في شوارع بلرم وفي الدواوين والحوانيت والفتادق كما سفكوا دماء جماعة ممن كانوا في القصر، وقتل في هذه الواقعة الشاعر القفصي يحيى بن التيفاشي كما قتل - في ظن أماري - الإدريسي الجفرائي، وهو ما يؤكد أن استخدام غلبيوم الأول للمسلمين في القصر إنما كان ضرورة حضارية، اضطرت إليها الحضارة الإسلامية التي قهرته وقهرت شعبه. ومرت بنا - منذ قليل - أخبار عن ابن جبير

تدلل على أن حرية المسلمين في إقامة شعائرهم الدينية لم تكن مكفولة تماما على نحو ما أوضح ذلك على لسان عبد المسيح في مَسِينَى وفقهه مدينة طرابنش وزعيم المسلمين بها ابن حجر والمسلم الصقلي الذي اختار أن يُحَرِّم من ابنته وأهداها زوجة إلى أحد الحجاج مع ابن جبير حتى لا تذوق ما يدوقه مع إخوتها من العذاب الآلِيم.

ويتضاعف الظلم الفاشم مع استيلاء أباطرة الألمان على صقلية - كما مرُّ بنا في الفصل الأول - ويفر من صقلية آلاف من المسلمين إلى إفريقية التونسية، ولا يبقى بها إلا من عجزوا عن الفرار والرحيل ويصبحون بها مستعبدين يفلحون الأرض ويرعون الأغنام للسادة الفرنجة ولا يكفل لهم شيء من الحرية الدينية، واستغاثوا بأبي زكريا مؤسس دولة الموحدين فعقد معاهدة مع فردريك الثاني الإمبراطور الألماني، وتعهد له فردريك فيها بضمان تلك الحرية، ولم يطبّق هذا التعهد، وازداد العسف والظلم الفاشم، واستغاث المسلمون هناك بالمستنصر ابن أبي زكريا، فعقد معاهدة مع فردريك على إجلاء المسلمين نهائيا من صقلية، وحلّوا بتونس في سواحلها ورَحَّبَت بهم المدن الساحلية وعاشوا في أمان، ويقال إن فردريك أُجِّل من بقى بجزيرة مالطة من المسلمين إلى أمالفى Amalfi جنوبي إيطاليا، وبمر الزمن تنصرت ذرارهم.

٣

الثقافة^(١) في العهد العربي

دائما تتحرك الثقافة الإسلامية مع الجيوش العربية الفاتحة، فبمجرد أن يفتح جيش عربي بلدا يقيم فيه مسجداً تُخَطَّب فيه خطبة الجمعة وتُؤدَّى الصلوات الخمس، ويدخل أهل البلد المفتوح في الإسلام أو كثيرون منهم، وتنشأ كتابات لتحفيظ الداخلين في الإسلام شيئا من سور القرآن وتعليمهم وتعليم ناشئتهم مبادئ الكتابة العربية وشيئا من الشعر العربي لتستقيم العربية في ألسنتهم. وكان هؤلاء المسلمون الجدد والجنود العرب يتحلّقون حول الشيوخ في المساجد يأخذون عنهم تعاليم الإسلام، وكان من هؤلاء الشيوخ من يمرض الأسدية لأسد بن

الرواة للقفطي وبغية الوعاة للسبوطي وطبقات القراء لابن الجزري والسديج المنعجب لابن فرحون والصلة لابن بشكوال والحلة السبراء لابن الأبار والقسم الثالث من كتاب وروقات عن الحضارة العربية في إفريقية التونسية والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس.

(١) انظر في الثقافة بالعهد العربي البيان المغرب لابن عذارى ومعجم الأدياء ومعجم البلدان في سمنطار لياقوت وتنقيف اللسان لابن مكي وتاريخ الحكماء للقفطي وصورة الأرض لابن حوقل وطبقات الأطباء لابن جلجل وطبقات الأسم لصاعد والحريفة للمصدا الأصهباني: الجزء الأول وإنباء

الفرات قائد الحملة الذى قضى نحبه فى حصاره لسرقوسة وهى تصور مذهب مالك من إملاءات أستاذه عبد الرحمن بن القاسم بمصر، حتى إذا شاعت مدوثة سحنون - وهى أيضا من إملاءات ابن القاسم - فى القيروان والبلاد المغربية أخذ الشيوخ فى صقلية يلقونها الناس والطلاب هناك.

ومع أن المسلمين فى صقلية ظلوا أشبه بمسكر حربى لا يزالون ينتظرون النداء للحرب صباح مساء، ولا يزالون يُشبهون سيوفهم مع أول صارخ، ومع أن الصرخات كانت لاتنى ترتفع، ومع أنهم ظلوا يفتحون الحصون طوال عهدهم بها ولا يكادون ينتهون من حرب حتى يبدؤوا حربا جديدة، مع ذلك كله استقروا بالمدن التى فتحوها، وكُونُوا لأنفسهم فيها ولايات إسلامية، ونقلوا إليها الحضارة العربية وكل ما اتصل بها من عمران وبناء منازل وقصور فخمة، ونهضوا بالزراعة والصناعة والتجارة، كما نهضوا بالثقافة فى مختلف فروعها وعلومها وفنونها. ولم يكتف الشباب المسلم الصقلى بما كان يحصله من ذلك على علماء سرقوسة وجرجنت ومازر وبلرم وغيرها من المدن فقد كانوا يرحلون إلى القيروان للتزود من حلقات علمائها، وكان كثيرون من علماء القيروان وشيوخها يعبرون البحر لتزويد الطلاب هناك بما أحرزوا من العلوم وصاغوا من المؤلفات. وكأنما كانت صقلية - طوال العهد الإسلامى - بلدا تونسيا، فكل ما فى القيروان من كتب ومصنفات وعلوم وآداب يرحل مع التونسيين المهاجرين إليها ومع أبنائها فى حقائبهم حين عودتهم إلى بلدانهم. وليست المسألة إذن أن كتابا نعتز على اسمه فى النصوص الصقلية مثل كتاب الملخص للقابسى الذى لخص فيه ما اتصل إسناده من أحاديث كتاب الموطأ للمالك، حتى إذا وجدناه هو أو غيره من الكتب سجلنا به وبها ما نقل إلى صقلية من المصنفات العلمية، والمسألة كانت أوسع من ذلك إذ لم يؤلف فى القيروان كتاب مهم إلا حُمِلَ إلى صقلية، وقد يحمله نفس مؤلفه على نحو ما هو معروف عن كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيروانى، فقد ارتحل إليها بعد الهجرة الهلالية إلى موطنه، وحمل إليها معه هذا الكتاب النفيس الذى يُمَدُّ أروع ما وضعت المغرب والأندلس فى النقد الأدبى والبلاغة ومحسناتها من كتب، ولا ريب فى أنه كان له أثر بعيد فى نهضة صقلية الأدبية.

وعلى نحو ما تبادل العلماء والأدباء فى صقلية الرحلة مع علماء وأدباء القيروان كذلك تبادلوها مع علماء وأدباء المشرق والأندلس، بل كان بعض الشباب الأندلسى يقصد إلى صقلية للاستماع إلى هذا العالم أو ذاك ممن بلغت شهرتهم العلمية الأندلس، وكثيرا ما كان يقصد بعض علماء صقلية الأندلس فيجد شهرته سبقته إليها. وكانت رحلة الطلاب الصقليين إلى مصر والمشرق كثيرة، ونزلها غير عالم وأديب من المشرق من مثل أبى محمد إسماعيل بن محمد النيسابورى، وأخذ عنه - كما يقول ابن ظافر فى كتابه بدائع البداهة - غير واحد كتاب

التيمة للتعاليى، ومثل على بن حمزة اللغوى فقد ذكر ياقوت في ترجمته أنه كان راوية لديوان المتنبي وأنه رحل إلى بلرم في صقلية وظل فيها يروى للطلاب ديوان المتنبي ويشرحه إلى أن توفى سنة ٣٧٥هـ/٩٨٦م ويبدو أن دواوين أخرى كثيرة دخلت إلى صقلية، فابن مكي يذكر في الباب الأربعين من كتابه «تتيف اللسان ما كان يحظى فيه المغنون من أشعار كثيرٍ وذى أثرمة وجريز وابن الرومى والشريف الرضى. ويقول القفطى بكتابه تاريخ الحكماء في ترجمة أبى سليمان المنطقى عن كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدي: إنه خاض كل بحر وغاص كل بجة، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة منه بخط بعض أهل جزيرة صقلية، وهو قوله: «ابتدأ أبو حيان كتابه الإمتاع صوفيا وتوسطه محدثا وختمه سائلا ملحقا». وفي ذلك ما يدل على أن كتب الفكر العميق المشرقية - مثل كتب أبى حيان - كانت تحت أعين الصقليين. وما ذكرناه أو أشرنا إليه من ذلك إنما هو رموز لما نقل إلى صقلية من نفائس الكتب الأدبية والفكرية، ولابد أن كانت نفائس الكتب التونسية والمشرقية في التفسير والحديث النبوى والفقه تنقل بدورها إليها.

ومن المؤكد أن الحركة العلمية كانت نشيطة بها، ويدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما يقوله ابن حوقل في كتابه صورة الأرض من أنه كان بها ما يزيد على مائتى مسجد، ويقول أيضا - ونقل ذلك عنه ياقوت في معجم البلدان - إن في بلرم ما لا يقل عن ثلاثمائة معلم، ولابد أن كانت لهم حلقات كثيرة في المساجد يحاضرون بها الناس في مختلف فروع الثقافة الإسلامية. ومن طريف ما يذكره ابن حوقل أنه رأى بها كتابا به خمسة من المعلمين لهم من بينهم رئيس هو مدير الكتاب أو مدير هذه المدرسة، ويقول إن صبيان الكتابيين كثيرون وإنهم يبلغون أحيانا ثمانين طالبا في الحلقة الواحدة أو الفصل الواحد، وهى بذلك ليست كتابات - كما يقول - إنما هى مدارس، وقد أهلت لنشاط علمى واسع في بلرم، وعلى شاكلتها كانت المدن الأخرى في صقلية.

وحرى بنا أن نستعرض النشاط في العلوم المختلفة بصقلية الإسلامية، ونبدأ بعلوم الأوائل، وكانت - في رأينا - نشيطة بصقلية، إذ كان ما يقرب من نصف سكانها من الإغريق والرومان وكان لهم تراث قديم بلغتها الإغريقية واللاتينية، وحقق كثيرون منهم العربية وحقق بعض العرب لغتها بحكم الامتزاج والاختلاط والتعامل اليومي بين السكان، ودفع ذلك إلى التبادل عن طريق الترجمة بين التراث الإغريقى اللاتينى والتراث العربى، ومن أهم من عنوا بذلك الرهبان الصقليون، فكانوا ينقلون عن العربية بعض نفائس تراثها كما كانوا ينقلون إليها بعض نفائس التراث الإغريقى اللاتينى ويدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما ذكره الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب في الجزء الأول من كتابه ورقات عن الحضارة العربية

بإفريقية التونسية من أن الأمير الأغلب إبراهيم بن أحمد (٢٧١ - ٢٨٩ هـ) مؤسس بيت الحكمة في عاصمته رقادة تغير بعض المصنفات اللاتينية في العلوم الرياضية التي اطلع عليها، وكلف بترجمتها بعض الرهبان الصقليين المتكلمين باللغة العربية وألحق بهم بعض علماء اللغة من الإفريقيين، وعهد إليهم بمهمة تنقيح عباراتهم وسبكها في قالب عربي صحيح» ويستظهر أن يكونوا قد نقلوا إلى العربية كتاب بلينيوس (Plinius) في علم النبات، ويذكر ابن جليل في كتابه طبقات الأطباء أنه هاجر إلى قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠ هـ) من صقلية طبيب يدعى أبا عبد الله كان يتكلم اليونانية ويعرف أسماء العقاقير والأدوية، فضمه الناصر إلى علماء قرطبة وأطبائها ليكون عوناً لهم في ترجمة كتاب ديسقوريدس المؤلف بالإغريقية عن الأدوية والنباتات. وقد مضت صقلية تنعى بعلوم الأوائل من طب وغير طب في الترجمة. وكما كان التراث اللاتيني الإغريقي العلمي يترجم إلى العربية كان التراث العربي العلمي يترجم بدوره إلى اللاتينية. وكان الأطباء قد أخذوا يتكاثرون في القيروان منذ أيام الأغالبة، فتكاثروا بصقلية بمجاعة لأختها القيروان واطرد ذلك في القرون التالية، وما يبل عليه الفصل الذي عقده ابن مكي في كتابه: «تقنيف اللسان» لبيان أغلاط الأطباء في صقلية، واشتهرت في القرن الرابع الهجري بأنها بيئة فلسفية، مما جعل سعيد بن فرحون التجيبي الملقب بلقب الحمار السرقسطي يلجأ إليها حين أصابته محنة أيام المنصور بن أبي عامر في أواخر هذا القرن كما يقول صاعد في كتابه طبقات الأمم وظل بها إلى وفاته، وكان يحسن الفلسفة والموسيقى جميعاً وله في علوم الفلسفة رسالة بديعة سماها شجرة الحكمة. وبجانب فلاسفة أو متفلسفة صقلية كان هناك مهندسون ورياضيون من مثل العالم الرياضي عبد العزيز المافري وله ترجمة في الخريدة، وتؤكد القصور الباذخة في بلرم التي تفتى بها شعراء صقلية واصفين فخامتها وزخارفها وحدائقها النظرة وفواراتها البديعة مهارة مهندسيها البارعين، ويهرت قصور بلرم وغيرها من مدن صقلية فون شاك بفسيفسائها ورخامها وأبوابها وغرفها ونقوشها، وظل يدرسها سنوات طوالاً كما مر بنا في غير هذا الموضع وسجل ما بهره من مشاهدتها في كتابه الفن العربي في إسبانيا وصقلية.

وتنشط صقلية الإسلامية في الدراسات اللغوية والنحوية، وتعد في تلك الدراسات روافد من الخارج، فقد نزلها موسى بن أصبغ المرادي القرطبي الذي رحل في طلب التعمق في اللغة إلى المشرق، ودخل العراق وتلمذ لعلمائه اللغويين وخاصة ابن دريد صاحب معجم الجهمرة، ولم يعد إلى وطنه وإنما عاد إلى صقلية واتخذها موطناً له كما يقول السيوطي في البنية، وتلاه صاعد اللغوي الأندلسي المشهور بكثرة تلاميذه الأندلسيين رحل إليها في أوائل الفتنة التي نشبت بقرطبة سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢م ورجع إلى الأندلس ولم يلبث أن عاد إلى صقلية وتوفى بها سنة ٤١٠ هـ/١٠١٩م كما ذكر القفطي في إنهاء الرواة. ومن علمائها في اللغة والنحو علي بن

حبيب اللغوى الصقل أحد رجال اللغة المعدودين والعلماء بها المبرزين، ومنهم طاهر بن محمد الرقباني الصقل اللغوى، ويقول القفطى عنه: لم يكن في زمانه أعلم منه بلغة العرب وكلامها، ونثرها ونظامها، وقصدته العلماء من كل مكان فلقوا منه بحرا غيظرا (واسعا) وعلى شاكلته ابنه على بن طاهر الرقباني، وكان حافظا للغة وأيام العرب، جامعا لأدوات الأدب. وما نلبث في القرن الخامس أن نلتقى قبل الغزو النورمانى بعلم كبير من أعلام اللغة والنحو تكونت له بها مدرسة لغوية كبيرة هو محمد بن على بن الحسين بن البر التميمي، ولد بصقلية في أواخر القرن الرابع الهجرى، حتى إذا أخذ ما لدى شيوخها من اللغة والنحو رحل عنها إلى المشرق للتزود منها، وألقى عصاه بالقاهرة، وتعلمذ فيها ليوسف النجيرمى المتوفى سنة ٤٢٣هـ/١٠٣١م وهو أهم من روى عنه المصريون كتب اللغة ودواوين الشعراء، يقول ابن خلكان: «أكثر ما تُروى الكتب القديمة في اللغة والأشعار العربية وأيام العرب في الديار المصرية من طريقه» وكان ما يزال يراجع الروايات المختلفة للكتاب أو للديوان ويقابل بينها حتى يخرجها في أوثق صورة ممكنة، وبجانب الدواوين التى أخذها عن النجيرمى وفى مقدمتها ديوان ذى الرمة أخذ فى القاهرة عن صالح بن رشدين ديوان المتنبى الذى سمعه مباشرة من المتنبى وشرحه له، وأخذ أيضا فى القاهرة عن ابن بابشاذ مقدمته المشهورة فى النحو، وعاد إلى موطنه، واتخذ مدينة مازر مقاما له، وأكرمه صاحبها ابن متكود وقرّبه منه، وتحول إلى مدينة بلرم سنة ٤٥٠ واتسعت شهرته وجاءه الطلاب من كل فج صقليين وغير صقليين، ومن الصقليين على بن جعفر السعدى المعروف بابن القطاع وسنعود إلى الحديث عنه فى أيام النورمان، ومن تلاميذه غير الصقليين عبد الله بن إبراهيم الصيرفى ومنه سمع ديوان المتنبى سنة ٤٥٩، ومنهم عبد المنعم بن من الله القروى المعروف بابن الكماد وقد أُلْمِنَا به فى كتابنا عن الأندلس وردّه المفعم على رسالة ابن غرسية، وجرى بنا أن نذكر أن من تلاميذه الصقليين عمر بن خلف المشهور باسم ابن مكى الصقلى مصنف كتاب تثقيف اللسان الذى سجل فيه الأغلاط التى سمعها من أفواه العلماء وغيرهم ونراه يقول فى مقدمته إنه عرضه على أستاذه ابن البر «الإمام الأوحى والعلم الفرد، فأثبت ما عرفه وارضاء، وبما أنكره وأباه». وقد وُزِعَ ابن مكى كتابه على خمسين بابا تحدث فيها عن التصحيح والتبديل والزيادة والنقص فى الأسماء وكذلك الزيادة والنقص فى الأفعال وتأنيت المذكر، وتذكير المؤنث إلى غير ذلك من صور الغلط على ألسنة الخاصة والعامة، وأضاف إلى ذلك فصولا طريفة عن أخطاء القراء والمحدثين والفقهاء والأطباء. والكتاب يدل على أنه كان فى صقلية حينئذ حركة لغوية خصبة بشها ابن البر فى تلاميذه كى يخلصوا الألسنة من أغلاطها وخاصة ألسنة العلماء. وما توفى سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م حتى يبارح ابن البر صقلية إلى الأندلس، ويبارحها تلميذه ابن مكى إلى تونس، ويقول العماد الأصهباني عنه فى ترجمته بالخريدة: «ولى قضاء تونس وهو فقيه محدث خطيب لغوى، وفضله بالألسنة فى جميع الأمكنة

مأثور مروي، وله خطب لا تقصّر عن خطب ابن نباتة». وابن نباتة أكبر خطيب أنتجه المشرق، وكان خطيب سيف الدولة في حربه لبيزنطة. ولعل في هذه الشهادة لخطيب من صقلية ما يدعو محو ما زعمه ابن حوقل عن خطيب شاهده يلزم يوم الجمعة الأساء مع الوصل ويحجّر الأفعال من أول خطبته إلى آخرها، وليس في المستمعين له من مسلمي بلرم من يعترض عليه، مع أنه ظل يخطبهم نحو عامين! وذكرنا - فيها أسلفنا - أنه كان مغرضا في كل ما وصف به صقلية لأنها كانت ترفض المذهب الشيعي الإسماعيلي مذهب الدولة الفاطمية، فإتهاماته لها ولخطبانها إتهامات زائفة، وسنراها تنتج في مجال الدراسات الدينية والأدب شعرا ونثرا ما يؤكد بطلان إتهاماته.

ويدل ما قدمنا على أنه وصلت الشباب الصقل مجموعة القيمة للثعالبي وديوان ذي الرمة وغيره من شعراء الجاهلية والإسلام، كما وصلتهم دواوين عباسية مختلفة لأبي تمام وابن الرومي والمتنبي وأضرابهم، ولا بد أن وصلهم كتاب البيان والتبيين للجاحظ وما به من خطب وبمجموعة زهر الآداب للحصري، وما من شك في أن أكثر مجاميع الأدب المؤلفة في المشرق وصلتهم ومر بنا أن ابن البر كان يروي بين ما يروي من الكتب والدواوين كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، وكل ذلك كان له تأثيره في نشوء ذوق أدبي عام في صقلية بين الشباب والشيوخ، ولا بد أن اطلعوا على بعض الكتابات البلاغية والنقدية في المشرق بدليل استخدام شعرائهم وكتّابهم لمحسنات البديع، وبدليل ما في أشعارهم من عنوبة وسلاسة، وكان حظ الشباب في صقلية عظيما إذ نزل ابن رشيق في أواخر أيامه بآزرو واتخذها مقاما له إلى وفاته سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ م وظل هناك سنوات يدرس للطلاب كتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده ويعد من أروع كتب الأسلاف في النقد وفي بيان المحسنات البلاغية إن لم يكن أروعها كما يقول ابن خلدون، وقرأه عليه ابن متكود وإلى مازر بشهادة نسخة من الكتاب وقعت للقفاطى كما يقول في ترجمته بكتابه إنهاء الرواة وأخذ الطلاب في صقلية بآزرو وغير مازر يتدارسونه في حياته وبعد وفاته، ومعنى ذلك أن صقلية أتيح لها من المختارات الشعرية والنثرية ما أتاح لأدبائها ملكات أدبية خصبة كما أتيح لها من كتب البلاغة والنقد، وفي مقدمتها كتاب العمدة ما أتاح لأدبائها جمال الصياغة ودقة الذوق الأدبي ورهافته.

وإذا تركنا الدراسات النقدية واللغوية في صقلية الإسلامية إلى الدراسات الدينية وجدنا من كبار قرائها في القرن الرابع الهجري محمد بن خراسان كما في طبقات القراء لابن الجزري، طلب العلم بمصر وفيها درس القراءات والحديث النبوي وتلمذ لأبي جعفر النحاس وكتب عنه مصنفاته وقرأها عليه وكان بينها كتابه إعراب القرآن، وظل مقرنا متصدرا بصقلية إلى أن توفي سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦ م وقد بلغ ستا وتسعين، ومن روى القراءة عنه يوسف بن حبيب وغيلان بن

تجيم، وطبيعى أن تزدهر قراءة القرآن في صقلية مثلها في ذلك مثل جميع البلاد الإسلامية، وكانت
 مثل تونس والبلاد المغربية - تقرأ بقرأة ورش المصرى عن نافع وعادة يوصف المقرئ بأنه
 مفسر للقرآن مما يدل على أن المقرئين للذكر الحكيم في صقلية كانوا كثيراً ما يعنون بتفسيره
 حتى تفهم الناشئة ما تحفظه منه، ونجد حَمَلُ محمد بن خراسان المار أنفاً للكتاب إعراب القرآن
 للنحاس يحدث في صقلية نشاطاً في هذا الموضوع فإذا أبو طاهر إسماعيل بن خلف الصقل
 المتوفى سنة ٤٥٥ هـ/١٠٦٣م يؤلف كتاباً في إعراب القرآن كان في تسع مجلدات، وستترجم -
 فيها بعد - لابن ظفر الصقلى وله في التفسير ثلاثة كتب.

وعلى نحو ما كان إقراء الذكر الحكيم وإعراجه وتفسيره ناشطاً في صقلية كانت - بالمثل -
 رواية الحديث النبوى، إذ كان حُفَاطُه النابهون كثيرين من مثل أبى بكر الحصارى، ومن أهم
 حفاظها عتيق السمطارى وقد نوه به ياقوت في الحديث عن بلدته «سمطار» في كتابه «معجم
 البلدان» وكان قد لزم حلقات الشيوخ في بلرم حتى أخذ ما عندهم، وارتحل إلى لقاء الشيوخ
 ونزل مدينة الرسول ﷺ، واتسع في رحلته فأخذ عن شيوخ اليمن وفارس وخراسان والشام
 ومصر، وكان يلقى في تلك البلدان بجانب شيوخ الحديث وحفاظه العبَّاد والنسَّاك ويكتب
 ما يسمعه من الفُتَّين، وصنف كل ما جمعه عنهم، كما صنف في الفقه تأليفاً كان في غاية الترتيب
 والبيان، وكان يدرس لتلاميذه في صقلية الحديث النبوى وكتاب الموطأ في الفقه المالكى، وتوفى
 سنة ٤٦٤ هـ/١٠٧١م حين احتل روجَّار الأول ملك النورمان بلرم.

وأكثر فقهاء المالكية بصقلية كانوا محدِّثين لأن الموطأ مالك كتاب فقه وحديث وكان نشاط
 الفقه بصقلية واسعاً جداً، وهياً لذلك أن كان قضاة صقلية - منذ أول الأمر - يحاضرون الناس
 في الفقه المالكى عمدتهم في القضاء يتقدمهم في ذلك سالم بن سليمان الكتندى الذى ولى القضاء
 في صقلية سنة ٢٨١ هـ/٨٩٤م وقد عمل بكل جهده على نشر مذهب مالك في صقلية كما في
 كتاب رياض النفوس، ونزلها تلميذ من كبار تلامذة الإمام ابن أبى زيد فقيه القيروان المتوفى
 سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦م هو البراذعى خلف بن أبى القاسم وكان زملاؤه من فقهاء القيروان
 يزورون عنه، فلم تحصل له بها رئاسة، فرحل إلى صقلية، وقصد أميرها في بلرم، فحصلت له
 عنده مكانة طيبة، وعنده ألف كتابه التهذيب في اختصار مدونة سحنون في الفقه المالكى يقول
 ابن فرحون وعليه معمول الناس في صقلية والمغرب والأندلس، وطاروت شهرته في العالم
 الإسلامى وكتبت له شروح مختلفة، وألف بصقلية أيضاً كتاباً في التمهيد لمسائل المدونة وكتاب
 الشرح والتتمات لمسائل المدونة، وله أيضاً اختصار الواضحة من كتب الفقه المالكى يقول ابن
 فرحون: وعليه اعتماد طلبة العلم للمذاكرة وكان ابن أبى زيد قد جمع ما في الأسمات من
 المسائل والخلاف والأقوال في كتابه التوارد فتقل البراذعى معظمه في كتابه على المدونة. ويبدو
 أنه توفى بصقلية في أوائل القرن الخامس الهجرى.

ومن فقهاء صقلية بعده محمد بن يونس التميمي من مدينة مازر المتوفى سنة ٤٥١ وقد لقب بالإمام الأكبر لتبحره في الفقه المالكي وجاءه الناس للفتوى، وله مؤلف جيد في مسائل كتاب الموطأ للإمام مالك، وله إضافات مفيدة وتعليقات علمية جيدة على مدونة سحنون. وكان يعاصره عبد الحق بن محمد القرشي الصقلي، لزم حلقات الشيوخ في بلده حتى ارتوى منها، ورحل للحج ولقاء الشيوخ والفقهاء الكبار والتقى بأبي ذر الهروي شيخ المالكية في هراة وبالقاضي عبد الوهاب المالكي شيخهم في العراق كما التقى في حجة ثانية بإمام الحرمين الجويني وسأله عن مسائل أجابه عنها وسجل ذلك في أحد كتبه، وكان يدرس لطلابه في بلرم مدونة سحنون التي جمعت أصول المذهب المالكي، يقول ابن فرحون أيضا عنه: «كان مليح التأليف، ومن مؤلفاته كتابه «النكت والفروق لمسائل المدونة» ويقول ابن فرحون أيضا إنه «عاد إليه بالتغيير والتبديل ورجع عن كثير من اختياراته وتعليقاته» وله كتاب في الفقه المالكي كبير باسم «تهذيب الطالب» وله استدراك على تهذيب المدونة للبراذعي وله كتاب في بسط ألفاظ المدونة، وكان أعماله الفقهية انحصرت في خدمة مدونة سحنون. وحاز شهرة كبيرة في حياته وكان كثير الارتحال، فدرس عليه في القيروان - كما في الصلة لابن بشكوال - ابن الخياط ومحمد بن نعمة الأسدي، ودرس عليه في صقلية من الأندلسيين أبو بكر بن الحصار، وهاجر إلى الأندلس من تلامذته الصقليين - ثابت الفقيه الصقلي، وتوفي بالاسكندرية سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م ويبدو أنه رحل عن بلرم بمجرد استيلاء روجار الأول ملك النورمان عليها سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م.

٤

الثقافة^(١) في العهد النورماني

دخل النورمان صقلية والحركة العلمية بها مزدهرة، وهالهم ما رأوا فيها من حضارة ومدنية إسلاميتين، وشعروا بوضوح أنهم في حاجة، بل في أشد الحاجة إلى أن يجلسوا من سكانها العرب مجلس التلازمة من أسانذتهم في الزراعة والصناعة والتجارة وفي الثقافة والعلوم والفنون المختلفة، ودفع روجار الأول ابنه روجار الثاني إلى تعلم العربية وإلى الإكباب على علومها وفنونها، وبالمثل دفع روجار الثاني ابنه غيلوم الأول إلى التزود من هذه العلوم والفنون ما وسعه

والقسم الثالث من وثقات عن الحضارة في إفريقيا التونسية، والعلم عند العرب لألدوميل ترجمة الدكتور عبدالملم التجار، والمغرب في صقلية للدكتور إحسان عباس.

(١) انظر في الثقافة بالعهد النورماني نزعة المشتاق في اختراق الأفاق للإدرسي ورحلة ابن جبير، وخطط القرينزي، والغريدة للصاد الإصبهاني، وإنهاء الرواة للفضلي، وطبقات القراء لابن الجزري، وابن خلكان، ومقدمة ابن خلدون.

التزود وحث بدوره ابنه غليوم الثاني على استيعابها ما أمكنه. ويحدثنا الإدرسي في فوائحه كتابه «نزهة المشتاق» عن مدى ما أحرز روجار الثاني من هذه الفنون والعلوم قائلا: «أما معرفته بالعلوم الرياضية والعمليات فلا تترك بعده، ولا تُحصَرُ بعده، لكونه قد أخذ بكل فن منها بالحظ الأوفر، وضرب فيه بالقُدْح المملئ» ويقول ابن جبير - كما مر بنا - عن غليوم الثاني: «له الأطباء المنجمون، وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى إنه متى ذكر له طبيب أو منجم اجتاز ببلده أمر يماسكه، وأدر له أرزاق معيشته، حتى يسليه عن وطنه. وأحسن روجار الأول - منذ أول الأمر - بالحاجة إلى ترجمة الكنوز العلمية النفيسة من العربية إلى اللاتينية، حتى يحوز النورمان لأنفسهم هذه الثروات العلمية، ولم يلبث أن أتاح له ذلك نصراني يسمى قسطنطين الإفريقي ولد بمدينة قرطاجة التونسية سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م وثقف العربية وأتقنها، واختلف في القيروان إلى أصحاب علوم الأوائل في الطب والرياضة والفلك، ورحل إلى القاهرة وفيها استكمل معرفته بالعلوم المذكورة، وعاد إلى بلده: قرطاجة وتركها إلى صقلية في عهد روجار الأول وعرف منه حاجته إلى ترجمة كل ما كتبه العرب عن الطب، فرجع إلى القيروان، وجمع منها أنفس ما كتبه أطباؤها العظام، وعاد إلى روجار الأول يشره بأنه اصطفى له أفضل وأنفس ما لأطباء القيروان والعرب عامة من كتب طبية وغير طبية، فأسس له دهر جبل كاسينو بالقرب من مدينة سالرنو في جنوبي إيطاليا فتولى رياسته وأخذ يُفَرِّق رهبانه بتعلم العربية حتى إذا تعلموها أغراهم بترجمة مصنفاتها الرياضية والفلكية والطبية إلى اللاتينية، ودرّس ما ترجموه في كلية سالرنو ومنها نقل إلى الجامعات الأوربية، وبما يدل على ذلك أبلغ الدلالة في المجال الطبي أن نجد فردريك الثاني ملك صقلية وإمبراطور ألمانيا يسنّ لائحة خاصة لمزاولة العمل الطبي في مملكته يفرض فيها على كل طبيب يعمل بها أن يحصل على إجازة الطب من كلية سالرنو، وكان ذلك قبيل عصر النهضة الأوربية، فكان له تأثير بالغ فيها. ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في القسم الأول من كتابه: «ورقات عن الحضارة العربية في إفريقية التونسية»: «جدير بالملاحظة أن جُل ما ترجمه قسطنطين من الكتب العربية إلى اللاتينية أو حاول تقليده والوضع على غرارهِ إنما كان مستمدا من مصنفات أطباء قيروانيين مثل إسحق بن عمران وأحمد بن الجزار، كما أنه اعتمد في الفلك وعلم الهيئة على كتاب البارغ في الفلك والنجوم لعل بن أبي الرجال القيرواني». وكل ذلك كان يصب في صقلية أخت القيروان، ويبدو أنها اشتهرت في الفلك والهندسة بعلماء ومهندسين أفذاذ، يدل على ذلك - من بعض الوجوه - أننا نجد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمره (٣٨٦هـ/٩٩٦م - ٤١١هـ/١٠٢٠م) حين ينشئ مرصده في القاهرة يرسل إلى صقلية، في طلب حدائقها في الهندسة والتنجيم، ويوافيه أبو محمد عبد الكريم المهندس الصقلي، ويتوقف العماد الأصهباني في القسم الخاص بصقلية ليقول عن هذا الشاعر أو ذاك إنه رياضي أو منجم فلكي أو مهندس

مثل عبد العزيز المعافى وكان من علماء الرياضيات ومثل ابن القرنى وكان منجبا حاسبا، ومثل محمد بن عيسى الفقيه وكان مهندسا منجبا وشاعرا بارعا.

ومعروف أن روجار الثانى ملك صقلية النورمانى استدعى الشريف الإدريسى إلى «بلرم» عاصمته، وطلب إليه أن يؤلف له كتابا فى الجغرافيا، فألف له كتابه الرائع: «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» وهو أكمل كتاب جغرافى ألفه العرب، وظل عند الأوربيين أهم مرجع فى علم الجغرافيا إلى القرن السادس عشر، وقد أتم الإدريسى تأليفه سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م وترجمت قطع كبيرة منه إلى مختلف لغات العالم. وطلب منه روجار الثانى خريطة للعالم فنقشها على كرة من الفضة وزن ثمانمائة أوقية، ورسم عليها جميع الأقاليم التى كانت معروفة لعصره، وهما عملان باهران من أعمال البقرية العربية. وكان حريا بالإدريسى أن يقدمها إلى حاكم عربى فى عصره لا لحاكم نورمانى نهب هو وأبوه صقلية العربية وقد وجه إلى المهدية بالإقليم التونسى اسطولا مكونا من ثلاثمائة سفينة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م واستولى عليها وظل بها اثنى عشر عاما حتى خلصها عبد المؤمن سلطان الموحدين. وظل الإدريسى فى بلرم أيام غليوم الأول وله ألف كتابا سماه «روض الأنس ونزهة النفس». وقد وضع فيه الإدريسى - كما يقول الدومبيل - خرائط أصغر سعة ومقياسا، وخرائطه جميعا تقوم على تحديد درجات الطول والعرض، ويقال إنه توفى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م والمظنون أنه قتل فى ثورة للنورمان حينئذ على العرب فى بلرم.

ويلقانا فى العهد النورمانى غير عالم لغوى ونحوى، ومن نحائنا ولغوييها الذين ظلوا بها ولم يبرحوها على بن بشرى اللغوى الصقلى ويقول القفطى: «كان فى النظم والنثر سابقا لا يجارى، وفى اللغة والإعراب لا يبارى» ومنهم عمر بن حسن النحوى الصقلى يقول القفطى: «شيخ فى اللغة والنحو طويل الباع فيها، أخذنا رؤيا عنه تصدر لإفاده بلرم» ومنهم محمد بن زيد الطرطائى الصقلى «أخذ من كل العلوم بالمحظ الواقى، متقدم فى علم الأوزان والقوافى». ومن بارحوا صقلية - فى العهد النورمانى من كبار اللغويين والنحاة على بن عبد الرحمن الصقلى المروضى، يقول عنه القفطى: «نزىل الإسكندرية عالم بعلمى النحو والعروض قيم بها. بليغ فيها، مشارك فى جميع الأنواع الأدبية، متصدر لإفادة الطلاب». ومنهم ابن القطاع على بن جعفر التميمى المولود سنة ٤٣٣هـ/١٠٤٧م تلميذ ابن البر، وكان مثل أستاذه عالما لغويا كبيرا، ومازال بصقلية يدرس ويؤلف لطلابه حتى إذا كانت سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م انتقل إلى مصر فاحتضى به أهلها، وتصدر للتدريس والإفادة إلى أن توفى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م ومن تصانيفه كتاب تهذيب أعمال ابن القوطية فى اللغة وهو خير من كتاب ابن القوطية وكتاب أبنية الأسماء يقول ابن خلكان جمع فيه فأوعى. وكان كتاب الصحاح للجوهري بمصر - كما يقول القفطى - لا يروى إلا عن طريقه عن ابن البر، وكان له كتاب نفيس فى

شعراء صقلية سماه: «الذرة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة» وفي دار الكتب المصرية مختصر له، ونقل عنه العماد الأصهباني في الحريدة: قسم صقلية طائفة كبيرة من شعرائها البارعين. ومن هؤلاء النازحين عن صقلية في العهد النورمانى على بن ابراهيم النحوى الصقلى المعروف بابن المعلم، كان مجيدا للغة والنحو وتصدر للإفادة فيها، بارح صقلية واستوطن مصر إلى أن توفي بها سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م. ومنهم عثمان بن على السرقوسى الصقلى النحوى، كان عالما نحويا مقرنا للقرآن الكريم، وله حاشية على كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى، وكانت له في جامع القسطنطين حلقة للإقراء وانتفع به الناس ونقلوا كلامه وكتبوا تصانيفه، وله مختصر كتاب العمدة لابن رشيق زاد به أبوابا أحل بها مؤلفه وهى واقعة موقعا جيدا من التصنيف. وحقا كان النشاط العلمى لهؤلاء النحاة واللغويين الصقليين خارج جزيرتهم، ولكن ذكرتهم لأدل على مدى ما حدث بالحركة العلمية في صقلية من خمود وقف ما كان ينتظر لها من ازدهار عظيم بسبب استيلاء النورمان عليها.

وإذا انتقلنا إلى الحركة الدينية وبدأنا بالقراءات القرآنية وجدنا لصقلية إماما كبيرا من أئمتها هو عبد الرحمن بن عتيق المقرئ المعروف بابن الفحام المولود بسرقوسة سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م وقد رحل من صقلية إلى مصر سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م في طلب القراءة القرآنية على أئمتها المصريين وظل يأخذها عنهم حتى سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م ومن شيوخه فيها ابن نفيس تلميذ عبد المنعم بن غلبون شيخ القراءات بمصر، وتلمذ لابن بابشاذ وأمل عليه شرح مقدمته المشهورة في النحو، وعاد إلى بلده، ولم يلبث أن نزلها النورمان فإرحها إلى الإسكندرية واتخذها موطنًا له، وكان من أعلم القراء بالقراءات ووجوهها، ولم يلبث أن أصبح شيخ القراء بالاسكندرية علما ودراية، وألف فيها كتابه «التجريد في بغية المريد» وبها توفي سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م.

وكان كثير من القراء لا يزالون يلقون على طلاب صقلية دروسا في التفسير، ويلقانا في منتصف القرن السادس الهجرى مفسر صقل كبير هو ابن ظفر وهاجر منها إلى الشام واسترجم له في حديثنا عن النثر الصقلى، وتظل رواية الحديث النبوى ناشطة في العهد النورمانى، ويلقانا فيه إمام من أئمته، هو المحافظ محمد بن على بن عمر التميمى المعروف باسم المازرى نسبة إلى مسقط رأسه في مدينة مازر بصقلية، وقد لزم حلقات شيوخها حتى اكتمل مرماه العلمى، وهاجر منها إلى الإقليم التونسى، وتولى القضاء في القيروان ثم في المهديّة، وبها ألقى عصاه إلى أن توفي سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م عن ثلاث وثمانين سنة ودُفن برباط المستير وفيه يقول ابن خلكان هو أحد الأعلام المشار إليهم في حفظ الحديث، ويقول المقرئ في أزهار الرياض ناعنا له: «الإمام المجتهد أبو عبد الله المازرى عمدة النظار، ومحور الأمصار، المشهور

في الآفاق والأقطار حتى عُذَّ في المذهب المالكي إماماً». وله في الحديث النبوي شرح جيد على صحيح مسلم سماه كتاب «المعلم بفوائد مسلم» وفيه يقول ابن خلدون في المقدمة: «أما صحيح مسلم ففكرت عناية علماء المغرب به.. وأملى الإمام المازري من كبار فقهاء المالكية عليه شرحاً سماه المعلم بفوائد مسلم اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه. وكان العلماء في عصره يتسابقون إلى أخذ الإجازة عنه برواية هذا الشرح وبقية كتبه، ومنهم القاضي عياض الإمام المشهور وقد بنى على شرحه لصحيح مسلم شرحاً سماه «إكمال المعلم بفوائد مسلم». وللمازري بجانب هذا الشرح مصنفات في الفقه المالكي وعلم الأصول، من ذلك شرحه لكتاب التلقين للقاضي المالكي عبد الوهاب ويقال إنه ليس للمالكية كتاب مثل شرح كتاب هذا القاضي وشرح البرهان في الأصول لإمام الحرمين الجويني. وهو بحق يعد خاتمة الفقهاء والمحدثين بصقلية.

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

نشاط الشعر

كانت صقلية جنةً من جنان العالم الإسلامي بما كانت تحمل فوق حقولها من رداء القمح الذهبى ورياءات الكروم والبرتقال ومزارع القطن الزمردية وبساتين النخيل والموز والفواكه والزهور الأرجة، والحلج الكريمة، ومعادن الذهب والفضة والكبريت والنحاس ومصانع الأقمشة والحريز المزركش. لقد كانت حديقة كبيرة فى البحر المتوسط لم يحسن الخلفاء العبيديون بعد الدولة الأغلبية القيام عليها فضلاً عما تبعا من شبه جزيرة قَلُورِيَّة فى إيطاليا.

وطبيعى أن يتفق بهذه الحديقة الفاتنة كثير من الشعراء، ونلاحظ أن هذا التفقى تأخر نحو قرن فقد تأخر طوال حكم الدولة الأغلبية، إذ كانت فى صراع مستمر مع كثير من المدن والحصون، ومع ذلك مدّت ذراعها إلى جنوبي إيطاليا واستولت على قَلُورِيَّة. وتستولى الدولة العبيدية على مقاليد الأمور بإفريقية التونسية وتغمد حركة الفتوح فى الجزيرة وكأنها لم تكن تمنعها فى قليل ولا كثير، حتى إذا تركت شئونها السياسية والإدارية إلى بنى أبى الحسين الكلبيين أخذت الجزيرة تشعر معهم بشيء من الاستقلال، كما أخذت تشعر بشيء من شخصيتها، وعادت لها الحماسة الإسلامية، وأخذت هذه الدولة تعنى بفتح ما تبقى من البلدان والحصون فى صقلية وفى قَلُورِيَّة.

وتزدهر الحركة الشعرية فى صقلية لمهد هذه الدولة، وخير كتاب كنا نطلع منه على هذا الازدهار لو أنه لم يسقط من يد الزمن هو كتاب «الدرة الخظيرة فى المختار من شعراء الجزيرة» لابن القطاع على بن جعفر السعدى الذى توفى بمصر سنة ٥١٥هـ/١١٢١م، فقد كان يشتمل على مائة وسبعين شاعراً، وكأنه أراد أن ينافس بكتابه كتاب الأغودج لابن رشيق الذى اشتمل على مائة شاعر فحسب، صور بهم الحركة الأدبية فى إفريقية التونسية، ولو أن كتاب ابن القطاع وصلنا لاستبانَت الحركة الشعرية بصقلية الإسلامية تمام الاستبانة إذ قصره على تلك الحركة وحدها، ولم يدخل عليه أحداً من العصر النورمانى. وفى المكتبة التيمورية مختصر للكتاب اختيار أبى إسحق بن أغلب، قال فى مقدمته له إنه ذكر فيه سبعة وستين شاعراً فقط،

ولا يوضع على أى أساس اختار من اختار وأهل من أهل، والنسخة بها نقص فى تضاعفها وفى آخرها، بحيث لم يبق فيها سوى ٤٣ شاعرا، وحُفَّتْ ما وضعه ابن القطاع مع الشاعر من مقدمات كانت حرية أن تفيد الباحثين فى دراستهم لشعراء صقلية الإسلامية فى عصر الكليبيين. وهناك اختيار ثان لعلى بن منجب الصيرفى المصرى المتوفى سنة ٥٤٢ للهجرة من كتاب الدرة الخطيرة ضمنه تسعة عشر شاعرا، وهو منشور فى عنوان الأريب المطبوع بتونس للشيخ الجليل محمد النيفر التونسى. وبجانب اختيارات ابن منجب الصيرفى وأبى إسحق بن أغلب من الدرة الخطيرة تلقانا اختيارات العماد الأصهبانى منها فى كتابه الحريدة، وبلغ ما اختاره منها ٤٤ شاعرا مجموعة فى الجزء الأول المنشور وبمدها فى نفس الجزء شاعر من الدرة الخطيرة ص ٣٢٧ من طبعة تونس ثم شاعران آخران ص ٣٣٥، ٣٣٦ وربما كانا أيضا من شعراء الدرة. ويبدأ العماد الحديث عن شعراء الحريدة بشاعر يقول إن أبا الصلت أمة بن أبى الصلت الأندلسى سماه فى رسالته المصرية، البُلْتُوبى أبا الحسن على بن عبد الرحمن بن أبى البشر الكاتب الصقلى الأنصارى، ويفيض فى ذكر غزلياته، ثم ينقل عن ابن بشرى المهدوى من كتابه المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر أحد عشر شاعرا كلهم من العصر النورمانى، ويضيف إليهم فى ص ٢٧٣ ترجمة لأبى الضوء سراج بن أحمد بن رجاه الكاتب اعتمد فيها على كتاب ابن بشرى فيكون مجموع ما ساقه عن ابن بشرى اثنى عشر شاعرا من العصر النورمانى، وبذلك يبلغ من ذكرهم العماد فى الحريدة من شعراء صقلية نحو ستين شاعرا وإذا حاولنا أن نرصد بينهم أول من له صلة بالولاة الكليبيين لقينا القاسم بن نزار الكلبى يعاتب ابن عمه الأمير أحمد بن الحسن بن أبى الحسين الكلبى (٣٥٤-٣٥٨هـ) على جفائه له وهو عتاب فيه مرارة شديدة إذ يقول^(١):

| | |
|---------------------------------|--------------------------------------|
| إِنِّى مَتَى يَجْفُو الْحَبِيبُ | حُبٌّ وَصَلَتْ جَفَوْتُهُ بَيِّنِ |
| وَمَنْعْتُ عَيْنِي أَنْ تَرَا | هُ وَلَوْ رَأَتْهُ فَقَاتُ عَيْنِي |
| وَوَضَعْتُهُ دُونَ الْحَضْبِ | حُضْ لَوْ أَنَّهُ فِى الْفَرْقَدِينَ |
| وَقَطَعْتُهُ لَوْ كَانَ يُشْ | بُهُ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحُسَيْنِ |

وأكبر الظن أن الأمير أحمد بن الحسن بن أبى الحسين لم يكن قطا فقد كان قائد أسطول صقلية قبل توليه زمام الأمور بها، وكان يتعامل مع الناس تعاملًا كريما، ونرى المعز يستقدمه إلى المهديّة، ويوليه قيادة أساطيل الدواة، ويولى مكانه أخاه على بن الحسن (٣٥٩ - ٣٧٢ هـ)

(١) الحريدة للعماد الأصهبانى (طبع تونس)

ومن مادحيه سهل بن مهران، وعُرف بأنه كان ممن يطيلون فيجيدون. وولى - بعد على - صقلية جعفر بن محمد فحسنت به الأحوال واستقامت الأمور إلى أن توفي سنة ٣٧٥ وخلفه أخوه عبد الله ولم تطل مدته إذ توفي بعد عامين، وولى بعده ابنه يوسف، وكان عادلاً حسن السيرة فأحبه الناس ولقبه الخليفة الفاطمي بلقب ثقة الدولة وعمّ الرخاء والأمن في أنحاء الجزيرة وفي عهده وصل حكم الكلبين فيها إلى القمة المبتغاة من المجد والعزة، ووفد عليه الشعراء من إفريقية التونسية ومن الجزائر يمدحونه وفي مقدمتهم محمد بن عبدون السوسى الذى ترجمنا له بين شعراء تونس وأطلسنا في بيان صلته بثقة الدولة وابنه جعفر، وعلى شاكلته شاعر الجزائر أبو محمد عبد الله بن محمد التتوخى المعروف بابن قاضى ميلة، وله في ثقة الدولة مدحة ضافية، ومن شعراء صقلية الذين دبجوا فيه المذائح الطوال ابن القرقورى وهاشم بن يونس ولهما في الخريدة مدحتان في ثقة الدولة نوها فيها بشجاعته وبأسه، وعلى شاكلتها شعر مشرف بن راشد، وإن لم يسم بمدوحه، ومن شعرائه الحسن بن محمد الطوبى، وله مدحة في المعز بن باديس، ومنهم محمد بن أحمد أبو عبد الله الصقلى صاحب ديوان الإنشاء، وله في ثقة الدولة مراثية استهلها بقوله: (حنانك ما حى على الدهر يسلم). وأخذت الولاية الصقلية تتضعف في عهد ابنه جعفر ثم في عهد أخيه أحمد الأكل، ومن شعرائها المشرف بن راشد وابن الحياط، وثار عليه الصقليون كما أسلفنا واستغاثوا بالمعز بن باديس صاحب القيروان وإفريقية التونسية، ثم عادوا فولوا عليهم صمصام الدولة وسرعان ما يثور به الصقليون وتدخل صقلية في عصر أمراء الطوائف، وأصبح لكل أمير شاعره أو شراؤه، فمحمد بن القاسم بن زيد ينحاز إلى على بن نعمة صاحب جرجنت وقصريانة، وعبد الحلیم الصقلی إلى ابن متكود في مازر وابن الحياط إلى ابن التمتة في بلرم، وتلتقى بعد ذلك بالشعراء الذين بكوا صقلية ومدنها حين سقطت في حجر النورمان من أمثال أبى محمد القاسم بن عبد الله النعمي وابن حمديس. وحرى بنا أن نتوقف الآن لتتحدث عن شعراء الشعر الصقلى موزعين على موضوعاته.

٢

شعراء المديح

ظل المديح يدبج في أمراء الأسرة الكلية طوال حكمها لصقلية، غير أن كتب المختارات لم تعرض علينا منه إلا شظايا: بيتا أو بيتين من القصيدة مع عرضها في الغالب لمقدمتها من الغزل وغير الغزل، وكانت صقلية قد أخذت تكشط بالشعراء منذ عصر ثقة الدولة يوسف بن عبد الله الكلبى (٣٧٧-٣٨٨هـ) وجاءه من يمدحونه من الجزائر وإفريقية التونسية كما أسلفنا وكثر من يمدحونه في صقلية نفسها من أبنائها الشعراء مثل أبى الفتح محمد بن الحسين بن القرقورى

الكتاب، وله يمتاز به وبما ينال من عطاياه في التخلّص إلى المدح من قصيدة^(١)؛

وماذا عليهم أن أجودَ بتالدي وأقننى طرِيفي قبل يومى وأتلف^(٢)

لهم ما اقتنوا فليخْرِصوا في أدخاره ولي كثرَ شعرٍ لا يبيدُ ويوسفُ

ويوسف هو يوسف بن عبد الله ثقة الدولة، وهو يقول لمخصومه الذين يعنفونه لتبذيره أمواله إنه لا يخشى شيئا من هذا التبذير طالما ينظم مدائحه المطولة في يوسف ويسبغ عليه عطاياه. وأكبر الظن أن ما ساقه العماد للمشرف بن راشد وهاشم بن يونس من مديح لقائد بشجاعته إنما يريدان به ثقة الدولة، وهي أبيات محدودة. ومن شعراء ثقة الدولة على بن الحسن الطوسي، وكان يلازمه ونراه بعد وفاته يعبر البحر إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية التونسية، وله يقول من مدحة رُصع بها ديوانه كما يقول العماد^(٣)؛

إليك مُعِزُّ الدين وابنَ نصيره حملتُ عقودَ المدح بعد انتخاها

وأثوابَ حمدٍ حُكَّتْ أثوابٌ وشيها على ثِقَةٍ مني بِمُطَمِّنِ ثوابها

وكان الشعراء في صقلية وإفريقية التونسية كثيرا ما يتبادلون بمدحهم، فالشاعر القيرواني يعبر البحر لمدح الوالي أو الأمير الكلبي كما عبّر محمد بن عبدون السوسي، والشاعر الصقلي يجتاز بدوره البحر ليمدح الأمير القيرواني أو الأمير المشهور في عصر أمراء الطوائف ويلقانا بأخرة من عصر الكلبيين ابن الحياط، وسنخصصه بكلمة، ونلتقي بعده بجمعفر بن الطبيب الكلبي، وكان شاعرا مجيدا، وله قصيدة بديعة يمدح بها مدافع بن رشيد الماللي أمير قابس في آخر عهد أمراء الطوائف، وله يخاطب ناقته فيها^(٤)؛

سأنزل عنك في مَرَعِي خَصِيبٍ وماءٍ باردٍ عَذْبٍ فُراتٍ

بأرضٍ مُدافِعٍ ماوى الأمانى وَقُتالِ السنين المُجْدِبَاتِ

فيحملُ عنك قَمِي فوق طَرْبٍ سَبَوِي من خيول سَاهِقَاتِ^(٥)

أَغْرُ تخاله رِيحاً أَعِيرَتْ قِوَانِمَ بِاللَّجَيْنِ مُحِبَّلاتِ^(٦)

لَقَدْ أَطْمَعَتْ في جَنُودِكَ حَتَّى سَبَّاحِ الطَّيْرِ من بعض العَفَاةِ^(٧)

وهو يقول لناقته إنه سينزل عنها في مرعى مدافع الحصيب حصن الأمانى وقتال السنين

(١) الحريدة ١٦٧/١.

(٢) تالدي: مالى القديم. طريفى: مالى الجديد.

(٣) الحريدة ٧٣/١.

(٤) الحريدة ١١٣/١.

(٥) طرف: فرس كريم.

(٦) أغر: له غرة بيضاء. قوائم محجلة: بيضاء أو

بها بعض بياض. اللجين: الفضة.

(٧) جدواك: عطائكه والعفاة: طلاب المعروف.

المجاف المجذبات، فيحمله فوق حصان سبق أغرّ قوائمه محجلة بلجين يخطف الأبهصار، ويقول له لقد أطمعت في كرمك الفياض حتى إن سباع الطير لتلزمك وتلزم جيشك لما تعرف من كرمك وفنكك المستمر بالأعداء، حتى لكأنها من طلاب النوال.

ويُطلُّ العهد النورمانى صقلية، وكان المظنون أن لا يجد الشعراء المسلمون الذين ظلوا هناك ملوك النورمان، ويبدو أنهم كانوا يفرضون على الشعراء تمجيدهم، وكانوا يضطرون إليه أحيانا لأنهم أسرى في أيديهم ويريدون أن يفكوا عن أقدامهم أغلال الأسر، على نحو ما نجد عند أبي حفص عمر بن حسن النحوى في مديحه لروجار الثانى وهو في قبضة سجنه قصيدة له وفيها يقول^(٤):

يهتَزُّ للجَدَوَى اهتزاز مَهْنَد يهتَزُّ فى كُفَيْهِ يوم جِلادِهِ
ويضيئُ فى الدِّيَجور ضوءُ جبينِهِ فتخالُ ضوءَ الشمس من حُسادِهِ

وأظنها كانت فدية لتحريره وأنه ردُّ إليه حرية. ويدل على ما نقول من أن الشعراء المسلمين كانوا يضطرون أحيانا إلى مديح روجار أن نجد شاعرا يسمى عبد الرحمن بن رمضان المالطى استنفذ معظم شعره - كما يقول ابن بشرى - في مدح روجار الإفرنجى المنولى على صقلية يسأله العودة إلى مدينة مالطة، ولا يحصل منه إلا على المفاظة^(٥). غير أننا نجد ثلاثة شعراء يشيدون لروجار الثانى بقصوره - وفي قصره: القبة والمنصورة يقول عبد الرحمن بن محمد البئرى^(٦):

وقصور منصورية حطَّ السرورُ بها مَطيَّه
أعجبُ بمنزلها الذى قد أكمل الرحمنُ زِيَه
ورياضه الأنفِ التى عادتُ بها الدنيا زَهِيَه^(٧)
وأسودُ شاذروانه تَهَيَّى مياها كوثريَه^(٨)

وهو يقول إن السرور ألقى عصا نسياره بهذه القصور لجمالها وبنوه بمكانها وما حولها من الرياض وأزهارها المطرة وحللها البهية، وما بها من الأسود التى تقيج المياه من أفواهاها في شكل بديع وكنا تؤثر له أن لا يَزْجُ باسم الرحمن ومياه الكوثر نهر الجنة في قصيدة يقدمها لملك نصرانى. وحين قدَّم قصيدته إلى ابن بشرى ليسجلها في كتابه: «المختار من النظم والنثر لأفاضل العصر» سأله أن يعارضه بقصيدة على وزنها وروَّيها فقال^(٩):

(١١) الحريدة ٤٥/١ وإنباء الرواة ٣٢٨/٤ (٤) الأنف: الجديدة.

والجندوى: العطية والمهند: السيف. (٥) الشاذرون: مقدم البيت. تهى: نصب.

(٦) الحريدة ٢١٠/٢. كوثرية: كأنها من مياه نهر الفردوس: الكوثر.

(٧) الحريدة ٢٣/١. (٨) الحريدة ٢٤/١.

لِلَّهِ مَنْصُورِيَّةٌ رَاقَتْ بِبَهْجَتِهَا الْبَهِيَّةُ
وَبَقَصَرِهَا الْحَسَنِ الْبِنَا وَالشَّكْلَ وَالْعُرْفَ الْقَلِيَّةُ
وَبَوْحِشِيهَا وَمِيَاهِهَا الْ حَزْرُ الْعُمُونِ الْكَوْثَرِيَّةُ
وَقَدْ اكْتَسَبَتْ جَنَاتُهَا مِنْ نَبَاتِهَا حُلَلًا بَهِيَّةً

ويقول العماد: اقتصرت من القصيدتين على ما أوردته، لأنها في مدح الكفار فما أنبت. ونحن بدورنا إنما اقتطفنا بعضا مما أنشده من قصيدتي الشاعرين، وقصر ثالث هو قصر الفؤارة شرقى بلرم، وقد عني روجار الثاني - فيا نظن - ببركة بجواره أمر أن يوضع فيها السمك من كل نوع وأن تحف بها الأشجار والأزهار بحيث تصبح متنزهاً بديعا وفي الفؤارة ورياضها يقول عبد الرحمن بن أبي العباس الأظراهنشي^(١):

فَؤَاوَةُ الْبَحْرَيْنِ جُمُعَتِ الْمَنَى عَيْشٌ يَطِيبُ وَمَنْظَرٌ يُسْتَمَظَّمُ
وَكَاُنْ أَغْصَانُ الرِّيَاضِ تَطَاوَلَتْ تَرْنُوْا إِلَى سَمَكِ الْمِيَاهِ وَتَبَسِّمُ
وَكَاُنْ نَازِجُ الْجَزِيرَةِ إِذْ رَفَا نَارٌ عَلَى قُضْبٍ الزَّيْرَجِدِ تُضْرَمُ
وَكَاُنَا اللَّيْمُونُ صَفْرَةً عَاشِقٍ قَدْ بَاتَ مِنَ أَلَمِ النَّوَى يَتَأَلَّمُ
وَالنَّخْلَتَانِ كَمَا شَقِيحٍ اسْتَخْلَصَا حَزْرَ الْعِدَا حِصْنًا مَنِيعًا بَيْنَهُمُ
يَا نَخْلَتِي بَحْرِي يَلْرَمُ سَقِيْمَتَا صَوَّبَ الْحَيَا بِتَوَاصِلٍ لَا يُضْرَمُ^(٢)
هَنِيْمَتَا مَرَّ الزَّمَانِ وَبَلْتَمَا كُلُّ الْأَمَانِي وَالْحَوَادِثُ نُوْمُ

والبحرين يريد بها بحر البركة وبحر خليج بلرم، وهو يشيد بالبركة وما عليها من أشجار تطاولت أغصانها بأزهارها لترسل ببسماتها إلى سمك البركة، ويتخيل النارج ناراً مضرة على قضب زيرجدية، والليمون يحيط بها وقد علا وجهه صفرة العشاق، وتسترعيه النخلتان المغروستان على حافة البركة وكأتماها بقية للعرب وصحرائهم في الجزيرة ويتخيلها كعاشقين، استخلصا لها حصنا منيعا في عنان السماء ولا يستطيع الأعداء الوصول إليه، ويستمر في الدعاء لها أن يرعاها المطر بتواصل لا ينقطع أبدا، وأن تظلها العناية على طول الزمان وكل ما تصبوان إليه، وتظل الحوادث نائمة عنها لا تتألمها أى نيل. ويبدو أن الشاعر لم يتمادى في مديح روجار كما تمادى عبد الرحمن البهري وابن بشرون المهدي، ولذلك لم يعلق عليه العماد بتعليق مماثل، ونعجب أن لا يستنكف هؤلاء الشعراء المسلمون من مديح ملوك النصارى الذين نهبوا منهم الأرض وأحالوها أنهارا من دماء أهلهم، ولكن ربما ألجأتهم إلى ذلك ضرورة من أسر أو تعذيب أو معاملة سيئة، ولن نستطيع بحال الاعتذار عن الشريف الأديبسى وذهابه إلى

روجار الثاني حين استدعاه وتأليفه له - أو إهدائه إليه - كتابه المشهور في الجغرافيا الذي مر حديثنا عنه ووضعه له خريطة العالم. وتتوقف قليلا للحديث عن ابن الخياط شاعر المديح في زمن الكليين.

ابن^(١) الخياط

شاعر من شعراء الكليين في عهدهم الأخير، ولا نعرف شيئا عن نشأته كأكثر شعراء صقلية الإسلامية، ونراه يمدح من أمرائهم الأكلل الملقب بمزيد الدولة (٤١٠ - ٤٢٧ هـ) كما يمدح أخاه صمصام الدولة (٤٢٧ - ٤٣١ هـ) وفي مدحها معا يقول:

كَلَامَا زَيْنَ أَخُوهُ بِهِ كَمَا يَزِينُ الْفَرْقَدُ الْفَرْقَدُ^(٢)
مَنْ نَرَهُ مَنفَرِدًا مِنْهَا فِي مَجْلَسٍ قَلَّتْ هُوَ السُّيُدُ

فهما فرقدان أو كوكبان لا يتميز أحدهما عن صاحبه وكل منهما عليه سياء السيادة والشرف، ونراه حين شُفيت صقلية على الأكلل في سنة ٤٢٧ يعزيه عن شغبهم بمثل قوله:

أَرَى كُلَّ شَيْءٍ لَهُ دَوْلَةٌ لِحُكْمِ التَّعَاقِبِ فِيهَا عَمَلُ
فَلَا تَفْرَحُنَّ وَلَا تَحْزَنُنَّ لَشَيْءٍ إِذَا مَا تَنَاهَى انْتَقَلَ

فالدول لا تظل لأحد، بل تتعاقب كما يتعاقب الليل والنهار والحاكم العاقل لا يحزن إن عبس له القدر، كما لا يفرح له حين يبتسم، إذ لا شيء من عبوسه ولا من ابتسامه باقٍ، بل الكل إلى زوال. ونراه يتعلق بمدح قائد من قواد الدولة كانت لقبته بقلب انتصار الدولة، ويصور شجاعته وبأسه في الحروب منشدا:

وَيَارِبِ يَوْمٍ لَهُ يَسْمَرُ إِذَا خَمَدَتْ نَارُهُ أَوْقَدًا^(٣)
تَخَافُ بِهِ الرَّجُلُ مِنْ أَخْتِهَا وَلَا تَأْمَنُ الْيَدُ فِيهِ الْيَدَا
تَرَى السَّيْفَ عُرْيَانًا مِنْ غِمَمِهِ وَتَحْسِبُهُ مِنْ دَمٍ مُغَمَّدَا

فهو مسر حرب يوقدها كلما خمدت أو خبت، ويكاد الخوف والفرح يخنقان محاربه حتى لتتخوف الرجل من أختها واليد من شقيقتها لما يأخذ الناس من الهول، وترى السيف عرياناً من غممه وترى اليد من أختها.

(١) انظر في أشعار ابن الخياط شرح صديقه
التجيبى القيرواني للمختار من شعر بشر، وراجع
ترجمة إسماعيل عباس له في كتابه: العرب في صقلية
ص ٢٠٧.
(٢) الفرقد: نجم قريب من القطب الشمال.
(٣) مسر: موقد.

عريان من غمده بينا هو مفعد ومغفور من دم الأعداء. ويصور أحد أعدائه وقد أخذه الهلع من كل جانب:

ظَنُّ الإِمَارَةَ ظِلَّةً فَإِذَا بِهَا حَرْبٌ يَكَادُ أَوَارُهَا يَتَأَجَّجُ^(١)
وَمَهْدَاتٍ كَالْعَقَائِقِ مَازُهَا مَسْرُوقٌ وَلِهَيْبُهَا مَتَأَجَّجِ
لَا تَسْتَقِرُّ الْعَيْنُ فَوْقَ مُتُونِهَا فَكَأَنَّمَا هِيَ زَنْبِقٌ مُتَرْجِرِجُ
فِي مَوْطِنٍ سَلَبَ الْحَلِيمَ وَقَارَهُ فَكَأَنَّمَا هُوَ مُسْتَطَارٌّ أَهْوَجُ

فهذا الخارج ظن الإمارة ظلة يستظل بها ويستريح عندها فإذا هي نار حرب متأججة. وإذا السيف يلعب عليها ما يشبه الماء بل ما يشبه النار المضطربة، والعين لا تستطيع استقراراً فوق متونها لأنها زنبق مترجرج، في ساحة حرب تسلب الحليم وقاره حتى ليفقد كأنه مستطارٌّ أهوج من شدة الهول والفرع. وتولى الحكم بعد الأكحل مصمام الدولة لمدة أربع سنوات وضاعت الجزيرة من يده ودخلت في عصر أمراء الطوائف وأخذ ابن الحياط يعزى أمراء بني أبي الحسين الكلبيين بمثل قوله:

لَيْسَ لَكُمْ أَنْ الْجَزِيرَةَ بِمَدِّكُمْ كَمَا قِيلَ فِي الْأُمُثَالِ لَحْمٌ عَلَى وَضْمٍ^(٢)
تَرْكُمُ بَقَايَا حَسَنِكُمْ فِي خَرَابِهَا كَمَا ذَهَبَ التَّوَارُ فِي خَلَلِ الْحُمِّ^(٣)
وَجُوهُ كَأَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمَائِهَا تَرْقُرُقُ حَيَاءٌ وَامْزِجَ الْحُسْنَ بِالْكَرْمِ
كَأَنَّهُمْ فَوْقَ الْأَسْرَِةِ أَنْجَمُ سَعُودٌ وَفِي الْهَيْبَا ضِرَاعِمَةٌ بِهِمْ^(٤)

فالجزيرة قد تعرّت بعد الكلبيين من هيجتها وأصبحت عارية من حسناتها لما على وضم، وإن شعبها لا يزال يكنّ لكم حبا وكأني به ذبل كما يذبل النوار في أثناء الحمم المنتهية، ويقول ما أروع وجوه الكلبيين، لقد كان الحياء يترقرق فيها، وكان الحسن يمزج بالكرم، وكانوا فوق الأسرة والعروش وبأيديهم صولجان الحكم كأنهم نجوم ساطعة في السلم، وفي الهيجاء أسود لا يماثلها أسود. ولا نعرف شيئاً عن مولد ابن الحياط ولا عن وفاته، ويبدو أنه عاش في عصر أمراء الطوائف حتى زمن محمد بن الثمثة حاكم بلرم، غير أنه لم يلقح عصر روجار وأبنائه، وربما كان قد ترك صقلية إلى القيروان قبل هذا التاريخ.

(١) أوارها: نارها.

(٢) لحم على وضم: اللحم.

(٣) هم: جمع همة: الشجاع.

مثل للدلالة على أنه لم يعد لها وقي.

شعراء الغزل

هذا هو الموضوع الأساسي لشعر صقلية الإسلامية سواء فيها اختاره لها ابن القطاع أو ابن بشرون المهدوي أو العماد الأصبهاني، وهو موضوع إنساني نجده دائماً في جميع البيئات الإسلامية، إذ يتغنى الشعراء بحبهم للمرأة ويتفتنون في هذا التغنى بصور مختلفة، لعلها تعبرهم التفاتة أو تذكر لهم عهداً أو تفي لهم بوصل أو بوعد، من ذلك قول أبي الحسن على بن الحسن بن الطوبى أحد شعراء ثقة الدولة^(١) :-

| | |
|-----------------------------------|--|
| ما أحسبُ السحرَ غَيْرَ مَعْنَاهَا | والعنبرَ الجَوْنَ غَيْرَ رِيَاهَا ^(٢) |
| إنّا جهلنا ديارها فَبَدَا | من عَرَفَهَا ما به عَرَفْنَاهَا ^(٣) |
| كأنما خَلَفْتُ بِسَاحَتِهَا | منه دليلاً لكل مَنْ تَآهَا |
| وأغبط الماء حين تَرَشَّفَه | إذ كان دوني مَقْبُلاً فَاها |
| وما تنائي على قلائدها | إلا بأن أشبهتُ ثِيَابَهَا |

وكان ابن الطوبى قد عبر البحر إلى القيروان في أيام المعز بن باديس فاصطفاه لنفسه، ومُرّت بنا إحدى مدائحه له، وكان المعز كثيراً ما ينشد البيت الرابع من هذه المقطوعة لرقته وعذوبته وهي جميعها في غاية النعومة والسلاسة، حتى لتكاد ألقاظها تطير عن الفم طيراناً لما فلا الجن تنفعه ولا الإنس ويزرف الدموع مدراراً، فذلك نصيبه وحظه في دنياه. وهذه الصورة الطبيعية من الغزل تصادفها عند غير شاعر صقلي، من ذلك قول مستخلص الدولة عبد الرحمن بن الحسن الكلبي ممدوح ابن الحياط^(٤) :

| | |
|----------------------------------|--------------------------------|
| قُلْتُ يوماً لها - وقد أخرجتني - | قولة ما قدرت أنفك عنها |
| أشتهي لو ملكتُ أمرك حتى | أمر الآن فيك قَهراً وأنتي |
| فبكث - ثم أعرضت - ثم قالت | خُشِّنِي في محبةٍ لم أُغْنِهَا |

وهي رقة شعور واضحة، فإنها لم ترتض منه أن يملك أمرها ويأمر فيها قهراً وينهى، وأين الحب؟ لقد خانه، ولذلك بكث بكاء مراراً، إنه لم يعد عاشقاً بل أصبح سيّداً يريد أن يسترقها ويستنلها. ويقول أبو محمد جعفر بن الطيب الكلبي^(٥) :

(٤) الحريدة ٨/٨٥.

(١) الحريدة ٨/٧٤.

(٥) الحريدة ٨/١١٤.

(٢) رياهها: شذاها المطر.

(٣) عرفها: شذاها وعطرها.

فأفرقتكم لا عن قِلٍّ وتسركم رَغْبًا على حكم الزمان الجائر
وفقدتكم من ناظري فوجدتكم - لما أردت لقاءكم - في خاطري

فقد فارق صاحبه لا عن بغض ولكن نزولا على حكم الزمان الظالم، وفقدتها من ناظره وأمام عينيه ووجدتها بطلعتها السنية في خاطره، وهي فكرة رقيقة ودقيقة. ويقول الفقيه عبد الرحمن بن أبي بكر السرقوسي^(١):

أسارقه اللحظ الخفي مخافةً عليه من الواشين والرقباء
وأجهد أن أشكو إليه صابقي فيمنعني من ذاك فَرطُ حيائي
سأكتم ما ألقاه من حُرْقِ الأسي عليه ولو أُنِ أسوت بدائي

فهو يسارق صاحبه اللحظ خشيّة أن يتنبّه بعض الواشين والرقباء، ويجهد في أن يشكو إليها صابته فيمنعه فرط حيائه، وسيظل يكتم ما ينطوي عليه قلبه من حرق الأسي ولوعاته مؤثراً أن يموت بدائه. ومثل هذه القطعة اللينة قطعة لابن الخياط يقول فيها.

ليس إلا تنفسُ الصعداءِ وبكائي وما غناء بكائي
من رسولٍ إلى السماء يؤدي لي كتاباً إلى هلال السماء
كيف يرقى إلى السماء كيف يسلك الجسم في رقيق الهواء
عجز الإنسان أن شوقي إليها فمسي الجن أن تكون شفائي
أم تسرى الجن تنقي شُهَبَ الرُّجْمِ فدعني كذا أسوت بدائي

وصاحبه في السماء فكيف يرقى إليها في الهواء جسم كيف لإنسان فيفكر في الجن، غير أن الجن حرّم عليها الصعود في السماء، وشهب الرجم لها بالمرصاد وستلقاها بالموت الزوأم، ويأس فلا الجن تنفعه ولا الإنسان ويفترق الدموع مدراراً، فذلك نصيبه وحظه في دنياه.

وإذا تحولنا إلى العهد النورماني لقينا عبد الحليم بن عبد الواحد السوسي الأصل الإفريقي المنشأ الصقل الدار، وهو من سكان مدينة بِلْزَم، وله مقطوعتان غزليتان طريفتان، يقول في أولهما^(٢):

قالت لأترب لها يشقن لي قول امرئ يزهي على أنرابه
وحياؤ حاجته إلى وفقره لأواصل عذابه بمعذابه

وَلَا مَزْجَنٌ دُمُوعُهُ بِشَرَابِهِ^(١) وَلَا مَنَعْنُ جُفُونُهُ طَعْمَ الْكَرَى
لَمْ يَأْجِ بِأَسْمَى بَعْدَ مَا كَتَمَ الْهَوَى دَهْرًا. وَكَانَ جِصَانَتِي أَوَّلَى بِهِ

وهي تعلم مدى حبه لها وشغفه بها، وكان يكتم حبه ولا يصرح باسمها، فلما صرح به وأعلن حبه لها غضبت غضبا شديداً وصمتت على الانتقام منه أشد الانتقام، إذ ستواصل عذابه بعذابه وستمنعه النوم وتفرج دموعه بأى شراب يشربه، حتى تأخذ بثأرها من يؤخه باسمها بعد كتمانها دهرًا، وكان أولى أن لا يصرح به أبداً. ويقول في الأخرى^(٢):

شَكُوتُ فَقَالَتْ كُلَّ هَذَا تَبَرُّمًا بِحُبِّي أَرَاكَ اللَّهُ قَلْبَكَ مِنْ حُبِّي
فَلَمَّا كَتَمْتُ الْحُبَّ قَالَتْ: لَشَدُّ مَا صَبَرْتُ وَمَا هَذَا بِفَعْلٍ شَجَى الْقَلْبِ
فَأَدْنُو فَتَقْصِيْنِي فَأَبْعُدُ طَالِبًا رِضَاهَا فَتَعْتَدُ التَّبَاعِدَ مِنْ ذَنْبِي
فَشَكَاوَى تُؤْذِيهَا وَصَبْرِي يَسُوُّهَا وَتُخْرِجُ مِنْ بَيْتِي وَتَتَفَرَّجُ مِنْ قَرْبِي^(٣)
فِيهَا قَوْمٌ هَلْ مِنْ حِيلَةٍ تَعْلَمُونَهَا أَشِيرُوا بِهَا وَاسْتَوْجِبُوا الْأَجْرَ مِنْ رَبِّي

وهو لا يعرف كيف يرضى صاحبته، فإنه إذا شكَا من حبها عثت ذلك تبرما ودعت له أن يريحه الله من حبه، وإذا كتم شكواه وحبه قالت له: ما أشد صبرك وليس هذا من ديدن المحب العاشق. ويقول إنه يدنو فتقصيه، فيبعد أملا في رضاها، فتعد بعده أو تباعده من ذنوبه عندها، وهو حائر فشكواه تؤذيها وصبره يسوؤها، ويؤلمها بعده وتتفرج من قربه، ويسأل من حوله هل من حيلة له في إرضائها ويدعو لمن دله على حيلة أن ينال جزاءه من ربه. وله بيتان بديعان يصور فيها حال صقلية وقد نهكتها حروب النورمان^(٤):

عَشَقْتُ صَقْلِيَّةً بِأَفْئَامًا وَكَانَتْ كِبَاضَ جَنَانِ الْخُلُودِ
فَمَا قُدِّرَ الْوَصْلُ حَتَّى أَكْتَهَلْتُ وَصَارَتْ جَهَنَّمُ ذَاتَ الْوَقُودِ

فصقلية الجنة البديعة بقصورها وحقولها وزروعها وثمارها وأزهارها الزاهية أصبحت في عهد النورمان بحروبهم وفتكهم برجالها وشبابها جهنم المشتعلة التي تلتهم كل سكانها. ولمحمد بن عيسى بن عبد المنعم من غزلية رائعة كان يفتي بها هناك^(٥):

مَوْلَايَ يَا نَوْرَ قَلْبِي وَنَوْرَ كُلِّ الْقُلُوبِ
أَمَا تَرَى مَا بِجِسْمِي مِنْ رِقَّةٍ وَشُحُوبِ

(١) الحريدة ٢٢/١.

(١) الكرى: النوم.

(٢) الحريدة ٣٧/١.

(٢) الحريدة ٢٢/١.

(٣) تخرج: تضيق.

فَلَمْ يَخْلُ بِوَصْلِي وَلَيْسَ لِي مِنْ ذُنُوبٍ
وَمَا لِسُقْمِي شِفَاءٌ وَلَا لَهُ مِنْ طَبِيبٍ
وَلَا لِدَائِي دَوَاءٌ إِلَّا وَصَالَ الْحَبِيبُ

والقطعة جدية بأن يغنى بها، تخفتها في السمع وعذوبتها وتعبيرها عن الحب الذى أضناه ببساطة، وفيم هذا البخل بالوصل، وليس له من ذنوب، والبيتان الأخيران في غاية الرشاقة مع النعومة ومع الحلاوة في السمع التى تشيع في كل الأبيات. وتتوقف قليلا للحديث عن الشاعر البُلْتُويّ وغزلياته.

البُلْتُويّ^(١)

هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أبي البشر الأنصاري، ولد بمدينة بُلْتُوية Villanova في صقلية، فُتِنَ إبليها، وعلى شاكلة لداته اختلف إلى الكتاب لحفظ القرآن الكريم، ولزم الشيوخ حتى تقف ما عندهم في اللغة والنحو، وهاجر إلى مصر وعنى فيها بتدريس العروض والنحو في كتبها المشهورة حتى توفي سنة ٤٤٢ للهجرة ويبدو أن ملكته الشعرية تفتحت بصقلية مبكرة ونشر رزيتانو قطعة من شعره باسم ديوان البُلْتُويّ، وافتتح العماد تراجم الشعراء في صقلية بترجمته، وبها مختارات كثيرة من غزلياته، وهو في غزله يصور ما يتسم به الغزل عند شعراء صقلية من التجاني عن الغزل المادى الحسى وما يتصل به من وصف الجسم إلى الغزل المعنوى وما يتصل به من رقة الحس والشكوى من عذاب الحب والسهر وبعد الحبيب وهجره وما يحجره ذلك على المحب من الضنا والنحول والسقم الذى لا شفاء منه، ومن طريف غزله:

إِلَيْكَ أَشْكُو عَيُونَا أَنْتَ قَلْبِي لَهَا فَيُضِي فَقَدْ فَضَحْتَنِي بَيْنَ جُلَاسِي
وَمَا تَرَكْتِ عَدُوًّا لِي عَلِمْتَ بِهِ إِلَّا وَقَدْ رَقُّ لِي مِنْ قَلْبِكَ الْقَاسِي
فَلِنْ رَضِيَتْ بِأَنْ أَلْقَى الْجِمَامَ فَيَا أَهْلًا بِذَاكَ عَلَى الصَّيْنَيْنِ وَالسَّرَاسِ

فهى التى أشرت عيونه أن تظل تذرف الدمع شوقا إلى لقائها، حتى فضحته بين جلّاسه من صديق وعدو فالكل يرقّ له من قلبها المتناهى في القسوة، وهو بذلك راض أن يظل مستجيبا لها ويظل الدمع يترقرق في عيونه، حتى لو رضيت بأن يموت في سبيلها، فستقبل الموت بمتهى

ونشر رزيتانو ديوانه بالقاهرة سنة ١٩٦٨.

(١) انظر في البُلْتُويّ إنباء الرواة ٢٩٠/٢ والحريدة للعماد الأصهباني ٥/١ والعرب في صقلية

الرضا. ويقول :

أترانى أحيأ إلى أن يعودا نازح لم يدع لعينى هجودا
كيف أرجو الحياة بعد حبيب كان يومى به من الدهر عيدا
أشتهى أن أبوح باسمك لكن لفتنى الوشاة فيك الجمودا

وهو يظن أنه لن يحيا 'حتى يعود حبيبه لطول سهاده وما يعاني منه، حتى ليتصور أنه ميت لا محالة، فقد ذهبت أيام لقائه به التي كان يعدها أعيادا، وإنه ليشتهي أن يبوح باسمه أو اسمها ولكنه يخاف الوشاة، وكأنما علموه الجحود ونكران الحب. ويقول:

أما تعطينى على خاضع لديك يناجيك مستعظفا
إذا كنت يده أحرفا إليك مَحَا تَمَعُه أحرفا
ولو كنت أملك غرب الدموع منعت جفونى أن تنرفا^(١)

وهو يشكو لصاحبه حبه متذلا مستعظفا، ويقول إنه كلما كتب لها سطرًا فى رسالة محت الدموع سطرًا سابقا له، ولو كان يملك مصدر دموعه لمنع جفونه أن تنرف الدمع مدرارًا، وصورة السطر الذى يكتب والسطر الذى تمحوه دموعه فى الرسالة بديعة. ويقول:

هجرتك يا سؤل نفسى ولى فتأذمتى تُذكرى يخففى
وما ذاك منى أطراح الملول ولكنه نظر المشفى
كما تتركين سرود الشرا ب ظمأى مخافة أن تشرقى

وهو يقول إنه هجر سؤل نفسه حب قلبه لا مالا ولكن إشفاقا عليها أشد الإشفاق، كما تركت وهى شاعرة بحرقة العطش كوبا من الماء البارد الذى يطفىء غلة ظمئها خوفا من أن تشرق بها وتنفص غصة مؤذية شديدة. وكان يدرس العروض لطلابه، فرأى أن ينظم لهم مقطوعة غزلية ثلاثية الشطور، والسطر الأول فيها من مجزوء الخفيف والثانى من مجزوء الرمل والثالث من مجزوء المجتث بحيث إذا ضم سطر إلى أخويه أو إلى أخيه نتج وزن جديد، وهى تجرى على هذه الشاكلة^(٢):

وغزال مشنفا^(٣) قد رنى لى بعد بعدى
لما رأى ما لقيت

(٢) مشنف: متخذ قرطاً.

(١) تنرف: تسيل.

مثل روض مغوف^(١) لا أبالي وهو عندي
في حبه إذ ضنيتُ

وهي غزلية للتدريس، وإن شكا فيها بعد المحبوبة وجفانها وامتاعها، ومن هذا الباب عنده مقطوعات يجمع فيها حروف المعجم أو يلفز فيها. وفي الحق أنه يصور الفزل الصقل المعنوي تصويراً بديعاً بما نجد عنده من الصباية واللفظة على لقاء المحبوبة وكثرة الشجى لمجرها والحزن حتى ليكاد يموت المحب في إثر محبوبته ضنا وسقما وبكاء متصلاً.

٤

شعراء الفخر

من موضوعات الشعر العربي القديمة الفخر، وكان كثيراً جداً في الجاهلية، لأن القوم كانوا يقتلون، وكان الشعراء من ورائهم يحمسونهم في القتال، وكان من المقتلين أنفسهم شجعان ينددون عن القبيلة ويفتخرون بشجاعتهم ومآثر قبائلهم، فكثر شعر الفخر والحماسة حينئذ، وكان المظنون، والسيوف في صقلية دائماً مشرعة وقلبا توضع في أعمادها أن يكون شعر الفخر والحماسة فيها كثيراً، غير أن ماروي منه قليل، وقد يرجع ذلك إلى ابن القطاع الصقلي وابن بشر بن المهدي، فإنها لم يرويا منه إلا القليل وخاصة ابن بشر بن فإنه كاد أن لا يروى منه شيئاً في العهد النورمانى، وقد يكون ذلك راجعاً إلى أن العرب كانوا مهزومين، فقيم الفخر وقيم الحماسة، أما في العهد السابق لذلك فإن نفسيته كانت قوية، ونجد ابن القطاع يسوق لهم فخرًا وحماسة من حين إلى آخر، من ذلك قول أبي عبد الله محمد بن علي بن الصباغ الكاتب^(٢):

قَوْمِي الَّذِينَ إِذَا السَّابَكُ أَنْشَأَتْ دُونَ السَّحَابِ سَحَابًا مِنْ عَثِيرٍ^(٣)
بَرَقَتْ صَوَارِمُهُمْ وَأَمْطَرَتْ الطُّلَى عَلَقًا كَثْرَتَارَ الْعَيَا الْمَنْفَعِرِ^(٤)
الْوَاتِرِينَ فَلَا يُقَادُ وَتِيرُهُمْ وَالْفَاتِكِينَ بِجَمْعِهِمْ وَبَقِيْعِهِ^(٥)
وَالْمَانِعِينَ جَمَاهُمْ أَنْ يُسْرَتْنِي وَالْحَاسِمِينَ لِكُلِّ دَاوٍ يَتَعَرَّى

فقومه حين يشتد وطيس الحرب وتتشى سنابك الخيل سحابا من غبارها تبرق

(١) مغوف هنا: جبل.

(٢) الحميدة ٨٤/١.

(٣) علقا: دما غليظا. ثرثار الحيا غزير الغيث.

(٤) الطل: الأعناق.

(٥) الواترين: القاتلين. لا يقاد وتيرهم: لا تودي

(٦) السنايك جمع سنك: طرف الحافر. عثير:

دبة قتيلهم.

غبار.

سيوفهم وتطر أعناق الأعداء سيولا من دم متفجر أنهارا، وإنهم لَيَتَرُونَ أَعْدَاءَهُمْ وَيَفْتَكُونَ بِهِمْ دُونَ أَنْ يُطْلَبَ مِنْهُمْ - لِبَأْسِهِمْ - وَتَرِ أَوْتَارُ، وَطَالَمَا فَتَكُوا بِأَقْيَالِ حَمِيرٍ وَفِرْسَانِ قَيْصَرٍ، وَقَدْ اشْتَهَرُوا بِأَنَّهُم المَانِعُونَ جَاهَهُمْ فَلَا تَسْتَطِيعُ قَبِيلُهُ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْهُ وَتَرَعَاهُ، وَإِنَّهُمْ لَيَحْسُمُونَ كُلَّ شَرٍّ وَيَقْضُونَ عَلَيْهِ قَضَاءَ مَبْرَمًا. وَنَسَخَصَ مَعَاصِرَهُ أَبَا الْحَسَنِ عَلَى بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الطُّوَيْيِّ بِكَلِمَةٍ. وَيَقُولُ أَبُو عَلِيٍّ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْقَافِ الْكَاتِبُ^(١):

سَأَكْرِمُ نَفْسِي جَاهِدًا وَأَصُونُهَا وَإِنْ قَرَحَتْ مِنْ نَاطِرِي جَفُونَهَا
وَلَسْتُ بِزَوَّارٍ لَنْ لَا يَزُورُنِي وَلَا طَارِحًا نَفْسِي عَلَى مَنْ يُحِينَهَا

فَهُوَ سَيَكْرِمُ نَفْسَهُ إِلَى أَقْصَى حَدٍّ وَيَصُونُهَا عَنْ أَنْ تَتَعَرَّضَ لِإِهَانَةٍ مِمَّا كَلَفَهُ ذَلِكَ مِنَ السَّهَادِ. وَلَنْ يَزُورَ مَنْ لَا يَزُورُهُ إِكْرَامًا لِنَفْسِهِ أَنْ تَمْسَهَا إِهَانَةٌ بِأَيِّ صُورَةٍ مِنَ الصُّورِ. وَيَقُولُ الْفَقِيهَ الْمُحَدِّثُ أَبُو مُحَمَّدٍ عِمَارُ بْنُ الْمَنْصُورِ الْكَلْبِيُّ وَكَانَ مِنْ أَفْضَلِ الْعُلَمَاءِ وَسَادَاتِ الْأُمَرَاءِ^(٢):

تَقُولُ: لَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالًا نَجِيدٍ وَمَا أَبْصَرْتُ مِثْلَكَ مِنْ يَمَانٍ
أَلْفَتْ وَقَسَائِعَ الْفُجَرَاتِ حَقً كَأَنَّكَ مِنْ رَذَالَةٍ فِي أَمَانٍ^(٣)
إِلَى كَمْ ذَا الْهَجُومِ عَلَى الْمَنَائِمِ وَكَمْ هَذَا التَّمَرُّضِ لِلطُّعْمَانِ
فَقُلْتُ لَهَا: سَمِعْتُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَلَمْ أَسْمَعْ بِكُلِّبِيِّ جَمَانٍ

وَهِيَ تَرْفَعُهُ فَوْقَ رِجَالِ نَجْدٍ وَالْيَمَنِ جَمِيعًا، فَلَيْسَ مِثْلُهُ بَيْنَهُمْ شَجَاعًا، وَتَقُولُ إِنَّهُ أَلْفَ وَقَائِعِ الْحَرْبِ حَقً كَأَنَّهُ مِنْ مَوْتَاهَا فِي أَمَانٍ، بَلْ إِنَّهُ لَيَهْجُمُ عَلَى الْمَوْتِ هَجُومًا ضَارِيًا مَتَعَرِّضًا لِلطُّعْمَانِ غَيْرَ جَزَعٍ وَلَا وَجَلٍ، وَرَدَّ عَلَيْهَا قَائِلًا إِنَّهُ سَمِعَ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ بِكُلِّبِيِّ يَمَانٍ جَبَانٍ. وَتَقِفُ عِنْدَ ابْنِ الطُّوَيْيِّ قَلِيلًا.

أَبُو الْحَسَنِ^(٤) الطُّوَيْيِّ

هُوَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ الطُّوَيْيِّ الَّذِي تَقَمُّ ذِكْرُهُ فِي الْمَدِيحِ وَالْفَزْلِ، وَفِيهِ يَقُولُ الْعِمَادُ الْأَصْبَهَانِيُّ نَقْلًا عَنْ ابْنِ الْقَطَاعِ: «إِمَامُ الْبُلْغَاءِ وَزِمَامُ الشُّعْرَاءِ مُؤَلِّفُ دِفَاتَرٍ، وَمُصَنِّفُ جَوَاهِرٍ، وَمُقَلِّدُ دَوَائِنٍ، وَمُعْتَمِدُ سُلَاطِينٍ» يَقُولُ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي مَدَحَ بِهَا الْمُعْزَّ بْنَ بَادِيَسَ وَمَرَّ ذِكْرَهَا:

الردي: الهلاك.

(١) الخريدة ٨٧/١.

(٤) انظر في أبي الحسن الطووي الخريدة ٧٢/١.

(٢) الخريدة ١٠١/١.

(٣) الفمرات: الشدائد ويريد شدائد الحروب.

وإما المني أو فالمنيبة إنها حياة ليب لم ينل من لبها
وهل نعمة إلا بيؤسى وإنما عذوبة دنيا المرء عند عذابها

فإما تحقيق المني والحصول عليها وإما الموت الزؤام، وهل نعمة إلا مصعوبة بيؤس وشقاء،
وإنما عذوبة دنيا الإنسان في عذابها، وهو بذلك صاحب نفس كبيرة، وبصورها في الآيات
التالية:

أعددت للدهر إن أردت حوادثه عزما يحل عليه كل ما عَقَدَا
وصارماً تتخطى العين هزته كأنما ارتاع من حَدْبِهِ فارتعدا
وذاهلاً توضح العليا ذبالتة كأنها نجْمُ سعدٍ لاح منفرداً^(١)
وتثرة ليس للريح المضي بها إلا كما عرضت للنهي فاطرداً^(٢)

وهو يقول إنه أعد للدهر حين تنزل به حوادثه عزما يحل كل شدائده، وسيفا قاطما تتخطى
هزته العيون، وكأنما أخذه وجل من حَدْبِهِ القاطعين فارتعد، وربما يوضح العليا حده القاطع
وكانه نجم سعد يكتب له داتها النصر والظفر، ودرعا تشبه طياتها موجات مياه القدير حين
تحركها الرياح ويقول:

سَلِ الليل عني هل أنام إذا سَجَى وهل ملُ جَنَى مضجعي ومكاني
على أتى جَلَدٌ إذا الضُرُّ مَسَنَى صبورٌ على مانأبني وعمراني

وهو يقول لصاحبه: سَلِ الليل: عني فإني داتها يقط، وداتها يجفو جنبى المضجع والمكان، وإننى
لجلد أحتمل كل ضر يمسنى، صبور على كل ماينوبنى، أحتمل من ذلك ما يطاق وما لا يطاق،
حق يأتى الله بالفرج.

٥

شعراء الوصف

الشاعر العربي - من قديم - يصف كل ما حوله من الإنسان وغير الإنسان من
الحيوانات والنباتات والأزهار، وقد مر بنا في المديح وصف قصور روجار: القبة والمنصورة
والقوارة عند البشري والطرابنشى وما حف بالأولين من بركة وبها جميعا من رياض،
ولأبى الحسن بن الطوبى في وصف الثريا^(٣):

(٣) المهرية ٨٠/١.

(١) ذاهلاً: ربما. ذبالتة: حده القاطع.

(٢) ثرة هنا: درعا. النهى: القدير.

انظر إلى الأفق كيف بهجت
كانها وهي فيه طالمة
وللثريا عليه تنكته
قميص وشي وتلك عروته

فالسما بنجومها كأنها قميص وشي بديع والثريا عروته المضيئة الجميلة، وستخص أخاه
أبا عبد الله بن الطوبى بكلمة لإكثاره من الأوصاف والتشبيهات في الطبيعة وغير الطبيعة.
ويقول مشرف بن راشد^(١):

وروضة بالحزن مطورة
بكي عليها الغيث فاستضحكت
لم تنتهبها أعين الناس
عن نرجس غص وعن آس

وكان يكثر من استخدام الطباق كما في البيت الثاني، وجعل الروضة تضحك أو تبسم عن
نرجس غص وعن آس، ويقول ابن متكود صاحب مازر في عهد أمراء الطوائف وأصفا
النيلوفر^(٢):

كسوس من بواقيت
تفتح عن دنابر
ولي جنباتها زهر
كالسنة العاصف

والنيلوفر هو اللوس عند المصريين القدماء والبشني عند أهل الريف المصري، وحين تفتح
تتدل من جنباتها أزهار - كما يقول ابن متكود - مثل السنة العاصف. ويقول ابن القطاع في
وصف رمانة^(٣):

كانها حقة من عسجد ملئت
من البواقيت ثرا غير منظوم

وهي صورة بديعة، ويفتح ابن القطاع صفحا غير قليلة لمدح المغنين والمغنيات والراقصين
والراقصات وضمهم، من ذلك ذم البلنوي لمغن في قوله^(٤):

ولنا مغن لا يزا
ل يغيظنا ما يفعل
غنى ثقيلأ أولا
وهو الثقيل الأول

والثقيل الأول نعمة موسيقية معروفة عند العرب، وهي مكررة مئات المرات في كتاب
الأغاني واستغلها البلنوي في هجاء هذا المغن، والتورية واضحة وتراء بمدح راقصة من راقصات
صقلية قائلا^(٥):

(٤) الخريدة ١٣/١.

(٥) الخريدة ١/٦.

(١) الخريدة ٩٣/١.

(٢) الخريدة ١٠٣/١.

(٣) الخريدة ٥٣/١.

هَيْفَاءُ إِنْ رَقَصْتُ فِي مَجْلِسٍ رَقَصْتُ قُلُوبُ مَنْ حَوْلَهَا مِنْ جِذْقِهَا طَرِبَا
خَفِيفَةُ الْوُطءِ لَوْ جَالَتْ بِخَطُوتِهَا فِي جَفْنِ ذِي رَمَدٍ لَمْ يَشْتَكِ الْوَصَا

فالقلوب ترقص مع رقصها، وهى خفيفة الوطء للأرض فى رقصاتها حتى لو جالت بخطوتها الخفيفة فى جفن أرمد لم يحس بها فحسب، بل أيضا أزالَتْ عنه ما يشكو من وصب الرمد - ويقول أبو بكر محمد بن على الكموني فى وصف راقص^(١):

مَا إِنْ رَأَيْتَ كِرَاقِصٍ مُسْتَظَرِّفٍ فِي كُلِّ فَنٍّ
يَحْكِي الْفَنَاءَ بِرَقْصِهِ كَمِرَاقِصٍ يَحْكِي الْمُنَى
رَجُلَاهُ مَزْمَارٌ وَعَوَى دُ فِي نَهَائَةِ كُلِّ حُسْنٍ
فَهُوَ السَّرُورُ لِكُلِّ غِيٍّ نِ وَالنَّمِيمُ لِكُلِّ أَذْنٍ

وتدل المقطوعة دلالة قاطعة على أن الغناء كان قد ارتقى فى مصاحبة الرقص فنونا من الرقى، حتى ليقول ابن الكموني عن هذا الراقص أن رجله كانتا مزمارا له وعودا فهو يوقع على ضرباتها غناؤه ويلحنه تلحيناً دقيقاً، فهو سرور برقصه لكل عين، وهو نعيم بغناؤه لكل أذن. ونتوقف لتتحدث عن أبي عبد الله بن الطوبى وبراعته فى الوصف.

أبو عبد الله^(٢) بن الطوبى

هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الطوبى، كان صاحب ديوان الإنشاء فى عهد ثقة الدولة وأبنائه - كما يقول العماد - ومن ذوى الفضائل البلقاء، طيبياً، مترسلاً، شاعراً. ويقول القفطى: «مقيم بصقلية يتولى الإنشاء نحوى أُرْبَى فى النحو على نبطويه وفى الطب على ابن ما سويه، وكلامه فى نهاية الفصاحة وشعره فى غاية الملاحاة وله مقامات تزدى بمقامات البديع وإخوانيات كأنها زهر الربيع. كان بصقلية سنة خمسين وأربعمائة وأظنه عاش بعد ذلك مدة، وأورد ابن القطاع من نظمته كل مליح الحوك، صحيح السبك، فمن ذلك قوله فى نرجس:

أُرِيدُ لِأَشْفَى سَقَمٍ قَلْبِي بِنَرْجَسٍ فَيَذْبُلُ إِنْ صَافَحْتَهُ بِتَنْفُسِي
لَهُ مَقْلَةٌ كَالْتَّبْرِ، وَالْجَفْنُ فَضَةٌ وَقَدْ كَفُضَ الْبَابُ فِي ثَوْبِ سُنْدُسٍ

ويدل العماد على براعته فى هذا الوصف للنرجس بأنه أتى فيه بأربع تشبيهات، كما يتضح فى

الخريدة ٥٥/١ وأنباء الرواه للقفطى ١٠٧/٣

والمكتبة الصقلية ٥٨٩.

(١) الخريدة ١٠٤/١.

(٢) انظر فى ترجمة أبى عبد الله بن الطوبى

البيت الثاني، وهي تشبيهات دقيقة. ويقول في نار فحم والشرار بتطالير من حولها:

ونار فحم ذي منظر عجب يطرد عنه الشرار باللهب
كأنما النار مبرد جعلت تبرّد منه برادة الذهب

فلهب النار يطرد الشرار من حولها. كأنما النار مبرد يبرد من الفحم برادة ذهبية، وقد راعى النظير في البيت الثاني، فالنار مبرد وهي تبرّد من الفحم برادة الذهب، ويقول في مديح مغل:

إذا غنى يُزِيلُ الهمَّ عَنَّا وبأئينا بما نَهَوَاهُ مِنْهُ
لَهُ وَتَرَّ يَطَالِبُ كُلُّ هَمٍّ بوثر فالحُموم تَفَرُّ عَنْهُ

فهو مغل حاذق يعرف ما تنهوا النفوس ويعرضه على سامعيه، وكأنما لعوده وتر يطالب كل هم في نفوس الناس بوثره أو تأره، فالحُموم تفر عنه منطلقة إلى غير مأب. ويذم في مقابل هذا المغل مغنّين آخرين من برد غنائهم يجعلون الصوف شتاء ويحولون الأعراس مآتم، وفي أحدهم يقول، وهو أخف ما قال:

لَنَا مَغْنٌ غِنَاهُ يعود شراً عليه
لَمْ يَأْتْ مَنْزِلٌ قَوْمٍ فعاد قط إليه

فبمجرد أن يسمعه أهل منزل يزورون عنه ولا يعودون إلى طلبه مرة أخرى. وكان يُغرب أحياناً في أوصافه مدحا وذما، وقد وجد الناس يمدحون البياض في المرأة ويذمون السواد، فرأى أن يعكس عليهم القضية قائلاً:

شِبْهَاتِ الْمَشِيبِ تَعَاثُ نَفْسِي وَأَشْيَاءُ الشَّيْبَةِ هُنَّ حَوْرُ
سَوَادُ الْعَيْنِ نَوْرُ الْعَيْنِ فِيهِ وَمَا لِبَيَاضِهَا فِي الْعَيْنِ نَوْرُ

فهو يرى يسواد عينيه لا بياضها، ولذلك يعاف البياض رمز المشيب والشيوخة، كما يعاف معه المرأة البيضاء، بينما يحب السواد رمز الشيب ونضرة الحياة ويحب المرأة السوداء. وكانت لديه قدرة في حسن التعليل كقوله في قصيدة أخرى:

حُمِرْتِ مِنْ دَمِ قَلْبِي أَيْنَ مَنْ يَنْدُبُ أَيْنَا
أَنَا مِنْ أَحْجَارِ أَرْضٍ قَتَلُوا فِيهَا الْحُسَيْنَا

وربما كان في ذلك ما يدل على أنه كان متشيعاً يعتنق المذهب الإسماعيلي الفاطمي. ومن حسن تأتبه في التصوير قوله في لحية كبيرة غطت وجه صاحبها:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِلَحِيَةٍ عَرُضَتْ كُلْحِيَةِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ
سَدَّتْ عَلَيْهِ وَجْهَهُ فَكَأَنَّمَا عَنَيْنَاهُ فِي ثُقْبَيْ كِسَاءٍ أَسْوَدَ

فهى قد سترت وجه صاحبها حتى لم يعد يبدو منها إلا العينان، وكأنها ثقبان فى كساء أسود، وكما كانت لحية جعفر بن محمد تؤذيه كذلك كانت لحية حمدون، وفيها يقول:

لِحْيَةُ حَمْدُونَ دَنَارٌ لَهُ تُكِنُّهُ مِنْ شَسْدَةِ الْبَرْدِ
كَأَنَّمَا - إِذْ غَابَ فِي وَسْطِهَا - قَطِيفَةٌ لُفَّتْ عَلَى قَرْدٍ

فلحية حمدون كأنها دنار أو ثوب تكتّه من قسوة البرد، وكأنها إذ غاب فى وسطها ولم يعد أحد يرى له أثرا قطيفة لفت لا على إنسان بل على قرد. ونختم تصاويره بتصويره لراقصة صقلية:

راقصةٌ كَالْفَضَنِ مِنْ فَوْقِهِ بَدْرٌ مَنِيرٌ تَحْتَ ظُلُمَائِهِ
تَلْهُبُ مِثْلَ النَّارِ فِي رَقْصِهَا وَهِيَ مِنَ النُّعْمَةِ كَالْمَاءِ
كَأَنَّمَا فِي رِجْلِهَا عُرْدُهَا وَزَامِرٌ يَتَّبَعُ بِالنِّسَاءِ
سَاحِرَةٌ الرُّقْصِ غُلَامِيَّةٌ مِنْهَا دَوَائِي وَبِهَا دَائِي
إِذَا بَدَتْ تَرْقِصُ مَا بَيْنَنَا يَرْقِصُ قَلْبِي بَيْنَ أَحْشَائِي

وهى راقصة قوامها كفضن البان ووجهها كالبدر المنير، وكأنما تجمع النار والماء فى رقصها، تجمعهما بحركاتها وتثنياتهما وكأنما توقع حركات أرجلها على عودها وزامر يتبعها بالنساء وإنما لساحرة فى رقصها، وبإحدى يديها داؤه، وبالثانية دواؤه. وإن القلوب لترقص مع رقصها وإيقاعاتها المبدعة فيه.

الفصل الرابع طوائف من الشعراء

١

شعراء الرثاء

من موضوعات الشعر القديمة الرثاء، وهو يتخذ ثلاثة اتجاهات: اتجاه الندب والتوجع لفقد المصاب، وعادة يكون من الأهل وخاصة الأخ والولد، واتجاه التأبين وهو ذكر فضائل الموت وبيان خسارة القبيلة أو الأمة فيه، والعزاء وهو التعزى عن المصاب في الميت بأن الموت كأس دائر على الجميع لا يفلت منه أحد. ويقول الحسن بن إبراهيم الشامي الكتاني^(١):

فلا البؤس مدفوع بما أنت جازعٌ ولا الخيرُ مجلوبٌ بعلمٍ ولا فَنَهِمٍ
وإن الحريصَ العمرَ يُلْقِيهِ جِرْصُهُ إلى حُفْرَةٍ جَوْفَاءَ واهية الرُضْمِ^(٢)
تَعلِّمُ بأنَّ الموتَ أَزَيْنُ للفتى وأهونُ من عيشٍ يَشِينُ ومن وَصَمِ

وهو يقول إن الحزن لا يدفعه الجزع والمرة لا يعرف ماكتبه القدر ولا أحد يستطيع أن يحمي نفسه من الموت، فالحريص كغير الحريص لا بد أن يُلْقَى يوما في حفرة واهية الرضم أو واهية الصخور والحجارة، وإن الموت لأزين للفتى من عيش نكد يعيشه ووصم يشينه - ويقول عمر بن الحسن بن القوفى الكاتب في مطلع مرثية^(٣) له:

للموتِ ما يولدُ لا للحياة وإنما المرءُ رهينُ الوفاء
كأنما يَنْشُرُهُ عَمْرُهُ حتى إذا الموتُ أَتاه طَواهُ
من تَرَمَّ آيِدَى الدَّهْرِ لَانْخِطِلُهُ والدَّهْرُ لا يَخْطِئُهُ من قد رماهُ
نَفْسُ الفتى عارِيَةٌ عنده ما يَخْلُهُ بِالرَّدِّ إِلَّا سَفَاهُ^(٤)

وهو يستهل مرثيته بالعزاء وأن الموت مكتوب على الإنسان منذ مولده، وكأنه يولد للموت

(١) الخريدة ١/١٠٣.

(٢) الخريدة ١/٩٩.

(٣) سقاء: سفاقة.

(٤) الرضم: انضمام الحجارة بعضها إلى بعض.

لا للحياة، ويظل منذ خطواته الأولى في دنياه رهين الوفاة، وما أشبهه بثوب ينشره عمره حتى إذا الموت أتاه طواه إلى الأبد، ومن ترمه أبدى الدهر تصبه ولا تخطئه أبداً، فإن الدهر لا يغطي البتة فيمن قد رماه، وكأنما نفس الفقى عارية عنده ولا بد أن تسترد وما يخله بردها إلا حق، لأنها لا بد أن تعود إلى بارئها. ويظل الرثاء في عهد النورمان. وسنخصص محمد بن عيسى بكلمة فيه، ويلقانا به عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن السوسى، ومالطة مسقط رأسه وبها تهذب وقرأ على أبيه الأدب، ثم سكن بلرم واتخذها داراً، ووجد بها قراراً، وله مراثية في بعض رؤساء المسلمين بصقلية تدل على ماحواه من فضائل، وهى مراثية طويلة، استهلها^(١) بقوله:

رَكَابُ الْمَعَالِي بِالْأَسَى رَحْلَهُ حَطًّا وَطَوْدُ الْعُلَى الْعَالِي تَهْنُمُ وَانْحَطًّا
وكيف لنور الشمس والبشر عودة وهذا منارُ المجد والعزْ قد قُطًّا^(٢)
أَصِيبَ فَمَا رَدَّ الرَّدَى عَنْهُ رَهْطُهُ بَلَى أَوْدَعَ الْأَحْزَانُ إِذْ وَدَعَ الرَّهْطُ^(٣)
فِيَارُزُهُ مَا أَنْكَى وَمَا حَزَنُ مَا أَبْكَى وَمَا دَهْرُ مَا أَعْدَى وَمَا مَوْتُ مَا أَسْطَأ^(٤)

وهو يقول إن ركاب المعالي حط رحله بالحزن الطويل، وقد تهنم طود العلا السامى ولن يعود أبداً، وكيف يعود نور الشمس والبدر وهذا منار المجد والعز قد استوصل استصلاً، أصابه الموت فما رده عنه عشيرته ولا أهله، ودعهم وأودع. في قلب كل منهم جرة حزن لا تنطفئ أبداً، فيارزه ما أشد نكايتك، ويحزن ما أشد ما تثير من البكاء، ويادهر ما أشد عدوانك، ويموت ما أشد سطوتك، وكأنما كان يبكى فيه رؤساء صقلية المسلمين بصقلية جميعاً. ونعجب إذ نجد أبا الضوء سراج بن أحمد بن رجاء يعزى روجار الثانى عن ابنه روجار بمرثية باكية، وفيها يقول^(٥):

خَبَا الْقَمَرُ الْأَسَى فَأَظْلَمَ الدُّنَا وَمَا دَ مِنَ الْعِلْيَاءِ وَالْمَجْدِ أَرْكَانُ^(٦)
تَحْطَطُّهُ زَيْبُ الْمَنُونِ مُخَاتِلًا عَلَى غِرَّةٍ إِنْ الْمَنُونِ لِحَوَانُ^(٧)
فِيَالِكَ مِنْ رُزْوٍ عَظِيمٍ وَحَادِثٍ يَعْزُّ لَهُ صَبْرٌ وَيَمُوزُ سُلُوانُ

وقد ذهب بقمم الدنيا ويقعدها لموت ابن روجار الثانى وأنه حرى أن تهى له العيون وتحترق الأكباد وتعظم الأشجان وأن تبنى عليه خيماته وقصوره وسيفه ورماحه وأن تعاف

(١) المخرطة ٤٧/١.

(٢) قُطُّ هنا: انطفأ.

(٣) الردى: الهلاك. الرهط: الجماعة والعشيرة.

(٤) ما أسطأ: ما أشد بطشك.

(٥) المخرطة ٢٧٧/١.

(٦) خبا: خفت. الأسى: عالى الضوء. الدنى:

جمع دنيا. ماد: مال.

(٧) غراتلا: غلاتها.

خيله اللجم والأرسان، وما نواح الحمام إلا له، وما كان أفضع يومه، لكأنه كان يوم الحشر. كل ذلك ولا يرجع أبو الضوء إلى نفسه ويستنكف من تقديم هذا العزاء لملك نصراني. ويتوقف قليلا لتحدث عن محمد بن عيسى ومراثيه.

محمد^(١) بن عيسى

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عيسى بن عبد المنعم يقول القفطي عنه: «من أهل صقلية من أصحاب العلم بعلمى الهندسة والنجوم ماهر فيها قِيمَ بها مذكور بين الحكماء هناك بأحكامها». ويقول العماد نقلا عن ابن بشر: «كاتب شاعر، بارع ماهر، مهندس، منجم، لغارب (لكاهل) الفصاحة متسنم، في ملتقى أولى العلم كمي (شجاع) مُعَلِّم (معروف)، ويقول إن ابن بشر أورد من شعره ما يهز أعطاف القلوب مراحا (مرحا) ويدير على الأسماع من الرقيق المختوم راحا. ومعجب العماد بمراثيه وينقل قطعة طويلة من إحداها، وفيها يقول:

| | |
|---|--|
| عَزَّ الْعَزَاءُ وَجَلَّ الْبَيْنُ وَالْجَزَعُ | وَحُلَّ بِالنَّفْسِ مِنْهُ فَوْقَ مَا تَسَعُ |
| مَنْ لِلْيَتَامَى وَأَنْبَاءِ السَّبِيلِ وَهُمْ | قَدْ ارْتَوَوْا مِنْ أَيْدِيهِ وَقَدْ شَبِعُوا |
| بَكْتُهُ شَمْسُ ضُحَاهُ وَاخْتَفَتْ جَزَعًا | وَالْفَيْتُ تَحْتَ بَسَرٍ لِلْفَيْمِ تَطْلُعُ |
| سَعَوْا مَشَاءَ وَهُمْ فِي الرِّزْيِ أَغْرِبَةً | مَسْوَدَةٌ مِنْ وَرَاءِ النَّعْشِ تَتَّبِعُ |
| وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِالْعَمِيدِ مَنْ فَرَّحَ | وَلَا لَهُمْ فِي النَّسْلِ بَعْدَهُ طَمَعُ |

فالعزاء في موت هذا الشخص صعب إذ عظم فيه الجزع وحلَّ بالنفس حزن لا تطيقه. ويهكي فيه الشاعر مواساته لليتامى وأنباء السبيل واليؤساء الذين طالما أسبغ عليهم من أفضاله، ويقول إن الشمس توارت باكية وراء سحب لتطلع على جنازته الضخمة، وقد سمع الجموع وراء نعشه تلبس السواد بعد أن كانت تلبس البياض وكأنما كانت حرائم وانقلبت غربانا، وجاء العيد سريعا فلم يفرحوا فيه ولا فزعوا إلى شيء يتسلون به، إذ غمرهم لموته حزن شديد. ويقول إن أعماله الطيبة ستفسح له في الفردوس الأعلى:

جاءت ملائكة الرضوان مُعَلِّمَةً بأنه لجنان الخلد مرتفع

والخرينة ٣٤/١ وما بعدها

(١) انظر في ترجمة محمد بن عيسى إخبار العلماء
بأخبار الحكماء للقفطي (طبع ليهزج) ص ٢٨٩

وقد أعدت له أعماله غُرْفًا فيها لأنفس أهل الفضل مُرتَبٌ^(١)
 يا فجعة لم تدع في العيش من أَرْبٍ وَغُصَّةٍ في لهاء ليس تُبْتَلَعُ^(٢)
 أضرمت نارا على الأحشاء مُوصدة أكبادنا في لظى أنفاسها قِطْعٌ

فملائكة الرضوان نزلت لتستقبله وتأخذه إلى الرفيق الأعلى وجنان الخلد، إذ أعدت له أعماله الخيرة بها غرفا في عليين. ويعود على بن عيسى إلى التفجع على الميت قائلا إن الفجعة فيه لم تدع في الحياة من أمل فقد ماتت معه كل الآمال، وأودع موته غصصا لا يطيق أحد ابتلاعها، وقد أضرم في الأحشاء نارا متقدة تتقطع في لظاها الأكباد حسرة عليه. ويختار العباد من مراثية ثانية لمحمد بن عيسى مقاطع، وفيها يقول:

شهابُ المنايا من ساء الردى انقضا ورُكْنُ المعالي والجلال قد انقضا
 بكنه المذاكي المقربات وقطعت شكائهما إذ منه أعدم الرُكْضا^(٣)
 وكادت سيوف الهند تندق حَسرة وأجفانها تنشق عنها لكى تنقضى^(٤)
 شهدنا على قرب بمشهد موته مشاهد لم تخط القيامة والمَرُضا
 أعاد سرور العيد حُزنا مآته ومُبرِّم أسره فيه حوله نقضا

فشهاب الموت قد انقض على هذا الميت من ساء الهلاك، وانهدم بذلك ركن المعالي والجلال. وإن الخيل الكريمة أو المكرمة لتبكي فروسيته، وقد قطعت الشكايم، إذ لم يعد يركض عليها لقتال أعدائه، وإن سيوف الهند لتندق حَسرة عليه، وإن أعمادها لتندق عنها لكى ينتضيها فارسها المغوار. ويصف الشاعر جنازته ويقول كأنها كانت يوم الحشر ازدحاما وهولا، وأعقب موته العمد فلم يعرف الناس فيه سرورا ولا استطاعوا أن يبرموا أمرا من أمورهم، إذ انتابهم حزن عميق. ويصور الشاعر مدى الحسارة فيه قائلا:

لقد مات فيه عُدَّةُ أئى عُدَّةٍ لنا فَعَدِمْنَا كل عيش به يُرَضَى
 وأبصارنا كانت تسامى له وقد غدا الكل منا طرفه اليوم قد غَضَا^(٥)
 وقد كان طرفى ليس يُغضى على القَدَى فأضحي على أقدائِهِ اليوم قد أغضَى^(٦)

فقد ماتت في هذا الفقيد عُدَّةٌ ضخمة للمسلمين في صقلية النورمانية، إذ عدم الشاعر وغيره

(١) مرتب: مقام طيب.

(٢) لهاء كل ذى حلق: الجزء المشرف عليه في

(٣) أجفانها: أعمادها. تنضى: تُنَل.

(٤) غَضُ الطرف: خفضه

(٥) أغضى بغضى: أغمض

أنفى سقف الفم.

(٦) المذاكى: الخيل. المقربات: المنة للركوب

من المسلمين هناك كل عيش كانوا يقتنعون به وبعد أن كانت أبصارهم تتطلع إلى الفقيد معلقة به أمانيتها أخذت اليوم تنفض منها خشوعا، وكان طرف الشاعر لا يفضى على القذى فأصبح اليوم يفضى على أقداء كثيرة.

٢

شعراء الزهد والوعظ

زاهد الأمة الأول وواعظها الرسول ﷺ وتلك طبقات من الزهاد والواعظ كانت تفرق وعظها وزهدا بالعبادة والنسك، ونجدهم في جميع البيئات الإسلامية، وفي كل زمن. وتزوج بواعظهم وكلماتهم الزاهدة الكتب من مثل البيان والتبيين للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربه وزهر الآداب للحصري، وتجري على ألسنة الشعراء في صقلية الإسلامية أبيات تتصل بالوعظ والزهد، من ذلك قول أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الغنى المقرئ الواعظ^(١):

أيا من نال في الدنيا منأه تأهب للفراق ولرحيل
ولا تفرح بشئ قد تنأه فما بعد الطلوع سوى النزول

وهو ينصح من نال في الدنيا كل آماله أن يتأهب لفراقها بالصلاة والنسك، ويقول له لا تفرح بشئ بلغ نهايته، فلم يعد أمامك بعد المنزلة التي صعدت إليها إلا النزول إلى قبرك الموحش. ويقول جعفر^(٢) ابن الطيب الكلبي:

ومستعبط بعيش غير ساق يروم سلامة تحت هلاك
ألا يحارب قد حارت عقول وعُلت بالقليل عن الحراك
وقد نصبت لك الدنيا شيكا فإياك الدنو من الشباك

وهو يعجب لمن يفرح بعيش لا يدوم وكأنه يروم سلامة تحت هلاك محقق، ويعجب لأناس غرهم ما حصلوا عليه من قليل في الدنيا فسكنوا إليه ولم يتحركوا لقضاء ما عليهم من الحقوق لربهم، وينصحهم أن لا يقتربوا من شيك اللذات والشهوات التي نصبتها لهم الدنيا، حتى لا يقيموا فيها عن غير بصيرة. ويقول أبو عداقة محمد بن قاسم بن زيد اللخمي الكاتب القاضى مناجيا ربه^(٣):

(٣) حار: مرخم حارث

(٤) الحريدة ١١٨/١

(١) الحريدة ١١٠/١

(٢) الحريدة ١١٤/١

يُبارِكُ صفحا وغفرانا ومَعذرةً لِمَذْنِبٍ كَثُرَتْ مِنْهُ الْمَآذِيرُ
يُتَكَبَّرُ إِجْرَائُهُ طَوْرًا وَيُضْحَكُهُ رَجَاؤُهُ فَهَوُاْ مَحْزُونُونَ وَمَسْرُورُونَ

وهو يطلب من الله الصفح والعفو والغفران لما ارتكب من الذنوب، ويفكر في أمره فيراه يهكي لكثرة ذنوبه ويضحك لرجائه لربه، وكأنه يجمع بين نقيضين، فهو دانا محزون لمعاصيه ومسرور لما يأمل عند الله من العفو والمغفرة، ولأبي حفص عمر بن حسن بن الطبري، وكان من أهل الدين والورع والعفاف^(١):

سَلِقْنِي الْعَبْدُ مَا كَسَبْتُ يَدَاهُ وَيَقْرَأُ فِي الصَّحِيفَةِ مَا جَنَاهُ
وَيُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبٍ سَالِفَاتٍ فَيَبْقَى حَائِرًا فِيهَا ذَهَاهُ
فِيَاذَا الْجَهْلُ مَالِكٌ وَالتَّمَادَى وَنَارُ اللَّهِ تَحْرِقُ مَنْ عَصَاهُ
فَعَمُولٌ فِي الْأَسُورِ عَلَى كَرِيمٍ تَوَحَّدَ فِي الْجَلَالَةِ فِي عُلاهُ
وَأَمْسَلَ عَفْوَهُ وَأَفْزَعُ إِلَيْهِ وَلَيْسَ يَخْجِبُ مَخْلُوقُ رَجَاهُ

وهو يقول إن كل إنسان سيحاسب يوم القيامة وتعرض عليه صحيفة حاملة إليه ما كسبت يده في دنياه، ويسأل عما ارتكب من ذنوب وآثام فَيُرْتَجَّ عليه، ويختار فيما اقترفه، وواجب أن لا يتمادى الإنسان في غيه ويذكر المجيع المعدة للعاصين، ولا ييأس من رحمة ربه الكريم قابل الذنوب والتوب الذي يعفو عن عباده الآثمين، ولا يخيب مخلوق رجاءه. ويقول أبو عبد الله بن الطبري^(٢):

يَحِبُّ بَنُو آدَمَ رَبَّهُمْ وَلَكِنْهُمْ بَعْدُ يَعْصُونَهُ
وَإِبْلِيسُ قَدْ شَرِبُوا مِنْهُ وَهُمْ بَعْدُ ذَاكَ يُطِيعُونَهُ
فَهَذَا التَّنَاقُضُ فَا بِالْهَمِّ يَرُونَ الضَّلَالَ وَيَأْتُونَهُ

وهو يعجب لمن حوله، فهم يعلنون حبهم لربهم ويعصونه، كما يعلنون بغضهم لإبليس وطيعونه، وإنه لتناقض ما بعده تناقض، فما بالهم يرون الضلال وانحرافهم بهم عن الطريق المستقيم ويأتونه. ويقول في مقطوعة ثانية^(٣):

لَوْ قُلْتُ لِي أَيْ شَيْءٍ تَهَوَّى؟ لَقُلْتُ خِلَاصِي
النَّاسُ طَرًّا أَفَاعٍ قَلَّتْ حِينَ مَنَاصٍ^(٤)

(٣) الخريدة ٧٢/١

(٤) مناص: ملجأ

(١) الخريدة ١٠٦/١

(٢) الخريدة ٦٤/١

نَسُوا الشَّرِيعَةَ حَقًّا تَفَامَزُوا بِالْمَعَاصِي
يَاوِيحِهِمْ لَوْ أَعَدُّوا لَهْلَوْلَ يَوْمَ الْقِصَاصِ

وهو يقول إن المجتمع فسد، والناس فيه جميعاً أفاع ويتنق منهم الخلاص، إذ نسوا الشريعة وأوامر الدين وإنهم ليتفامزون على ارتكاب المعاصي في غير خوف من الله ولا من يوم القيامة يوم يؤخذ العاصون بالنواصي والأقدام ويقول: ياوِيحِهِمْ لقد كان حرياً بهم أن يُعَلِّمُوا ليوم القصاص، يوم يُسأل كل شخص عما قدمت يداه. ويبدو أن ظاهراً من التصوف كان قد دخل صقلية الإسلامية في زمنه، فأناس يلبسون مرقعات الصوف، وأناس يغنون على صفوف الذكر، وآخرون يهيجون ويرقصون، فقال^(١):

ليس التصوف لبس الصوفِ ترقمه ولا بكأوك إن غنى المغنونا
ولا صمياح ولا رقص ولا طرب ولا تغاشي كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كبر وتتبع الحق والقرآن والديننا
وأن تُرَى خائفاً قه ذا نسيم على ذنوبك طول الدهر محزوناً

فالتصوف ليس لبس مرقعات الصوف والبكاء حين سماع المغنين والرقص والطرب وأن يقع المتصوف مفشياً عليه أو كالغشي كأنه صار مجنوناً، بل التصوف الصفاء الديني واتباع الكتاب والسنة والخوف من الله والتدم على الذنوب. ومن الرعاظ قبل العهد النورماني عمر بن خلف بن مكى، وسنفرده بكلمة، ويقول ابن القطاع^(٢):

ننبه أيها الرجلُ النُومُ فقد نجمت بعارضيك النجومُ
وقد أبدى ضياءُ الصبح عما أجنَّ ظلاله الليلُ البهيمُ^(٣)
فلا تفرُّك بما مفرورٌ دُنِيا غرورٌ لا يدومُ بها نعيمُ^(٤)
ولا تعسِّطْ بمعوجٍ غموضٍ فقد وضع الطريق المستقيم

وهو يقول تنبه أيها الرجل الذي اعتاد النوم عن أداء فروض دينه وعبادة ربه، فقد ظهرت نجوم الشيب بعارضيك. وأبدى ضياء الرشاد عما أجنَّ ليل الشباب البهيم من ظلام النسي، فلا تفرُّك بما مفرورٌ خادعة لا يدوم بها نعيم ولا تحيط - كالأعمى - في طريق معوج غامض، فقد وضع أمام عينيك الطريق المستقيم. ونلم بعمر بن خلف بن مكى وماله من مواضع.

(٣) البهيم: المغمى

(٤) غرور: خادعة

(١) الحريدة ٧٢/١

(٢) الحريدة ٥٥/١

هو أبو حفص عمر بن خلف بن مكي، منشؤه ومرباه وشيوخه في صقلية وفي مقدمتهم ابن البر اللغوي، وعليه تفرج ويذكر في مقدمة كتابه اللغوي النفيس: «تتيف اللسان» أنه عرضه عليه فما أقره أبقاه وما أنكره أخلا الكتاب منه، وأدى به فقهه وعلمه إلى تولى منصب القضاء في بلده، وقد خرج منها إلى تونس قبيل استيلاء النورمان عليها، واستوطنها وولى قضاها وخطابة جامعتها، وينقل العماد عن ابن القطاع تقديمه له بقوله: «انتقل إلى تونس، وولى قضاها، وهو فقيه محدث، خطيب، لغوي، وفضله بالألسنة في جميع الأمكنة مأثور مروي، وله خطب لا تقصر عن خطب ابن نباتة، تعجب رواته، ومن قوله:

يا حريقاً قطع الأيَّام في بؤس عيشٍ وعناءٍ وتعَبٍ
ليس يصدوك من الرزق الذي قَسَمَ اللّهُ فأَجَلٌ في الطَّلَبِ

وهو يدعو إلى القناعة والزهد والرضا بما قسمه الله للإنسان، فإن أحداً لن يصيبه ضياع، بل الكل سيكفل له رزقه، ولا داعي للعناء الشديد في طلبه ولا للحرص أكثر مما ينبغي، فما قدر لك سيأتيك. ويقول مذكراً بالموت داعياً إلى التقوى والعمل الصالح:

عجبا للموت ينسى وفو ما لا بُدَّ مِنْهُ
كيف تنساه وقدجا ءتكَ رُسُلٌ من لَدُنْهُ
سوف تلقى الوَيْلَ إن جند ستَ بعْضُ لم تُبْينْهُ
وترى جسمك في النّاء ر غدا إن لم تُصْنِهُ
والذي ينجو من النّاء ر أخو التقوى فكُنْهُ

وهو يعجب لمن ينسى الموت وهو مكتوب على الإنسان، وقد جاءته رسل من لدن الله تهبه إلى الرشاد، ويقول إن من لا يستطيع أن يقدم عذرا عن سيئاته سيلقى الويل والعذاب الشديد، ومن لا يصون جسمه بالعمل الصالح ستكون النار مصيره، إذ لا ينجو منها إلا أخو التقوى والعمل الصالح، وحرى بك أن تسلك مسالك التقوى والهدى، فإن في ذلك الفوز الكبير. ويدعو إلى العزلة عن الناس والاكتفاء بأقل ما يمكن من العيش وبمصاحبة الكتب، ولا تعلق رجاءك بأحد، يقول:

٦٤٦ وكتابه تتيف اللسان مطبوع بالقاهرة بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب

(١) انظر في ابن مكي الحريذة ١٠٦/١ وإنهاء الرواة للقطبي ٣٢٩/٢، والمكتبة الصقلية ٥٩٧.

اجعلْ صديقَكَ نَفْسَكَ وجوْفَ بيتِكَ جِلْسَكَ^(١)
واقطعْ بخُبْزٍ وملحٍ واجعلْ كتابَكَ أَنْسَكَ
واقطعْ رجاءَكَ إلا ممن يصرفُ نَفْسَكَ
تعيشُ سلبًا كريمًا حتى توافيَ رَمْسَكَ^(٢)

وهو ينصح الإنسان أن لا يتخذ صديقا له إلا نفسه، فليس من صديق حقيقى تستطيع الاستعانة به حين يلم بك خطب من الخطوب، بل إنه ليدعوه إلى اعتزال الناس جميعا ولزوم بيته، حتى لا يصيبه أذاهم، وينصحه بالزهد فى متاع الحياة والرضا بأقل القليل: بخبز وملح فيها حسبه، وهما يكفياها أن يريق ماء وجهه فى طلب ما فوقها من طيبات الدنيا. ويقول له: اكتف بالكتاب، واتخذ صديقك وأنيسك فإنه سيضيف إليك معرفة، ولن يؤذيك أى أذى ولن يضرك أى ضرر، وينصحه أن يقطع رجاءه من الناس، فليس بينهم من يحقق له رجاء إلا إذا ألجأته الضرورة لمن يصرف أمره، ويقول له إذا اتبعت هذه النصيحة من الزهد فى متع الحياة وعشت متقشفا ترضى بكسرة أو قطعة من الخبز واكتفيت بإدامها من الملح، ولم تتخذ لك صديقا سوى الكتاب، ولا أملت من أحد شيئا عشت أسعد السعداء حتى وفاتك. ويقول:

مَنْ كان منفردا فى ذا الزمان فقد نجى من الذلِّ والأحزان والقلَقِ
تزوينا كركوب البحر ثم إذا صرنا إلى وليدِ صرنا إلى الفَرْقِ

وهو يمدح العزلة والانفراد عن الناس حتى عن تكوين الأسرة، ويشتمل الزواج كركوب البحر ومخاطره من العواصف، ويتصور الأولاد ومطالبهم ومتاعبهم فى الحياة عواصف مائتة تتناول راكب البحر وسفينته، حتى يفرق.

٣

شعراء التفعيل والحنين واللوعة

استعالت صقلية فى العهد الإسلامى إلى جنة فيحاء من جنات المسلمين بمدنها وحصونها التى تعد بالعشرات، بل بالمئات، ويعقوها وزروعها من كل صنف، ويعدانها وثمارها من كل لون، وبأزهارها الأرجة التى تعطر جميع الأنحاء فيها والأرجاء. وبينما كانت تعيش فى أمن ورفاهية إذا أمراء الطوائف يقيمون لهم فيها عروشا وإمارات ويدب بينهم الشقاق وتتكاثر الفتن. ويشهر الإخوة المسلمون السلاح بعضهم على بعض، ويتسلل ابن الثعنة حاكم بلرم الخائن إلى روجار وروبرت ابني طنكراد (Tancrede) أميرى قَلُورِيَّة وأنكَبَرْدَة فى جنوبى إيطاليا مستنجدا بهما ضد

(٢) رمسك: قبرك

(١) حلسك: مكان إقامتك لا تبرحه

حاكم مدينة قصر يانة وينجده روجار، ويستولى على مسيني ثم على بلرم سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م وكان ذلك إنذاراً باحتلال الجزيرة وضياها، فلم يمر عشرون عاماً حتى أخذت مدنها فيها تتساقط في حجر روجار، وأصبح المسلمون يلقبون أكفهم على ما أنفقوا فيها وأنشئوا بها من حضارة وقصور وزروع وحدائق ذات بهجة، وأخذ كثير من علمائها وشرائها يؤدعونها، منهم من يتماسك مثل أبي العرب^(١) الصقل الذي رحل عنها إلى الأندلس منشداً:

أهمُّ ولى عَزْمَانِ عَزَمَ مَشْرِقُ وَأَخْرَ يُغْرِي مَتَى بِالْمَغَارِبِ
ويا وطني إِنْ بَنَتْ عَنِّي فَبِأَنِي سَأَوْطُنُ أَكْوَارِ الْعِتَاقِ النَجَائِبِ^(٢)
إِذَا كَانَ أَصْلَى مِنْ تَرَابٍ فَكُلُّهَا بِلَادِي وَكُلُّ الْعَالَمِينَ أَقَارِي

وكان لا يدري حين فراقه للجزيرة هل يتجه شرقاً أو يتجه غرباً إلى الأندلس، واختار الاتجاه إلى الغرب، ويتخيل كأن الوطن هو الذي بان عنه بكثرة ما فيه من الفتن والحروب مما اضطره إلى مفارقتها وتوطنه في رحال الإبل النجيبة باحثاً عن وطن جديد، ويخفف الأمر على نفسه، فإذا كان أصله من تراب وكل البلاد تحمل التراب فهي جميعاً بِلاده، وكل من فيها من العالمين من أقاربه وذوي رحمه، وإذا كان أبو العرب متماسكاً هذا التماسك في اضطراره إلى النزوح عن وطنه فقد كان هناك من لا يزال يحن إليه مثل عمر بن رحيق الذي نشأ وترى في بلرم، حتى إذا استولى عليها روجار والنورمان رحل عنها، ولا تزال ماثلة نصب عينيه، ولا يزال يحن لها ولأهله، ولا يزال حُبها يضطرم في حنايا فؤاده وصفت^(٣):

نَفْسِي تَحْنُ إِلَى أَهْلٍ وَأَوْطَانِ وَهَلْ رَأَيْتُمْ مَحَبًّا غَيْرَ حَنَّانِ
كَانُوا بِقَلْبِي أَحْيَاءُ وَفِي كَيْبِدِي نَارٌ تَأْجِجُ مِنْ شَجْوَى وَأَحْزَانِ
عَزُّ اصْطَبَارِي لِرُزْوٍ قَدْ دُهِيَتْ بِهِ وَبَانَ عَنِّي لَوْشِكُ الْهَيْئِ سُلْوَانِ

فهو يحن إلى أهله ووطنه حين ملتان فقد هما، وكانوا ماثلين تحت بصره وفي قلبه، فغابوا عنه وتأججت نار بكده من شجوه وأحزانه التي يكتبها بها فؤاده، ويقول إنه رزء ومحنة دهره، وعزُّ عليه أن يتحملها وكيف يتحملها؟ لقد نفذ صبره، وفارقه سلوانه، ولم يبق له إلا الحزن الممض والشحى الموجه، وأكبر شاعر توجع ونفجع على فقدان صقلية ابن حمديس، وهو جدير بأن نفرده بترجمة.

ابن^(١) حمديس

هو عبد الجبار بن حمديس، ولد بمدينة سرقوسة الواقعة شرقي صقلية سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٦ م لأسرة على شيء من الثراء والعلم والفضل، واختلف مثل لداته إلى الكتاب فحفظ القرآن الكريم، وتحول منه إلى حلقات الشيوخ، ونزعت به ميوله إلى الأدب والشعر، ولم تلبث موهبته الشعرية أن تفتحت، وتكونت له رفقة كانت تأخذ بنصيب غير قليل من اللهو والذهاب إلى الحانات والأديرة لشرب الخمر والمتاع بالفناء. وكانت يلزم قد سقطت في يد روجار والنورمان، وهذا في الأفق أنهم يتأهبون للاستيلاء على سرقوسة وغيرها من بلاد الجزيرة، وأخذ يعد نفسه - مثل أقرانه - للقاءهم برا وبحرا، ونفاجأ به في نحو الرابعة والعشرين من عمره يُصرّ على أن يغادر بلده إلى الأندلس مارا بإفريقية وتيم بن المعز مرورا سريعا وربما كان السبب الحقيقي في مغادرته بلده لا فرارا من معركة صقلية وسرقوسة مسقط رأسه ضد النورمان، ولكن طلبا للشهرة في عالم شعري مزدهر، يأمل أن يتحقق له فيه ما يتمناه لنفسه من مكانة أدبية مرموقة بين شعراء الأندلس الذين كانت أسماؤهم تدوى في العالم العربي، ولعله من أجل ذلك اختار النزول بأهم بيئة شعرية في الأندلس، إذ كان بها أكبر راع للشعر بين أمراء الطوائف، ونقصد المعتمد بن عباد. وحط رحاله في بلدته إشبيلية سنة ٤٧١ هـ/١٠٧٨ م ولزم باب قصره فترة، وبعث إليه ببطاقة شعرية يقول فيها:

أَيَا مُوَلِّي الصَّنْعِ الْجَمِيلِ إِذَا انْتَشَى وَيَا مُسَيِّدِي النُّبْلِ الْجَزِيلِ إِذَا صَحَا
وَفِي كُلِّ أَرْضٍ مِنْ نَدَاهُ حَدِيقَةٌ تَضُوعُ مَسْكَ نَوْرُهَا وَتَفْتَحُهَا^(٢)
أَفْرَدَ بِالْحَرَمَانِ مِنْ كُلِّ عَاطِلٍ تَطْلُوقُ مِنْ نَعْمَاكَ ثُمَّ تَوْشَحُهَا^(٣)

وما إن قرأ المعتمد البطاقة حتى أعجب به واستدعاه محفلا باستقباله ومنحه جائزة سنوية، وطلب إليه أن يظل في حضرته، وظل بها يمدحه بقصائد طوال في مناسبات مختلفة، وكانت إشبيلية في عهد المعتمد تعيش عيشة لاهية فشارك في هذه المعيشة وتمتع بمناظرها الطبيعية البديعة، وأتاه نعي أبيه فحزن لوفاته ورثاه بقصيدة باكية استهلها بقوله:

-
- (١) انظر في ابن حمديس، الحمريسة ١٩٤/٢ والذخيرة ٣٢٠/٤ وابن خلكان ٢١٢/٣ والجزء الأول من عنوان الأريب لمحمد النضر (طبع تونس) بتحقيقه وتقديمه له ودراسة الدكتور إحسان عباس في كتابه العرب في صقلية ص ٢٣٥ وديوانه
- بتحقيقه وتقديمه له.
- (٢) تضوع: ذكرت رانته
- (٣) تطلوق من الطوق وتوشع من الوشاح كتابة عن إسباغ نعمة عليه

أتاني بدار النوى نعيه فيا روعة السمع بالدهيه

وكان يسمع أخبار مسقط رأسه سرقوسة ومقاومتها الضيفة للنورمان بقيادة بطلها ابن عباد
فيهتز طربا ويكبر عنده الأمل في ضرب النورمان الضربة القاضية، وبالمثل كانت تأتيه أخبار
ابن حمودة في قصر يانة ومنازلته للنورمان منازل ضارية، فيعظم عنده الأمل في طرد النورمان من
صقلية، ويرسل إلى قومه يحضهم على جهاد العدو الفاشم ويحثهم على منازلة العدو منازل
حاسمة، فلها عليهم جميعا حقوق، وواجب أن ينصروها ولا يخذلوا حتى الذماء الأخير:

وه أرض إن عديتم هوائها فأهلؤكم في الأرض متورة نظم
وعزكم يقضى إلى الذل والنوى من البين ترمى الشمل منكم بما ترمى
أعن أرضكم يثنيكم أرض غيركم وكم خالة جداء لم تقن عن أم^(١٢)
تقيذ من القطر العزيز بموطن ومث عند ربع من ربوعك أو رسم
وإياك يوما أن تجرب غربة فلن يستجير العقل تجربة السم

وهو ينصح الباقيين بعده في سرقوسة وغير سرقوسة أن لا يفكروا في مبارحتها حتى
لا يعدموا هوائها الذي يتنفسونه ويحيون به ولا عزهم الذي يعيشون فيه وإلا تحولت حياتهم
إلى ذل وهوان، وهل تغنى أرض عن أرض الوطن، ويبيب بكل صقل مسلم أن يقيد نفسه
بموطنه، وأن يظل يدافع عنه حتى يموت عند ربع من ربوعه أو عند رسم من رسومه، ويحذره من
المجرة عنه والإفضاء إلى غربة، هي سم قاتل. ويعتذر لنفسه مرارا عن مبارحته الوطن في وقت
محنته وأنه لا يستطيع العودة إليه، لما يقدق عليه المعتمد بن عباد من أفضال متصلة. وفي رأينا أن
العائق الأهم عن عودته لوطنه إنما كان المجد الأدبي الذي أخذ شعره يحققه له في الأندلس،
وبذلك تحققت أمنيته الكبرى من مبارحة الوطن. وكأنما قيده هذا المجد بإشبيلية فلا يستطيع
منها خلاصا وحراكا. وتسقط في أيدي النورمان سرقوسة مسقط رأسه سنة ٤٨٢ وتسقط بعدها
قصر يانة سنة ٤٨٤ ويتلاشى من نفسه ونفس كل صقل الأمل في استرداد صقلية، وينظم
قصيدة جنائزية يودعها بها قائلا:

أعاذل دغنى أطلقي العبرة التي عدمت لها من أجمل الصبر حايسا
لقتلرت أرضي أن تمود لقومها فساءت ظنوني ثم أصبحت بائسا
وكيف وقد سيمت هوائنا وصيرت مساجدها أيدي النصارى كئاسا
إذا شاءت الرهبان بالضرب أنطق مع الصبح والإسماء فيها النوايسا

أرى بلدى قد سامه الروم ذلةً وكان بقومى عزه متعاساً^(١)
وكانت بلاد الكفر تلجس خوفه فأضحي لذلك الخوف منهن لابساً

وهو يقول لصاحبه دعنى أترف الدموع التى لم يعد لها حابس من الصبر، إذ ظل ستين طويلة يظن أن صقلية ستعود إلى أهلها، فخاب ظنه، بل لقد أصبح يائساً يأساً مرا، فقد صهلت خيل النورمان فى كل أنحائها، وسيمت هواناً ما بعده هوان، وأى هوان أعظم على نفس المسلم من أن يرى بلده تسقط فى حجر النصارى ويحولوا مساجدها كنائس، ويضرب الرهبان فيها التواقيس صباح مساء، لقد سام الروم صقلية الإسلامية ذلةً ماتمائلها ذلة، صقلية التى كانت تمتاز بمسلميها عزة لا تدانيها عزة. وكان النورمان فى جنوبى إيطاليا إذا سمعوا اسمها ارتعدت فرائصهم خوفاً ورعباً، فإذا الأمر ينعكس ويصبحون هم مصدر الخوف لأهل صقلية الإسلامية.

ويفيض ابن حمدى فى الحديث عن بأس أهل صقلية المهيضة وجهادهم اليائس حين كانوا يسوقون أمامهم فرانس قلويرةً وبطارقتها وأشواستها أسارى منكسين ومعهم نسائهم حواسر. وليتأت الجيش النورمانى فى خطوه، فإنه يمشى فى بلاد تحت أرضها شجعانها الذين طالما أذلوا أهل قلويرة، ولو شقت القبور عنهم لخرج إليهم منها أسد كاسرة غاضبة، غير أن القيل غابت ليوته فتبخرت فى أرجائه الذئاب.

ويحدث عقب ذلك أن يخلع يوسف بن تاشفين المعتمد بن عباد سنة ٤٨٥ من إمارته فى إشبيلية وينفيه إلى أعماق فى مراكش ونرى ابن حمدى يزوره بها ويحاول أن يخفف عنه ماداه، منشداً رداً على شعر كتب به إليه مستينساً:

أتَيْأَسُ فى يومٍ يَنَاقِضُ أَمْسَهُ وَزَهْرُ الدَّرَارِى فى البروج تَدُورُ^(٢)
ولما رحلتُم بالنَدَى فى أَكْفُكُمْ وَقَلِيلَ رَضَوَى مِنْكُمْ وَنَبِيرُ
رَفَعْتُ لِسَانِي بِالْقِيَامَةِ قَدْ دَنَتْ فَهَذِي الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ تَسِيرُ

ورضوى جبل بالمدينة، وتبوير: جبل بمكة، وهو يقول له ينبغي أن لا يتأس من أن يتغير الحال، فالكواكب الساطعة لا تثبت بل تدور فى بروج متعددة، ولما رحلتُم بالندى فى أكفكم وكأنما تحرك جبلا المدينة ومكة المقدسان صحت إن القيامة قد دنت فهذا هو الجبال الراسيات تسير كما جاء فى الذكر الحكيم نعتاً ليوم البعث.

ويتصل بأبى القاسم بن عشرة قاضى «سلا» على المحيط ويتجه إلى بجاية بالجزائر ويدع المنصور بن الناصر بن علّاس (٤٨٣ - ٤٩٨ هـ) ويولى وجهه نحو المهديّة وقيم بن المعز بن

باديس ويلقاء لقاء حسنا، ويظل يتردد بين البلدتين ويضفي مدائحه على يحيى بن تميم بن المز وابنه من بعده على وحفيده من بعدهما الحسن ويكثظ الديوان بمدحهم جميعا، ومدح بنى خراسان في تونس ويظل يتردد على بجاية مدح بعض رجالها من بنى حماد. ومنذ أن هاجر من صقلية لم ينسها يوما وظلت لا تبرح ذاكرته حتى أنقاسه الأخيرة، ويخصها بعد سقوطها بأشعار مؤثرة يبكىها ويكى أيام مجدها، من ذلك قصيدة بائية في مدح تميم بن المز وفيها يقول:

تَدْرَعْتُ صَبْرِي جُنَّةً لِلنَّوَائِبِ فَإِنْ لَمْ تُسَالِمْ بِإِزْمَانٍ فَحَارِبِ

وهو إنما يتدرع صبره ويحتنى به استسلاما، فإن الزمان أدار معه معركة حامية الوطيس فقد فيها كثيرا من أهله وحماة بلده، بل لقد فقد بلده نفسها غير مبق له على أى شيء، إلا أن يتنقل في صحارى إفريقيا وسهوبها ولا أليف ولا أنيس:

وَلَا سَكْنَ إِلَّا مَنَاجَاةَ فِكْرَةٍ كَأَنِّي بِهَا مُسْتَحْضَرُ كُلِّ غَائِبٍ
وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ يُرْهَبُ شَرُّهُمْ تَجَنَّبْتُهُمْ وَاخْتَرْتُ وَحْدَةَ رَاهِبٍ
وَحَتَّى خِيَالٍ كُنْتُ أَخْطِي بِوَصْلِهِ لَهُ فِي الْكَرَى عَنْ مُضْجِي صَدُ غَائِبٍ
فَهَلْ حَالٌ مِنْ شَكْلِي عَلَيْهِ - فَلَمْ يَزُرْ - قَضَاةٌ جَسْمِي وَأَبْيَاضُ ذَوَانِي^(١)

فلم يعد له سكن يسكن إليه إلا أن ينجى فكره مستحضرا ما غاب عنه خاليا بنفسه ومعتزلا للناس، بل لكأن كل شيء من حوله يعتزله حتى الطيف الذي كان يسمعه وصله في نومه وأحلامه انقطع عن مضجعه صاذاً عنه لا يزوره، فهل تغير شكله عليه وماحدث له من نحافة جسمه وأبيضاض شعره، فلم يعد يعرفه ولم يعد يلقاه، ويذكر إخوان الصفاء وليالي الأنس بصقلية. وكان يتمنى لو استطاع الرجوع، غير أنها أصبحت مسترقة للأعداء:

وَلَوْ أَنَّ أَرْضِي حُرَّةً لَا تَيْتُهَا بِعِزِّمْ يَبْدُو السَّيْرُ ضَرْبَةً لِإِزْبٍ
وَلَكِنْ أَرْضِي كَيْفَ لِي بِفِكَاكِهَا مِنَ الْأَسْرِ فِي أَيْدِي الْعُلُوجِ الْفَوَاصِبِ
لَنْ ظَفَرْتُ تِلْكَ الْكَلَابَ بِأَكْلِهَا فَبَعْدَ سَكُونٍ لِلْمَرْوِقِ الضَّوَارِبِ^(٢)

فعانقه إلى أرضه أنها استعبدت وأصبحت ملكا لغير أهلها، بل لقد أسرت ووضعت الأغلال في أيديها وأرجلها، ولم تعد تستطيع خلاصا ولا فكاكا ولا تحررا، وقد ظفرت بها كلاب الأعداء تنهشها بعد جهاد أهلها لهم جهادا عنيفا، وير يفتنتهم قبل غزو التورمان مرورا خاطفا ويفيض

عن هود مقاومة أهل صقلية بعد الجهاد العنيف.

(١) قضاة: نحافة.

(٢) كفى ابن حمديس يسكون المروق الضوارب

في الحديث عن بطولتهم في حروب الروم وكيف كانوا يموتون موت البسلاء الشجعان:

يموتون موت العَزْ في حَوْمَةِ الوَغَى إذا مات أهلُ الجبل بين الكواعِبِ^(١)
حَشَوْا من عَجَاجَاتِ الجهادِ وسائِداً أُعِدَّتْ لهم في الدُّفنِ تحتِ المناكِبِ^(٢)
فغاروا أَقْوَلَ الشَّهبِ في حُفْرِ البَلَى وأبقوا على الدنيا سوادَ الغياهِبِ^(٣)

لقد أبلوا بلاء عظيماً في حرب الروم قديماً بَقْلُورِيَّة وحديثاً بصقلية، وما منهم إلا من يقدم نفسه فداءً لوطنه، وما منهم إلا من واقع الروم مراراً وتكراراً حتى اجتمعت له وسادة من غبار وقائمه أُعِدَّتْ له ليتوسطها في قبره، وما زالت بهم البطولة المتناهية حتى أفلوا - أفلو النجوم - في حفر البلى مخلفين ورامهم على آفاق الدنيا سواد حزن وثكل لا يشبهه سواد. ويلتفت إلى داره الفريقة بنوطس وسرقوسة، ويستودعها الله ويستعطر لها السحاب المطر، ويهتف:

ألا في ضَمَانِ الله دَارُ بِنُوطُسِ وَدُرْتُ عَلَيْهَا مُقَصِّرَاتُ المَوَاضِبِ^(٤)
أَمْثَلُهَا في خَاطِرِي كُلِّ سَاعَةٍ وَأَمْرِي لَهَا قَطْرُ الدَّمْعِ السَّوَكِبِ^(٥)
أَحْنُ حَنِينِ النَّيْبِ لِلْمَوْطِنِ الَّذِي مَغَانِي غَوَانِيهِ إِلَيَّ جَوَازِبِ^(٦)

وهي تَمُثِّلُ له ليل نهار وصباح مساء في خواطره، بل إنها لتمثل له كل ساعة وكل لحظة، وينرف لها الدموع السواكب مداراً، ويحن - حنين الإبل - للموطن الذي نبت فيه، وإن مغانيه ومنازله لتجذبه إليها جذها، وكأنما أودعها فؤاده ويريد أن يسترقه، حتى لا يحمي جسمه بدونه ودون خفقانه. وله في صقلية قصيدة ثانية هائية يستهلها بقوله:

قَضْتُ في الصَّبَا النَّفْسَ أَوَطَارَهَا وَأَبْلَفَهَا الشَّيْبُ إِنْدَارَهَا^(٧)

وهي أشبه بشرطٍ لذكريات صباه وشبابه في سرقوسة، ويذكر مجالس لهو بها ويتذكر ليلة ساهرة والندامى من حوله وساقية تَزُرُّ بِكْفِهَا أَرْزَارَهَا:

تَدِيرُ بِيَاقُوتَةٍ دُرَّةً فَتَنفَعُسُ في مَائِهَا نَارَهَا

ويشربها رفاقه، ويمعنون في الشرب، ويذهبون إلى دير، يحسون الخمر، ويطلق في وصف

- (١) حومة الوغى: أشد موضع في الحرب.
(٢) عجاجات جمع عجاج: غبار.
(٣) الغياهب جمع غهيب: الظلام الشديد.
(٤) المقصرات: السحب المسطرة والمساب.
(٥) أمرى: أسكب وأزفر.
(٦) النيب: النوق. مغاني: منازل.
(٧) أوطارها جمع وطر: البقعة والحاجة.

مجلس الطرب، ويذكر ما فيه من الغناء والرقص والشموع المتقدة قائلا:

لقد سَكُنْتُ حركاتِ الأسي قِيَانٌ تُحَرِّكُ أوتارها
فهذي تصاق عُودًا لها وتلك تقبَّل بِرَمَارها
وراقصة لقطت رِجْلُها حسابَ يَدِ تَقَرَّت طارها
وقُضِبَ من الشمع مصفرة تريك من النار نُوارها
كأننا نُلَطُّ آجالها عليها فتمسَّقُ أعمارها

وإن للغناء هناك من القيان لشوة تسكن حركات الأسي في النفس أوتارها بما تصب في الأذان من نغم بديع، والعود مسند إلى صدر قينة كأنه يعانقها، وقينة أخرى كأنها تقبل زممارها، وراقصة كأنما تلتقط قدمها نقر صاحبها يدها على طارها، متفنتة في حركاتها، والشموع متقدة طول هذا المجلس اللاهي، وكأنما آجالها تنقص أعمارها تدريجاً حتى تتمحق. وينتهي شريط الذكريات ونحن إلى صقلية مستودع صباه وشبابه وليلال أنسه ومرحه، ويهتف.

ذَكَرْتُ صَقْلِيَّةً وَالْأَسَى يَمِجُ لِلنَّفْسِ تَذْكَارها
ومنزلةً للتصاي خَلَتْ وكان يَبُو اللُّهُو عُمَارها
فإن كنتُ أُخْرِجْتُ من جُنَّةٍ فإني أَحَدْتُ أَخْبَارها
ولولا ملحوة ماء البُكا لَخَلْتُ دُمُوعِي أَنْهَارها

وهو يذكر صقلية ومنازل صايبه وشبابه فيها والحزن يقطع نياط قلبه عليها حسرة ولوعة، ويقول إنها لجنة عظيمة أخرجت منها، وحرى بي أن أحدث أخبارها وأبكيها بدموع غزار، ويذكر أنه سيبكيها عشرات السنين بأنهار من الدموع لا تتوقف سيولها. ولعلها توقفت قليلاً حين أبهجه انتصار جيش الحسن بن علي بن يحيى بن تميم سنة ٥١٧هـ/١١٣٧م على جيش الملك روجار الثاني في وقعة الدياس منتصف الطريق بين المنستير والمهدية على الساحل التونسي، وكان روجار يبغى الاستيلاء على المهدية، فردَّ جيشه مدحوراً إلى صقلية، وأشاد ابن حمديس بهذا الانتصار إشادة رائة في قصيدة له رائية يمدح بها الحسن بن علي بن تميم مهنتاً له بالنصر على الأعداء من النورمان:

لِيَهْنِكَ فَتَحٌ أَوْلَخَ السِّيفَ فِيهِمْ ولاح بوجه الدِّين من ذكره يَنْشُرُ^(١)

(١) أولخ السيف فيهم: جعله بلغ وشرب من دمانهم.

ودون مَرامِ الرُّومِ فيما سَمَوْا له
وكم من فريق منهم إذ تَسَرَّعُوا
فَقَلَّ عَنْهُمْ الدِّيمَاسُ تَسَعَّ حَدِيثُهُمْ
هناك شفى الإسلام منهم غَلِيلَهُ
أَعَارِبُ جَدُّوا في جهادِ أعاجِمِ
قَلَانْدُ أَعْنَاقِي هِيَ الْقَضْبُ الْبُتْرُ^(١)
له غَرَقُ في زَخْرَةِ الموجِ أو أَسْرُ
فهم بالمواضِي في جزيرته جُزْرُ^(٢)
بطعن له بُتْرُ وضرب له قَهْرُ^(٣)
خَنَازِيرُ شَبَّتْ حَرْبُهَا أَسَدُ هُصْرُ^(٤)

وهو يئنه بهذا الانتصار المروِّع الذي جعل السيوف تلغ في دمائهم وتشرب منها مرتوية، وكأنما ابن حمديس نفسه هو الذي يشرب منها محاولاً أن يشفى غليله من النورمان وقد استبشر وجه الدين بشراً لا يماثله بشر. ويقول إن فيها تطلُّعوا إليه من استيلائهم على الساحل التونسي قَلَانْد من الرماح استأصلت أعناقهم وغزقوا كل مخرق، ووقع منهم فريق في قبضة الأسر وفريق غرق في زخرة الموج، وسَلَّ عنهم حصن الديماس الكبير يجبك أن عيداً كبيراً نُصِبَ لنحرهم وذَبَحهم في جزيرته بالمواضي. وهناك شفى الإسلام غليله وغيظه بطعن وضرب يقطعان أجسادهم تقطيعاً، ويحْيِي الجيش الباسل إنه جيش أعارب صدقوا في حملتهم العنيفة على الروم الخنازير، وإنها لحملة أَسَدٍ افترستهم، أَسَدٌ أعزَّاه بها الدين الحنيف. والقصيدة من أروع القصائد في جهاد أعداء الإسلام وتدمير جيوشهم تدميراً لا يكاد يبقى منهم باقية.

ولم يلبث أن عاد إلى حزنه على وطنه الضائع، وعاد إلى شعوره بغربته، وهو شعور لازمه طول حياته، وطالما رده في قصائده وجاءه وهو في سن الثمانين نعي ابنته، ولم تكن تظن أنه على قيد الحياة فبكاهها بقوله:

أَرَانِي غَرِيباً قَدْ بَكَيتُ غَرِيبَةً كَلَانَا مَشْقُوقٌ لِلْمَوَاطِنِ وَالْأَهْلِ
بَكَتْنِي وَظَنَنْتُ أَنَّنِي مَتُّ قَبْلَهَا فَمَشَتْ وَمَاتَتْ - وَهِيَ مَحْزُونَةٌ - قَبْلِي

واجتمع عليه حزنه في فلذة كبده بحزنه في وطنه أو فردوسه المفقود، ودار به العام فلبى نداء ربه سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م في بجاية، وما تعرف العربية شاعراً عاش يتفجع على وطنه ويحنُّ إليه كما تعرف في ابن حمديس، إذ كان يشعر شعوراً عميقاً بأنه كان كل شيء في دنياه، بل كان فردوسه الذي أخرج منه كما أخرج أبوه آدم قديماً من الفردوس، ويشعر كأنما أتى دنيا كبيراً كذنب أبيه آدم، بل لكأنما غربته المستمرة وتطوَّافه في الآفاق إصرار منه على ارتكاب هذا الذنب:

(١) القضب البتر: السيوف القاطعة.
(٢) المواضي: السيوف. جزر جمع جزور: الذبيح.
(٣) هير: قطع. واستئصال.
(٤) هصر جمع هصور: مفترس.

ألم تر أننا في نَوَى مستمرِّو نروح ونغدو كالمصرِّ على الذَّنْبِ

وديوان ابن حمديس ديوان ضخم وقد حققه تحقيقاً دقيقاً الدكتور إحسان عباس وهو يوج بقصائد المديح كما يوج بقصائد الغزل ووصف الطبيعة والحمر وبجاسها، وكأننا يريد أن يفرق فيها لوعاته على ضياع صقلية وظلت تشتمل في دخائله إلى آخر أنفاسه، وللصيد أراجيز بدعية في الديوان وبالمثل للرثاء وخاصة لمن فقدهم من أسرته وذوي رحمه، وتلمح من حين إلى آخر مقطوعات في الزهد لعله نظمها بأخرة من حياته، وغرض وحيد من أغراض الشعر العربي لم ينظم فيه بيتاً هو الهجاء، إذ كان يترفع عن الشتم والبذاءة، يقول:

إني امرؤ - وطباع الحق تعضدني - مطهر العِرض لا أدنو من الدُّنس
فما أحمرُّك في فُكْئ عن غضبٍ لسانٍ منتهش الأعراس منتهش

فهو طاهر النفس يسمو عن كل دنس فضلاً عن دنس الهجاء، وهو حليم لا يغضب غضباً يخرج عنه طوره، فينتهك أغراض الناس ويمضغ لحومهم موجدةً وغلاً، وليس ذلك عن ضعف في شاعريته، بل هو العفو والصفح عن مقدرة، يقول:

إني امرؤ لا ترى لسانِي منظرًا ما حييتُ هَجَوا
كم شاتم لي عفوتُ عنه مصمًا في اللسانِ نَوا
لو شئتُ صيرتُ بالقَوا غارةً هَجَوى عليه شَعَوا
ومسرُّ القول منه عِرْضًا لا يجحد المدح فيه رَفَوا

فقد عاهد نفسه أن لا ينظم هجاء طوال حياته، وأن يعفو عمن يشتمه، ولو أراد لتناهت على خصمه حملات شعواء من هجائه ولمزق عرضه وهتكه فتكا لا يمكن أن يرفوه مديح أو يرتق فتوقه صنيع. وفي ذلك دلالة واضحة على نبيل خلقه وسمو نفسه.

وكان خياله خصبا إلى أبعد حد مما جعله ينفذ إلى كثير من الصور المبتكرة الفريدة، وهي تلقانا في جميع أغراض شعره مفاجئة لنا، مما يحدث تأثيراً بعيداً في نفس قارنه كقوله في الغزل:

زادتُ على كُحل الجفون تكحُّلاً قَبَسُ نَصْلُ الشَّهم وهو قَتُولُ

والشعراء قبله كانوا يتحدثون عن سهام العيون وأنها قاتلة، وزاد ابن حمديس أن سهام عيون صاحبته أشد قتلًا وفتكا بما أضافت إليها من تكحل جعلها سهاماً مسمومة، ما إن تصيب شخصاً حتى تفقده حياته، ويقول في نهر لعله نهر إشبيلية مصورا خير مياهاة:

جريحٌ بأطراف الحَصَا كلما جرى عليها شَكَا أوجاعُهُ بِخَرِيرِهِ

وهو خيال بديع، فأطراف الحصا كأنما تجرح النهر وكلما جرى عليها شكا جاعه بهخيره، وكأنما هي أوجاع ابن حمديس لفراقه وطنه إلى الأبد، ومن تلك الصور الفريدة قوله في البرد:

نَشَرَ الْجَوُّ عَلَى الْأَرْضِ بَرْدَ أَيِّ دُرٍّ لِنَحْوِرِ. لَوْ نَجَدُ

وكان السماء لا تقطر برذاً وإنما تقطر دررا تطوق عقودها جيد الطبيعة بلألئها المتساقطة من أصداف السحب. ويطول بنا القول لو أردنا أن نعرض فرائد ابن حمديس ما يفجأ به قارئه من الصور والمعاني المبتكرة. وهو بحق يعد في الذروة الرفيعة لا من شعراء صقلية وحدها، بل أيضاً من شعراء العرب والأندلس قاطبة.

الفصل الخامس النثر وكتابه

نشاط النثر

من المؤكد أن النثر الفنى من رسائل وغير رسائل نهض في صقلية كما نهض الشعر، وكما نهضت العلوم الدينية، ومن يرجع إلى الحريضة ومن ترجم لهم من الشعراء هناك يجده يذكر في عنوانات الشعراء أنهم كتاب، ذكر ذلك مع خمسة عشر شاعرًا، ونوه في غير كاتب بإحسانه في الكتابة كأن يقول في البشيري الشاعر الكاتب: «باعه في الترسل أمدًا، وخاطره في النثر أحد» ويقول في علي بن الحسن بن الطوبى: «مؤلف دفاتر، ومصنف جواهر، ومقلد دواوين» يشير بذلك إلى أنه من كتاب الدواوين، ويصف نثره بأنه جواهر، ويقول عن ابن الفرقورى إن ابن القطاع أتى على نظمه ونثره كثيرًا، كما يقول إن ابن القطاع ذكر عن هاشم بن يونس الكاتب أنه صاحب ترسل ومقامات وعن محمد بن الحسن الطوبى أنه كان صاحب ديوان الرسائل والإنشاء مترسلا شاعرا، ويقول القفطى عنه: عالم بالرسائل، وكلامه في نهاية الفصاحة، وشعره في غاية الملاحاة، وله مقامات تزرى بمقامات البديع، وإخوانيات كأنها زهر الربيع.

وكل ذلك يدل على أن صقلية حازت لنفسها في النثر نشاطا واسعا، بل إن من كتبها - كما يقول القفطى - من كانت مقاماته تزرى بمقامات البديع، وسقطت تلك المقامات من يد الزمن كما سقطت معها الرسائل البديعة شخصية ورسمية مما دبهجه الكتاب هناك قبل العصر النورمانى وأيضًا ما كتبوا ودبّحوا من أعمال أدبية متنوعة، ولولا أن ابن بسم ترجم لبعض من غادروا صقلية من الكتاب البارعين قبيل العهد النورمانى مثل ابن الصباغ، وسنخصه بكلمة. وأيضًا لولا أن ابن بشرون المهدوى زارها في عهد روجار الثانى واحتفظ في ترجمته لبعض شعرائها - وأقصد عيسى بن عبد المنعم وابنه محمد - ببعض رسائلها ما استطعنا التعرف بوضوح على ما حظى به النثر هناك من نهضة ورقى، وسنراها واضعين عند كاتبها المتأخر ابن ظفر، وسنفرد بترجمة قصيرة.

أما عيسى بن عبد المنعم فيذكر العباد عن ابن بشرون أنه: «كان كبير الشأن، ذا الحجة والبرهان، فقيه الأمة، وأمثل الأئمة، له المعانى الأبيكار البعيدة مرامى مرامها، والألفاظ التى هى

كالرياض جادها هامي رهامها (غيثها) ويقول العماد إنه أورد من كلامه ما يأسو سماعه الكلوم (الجروح)، ويملو سناً إحسانه العلوم، ويحكي درر الأصداف وندارى (كواكب) النجوم.. ويذكر له العماد فصولاً من ثلاث رسائل، أولها في براعة صديق له في خطه الرائع وبلاغته البديعة، ومن قوله فيها:

«نظرت من الكتاب إلى خط موصوف، معتدل الحروف، أملس المتون، مفتّح العيون، لطيف الإشارات، دقيق الحركات، لين المعاطف والأرداف، متناسب الأوائل والأطراف، يروق العيون حسنه وشكله، ويعجز المحاول صنعهم، متضمناً معاني كأنها رُقِيّة الزمان، وصُمِّتة (الهيبة) الأمان.. وقلت سبحانه ربّي القيوم: ﴿أفسحِرْ هذا أم أنتم لا تبصرون﴾» أكل هذا الإحسان، في طاقة الإنسان.. ثم رجعت إلى نفسي، وثاب إلى جِسى، فقلت عند سكون جاشي (نفس) وثبوت طيشي، وإفراخ روعى وزهاب دَفْشى، إن من دُبٍّ في الفصاحة ودرج في وكرها، ورضع بلبانها، وجرع من دُرّها (لبنها الكثير) وصحب السادات مقتبلاً (شاهاً) والأبجاء مكتهبلاً لخلّيق أن يحلّ من الفضل وساططه ويجمع قطريه، بل يستولى على غواربه (أعاليه) ويملك شطريه».

وانتخاب الألفاظ واضح في الرسالة مع المقدرة البينة على وصف الخط البديع وما يحسن عيسى بن عبد المنعم من وصف بلاغة صاحبه، مع ما يزين وصفه من سجع أحياناً وهو سجع طبيعي لا تكلف فيه، إذ يأتي به في تضاعيف الكلام دون محاولة التمثل له، وليس ذلك كل ما يزين به وصفه فهو يزيّنه بهجاءات تصويرية كوصفه المعاني في رسالة صاحبه بأنها «رقية الزمان وصمّتة الأمان» وكوصف صاحبه بصور متلاحقة إذ يقول إنه «دُبٌّ في الفصاحة ودرج في وكرها، ورضع بلبانها، وجرع من دُرّها». ويقتبس العماد فصلاً من رسالة ثانية لعيسى بن عبد المنعم أسقط فيها حرف الألف واللام مشيداً في مطالعها:

«رغمقى نحوك سيدى وسندى، ودُخْرِى وَعُضْدَى، ومن يَدٌ^(١) وَيَزٌ. فُدْهَرَه، ووحيد عصره، وغريب زمنه، ونسج وحده، مدُّ ربّى مُدَّتْكَ في مربوب (دائم) نعمته، ومدد نُصْرَتَه، وكَبَّتْ من نكب^(٢) عن ودك بمُعْظِم دُخْرَه (المُدْخِرْكَ) ويخوف زجره.. وسوْغُك من ضَرْب^(٣) نعمه يَهْنِيَه، ومَرِيَه^(٤)، ومتك من موفور قَسَمَه^(٥) بحميدة، ومزيده».

ولا يحسّ القارئ للرسالة بما تكلفه عيسى بن عبد المنعم من إسقاط الكلمات ذات الألف واللام لمقدرته البليانية، وكان كتاب صقلية لم يتأثروا في كتابة رسائلهم بأسلوب السجع الذى عمّ في المشرق منذ أواسط القرن الرابع الهجرى، بل تأثروا أيضاً بما شاع في كتابة الرسائل من

(٤) مريه: سائته.

(٥) قسمه: مايقسمه للناس.

(١) يَدٌ: سبق. بَز: غلب.

(٢) نكب: انحرف.

(٣) الضرب: غسل التحل.

ضروب تصنع مختلفة كأن تخلو الرسالة من حرف معين كهذه الرسالة أو يطرد حرف معين في جميع ألفاظها على نحو ما صورنا ذلك مرارا في عرضنا للكتابة الأدبية بالشرق وفي الأندلس. وأحكم عيسى بن عبد المنعم في هذه الرسالة انتخاب الألفاظ والأسجاع، ولم يكف بالجمع من حيث هو، بل طلب فيه القصر حتى تكون الرسالة وافرة النعم، وعنى في السجع بتساوير كثيرة. ورسالة عيسى بن عبد المنعم الثالثة في العتاب وفيها يقول:

«لولا أن ذنوب الحبيب، تصغر عن التأنيب.. لكان لنا وللرئيس مجال واسع ومتسع بالغ فيها أتاه، إن لم نقل جناه، وفيها وعد فأخلف، إن لم نقل الذنب الذي اقترف، ومهما أجللنا قدره عن أن ينسب إليه خلف الوعد وإن كان جليلا، ما عنده إذ لم يكتب بوجه العذر أنه ما وجد سبيلا، وقد كنا نتوقع تداني العناق، فصرنا نقنع بأمانى التلاق».

والناية بانتخاب الألفاظ والأسجاع واضحة في الرسالة، مع رهاقة الشعور في مثل قوله: «ذنوب الحبيب، تصغر عن التأنيب» وقوله: «كنا نتوقع تداني العناق، فصرنا نقنع بأمانى التلاق».

وقد ترجنا لابنه محمد بين الشراء وعرضنا هناك إشادة ابن بشرون به في الفصاحة والقفطى به في علوم الأوائل، وألمنا ببعض مراثيه البديعة، وساق له العماد عن ابن بشرون فصولا من ثلاث رسائل، مثل أبيه، وأولاهما في التشوق إلى صديق عزيز، ومن قوله في صدرها: «أخى ومولائى علّ الدهرُ يَجْمَعُنَا بِمَنْزِلٍ عن جميع الشرِّ مُبْتَجِدٍ شوقى إلى لقائك شوق الظمآن إلى الماء الزلال (العذب الصافي) وارتياحى إلى ما يرد من تلقائك ارتياح السقيم إلى الصّحة والإبلال، وتلهفى على فراقك تلهف الحيران، وتأسفى على بعدك تأسف الوهّان، لكننى إذا رجعت إلى شاهد العقل، وعدلت إلى طريق العدل، يمازج قلبى سرورا، ويخالط شوقى بهجة وحبورا.. فأفزع إلى الدعاء لمقدر الأمور، الذى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) أن يحسن لنا العُقْبَى، ويقضى لنا بالحُسْنَى، ويُسَلِّ علينا من العافية سترًا سابغا ضافيا، ويوردنا من السلامة موردا سائغا صافيا، وأن يقرب بك الاجتماع، حيث يوجد الاستمتاع، بما تقرّبه الأعين ويلذّ الأسماع».

ومحمد لا يقل عن أبيه عيسى بن عبد المنعم في براعة اختياره للألفاظ وروعة انتخابه للتساوير، مع حسن الأسجاع وكأنه يريد أن يرضى الأذن بما تجدد في الألفاظ من جمال الجرس، وفي المعانى والتساوير من الحسن الفائق، وربما تفوق في ذلك كله على أبيه. وله من رسالة في عتاب بعض خلصانه:

«قد عاملنى في مشاهد هذه الأيام، التى قَمَعَتْ (قهرت) الخاص والعام، بأشياء لو جرت بينى وبينه على خلوة لعدتها من لذىذ الأنس، لكنها أنت فى الملاء (أشراف الجماعة) بما ألمّ النفس، واحتملت ذلك منه، رجاء أن يقطع عنه، فازداد لجأحة، وازدادت حراجة (ضيقا) حتى استفعل

الثَّغَاة (التافهون) عَلَى سبَبِ ذَلِكَ الْمَزَاحِ، وَاسْتَنْسَرِ الْبَغَاثَ إِلَى وَهْرِ الْجَنَاحِ.. وَأَعْرَضَتْ عَنْ أَشْيَاءَ لَوْ شِئْتَ قَلْتَهَا، وَلَوْ قَلْتَهَا لَمْ أَتَقِ لِلصِّلَحِ مَوْضِعًا، وَأَنَا أَحْرَصُ عَلَى صَحْبَتِهِ وَمَنْ يَرَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا.. فَأَحِبُّ أَنْ يَحْسَنَ الظَّنَّ بِي، وَالذِّكْرَ عَنِّي، فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَعَلَ الْأَشْكَلَ (الْأَشْبَهَ) بِهِ، وَالْأَلْقَ بِأَدَبِهِ، وَالْأَوَّلَى بِجَمِيلِ مَذْهَبِهِ. وَقَدْ أَطْفَأَتْ هَذِهِ الْمَعَاتِبَةُ نَارًا مُؤَصَّدَةً (مَطْبَقَةً) وَبُرِدَتْ مِنْ صَدْرِي غُلَّةٌ مُوقَدَةٌ».

والرسالة عتاب لشخص لا يعرف متى يمازحه، إذ يمازحه بما قد يقبله منه في الخلوة، أما أمام الناس فإن المزاح يصيح كأنه هزه به وسخرية منه، ولذلك يؤلمه، ومع ذلك يقول إنه يحتمله رجاء أن يكف عنه ولكنه لا يكف، حتى تعاظم من لا وزن لهم عليه، وحتى «استنسر البغاث» وهو مثل يضرب لمن استنسر العزة بعد الهوان، إذ البغاث من أضال الطير فشر كأنه أصبح نسرا. وأضاف محمد بن عيسى إلى ذلك إضافة بديعة، إذ قال إنه استنسر وهز الجناح كناية عن شعوره الشديد بالعزة إزاءه. ومع ذلك كله يصقع محمد بن عيسى عن هذا الصديق الثقيل، إذ التزم له التجلة أمام الناس. والرسالة تتخفف من السجع أحيانا، مما يدل على أن محمد بن عيسى لم يكن يتكلفه دائما، وكأننا كان يجري على لسانه عفوا. وله من رسالة في الشكر لشخصية مهمة ينتق على حضرتها قائلا:

«إِنْ غَرَسَ فَضْلُهَا السَّابِقَ إِلَيْهِ أُنْمِرَ عِنْدَهُ شُكْرًا وَحَمْدًا، وَأُنْبِتَ لَدَيْهِ مَحَبَّةٌ وَوَدًا، وَإِنَّهُ مِنْ مَوَالِيهَا لَعَلَّ صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ، وَمِنْ الْإِقْرَارِ بِفَضْلِهَا لَعَلَّ مَنَهِجَ قَوِيمٍ، وَمِنْ الدَّعَاءِ لَهَا لَعَلَّ حَالُ مَقِيمٍ، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَقَدْ صَيَّرَهُ سَالِفُ إِحْسَانِهَا فِي الرَّقَى، وَمَلَكَهُ فَارِطُ امْتِنَانِهَا مَلِكُ الْمُسْتَنْقِ، فَهُوَ لَا يَفْتَرُ مِنْ جَمِيلِ شُكْرِهَا لِسَانًا، وَلَا يَغْلَى مِنْ خُلُوصِ وُدِّهَا جَنَانًا».

والفصل - على شاكلة فصليه السالفين - في دقة اختياره للألفاظ والأسجاع حتى تنزلق عن الألسنة في يسر، وحتى يحسن وقعها في الأسماع، وهو لذلك لا يزال يلائم بين اللفظ واللفظ، وبين المعنى والمعنى وبين الصورة والصورة، حتى يلذ الأذان والألسنة والأذنان حين تقرأه أوتصفى إليه. وحرى بنا أن نتوقف قليلا بإزاء الكاتبين الصقليين: ابن الصباغ وابن ظفر.

ابن الصباغ الصقلي

هو أبو عبد الله محمد بن الصباغ، من أدباء صقلية وكتابها البارعين، تألق اسمه فيها لأواخر عهد بقر أبي الحسين الكلبيين بالقرن الخامس الهجري، وحين اضطربت صقلية بهمدم واستقل

محمد بن علي بن الصباغ الكاتب وقال عنه: كان في عهد ابن رشيح المتوفى سنة ٤٥٦ وقال كانت بينها مراسلات.

(١) انظر في ترجمة ابن الصباغ الذخيرة ٣٠٨/٤ ولعله هو نفسه الذي نقل ترجمته العماد عن الدرة الخطيرة لابن القطاع ص ٨٣ باسم أبي عبد الله

كل قائد فيها بمنطقته غادرها إلى الأندلس، واستوطنها، وفيه يقول ابن بسام: «أحد أدبائه وقته المشاهير، وكلامه يعرب عن أدب كثير وحفظ غزير». ويعرض طائفة من فصول رقاعه ورسائله، من ذلك فصل من رقعة وجه بها إلى ابن الشامي متولى الأرض التي كانت تملكها الدولة في المدن التي افتتحت عنوة، راعيا في أن يكلم له أمير صقلية مصصام الدولة آخر الأمراء الكليبيين الذي تولى الجزيرة بعد أخيه الأكلحل سنة ٤٢٧ كي يجر له أرضا للدولة كان اشتراها مما عليه من ضريبتها، وربما من دين للدولة كان لا يزال مدينا به، وعرض صدر الرسالة على هذا النمط:

«إذا الحاجات غي بها رجال وكان قضاؤها صعب المرام
وقلت حيلة الشفعاء فيها فحاول نجعها بيني الشامي
دراى الملا خفت بيدر منير في ساء المجد سامي

ويعلم - أدام الله تمكنه - مذهبي في التخفيف، وتحمل ثبوت التكليف، إلا فيما تلجىء الضرورة إليه، ويحصل الاضطهاد عليه، وكنت من ترفيه النفس عن الامتحان، والقناعة بما تسمح به نفس الزمان، في حالة يعلم - بحرس الله مجده - تقلى في أثنائها، ومقلى (قبولتي) في أفيائها (ظلالها) حتى عرض لي من سوء القضاء، ما أجاز بالنار من الرضاء (شدة الحر) فسول لي الجرض الذي ما شئت (رأيت) له بارقا، والطمع الذي ما ركب قط له عاتقا (منكبا) النظر في إحداث بستان في خرائب أخرى مالي، وشغلتي عن كثير من أشغالي، وصرت متفقا ما جمعت في الغربة والوطن، وكسبت في الإقامة والظن (الارتحال) بين جدار فيها أهله، وغار أرضه، وأرض أرفع مرة وهادها، وأخفض تارة نجادها (مرتعاتها) حتى استوت ساحاتها وتوطدت (تمهدت) وغابت مغاراتها ونططت، وانكشطت أسنمتها وانحطت... ولا يقدر على سقى دوحاته، ولا يتوصل إلى إحياء مواته، إلا بدولاب (ساقية) وجابية (حوض) يأخذان الماء أخذه رابية (شديدة).. ومتى أعلم الأمير أن هذه الخرائب التي عانى ولله غراسها لا يرتجى لها عمارة تعود بفائد، ولا ينتفع الديوان منها ب درهم واحد، وساكوها منذ أعوام ما أدى واحد منهم خراجا، ولا صنع لبيته بابا ولا رتاجا (بابا كبيرا) فهم بين قوم يأكلون الشجر قبل الثمر، ويرعون الأب (الحشائش) قبل الحب».

والرسالة قطعة أدبية بديعة، وهي مكتوبة بأسلوب السجع الذي يتمتع اللسان بنطقه والأذان بسماعه، وتكتظ بصور تتعاقب فيها ومشاهد بديعة كمشهد إصلاح ابن الصباغ للأرض وإعدادها للزرع بين جدار يهدمه وغار يردمه ونجاد يخفضها ووهاد يرفعها حتى غابت مغاراتها وانكشطت أسنمتها وانحطت. فهو ليس حائك أسجاع ورأسم تصاوير فحسب، بل هو أيضا

مصور يعرف كيف يعرض عليك مشهداً بأكمله كأنك تبصره وتراه. وهو إلى ذلك خفيف الظل يعرف كيف يسرك بالكلم، وكيف يورد عليك ما يضحك سنك على نحو ما صور ساكني أرضه وبستانه، فمَنذُ أعوام لم يؤد واحد منهم خراجاً، ولا صنع لبيته باها ولا رتاجاً، وإنهم - لفقرهم المدقع - ليأكلون الشجر والأبّ ومراعيه كالأنعام قبل الثمر والحب. ولا بد أن ابن السامى وصمصام الدولة ضحكا طويلا حين وصلا في الرسالة إلى هذا المشهد المضحك . وهذا الجانب الفكه في ابن الصباغ اتضح بصورة أوسع في رسائل ساقها له ابن بسام حين استوطن الأندلس وصحب هناك الأديب أبا حفص القمبى، وكانت فيه بدوره دعابة، وحدث أن ماتت له هرة، فجلس للعزاء عنها فاجنأ، فما كان من ابن الصباغ إلا أن كتب له رسالة عزاء فيها، ومن قوله في بعض قصوها:

«الحياةُ لبني الدنيا مراحل، والمنايا لجميعهم مناهل، والأعمار، كالأسفار، منها القريب الوصول، العاجل المحلول، ومنها البعيد الشقة، الشديد المشقة، أنفاس معدودة، وآجال محدودة، وليس يَناج من محتومها أحد، ولا لمخلوق منها مُلتحد (ملجأ). وانتهى إلى - جعل الله الصبر الجميل سبيلك، وأطفأ ببرد السلوان غليلك - نَبأً جَلَل، وخطب معضل، وهو مصابك بشقيقة نفسك، وموضع راحتك وأنيسك، وربيبة جُجرك وحجرتك، وآلة حِطَّتْكَ على حِطَّتْكَ (قمحك) وكالته (حافضة) ذِخائرك وقَتْنَيْكَ (ما تقتنيه) واستحواذ فجيئتها على بُوك، وما عاجلتها به من قَرور (ما يُتَر من المطور على الميت) وخَنوط (ما يخلط من الطيب بأكفان الموتى وأجسادهم) وإشفاقك من إسلامها إلى التراب، وإبقائك إياها طويلا في المحراب، وألَيْتْكَ (حَلَفْتُ) عليها لتدعُون إلى جنازتها مَأتماً، يَشْفَقْنَ (أى النساء) عليها جُيوب المِدارع (فتحات الثياب) وَيُقَضْنَ من الوجد بها غُرُوبَ (دلاء) المِدامع، ويَعْلَن عليها بالصراخ والنَّياح، ويُنْزِلن (يرسلن) لمصرعها شعورهن مع الرياح».

وابن الصباغ عَزَى أبا حفص القمبى في هُرته، وكأنها كانت شقيقة نفسه وموضع راحته وأنسه، كما يقول، أو كأنها كانت محبوبه عزيزة، وهو يبدأ رسالته بأن هذه حالة الدنيا فهي دائما إلى فناء، أنفاس معدودة وآجال محدودة، ويدعو الله له أن يلهمه الصبر الجميل على فجيئته ويطفئ بهرد السلوان غليله، ويعزّيه في ربيبة حجره وحجرتة، وإضافة حجرتة إلى حجره بديعة. وتترامى لنا في الرسالة روح الفكاهة والسخرية بمسدة، وخاصة حين يحدّثنا أن القمبى أقسم لهيقدن لها مأتما كبيرا تشقّ فيه جيوب النساء على محبوبته ويفضن الدمع ويرسلنه وجدا على هرته. ويعلّون عليها بالصراخ والنواح. ولا نصل إلى هذه القطعة من الرسالة حتى نفرق في الضحك، ويستمر قائلا للقمبى:

«ولستُ بناسٍ ذكر تلك المَلَح التي كتبت لى تصف من أخلاقها وآدابها، والمِدَح التي أوردت

في أعراقها وأنسابها، والغرائب التي ذكرت عن قوتها وآيدها، وجيلها وكيدها، ومكرها بالفار وصيدها.. ذات ناب مطلول (عجيب) وساعد مفتول، وخصر مجدول (صلب) رؤانة (ممتلئة) الكاهل، ظمأة الأسافل، تستضيء من عينيها بأنور من المصباح، وتعتد من مغالبها بأمضى من السلاح».

وابن الصباغ يستمر في روحه الفكاهة، فيزعم أن القعيني طالما حدثه عن أخلاقها وآدابها وأعراقها وأنسابها ومكرها بالفار وصيدها له في لمعة، ويشيد بجمال تكوينها وقوة بصرها ومغالبها. وهي روح فكاهة بديعة لابن الصباغ، مع القدرة البارعة على انتخاب اللفظة وأختها والسجعة وشقيقتها مع إحكام التصاور والمشاهد. وحدث أن كانت لصديقه القعيني جارية سوداء كلف بها ثم باعها، وندم فحاول استرجاعها، فزعم مشترطاً أنها حامل، وتولاه الأسف، ونظم في ذلك أشعاراً كثيرة، فكتب إليه ابن الصباغ رسالة فكاهة يقول فيها:

«نقل إلى بعض من يعرف أحوالك، ويشارف فعالك خيراً يُحسّم السمع، ويضيق النزع (الطاقة الواسعة) وذلك أنك أخرجت عن ملكك حِفْذَ عَتِكَ المريمة (المفرزة) فتناولها من استحسنَتْ عُذْرَانَهُ، وبلغك من إقبالها عليه، وانصرافها بكلّيتها إليه، ما أضرم قلبك شوقاً لا تخبو ناره، وسلّ الوَجْدُ بها غَضَباً (سيفاً) لا ينبو غِرَارُهُ (حُلُهُ) فَأَنْشَرَتْ (بعثت) للناس من نفسك (توبة) الأخيلية، وأحييت لهم منك مجنون (قيس) العامرية، وعضضت على يَمْعِهَا أناملك، وأنضيت (أهزلت) في طلبها زوأمك (إبلك) وأطلت في وصف شوقك لها وأوجزت، وقصّدت (نظمت القصائد) في ذكر الأسف عليها ورجزت (نظمت الأراجيز) وجمعت لها من المعاسن ما افترق، وفتحت من البدائع فيها ما انفلق.. فأصبحت والظنون بك مرّجة (متكلمة) والألسنة عنك مترجة، والأقوال فيك كثيرة، والأيدى إليك مشيرة، فتنبّه (أزجر) قلبك، وراجع لُبِّكَ. واذكر خَلْقَهَا وَخَلَقَهَا، وتأمّل وجهها وعنقها، وانظر خَدَّهَا وَقَلْبَهَا، وهل شيء مما يُسْتَمَلَحُ عندها؟! فهنينا أبا حفص راحة بصرك من شخصها المقيت، وفراغ قلبك من الكبد بخلفها المعيت.. وكأنّي بك قد أنشدت بيت ابن الرومي فيمن لا يشبهها إلا في سواد الجلد، ولا يشركها إلا في النسبة إلى الجلد إذ يقول:

أَكْسَبَهَا الْحَبُّ أَنَّهُ صُبِغَتْ صِبْغَةَ حُبِّ الْقُلُوبِ وَالْحَسَنِ

هيهات.. ما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء تمرّة».

وابن الصباغ يتهم بصديقه القعيني مراراً وتكراراً، إذ يصور عشقه لجارته وما يضرم في قلبه من نار لا تخبو، حتى لكأنما بعث من نفسه توبة بن الحُمَيْرِ عاشق ليلي الأخيلية وقيساً عاشق ليلي العامرية، ويغم الجارية نماً شديداً ترويحاً عن صاحبه حتى يسلوها ويمسك عن ذكرها

وينساها كما نسيته. وهو يسوق ذلك في لغة عذبة صافية وفي عبارات مسجوعة مصورة منمقة بالغة الروعة، وراجعه القعني برقعة انتصر فيها لنفسه، فأجابه الصقلي برقعة على شاكلة رقعته السابقة، وإن ما دونه ابن بسام من رقعته ورسائله ليصور للنثر الأدبي في صقلية نهضة وازدهاراً.

ابن^(١) ظفر الصقلي

هو حجة الدين أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر المشهور باسم ابن ظفر الصقلي، وُلد بصقلية سنة ٤٩٧ في أيام ملكها النورمانى روجار الثانى، رحل من بلده صغيراً في طلب العلم، ويقال إنه نشأ في مكة، ولا نعرف كيف انتقل إليها، وبارحها إلى مصر ثم إلى إفريقية، وأقام بالمهدية مدة في زمن الحسن بن على بن تميم آخر ملوكها الصنهاجيين، وشهد بها الحروب بين روجار الثانى ملك صقلية والحسن المذكور، كما شهد أخذها منه واستيلاء النورمان عليها سنة ٥٤٣ ورحل إلى صقلية وفيها تعرف على قائد مسلم من قوادها يسمى محمد بن أبى القاسم القرشى، وبقي عنده فترة أكرمه فيها غاية الكرم، مما دفعه إلى تصنيف أربع مؤلفات أهداها إليه جميعاً، ولم يحتفظ الزمن باثنين منها، وهما أساليب الفاية في إحكام أية ومثنى الاستئناف للمعونة والإشراف، واحتفظ باثنين طبعاً ونشراً هما: أنباء نجباء الأبناء، وسلوان المطاع في عدوان الأتباع، وسلم بها عما قليل، وعاد من صقلية إلى مصر، ورحل منها إلى حلب وأقام فيها بمدرسة ابن أبى عسرون، ووقعت فيها فتنة بين الشيعة وأهل السنة نبت فيها كتبه، فخرج منها إلى مدينة حماة فصادف من أهلها وطلابها قبولاً فسكن بها، ويقول العماد الأصهبانى: «كان إمام وقته في التفسير والأدب، رأيته بحماة مقبياً، ونفوس طلبة العلم إليه هيا (عَطَشِي) وأجرى له راتب في ديوان حماة، غير أنه كان دون الكفاف»، فلم يزل يكابد الفقر إلى أن لُبِّي نداء ربه سنة ٥٦٧ للهجرة. وكان قصير القامة تقتحمه العين، غير أنه كان علامة في التفسير واللغة والأدب غزير التأليف والتصنيف، وإن كانت أكثر مصنفاته ومؤلفاته سقطت من يد الزمن، ومنها في التفسير ثلاثة كتب: التفسير الكبير وينبوع الحياة وإكسير كيمياء التفسير، وحاشية على كتاب درة الغواص للحريرى ردُّ فيها عليه، والمطول شرح مقامات الحريري، والمختصر شرحها أيضاً، والتقيب على ما في المقامات من الغريب، وخبر البشر بخبر البشر ذكر فيه الإرهاصات التى كانت بين يدي ظهور الرسول ﷺ، وأرجوزة في الفرائض، وكتاب الاشتراك اللغوى، وكتاب ملح اللغة فيما اتفق لفظه واختلف معناه وكتاب القواعد والبيان في

١٤١/١ والعقد الثنين في تاريخ البلد الأمين للقاسى
(طبع القاهرة) ٣٤٤/٢ وبغية الوعاة للسيوطى ٥٩
والمكتبة الصقلية لأمارى ٦٠٥، ٦٥٩، ٦٦٥، ٦٧١.

(١) انظر في ترجمة ابن ظفر الحريرة قسم
الشام ٤٩/٣ وابن خلكان ٣٩٥/٤ ومعجم الأدباء
٤٨/١٩ وإنباه الرواة ٧٤/٣ والوفائق للصفدى

النحو. ونلم بكتابه البارعين في الأدب وهما أنباء نجباء والأبناء. وسلوان المطاع في عدوان الأتباع.

أبناء نجباء الأبناء

كتاب تربوى عرض فيه نجابة الصفوة من أبناء الأمة العربية في حداثتهم، وأضاف إليهم بعض من عرفوا بنجابتهم في الصغر من الفرس ووزراء للعباسيين أو ملوكا في القديم، واستهله بأخبار الفريدة اليتيمة المهداة إلى الأمة الإسلامية محمد ﷺ وبعض ما ذُكر عنه قبل بعثته، تيمنا بذكره العطر، ثم وزع الكتاب على أربعة أصناف بمن رويت الأخبار عن نجابتهم في صغرهم، والصنف الأول عشرة ممن كرمهم الله بصحابة رسوله، وهم أبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب والعباس عم الرسول والحسن والحسين حفيده والنفس الزكية محمد بن علي ومعاوية وعمر بن العاص وعبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن الزبير، والصنف الثاني في ذكر طائفة من أبناء الصحابة النجباء وغيرهم مثل عبد الملك بن مروان ويزيد بن المهلب والمأمون، والصنف الثالث للنجباء في الصغر من الزهاد والمتصوفة، والصنف الرابع للنجباء من عرب الجاهلية في الحداثة مثل لبيد ومن ملوك الفرس مثل بهرام جور. ويقول ابن ظفر في مقدمة الكتاب: «وبعد فهذا كتاب أودعته من أبناء نجباء الأبناء ما هو كشرة من ضرام (نار مضطربة) بل كقطرة من رهام (غيث منهم) لأني قصدت به تلقح همة غلام، وتلقيح فطنة كهام (بلید). فغرضه من الكتاب تعليمي، ليعث الهمة في الناشئة بما يعرض عليهم من همم نظرائهم، وليشجذ أذهانهم بما يعرض عليهم من فطن قرنائهم. وأيضا ليتخلفوا من خلقهم وحسن سلوكهم أمثلة رفيعة يقتدون بها في حياتهم، ونضرب لذلك مثلا بما ساقه في الصنف الثاني مما يدل على نجابة الفضل وجعفر ابني يحيى البرمكي ووزيرى هرون الرشيد فيها بعد. وعادة إذا كان الحديث عن شخص يجعل له عنوانا: دُرَّة زین لقرَّة عين، وإذا كان عن شخصين مثل الفضل وأخيه جعفر يجعل العنوان: درتازین لقرق عين أى لمسرق الأب والأم، ويذكر أن ابن صاحبة لأمها سألها عن ابنيها أيها يفضل صاحبه قائلا إن الناس يختلفون فيها منهم من يقدم الفضل ومنهم من يقدم جعفرا، فقالت له: أحدثك عنها واقض أنت.

«إنها كانتا يوما يلعبان في داري، فدخل أبوهما يحيى، فدعا بالفداء وأحضرهما، فطعما معه ثم أنسها بحديثه، فقال لهما أتلعبان بالشرنج، فقال جعفر وكان أجراهما: نعم، قال فهل لا عبت أخاك بها قال جعفر: لا، قال: فالعابها بين يدي لأرى لمن الغلب، فقال جعفر: نعم - وكان الفضل أبصر منه بها - فجاء بالشرنج، فصُفَّت بينهما، وأقبل عليها جعفر، وأعرض عنها الفضل، فقال له أبوه: مالك لا تلاعب أخاك، فقال: لا أحب ذلك، فقال جعفر

إنه يرى أنه أعلم بها فيأنف من ملاعبي، وأنا ألاعبه مخاطرة (قمارا) فقال الفضل: لا أفضل. فقال أبوه: لأعبه وأنا معك، فقال جعفر: رضىت، وأبى الفضل، واستعفى أباه فأعفاه. ثم قالت الأم للسائل: قد حدثتك عنها فاقض، فقال: قد قضيت لجعفر بالفضل على أخيه، فقالت له: لو علمت أنك لا تحسن القضاء ما حكمتك أفلا ترى أن جعفرا قد سقط أربع سقطات تنزه الفضل عنهم، فسقط حين اعترف على نفسه بأنه يلعب بالشطرنج وكان أبوه صاحب جد، وسقط على التزام ملاعبة أخيه وإظهار الشهوة لقلبه والتعرض لفضبه، وسقط في طلب المقامرة وإظهار الحرص على مال أخيه، والراهبة قاصدة الظهر حين قال أبوه لأخيه: لأعبه وأنا معك، فقال أخوه: لا، وقال هو: نعم، فناصر (عادى) صفا فيه أبوه وأخوه، فقال السائل [حين سمع منها ذلك] أحسنتِ واه. ثم قال لها: عزمت عليك أخبريني هل خفى مثل هذا على جعفر وقد فطن له أخوه، فقالت له: لولا العزيمة ما أخبرتك، إن أياها لما خرج قلت للفضل خالية به: ما منعتك من إدخال السرور على أهلك بملاعبة أخيك؟ فقال أمران: أحدهما لو أتى لاعتبه لقلته فأخجلته، والثاني قول أبى: لأعبه وأنا معك، فما يسرنى أن يكون أبى معى على أخى. ثم خلوت بجعفر فقلت له: يسأل أبوك عن اللعب بالشطرنج فيصمت أخوك وتعترف، وأبوك صاحب جد، فقال: إني سمعت أبى يقول: نعم فهو البال المكبود، وقد علم ما نلقاه من كد التعلم والتأدب، ولم آمن أن يكون بلغه أنا تلعب بها، ولا أن يبادر فتنكر، فبادرت بالإقرار إشفاقا على نفسى وعليه، وقلت إن كان توبيخ فديته من المواجهة به. فقلت له: يا بئى فلم تقول: لأعبه مخاطرة، كأنك تقامر أخاك وتستكثر ماله؟ فقال: كلا، ولكنه يستحسن الدواة التى وهبها لى أمير المؤمنين (الرشيد) فمرستها عليه، فأبى قبولها، وطمعت أن يلاعبنى فأخاطره عليها وهو يغلبنى، فتطليب نفسه. فقال لها السائل: ما كانت هذه الدواة؟ فقالت إن جعفرا دخل على أمير المؤمنين، فرأى بين يديه دواة من العقيق الأحمر محلاة بالياقوت الأزرق والأصفر، فرآه ينظر إليها، فوهبها له. ثم قالت: قلت لجعفر: هبك اعتنرت بما سمعت، فما عنذك من الرضا بمفاضة أهلك حين قال: لأعبه وأنا معك، فقلت أنت: نعم، وقال هو: لا، فقال: عرفت أنه غالبى ولو فتر لعبه لتغالبت له مع ماله من الشرف والسرور بتعيز أبيه إليه. فقال لها السائل مادحا للأخوين ومعجبا: بئى بئى هذه واه السيادة، ثم قال لها: أكان منها من بلغ الرشد، فقالت له: يا بئى أين يدَّهَبُ بك؟ أخبرك عن صبيّين يلعبان، فتقول أكان منها من بلغ الرشد، لقد كنا نتهى الصبي - إذا بلغ العشر وحضر من يستحى منه - أن يتشم.

وهذه الدرة - كما يسميها ابن ظفر - أو هذا الخبز عن الفضل بن يحيى البرمكى وأخيه جعفر بلسان أمها يصور مدى براعة ابن ظفر الأدبية فى السرد الأسلوبى لأخبار نجباء الأبناء بحيث لا نجد عنده أى غرامة أى لفظة ولا أى التواء فى عبارة، بل تجد أسلوبا مطردا متسقا

يرجع بحسن اتساقه، فإذا أنت تركت ذلك إلى ما يشتمل عليه هذا الخبر من تربية وجدته يصور إلى أبعد حد القطة التي ينبغي أن يتحل بها الناشئة إزاء إخوتهم ورفقائهم بحيث لا يبدر منهم لهم ما قد يؤذيهم، والخبر بحق يجسد آداب الأخوة كما يجسد التربية الرشيدة للأمم وما أروع قول الأمم: لقد كنا ننهى العصى - إذا بلغ العشر وحضر من يستحى منه - أن لا يتسم، وهي صحيفة تربوية بدعية في آداب الأخوة خاصة وآداب السلوك عامة.

سلوان المطاع في عدوان الاتباع

كتاب نفيس في التربية السياسية ترجمة المستشرقون إلى الإنجليزية والإيطالية، وقد استهله ابن ظفر بشكر القائد الصقل محمد بن أبي القاسم القرشي الذي صنعه له سنة ٥٤٥ ويقول في خطبته أو مقدمته إنه عمد فيه إلى أمثلة استأثر خواص الملوك ببضاعتها، ومنعتهم الغيرة عليها من إذاعتها، فتوسع في التعبير بألفاظه عنها والتفنن بقوى فطنته فيها، وكسا جسمها حلل الآداب الملوكية، وقلد عوانقها بسيوف المكاييد الحربية. فالكتاب إن لم يكن رواية عن كتب غيره السابقة، بل هو من تأليفه وصنعه نثرا وشعرا وحكما وأمثالا وقصصا، وهو فيه يكثر من ضرب الأمثال تارة على أسننة بعض الحيوانات مثل كليله ودمنة، وتارة على أسننة شيوخ حكماء ووزراء دهاة من الفرس والعرب، وقد يتوسع بذكر قصص عن ملوك اليونان وبالمثل عن ملوك الفرس. وقد يستطرد من قصة إلى قصة أو من مثل إلى مثل على طريقة كتاب كليله ودمنة. وإذا كان كتاب أنباء نجباء الأبناء في السلوك الاجتماعي والمخلفي وآدابها فإن هذا الكتاب في آداب السياسة وما ينبغي أن يكون عليه الحاكم من الرفق بالرعية والعدل والإنصاف وما ينبغي أن يتخلل عنه من البغي والظلم. والكتاب موزع على خمس سلوانات: السلوانة الأولى في التفويض، والثانية في التأسي، والثالثة في الصبر، والرابعة في الرضا، والخامسة في الزهد. وعادة يبدأ السلوانه بأى من القرآن الكريم وبأحاديث نبوية، ويعلق عليها تعليقات طريقة، ثم يفضى إلى غرضه في الكتاب من ضرب الأمثلة والقصص الحيوانية والإنسانية تبصرة وعظة للحكام، حتى يتبعوا الصراط السوي في تدبير حكمهم وشئونهم مع سياسة الرعية سياسة حكيمة محكمة.

وابن ظفر يذكر في مستهل سلوانة التفويض لأحكام الله قوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾. ثم يذكر قصة مؤمن آل فرعون التي وردت في الذكر الحكيم وكيف أن الله تقدس اسمه وقاه سيئات ما مكروا، ويذكر بعض أسجاع وأبيات حكمية، فمن النثر قوله:

معارضة الليل طيبه... توجب تعذيبه... إنا الكيس (العاقل) الماهر، من استسلم في قبضة القاهر - إذا التبت الموارد بالصادر، ففوض إلى الواحد القادر.

ومن الشعر قوله:

يَا رَبِّ مُغْتَبِطٌ وَمَغْ^١ سِوْطٌ بِرَأْيٍ فِيهِ هُكْ^٢
عِلْمُ الْعَوَاقِبِ دُونَهُ سِتْرٌ^٣ وَلَيْسَ يَرَامُ هُنْكَ^٤
وَمَعَارِضُ الْأَقْدَارِ بَالُ^٥ آرَاءِ سَيِّئِ الْحَالِ هُنْكَ^٦

ويذكر مازقين لخليفتين: أموى وعباسي، هما الوليد بن يزيد بن عبد الملك، والمأمون وكيف أن لقاءهما بشخصين محنكين بصراهما بما ينبغي أن يتخذا من سياسة إزاء باغين عليهما، أما شيخ الوليد فقد عرض عليه مازقا مماثلا لجده عبد الملك بن مروان وكيف أن شيخا كبير السن لقيه وهداه إلى ما ينبغي اتخاذه من السياسة والتدبير حتى ينتصر على عدوه الباغي، وضرب له مثلا أو قصة عن ثعلبين وحية وكيف أن الباغي تدور عليه الدوائر، وأما شيخ المأمون فضرب له مثلا من بنى فيروز الملك الفارسي على ملك الهياطلة الذي كان قد أسره في بعض الحروب ورد إليه حريته بعد أن عاهده على أن لا يغزو بلده ولا يقصدها بسوء، ودارت الأيام بعد رجوعه إلى دار ملكه فصمم على غزو ملك الهياطلة وبلاده، وفي طريقة بنى أحد فرسانه على مسكن فقتله، وتصدى له أخوه يريد مصارعته، وخوفه الناس منه، فقال لهم: دعوني وإياه فإنه على فرس الغرور وأنا على فرس البصيرة، وهو لابس درع الشك وأنا لابس درع الثقة، وهو مقاتل بسيف البغي وأنا مقاتل بسيف الحق، وانتصر الحق على البغي وقتل أخو المسكين الفارس أو الإسوار العظيم من أساورة فيروز. ويقول الشيخ للمأمون إن فيروز لم ينمط من هذا الحادث ومضى حتى وطئ أرضا كثيرا من أرض ملك الهياطلة، والتقى ودارت الدوائر على فيروز وجنده ثمرة بغيه وعدوانه. ولقيت مقالة الشيخ قبولا لدى المأمون على إرسال الجيوش للباغي عليه، وكان أخاه الأمين الذي نكت عهد أبيه أن يكون المأمون ولي عهده والخليفة بعده، فنكت العهد ونشبت بينها الحرب ضارية وانتصر جيش المأمون وقتل الأمين الذي لم يرع لأبيه عهده ولا خاف تبعه نكته.

وخلال هذه الأمثال أو القصص التي ضربها الشيخان للمأمون والوليد تتعاقب حكم كثيرة طريقة لتوعية الحكام بآداب الحكم وما ينبغي أن يأخذوا به أنفسهم من السياسة الحكيمة للرعية ومع الأعداء. من ذلك قول ابن ظفر: «الرأى سيف العقل - كل رأى لم تتمخض به الفكرة ليلة كاملة فهو مولود لغير تمام - من دلائل الوفاء بر الآباء والأمهات وصلة ذوى القرابات - الباغي باحث عن مدية حنقه بظلفه ومترد في مهاوى تدميره بمساوئ تدبيره - الهوى طاغية فمن ملكه أهلكه - الهوى كالنار إذا تحكم اتقادها عسر إخمادها، وكالسبيل إذا اتصل مده تضرر صده».

ودائماً تلقانا مثل هذه الحكم في الكتاب، وننتقل معه إلى سلوانة التأسى، وقد أدارها على قصة طويلة لسابور الملك ووزيره وحيله واستطرد في أثنائها لقصى فتى وفتاة وفرس وخنزير وينثر في تضاعفها كثيراً من الحكم السياسية والاجتماعية مثل قوله: مَنْ غرس العلم اجتنى النهاة، ومن غرس الزهد اجتنى العزة، وَمَنْ غرس الإحسان اجتنى المحبة، ومن غرس الحلم اجتنى الحكمة، ومن غرس الوقار اجتنى المهابة، ومن غرس الإدارة اجتنى السلامة، ومن غرس الكبر اجتنى المقت، ومن غرس الحرص اجتنى الذل، ومن غرس الطمع اجتنى الحزى، ومن غرس الحسد اجتنى الكمد. ويقول: تتميز الملوك على السوقة بفضيلة الذات لا بفضيلة الآلات، وفضيلة ذات الملك تتميز بخمس خصال: رحمة تشمل الرعية، وتنظية تحوطهم، وصوله تذب عنهم، وفطنة يكيد بها الأعداء، وحزم ينتهز به الفرص. ويقول في سلوانة الصبر التالية:

صبر الملوك ثلاثة قوى: قوة الحلم وثمرتها العفو، وقوة الكلاسة (الرعاية) والحفظ وثمرتها عمارة المملكة، وقوة الشجاعة وثمرتها في الملوك الثبات وفي حُماة المملكة الإقدام في المعارك، ولا يراد من الملك الإقدام في المكافحة، فإن ذلك من الملك تهور وطمش وتغريز، وإنما شجاعته ثباته حتى يكون قطباً للمحاربين ومعقلاً للمنهزمين، وهذا ما دام بحضرته من يثق بذبه عنه، ودفاعه دونه، وحمايته له. وما قاله في هذه السلوانة: صلاح الملك: الرفق بالرعية، وأخذ الحق منها بغير عنف، والتودد بالعدل، وأمن السبل، وإنصاف المظلوم.

وتلى ذلك سلوانة الرضا، ومن جكمه فيها الرياء سراب يخدع الفطن القاصرة، ولا يخفى عن البصائر الباصرة - أمران يسلبان الحر كمال الحرية: قبول البر، وإفشاء السر - كثرة النوم تجلب الدمار وتسلب الأعمار - مَنْ لزم الرقاد عدم المراد - كن من عينك على حذر، قرب جنوح حَيْن (هلاك) جناة جموح عين - السامة من أخلاق العامة - ما أحرى الملوك بأن يحرم المأمول. ومن قوله في سلوانة الزهد الأخيرة:

يا متعباً كدُّه الجِرْ صُ في الفضول وكاده
لو حَزَتْ ما حاز كسرى وما حوى وأفاده
ما كنت إلا مضمئاً ومغمرماً بالزُّيادة
لم يَصْفُ في الأرض عَيْشٌ إلا لأهل الزَّهادة

ودائماً يضع مثل هذه الأبيات في صدر كل سلوانة، مما يصور شاعرية خصبة لديه بجانب ما يسوق من حكم مسجوعة في عبارات محكمة، وأيضاً ما يسوق من أمثال وقصص في أساليب متناسقة، تصور حساً دقيقاً وذوقاً مصفى وقدرة على الحوار الأدبي البارع.

ملحق

ابن قلاص الإسكندري^(١) في صقلية

لعهد غليوم الثاني

مرّت بنا ترجمة ابن قلاص الإسكندري في الحديث عن تاريخ الأدب العربي بمصر، وهناك ألمنا بهرحلته إلى صقلية في إيجاز، وحررنا الآن أن نفصل الحديث فيها بعض الشيء تمتة للكلام عن صقلية، وقد رحل إليها في سنة ٥٦٣ للهجرة، وهو في نحو الثلاثين من عمره وظل بها نحو سنتين، وحاد الدارسون له في تبين أسباب تلك الرحلة ودوافعها، غير أن من يتعقب أشعاره وأخباره يعرف أنه كان على صلة وثيقة بالرشد بن الزبير أحد أعلام الثقافة والأدب والشعر في عصره حين ولى النظر بئر الإسكندرية في الدواوين السلطانية سنة ٥٥٩ للهجرة وكان قد وضع يده في يد صلاح الدين الأيوبي حين ولاء عمه أسد الدين شيركوه الإسكندرية في أثناء حربه مع شاور وزير الفاطميين وأعوانه من الصليبيين سنة ٥٦٢ وتطورت الظروف حينئذ وعاد صلاح الدين مع عمه شيركوه إلى الشام وترك مصر. ولم يكن هم شاور بعد خروجهما من مصر في تلك المرة إلا طلب من انضموا إلى صلاح الدين من رجال الدولة في الإسكندرية وفي مقدمتهم الرشد بن الزبير، وسارع الرشد فاخترتاً في إحدى الدور بالمدينة فترة، وقبض عليه وقتل في شهر المحرم سنة ٥٦٣ ونرى ابن قلاص يرسل إليه في غيبته قصائد يستهل إحداها بقوله:

تدانيت داراً والوصولُ شُوعُ فخلُّك ذو الودِّ الوصولُ قَطوعُ

وهو يقول له إن دار مخيكت قريبة، غير أن الوصول بعيد، وكأنه يخشى أن يزور الرشد فينتبه رجال شاور إلى مخبئه، ويقول له: خلُّك الودود الوصول يرى كأنه لم يثبت على ودك وإخائك، ولعله يريد نفسه، وفي رأينا أن هذه الصلة بين ابن قلاص والرشد الذي كان في مقدمة الثائرين على شاور وانحاز إلى صلاح الدين وما حدث من طلب شاور له، ومقتله هذه الصلة هي التي جعلت ابن قلاص - في رأينا - يفكر في الرحيل عن الإسكندرية خشية أن يلقى نفس المصير على يد رجال شاور، إما لصداقته للرشد وإما لأنه كان ممن التقوا حول

شعر ابن قلاص الإسكندري وآثاره الثرية للدكتور محمد زكريا عناني (طبع دار المعارف) وترسل ابن قلاص الإسكندري تحقيق الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع (طبع الرياض) وكتاب العرب في صقلية للدكتور إحسان عباس ص ٢٨٧ وما بعدها.

(١) انظر في رحلة ابن قلاص إلى صقلية كتاب خريدة القصر: قسم شعراء مصر (طبع القاهرة) ١٤٦/١ وما بعدها وكتاب الزهر الباسم والعرف الناصم في مديح الأجل أبي القاسم لابن قلاص تحقيق الدكتور عبد العزيز المانع (نشر جامعة الملك سعود) والنصوص الصقلية من

صلاح الدين في مقامه بالإسكندرية حينذاك. وأخذ يفكر إلى أين يرحل ورأى أن يرحل بعيدا عن مصر وديارها، وصمَّ على الرحيل إلى صقلية، وكان قد سمع من يلمون بمجالس شيخه السلفي أحيانا من أهل صقلية في ذهابهم إلى الحج أو في عودتهم منه - بزعم المسلمين بجزيرتهم أبي القاسم ابن الحجر بن حمود بن محمد القرشي وكرمه الفياض وفي كتابه الرائع: الزهر الباسم والعرف الباسم في مديح الأجل أبي القاسم الذي وصف فيه رحلته إلى صقلية وسجل مدائحه في أبي القاسم بن الحجر نراه يذكر أنه كان قد أرسل إليه مدحة سنة ٥٦١ فكان طبيعيا أن يفكر في النزول بجزيرته فرارا من شاور ورجاله. ونزل في غُرَّة شعبان من سنة ٥٦٣ في مدينة مَسِينِي في الشمال الشرقي من صقلية، وأعجب بموقعها من البحر المتوسط ومشاهدها الطبيعية ومبانيها الرائقة، مما جعله ينشد في وصفها قوله:

بَلَدُ أَعَارَتِهِ الْحَمَامَةُ طَوَّقَهَا وَكَأَنَّ حُلَّةَ رِيَشِهِ الطَّائِفُ
فَكَأَنَّ الْأَزْهَارَ مِنْهُ سُلَافَةٌ وَكَأَنَّ سَاحَاتِ الدِّمَارِ كَثُوفُ

ومكث بها فترة قليلة، واتجه غربا إلى العاصمة «بلرم» على الساحل الشمالي للجزيرة. وأحسن استقباله أبو القاسم بن الحجر بن حمود القرشي وظل حفا به طوال مقامه بالجزيرة، وكان زعيم المسلمين في الجزيرة، كما أسلفنا، ومن كبار رجالات الدولة لعهد الملك غليوم (غليوم) الثاني وأخذ ابن قلاص يتعرف عن طريقه إلى بعض رجال الدولة التورمانية، وكأنا كان من واجب من ينزل صقلية من الشعراء المسلمين أن يمدح ملكها النورماني وبعض رجال دولته، ومر بنا أن عبد الرحمن بن رمضان المالطي استنفذ أكثر شعره في مديح روجار وأن ابن بشرن المهدوي التونسي مدَّح روجار الثاني، وقد مدح ابن قلاص غليوم (غليوم) الثاني بقصيدة ميمية روتها إحدى مخطوطات الديوان، وله يقول:

كَذَا فَلَيْكَنْ عِزُّ الْمُلُوكِ وَقَلْبَا تَرَى مُلُوكًا يَأْتِي بِمَالِكَ مِنْ عِزِّ

وفي القصيدة مبالغات مفرطة في مديح غليوم، وكان حريا بابن قلاص أن يأنف من أن يسبقها على ملك مسيحي نهب هو وآبؤه الجزيرة من أهلها المسلمين، ولكن ربما دفعته إلى ذلك ضرورة لبقائه في الجزيرة دون تعرض له أو للإذن برحيله، ولعل نفس الضرورة هي التي دفعته لمديح جُردنا أحد رجال الدولة التورمانية ويصفه بأنه وزير، وربما كان قاتنا على شئون الأمن، وفيه يقول:

وَجُردْنَا الْمَدَائِحَ فَاسْتَقَرَّتْ عَلَى أَوْصَافِ جُردْنَا^(١) الْوَزِيرِ
فَنَسَطْنَا الْمَفَاخِرَ كَاللَّالِي وَحَلَيْنَا الْمَعَالِيَ كَالنُّحُورِ

(١) في الزهر الباسم: يَزُجُردُ.

وأعجب ما جرى أنا أمنا ونحن بجانب اللَّيْلِ الهصور^(١)
 رأى منه العليكَ جلى أمين يرى النُّصْح من سقم الضمير
 فصدره على الديوان سَطْرًا هو البَسْم الذي فوق السطور
 ومدَّ على الرعيَّة ظلَّ عدلٍ وقامه لَفَحَ السِّنِّ الهجير

والقصيدة تطفح بالمبالغات المسرفة مثل قصيدة غليوم (غليوم) الثاني. وشخصية نائلة من شخصيات الدولة النورمانية هي شخصية غارات بن جوش، ولم ينظم فيه قصيدة إنما كتب إليه رسالة شكر، يقول فيها إنه فارق حضرته: «ممتلئ اليد نعمة، والقم نعمة، والخطر آمالاً، والنظر أموالاً، اصطناعاً منها (أى الحضرة) وتفضلاً أبى الله أن يصدر إلا عنها».

وإذا رجعنا إلى راعيه أبى القاسم بن الحجر الذى قصد الجزيرة من أجله وجدناه يلقب بالقائد، وكان من الأثرياء ذوى الإقطاعات الواسعة، ويذكر ابن جبير في رحلته أنه رأى له ولأهل بيته قصورا أنيقة في بلرم، وقد أضفى على ابن قلاص من الإكرام والأموال عما جعله يلهج بالتناء عليه في قصائد كثيرة بل ما جعله يؤلف فيه كتابه الزهر الياسم من أوصاف أبى القاسم» ويشيد في مطلع الكتاب به إشادة رائعة، ثم يصف ركوبه البحر المتوسط نثرا مسجوعا بهما وشعرا رائعا من مثل قوله:

الناس كُثُرٌ ولكن لا يقدَّر لى إلا مرافقة الملاح* والحسادى
 أقلتُ والبحر قد لانتْ شكائهُ جدًّا وأقلع عن موجٍ وإزبادٍ
 فعاد - لا عاد - ذاربعٍ مدسِّة كأنها أختُ تلك الرِّيحِ في عادٍ
 ونحن في منزلٍ يَسْرَى بساكِنه فاستمع حديثَ مقيمٍ بيته غادى
 لا يستقرُّ لنا جَنبٌ بمضجيه كأن حالاتنا حالاتُ عبادٍ

وهو يقول إن كثيرين من الناس مقيمون لا يبرحون ديارهم وأوطانهم، أما هو فقدر له أن يرافق الملاحين في لبحج البحار وحداة الإبل في فياني الصحارى، ثم يقول إن السفينة أقلت رافعة شراعها وقد سكن البحر وكف عن موجه وإزباده، وسارت السفينة في عرض البحر المتوسط، وما هي إلا ساعات حتى هبت ريح عاصفة أشد العصف، كأنها أخت ريح عاد الموصوفة في الذكر الحكيم بأنها صرصر شديدة البرد عاتية ويتصور السفينة منزلا غير أنه منزل لا يستقر، وكأنه ساكن مقيم وبيته منطلق به، وهو ومن حوله لا يستقر لهم جنب في مضاجعهم بهذا المنزل لكثرة تمايله، وكأنما هم عباد فهم بين راكم وساجد منكفي على جبينه، ومازالت تلك

حال السفينة وسكانها والبحر المتوسط وجنونه حتى اقتربت السفينة من الجزيرة وتمرر مسبقاً في أقصى الشمال الشرقي، وحينئذ كست البحر الرُخاء (الريح اللينة) ثوب وقارها، وأسكت الرُّعْرُع (الريح العاصفة) عنه كأس عقارها (خمرها) وصحا بعد جنونه وسكره» كما يقول ابن قلاؤس.

ومضى العماد في الخريدة يقتبس من كتاب الزهر الياسم بعض المدائح التي نظمها ابن قلاؤس في أبي القاسم بن الحجر، ويتضح منها وما تحدث به عن أبي القاسم في الكتاب أنه لم يكن قائداً أو مساعداً من مساعدي الدولة فحسب، بل كان أيضاً على رأس دواوين الدولة، ومعروف أن تلك الدولة كانت تتخذ العربية لغة رسمية لها أو على الأقل كانت مكانتها في الدواوين لا تقل عن مكانة اللغة التورمانية، ونرى ابن قلاؤس يشيد ببراعة أبي القاسم الكتابية حتى ليقول: «إن ألبس قلعه المداد عَرِي من الفصاحة قُس إياه، وإن أنطق طُرسه الرسائل، أخرَس عن الخطابة سحبان وائل، يلزم لديه ابن العميد، سَمَت العميد، ويفدو عليه عبد الحميد غير حميد، ويقول له الصاحب أنا عبد لا صاحب ونهاية الصائى أنه بالفاظه صائى». وهو بذلك يرفع بلاغته الكتابية فوق بلاغة قس الإيادى خطيب الجماهيلية وسحبان وائل خطيب العصر الأموى وعبد الحميد الكاتب المشهور في الدولة الأموية وابن العميد والصاحب بن عباد الكاتبين الفذين للدولة البويحية والصائى الكاتب البغدادي المعروف في القرن الرابع، وكان من الصائنة ويستغل اسمه في أنه إزاء بلاغة أبي القاسم يصبأ أو يكفر ببلاغته. ومن قوله فيه بأولى مدائحه، وفيها يصف البحر وركوبه وصفاً بديعاً:

| | |
|--------------------------------------|--|
| أنت في الفضل في بنى الحجر السَّاء | دَع مثَل الياقوت في الأحجار |
| وبُيُمنَّاك طَيْرٌ يُمنِّى وَسَفِيد | أَصْفَرُ الظُّهْرِ أَسْوَدُ المنْقَارِ |
| قَلَمٌ دَهْرُ الأَقَالِيمِ فَالْكُتْ | حُبُّ به من كنتائب الأقدارِ |
| يسا طرازَ الديوان والمُلْك أصبح | سَتْ طرازَ الديوانِ في الأشعارِ |

والبيت الأول بديع، فهو الحجر السادة أحجار كريمة، وهو بينهم ياقوت متوهج، وبهمناء قلم كأنه طير بين وسعد، جلده - أو كما يقول ظهري - أصفر ومنقاره أسود، وهي إشارة بديعة إلى أنه يُقَمَّس في مداد أسود، ويقول: إن هذا القلم يدبر أقاليم الجزيرة بما يكتب من رسائل ديوانية مختلفة، سياسية وغير سياسية يصرف بها أمور سكان الجزيرة المسلمين، وهنته بأنه زخرف الديوان والملك التورماني، وانضاف إليه أنه أصبح زخرف ديوانه وأشعاره. ويقول في قصيدة أخرى:

قد أقسم الحمد لا يُشِيرُ إلى غسر أبي القاسم بن حمود

ففى يده للنسوال معركة
وتلتقى كُتُبُه الكُتائب فى
بكل لفظ كأنه نفس
صَحَّت معانيه فانْقَسَمْنَ إلى
وربما استضحك الخميسُ بهِ
أَرَدَى بها البُهْلُ صارمُ الجود^(١)
جيشٍ من الخطِّ صائِدُ الصِّيدِ^(٢)
غيرِ مملٍّ بطولِ ترديد
فضلِ ابتكارٍ وحُسنِ توليد
عن أَهْرَبِ الماضينِ صُنْدِيدِ^(٣)

فالحمد لا يعرف طريقاً إلى أحد يستحقه سوى ابن حمود أو ابن الحجر الذى أقام للجود معركة تلمع فيها السيوف القاطعة للرقاب: رقاب البخل والشعُ البغيض، وإن رسائله لتخضع لها كُتائب الجيوش المسلحة، وبعبارة أخرى تخضع لجيش من الخط والكتابة البليغة التى تستنزل المعاة العتاة، بكل لفظ يلذ اللسان والأذان بحسن جرسه وروعة معانيه المولدة والمتكررة. وليس ذلك كل ما يميز ابن حمود فإنه يتميز أيضاً بالبأس والشجاعة حتى لكأنه أسد يميز فرائسه بماضيه أو أنياه، أسد صنديد، شديد غاية الشدة. ولابن قلاؤس مدائح وأشعار كثيرة بديعة فى ابن الحجر، من ذلك قوله:

إن ابنَ حمودٍ له راحةٌ
فى كلِّ يومٍ لوفودِ الندى
للمال من راحته عندهم
ولو أعار السليلَ آراءه
فضائلُ كادتْ لإفراطها
تستجلب الحمد من الجرِّمِ^(٤)
ببابه مُجْتَمِعُ المَوسِمِ
أضفافُ ما للماء من زَمَزَمِ
ما احتاج ساريه إلى الأنجم
تنطقُ بالشكر فَمَ الأُبْكُمْ

وهو يقول إن راحة ابن حمود ما تزال تهطل بالجود، حتى لكأنما تريد أن تجلب لنفسها الحمد من نوء المطر وغيثه المدرار، ويبالغ فى مديحه فيقول كل يوم تجتمع الوفود ببابه وتأخذ من ماله أضفاف ما يأخذ الناس من ماء زمزم، ولو أنه أقرض الليل آراءه ما احتاج ساريه إلى نجوم تهديه فى جناح الظلام. فضائل ليس لها مثل تكاد تنطق فم الأُبكم بالشكر والامتنان. ونراه يقوم برحلة بحرية إلى سرقوسة فى شرقى صقلية، ويبدأ فيها بمدينة ثرمة فى الشمال شرقى بلرم، وغادرها سريعاً لحرارتها الشديدة حتى لكأنه شرب فيها ماء المُهْلِ أو شراب الكفار فى جهنم أو كأنما طعمَ شجرة الزقوم طعام الكفار فى النار الحامية، واتجه شرقاً إلى جَفْلود، وشاهد رياضها

(١) الشدقين. صنديد: شجاع.
(٢) المرزم: نوء كثير المطر.

(١) صارم: سيف.
(٢) الصيد جمع أصيد: السيد.
(٣) الخميس: الجيش. أهرت الماضين: واسع.

وما يحفّ بالعيون فيها من حورعين، غير أنه أسرع في مغادرتها إسراراً من يُطلب بالدين أو كمن يُطلب في صقلية بالدين مشيراً بذلك إلى اضطهاد المسلمين فيها، ويقول إنه نزل ثمر مسيني وظل فيها تسعين يوماً عند جلف ثقیل الظل لا يحفّ أبداً حتى لو طار بجناحي جبريل، وركب السفينة أو المجنونة كما يسميها على ماء مجنون حتى ليظن أنه سيكون طعاماً للحيات، ونزل سرقوسة أخيراً وعجد فيها الملجأ الأمين. والقصيدة وصف بديع لرحلة بحرية في صقلية، وقد أتمعها بوصفها لرحلة برية من سرقوسة إلى بلرم حيث راعيه الأمين أبو القاسم بن الحجر، ولا يتضح سبب رحلته إلى سرقوسة وعودته، وفي رأيي أنه كان يبحث في الثغور التي مر بها عن يحدته عن مصر وأحوالها وهل لا يزال شاور وأعوانه متسلطين فيها على الحكم، وكان أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين قد عادا إلى مصر سنة ٥٦٤ في قدمتهما الثالثة، وسرعان ما قبض على شاور وقتل وتولى أسد الدين الوزارة لمدة شهرين وتوفى، وتولاها صلاح الدين. وأكبر الظن أن كل ذلك علم به ابن قلاقس، فاطمأن وصمم على العودة إلى وطنه بعد وداع راعيه أبي القاسم وأصدقائه في بلرم من مثل هبة أفه السيد الحضري وله فيه مدائح بديعة ومثل الفقيه أبي الحسن علي بن أبي الفتح بن خلف الأموي، ويقول عنه في كتابه الزهر الباسم: «هو حذقة العلم الناطرة، وحديقة الأدب الناضرة» ويسوق ابن قلاقس في الكتاب ما كان بينهما من مكاتبات شعرية قبيل رحيله، وله يقول مودعاً:

تَحْذَنُكَ مِنْ صَقْلِيَّةٍ خَلِيلَا فَكُنْتَ الْوَرْدَ يُقَطِّفُ مِنْ قَتَادِ
وَشِمْتِكَ بَيْنَ أَهْلِهَا صَفِيًّا فَكُنْتَ الْجَمْرَ يُقَسُّ مِنْ زِنَادِ

وابن قلاقس لا يريد أن يهجو صقلية وأهلها بأنهم شوك وابن خلف وحده هو الورد، ولا أنهم زناد صلد لا يخرج منه شر وهو وحده الجمر، وكل ما في الأمر أنه مدحه مودعاً وبالغ في مدحه. ولابن قلاقس أشعار متعددة في وصف مجالس الشراب بصقلية ووصف المغنين بها والراقصات من مثل قوله:

وَمَغْنٌ تَسَاوَلَتْ يَدُهُ الْعَوَا ذَ فَعَادَتْ بِنَا إِلَى الْأَفْرَاحِ
بَيْنَ رِيحٍ مِنَ الْمَزَامِيرِ أُسْرَى بَيْنَ أَجْسَامِنَا مِنَ الْأَزْوَاحِ
وَصَبَاحٌ قَدْ عَقَدُوا طُرُزَ اللَّيْلِ لَ جَمَالًا عَلَى الْوُجُوهِ الصُّبَاحِ
يَبِيعُ الرِّقْصُ مِنْهُمْ حَرَكَاتٍ سَرَقَتْ بِعَضَاهَا طُيُوَالَ الرِّمَاحِ

وهو يقول إن صوت المغني وهو يضرب على العود صوت مفرح ونسيم أنغام المزامير من حولهم تسرى في أجسامهم سريان الأرواح، وراقصات فانتات تنهدل خصل الشعر على جباههن وهن يتثنين ويتحركن حركات رشيقة، وكأنما سرقت الرماح في أبدى المعارين بعض

حركاتهن ورشاقتهن. وقد رحل عن صقلية والصلّة بين أبي القاسم والدولة صلة طيبة، وبتأثير من الوشايات صودرت أمواله بعد رحيل ابن قلاّس وإقطاعاته وأغرم ما يزيد على ثلاثين ألف دينار، وزار ابن جبير الجزيرة وقد عُفي عنه وعاد إلى سابق العهد به، ولذلك يقول ابن جبير عنه حيثئذ إنه زعيم أهل الجزيرة من المسلمين وسيدهم. وعاد ابن قلاّس إلى القاهرة سنة ٣٦٥ قبل تولّي صلاح الدين وزارة العاضد الفاطمي فمدحه ومدح رئيس الدواوين، القاضي الفاضل، وكأنما ظن أن الأحوال في مصر لا تزال غير مستقرة فرأى أن يزور اليمن، وربما كان الذي حبه في زيارتها صديقه الرشيد بن الزبير الذي كان قد زارها وتقلّد أحكامها وقضاءها فترة كما يقول ياقوت، وفي أثناء عودة ابن قلاّس منها سنة ٥٦٧ أسلم روحه إلى بارئها بخر عذاب على الساحل المصري للبحر الأحمر وهو ابن خمس وثلاثين سنة.

خاتمة

١

تحدثت - في الصحف الماضية - عن ليبيا في القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربي فيها وفي تونس وصقلية من الفتح العربي إلى العصر الحديث. وعرضت جغرافيتها وتاريخها القديم وأنها ظلت تستقبل الحضارات الفينيقية والقرطاجية واليونانية والرومانية والبيزنطية دون أن تضيف إليها شيئاً، وألمت بفتح العرب لها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وتعاقب الولاة عليها في العصرين الأموي والعباسي، وتبعية طرابلس للدولة الأغلبية في القيروان منذ سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م إلى ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م بينما كانت برقة تتبع مصر. ويتبعان جميعاً الدولة العبيدية، ويسترد بلكين الصنهاجي تبعية طرابلس إلى القيروان ويؤسس بها بنو خزرون دولة ظلت خمسين عاماً، وتنعما هي وبرقة الهجرة الأعرابية الكبرى في منتصف القرن الخامس الهجري، وقد أحالوا معظم ليبيا إلى مشيخات بدوية، وبعث فيها فساداً قراقوش وابن قراتكين وابنا غانية في النصف الثاني من القرن السادس الهجري، وتبع برقة مصر في عصر الأيوبيين والمماليك، ويوكلون عنهم بنو عزاز في حكمها وجبايتها، وتبع طرابلس الدولة الحفصية في تونس، ويؤسس بها بنو عمار دولة لهم من سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م إلى ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م وتعود للحفصيين ويستول علىها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩١٦هـ/ ١٥١١م ويتركها سنة ٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م لفرسان مالطة، ويخرجهم منها الأسطول العثماني سنة ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م وتظل للعثمانيين، ويتولاها منهم أحمد القرماني سنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١م ويجعلها وراثية في أبنائه إلى أن استردها العثمانيون منهم سنة ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م وبذلك تبدأ ليبيا عصرها الحديث.

وسكان ليبيا - من قديم - ينتسبون إلى حضر في المدن على الساحل وما وراءه من بساتين وزروع، وإلى بدو رحّل في منطقتي شبه الصحراء والصحراء الليبية المترامية الأطراف. وقد نزلتها عناصر جنسية كثيرة بجانب سكانها البربر من فينيقيين وإغريق ويهود ورومان وزنوج وعرب وترك وحلبهم المسيحي الأوربي من القرصنة. وبجانب النشاطين الزراعي والرعوي وصيد الأسماك والإسفنج على السواحل تمت بليبيا صناعات يدوية كثيرة مثل عصر الزيت ونسج الملابس والأبسطة ودبغ الجلود واستخراج الملح من السواحل. وكان البربر وشبين،

ونزل بديارهم اليهود، وحاول الرومان وكنيسة الإسكندرية نشر المسيحية بها وخاصة في المدن الشمالية واكتسحها الإسلام، ودخل فيه سكانها أفواجا، حتى أصبح دينهم في كل مكان كما أصبحت العربية لسانهم، وشاع المذهب الإباضي في جبل نفوسة وطرابلس، وحاول البيديون - حين أقاموا دولتهم في القيروان - نشر عقيدتهم الإسماعيلية الشيعية في ليبيا، ورفضها سكانها، وعلى مر العصور آثرت ليبيا مذهب مالك السني، وتبع بعض أهلها في العهد العثماني المذهب الحنفي غير أن مذهب مالك ظل هو المذهب الغالب على الليبيين. ونرى كثيرين من الليبيين - على مر العصور - يؤثرون الزهد في متاع الحياة والتقشف طلبا لما عند الله من الثواب ونعيم الفردوس، وشاعت بينهم في الحقب المتأخرة الطرق الصوفية السنية.

ومنذ الفتح العربي ودخول ليبيا في الإسلام كان قانموها يعملون - بكل ما وسعهم - على نشر الدين الخفيف بها، وسرعان ما شاعت فيها الكتابيب لتحفيظ القرآن الكريم، كما استدارت في المساجد حلقات الشيوخ يلقنون الناس شيئا من تفسير الذكر الحكيم ومن الحديث النبوي وقواعد الفقه وتعاليم الإسلام، وأخذ بعض أبناء ليبيا يطلبون السعة في الزاد العلمي، فرحلوا إلى المشرق للتزود من حلقات علماء العربية وعلماء الفقه والدراسات الدينية، وعُتوا خاصة بالأخذ عن الإمام مالك فقيه المدينة وتلاميذه المصريين. وأخذت تنمو العلوم الإسلامية واللغوية في ليبيا على مر الزمن وازدهرت في عهد الدولة الحفصية بما أنشأت من مدارس وما نشأ من زوايا كانت تُعنى بدراسة العلوم، وأصاب الحركة العلمية غير قليل من الخمود والركود في عهد الدولة العثمانية.

وإذا تعقبنا العلوم والعلماء في ليبيا على مر القرون لاحظنا أنه لم ينشأ فيها نشاط في علوم الأوائل، بخلاف العلوم اللغوية والدينية فقد اشتهر فيها كثيرون في مقدمتهم الأجدابي اللغوي في القرن الخامس الهجري والمقرئ مؤمن بن فرج في القرن الخامس الهجري أيضا والمافظ المحدث الكبير أحمد بن نصر الداودي في القرن الرابع الهجري وعلى شاكلته ابن عبيد في القرن السابع، ويتكاثر الفقهاء السنيون مثل ابن المنذر في القرن الخامس وعمران بن موسى في القرن السابع، وبالمثل فقهاء الإباضية، ومنهم عمرو بن فتح النفوس في القرن الثالث والبيطالي في القرن الثامن.

وأسرعت ليبيا في التعرب لسببين : كثرة من نزل بها من القبائل وكثرة من استقر بها من الجند، وأتمت تعربها هجرة الأعراب الكبرى من بني سليم وبني هلال وامتزج الشعبان : البربري والأعرابي وأصبحت شعبا واحدا في الأخلاق والعادات والفروسية والتجدة والرأي والمأكل والأفراح والأحزان، وسرعان ما انتصرت العربية على البربرية. ويشهد الرحالة العبدري في أواخر القرن السابع لأهل برقة بالفصاحة ولا تزال لغتهم في التخاطب إلى اليوم

أقرب إلى الفصحى من لغة أى بلد عربى. ولم تحدث فى ليبيا قبل عصرها الحديث نهضة أدبية واسعة، ومرجع ذلك إلى أنها لم تنشأ بها دولة ترعى الأدب والأدباء ولا أنشئ فيها ديوان يبعث فيها حركة نثرية أدبية، وأول شاعر بها ينال شيئا من الشهرة خليل بن إسحق فى القرن الثالث الهجرى، ويتكاثر شعرؤها فى القرن السابع من أمثال فتح بن نوح الإباضى وابن أبى الدنيا وابن معمر، وأهم شعرائها فى العهد العثمانى البهلول الطرابلسى، وله ديوان كله مدائح نبوية، ومن الشعراء بعده أحمد بن عبد الدائم. وتشير كتب التراجم بأن لهذا الكاتب اللبى أو ذاك رسالة أو مقامة، وتكفى بمثل هذه الإشارة ولا تذكر منها شيئا، وفتح بن نوح الإباضى الشاعر كتاب كله وعظ على شاكلة كتاب ملتقى السبيل لأبى العلاء المرى.

٢

وانتقلت فى القسم الثانى من هذا الجزء إلى تونس فتحدثت عن جغرافيتها وتاريخها القديم وفتح العرب لها ودخول أهلها فى الإسلام أفواجا وظل مدة يتعاضم فيها وفيها وراءها من بلاد المغرب. ومن ولايتها الأولين وولاية المغرب جميعه عقبه بن نافع مؤسس مدينة القيروان وحسان بن النعمان مؤسس مدينة تونس وموسى بن نصير فاتح الأندلس وناشر الإسلام فيه وفى المغرب جميعه حتى المحيط، ووليها للعباسيين يزيد بن حاتم المهلبى وأحدث بها حركة أدبية خصبة، وتولاها إبراهيم بن الأغلب للرشيد سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م ويجعلها الرشيد وراثية فى أبنائه، وتظل تلك الدولة الأغلبية حتى سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م ومن أعمالها الجليلة فتح صقلية سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م وفتح مالطة سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م ونشر الدين الحنيف واللغة العربية بها، وتختلف الدولة العبيدية تلك الدولة إلى أن انتقل الخليفة العبيدى المعز إلى القاهرة سنة ٣٦١ هـ/ ٩٧١ م وجعل حكم إفريقية التونسية بعده لقبيلة صنهاجة وزعيمها بلكين، وظلت تلك الدولة الصنهاجية موالية للخلفاء الفاطميين فى القاهرة إلى أن أعلن المعز بن باديس الصنهاجى استقلاله عن خلافتهم سنة ٤٣٨ هـ/ ١٠٤٦ م وقبل بل فى سنة ٤٣٩ أو ٤٤٠ وغضب الخليفة الفاطمى المستنصر، فسلط عليه أعراب بنى سليم وبنى هلال التازلين شرقى الصيد، وكانوا نحو نصف مليون، فاكسحوا ليبيا وإفريقية التونسية، وحاربوا المعز فى القيروان وهزموه، واضطروه إلى الانزواء فى مدينة المهدية، واستقل بعض الولاة فى مدن إفريقية التونسية وأنحائها بالحكم، وقام فيها نظام أمراء الطوائف إلى نحو قرن. ونزل روجار الثانى النورمانى ساحل تونس سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م واستولى على المهدية وطرده منها عبد المؤمن أمير دولة الموحدين المغربية سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م وعاث بها فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى قراقوش وابن قراتكين وابنا غانية، وخلصها منهم الموحدون والدولة الحفصية، وازدهرت الحياة بها فى أيام

الحفصيين، وحاصر لويس التاسع تونس، وقبر تحت أسوارها، ونهضت البلاد طوال ثلاثة قرون، وأغار عليها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ١٤٣٠ هـ/١٥٣٧ م وخلصها من الإسبان الأسطول العثماني سنة ١٨١٦ هـ/١٥٧٤ م وأصبحت تابعة للدولة العثمانية وتوالى عليها البايات، ومن خیرهم مراد باي وتوارثها أبناؤه وحسين بن علي وبالمثل توارثتها أسرته حتى العصر الحديث. ونزل إفريقية التونسية - بجانب سلاطات البربر العريقة بها - عناصر جنسية كثيرة: فينيقية وقرطاجنية ويهودية وزنجية ورومانية وألمانية من الواندال وبيزنطية وعربية ومن كان في جيوش العرب من الشعوب الإسلامية ونزلتها عناصر أندلسية وتركية وأوربية مسيحية ممن كان يأسره القراصنة، ومع كل هذه العناصر ظلت للعصر البربري الغلبة، وظل يفرض عليها شخصيته وهويته. وتوج إفريقية التونسية - من قديم - بطيبات الرزق من الزروع وأشجار الزيتون والفاكهة والتخيل، وتوج مراعيها بقطعان الغنم والأبقار والحيل والإبل، وتكثر بها الصناعات اليدوية مثل عصر الزيتون ودبغ الجلود وصناعة الزجاج والبلور والحرف والمنسوجات على اختلاف أنواعها والورق وكل ما تحتاج إليه المنشآت العمرانية. وأهلتها هذه المنتجات الصناعية والزراعية وما كان يرد إليها من إفريقيا السوداء لتكون سوقا تجاريا عالميا. وهياها كل ذلك لرفه واسع في الطعام والملبس وما يتصل بذلك من ككرة الاحتفالات والأعياد والعناية بالموسيقى وآلات الطرب. وحظيت المرأة في هذا المجتمع بمكانة كريمة.

وكان البربر قديما وثنيين، ونزلت بينهم جماعات من اليهود وحاولت نشر دينها اليهودي فيهم واستعجبت لها أقلية، واستولى الرومان على ديارهم وأخذوا يحاولون - كما حاولت كنيسة الإسكندرية - نشر الدين المسيحي بها وتأسست بعض الكنائس والأسقفيات، واعتنقه بعض البربر - وخاصة في المدن الشمالية، وظلت في اليهود الإسلامية عناصر صقلية مسيحية تنزل بالبلاد، وعناصر أخرى ممن كان يأسره القراصنة من البحر المتوسط. والإسلام هو الدين السماوي الوحيد الذي عم - بعد الفتح - إفريقية التونسية وجميع البلدان المغربية لتحريره الشعوب من الظلم والاستعباد ولبساطته وبحوه الفوارق الطبقية بين أفراد الأمة. واختارت إفريقية التونسية مذهب مالك الفقهى السني، وعاش بجانبه المذهب الحنفي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، وعاد إلى الظهور أيام العثمانيين. ولم تنجح في إفريقية التونسية مبادئ الإباضيين ولا مبادئ العبيديين الإسماعيلية الشيعية، ومن قديم يتكاثر بها الزهاد وكثرت فيها - منذ القرن السابع - الطهق الصوفية.

ونشطت الحركة العلمية في إفريقية التونسية منذ الفتح، وكان يقودها في أول الأمر الفاتحون بنشرهم للدين الحنيف وتعاليمه، وما نكاد نقبل على القرن الثاني الهجري حتى ينشأ جيل من أبناء البربر والعرب يطلب المزيد من العلم، ويرحل في طلبه إلى المشرق للقاء أي حنيفة ومالك

ويحمل مذهبها إلى مدينتي القيروان وتونس، ويساعد في ازدهار الحركة العلمية - على مر العصور - جامع أو جامعة عقبة في القيروان وجامع أو جامعة الزيتونة في تونس وما أنشأه الحفصيون من مدارس ومكتبات. وتعدّ إفريقية التونسية بعلوم الأوائل ويؤسس فيها الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٧١-٤٨٩هـ) بيت الحكمة للعناية بتلك العلوم، وتشتهر القيروان بأطبائها كبار كان لهم تأثير عظيم في النهضة الغربية كما تشتهر بفلكي جزائري كبير هو علي بن أبي الرجال كان له تأثير قليل في علم الفلك الأوربي. وتؤسس الدولة الصنهاجية مدرسة في الكيمياء، وينبغ في الدولة الحفصية كيميائي هو النيفاشي، ونلتقى فيها بأطبائهم ورياضيين متعددين وبعض الجغرافيين. ويكثر علماء اللغة والنحو في المهد الصنهاجي من مثل القرزازي والحصري، ويضع ابن عصفور أسس مدرسة نحوية تونسية، ويقود ابن رشيق بكتابه «العمدة في صناعة الشعر ونقده» حركة نقدية واسعة، ويشتهر في القراءات ابن خيرون حامل قراءة ورش عن نافع إلى موطنه، ولا يلبث أن يظهر إمام كبير من أئمة القراءات هو مكى بن أبي طالب. ومن أوائل المفسرين عكرمة مولى ابن عباس ومن كبارهم في القيروان علي بن فضال وابن بزيّة ويكثر الحفاظ المحدثون ومن كبارهم القنابسي في القرن الرابع والمازري في القرن السادس، ويتعاشرون في الفقه المذهبين: المالكي والحنفي وقفهاؤهما في القرنين الثاني والثالث من أمثال سحنون المالكي وعبد الله بن فروخ الحنفي، ثم تصبح الغلبة للمذهب المالكي منذ أخذ المعز بن باديس الناس والفقهاء به، ويعود المذهب الحنفي إلى الظهور في عهد العثمانيين، وتكون له الكلمة العليا في الفتوى والقضاء. وكل ما كان موصفاً للمناظرة والجدل من المذاهب الكلامية في المشرق انتقل إلى المغرب سواء في ذلك مذاهب الخوارج والمرجئة والمعتزلة، وأخذ المذهب الأشعري يعم منذ القرن الخامس الهجري. ونشطت الكتابات التاريخية في القيروان عن مغازي إفريقية والدولة الأغلبية وأمرائها والدولة العبيدية وخلفائها وعن علماء إفريقية وتاريخهم وتاريخ المغرب وعن شعرائها وعن كان بها من الزهاد وكبار العلماء وعن دولة بني عبدالواد بتملمسان، ولابن خلدون تاريخه العظيم ومقدمته النفيسة، ويلقانا بعده كتابه المختار عن الدولة الحفصية وكتاب ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، وكتاب السراج: الحلل السندسية وكتاب حسين خوجه: ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، وفيه ترجحات لفقهائهم البلدان الكبيرة.

وعلى الرغم من أن اللغة البربرية ظلت تعايش لغتين متحضرتين هما الفينيقية واللاتينية فإنها لم تتحول قديماً إلى لغة متحضرة لها أبجديتها وكتابتها التاريخية، وكان من يتحضر من البربر أيام الفينيقيين يكتب بلغتهم، وبالمثل أيام الرومان، وكثيرون منهم كانوا يتقنون اللاتينية نطقاً وكتابة، وظلت من ذلك بقية بعد الفتح، وسرعاً أخذت البربرية لغة الشعب واللاتينية لغة بعض الخاصة تزيلان الألسنة وتحل محلها العربية حتى إذا كانت الهجرة الأعرابية الكبرى في منتصف

القرن الخامس الهجري اختلط البربر بالأعراب وكونوا شعبا عربيا واحدا في حياته ولقته ودينه. وظلت الكثرة من الأعراب تنطق بالفصحى نطقا سليما حتى القرن السابع الهجري، وسرت إليهم عدوى العامية فهجروا الإعراب، ومع ذلك ظلت الفصحى لغة العلم والأدب الرفيع، وغذاها المهاجرون الأندلسيون في القرن السابع ثم في القرن التاسع والحادي عشر بخذاء قويمة بث فيها روحا وغير قليل من الانتعاش. ويكثر الشعراء في إفريقية التونسية منذ ولاية يزيد بن حاتم المهلبى في أواسط القرن الثاني الهجري، وكان أمراء الدولة الأغلبية وخلفاء الدولة العبيدية شعراء وأجزلوا العطايا لمادحيهم، وينهض الشعر في زمن الدولة الصنهاجية، ويقال إن مادحى المعز بن باديس بلغوا المائة عددا، وكان ابنه تميم شاعرا ومقصدا للشعراء من كل بلد مغربي ومشرقي وكان ابنه يحيى وحفيده على وابنهم الحسن غاية في الجود، فقصدهم غير شاعر، ولابن حمديس وأمية بن أبي الصلت الأندلسي فيهم مداخل رائقة، ويتكاثر الشعراء حول أمراء الطوائف مثل سلامة بن فرحان شاعر أبي الحملات أمير مدينة قابس والتراب السوسى شاعر جبارة بن كامل أمير مدينة سوسة. ومن شعراء هذا العهد على الحصرى وعبد الله الشقراطسى. ويزدهر الشعر في العهد الحفصى ويرفده جندول أندلسى، ومن شعرائه جابر بن عنان وابن عزيبة وابن حُسَيْنَة وابن السماط المهدوى والللياني وغيرهم كثير، ومنذ القرن الثامن الهجري يزاحم الشعر الشعبى الملحون الشعر، ويهاجر كثير من الأندلسيين إلى إفريقية التونسية في القرن الحادى عشر ويسترد الشعر شيئا من حيويته ونشاطه في العصر العثمانى، وخاصة منذ عهد الأسرة الحسينية.

وتظهر في كل غرض من أغراض الشعر طائفة من الشعراء المبدعين، ودانها كانت سوق المديح نافقة، ومن أعلامه الذين ترجنا لهم على بن محمد الإيادى، والكاتب الرقيق وابن رشيق والتراب السوسى وابن عزيبة وعبد الله التجاني وعلى الغراب والورغى. ومن أعلام الفخر المهمين تميم بن المعز ومحمد الرشيد الحسينى. ومن أعلام الفزل على الحصرى وأحمد الللياني ومحمد ماضور. ومن أعلام شعر القرية والشكوى والعتاب ابن عبدون ومحمد بن أبى الحسين. ومن أعلام شعر الطبيعة عبد الواحد بن فتوح وابن أبى حديدة وأبو على بن إبراهيم. ومن أعلام شعر الرثاء للأفراد والمدن والدول ابن شرف القيروانى ومحمد بن عبد السلام. ومن أعلام الوعظ أحمد الصواف، ومن أعلام التصوف محرز بن خلف، ومن أعلام المديح النبوى الشقراطسى والسماط المهدوى. وكل هؤلاء الشعراء حاولت تبين شخصياتهم، مع عرض أهم روايتهم الشعرية.

ونفض النثر في تونس على لسان الولاة والقواد. وتأسست بها - مبكرة - اللواوين، ونهض أبو اليسر الشيبانى رئيس ديوان الانشاء في عهد الأغالية بالكتابة الديوانية وكون فيها

مدروسة كانت لها تقاليد متبعة، وفي صبح الأعشى رسالة ديوانية بلمضة من العهد الحفصى. وكثرت الرسائل الشخصية، وهى مسجوعة، وبها - فى الحقب المتأخرة - كثير من التكلف. وتلقانا بعض مقامات، وهى لا تتناول حياة أديب متسول وخُذَّعه الكثيرة لجذب السامعين، إنما هى موضوعات أدبية، لبيان التفنن فى الكتابة الأدبية، وترجمت ثلاثة من الكتاب البارعين أبى اليسر الشيبانى رئيس ديوان الإنشاء فى عهد الأغالبة وإبراهيم المصرى صاحب زهر الآداب، وابن خلدون الكاتب التونسى الفذ.

٣

وتحدثت - فى القسم الثالث من هذا الجزء - عن جزيرة صقلية وجغرافيتها وتاريخها القديم إلى أن فتحها العرب أيام الأمير زيادة الله الأغلب سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وظلوا طويلا يفتحون مدنها وحصونها وينشرون العربية والدين الحنيف فى ربوعها. واستولوا على مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م ونشروا بها - مثل صقلية - الإسلام والعربية، ولا يزال أهلها - حتى اليوم - يتكلمون لكنة عربية تونسية دخلها - مع طول الزمن - كثير من التحريف - وغزوا قَلَوْرِيَّةَ فى جنوبى إيطاليا، وظل للدولة الأغلبية فيها شطر بل أشطار طوال مدة حكمهم. وولى على صقلية للدولة العبيدية ولاية أساءوا السيرة إلى أن وليها للخليفة العبيدى المنصور قائد من خيرة قواده هو الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبي سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م فجعلها وراثية فى أبنائه، وساء حكمهم فى القرن الخامس الهجرى، وثار صقلية عليهم، واستحالت إلى إمارات طوائف لكل بلدة أمير، واختارت بلرم قائدا من قواد الثورة هو ابن الثمنة، وكان شؤما على الجزيرة كلها فإنه تحارب مع أمير قصر يانة وهُزِمَ، فاستغاث بالنورمان فى قَلَوْرِيَّةَ بجنوب إيطاليا، وأغاثه روجار الأول، وسرعان ما استولى على بلرم سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م وبحاول الاستيلاء على بقية مدن صقلية وتم له ذلك فى سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ويدور العام فيستولى على مالطة سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م. ورأى شعب صقلية العربى يفوق شعبه مدنية وحضارة واتقانا للزراعة ولكثير من الصناعات اليدوية فأخذ يسانعه للإفادة منه مع التكتيل به فى صور شتى، وحاول ابنه روجار الثانى وحفيده غليوم الأول التخفيف من هذا التكتيل القاسم، ولكن ظل الاضطهاد قائما كما يصور ذلك ابن جبير فى رحلته حين زار صقلية أيام غليوم الأول، وازداد الاضطهاد ضراوة حين استولى على الجزيرة أباطرة الألمان منذ سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م واستغاث أهلها بالاستنصر الحفصى سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م فراسل فردريك الثانى واتفق معه على إجلاتهم إلى إفريقية التونسية. وأجبر فردريك من بقى بالطة من المسلمين على مباحرتها إلى مدينة أمالفى Amalfi جنوبى إيطاليا وكانت صقلية موزعة بعد الفتح العربى إلى ثلاث ولايات كبيرة، ولكل ولاية وال

يديرها ومعه مساعدون وكل منهم يسمى قائدا ولكل ولاية قاض أو قضاة. وعامل المسلمون المسيحيين معاملة سمحة إلى أبعد الحدود، وحافظوا لهم على كنائسهم وقوانينهم الدينية والمدنية ومحاكمهم الخاصة. وكان بكل ولاية مجموعة من الدواوين للإشراف على نظام الحكم، ومن أهمها ديوان المحاسبة القائم على جمع الضرائب. وكانت صقلية مَلَأى بالزروع وأشجار الزيتون والفاكهة ولِبالفنم والحجول، وكانت الصناعات مزدهرة بها وخاصة صناعة المنسوجات وصناعة الورق التي انتقلت إليها من القيروان ونقلتها إلى أوربا لتلهم - فيها بعد - جوتنبرج - اختراع الطباعة. وتلتقى فيها ببعض الزهاد مثل القاضيين ميمون وابن أبي محرز وبيعض من ينزعون في نسكهم منزع التصوف مثل أبي القاسم عبد الرحمن البكرى.

وقد فتح النورمان صقلية الإسلامية حربيا وفتحتهم حضاريا، مما جعل ملوكها يَكُون على تعلم العربية ليقروا ذخائرنا العلمية، وتعلموا من المسلمين شئون الزراعة والصناعة ونظمهم الادارية والديوانية، واتخذوا العربية في مراسيمهم الحكومية، ومع ذلك لم تكن إقامة المسلمين لشعائهم الدينية مكفولة وساموهم غير قليل من الخسف والاضطهاد بشهادة ابن جبير لما شاهده في الجزيرة. ودائنا تنزل الثقافة الإسلامية البلدان المفتوحة مع الجيوش العربية، وهو ما حدث سريعا في صقلية، وكان بعض أبنائنا لا يكتفون بما يأخذون عن شيوخها، فكانوا يرحلون - استزادة في العلم - إلى القيروان ومدوا رحلتهم أحيانا إلى المشرق، ورحل إليهم بعض العلماء القيروانيين والمشاركة، ويقول ابن حوقل إنه كان في بلرم وحدها مائتا مسجد وثلاثمائة معلم. وعُتيت صقلية بعلوم الأوائل، وكان نصف سكانها مسيحيين وكانوا فتنين: فئة تتكلم اللاتينية وفئة تتكلم الإغريقية، وكان بين قساوستها من يستطيع الترجمة من اللاتينية والإغريقية إلى العربية مما جعل الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى حين أسس بيت الحكمة في عاصمته رقادة وعنى فيه بعلوم الأوائل يستعين ببعض الرهبان الصقليين في ترجمة بعض المصنفات اللاتينية في العلوم الرياضية إلى العربية، ونظل نسمع عن إتقان بعض أطبائنا من العرب للغة الإغريقية وعن نزول بعض متفلسفة الأندلس بها، وتتردد في الكتب أسماء لبعض من كانوا فيها من الأطباء والرياضيين والمهندسين والفلكيين.

وعُتيت صقلية برواية الدواوين وأمهات الكتب الأدبية كما عُنيت بالعلوم اللغوية واشتهر من لغوييها ابن البر الذي رحل إلى مصر وحمل منها كثيرا من دواوين الشعراء وأسس بها مدرسة لغوية خصبة، ومن أهم تلاميذه ابن مكي صاحب كتاب تنقيف اللسان، ونزلها ابن رشيق، وقاد فيها بكتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده حركة أدبية نقدية مثمرة. ونشطت بصقلية الدراسات الدينية ومن كبار قرائها في القرن الرابع محمد بن خراسان، ومن كبار مفسريها ابن ظفر، ومن كبار محدثيها عتيق السمنطاري ومن فقهاها المهمين البراذعي

ومحمد بن يونس التميمي وعبد الحق بن محمد القرشي. وظلت الحياة العلمية مطردة النمو في عهد النورمان، وكانوا يهتمون خاصة بعلوم الأوائل، ويتكاثر في عهدهم من ينمت بأنه رياضي أو فلكي أو طبيب، واستدعى روجار الثاني الجغرافي العربي الإدريسي ليصنف له كتابا في الجغرافيا، فألف له كتابين جغرافيين: كبيرا وصغيرا وضمنهما بعض الخرائط، ورسم له خريطة كبرى للعالم على كرة ضخمة من الفضة، وكان أولى الإدريسي أن يقدم هذه الأعمال الجغرافية البديعة لحاكم عربي في عصره لا لحاكم نورمانى. وتظل العلوم اللغوية والإسلامية ناشطة في العهد النورمانى، غير أن علماء أعلاما كبارا بارحوا صقلية فرارا من الظلم النورمانى مثل ابن القطاع الصقلى نزيل القاهرة وإليها حمل عن أستاذه ابن البر معجم الصحاح للجوهري، ومثل ابن الفحام أحد أئمة القراءات نزيل الإسكندرية، ومثل ابن ظفر مفسر القرآن الكريم نزيل حماة بالشام ومثل الإمام الفقيه والحافظ الكبير المازرى نزيل القيروان والمهدية.

ويزدهر الشعر بصقلية في عهد بنى أبى الحسين الكلبيين: ويسجل لما ابن القطاع مائة وسبعين شاعرا في كتابه: «الدرة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة»، غير أن الكتاب سقط من يد الزمن فلم يصلنا، ونقل عنه العماد في الحريدة تراجم لسبعة وأربعين شاعرا، وأضاف إليهم البليوني بن أبى البشر، كما أضاف إليهم اثني عشر شاعرا من كتاب ابن بشرون المهدوى: «المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر». ونظم شعراء صقلية في مختلف أغراض الشعر العربى، وعرضت ذلك مفصلا مع الترجمة في كل غرض لأهم شعرائه، وقد ترجمت في المديح لابن الحياط وفي الغزل للبليوني وفي الفخر لأبى الحسن الطوبى وفي الوصف لأبى عبد الله بن الطوبى وفي الرثاء لمحمد بن عيسى ولغيرهم في الزهد والوعظ وفي التفعج والحنين واللوعة ولابن حمديس وأشعاره الرائعة.

وتعددت عن النثر وكتابه بصقلية، ويدل تنويه كتب التراجم بما لكتابتها من مقامات ورسائل على أنها حظيت فيها بأعمال قيمة، غير أن الزمن أضاعها، واحتفظ ابن بشرون في ترجمته لشعرائها ببعض رسائلهم الشخصية وعرضتها مع التعليق عليها، وترجمت لكتابتين من كتابها البديعين هما ابن الصباغ وابن ظفر. وأضفت ملحقا عن زيارة ابن قلاهنس الإسكندري لصقلية وأشعاره هناك.

فهرس

الصفحة

| | |
|----------|---|
| ١٧ - ٥ | مقدمة |
| ١٠٥ - ١٩ | القسم الأول - ليبيا |
| ٤٤ - ٢١ | الفصل الأول: الجغرافة والتاريخ |
| ٢١ | ١ - الجغرافة |
| ٢٣ | ٢ - التاريخ القديم |
| ٢٦ | ٣ - من الفتح العربى إلى منتصف القرن الخامس الهجرى |
| ٣٢ | ٤ - من الهجرة الأعرابية إلى منتصف القرن العاشر الهجرى |
| ٣٩ | ٥ - فى العهد العثمانى |
| ٥٩ - ٤٥ | الفصل الثانى: المجتمع الليبي |
| ٤٥ | ١ - عناصر السكان |
| ٤٧ | ٢ - المعيشة |
| ٥٠ | ٣ - الدين |
| ٥٢ | ٤ - الإباحية والشيعة |
| ٥٣ | (أ) الإباحية |
| ٥٥ | (ب) الشيعة: الدعوة العبيدية |
| ٥٧ | ٥ - الزهد والتصوف |
| ٧٧ - ٦٠ | الفصل الثالث: الثقافة |
| ٦٦ - ٦٠ | ١ - الحركة العلمية |
| ٦٠ | (أ) فاتحون وناشرون للإسلام |
| ٦٢ | (ب) الكتائب |
| ٦٢ | (ج) المجاهد |
| ٦٣ | (د) الرحلة فى طلب العلم والوافدون |
| ٦٣ | (هـ) المدارس |
| ٦٤ | (و) الزوايا |
| ٦٥ | (ز) مخود فى الحركة العلمية |
| ٧٠ - ٦٦ | ٢ - علوم الأوائل - علوم اللغة والنحو والعروض |
| ٦٦ | (أ) علوم الأوائل |
| ٦٦ | (ب) علوم اللغة والنحو والعروض |

الصفحة

| | |
|---|-----------|
| ٣ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام | ٧٠ |
| ٤ - التاريخ | ٧٧ |
| الفصل الرابع: الشعر والنثر | ٧٨ - ١٠٥ |
| ١ - نعر ليبيا | ٧٨ |
| ٢ - نشاط الشعر والشعراء | ٨٨ - ٨٢ |
| خليل بن إسحق | ٨٥ |
| ٣ - الشعراء في عصر الدولة الحفصية | ٨٨ - ٩٧ |
| (أ) فتح بن نوح الإياضي | ٨٩ |
| (ب) ابن أبي الدنيا | ٩٢ |
| (جـ) ابن معمر | ٩٤ |
| ٤ - الشعراء في العهد العثماني | ٩٧ - ١٠٣ |
| (أ) البهلول الطرابلسي | ٩٩ |
| (ب) أحمد بن عبد الدائم | ١٠٢ |
| ٥ - النثر | ١٠٣ - ١٠٥ |
| القسم الثاني - تونس | ١٠٩ - ٣٢٧ |
| الفصل الأول: الجغرافية والتاريخ | ١٠٩ |
| ١ - الجغرافية | ١١١ |
| ٢ - التاريخ القديم | ١١٤ |
| ٣ - الفتح - بقية الولاة - الدولة الأغلبية | ١١٤ - ١٢٤ |
| (أ) الفتح | ١١٤ |
| (ب) بقية الولاة | ١١٧ |
| (جـ) الدولة الأغلبية | ١٢١ |
| ٤ - الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - الهجرة الأعرابية | ١٢٤ - ١٣٠ |
| (أ) الدولة العبيدية | ١٢٤ |
| (ب) الدولة الصنهاجية | ١٢٦ |
| (جـ) الهجرة الأعرابية | ١٢٨ |
| ٥ - دولة الموحدين - الدولة الحفصية | ١٣٠ - ١٣٦ |
| (أ) دولة الموحدين | ١٣٠ |
| (ب) الدولة الحفصية | ١٣٢ |
| ٦ - العهد العثماني | ١٣٧ |
| الفصل الثاني: المجتمع التونسي | ١٤١ - ١٦٥ |
| ١ - عناصر السكان | ١٤١ |

الصفحة

| | |
|-----------|---|
| ١٤٥ | ٢ - المعيشة |
| ١٥١ | ٣ - الرفه - المظم والملبس - الأعياد - الموسيقى - المرأة |
| ١٥١ | (أ) الرفه - المظم والملبس |
| ١٥٢ | (ب) الأعياد |
| ١٥٤ | (ج) الموسيقى |
| ١٥٦ | (د) مكانة المرأة |
| ١٥٨ | ٤ - الدين |
| ١٦٢ | ٥ - الزهد والتصوف |
| ٢٠١ - ١٦٦ | الفصل الثالث: الثقافة |
| ١٧٤ - ١٦٦ | ١ - الحركة العلمية |
| ١٦٦ | (أ) فاعلون مجاهدون معلمون |
| ١٦٨ | (ب) النشأة العلمية |
| | (ج) دور العلم: الكتابيب - المساجد - جامعة عقبة والزيتونة - |
| ١٧٠ | بيت الحكمة - الزوايا - المدارس |
| ١٧٣ | (د) المكتبات |
| ١٧٥ | ٢ - علوم الأوائل |
| ١٨٠ | ٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد |
| ١٨٨ | ٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام |
| ١٩٩ | ٥ - التاريخ |
| ٢٥٠ - ٢٠٢ | الفصل الرابع: نشاط الشعر والشعراء |
| ٢٠٢ | ١ - تعرب القطر التونسي |
| ٢٠٨ | ٢ - كثرة الشعراء |
| ٢١٦ | ٣ - أغراض الشعر والشعراء |
| ٢١٧ - ٢٣٦ | شعراء المديح |
| ٢٢٥ | على بن محمد الإبادي |
| ٢٢٦ | الكاتب الرقيق إبراهيم بن القاسم القيرواني |
| ٢٢٧ | ابن رشيق |
| ٢٢٨ | التراب السوسي |
| ٢٣٠ | ابن عَرَبِيَّة |
| ٢٣١ | عبد الله التجاني |
| ٢٣٣ | على الغراب الصفاقسي |
| ٢٣٥ | محمد الوزغاني |

الصفحة

| | |
|-----------|----------------------------------|
| ٢٣٧ - ٢٤٤ | ٤ - شعراء الفخر والمجاء |
| ٢٤١ | تميم بن المزمز الصنهاجي |
| ٢٤٣ | محمد الرشيد الحسني |
| ٢٤٤ - ٢٥٠ | ٥ - شعراء الفزل |
| ٢٤٧ | علي المصري |
| ٢٤٨ | أحمد اللباني |
| ٢٤٩ | محمد ماضور |
| ٢٥١ - ٣٠١ | الفصل الخامس: طوائف من الشعراء |
| ٢٥١ - ٢٦٢ | ١ - شعراء الغربة والشكوى والعتاب |
| ٢٥٨ | ابن عبدون |
| ٢٦٠ | محمد بن أبي الحسين |
| ٢٦٢ - ٢٧٣ | - شعراء الطبيعة |
| ٢٦٩ | عبد الواحد بن فتوح الزرقاني |
| ٢٧١ | ابن أبي حديدة |
| ٢٧٢ | أبو علي بن إبراهيم |
| ٢٧٤ - ٢٨٧ | ٣ - شعراء الرثاء |
| ٢٧٤ | (أ) رثاء الأفراد |
| ٢٨٠ | (ب) رثاء المدن والدول |
| ٢٨٢ | ابن شرف القيرواني |
| ٢٨٥ | محمد بن عبد السلام |
| ٢٨٧ | ٤ - شعراء الوعظ والتصوف |
| ٢٨٧ - ٢٩١ | (أ) شعراء الوعظ |
| ٢٩٠ | أحمد الصواف |
| ٢٩١ - ٢٩٧ | (ب) شعراء التصوف |
| ٢٩٣ | محمز بن خلف |
| ٢٩٥ | أبو الفضل بن النحوي |
| ٢٩٧ - ٣٠١ | ٥ - شعراء المديح النبوية |
| ٢٩٨ | عبد الله الشقراطيسي |
| ٣٠٠ | ابن السماط المهدوي |
| ٣٠٢ - ٣٢٧ | الفصل السادس: النثر وكتابه |
| ٣٠٢ | ١ - الخطب والوصايا |
| ٣٠٥ | ٢ - الرسائل الديوانية |

الصفحة

| | |
|-----------|---|
| ٣٠٩ | ٣ - الرسائل الشخصية |
| ٣١٤ | ٤ - المقامات |
| ٣١٦ | ٥ - كبار الكتاب |
| ٣١٦ | أبو الهر الشيباني |
| ٣١٩ | إبراهيم المصري |
| ٣٢١ | ابن خلدون |
| ٤٢١ - ٣٢٩ | القسم الثالث - صقلية |
| ٣٤٨ - ٣٣١ | الفصل الأول: الجغرافية والتاريخ |
| ٣٣١ | ١ - الجغرافية |
| ٣٣٢ | ٢ - التاريخ القديم |
| ٣٣٤ | ٣ - الفتح العربي وعهد الدولة الأغلبية |
| ٣٣٤ | (أ) الفتح العربي |
| ٣٣٩ | ٤ - العهد العبيدي - عهد بني أبي الحسين الكلبيين |
| ٣٤٣ | ٥ - التاريخ النورماني - أحوال المسلمين |
| ٣٤٣ | (أ) التاريخ النورماني |
| ٣٤٦ | (ب) أحوال المسلمين |
| ٣٦٩ - ٣٤٩ | الفصل الثاني: المجتمع الصقل والتقاليد |
| ٣٤٩ | ١ - المجتمع الصقل في العهد العربي |
| ٣٥٤ | ٢ - المجتمع الصقل في العهد النورماني |
| ٣٥٨ | ٣ - الثقافة في العهد العربي |
| ٣٦٥ | ٤ - الثقافة في العهد النورماني |
| ٣٨٩ - ٣٧٠ | الفصل الثالث: نشاط الشعر والشعراء |
| ٣٧٠ | ١ - نشاط الشعر |
| ٣٧٢ | ٢ - شعراء المديح |
| ٣٧٨ | ٣ - شعراء الفزل |
| ٣٨٣ | ٤ - شعراء الفخر |
| ٣٨٤ | أبو الحسن الطوسي |
| ٣٨٥ | ٥ - شعراء الوصف |
| ٣٨٧ | أبو عبد الله بن الطوسي |
| ٤٠٨ - ٣٩٠ | الفصل الرابع: طوائف من الشعراء |
| ٣٩٠ | ١ - شعراء الرثاء |
| ٣٩٢ | محمد بن عيسى |

الصفحة

| | |
|-----------|--|
| ٣٩٤ | ٢ - شعراء الزهد والوعظ |
| ٣٩٧ | ابن مكي |
| ٣٩٨ | ٣ - شعراء التفعيع والمختين واللوعة |
| ٤٠٠ | ابن حمديس |
| ٤٢١ - ٤٠٩ | الفصل الخامس: النثر وكتابه |
| ٤٠٩ | نشاط النثر |
| ٤١٢ | ابن الصبأغ الصقل |
| ٤١٦ | ابن ظفر الصقل |
| ٤١٧ | أنهاء نجباء الأبناء |
| ٤١٩ | (١) سلوان المطاع في عدوان الأتباع |
| ٤٢٨ - ٤٢٢ | (ب) ملحق: ابن قلافس الإسكندري في صقلية لمهد غليوم الثاني |
| ٤٣٧ - ٤٢٩ | خاتمة |